المشروع القومي للترجمة

المركز القومي للترجمة

أومبرتو إيكو

بندول فوكو

ترجمة

أماني فوزي حبشي

مراجعة: حسين محمود



1758

سلسلة الإبداع القصصي

بندول فوكو

رواية

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1758
- بندول فوكو
- أومبرتو إيكو
- أمانى فوزى حبشى
- حسين محمود
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة رواية:
Il Pendolo di Foucault
By: Umberto Eco

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ -٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

بندول فوكو

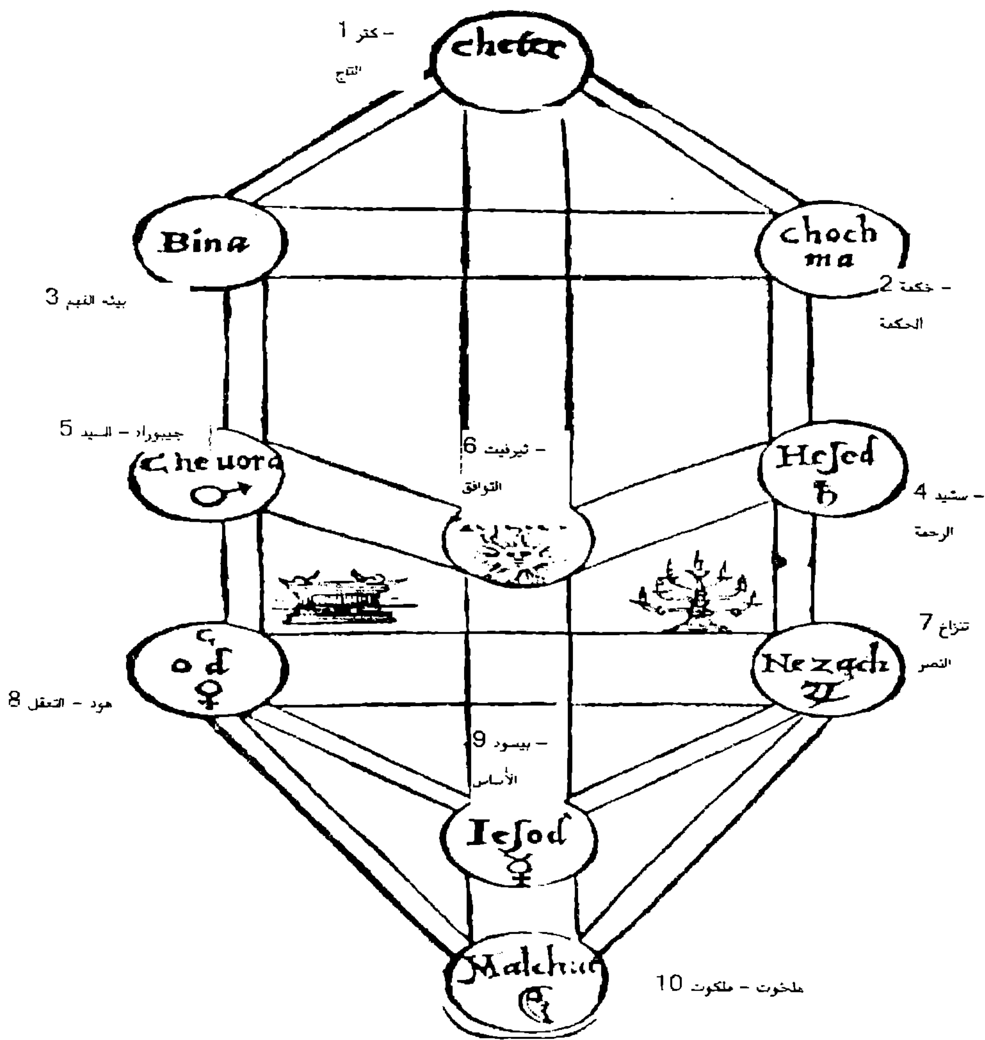
رواية

تـــأليف: أومبرتو إيـكـو
ترجمة: أمانى فوزى حبشى
مـــراجـعـة: حسين محمود



2011

ايكو، أومبرتو، ١٩٣٢ ـ ......
بندول فوكو/ تأليف: أومبرتو ايكو؛ ترجمة: أمانى فوزى حبشى؛ مراجعة: حسين محمود. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١.
٧٢٠ص ؛ ٢٤ سم. ـ (المشروع القومى للترجمة)
تدمك ٧ ٩٠٤ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص الإيطالية.
أ ـ حبشى، أمانى فوزى. (مترجم)
ب ـ محمود، حسين. (مراجع)
ج ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ١١٠٩٩/ ٢٠١١
I. S. B. N 978 - 977 - 421 -904 - 7
ديوى ٨٥٣



شجرة الحياة طبقا للقابالاه

ـ لأجلكم فقط يا أبناء الفقه والمعرفة كتبنا هذا العمل. فتشوا الكتاب، واجتمعوا على هذا الهدف الذي فرقناه وجمعناه في أكثر من موضع؛ فذلك الذي أخفيناه في مكان، أظهرناه في آخر، عسى أن تدركه حكمتكم.

(هنريش كورنيليوس الشهير بأجريبا فون نتشايم، الحكمة الخفية، ٣، ٦٥ Heinrich Cornelius, Agrippa von Nettesheim, De occulta philosophia, 3,65)

ـ إن الخرافات تجلب سوء الحظ.

(رايموند سموليان، عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد، ٣.٨, ١- Raymond Smullyan, 5000 B. C., 1,3,8)

(١)

كيتر ـ التاج

(١)

ב) והנה בהיות אור הא״ס נמשך, בבחינת (ה) קו ישר תוך החלל הנ״ל, לא נמשך ונתפשט (ו) תיכף עד למטה, אמנם היה מתפשט לאט לאט, רצוני לומר, כי בתחילה הת־חיל קו האור להתפשט, ושם תיכף (ז) בתחילת התפשטותו בסוד קו, נתפשט ונמשך ונעשה, כעין (ח) גלגל אחד עגול מסביב.

حينما يتواصل النور الأساسى ويستمر فى الاتجاه (هـ) كان خطا مباشرا يمتد داخل فراغ الجيل (و) ويتتابع ويتكرر حدوثه إلى أسفل، فقد كان فى الواقع ينتشر قليلا قليلا. أريد أن أقول: إنه فى أول الأمر بدأ خط النور فى الانتشار، ثم ظهر هناك (ز) كأنه ينتشر فى البداية فى خط غامض أخذ يستمر فى الامتداد لكى يتحول إلى عين (ح)[(١)].

حدث عندئذ أن رأيت البندول.

كانت الكرة المتحركة في طرف خيط طويل، مثبت في سقف منطقة الجوقة، ترسم تأرجحها الواسع بجلال متساوي الزمن.

كنت أعرف ـ ولكن أي شخص كان يمكنه أن يلاحظ هذا تحت تأثير سحر هذه الحركة التي تشبه التنفس الهادئ ـ أن الزمن تنظمه العلاقة بين الجذر التربيعي والقيمة ط، وهي قيمة عشوائية بالنسبة لعقولنا الأرضية، تربط لسبب إلهي المحيط بالقطر في الدوائر الممكنة جميعها، بحيث يصبح زمن انتقال الكرة من قطب إلى آخر ليس إلا نتيجة لمؤامرة غامضة بين أكثر المقاييس التي ليس لها علاقة بالزمن، ووحدة نقطة التعليق، وثنائية بعد مجرد، والطبيعة الثلاثية للقيمة ط والسر التربيعي للجذر، واكتمال الدائرة.

كنت أعلم أيضًا أنه على الخط العمودي الساقط من نقطة التعليق على القاعدة كانت هناك أداة مغناطيسية تضمن ثبات الحركة بإرسال موجاتها إلى أسطوانية معدنية مخبأة في قلب الكرة، وهي حيلة تستهدف صد القوى المقاومة للمادة، ولكنها لا تتعارض مع قانون البندول، بل تسمح له بالظهور، لأنه يمكن لأي نقطة مادية ثقيلة معلقة بطرف خيط غير قابل للامتداد وليس له وزن ولا يتعرض لمقاومة الهواء، ولا يحتك بنقطة ارتكازه، أن تتأرجح بطريقة منتظمة إلى الأبد.

---

(١) استعنت هنا بمعرفة الدكتور عبدالحميد عبدالرحمن أستاذ اللغة العبرية لتفسير الفقرة الواردة في اللوحة الموجودة أعلى هذه الفقرة.

كانت الكرة النحاسية تصدر انعكاسات شاحبة متباينة، بعد أن ضربتها الأشعة الأخيرة للشمس، والتي كانت تتخلل النوافذ الزجاجية. ولو كانت تلامس بطرفها المدبب، كما كانت تفعل من قبل، طبقة ندية من الرمال ممتدة فوق أرضية منطقة الجوقة لرسمت مع كل اهتزازة خطا خفيفًا على الأرض. هذا الخط، عندما يغير اتجاهه بطريقة متناهية الصغر في كل ثانية ـ كان سيتسع دائمًا في شكل شرخ، أو أخدود، ويقود إلى تخيل أشكالا متماثلة كهيكل دائرة مؤطرة أو بنية خفية لشكل نجمي خماسي، أو نجمة، أو وردة سرية[٢] . لا، بل كان تتابعا مُسجلاً على امتداد صحراوي لوقع أقدام خلفتها قوافل دموية لا نهاية لها. إنه تاريخ هجرات بطيئة قديمة، ربما كانت هذه الطريقة التي تحرك بها سكان أطلنطس من قارة مو، في شرود متسلط عنيد، من تسمانيا إلى جروينلاند، ومن مدار الجدي إلى مدار السرطان، ومن جزيرة الأمير إدوارد إلى السفالبارد.

يكرر الطرف المدبب، ويحكي من جديد في زمن مكثف جدًا، ذلك الذي فعلوه بين الجليدين، وربما كان لا يزال رسل السادة يفعلونه. ربما كان الطرف المدبب في مساره بين ساموا وزمليا يلامس أجارتا[٣]، مركز العالم، عندما يصل إلى وضع الاتزان. وتوقعت بحدسي أن يكون هناك خط واحد يجمع بين جزيرة أفالون ورياح القطب الشمالي بصحراء الجنوب حيث يكمن لغز صخرة آيرز[٤] .

في تلك اللحظة، في الرابعة بعد ظهر الثالث والعشرين من يونيو، كان البندول يخفف من سرعته في نهاية مسار تأرجحه، ليسقط خاملا نحو المركز، ويكتسب سرعته في منتصف مساره، ليصوب سيفه بثقة في قلب السر التربيعي الذي يحدد مصيره.

لو كنت مكثت وقتًا أطول، مقاومًا مرور الساعات بالتحديق في رأس العصفور هذا، في قمة عقرب الساعة تلك، في الريشة المقلوبة بينما ترسم في الفراغ الانحرافات الخاصة بها لامسة بذلك النقاط المضادة لمحيطها غير المنتظم، لسقطت ضحية وهم خدَّاع؛ إذ أن البندول كان سيحملني على الاعتقاد أن مسار التأرجح قد أنجز دورة كاملة

(٢) السيدة العذراء يطلق عليها أيضًا اسم الوردة السرية (rosa mistica) .

(٣) أجارتا هي مملكة خرافية يقال إنها تقع في قلب الأرض ومركزها.

(٤) صخرة (أيرز) العجيبة توجد في أستراليا وتقع في أواسطها بالقرب من جبل أولغا وهي من عجائب الطبيعة نظرًا لأنها تغير لونها بين ساعة وأخرى أثناء النهار فقد تراها ذهبية اللون ثم لا تلبث أن تراها برتقالية حمراء ويذكر أن بالإمكان رؤية هذه الصخرة من على بعد ١٠٠ كيلو متر.

عائدًا إلى نقطة الانطلاق في اثنتين وثلاثين ساعة، واصفًا قطعًا ناقصًا بعد تسطيحه، هذا القطع الناقص يدور حول مركزه بسرعة لها زوايا متجانسة، متناسبة مع قلب خط العرض. كيف كان بوسعه أن يدور لو أن طرفه كان مثبتًا في قمة قبة معبد سليمان؟ ربما كان الفرسان قد حاولوا هناك أيضًا. وربما لم يكن الحساب، أي المعنى النهائي، ليتغير. وربما كانت كنيسة القديس مارتان دي شوم هي المعبد الحقيقي. على أي حال لا يمكن لتلك التجربة أن تكون مكتملة إلا في القطب، المكان الوحيد الذي يمكن فيه للبندول، وهو على امتداد محور دوران الأرض، أن يكمل دورته الظاهرة في أربع وعشرين ساعة.

ولكن لم يكن هذا انحرافا عن القانون، بل إن القانون كان ينص عليه، ولم يكن لانتهاك قاعدة ذهبية أن يجعل المعجزة أقل إثارة للإعجاب. كنت أعرف أن الأرض تدور، وأنا معها، ومعي كنيسة سان مارتان دي شوم وباريس كلها، وكنا جميعًا ندور أسفل البندول، والذي في الواقع لم يكن يغير مطلقًا اتجاه مستواه، لأنه من هناك، من حيث كان معلقًا، وامتداد التعليق اللانهائي المثالي للخيط، عاليًا تجاه أبعد المجرات، كانت تقع النقطة الوحيدة الثابتة على الدوام، نقطة النهاية.

كانت الأرض تدور، ولكن الموضع المعلق فيه الخيط كان النقطة الوحيدة الثابتة للكون.

إذن لم تكن نظرتي تتجه إلى الأرض بقدر ما تتجه إلى أعلى، حيث كان الاحتفال بسر السكون المطلق. كان البندول يقول لي إنه مع أن كل شيء يتحرك، الكون والنظام الشمسي، السديم والثقوب السوداء، وكل أبناء الانبثاق الكوني العظيم بدءًا من الأيونات الأولى حتى أكثر المواد لزوجة، تظل هناك نقطة واحدة ثابتة، محور ومعلاق، رباط مثالي، تاركة الكون كله يتحرك حولها.

وأنا كنت أشارك في هذه الخبرة العليا، أنا ورغم أنني كنت أتحرك مع أي شيء ومع كل شيء، لكنني كنت أستطيع أن أرى الـ "ذلك"، غير المتحرك، الصخرة، الضمان، السحابة السنية التي ليست جسدا، ليس له صورة أو قالب أو وزن أو كم أو كيف، ولا يرى، ولا يسمع، ولا يخضع للمادة، ولا يكون في مكان، ولا في زمان، ولا في فضاء، وليس روحا، ولا عقلا، ولا خيالا، ولا رأيا، ولا رقما، ولا نظاما، ولا قياسا، ولا عنصرا، ولا خلودا، وليس ظلاما ولا نورا، وليس خطأ ولا صوابا.

هزني حوار، محدد وفاتر، بين فتى يرتدي نظارة وفتاة لم تكن ترتديها بكل أسف.

كان هو يقول: "إنه بندول فوكو، كانت التجربة الأولى في مخزن عام ١٨٥١، ثم في المرصد، وبعد ذلك أسفل قبة البانثيون وذلك بخيط طوله سبعة وسبعون مترًا وجسم كروي وزنه ثمانية وعشرون كيلوجرامًا. منذ عام ١٨٥٥، وضعوا تلك النسخة المُصغرة هنا، معلقة من هذا الثقب في منتصف الدعامة."

- "وما فائدته، مجرد التأرجح؟"

- "إنه يثبت دوران الأرض. نظرًا لأن نقطة التعلق ثابتة."

- "ولماذا هي ثابتة؟"

- "لأن النقطة، ركزي معي جيدًا، النقطة المركزية، أي نقطة مركزية يكون موقعها تمامًا في وسط النقط التي ترينها، تلك النقطة - النقطة الهندسية - لا يمكن أن تُرى بالعين المجردة، فليس لها أبعاد، وما ليس له أبعاد لا يستطيع الحركة يمينًا أو يسارًا، ولا إلى أسفل أو إلى أعلى. لذلك لا يدور. هل فهمت؟ إذا كانت النقطة بلا أبعاد فهي لا تستطيع الدوران حتى حول ذاتها. فليس لها حتى تلك "الذات"..."

- "حتى ولو كانت الأرض تدور؟"

- "الأرض تدور ولكن النقطة لا تدور. الأمر كذلك، إما أن تقبليه أو تخبطي دماغك في الجدار".

- "هو وشأنه".

يا لها من تعسة. كان يقع فوق رأسها المكان الوحيد الثابت في هذا الكون، الحل الوحيد للضرر الناشئ عن نظرية الصيرورة (Panta rei)، وهي تعتقد أنه شأنه هو وحده، ولا شأن لها به. وفي الواقع ابتعدا بعد ذلك على الفور - هو بانشغاله ببعض الأدلة التي منعته عن رؤية العجائب، وهي خاملة، ولا تستطيع الشعور برعشة الأبدية، رحلا كلاهما دون أن يُسجلا في ذاكرتهما الخاصة الخبرة الرهيبة للقائهما هذا - الأول والأخير - مع "الواحد"، "الذي لا بداية له ولا نهاية" و"الذي لا يوصف". كيف يمكن للمرء ألا يجثو على ركبتيه أمام هيكل اليقين؟!.

كنت أنظر بورع وخوف. في تلك اللحظة كنت واثقًا أن جاكوبو بيلبو على حق، فعندما كان يتحدث معي عن البندول كنت أنسب انفعالاته لهوسه بالجمال، إلى ذلك

السرطان الذي كان يتشكل ببطء، وبعشوائية داخل نفسه محولاً لعبته بالتدريج - ودون أن يدرك هو ذلك - إلى حقيقة. ولكن إذا كان على حق بشأن البندول، فربما كان على حق أيضًا بشأن الأشياء الأخرى؛ "الخطة"، و"المؤامرة" الكونية وكان صحيحا أيضًا أنني ربما أتيت إلى هنا عشية انقلاب الشمس الصيفي. إن جاكوبو بيلبو لم يكن مجنونًا، إنما اكتشف الحقيقة وهو يلعب، ومن خلال "اللعبة" نفسها.

ولكن ليس بإمكان الخبرة "الإلهية" أن تستمر طويلاً دون أن تجعل العقل يضطرب.

حاولت أن أشرد ببصري بمتابعة الخط المنحني الذي يتوجه من تيجان الأعمدة المرتبة في نصف دائرة إلى أضلاع القبة تجاه حجر العقد، مكررا لغز القوس القوطي، الذي يقف على فراغ، على زيف علوي ساكن، لكي يوهم الأعمدة بأنها ترفع فوقها الضلوع الكبيرة، ويوهم الضلوع الكبيرة بتثبيت الأعمدة على الأرض مدفوعة من حجر القاعدة، والقبة على العكس، لكونها كلا وعدما، نتيجة وعلة في الوقت نفسه. ولكنني أدركت أنني بإهمالي البندول، المعلق من القبة، والتأمل في القبة، كنت كأنني امتنعت عن الشرب من النبع لكي أستمتع بالمنبع.

إن موقع الجوقة في كنيسة سان مارتان دي شوم كان موجودًا فقط، لأنه كان يمكنه الوجود، وذلك بفضل "القانون"، الذي هو البندول، وكان هذا يوجد لوجود ذلك. وقلت لنفسي إنه لا يمكن لأحد الهرب من اللا محدود وذلك باللجوء للا محدود آخر، ولا يمكن الهروب إلى تجلي المطابق متوهمين القدرة على الالتقاء بالمختلف.

وأخذت أتراجع خطوة خطوة دون أن أزيح بصري عن القبة، لأنني في دقائق قليلة منذ أن دخلت كنت قد حفظت الطريق كله عن ظهر قلب، وكانت السلاحف المعدنية الضخمة المتراصة على الجانبين كافية لتترك علامة وجودها في طرف العين. تراجعت طيلة الرواق، تجاه باب الدخول، وداهمتني مرة أخرى تلك الطيور المخيفة التي تعود لحقبة ما قبل التاريخ المصنوعة من نسيج متآكل وأسلاك معدنية، وتلك التنانين الطائرة اللعينة، والتي قامت إرادة سرية بتعليقها وتركها لتتدلى من سقف صحن المتحف. كنت أراها كاستعارات حكيمة، مليئة بالمعاني والإيحاءات أكثر بكثير من مجرد غرضها التعليمي المفترض. كانت الحشرات وزواحف العصور الجوراسية، وهي رمز للهجرات الطويلة التي كان البندول يلخصها على الأرض، والفراشات والانبعاثات الضارة، تهبط

فوقي بمناقيرها البدائية الأشبه بطائرات بريجيه وبليريو واسنو[٥] وطائرة ديفو المروحية.

هكذا دخلت إلى كونسرفتوار الفنون والحرف في باريس، بعد اجتياز فناء على طراز القرن الثامن عشر، واضعا قدما في الكنسية الديرية القديمة التي وضعت في المجمع في وقت قريب، حيث كانت في البداية وسط الدير الأصلي. بمجرد الدخول يجد المرء نفسه مصعوقًا بتلك المؤامرة التي تجمع العالم العلوي للأضلاع السماوية والعالم السفلي لملتهمي الزيوت المعدنية.

يمتد صف من المركبات؛ سيارات، دراجات وعربات بخارية على الأرض، ومن أعلى تظهر طائرات الرواد. توجد بعض الأدوات كاملة، على الرغم من أنها مُقشرة وأفسدها الدهر. جميعها تظهر. في الضوء الغامض الناتج عن خلط الضوء الطبيعي بالصناعي. وكأنها مغطاة بالصدأ، أو مغطاة بورنيش كمنجة قديم؛ وأحيانًا تتبقى هياكل، "شاسيهات"، مفاصل القضبان "والكرنك" والتي تهدد بعذابات لا تُحكي، مقيدًا كما ترى نفسك بالفعل في أسرة التعذيب تلك حيث يمكن لشيء ما أن يتحرك ويُنغز في لحمك حتى تعترف.

وراء هذه السلسلة من المركبات القديمة – المتحركة قديمًا، الثابتة حاليًا، ذات الروح الصدئة والنوع الخاص من الكبرياء التكنولوجي الحريص على أن تُعرض للزوار المحترمين ـ تفتح قاعة الجوقة، يحرسها من الشمال تمثال الحرية ـ النموذج المصغر ـ لذلك الذي خططه بارتولدي لعالم آخر، ومن اليمين تمثال باسكال. ويُفتتح الجوقة عالم حشرات مريض يتوج اهتزازات البندول بفكوك، وقرون استشعار وديدان، وأجنحة ومخالب، مقبرة من الجثث الآلية، والتي يمكن أن تعود كلها لتعمل في وقت واحد. مغناطيسات ومحولات أحادية، توربينات ومجموعات لتحويل الطاقة، آلات بخارية ودينامو. وفي الخلف يوجد بجانب البندول في القاعة الآلهة الآشوريون، والكلدانيون والقرطاجيون والآلهة العظيمة، والتي كانت بطونها متوهجة بالنار، وعذارى نورينبرج بقلبها العاري المجروح بالمسامير: تلك كانت في وقت ما محركات الطائرات، والتي تشكل تاجا يعجز اللسان عن وصفه من التماثيل التي تقبع في إجلال أمام البندول، وكأن أبناء العقل والضوء حُكم عليهم بأن يحرسوا إلى الأبد الرمز نفسه للتراث والمعرفة.

---

(٥) أنواع من الطائرات .

هل يمكن إذن للسياح المتضجرين ـ والذين يدفعون الفرنكات التسعة في الخزانة ويدخلون مجانًا أيام الآحاد ـ أن يعتقدوا بأن سادة القرن التاسع عشر المسنين ذوي الذقون الصفراء بفعل النيكوتين، والياقات المجعدة المشحمة، ورباط العنق الأسود والبذل الرسمية التي تفوح منها رائحة التبغ، والأصابع سوداء اللون بفعل الأحماض، والعقول اللاذعة بالأحقاد العلمية، تلك الأشباح النمطية لكوميديا ساخرة، والذي كان ينادي كل منهم صاحبه "بأستاذي العزيز"، قد وضعوا تلك الأدوات أسفل تلك الوجوه لرغبة توضيحية قيمة، وذلك لإرضاء المساهم البرجوازي والأصولي، أو ربما للاحتفال بالأقدار الرائعة والتقدمية؟!.

لا، هذا غير ممكن، فسان مارتان دي شوم كان قد تم التخطيط له أولاً كمقر لأحد الأديرة ثم كمتحف ثوري، لمقتطفات من معرفة شديدة الغموض. تلك الطائرات إذن، وتلك الآلات ذاتية المحركات، تلك الهياكل الإلكترومغناطيسية كانت موجودة هناك لتبادل حوار غاب عني سره حتى الآن.

هل كان بوسعي أن أصدق، كما يقول لي الكتالوج كذبا، أن هذه الصفقة الناجحة خطط لها السادة أصحاب الاتفاقية لكي يوفروا للجمهور معبدا مقدسًا يجمع الفنون والحرف كلها، بينما كان واضحا للغاية أن المشروع يستخدم الكلمات نفسها التي وصف بها فرانسيس بيكون منزل سليمان في روايته "أطلنطيس الجديدة"؟.

هل أكون أنا وحدي ـ أنا وجاكوبو بيلبو وديوتاليفي ـ الذين استطاعوا أن يخمنوا الحقيقة؟! ربما استطعت أن أعرف الإجابة تلك الليلة. ولكن الأمر كان يتطلب أن أنجح في البقاء في المتحف بعد وقت الإغلاق، منتظرًا منتصف الليل. ولكن كيف سيدخلون؟ هذا ما لم أكن أعلمه ـ كنت أشك أنه بطوال شبكة مجاري باريس توجد ممرات تربط بين بعض نقاط المتحف بنقاط أخرى في المدينة، ربما بالقرب من ميناء سان دوني ـ ولكنني كنت متأكدًا من أنني إذا خرجت لن يمكنني الدخول مرة أخرى.

إذن يجب على أن أختبئ وأن أمكث بالداخل.

حاولت أن أهرب من سحر المكان وأن أنظر إلى صحن الكنيسة بعيون باردة، فلم أكن أبحث عن تجليات ما، ولكنني كنت أبحث عن معلومة. كنت أتخيل أنه في القاعات الأخري للمعرض سيكون من الصعب أن أجد مكانًا أهرب فيه من مراقبة الحراس،

فمهنتهم هي أن يتجولوا في القاعات بمجرد أن يغلق المتحف أبوابه، وأن يحترسوا حتى لا يقوم لص بسرقة إحدى القطع، ولكن هنا في صحن الكنيسة هذا المليء بالسيارات، أي مكان سيكون أفضل لأمكث بداخله كأحد المسافرين؟ فلأختبئ - حيًا - داخل سيارة ميتة، لقد اشتركت في ألعاب كثيرة جدًا، فلماذا لا أجرب هذه اللعبة أيضًا.

قلت لنفسي: هيا تشجع، ولا تفكر الآن في المعرفة، بل اطلب العون من العلم.

(٢)

لدينا ساعات متنوعة وغريبة، وأخرى تقوم بحركات تبادلية... ولدينا أيضًا منازل لخداع الحواس، حيث ننفذ بنجاح أي نوع من التلاعب، والرؤى المزيفة، والدجل والأوهام... تلك هي ثروات بيت سليمان يا بني.

(Francis Bacon, New Atlantis, ed .Rawley, London, 1627, pp.41-42)

كنت قد استعدت تحكمي في أعصابي وفي تخيلاتي. كان يجب أن ألعب بسخرية كما لعبت حتى أيام قليلة مضت، دون أن أورط نفسي. كنت في متحف وكان يجب أن أكون داهية ولماحا بدرجة كبيرة.

نظرت بثقة للطائرات المعلقة فوقي؛ كان بإمكاني أن أقفز داخل كابينة الطائرة وأنتظر بداخلها الليل كله، وكأنني أطير فوق المحيط متذوقًا بخيالي وسام الشرف الفرنسي.

كانت أسماء السيارات الموضوعة على الأرض تجعلني أشعر بالحنين: هيزبو ـ سويزا، ١٩٣٢ ، جميلة ومضيافة، ولكن علي أن أتركها، لأنها قريبة جدًا من الخزانة، ولكن كان بإمكاني خداع الموظف إذا كنت تظاهرت بدور النيويوركي متنازلاً عن مكاني لسيدة ترتدي طقمًا كريمي اللون، ووشاحًا طويلاً يلتف حول عنقها النحيل، وعلى شعرها المحلوق كالذكر وضعت قبعة ضيقة.

كانت السيارة ستروين موديل عام ١٩٣١ معروضة فقط من خلال مقطع عرضي، كانت موديلاً مدرسيًا جيدًا، ولكنها كانت مخبئًا هزليا. ويجب الابتعاد أيضًا عن السيارة البخارية لكونيو، كانت متسعة جدًا، ولكنها كانت حارة جدًا كالفرن.

كان يجب النظر للناحية اليمنى، حيث كانت العربات ذات العجلات الضخمة المزخرفة موضوعة بطول الحائط، عربات الدريزيان ذات المقابض المسطحة، والتي تعيد إلى الأذهان صورة النبلاء مرتدين قبعاتهم الحريرية العالية، فرسان التقدم وهم يتجولون بالدراجات في غابة بولوني.

أمام الدراجات الثلاثية كانت هناك عربات في حالة جيدة، فسيحة من الداخل. ربما تكون البانهارد ديناڤيا موديل ٤٥ غير مناسبة، فهي شفافة جداً وضيقة في شكلها الانسيابي الايروديناميكي، ولكن من المؤكد أنه يمكن وضع سيارة بيجو موديل ١٩٠٩ المرتفعة في الاعتبار، فهي كالعلبة، بل تشبه المخدع. فبمجرد الدخول والاستلقاء فوق أرائكها الجلدية لن يشك مخلوق في أمري. ولكن من الصعب صعودها، فهناك أحد الحراس يجلس أمامها على أريكة خشبية، معطيًا ظهره للعجلات. وتخيلت نفسي وأنا أطأ بقدمي عتبة السيارة، متدثرًا في معطف ذي ياقة من الفراء، بينما يفتح لي هو - بكل احترام - باب السيارة وهو يرتدي حذاءه الجلدي الطويل وقبعته في يده. وركزت بنظري لوهلة على السيارة طراز أوبيسونت ١٨٧٣، أول سيارة فرنسية بسرعات آلية، والتي تتسع لاثني عشر شخصاً.

فإذا اعتبرنا بيجو شقة فإن هذه السيارة تُعد قصرًا، ولكن لا يمكن الوصول إليها أيضًا دون لفت الأنظار. كم من الصعب الاختباء عندما تكون كل المخابئ هي لوحات في معرض.

عبرت القاعة مرة أخرى؛ كان تمثال الحرية "فلنضئ العالم" يقف فوق قاعدة خشبية ارتفاعها حوالي مترين، على شكل مقدمة سفينة ذات فك مدبب، وكان يظهر بالداخل شيء يشبه كشك الحراسة عبر باب السفينة يطل على منظر طبيعي لميناء نيويورك. وهو مكان جيد للمراقبة عند حلول ساعة منتصف الليل، لأنه يمكن من خلاله، في الظل، مراقبة منطقة الجوقة من اليسار وصحن الكنيسة من اليمين، والظهر مغطى بتمثال حجري كبير لتمثال جرهام الذي ينظر تجاه ممرات أخرى، والموضوع فيما يشبه جناح كنيسة. ولكن في الضوء كان يمكن رؤية إذا كان أحد في الكشك بطريقة واضحة جدًا، وأي حارس لابد وأن يلقي نظرة بالداخل ليريح ضميره بمجرد أن ينصرف الزوار.

لم يكن لدي متسع من الوقت، فالمتحف سيغلق أبوابه في الخامسة والنصف. سارعت بإلقاء النظر مرة أخرى على القاعة. لم يكن أي محرك موجود بالداخل يصلح كمخبأ. ولا حتى في اليمين، إذ أن الأجهزة الضخمة للسفن وبعض حطام اللوزيتانيا التي تم انتشالها من المياه ولا حتى المحرك الذي يعمل بالغاز للينوار، بعجلاته المسننة المختلفة، لا تصلح كمخبأ.

الآن ونظرًا لأن الضوء يخبو ويتخلل الزجاج الرمادي بطريقة في صورة مائية، انتابني الخوف من جديد من أن أختبئ بين تلك الحيوانات، وأن أجدها مرة أخرى أمامي في الظلام، على ضوء مصباحي الإلكتروني، وهي تحيا من جديد في الظلمات، فزعت وأنا أستمع لأنفاسها الثقيلة المفزعة، تلك العظام والأحشاء العارية، تتخبط وتملأ المكان بروائح كريهة بلعابها الزيتي. كيف يمكنني أن أصمد وسط تلك السلسلة من أعضاء تناسلية ديزل وفروج توربينية، والحلوق غير العضوية التي يومًا ما تصاعدت منها النيران والبخار وأطلقت صفيرها، وربما فعلت الشيء نفسه في هذه الليلة؟ أو ربما بدأت في الطنين مثل ذكور النحل أو تساقطت كالصراصير بين تلك المتجسدات الهيكلية، ذات الوظيفة العبثية الصرفة، تلك المخلوقات الآلية القادرة على أن تسحق وتنشر، على أن تتحرك وتحطم، تمسك وتفتت، تتسارع وتكبس، تزفر بالاحتراق الداخلي، وتشهق بالأسطوانات، وتتفكك أواصلها مثل عرائس الماريونيت المنحوسة، تدير الطنابير، تحول الترددات، وتغير أنواع الطاقة، يدحرج العجلات الحرة _ كيف عساي أنجو؟ كانت ستنقض على ، يحرضها سادة العالم الذين أرادوها دليلا على خطأ الخلق، أدوات لا نفع لها، معبودة للكون السفلي، كيف كان لي أن أقاوم دون أن أهتز؟

كان على أن أبتعد، كان على أن أبتعد عن هنا، هذا ضرب من الجنون، أكاد أسقط في براثن اللعبة، التي أفقدت كلاً من بيلبو وأنا صوابنا، أنا رجل التشكك...

لا أعرف إن كنت قد فعلت الصواب بمكوثي الليلة الماضية. وإلا كان حالي اليوم هو أنني أعرف بداية القصة وليس نهايتها. أو لم أكن لأحضر إلى هنا، منعزلاً فوق تلك الهضبة، بينما الكلاب تنبح هناك بعيدًا في الوادي، أسأل نفسي إذا كانت بالفعل هذه هي النهاية، أم أن النهاية لم تُكتب بعد.

قررت أن أستمر. خرجت من الكنيسة وانحنيت نحو اليسار بجوار تمثال جراهام ودخلت في أحد الأنفاق. كنت في قسم السكة الحديدية، وكانت النماذج الصغيرة متعددة الألوان لعربات السكك الحديدية تبدو لي وكأنها ألعاب تبعث الطمأنينة إلى نفسي، أجزاء من بينجودي أو من مادورودام أو إيطاليا المنمنمة...

الآن بدأت أعتاد على ذلك التبادل بين القلق والثقة، بين الرعب والطمأنينة (أليست هذه بداية مرض ما؟)، وقلت لنفسي إن التهيؤات التي حدثت في الكنيسة قد سببت لي اضطرابا، لأنني كنت قد جئت إلى هنا مدفوعا بإغراء من صفحات بيلبو التي فسرتها متوسلا ببعض الحيل الغامضة، رغم علمي أنها ترهات. كنت في متحف للتقنية وقلت

لنفسي: أنت في متحف للتقنية، وهي شيء أمين، ربما ضيق الأفق بعض الشيء، ولكنها تمثل أشياء ميتة غير مؤذية، أنت أدرى بالمتاحف، لم تلتهم الجيوكوندا أحدا من قبل - ذلك الوحش المخنث، فهي ميدوزا لخبراء الجمال فقط - ، وبالتالي لن تبتلعك بالطبع آلة وات، التي يمكن أن تفزع فقط الأرستقراطيين والقوطيين الجدد، إنه من التوافق المثير للشفقة بين طبيعتها كأداة وبين الأناقة الكورنثية، بين المنفيللا وتاج العامود، بين المرجل والعامود، بين العجلة والسقف الهرمي. كان جاكوبو بيلبو، على الرغم من كونه بعيداً، يحاول استدراجي إلى ذلك فخ الهلوسة الذي فقده. كنت أقول لنفسي يجب أن أتصرف كأحد العلماء. هل احترق عالم البراكين مثل إيمبيدوكليس؟ هل هرب فريز خوفاً من غابة نيمي؟ لنذهب، أنت سام سباد، موافق؟ يجب فقط أن تكتشف الطريق الوعر، هذا هو عملك! المرأة التي أخذتك قبل النهاية يجب أن تموت ويستحسن أن تقتلها بنفسك. سلام يا إميلي، كان وقتًا رائعًا، ولكنك كنت مجرد آلة بلا قلب.

ولكن كان معرض وسائل النقل يقع تماماً على يمين ساحة اللافوازييه في مواجهة السلم الضخم المؤدي إلى قاعات الأدوار العليا.

لم تكن لعبة الصناديق على الجانبين، وهذا النوع من المحراب الخيميائي[٦] في الوسط، وتلك تلك، والهياكل الخيميائية في الوسط، وتلك المناسك الأقرب إلى شعوذة متحضرة من القرن الثامن عشر، لم تكن مرتبة ترتيبا عشوائيًا، بل هي بالتأكيد حيلة رمزية.

أولاً ذلك الإسراف في المرايا. إذا كانت هناك مرآة، فمن البديهي والإنساني أن تشعر بالرغبة في رؤية نفسك فيها، ولكن هناك لا ترى نفسك. تبحث عن نفسك، تبحث عن وضعك في الفضاء الذي فيه تقول لك المرآة "أنت هناك، وها أنت"، وتعاني كثيرا وتشعر بالتعب لأن مرايا لافوازييه، المقعرة والمحدبة تخدعك، وتحبطك؛ فبعودتك إلى الوراء تجد نفسك، ثم تتحرك، فتفقد نفسك من جديد.

إن ذلك المسرح البصري وضع خصيصاً لينزع عنك كل هوية ويشعرك بعدم الثقة من موقعك. وكأنه يقول لك: أنت لست البندول، ولا حتى مكان البندول. لا تشعر بعدم الثقة فقط في نفسك، ولكن في الأدوات الموضوعة بينك وبين مرآة أخرى. بالتأكيد يمكن للفيزياء أن تقول لك ما هذا ولماذا يحدث؛ ضع مرآة مقعرة لتجمع الإشاعات الصادرة

---

(٦) يتعلق بالكيمياء القديمة .

من الشيء. وفي هذه الحالة المقصود بالشيء أمبيق[٧] فوق بوتقة من النحاس. وستعيد المرآة إرسال الأشعة الصادرة بحيث لا ترى الشيء، موضوعًا بوضوح داخل المرآة، ولكن تستطيع تخمينه بطريقة وهمية، متلاشية، معلقة في الجو ومقلوبة، خارج المرآة. وطبيعي يكفي أن تتحرك قليلاً فيختفي هذا التأثير.

ثم فجأة رأيت نفسي، مقلوبًا في مرآة أخرى. شيء لا يحتمل الدفاع عنه.

ماذا كان يريد لافوازييه أن يقول، وماذا أراد مصممو الكونسرفتوار أن يقترحوا؟ إنه منذ القرون الوسطى، منذ الحسن بن الهيثم ونحن نعرف سحر المرايا. هل كان الأمر يستحق عمل الموسوعة، وقرن التنوير، والثورة لتأكيد أنه يكفي طي سطح مرآة ما للسقوط في الوهم؟ ولكن! أليس وهمًا أيضًا تلك الصورة المنعكسة في المرآة العادية، ذلك الآخر الذي ينظر إليك بعد أن حُكم عليه بأن يبقى أسيرًا إلى الأبد لتلك النزعة العسراء، في كل صباح وأنت تحلق؟ هل كان هذا فقط يستحق أن يُقال لك، في تلك القاعة، أو إنه قيل لك ليقترح عليك أن تنظر بطريقة مختلفة إلى كل شيء، بما في ذلك الواجهات الزجاجية، والأدوات التي تتظاهر بأنها احتفالية ميلاد الفيزياء والكيمياء التنويرية؟

قناع جلدي للحماية أثناء تجارب التكلس. ولكن هل حدث هذا بالفعل؟ هل كان السيد الممسك بالشموع تحت الجرس يضع حقًا ذلك القناع الذي يشبه فأر المجاري، تلك الأداة لغزاة ما تحت الأرض، حتى لا يتسبب في التهاب عينيه؟ آه، كم أنت رقيق أيها الدكتور لافوازييه. إذا كنت تريد دراسة النظرية الحركية للغازات لماذا إذن تبني بتلك الدقة جهاز عامود الهواء، الجسم الكروي ذو الفوهة، والتي بمجرد تسخينها، تدور وهي تنفس أبخرة، وهي الآلة التي بناها هيرون أولا في أيام الغنوصية ليساعد التماثيل على التكلم وتنفيذ أعاجيب أخرى لكهنة الفراعنة؟

وماذا كان ذلك الجهاز العجيب الخاص بدراسة تخمر الأنسجة الميتة عام ١٧٨١؟ إشارة جيدة لتلك الحيوانات ذات الرائحة لإله المادة؟ مجموعة من الأنابيب الزجاجية التي تصل بين وعاءين وتقود من خلال قارورة على شكل الرحم، من خلال قوارير كروية وقنوات قائمة على أوتاد متشعبة، لتنقل رائحة لأنابيب ملفوفة، والتي تقذفها إلى الفراغ... طريقة تسخين ماريا، طريقة تسخين الهيدرارجيروم، وصولاً للإكسير الغامض!

---

(٧) أداة كيميائية للتقطير.

وماذا عن الأجهزة الخاصة بتخمر النبيذ. متاهة من القباب الكريستالية التي تقود من أثانور إلى آخر ومن أمبيق إلى آخر، وتلك الأجهزة الصغيرة، والساعة الزجاجية المنمنمة، الإلكتروسكوب والعدسات. وماذا عن سكين المعمل التي تشبه الحروف المسمارية، وملعقة الصيدلي ذات المقبض، والحد الزجاجي، والعجينة صغيرة الحجم، ذات السنتيمترات الثلاثة المستخدمة في صناعة أرحام دقيقة بحجم الأقزام، لعمليات الاستنساخ شديدة الصغر. وماذا أيضًا عن صناديق الماهوجني المليئة بالجيوب البيضاء الصغيرة مثل ختم صيدلي القرية، ملفوف في وثيقة ومغطى برموز لا يمكن فهمها، بما فيها من عينات معدنية، والتي في الحقيقة ليست سوى جزيئات من الكفن المقدس لباسيليد، والرفات المحتوية على قلفة هرمس تريسماجستوس. وماذا عن تلك المطرقة الطويلة لعامل التنجيد، مطرقة لفتح يوم الحساب، أو مزاد للجواهر يعقد بين جنيو أفالون الصغار. أو ذلك الجهاز اللطيف الصغير لتحليل احتراق الزيت، وزجاج تحليل كرات الدم المنظم، وكأنه أزهار رباعية الأوراق متصل بأزهار أخرى بأنابيب ذهبية، وأزهار رباعية أخرى متصلة بأخرى، كريستال وأنابيب تصل أولاً إلى أسطوانة نحاسية ثم إلى أسطوانة ذهبية ـ زجاجية أسفلها، ثم إلى أنابيب أخرى، في أسفل، معلقات بندولية وبيضاوية، غدد ودرقات وقشور... هل هذه هي الكيمياء الحديثة؟ هل تم قطع رقبة لافوازييه لهذا السبب بالمقصلة، على الرغم من أنه لم يخترع أو يدمر أي شيء؟ هل قتلوه ليصمت عما كشفت عنه حيله، مثل نيوتن الذي نشر من علمه الكثير، ولكنه ظل يتأمل في القابالاه والعناصر النوعية؟

إن قاعة لافوازييه في الكونسرفتوار هي عبارة عن اعتراف، اعتراف بالشفرة، ورمز للمتحف كله، حيث إنها تسخر من كبرياء عصر العقل وتثرثر بأشياء غامضة أخرى. كان جاكوبو بيلبو على حق، كان العقل مخطئًا.

كان على أن أسرع، فالوقت ضيق الآن. ها هو المتر والكيلو، والمقاييس، الضمان المزيف للضمان. كنت قد تعلمت من آلييه أن كشف سر الأهرام يتم من خلال الحساب بالمقاييس القديمة وليس بالأمتار. ها هي الآن ماكينات الحساب، ذلك الانتصار المزعوم للكمي، والذي هو في الحقيقة يشير إلى غموض جودة الأرقام، عودة إلى جذور النوتاريكون العبري للقياس، والذي حمله الأحبار معهم إلى أوروبا فترة هروبهم إليها. علم النجوم، وساعات، وآلات، من الخطر التوقف بين تلك الاكتشافات الجديدة. كنت

في طريقي للتغلغل في قلب رسالة سرية على شكل مسرح عقلاني، هيا بسرعة، يمكنني اكتشاف كل شيء فيما بعد، بين ميعاد الإغلاق ومنتصف الليل، عندما تعود تلك الأدوات إلى أصلها على ضوء الغروب الخافت، إلى أشكالها الحقيقية، وليس كمجرد أدوات.

بسرعة أعبر قاعات الأدوات، والطاقة والكهرباء: لا يمكنني الاختباء في هذه الفاترينات. وكلما بدأت أكتشف أو أشعر بمعنى لهذا التتابع تملكني القلق من أنه لم يصبح لدي الوقت الكافي لأجد لنفسي مخبأ ليساعدني على الاكتشاف الليلي للمنطق السري. الآن أصبحت أتحرك كشخص مطارد، شخص تطارده الساعة ويطارده التقدم المروع للأرقام. دارت الأرض، بلا رحمة، واقتربت الساعة. بعد قليل سيلقون بي خارجًا.

بعد عبور قاعة الأدوات الكهربائية، وصلت إلى قاعة الزجاج الصغيرة. بأي منطق مغلوط رأوا أنه بعد قاعة الأجهزة الأكثر تطورًا وتكلفة يمكنهم أن يخصصوا منطقة خاصة بممارسات كانت معروفة منذ أيام الفينيقيين قبل آلاف السنين؟ كانت قاعة مزدحمة، خزف صيني بجوار الأواني الأصلية للأليك، وفخار ومياوليق إيطالي، وخزف مزخرف ومورانو، وبداخل صندوق ضخم في الخلف تمثال ثلاثي الأبعاد بالحجم الطبيعي لثعبان يهاجم أسدا. والسبب الواضح لوجود هذه القطعة هو الوسيط، فالتمثال كله مصنوع من الزجاج، ولكن لابد من وجود سبب أعمق من ذلك. أين رأيت هذا المشهد من قبل؟ عندئذ تذكرت أن الديميورج، يلدابوث، الأرخون الأول، ذلك المخلوق الكريه لصوفيا، والذي كان مسئولاً عن العالم وعن عيبه الجذري، كان على شكل ثعبان وأسد وأن عينيه كانت تطق بالشرر. ربما كان الكونسرفتوار بأكمله صورة للعملية التي لأجلها، من ملء المبدأ الأساسي، البندول، ومن إشعاع الملء، من آيون لآخر، تتفتت الآلهة الثمانية وتولد المملكة الكونية، حيث يسود الشر. إذا كان هذا حقيقيًا فمعناه أن ذلك الثعبان ومعه ذلك الأسد يخبرانني بأن رحلتي الافتتاحية ـ آه من العد التنازلي ـ قد انتهت بالفعل، وأنني عن قريب سأرى العالم من جديد، ليس كما يجب أن يكون، بل على طبيعته.

رأيت، بالقرب من النافذة على اليمين، كشك حارس منظار الأفق (البيروسكوب)، دخلته فوجدت نفسي في مواجهة لوح زجاجي، وكأنني على جسر سفينة، ومن خلال اللوح الزجاجي رأيت صورًا متغيرة من فيلم مشوش، مشهد لمدينة ما. ما رأيته كان يُعرض من خلال شاشة فوق رأسي، حيث كل شيء في وضع مقلوب، وتلك الشاشة

الثانية كانت الجزء المخصص للعين، كانت مصنوعة من منظار بدائي من عبوتين موضوعتين بزاوية مزدوجة. العبوة الأولى بارزة كأنبوبة من المهجع فوقي وخلفي، تصل إلى نافذة على ارتفاع أعلى، والتي من خلالها تعمل مجموعة من العدسات ذات الزوايا المنفرجة على تجميع الضوء من الخارج.

عند حساب الطريق الذي اتبعته لأصل إلى هنا، أدركت أن المنظار يمنحني رؤية للخارج، وكأنني أنظر من نافذة في الجزء العلوي من الجزء السطحي لسان مارتان، وكأنني أنظر معلقاً فوق البندول، الرؤية الأخيرة لرجل مشنوق. اعتادت عيناي على تلك الصورة الشاحبة: أصبح بإمكاني الآن رؤية شارع فوكانسون، الذي تطل عليه قاعة الجوقة وشارع كونيته الذي يقع بامتداد صحن الكنيسة. وشارع كونيته يتفرع إلى شارعي مونتولفييه إلى اليسار وشارع توربيجو على اليمين، وبارين على الناصيتين، بار الويك إند ولا روتوند، وفي الأمام توجد واجهة مكتوب عليها كلمات استطعت قراءتها بصعوبة: Les creations Jacsam.

لم يكن هناك سبب واضح لوضع المنظار في صالة المصنوعات الزجاجية بدلاً من وضعه مع الأدوات البصرية، ولكن من المؤكد أنه للحصول على هذا المنظر في الخارج كان لابد من وضعه في هذا الموقع. ولكنني لم أفهم سبب الاختيار، لماذا يوضع هذا الكشك، ذو النزعة الإيجابية والعلمية، بجوار هذا الرمز الخاص بالأسد والثعبان؟

علي كل حال، إذا كانت لدي القوة والشجاعة للبقاء هنا لبضع دقائق أخرى، ربما استطعت الهروب من حارس المتحف.

مكثت أسفل سطح المياه لمدة بدت لي طويلة جداً. سمعت وقع أقدام آخر زوار المتحف، ثم وقع أقدام آخر دورية حراسة. كنت على وشك أن أنكمش أسفل الجسر لألقي بنظرة سريعة في الداخل، ولكنني تراجعت. إذا عثروا علي وأنا واقف يمكنني عندئذ أن أتظاهر بأنني كنت زائراً متحمساً نسى نفسه للاستمتاع بتلك الأعجوبة.

بعد ذلك بقليل أطفأوا الأنوار وغطى الظلام القاعة، ولكن بدا المهجع أقل ظلاماً، فكانت تضيئه قليلاً الشاشة التي كنت مازلت أحدق فيها، لأنها كانت تمثل وسيلة اتصالي الأخيرة بالعالم.

كان الحذر يحتم علي البقاء في وضع الوقوف، وإذا آلمتني قدماي كثيراً يمكنني أن أنحني على الأقل لمدة ساعتين. كان وقت إغلاق المتحف للزوار ليس هو الوقت نفسه

لانصراف الموظفين. بدأ الذعر يتملكني: فلنفترض أن المجموعة المسئولة عن النظافة بدأت في العمل في كل الحجرات، ولم تترك سنتيمترًا إلا ونظفته؟ ثم تذكرت أن المتحف فتح أبوابه في ساعة متأخرة في الصباح، إذن فالأرجح أن عمال النظافة يعملون في ضوء الصباح وليس في الليل. من المؤكد أن الأمر كذلك، على الأقل في الصالات العليا، لأنني لا أسمع خطوات مرور أي شخص، فقط أصوات حفيف بعيدة، وبعض الضوضاء الأكثر ارتفاعًا، ربما أصوات أبواب تُغلق. ظللت بلا حراك. سيكون لدي متسع من الوقت لأعود إلى الكنيسة بين الساعة العاشرة والساعة الحادية عشرة، أو بعد ذلك. لن يأتي الخبراء إلا قرب منتصف الليل.

ظهرت مجموعة من الشباب من لاروتوند، سارت فتاة بمحاذاة شارع كونيه واستدارت لتدخل شارع مونتجولفيه. ليست منطقة مزدحمة. هل سأتمكن من الصمود ناظرًا إلى ذلك العالم الرتيب خلفي لمدة ساعات طويلة؟ ولكن ألا يجب على أن أحاول حل لغز وضع المنظار في هذه القاعة؟ شعرت برغبة في التبول: فلأتجاهلها ليس هذا سوى رد فعل عصبي.

كم من الأفكار يمكن أن تدور في رأس المرء بينما يختبئ وحيدًا داخل منظار. هذا بالتأكيد هو شعور من يختبأ في سفينة محبوسًا في أحد مخابئها، مهاجرًا لأرض بعيدة. في الواقع لابد وأن يكون الهدف النهائي هو تمثال الحرية، وديوراما نيويورك. كان على مقاومة النعاس، ربما غفوت قليلاً... لا، يمكنني أن أستيقظ متأخرًا جدًا.

الشيء الأسوأ هو كارثة القلق: عندما تكون على يقين بأنك ستصرخ بعد لحظة واحدة. منظار كغواصة، محتجزة في القاع، وربما تحوم حولك بالفعل أسماك الأعماق السوداء الضخمة ولا تراها، وأنت لا تشعر إلا بأن الهواء يتناقص من حولك...

تنفست بعمق ثلاث مرات، لابد من التركيز. الشيء الوحيد الذي لن يخذلك في هذه اللحظة هي قائمة المغسلة. العودة إلى الوقائع، وترتيبها من جديد، تمييز الأسباب والنتائج. لقد وصلت إلى هنا لهذا السبب، بالإضافة إلى ذلك السبب الآخر...

اجتاحتني الذكريات بدقة وترتيب، ذكريات الأيام الثلاثة الأخيرة شديدة الاهتياج، وذكريات السنتين الأخيرتين، والذكريات التي تعود إلى أربعين عامًا مضت عندما اقتحمت العقل الإلكتروني لجاكوبو بيلبو.

أتذكر الآن (مثلما تذكرت آنذاك) لكي أعطي معنى لفوضى وجودنا الخطأ. الآن كما حدث الليلة السابقة وأنا حبيس المنظار، أنكمش في أحد جوانب عقلي البعيدة، لأستنبط منه قصة ما. مثل قصة البندول. أخبرني ديوتالليفي أن الكتاب الأول في القبالاه هو كيتر، التاج، البداية، الفراغ البدائي. في البداية خلق هو نقطة، أصبحت فكرة، حيث رُسمت كل الأشكال. كان ولم يكن، حبيس الاسم هاربا إليه، ألم يكن لديه اسم آخر سوى "هو"؟، ورغبة صرفة في أن يطلق عليه اسم ما... في البداية خط بعض العلامات في الهواء، ظهر ضوء قاتم من باطن أعماقه، مثل ضباب لا لون له، منح شكل ما لما لا شكل له، ومثلما ينتشر الضباب، فإن انفجار الشعلات اتخذ شكل مركزه، وهدأت الشعلات لتنير الكتب التالية، ثم التالية وصولاً إلى الملكوت.

قال ديوتالليفي: ولكن ربما في ذلك الانسحاب، وفي هذه الوحدة كان هناك بالفعل الوعد بالعودة.

(٢)

Hokhmah

خكمة ـ الحكمة

(٣)

كثيرًا ما يُبدع الملائكة الرحماء، لإعانتنا، أشكالاً وخصائص، أشكالاً وأصواتًا، ويقدموها لنا نحن المائتين. جميعها مجهولة، مدهشة، لا معنى محدد لها تبعًا للاستخدام المُدنس للغة، ولكن قادرة على أن تدفع عقلنا المندهش إلى بحث مضن، أكثر عمقًا، وبالتالي تجاه تمجيدهم ومحبتهم.

(يوهان ريوتشلين، عن فن القبالاه ، هاجينهاو ،
Johannes Reuchlin, De arte cabalistica, Hagenhau, 1517, III)

حدث ذلك منذ يومين، في ذلك اليوم ـ الخميس ـ كنت أتقلب في فراشي دون أن أقرر النهوض، كنت قد وصلت اليوم السابق واتصلت بدار النشر. كان ديوتاالليفي مازال في المستشفى، وكانت جودرون متشائمة لذلك؛ حالته مازالت كما هي، أي مازالت تزداد سوءًا. لم أجرؤ على الذهاب لزيارته.

ولم يكن بيلبو في المكتب، وقالت لي جودرون إنه اتصل قائلاً إن عليه الابتعاد لأسباب عائلية. أي عائلة؟ والشيء الغريب، أنه أخذ معه الكمبيوتر ـ أبو العافية، كما يطلق عليه الآن ـ والطابعة.

وكانت جودرون قد أخبرتني أنه أخذه في المنزل لينهي أعماله. ولماذا كل هذا العناء؟ ألم يكن في استطاعته الكتابة في المكتب؟ كنت أشعر أنني بلا وطن. لن تعود ليا والطفل إلا في الأسبوع القادم. ومساء أمس ذهبت في زيارة خاطفة لبيلادي، ولكنني لم أعثر على أحد.

أيقظني صوت الهاتف. كان بيلبو يتحدث بصوت متغير، بعيد.

"إذن؟ من أين تتحدث؟ لقد اعتقدت أنك ضللت الطريق في ليبيا، في الحادية عشرة...".

"لا تمزح يا كازاوبون، فالأمر جد خطير، أنا في باريس".

"باريس؟ ولكن كان علي أنا الذهاب! أنا الذي يجب أن يزور الكونسرفتوار أخيرًا!".

"لا تمزح، أقول لك، أنا في كابينة... لا، في أحد المقاهي، على كل حال، لا أعرف إذا كان بإمكاني التحدث طويلا..."

"إذا لم يكن معك ما يكفي من عملات، اطلب مكالمة مدفوعة، أنا هنا وسأنتظرك".

"ليست مسألة عملات. أنا في مشكلة".

ثم بدأ يتحدث بسرعة، حتى لا يعطيني الوقت لأقاطعه: "الخطة. إن الخطة حقيقية. أرجوك لا تقل لي شيئًا، إنهم يبحثون عني".

"ولكن من؟" حاولت مرة أخرى أن أفهم.

"فرسان المعبد، يا إلهي ياكازاوبون، أعلم أنك لا تريد تصديقنا، ولكن كان كل شيء حقيقيا. يعتقدون أن الخريطة معي، لقد حاصروني، أجبروني على الحضور إلى باريس. والسبت مساء يريدونني في الكونسرفتوار، السبت. هل فهمت. ليلة سان جوفاني..."

كان يتحدث بطريقة متقطعة، ولم أستطع متابعة حديثه.

"لا أريد الذهاب، أحاول الهرب يا كازاوبون، إنهم سيقتلونني، يجب أن تخبر دي أنجليس ـ لا، لا فائدة من دي أنجليس ـ لا تخبر الشرطة أرجوك..."

وماذا إذن؟

"لا أعرف ماذا، اقرأ الشرائط المضغوطة على "أبو العافية". في الأيام الأخيرة وضعت كل شيء هناك، حتى كل ما حدث في الشهر الأخير. أنت لم تكن موجودا، ولم أكن أعرف لمن أحكي، أخذت أكتب كل شيء في ثلاثة أيام وثلاث ليالي... اسمع، اذهب إلى المكتب، في درج مكتبي يوجد مظروف به مفتاحان. المفتاح الكبير لا أهمية له، فهو مفتاح المنزل الريفي، ولكن المفتاح الصغير هو مفتاح شقة ميلانو، اذهب إلى هناك واقرأ كل شيء، ثم قرر أنت، أو ربما نتحدث مرة أخرى، يا إلهي، لم أعد أعرف ما العمل..."

"حسنًا، سأقرأ. ولكن قل لي أين يمكنني الاتصال بك؟"

"لا أعرف، إنني هنا أغير الفندق كل ليلة. لنقل إنك ستفعل كل شيء اليوم ثم انتظرني في المنزل صباح الغد وأنا سأحاول الاتصال بك، إذا استطعت، يا إلهي، كلمة السر..."

سمعت ضوضاء، ثم صوت بيلبو يقترب ثم يبتعد بكثافة متغيرة، وكأن أحدًا يحاول أن ينزع منه السماعة.

"بيلبو! ماذا يحدث؟"

"لقد عثروا على ، كلمة..."

خبطة جافة، وكأنها طلقة. لابد وأنها السماعة قد سقطت واصطدمت بالحائط أو بتلك الموائد الصغيرة التي توضع أسفل التليفون. صوت عراك، ثم صوت السماعة توضع. بالتأكيد لم يكن بيلبو.

ألقيت بنفسي على الفور أسفل الدش. كان لابد من أن أستيقظ. لم أكن أفهم ماذا يحدث. الخطة حقيقية؟ يا للعجب! لقد اخترعناها نحن. من الذي أمسك بيلبو؟ فرسان الروزا كروتشي، كونت سان جيرمانو، الأوكرانا، فرسان المعبد، السفاحين؟ كان كل شيء محتملا، نظرًا لأن كل شيء كان عجيبًا.

ربما أصيب بيلبو بمس من الجنون، لقد كان مشدود الأعصاب جدًا في الآونة الأخيرة، ولم أكن أفهم إذا كان سبب ذلك لورينزا بيلليجريني أو لأنه كان ينجذب أكثر تجاه مخلوقته ـ أو الأفضل أن أقول ـ الخطة، ولكنها كانت مشتركة، خطتي وخطة ديوتاليفي أيضًا، ولكن كان يبدو هو أكثرنا انجذابا، الآن، إلى أبعد من حدود اللعبة. لا فائدة من المزيد من الافتراضات. ذهبت إلى دار النشر، استقبلتني جودرون بملحوظات لاذعة حول أنها ما زالت تدير بمفردها أعمال الدار، أسرعت إلى المكتب، وجدت المظروف، والمفاتيح، هرعت إلى شقة بيلبو.

رائحة عفونة، منفضات السجائر مليئة في كل مكان، حوض المطبخ مليء بالأطباق المتسخة، صفيحة القمامة معبأة بالعلب الفارغة. وعلى أحد أرفف المكتب توجد ثلاث زجاجات ويسكي فارغة، وزجاجة رابعة تحتوي على شبرين من الكحول. كانت شقة شخص قضى بداخلها الأيام الأخيرة دون أن يخرج، وكان يأكل كما يتصادف، وهو يعمل بطريقة عصبية، وكأنه مدمن.

كانت الشقة عبارة عن حجرتين، مكدسة بالكتب في كل ركن، بأرفف للكتب تنحني أسفل الثقل الذي تحمله. رأيت على الفور المائدة وفوقها الحاسوب، والطابعة، وحاويات الملفات المضغوطة. كانت توجد لوحات قليلة في الأماكن القليلة التي لا تشغلها الأرفف، وتمامًا في مواجهة المائدة كانت توجد مطبوعة من القرن السادس عشر، نسخة مؤطرة بعناية، صورة رمزية لم ألحظها الشهر الماضي عندما صعدت إلى هنا لأحتسي كوبًا من البيرة قبل أن أسافر لأقضي إجازتي.

كانت توجد على المائدة صورة لورينزا بيللريجريني، عليها إهداء بخط صغير وطفولي بعض الشيء. لم يكن يظهر سوى الوجه، ولكن النظرة، فقط النظرة كانت تسبب لي الاضطراب. وفي حركة فطرية من الأدب (أو من الغيرة؟) أدرت الصورة دون أن أقرأ الإهداء.

وجدت ملفين. حاولت أن أبحث عن شيء مثير للاهتمام، ولكنني لم أجد سوى جداول، وأسعار النشر، إلا إنني وجدت وسط تلك الوثائق ملفًا، يتضح من التاريخ، أنه يعود إلى التجارب الأولى ببرنامج الكتابة وورد، وكان اسمه "أبو". تذكرت عندما ظهر أبو العافية في دار النشر، وأتذكر ذلك الحماس الطفولي الذي اجتاح بيلبو، وتذمر جودرون، وسخرية ديوتالليفي.

كان "أبو" هو بالتأكيد الرد الخاص لبيلبو على ناقديه، نوع من تسلية الطلبة، ولكنه كان يعبر عن الكثير من خلال الحماس التركيبي الذي اقترب به بيلبو من الجهاز، هو الذي كان يؤكد دائمًا، بابتسامته الشاحبة، أنه منذ اللحظة التي اكتشف فيها بأنه لن يستطيع أن يكون البطل قرر أن يصبح متفرجا ذكيا. فلا فائدة من أن يكتب إذا لم يكن لديه دافع جاد لذلك، من الأفضل أن يعيد صياغة كتب الآخرين، وهذا ما يصنع منه محرر نشر جيدا. كان قد وجد في تلك الآلة نوعا من أدوية الهلوسة، فأخذ يمرر أصابعه فوق لوحة المفاتيح، وكأنه يعزف تنويعات على لحن مونتيار الصغير على البيانو القديم في المنزل، دون أن أن يخشى النقد.

لم يكن يفكر في أن يبدع هو؛ فهو، الذي يخاف جدًا من الكتابة، كان يعرف أن ما يفعله بعيدًا عن الإبداع، فهو مجرد إثبات نوع من القدرة الإلكترونية، تدريب رياضي. ولكن متناسيًا أشباحه المعتادة، وجد في تلك اللعبة الوصفة للتدريب على عودة المراهقة مرة أخرى لرجل في الخمسين. بطريقة ما هدأ تشاؤمه الطبيعي، وحسابه العسير مع الماضي في حواره مع تلك الذاكرة المعدنية والموضوعية، المطيعة والخالية من المسئولية، والمصغرة، تلك الذاكرة اللا إنسانية بشكل إنساني حيث سمحت له بألا يشعر بعصبيته المزمنة تجاه الحياة.

اسم الملف: أبو

آه، يا له من صباح جميل في نهاية شهر نوفمبر، في البدء كانت الكلمة، لتغني لي يا آلهة بيليوس وآخيل والنساء والفرسان وأسلحة الحب. نقطة ويبدأ سطر جديد وحده.

لتجرب، ثم تجرب وتجرب... بواسطة البرنامج المناسب يمكن أن تعيد ترتيب الحروف، إذا كتبت رواية كاملة عن بطل من الجنوب اسمه ريت بتلر وفتاة لعوب اسمها سكارليت، ثم ندمت على ذلك، فلن يكون عليك سوى أن تعطي أمرًا فيستبدل أبو كل "ريت باتلر" بالأمير "أندرية" وكل "سكارليت" إلى "ناتاشا"، وأطلنطا إلى موسكو وهكذا تكون قد كتبت "الحرب والسلام".

يفعل أبو الآن شيئًا: سأكتب عبارة، وسأعطي أمرًا لأبو: استبدال كل حروف "a" إلى "akla" وكل حروف "o" إلى "ulla" وسيكون لدينا فقرة كاملة بلغة تشبه اللغة الفينيقية.

آه يا للسعادة، آه من نشوة الاختلاف، آه يا قارئي/ كاتبي المثالي الواقع في ثُبات مثالي، آه يا يقظة فينيجان، آه أيها الحيوان الساحر والطيب. لا يساعدك لتفكر، ولكنه يساعدك لأنك لابد من أن تفكر من أجله. إنه جهاز روحاني تمامًا. إذا كتبت بريشة الأوزة يجب أن تخدش الأوراق المبللة بالعرق وتتوقف في كل لحظة لتغْمسها في الحبر، تتدافع في رأسك الأفكار بسرعة أكبر من استجابة رسغك، ولكن إذا كنت تكتب على هذا الجهاز، فإن الحروف تركض، وعليك عندئذ الالتزام بالسرعة المتوانية للجهاز وليس سرعة الاشتباك العصبي الخاصة بك. فمعه، (مع ذلك الشيء؟ معها؟) تحلم أصابعك، ويلمس عقلك لوحة المفاتيح، تحملك سريعًا الريشة الذهبية لتتأمل أخيرًا على ضوء العقلية النقدية سعادة اللقاء الأول.

والآن هذا ما سنفعله، سآخذ تلك الفقرة المليئة بالأخطاء الإملائية، وأمرا الجخار بأم بختار الجور الخكأ في الفقره التاليي، وأن يختط بنسخة اصلسة، وان يتقلعا في ظرف ثانية.

في الفقرة السابقة كنت أكتب دون أن أنظر للوحة المفاتيح، والآن أخذت الفقرة المليئة بالأخطاء الإملائية، وأمرت الجهاز بأن ينسخ الجزء الخطأ في الفقرة التالية لها، ولكنني هذه المرة قمت بتصحيحها، وبالتالي يمكن قراءتها، رائع، من النفاية استطعت استخلاص معزوفة حقيقية. كان يمكنني أن أشعر بالندم وألعن كتلة الكلمات الأولى؛ ولكنني سأتركها فقط لأوضح كيف يمكن أن يوجد على الشاشة نفسها في وقت واحد، الحادث وما يجب أن يوجد. ولكن يمكنني أن أنزع تلك الكتلة الخاطئة إذا أردت من النص المرئي، ولكن ليس من الذاكرة، وبالتالي أخلق أرشيفا من الأشياء المفعمة، وبذلك

أنزع من أتباع فرويد آكلي كل شيء ومن مبدعي النصوص المتنوعة متعة الحدس وممارسة المهنة، والمجد الأكاديمي.

وهي ذاكرة أفضل من الذاكرة الحقيقية، لأن تلك الذاكرة، ربما نتيجة مجهود أكبر، تتعلم أن تتذكر وليس أن تنسى. كان جنون ديوتالليفي السيفاردي يتصاعد حول تلك القصور ذات السلم الضخم وتمثال المحارب الذي يرتكب خطأ فادحًا تجاه امرأة ضعيفة، ثم تلك الممرات التي بها المئات من الحجرات، والتي يظهر في كل منها تمثيل ما لمعجزة أو لتجليات مفاجئة، وأحداث مقلقة، ومومياوات متحركة، وكل صورة، والتي تحفر مكانًا في الذاكرة بالتأكيد، ترتبط كل منها بفكرة ما، بنمط ما، بعنصر من عناصر إعداد الكون، بختم أو بقياس دقيق، سلسلة من الحكم المأثورة ومجموعات من الجناس، أو لائحة من الأفعال المتعدية، ورقصات تبادلات الترتيب المنطقي، الشعارات الصريحة، أو السلطة الرواقية، تتابعات الاعتدالات أو الزوايا، أو علم الأعشاب، أصول الجيمنوصوفية الهندوسية، وهكذا إلى ما لا نهاية.

آه يا رايموندو، آه يا كاميللو، لم يكن على أي منكما سوى أن يعود بذهنه للوراء لتعود للرؤية، وكان يمكنك على الفور إعادة بناء سلسلة عظيمة من الوجود، في الحب والسعادة، لأن كل ما هو متفرق في هذا الكون كان مرتبطًا في مجلد واحد في ذهنك، وكان بروست سيثير ابتسامتك. لكن عندما حاولنا ديوتاللِيفي وأنا بناء "فنون للنسيان ars oblivionalis" في ذلك اليوم، لم نستطع أن نصل لقواعد يمكن تطبيقها للنسيان. شيء مستحيل. هناك فارق بين أن تذهب بحثًا عن الزمن المفقود، مطاردًا أدلة متغيرة، مثل عقلة الإصبع في الغابات، وبين أن يقوم المرء بنسيان الوقت الذي عثر فيه عليها عن عمد. كان عقلة الإصبع يعود دائمًا إلى المنزل، وكأنه شيء استحواذي. لا توجد إمكانية للتلمذة على النسيان: ولكننا مازلنا تحت رحمة عمليات طبيعية عشوائية مثل الجلطة الدماغية وفقدان الذاكرة، والتدخلات الشخصية مثل تناول المخدرات، الكحوليات أو الانتحار.

أين كنت مساء الأمس، ل

إليك أيها القارئ المتطفل، لن تعرف أبدًا، ولكن ذلك السطر غير المكتمل هناك فوق، والذي يقف وحده وسط الفراغ، كان بداية سطر طويل، والذي كتبته بالفعل ثم انتفت

لدى الرغبة في كتابته (والتفكير فيه)، لأنني كنت سأتمنى أن لا يكون ما كتبته قابل للحدوث. كانت ضغطة واحدة على لوحة المفاتيح كافية ليمتد خطًا عريضًا لونه أبيض ليغطي تلك الفقرة الميتة وغير المناسبة، ثم ضغطت على الغي Delete، وعلى الفور اختفى كل شيء.

ولكن هذا لا يكفي. فمأساة المنتحر أنه بمجرد أن يقفز من النافذة وبين الدور السابع والسادس يعيد التفكير: "آه! لو في إمكاني التراجع!". لا فائدة. وهذا لا يحدث قط... طراااخ... إلا أن (أبو العافية) رحيم، يسمح لك بتدارك الخطأ، فيمكنني أن أستعيد نصي المختفي إذا قررت ذلك في الوقت المناسب وضغط مفتاح الاستعادة (undo). يا له من شعور بالارتياح.

إن المعرفة فقط بأنني إذا أردت يمكنني التذكر، تجعلني أنسى على الفور.

لن أذهب من حانة إلى أخرى بعد الآن متسببًا في تداخل سفينة الفضاء مع رصاصات المطارد، حتى يتداخلني الوحش. إن هذا أجمل كثيرا: فهنا يمكن التداخل مع الأفكار وليس الفضائيين. إن الشاشة هي مجرة الآلاف والآلاف من الكويكبات، جميعها في صف، بيضاء أو خضراء، خلقتهم أنت بنفسك. فيات لوكس، الانفجار الكبير، سبعة أيام، سبع دقائق، سبع ثوان، ويولد كون أمام عينيك، كون في تغير مستمر حيث الخطوط الحادة تتشكل ولا وجود للزمن. هنا لا توجد حدود عددية، ولا قوانين إجبارية للديناميكية الحرارية. تتدفق الحروف بكسل على السطح، فهي تبرز من اللاشيء وبكل طاعة تعود للاشيء، ذائبة كالجبلة الخارجية. إنها سيمفونية أسفل سطح المياه من الارتباط الناعم وعدم الارتباط، رقصة جيلاتينية لأقمار تلتهم نفسها، مثل السمكة الكبيرة في الغواصة الصفراء. بلمسة واحدة من إصبعك يبدأ ما لا يمكن إصلاحه في التزحلق إلى الخلف تجاه كلمة جائعة تلتهمه ويختفي بين فكيها، تمتصه، ويحل الظلام، إذا لم تتوقف تتآكل وتسمن من اللاشيء، في الحفرة السوداء لقطة آليس في بلاد العجائب.

وإذا كتبت ما يمنعك عنه الحياء، يمكن أن يوضع كل شيء على أسطوانة مضغوطة، وتكون الأسطوانة محصنة بكلمة السر ولا يمكن أن يقرأ أحد ما كتبته. حل رائع للعملاء السريين، تكتب الرسالة، تحفظها وتغلق الملف، ثم تضع الأسطوانة المضغوطة في جيبك

وتنطلق في طريقك. لا يمكن لأحد ولا حتى توركويمادا، أعني محققي محاكم التفتيش، أن يعرف ما كتبت، فقط أنت والآخر (الآخر؟). فلتفترض أيضًا أنهم عذبوك، تتظاهر بالاعتراف وبأنك ستبدأ في إدخال كلمة السر، عندئذ تضغط مفتاح سري لتختفي الرسالة للأبد، ثم تقول: آه، أنا في غاية الأسف، زلت يدي، حركة غير مقصودة، والآن اختفى كل شيء. ماذا كانت؟ لا أتذكر. لم يكن شيئًا مهمًا. ليس لدى رسائل لأكشف عنها. ولكن من يدري ربما يحدث هذا فيما بعد.

(٤)

"من يحاول أن يتسلل إلى حديقة زهور
الفلاسفة بلا مفتاح يبدو وكأنه شخص يريد
السير دون قدمين".

(مايكل ماير، أطلس الرموز Michael Maier,
Atalanta Fugiens, Oppenheim, De Bry,
1618, emblema XXVII)

كان هذا هو الملف الوحيد المطبوع. لابد وأن أبحث في الأسطوانات المضغوطة لبرنامج وورد. كانت الأسطوانات مرتبة ترتيبًا رقميًا، ولكن بيلبو ذكر شيئا خاصًا بكلمة السر. لقد كان دائمًا غيورًا على أسرار أبو العافية.

بمجرد أن أدرت الجهاز ظهرت لي رسالة تسألني: "هل لديك كلمة المرور؟" في أسلوب غير آمر، فقد كان بيلبو رجلاً مهذبًا.

جهاز لن يتعاون، فهو يعرف أن عليه أن يتلقى كلمة السر، إن لم يتلقها يلتزم الصمت. وكأنه يقول لي: "فلتنتبه جيداً، كل ما تريد معرفته موجود هنا في جوفي، ولكن احفر كما يحلو لك أيها الخُلد العجوز فلن تجد شيئًا. قلت لنفسي: كان يعجبك كثيرًا اللعب على التباديل مع ديوتالليفي، كنت أنت المخبر السري سام سباد في دار النشر، وكما كان سيقول جاكوبو بيلبو، لتعثر إذن على الصقر.

كلمة المرور في (أبو العافية) يمكن أن تُكوّن من سبعة حروف. كم من البدائل يمكن أن تمنحها سبعة حروف أبجدية من الخمسة والعشرين المكونة للأبجدية الإيطالية، وذلك بحساب أيضًا إمكانية التكرار في الكلمة الواحدة، لأنه ما الذي يمنع أن تكون الكلمة هي "كادابرا"؟

توجد المعادلة في مكان ما، والنتيجة لابد وأن تكون ستة مليارات وأكثر بقليل، وللعثور علي حاسب عملاق قادر على أن يجد ستة مليارات من التباديل بمعدل مليون في الثانية، لابد علي إذن أن أنقلها إلى (أبو العافية) واحدة تلو الأخرى، لأجربها، وإذا كنت قد عرفت بالفعل أن (أبو العافية) كان يستغرق حوالي عشر ثوان ليسأل ثم يتأكد

من كلمة السر. إذن، سيستغرق الأمر سبعين مليار ثانية. ونظرًا لأن العام مكون من حوالي واحد وثلاثين مليون من الثواني، لنقل ثلاثين مليون، سيكون الزمن اللازم للانتهاء من هذه العملية حوالي ألفي سنة. لا بأس.

لابد من اللجوء إلى التخمين. في أي كلمة يمكن أن يفكر بيلبو؟ كانت بالتأكيد كلمة وجدها في البداية، عندما شرع في استخدام الجهاز، أو ربما كانت كلمة اختارها أو استبدلها في الأيام الأخيرة عندما أدرك أن الأسطوانات تحتوي على مواد متفجرة، وعلي الأقل بالنسبة له، وبأن اللعبة لم تعد لعبة؟ سيغير ذلك كثيرًا من الوضع.

من الأفضل التركيز على الافتراض الثاني. يشعر بيلبو أن الخطة تلاحقه، يبدأ في أخذ الخطة على محمل الجد (لأنه حاول أن يوضح لي هذا عبر الهاتف)، عندئذ يجب أن يفكر في مصطلح ما له علاقة بقصتنا.

ربما لا؛ لأن أي مصطلح مرتبط بالتاريخ يمكن أيضًا أن يخطر على ذهنهم هم أيضًا. فكرت لوهلة أنهم ربما دخلوا إلى الشقة بالفعل، وصنعوا نسخة من كل الأسطوانات، وفي هذه اللحظة كانوا يحاولون تجربة كل البدائل الممكنة في مكان بعيد... ومعهم الحاسب الأعظم في أحد قصور كارباتزي.

قلت لنفسي: لا معنى لهذا! فهم أشخاص لا علاقة لهم بالحاسبات، لابد وأنهم سيبدءون بوضع كلمات مثل نوتاريكون(8)، وكيماتريا(9)، أو تيموراه(10)، وسيتعاملون مع الأسطوانات وكأنها التوراة، وكانوا سيقضون لقراءتها وقتا أكثر وكان ذلك سيستغرق وقتًا أكثر من الوقت المستغرق في كتابة سفر جازيراه (كتاب التكوين). لا، إذا كان لهؤلاء وجود، كانوا سيلجأون لوحي القابالاه، وإذا كان بيلبو مقتنعًا بوجودهم ربما لجأ هو أيضًا للطريقة نفسها.

حاولت، لإراحة ضميري، مع الكتب العشرة؛ كيتر وحخمة، بيناه وجيدولاه، جبوراه وتفئريت، نيتسح وهود، يسود وملكوت، ووضعت أيضًا الشخيناه لكي لا أترك شيئًا... ولكن لم ينجح شيء، وهذا شيء طبيعي، فتلك هي الفكرة الأولى التي يمكن أن تخطر ببال أي شخص.

---

(٨) بالعبرية "الكتابة بالاختراق".

(٩) بالعبرية "الدراسة الرقمية للكلمات المكتوبة باللغة العبرية ومستخدمة في تحليل الكابالاه".

(١٠) بالعبرية "طريقة لإعادة ترتيب كلمات وجمل التوراة".

على كل، لابد وأن تكون كلمة المرور شيئًا واضحًا، شيئًا يخطر على البال بتلقائية، لأنه عندما ينكب المرء على نص معين، وبطريقة استحواذية، كما حدث مع بيلبو بالتأكيد في الأيام الأخيرة، لا يمكن أن يُخرج نفسه من الإطار الذي يعيش فيه. من غير الإنساني أن نفكر أنه كان يكاد يفقد رشده بسبب الخطة وفي الوقت نفسه يخطر في ذهنه شيء آخر، مثل لينكولن أو مومباسا. لابد وأن يكون شيء ما له علاقة بالخطة، ولكن ما هو هذا الشيء؟!

حاولت أن أتماثل مع العمليات العقلية لبيلبو الذي كان يدخن بشراهة ويشرب وهو ينظر حوله. ذهبت إلى المطبخ وأفرغت لنفسي آخر جرعة من الويسكي في الكأس الوحيد النظيف الذي وجدته، ثم عدت إلى لوحة المفاتيح، أرحت ظهري على مسند الكرسي ووضعت قدمي فوق المائدة وأنا أشرب رشفات صغيرة (هل كان سام سباد هو من يفعل ذلك أم فيليب مارلو)؟ وأخذت أنظر حولي. كانت الكتب بعيدة بحيث لا يمكن قراءة عناوينها المكتوبة على كعبها.

ارتشفت آخر جرعة من الويسكي، وأغلقت عيناي، ثم فتحتها، وأمامي كانت المطبوعة التي تعود إلى القرن السابع عشر، تحمل الرمز التقليدي لفرسان الروزا كروتشي في تلك الفترة، كانت غنية بالرسائل المكتوبة بالشفرات بحثًا عن أعضاء ذلك الإخاء. وبالتأكيد كانت تمثل معبد الروزا كروتشي، وكان يظهر فوقها برج ينتهي بقبة تبعًا للنموذج الأيقونوغرافي لفترة الأحياء المسيحية والعبرية، والتي فيها تم إعادة بناء هيكل أورشاليم فوق تصميم نموذج جامع عمر.

كان المشهد الطبيعي حول البرج غير مناسب ومسكونا أيضًا بطريقة متناقضة، مثلما يحدث في تلك الألغاز؛ حيث يظهر قصر، وأمامه في مقدمة المشهد ضفدع، وبغل مُحمّل، وملك يتلقى أحد العطايا من أحد الرعايا. وهنا، في الشمال إلى أسفل، يخرج شخص أنيق من أحد الآبار، متعلقًا في بكرة بواسطة حبال غريبة الشكل. في مكان ما بداخل البرج يعبر الحبل من خلال نافذة دائرية الشكل. في وسط اللوحة يوجد فارس ومسافر. وفي اليمين أحد الحجاج راكعًا يرفع هلبًا ضخمًا وكأنه عكاز. وعلى هامش الجزء الأيمن، تقريبًا في مواجهة القلعة، يوجد جرف يكاد يسقط من فوقه شخصية ممسكة بسيف، وفي الناحية الأخرى، يقف جبل إرارت وعلي قمته فلك نوح. وفي كل من الجانبين العلويين تظهر سحابة تضيئها نجمة تبعث أشعة عشوائية حيث تظهر

صورتان، إحداهما لرجل عار يلتف حوله ثعبان، والأخرى لبجعة. في المركز الأعلى، هالة نورانية مكتوب عليها كلمة أوريون بالحروف العبرية، والتي منها تخرج يد الله لتمسك البرج بحبل.

كان البرج يتحرك على عجلات. كان الجزء الرئيسي منه على شكل مربع، به نوافذ وباب وكوبري متحرك على اليمين. وإلى أعلى قليلاً، كانت توجد صالة متسعة بها أربعة أبراج للمراقبة، يحتل كلاً منها رجل مسلح يلوح بفرع نخيل ويحمل ترسًا مزينًا بحروف عبرية. كان يمكن رؤية ثلاثة من هؤلاء الرجال فقط، وكان لابد من تخيل الرابع حيث كان يقف خلف القبة ثمانية الأضلاع، والتي منها تبرز منارة، ثمانية أيضًا معلق عليها زوج من الأجنحة العظيمة. فوق المنارة ذات الأجنحة كانت هناك واحدة أخرى، أصغر حجمًا، قبة عليها برج حراسة رباعي الزوايا، والذي تدعم أقواسه المفتوحة أعمدة رفيعة، تكشف عن جرس بالداخل. وتجاه القبة الرباعية الصغيرة في القمة كان الحبل الذي تمسك به يد الرب. كانت تظهر هنا كلمة "فا/ما"، وفوق القبة لافتة مكتوب عليها: "مجمع الأخوية".

كانت هناك تفاصيل غريبة أخرى. ذراع ضخمة، خارج مقاييس الأشكال، تبرز من النافذة المستديرة في البرج على اليسار. كانت الذراع ممسكة بسيف، وكانت ممتدة ربما إلى المخلوق ذي الأجنحة المحبوس في البرج. ومن نافذة مماثلة على اليمين يبرز بوق كبير الحجم. البوق مرة أخرى.

جذبت عدد فتحات البرج انتباهي، كان هناك العديد منها، وكانت تلك الموجودة في القبة منتظمة إلى حد كبير، بينما بدت تلك الموجودة في القاعدة عشوائية. نظرًا لأن نصف البرج فقط كان ظاهرًا من المنظور المتعامد، كان يمكن افتراض وجود السيمترية وأن الأبواب والنوافذ والفتحات من هذه الجهة تم تكرارها بالترتيب نفسه في الجهة الأخرى. وهذا يعني أن الإجمالي سيكون: أربعة أقواس في قبة برج الجرس، ثمان نوافذ في القبة المنخفضة، أربعة أبراج للحراسة، ست فتحات في الواجهتين الشرقية والغربية، وأربع عشرة في الواجهتين الشمالية والجنوبية. جمعت كل ذلك.

ست وثلاثون. لمدة أكثر من عشرة أعوام يطاردني هذا الرقم. فرسان الروزا كروتشي. مائة وعشرون نقسمهم على الرقم ستة وثلاثين تكون النتيجة ٣,٣٣٣٣٣٣، وهكذا وجدت نفسي أمام سبعة أرقام، كان الأمر أكثر من رائع، ولكن يستحق المحاولة، أدخلت الرقم، وفشلت.

عندئذ خطر ببالي أن الرقم نفسه إذا ضربناه في اثنين ينتج رقم الوحش: ٦٦٦. ولكن هذا التخمين أيضًا أثبت أنه بعيد الاحتمال.

فجأة وجدت نفسي وقد صدمتني الهالة النورانية في منتصف اللوحة، العرش الإلهي. كانت الحروف العبرية كبيرة الحجم، كان في إمكاني رؤيتها من مقعدي. ولكن لم يكن في إمكان بيلبو أن يكتب بالعبرية على (أبو العافية). نظرت بدقة: بالتأكيد أعرف تلك الحروف من اليمين إلى اليسار: يود، هي، فاف، هي. إنه التتراجراماتون: يهوه، اسم الله.

(٥)

وبـدأت بـأن أكـوّن هـذا الاسم، أي يـهـوه
YHWH، في البداية وحده، ثم بدأت أفحص
كل إمكانيات تكوينه، وأن أجعله يتحرك ويدور
وكأنه عجلة..

(أبـو الـعـافـيـة Hayy ha Nefe، مـخـطـوط
بميونيخ Ms, Munchen, 408)

اسم الله... بالتأكيد. تذكرت الحوار الأول بين بيلبو وديوتالليفي، في اليوم الذي وضعوا فيه (أبو العافية) في المكتب.

كان ديوتالليفي يقف أمام باب حجرته، ويتفاخر بتسامحه. وكان تسامح ديوتالليفي عادة ما يكون هجوميًا، ولكن كان يبدو على بيلبو أنه يقبل ذلك، يقبله بتسامح.

"لن يفيدك في شيء. بالتأكيد أنت لا ترغب أن تعيد كتابة الوثائق التي لا تقرأها، بالتأكيد".

"بل يفيد في التصنيف، في تنظيم القوائم، وتحديث البطاقات. ويمكنني أن أكتب عليه نصا يخصني، وليس نصوص الآخرين".

"ولكنك أقسمت بألا تكتب على الإطلاق شيئًا يخصك".

"لقد أقسمت بأنني لن أزعج العالم بنص آخر قلت إنه نظرًا لأنني قد اكتشفت أنني لا أملك نسيج الباطل..."

"... سأكون مجرد متفرج ذكي. أعرف هذا. وما الذي حدث إذن؟"

"الذي حدث أن المتفرج الذكي أيضًا، عندما يعود من حفل موسيقي، يدندن بالحركة الثانية. هل هذا يعني أنه يتطلع لأن يقدم ما يعزفه في قاعة كارنيجي..."

"إذن ستقوم بعمل تجارب من الكتابات المغناة لتكتشف أنك لا يجب عليك خوض تجربة الكتابة".

"ربما يكون اختيارًا صادقًا"

"أهذا رأيك سيادتك؟"

كان كل من ديوتاليفي وبيلبو من بيومونتي، وكانا يلعبان دائمًا على تلك الموهبة التي لدى أهل بيومنتي، وذلك بأن يستمع إليك الفرد منهم جيدًا، وينظر إليك في عينيك ثم يقول: "أهذا رأي سيادتك؟" بتلك النبرة التي تنم في ظاهرها عن اهتمام مهذب، ولكن في الحقيقة تشعرك بأنك موضوع رفض عميق.

كنت أنا همجيًا، كانا يقولان هذا، وكانت تلك التفاصيل الخاصة بالآداب غالبًا ما تفوتني.

كنت أنا أعترض: همجي؟، لقد ولدت في ميلانو، ولكن عائلتي من فال دوستا.

يقولان: كلام فارغ، فالبيومونتي يُعرف على الفور من نزعته التشككية.

"أنا متشكك"

"لا، سيادتك غير مؤمن فقط، وهذا شيء مختلف".

كنت أعلم لماذا لا يثق ديوتاليفي في أبو العافية. كان قد سمعهم يقولون إنه يمكن استبدال ترتيب الحروف، وهكذا يمكن لنص ما أن يولد عكسه ويتسبب في نبوات ملتبسة. بدأ بيلبو يشرح له قائلاً: إنها ألعاب تباديل، ألا تدعى تيموراه؟ أليس هكذا يتصرف الكاهن المؤمن ليصعد إلى أبواب الإشراق؟

وكان ديوتاليفي يجيبه قائلاً: صديقي العزيز، لن تفهم شيئًا على الإطلاق. حقيقي أن التوراة، تلك المرئية، هي مجرد صورة من صور الأشكال المتغيرة لخطابات التوراة الأبدية، والتي خلقها الله وسلمها إلى آدم.

من خلال تبديل حروف الكتاب على مدار القرون يمكن العثور من جديد على التوراة الأصلية. ولكن ليست النتيجة هي المهمة. ولكن العملية نفسها، ذلك الإيمان الذي به تُدير إلى ما لا نهاية طاحونة الصلاة والكتابة، مكتشفًا الحقيقة بالتدريج. إذا قالت تلك الآلة لك الحقيقة على الفور لن تتعرف عليها، لأن قلبك لن يكون قد تنقى بعد بواسطة التساؤلات العديدة. ثم، هل هذا سيحدث في مكتب! إن الكتاب المقدس يجب أن يُهمس به بداخل حجرة حقيرة في حارة يهودية حيث تتعلم يومًا بعد يوم أن تنحني إلى الأمام وأن تحرك ذراعيك وهما ملتصقتان بفخذيك، وبين يدك التي تمسك بالكتاب المقدس، وتلك التي تتصفحه لا يجب أن توجد أي مسافات، وإذا بللت أصابعك يجب أن تحركها بطريقة عرضية لتصل إلى فمك وكأنك تفتت خبزًا بلا خميرة حريصًا على ألا تفقد أيًا من فتاته. فالكلمة تؤكل ببطء شديد، ثم يمكنك استيعابها وتركيبها من جديد فقط إذا تركتها تذوب فوق لسانك، واحترس من ألا يسيل لعابك فوق القفطان، لأنه إذا تبخر

حرف واحد سيقطع الخيط الذي يكاد يربطك بالتجليات النورانية العليا (السفيروت). ولهذا الغرض كرس إبراهيم أبو العافية حياته كلها، بينما كان القديس توماس كان يلهث للعثور على الله من خلال حواسه الخمس. إن كتابه "حخمة هاتسيروف«، أو »علم تشابك الحروف« كان علم تركيب الحروف وعلم تطهير القلوب في آن. ذلك المنطق المتصوف لعالم الحروف وتحريكها في تبادلات غير منتهية هو عالم التطويبات، علم التركيبات هو موسيقى الفكر، ولكن احترس يجب أن نتحرك ببطء وبحرص، لأن الحاسوب يمكن أن يسبب لك الهذيان وليس النشوى. إن العديد من تلاميذ أبو العافية لم يستطيعوا التوقف على تلك العتبة التي تفصل بين التأمل في أسماء الله عن الممارسات السحرية، بين استخدام الأسماء بدلاً من أن يصنعوا منها طلاسم، وسيلة ليسطروا بها على الطبيعة. ولم يكونوا يعرفون، كما لا تعرف أنت. ولا يعرف حاسوبك، أن كل حرف مرتبط بعضو من أعضاء الجسد، وإنه إذا حركت ساكنًا دون أن تعرف خطورة ذلك، يمكن لأحد أعضائك أن يغير مكانه أو طبيعته وتجد نفسك ممزقًا بوحشية، من الخارج طوال الحياة ومن الداخل إلى الأبد".

قال له بيلبو في هذا اليوم نفسه بالتحديد "اسمع، إنك بكلماتك هذه لم تحبطني بل شجعتني، إذا فلدي الآن بين يدي وتحت سيطرتي، كما كان الجوليم لدى أصدقائك، لدى أبو العافية الخاص بي. سأطلق على الحاسوب اسم أبو العافية، وأبو للتدليل. وسيكون أبو العافية الخاص بي أكثر حرصًا واحتراما من أبو العافية الخاص بك. وأكثر تواضعًا. أليست المشكلة هي العثور على كل تركيبات اسم الله؟ حسنًا، انظر الآن على ذلك الدليل، لدى برنامج صغير في الحاسوب لتغيير كل تبادلات الحروف الأربعة. ويبدو البرنامج وكأنه صُنع خصيصًا لكلمة IHVH يهوه. ها هو، هل تريدني أن أبدأ تشغيله؟" وأطلعه على البرنامج وكان ذلك الشيء وكأنه سحر القابالاه بالنسبة لديوتالليفي.

هيا فلتجرب، فلتكتب I، H، V، H عندما يطلب منك المعطي وابدأ البرنامج. ربما تشعر باستياء؛ فالتبادلات المحتملة هي أربعة وعشرون فقط."

"يا إلهي! وماذا تفعل بأربعة وعشرين اسما لله؟ أو تعتقد أن حكماءنا لم يقوموا بالفعل بعمل تلك الحسابات؟ ولكن لتقرأ إذن سفر "جازيراه"، القسم السادس عشر من الفصل الرابع. ولم يكن لديهم آلات حاسبة في ذلك الوقت "حجران يبنيان منزلين،

وثلاثة حجارة تبني ثلاثة منازل. وأربعة حجارة تبني أربعة وعشرين منزلاً، وخمسة حجارة تبني مائة وعشرين منزلاً. وستة حجارة تبني ستمائة منزل. من الآن فصاعد اذهب وفكر فيما لا يمكن للفم أن ينطق به وللأذن أن تسمعه". هل تعلم ماذا يطلقون على هذا الأسلوب اليوم؟ تحليل العوامل. وهل تعلم لماذا تحذرك التقاليد من الاستمرار بعد هذه المرحلة؟ لأنه إذا كانت الحروف المكونة لاسم الله ثمانية، لكانت التباديل أربعة آلاف، وإذا كانت عشرة حروف لكانت التباديل ثلاثة مليون وستمائة ألف، وتباديل اسمك البائس ستكون أربعين مليون تقريبًا، ولتحمد الله أن ليس لديك اسم وسط مثل الأمريكان، وإلا كانت سترتفع إلى أكثر من أربعمائة مليون. وإذا كانت حروف اسم الله سبعة وعشرين، لأن الأبجدية العبرية لا توجد بها حروف متحركة، ولكنها عبارة عن اثنين وعشرين صوتًا بالإضافة إلى خمس حركات. لكانت أسماؤه المحتملة مكونة من كلمة مكونة من تسعة وعشرين حرفًا.

ولكن يجب عليك أيضًا أن تحسب التكرار، لأنه لا يمكن استبعاد أن اسم الله هو ألف مكررة سبع وعشرين مرة، عندئذ لن يكفيك تحليل العامل، سيكون عليك حساب سبعة وعشرين أس سبعة وعشرين وسيكون لديك على ما أعتقد أربعمائة وأربعة وأربعون مليار، مليار، مليار، مليار احتمال أو أقل من ذلك قليلاً، على أي حال سيكون رقمًا مكونًا من تسعة وثلاثين رقمًا .

"هل تغش لتخيفني، لقد قرأت أنا أيضًا السفر، سفر جازيراه. وأعلم أن الحروف الأساسية هي اثنان وعشرون، وبتلك الحروف، فقط بتلك الحروف، كون الله كل الخليقة.

"لا تحاول أن تمارس معي نزعاتك التصوفية، لأنه إذا دخلت في ذلك النظام العظيم، فبدلاً من سبعة وعشرين أس اثنين وعشرين، وسيكون لديك أيضًا حوالي ثلاثمائة وأربعين مليار مليار، بالنسبة لمقاييسك الإنسانية ما الفارق؟ أتعرف أنه لو كان عليك إحصاء واحد، اثنين، ثلاثة... وهكذا رقمًا في كل ثانية لتصل إلى مليار، أقول مجرد مليار واحد صغير، سيستغرق ذلك منك مدة اثنين وثلاثين عامًا؟ فالشيء أكثر تعقيدًا مما تعتقده أنت، والقابالاه ليست مجرد ما جاء في سفر جازيراه، وأنا سأقول لك السبب لضرورة استخدام الحروف السبعة والعشرين كلها للقيام بعملية تباديل جيدة للتوراة. حقيقي أن الحروف النهائية الخمسة إذا وقعت في منتصف الكلمة ستتحول إلى مقابلها العادي. ولكن الأمر ليس دائمًا هكذا. ففي سفر إشعياء الإصحاح التاسع آية

ستة وسبعة، كلمة LMRBH، Lemarbah . والتي معناها، للمفارقة، هو يضاعف . الحرف ميم المكتوب في وسطها كحرف نهائي".

"لماذا؟"

"لأن كل حرف مساوي لرقم والميم العادية تساوي أربعين، بينما الميم كحرف نهائي تساوي ستمائة. إن تيموراه ليست مجرد لعبة تعلمك التباديل، بل تتدخل فيها الكيمتريا ، والتي بواسطتها يمكن العثور على علاقات غاية في السمو بين الكلمة وقيمتها العددية. بوجود الميم النهائية، بوضعها هذا لن تكون قيمة كلمة LMRBHمائتين وسبع وسبعين بل فقط ثمانمائة وسبع وثلاثين، وستكون بهذا مساوية لكلمة ThThZl، Thath Zal والتي معناها "ذلك الذي يعطي بسخاء". أترى إذن أنه يجب الانتباه للحروف السبعة والعشرين كلها، لان الأهمية ليست فقط للأصوات بل الأرقام أيضاً. ولذلك نعود مرة أخرى لحساباتي؛ إذن فالتباديل هي أكثر من أربعمائة مليار، مليار، مليار، مليار. هل تعرف كم يستغرق الوقت لتلاوتها جميعاً، رقم في الثانية مستخدماً جهاز؟ ولا أتحدث هنا عن حاسوبك الصغير البائس. بمعدل تبديل في الثانية سيستغرق الأمر سبعة مليار مليار مليار دقيقة، ومائة وثلاثة وعشرون مليون مليار مليار مليار ساعة، أكثر بقليل من خمسة مليون مليار مليار مليار يوماً، أربعة عشر ألف مليار مليار مليار من الأعوام، مائة وأربعين مليار مليار مليار من القرون، وأربعة عشر مليار مليار مليار من الألفيات. وإذا كان لديك آلة حاسبة، قادرة على عمل مليون عملية حسابية في الثانية، آه، فكر كم من الوقت ستوفر، فلإنجاز هذه العملية ستحتاج فقط إلى أربعة .عشر ألف مليار مليار من الألفيات!.

ولكن الحقيقة أن اسم الله الحقيقي، ذلك السري، طويل بطول التوراة كلها، ولا توجد آلة في العالم قادرة على استكمال عمليات التباديل الخاصة به، لأن التوراة في حد ذاتها هي نتيجة تباديل متكررة للحروف السبعة والعشرين، وفن التيموراه لا يتطلب مجرد التباديل في الحروف السبعة والعشرين الأبجدية، ولكن كل علامات التوراة، حيث كل علامة لها قيمة الحرف في حد ذاته، حتى وإن كانت تظهر مرات أخرى في صفحات أخرى، مثلما نقول إن علامتي هيز في اسم YHVH لها قيمة حرفين مختلفين. ولهذا، إذا أردت حساب التباديل الممكنة لكل العلامات الموجودة بداخل التوراة، لن تكفيك كل الأصفار الموجودة في العالم. حاول إذن بتلك الآلة البائسة الخاصة بالمحاسبين. توجد آلة بالتأكيد لحسابها، ولكنها آلة لم ينتجها وادي السليكون

إنها القبالاة المقدسة أو التراث، والحخماء يقومون منذ قرون بذلك الذي لا تستطيع أي آلة أن تصنعه ونتمنى ألا تصنعه. لأنه مجرد الانتهاء من العملية الحسابية يجب أن تبقى النتيجة سرية وعلى كل حال سيكون الكون قد توقف عن دورته. وسنتجلى نحن بلا ذاكرة في مجد الميتاترون العظيم."

قال جاكوبو بيلبو: آمين.

منذ ذلك الوقت دفع به ديوتاليفي في تلك الدوامة. لابد أنه هو أيضًا قد أدرك هذا. فكم من المرات رأيت بيلبو بعد ساعات العمل الرسمية، وهو يحاول برامج تمكنه من تنفيذ عمليات ديوتالليفي الحسابية ليثبت له على الأقل أن أبو العافية يمكنه أن يقول الحقيقة في بضع ثوان، دون الحاجة للحساب التقليدي، اليدوي أو بواسطة جلود قديمة بأنظمة رقمية تعود لفترة ما قبل الطوفان، والتي ربما لم تكن تعرف حتى ما هو الصفر؟

بلا فائدة، حتى أبو كان يجيب، حيث كان يستطيع الوصول، برموز أُسية ولم يكن بيلبو يستطيع هزيمة ديوتالليفي بأن يقدم له شاشة مليئة بالأصفار إلى ما لا نهاية، تقليد مرئي شاحب للتضاعفات الكونية الخاصة بالعمليات الحسابية ولانفجار كل العوالم الممكنة.

ولكن الآن، وبعد كل ما حدث، وبلوحة الروزا كروتشي القابعة أمامي، يبدو لي من رابع المستحيلات أن يكون بيلبو قد ذهب، في بحثه عن كلمة السر، إلى تلك التدريبات الخاصة حول اسم الله. ولكن لابد وأن يكون لعب على الأرقام مثل ستة وثلاثين ومائة وعشرين، إذا كان حقيقيًا، كما أخمن، أنه كان مستحوذًا بتلك الأرقام. وبالتالي لا يمكن أن تكون قد كون الحروف الأربعة العبرية، لأنه كان يعرف أن أربعة أحجار تبني أربعة وعشرين منزلاً فقط.

كان سيمكنه أن يلعب بالنسخ الإيطالي للكلمة، والذي يحتوي أيضًا على حرفين متحركين. فمع استخدام ستة حروف ـ Iahveh ـ سيكون لديه سبعمائة وعشرون بديلاً. ولابد أن سيكون من بينها كلمات مكررة؛ ولكن ديوتالليفي قال أيضًا إن حرفي he لهما قيمة حرفين مختلفين. ربما سيختار الكلمة رقم ستة وثلاثين، أو مائة وعشرين.

كنت قد وصلت إلى المنزل في الساعة الحادية عشرة، والآن الساعة الواحدة. يجب أن أكون برنامج لإعادة ترتيب الحروف من ستة حروف، ويكفي أن نعدّل ذلك المُعد بالفعل لأربعة حروف.

كنت بحاجة لنسمة هواء. نزلت إلى الشارع، ابتعت لنفسي بعض الطعام، وزجاجة أخرى من الويسكي. صعدت من جديد، وتركت الساندويتشات في أحد الأركان، وبدأت على الفور بالويسكي، وضعت أسطوانة النظام الخاصة بالبيزيك، كونت البرنامج الخاص بالحروف الستة. ارتكبت الأخطاء المعتادة، واستغرق مني الأمر حوالي نصف ساعة، ولكن في حوالي الساعة الثانية والنصف بدأ البرنامج وبدأت أسماء الله السبعمائة والعشرين تتوالى أمام عيني على الشاشة...

أمسكت بين يدي أوراق الطابعة، دون أن أفصلها، وكأنني أستشير أحد الوثائق القديمة للتوراة الأصلية. حاولت استخدام الاسم رقم ستة وثلاثين. ظلام تام. أخذت رشفة أخيرة من الويسكي وبأصابع مترددة، حاولت مع الاسم رقم مائة وعشرين، لا شيء...

تمنيت الموت. إلا أنني الآن تقمصت شخصية جاكوبو بيلبو، ولابد أن جاكوبو بيلبو قد فكر كما أفكر أنا الآن. لابد وأنني قد ارتكبت خطأ ما، خطأ غاية في الغباء، خطأ تافه. كنت على بعد خطوة من الحل، ربما قام بيلبو، لأسباب لا أستطيع إدراكها، بالإحصاء من النهاية؟

قلت لنفسي كازاوبون أيها المغفل. بالتأكيد، من النهاية. أو ربما من اليمين إلى الشمال. وضع بيلبو في الكمبيوتر اسم الله مكتوبًا بالحروف اللاتينية، وبالتأكيد بالحروف المتحركة، ولكن نظرًا لأن الكلمة عبرية لابد وأن كتبها من اليمين إلى اليسار. فلقد أدخل للكمبيوتر ليس كلمة IAHVEH - كيف لم أفكر في ذلك من قبل - ولكن كتبها HEVHAI، من الطبيعي أنه بذلك سيغلب نظام التباديل. يجب علي إذن أن أبدأ العد من النهاية. وحاولت من جديد من الاسمين.

لم يحدث أي شيء.

أخطأت في كل شيء. لقد تمسكت بافتراض أنيق ولكنه خطأ. يحدث هذا لأفضل العلماء.

لا، لا يحدث لأفضل العلماء، يحدث هذا للجميع. ألم نلاحظ تماماً منذ شهر أنه في الفترة الأخيرة خرجت إلى الأسواق ثلاث روايات فيها حاول البطل أن يبحث في الكمبيوتر عن اسم الله؟

لن يكون بيلبو بهذه التفاهة. ثم إنه عندما يختار المرء كلمة مرور يختار شيئاً يمكنه تذكره بسهولة، كلمة تكتب بتلقائية وعفوية. فما بالك بكلمة IHVHEA ! كان سيكون عليه في هذه الحالة أن يطبق النوتاريكون على التيموراه وأن يخترع عبارة منغمة حروف أول كلمة منها تذكره بكلمة المرور. مثل: انتقمت إيميلدا لمقتل هيرام.

ولكن لماذا يجب أن يفكر بيلبو في إطار القبالاه الخاص بديوتاليفي؟ كان بيلبو مستحوذاً بالخطة، وفي الخطة وضعنا عناصر أخرى كثيرة: فرسان الروزا كروتشي، السينارشية، الهومونوكلي، البندول، البرج، الدرويد ، والإنويا ... وما يستحوذ على تفكيره.

ما يستحوذ على تفكيره. تذكرت لورينزا بيليجريني. مددت يدي وأمسكت بصورتها التي كنت قد أبعدتها. حاولت أن أنزع عن فكري ذكرى غير مناسبة، ذكرى تلك الليلة في بيمونتي... قربت الصورة وقرأت الإهداء: "لأنني أنا هي الأولى والأخيرة، لأنني أنا هي المكرمة والمكروهة، لأنني أنا هي العاهرة والقديسة. صوفيا".

لابد أن ذلك كان بعد الحفل لدى ريكاردو. صوفيا Sophia كلمة من ستة أحرف لاتينية. ولماذا إذن يلزم تغيير ترتيب الحروف؟ كنت أنا الذي يفكر بطريقة ملتوية. بيلبو يحب لورينزا. يحبها جداً لأنها هي ما هي عليه، وهي صوفيا. عند التفكير في تلك اللحظة أنه ربما كانت هي، من يدري... لا، بالعكس، بيلبو أيضاً يفكر بطريقة ملتوية جداً جداً. تعود إلى ذاكرتي الآن كلمات ديوتاليفي: في السفر الثاني، تتحول الألف المظلمة إلى ألف مضيئة. ومن النقطة المظلمة تنبثق حروف التوراة، فالجسد هو الحروف الساكنة، والروح هو الحروف المتحركة، معاً يصطحبان نغمة ما يردده العابد المؤمن. عندما تتحرك نغمة العلامات، تتحرك معها الحروف الساكنة والمتحركة. وهنا تشرق الحكمة، Hokhmah، المعرفة، الفكرة الأصلية، التي تحتوي على كل شيء، وكأنها في خزانة، كل شيء، كل ما سيفتح ويتحول لخليقة. إن سفر حوخمه يمسك بجوهر كل ما سيلي..."

وماذا كان أبو العافية بما يحتويه من ملفات سرية؟ كانت الخزانة التي تحتوي على ما يعرفه بيلبو، أو ما يعتقد بيلبو بأنه يعرفه، كانت صوفيا الخاصة به. لابد وإنه اختار كلمة سرية ليتغلغل بواسطتها إلى عمق أبو العافية، وهو الشيء الذي يفعله فقط في فعل الحب، ولكن عندما يفعل ذلك لابد وأنه يفكر في الوقت نفسه في لورينزا، يبحث عن كلمة تغزو أبو العافية، ولكنه يستخدمها أيضًا كتميمة لغزو لورينزا، يريد أن يتخلل إلى قلب لورينزا وأن يفهم، هكذا كما يمكنه أيضًا الدخول إلى قلب أبو العافية، يريد أن يكون أبو العافية عسير الدخول للآخرين كما يصعب التغلغل لقلب لورينزا، يوهم نفسه بأنه يمكنه الدخول والمعرفة والحصول على أسرار لورينزا بالطريقة نفسها التي يمتلك بها سر أبو العافية.

كنت أخترع لنفسي تفسيرًا وأخدع نفسي بأنه حقيقي. مثلما حدث بالنسبة للخطة: استبدال الأمنيات بالحقيقة.

ولكن نظرًا لأنني كنت مخمورًا، جلست أمام لوحة المفاتيح وكتبت SOPHIA. سألتني الآلة بتأدب: "هل لديك كلمة السر؟" أيتها الآلة الغبية، ألا تنفعلين حتى عند التفكير في لورينزا.

(٦)

متطلعًا لمعرفة ما يعرفه الإله
حاول جودا ليون تبديل
ترتيب الأحرف في تنوعات مركبة
وفي النهاية نطق "الاسم"، الذي هو المفتاح
المدخل والصدى، الضيف والقصر
(خورخي لويس بورخيس، إل جوليم، J. L.
(Borges, El Golem

عندئذ، ولشعوري بالكراهية تجاه أبو العافية، عندما سألني بعد ذلك سؤاله الخبيث "هل لديك كلمة السر؟" أجبت: "لا".

بدأت الشاشة تمتلئ بالكلمات، والسطور، والفهارس وتدفقات من الاتصالات.

لقد اقتحمت سر أبو العافية.

كنت منفعلاً جدًا بذلك النصر إلى حد أنني لم أسأل نفسي حتى لماذا اختار بيلبو هذه الكلمة بالذات. الآن قد فهمت، وعرفت أنه، في لحظة من وضوح الرؤية، كان قد أدرك ما أدركه أنا الآن. ولكن في ذلك اليوم لم أفكر في شيء سوى أنني انتصرت. أخذت أرقص، وأصفق بيدي، وأغني أغنية من أغاني الجيش.

ثم توقفت وذهبت إلى الحمام لأغسل وجهي. عدت وأخذت أطبع في البداية الملف الأخير، ذلك الذي كتبه بيلبو قبل الهروب إلى باريس. وأثناء حركة الطابعة البطيئة أخذت أتناول الطعام بشراهة، وأشرب من جديد.

عندما توقفت الطابعة، أخذت أقرأ، وشعرت باضطراب شديد، ولكنني كنت مازلت غير قادر على الإقرار بأنني أمام اكتشافات مذهلة أم مجرد شهادة شخص مخرف.

ماذا أعرف في الواقع عن جاكوبو بيلبو؟ ماذا كنت قد فهمت عنه في العامين الأخيرين الذي كنت فيهما بجواره تقريبًا كل يوم؟ كم من المصداقية يمكن أن أعطي لمذكرات رجل، اعترف لي بنفسه، أنه كان يكتب في ظروف استثنائية، تحت تأثير الكحول، والدخان، والرعب، منقطعًا تمامًا لمدة ثلاثة أيام عن أي صلة بالعالم؟!

هل الليلة، ليلة الحادى والعشرين من يونيو. أخذت عيناي تدمعان. منذ الصباح وأنا أحدق في الشاشة والخط الصغير المنقط الذي أخرجته الطابعة. سواء كان حقيقة أم

خيال ذلك الذي قرأته فقد قال بيلبو إنه سيتصل في الليلة التالية. كان علي أن أنتظر هنا. كنت أشعر بالدوار. ذهبت مترنحًا إلى غرفة النوم وتركت نفسي لأتهاوى بملابسي على الفراش الذي مازال غير مرتب.

أستيقظت في حوالي الثامنة من نوم عميق، في البداية لم أكن أدرك أين أنا. ولحسن الحظ كان مازال هناك برطمان من القهوة، وصنعت لنفسي بضعة أكواب. لم يدق الهاتف، ولم أجرؤ على الخروج لشراء أي شيء، خوفًا من أن يتصل بيلبو في تلك اللحظات. عدت إلى الآلة وبدأت في طباعة الأسطوانات الأخرى في ترتيب زمني. وجدت ألعابًا، وتدريبات وتقارير حول أحداث عرفتها بالفعل، ولكن من وجهة النظر الخاصة ببيلبو، ولهذا تغيرت وبدت لي مختلفة على ضوء القراءة الجديدة.

وجدت أجزاء من اليوميات، الاعترافات، نسخ مبدئية لمحاولات روائية مسجلة بنبرة مرة لمن يعرف مسبقًا بفشلها. وجدت ملحوظات، بورتريهات أشخاص، كنت أتذكرهم أنا أيضًا، ولكنهم الآن وكأنهم يتخذون شكلاً آخر. أقصد بذلك أنني كنت أشعر بها يسارية أكثر، أو ربما كان نظري فقط هو اليساري. هل هي طريقتي في إعادة تركيب الملحوظات المعتادة لتصبح شكلاً مركبًا مرعبًا في النهاية؟!

بل إنني وجدت ملفًا كاملاً يجمع فقط استشهادات. مأخوذة من قراءات حديثة أكثر لبيلبو، كنت أعرفها بمجرد رؤيتها، كمًا من النصوص المتشابهة قرأناها في تلك الشهور... كانت مرقمة؛ مائة وعشرون. لم يكن الرقم محض مصادفة، أو ربما هي المصادفة التي تبعث على القلق. ولكن لماذا هذه النصوص وليست أخرى؟!.

الآن يمكنني إعادة تفسير نصوص بيلبو، والقصة كلها التي تستحضرها تلك النصوص إلى ذهني، على ضوء ملف الاستشهادات هذا. أتلو تلك النصوص وكأنني ممسك بحبات مسبحة هرطقية. أدرك أن بعضًا منها كان لابد وقد شكل لبيلبو نوعا ما من التحذير، وأملا في النجاة، أم أنني لم أعد قادرًا على أن أميز بين النصيحة الجيدة من تلك الناتجة عن المشاعر المضطربة؟! أحاول أن أقنع نفسي أن قراءاتي أنا هي الصحيحة، ولكن بعد قليل في هذا الصباح شخص ما سيقول لي أنا، وليس بيلبو، إنني مجنون.

أخذ القمر يصعد ببطء في الأفق خلف البريكو. كان المنزل الكبير تسكنه أصوات حفيف غريبة، ربما نمل أبيض أو فئران، أو ربما كان شبح أديلينو كاينيبا... لا أجرؤ

على عبور الردهة، أمكث في حجرة الخال كارلو، وأنظر من النافذة، ومن حين لآخر أذهب إلى الشرفة، لأتأكد إذا كان هناك أحد يقترب أو يصعد الهضبة. يبدو لي وكأنني في فيلم، شيء مثير للشفقة: "هاهم الأشرار قادمون ..."

إلا أن الهضبة كانت هادئة في تلك الليلة الصيفية.

كانت الأحداث التي قمت بإعادة بنائها لأتحايل على الزمن، ولأبقى على قيد الحياة بينما أقف في المنظار منذ يومين بين الساعة الخامسة إلى العاشرة مساءً، أحداث مليئة بالإثارة، مشكوك فيها، ويسكنها الشر. كنت أقف هناك أحاول أن أحرك الدماء في جسدي، أحرك قدماي ببطء وكأنني أتبع إيقاع أفرو ـ برازيلي.

من خلال إعادة التفكير في السنوات الأخيرة، بعد أن تركت فيها نفسي فريسة للنقر المتتابع لطبلة الأتاباك، بدأت في قبول الكشف بأن خيالاتنا، التي بدأت كرقصة باليه آلية، على وشك التحول، الآن في معبد آلهة الأشياء الآلية، إلى طقس، استحواذ، ظهور وسيطرة الإله إيكسو.

في تلك الليلة في داخل المنظار لم يكن لدي أي دليل على أن ما كشفته لي الأوراق المطبوعة حقيقيًا. كنت مازلت أستطيع أن أحمي نفسي بالشك. مع حلول منتصف الليل كنت سأدرك أنني قد جئت إلى باريس واختبأت كأحد اللصوص في متحف تكنولوجي عادي، فقط لأنني دخلت ببلاهة في رقصة ماكومبا منظمة للسائحين وتركت نفسيَ لأقع تحت تأثير التنويم المغناطيسي للمؤدين، ولإيقاع البونتوس.

بينما أحاول إعادة تركيب ذلك اللغز، تغيرت مشاعري من الاندهاش للشفقة وصولاً إلى الشك، أتمنى لو استطعت الآن أن أخلص نفسي من ذلك الصفاء الذهني وأن أستعيد ذلك التذبذب نفسه بين الوهم التصوفي والشعور باقتراب فخ ما. أتمنى أن أستعيد ما فكرت فيه بينما كنت أتأمل في تلك الوثائق التي قرأتها بسرعة جنونية في اليوم السابق وصباح ذلك اليوم في المطار وأثناء الرحلة المتجهة إلى باريس.

كنت أحاول أن أوضح لنفسي الطريقة غير المسئولة التي وصلنا بها أنا وبيلبو وديوتاليفي إلى إعادة كتابة العالم. وكما قال لي ديوتاليفي ـ إعادة اكتشاف أجزاء الكتاب التي حُفرت عليه بنيران بيضاء، في المساحات الفارغة التي تركتها النيران السوداء التي تسكن التوراة بل وتبدو وأنها تفسرها.

ها أنا هنا الآن، بعد يومين من تلك الليلة داخل المنظار، وبعد أن حققت - كما أتمنى السعادة والاستسلام للقدر، أستطيع أن أعيد تلاوة القصة التي أعدت بناءها بشغف (متمنيًا أن تكون غير حقيقية). تلك القصة التي قرأتها منذ يومين في شقة بيلبو، والتي عشت فيها دون أن أعي لمدة اثني عشر عامًا، بين ويسكي بيلادي وتراب دار نشر جاراموند.

(٣)

BINAH

بينه _ الفهم

Krakow, Wydawnictwo Literackie, 1977, Stanislaw J .Lec, Aforyzmy Fraszki, "Mysli Nieuczesane"

إن بداية الدراسة الجامعية بعد عامين من عام ١٩٦٨ هو مثل القبول في أكاديمية سان سير عام ١٩٩٣. يكون لدى المرء الشعور بأنه ولد في العام الخطأ. ومن جهة أخرى أقنعني بعد ذلك جاكوبوبيلبو، والذي كان يكبرني بخمسة عشر عامًا على الأقل، بأن هذا هو الشعور الذي ينتاب الجميع بغض النظر عن الجيل. يولد المرء غالبًا في التوقيت الخطأ، وبالتالي في البرج الخطأ، ولكي يعيش في هذا العالم بطريقة محترمة فهذا يعني محاولة تصحيح برجه يوما بيوم.

أعتقد أننا نصبح ما علمنا أبونا أن نكون، في الوقت الميت الذي لم يكن يحاول فيه أن يربينا. في الوقت الذي نتكون على بقايا الحكمة. كان عمري عشر سنوات وأردت أن يشترك لي والدي في مجلة أسبوعية كانت تنشر روائع الأدب في شكل قصص مصورة، وكان أبي، ربما لأنه يشك في تلك المجلات المصورة وليس بسبب البخل، يحاول أن يراوغ. عندئذ قلت "إن هدف المجلة العميق هو التعليم بطريقة مسلية" وأنا أقرأ إعلان السلسلة، لأنني كنت صبيًا خبيثًا ومقنعًا. قال أبي، دون أن يرفع عينيه عن الجريدة التي كان يقرأها. "إن هدف مجلتك هو هدف كل الجرائد الأخرى، وهو بيع أكثر عدد ممكن من النسخ."

منذ ذلك اليوم أصبحت شكاكا. ندمت لأنني كنت بهذه السذاجة، وتركت اندفاعي وراء شهوة عقلي تقودني، وهذا ما أسميه أنا سذاجة. ليس هذا معناه أن الشكاك لا يجب أن يصدق شيئا. فهو لا يصدق كل شيء بالجملة. بل يصدق شيئا في البداية، ثم يصدق شيئا آخر إذا كان ينحدر بطريقة أو بأخرى من الشيء الأول، ويستمر ويتقدم بطريقة قصيرة النظر، منهجية، ولا يجرؤ على النظر إلى الأفق. فالسذاجة هي

تصديق شيئين غير متجاورين وذلك بزعم أنه في مكان ما هناك شيء ما ثالث خفي يجمعهما.

والشك لا يستبعد الفضول، بل يرضيه. لا أثق في سلاسل الأفكار، وإنما أحب من الأفكار تعدد أصواتها. يكفي ألا تصدق، لتتمكن فكرتان. كلاهما مزيفتان. من الاصطدام ليخلقا فاصلا محببا، على طريقة "الشيطاني في الموسيقى[11]". لم أكن أحترم الأفكار التي يقسم الآخرون على صحتها بحياتهم، ولكن فكرتين أو ثلاث من تلك التي لم أكن أحترمها كان يمكنها أن تصنع نوعا من الألحان. أو إيقاعًا، وأستحسن أن يكون إيقاع جاز.

بعد عدة أعوام قالت لي ليا: "أنت تعيش على الأشياء السطحية، تبدو أحيانًا شخصًا عميقًا وذلك لأنك تعشق الكثير من تلك الأشياء وتكون منها انطباعًا بالعمق والتماسك. ولكن سينهار ذلك التماسك على الفور إذا حاولت إيقافه على قدميه".

ـ أتقصدين بذلك أنني سطحي؟

أجابتني: "لا، إن ذلك الذي يسميه الآخرون عمقا ليس سوى مكعب ثلاثي الأبعاد، تدخله من جهة وتخرج منه من الأخرى، وتجد نفسك في عالم لا يمكن أن يتوافق في وجوده مع عالمك".

(ليا، لا أعرف إذا كنت سأراك مرة أخرى، الآن بعد أن دخلوا هم من الجانب الخطأ للمكعب وغزوا عالمنا، وذلك بسبب خطأي: فلقد جعلتهم يعتقدون أنه يوجد عمق ما، ذلك العمق الذي تمنوه هم في لحظة ضعفهم).

ما الذي كنت أفكر فيه بالفعل منذ خمسة عشر عامًا؟ عند إدراكي بأنني لا أصدق شيئًا كنت أشعر بالذنب في تواجدي بين العديد ممن يصدقون. ونظرًا لأنني كنت أشعر أنهم يقفون في الجانب الصواب، قررت أن أصدق، ولكن كنت أفعل ذلك وكأنني أتناول مسكنًا ما، مسكنًا لا يتسبب في أعراض جانبية ويشعرك بتحسن.

وجدت نفسي في وسط الثورة، أو على الأقل في وسط أروع تظاهر على الإطلاق، باحثًا عن تصديق مشرف. ورأيت أن الاشتراك في التجمعات والمظاهرات مُشرف، كنت أصرخ مع الآخرين "فاشيين، برجوازيين، جانت ساعتكم!"، لم أكن أقذفهم بالحجارة ولا

(١١) عنوان كتاب ألفه جورجو فيجولو عام ١٩٦٧.

بالقطع المعدنية لأنني كنت أخشى دائمًا أن يفعل بي الآخرون ذلك الذي أفعله بهم، ولكنني كنت أشعر بنوع من الإثارة المعنوية عندما كنت أهرب في طرقات وسط البلد المختلفة عندما تصل قوات الشرطة. كنت أعود إلى المنزل وأنا أشعر بأنني أنجزت عملاً ما.

في التجمعات لم أكن أستطيع أن أشعر بالإعجاب تجاه التناقضات التي كانت تتقاسمها الفرق المختلفة. كنت أشك في أنه ربما كان يكفي استبدال عبارة بعبارة أخرى للانتقال من جماعة إلى أخرى. وكنت أتسلى في محاولة العثور على العبارة المناسبة. كنت أنتقل من نغمة إلى أخرى.

نظرًا لأنه كان يحدث لي عندئذ، في المسيرات، أن أسير خلف لافتة أو أخرى لأتبع فتاة أثارت إعجابي، استنتجت من ذلك أن النشاط السياسي للعديد من رفاقي ليس سوى خبرة جنسية - ولكن الجنس شهوة - بينما في الحقيقة، لم أكن أرغب سوى في إشباع فضولي. في أثناء قراءاتي عن فرسان المعبد، وعن الصفات الوحشية المتنوعة، والتي كانت تُنسب إليهم، اصطدمت بتأكيد الفيلسوف كاربوكراتس الغنوصي أنه للتحرر من طغيان الملائكة، سادة الكون، لابد من اقتراف كل المعاصي، متحررين بذلك من كل الديون الواجبة نحو الكون ونحو أجسادنا، وفقط بارتكاب كل الأفعال يمكن للروح أن تتحرر من شهواتها، والعثور على نقائها الأصلي. وبينما كنا نبتدع الخطة اكتشفت أن الكثير ممن أدمنوا الطقوس السرية، كانوا يتبعون ذلك الطريق وصولاً للاستنارة.

لكن آليستر كرولي، والذي عُرف بأنه أكثر الرجال فسادًا على مدار العصور، والذي كان بالتالي يقوم بكل ما يمكنه عمله مع المؤمنين من الجنسين، كانت علاقاته، تبعًا لما جاء في سيرته - فقط مع نساء غاية في القبح (وأتخيل أيضًا أن الرجال - مما قرأته - لم يكونوا أفضل بكثير)، وبقي لدي الشك أنه لم يمارس قط الحب إلى الامتلاء. لابد أن الأمر مرتبط بعلاقة ما بين التعطش للسلطة والعجز الجنسي. كان ماركس يعجبني لأنني كنت متأكدًا أنه يمارس الحب مع جيني بسعادة. يمكن للمرء أن يستشعر ذلك من التنهدات الهادئة في كتاباته أو من نزعته المرحة. ولكن في أحد الأيام في ممرات الجامعة قلت إنه عندما يذهب المرء دائمًا إلى الفراش مع الزعيمة كروبسكايا ينتهي الأمر عادة بكتابة كتاب فاشل مثل النزعة المادية ونزعة النقد الإمبريالية. كدت أتعرض للضرب وقالوا إنني فاشي. قال هذا شخص طويل القامة وله شوارب على طريقة التتار. مازلت أذكره جيداً، الآن حلق شعره بالكامل وينتمي إلى جماعة تضفر السلال.

بينما أستعيد مشاعر تلك الفترة فقط لأعيد بناء تلك الروح التي اقتربت بها من جاراموند وتعاطفت مع جاكوبو بيلبو وكيف كانت. وصلت إلى أنني كنت أمتلك روح من يواجه المناقشات حول الحقيقة وعلى استعداد أن يصحح مسوداتها. كنت أعتقد أن المشكلة الأساسية أنه إذا قيلت عبارة مثل: "أنا هو ذلك الذي" هو أن نقرر، أين نضع علامة الترقيم، داخل أم خارج التنصيص.

لذلك كان اختياري السياسي هو فقه اللغة، وفي تلك الأعوام كانت جامعة ميلانو نموذجية. بينما في كل أنحاء البلد كانوا يغزون الفصول الدراسية ويهاجمون الأساتذة، مطالبين إياهم أن يتحدثوا فقط عن العلوم البروليتارية، كان لدينا، باستثناء بعض الحوادث البسيطة، كان يكفي التوصل إلى عهد تأسيسي أو حل وسط محلي . كانت الثورة تحتل المنطقة الخارجية والمدرج الكبير الرئيسي والممرات الضخمة، بينما تم عزل وحماية وضمان الثقافة الرسمية بداخل الممرات الصغيرة والأدوار العليا، حيث كان الحديث يتواصل وكأن شيئا لم يكن.

وهكذا كنت أستطيع أن أقضي الصباح في الأسفل أناقش العلم البرولتياري والظهيرة في الأعلي أناقش المعرفة الأرستقراطية. كنت أعيش كما يحلو لي في هذين العالمين المتوازيين ولم أكن أشعر بأي تناقض على الإطلاق. كنت أؤمن أنا أيضًا أن مجتمع المساواة على الأبواب، ولكنني كنت أقول لنفسي إنه في ذلك المجتمع القادم، لابد وأن تعمل القطارات (على سبيل المثال) بطريقة أفضل من الآن، ولكن الثوار الذين يحيطون بي لا يتعلمون تلقيم الفحم في الغلايات، أو يهتمون بالتحويلات أو يعدون جدول المواعيد. كان لابد وأن يتهيأ أحد لتسيير القطارات.

كنت وبقليل من الندم أشعر بنفسي وكأنني ستالين يضحك تحت شواربه ويفكر: "افعلوا ما تريدون، أيها البلاشفة المساكين، أما أنا فسأدرس في معهد تبليس وسأقترح عليكم أنا الخطة الخمسية".

ربما لأنني كنت في الصباح أعيش بداخل هذا الجو من الحماس، وفي الظهيرة كنت أجد نفسي أتعامل بشك مع المعرفة، فقد أردت أن أدرس شيئا ما يسمح لي أن أقول شيئا يمكن تأكيده على أساس الوثائق، لتمييزه عن كل ما يظل رهنا بالإيمان.

التحقت، لأسباب تقودها الصدفة البحتة، بدورة دراسية عن تاريخ العصور الوسطى واخترت بحثًا حول فرسان المعبد. جذبني تاريخ فرسان المعبد بشدة، منذ أن وقعت

عيناي على الوثائق الأولى. في تلك الفترة التي كان فيها الصراع ضد السلطة، كنت أسخط بشدة من تاريخ المحاكمة، والذي يمكن تسامحًا وصفها بالصورية، والتي على إثرها أرسلوا الفرسان إلى المحرقة. لكنني كنت قد اكتشفت مبكرا، أنه منذ أن تم إرسالهم إلى المحرقة، حاول العديد من صائدي الأسرار أن يفتشوا عنهم في كل مكان دون أن يعثروا على دليل واحد. هذه المبالغة في الرؤى كان تثير نزعتي التشككية، وقررت ألا أفقد المزيد من الوقت مع هؤلاء الصائدين، وركزت فقط على وثائق تلك الحقبة. كان نظام فرسان المعبد نظام رهبنة وفروسية، وكان موجودًا مادامت الكنيسة تعترف بوجوده. فإذا حلت الكنيسة هذا النظام، وقد فعلت ذلك حقا منذ سبعة قرون، لم يكن لفرسان المعبد أن يكونوا موجودين، وإذا وجدوا فليس بصفتهم فرسان المعبد. وهكذا، وبعد أن عثرت على الأقل على مائة كتاب، لم أقرأ منها سوى ثلاثين فقط.

كانت بداية معرفتي بجاكوبو بيلبو عن طريق فرسان المعبد، وكان ذلك في بيلادي، عندما كنت قد بدأت بالفعل العمل في رسالة التخرج، في نهاية عام ٧٢.

(٨)

جئت من النور ومن الآلهة، وها أنا في المنفي، منفصل عنهم.

(جزء من الثورفان M7 Turfa'n)

كان بار بيلادي في تلك الأزمنة هو المنطقة الحرة، المقهى الفضائي الذي يلتقي فيه الغزاة من الكائنات الفضائية، والتي تعيش على الأرض بالقرب من رجال المملكة، وتحرس مناطق فان آلين. كان بارًا قديمًا بالقرب من أحد الموانى، به طاولة للحساب من الصفيح، ومائدة بلياردو، وكان يتردد عليه سائقو الترام المحليون وأصحاب المهن في الصباح الباكر ليحتسوا كأسا من النبيذ الأبيض. في عام ٦٨، وفي الأعوام التالية له، أصبحت بيلادي قهوة على نمط الريك Rick الأمريكية التي يمكن أن تجد فيها المناضل في الحركة على المائدة نفسها يلعب الورق مع صحفي في الجريدة القومية، والذي يذهب ليحتسي كأسًا من الويسكي بعد الانتهاء من عمله، بينما تتحرك الشاحنات لتوزع على بائعي الصحف أكاذيب النظام. ولكن في بار بيلادي أيضًا كان الصحفي يشعر بأنه عامل مُستغل، منتج لفائض القيمة مقيدًا بالإيديولوجيات، وكان الطلبة يصفحون عنه.

بين الساعة الحادية عشرة مساء والثانية صباحًا كان يمر بالبار موظفو النشر، مهندس معماري، محرر صفحة الحوادث الذي كان يتطلع للترقي والانتقال إلى صفحة الأدب، رسامو أكاديمية بريرا، وبعض الكتاب المتوسطين والطلبة أمثالي.

كانت القاعدة تحتم شرب الحد الأدنى من الكحوليات، وبينما يعد بيلادي العجوز زجاجات النبيذ الأبيض الكبيرة استعدادًا لوصول سائقي الترام وزبائنه الأرستقراطيين، كان يستبدل البيرة والكريم الصودا بنبيذ البيتييون واضعًا عليها اسمها الحقيقي للمثقفين وأغلفة جوني والكر للثوريين. كان يمكنني أن أكتب التاريخ الثوري لتلك الأعوام بتسجيل الزمن والطريقة التي أفسح بها ويسكي ريد لابل الطريق تدريجيًا لزجاجات بالانتين المعتقة اثني عشر عامًا، وأخيرا البوظة.

أمام طاولة البلياردو القديمة كان النقاشون وقائدو الموتوسيكلات مازال كل فرقة منهم تتحدى الأخرى في اللعب، ولكن مع وصول نوع جديد من العملاء وضع بيلبو آلة إلكترونية للعب الكرة، الفليبرز.

لم أستطع قط الاحتفاظ بالكرة لفترات طويلة. في البداية اعتقدت أن ذلك لشرودي، أو لعدم مرونة يدي، ولكنني، بعد ذلك بأعوام، فهمت الحقيقة، وأنا أرى لورينزا بيلليجريني وهي تلعب. في البداية لم ألتفت إليها، ولكنني أعطيتها تركيزي في إحدى الإمسيات وأنا أتبع نظرات بيلبو.

كانت طريقة بيلبو في الجلوس على البار تعطي الإيحاء أنه يمر مر الكرام (بينما هو يسكنه على الأقل منذ عشرة أعوام)، كان يتدخل كثيرًا في الحوارات سواء على الطاولة أو على مائدة صغيرة، ولكنه كان دائمًا يتدخل ليلقي بمزحة توقف الاندفاعات الحماسية لأي شيء في الحديث. وكان يفعل هذا أيضًا بطريقة أخرى: طرح سؤال. إذا كان أحد يحكي حدثا ما، واندمج رفاقه تمامًا، كان بيلبو ينظر إلى المتحدث بعينيه الشاحبة، والتي كانت دائمًا شاردة، وهو ممسك بكوبه متدليًا بجواره، وكأنه نسي أن يشرب منذ فترة، وكان يسأل: "ولكن هل حدث هذا حقًا؟" أو "ولكن هل قال هذا فعلاً؟". لا أعرف ماذا كان يحدث عندئذ، ولكن الجميع في هذه اللحظة يبدءون في الشك في القصة، بما فيهم الراوي. ربما كان سيرجع ذلك لأسلوبه البيومونتي في الحديث، والذي يحول كل تأكيداته إلى تساؤلات وكل تساؤلاته إلى سخرية. كانت طريقة بيومونتي لدى بيلبو أيضًا في التحدث دون النظر طويلاً في عيني المخاطب، ولكن ليس كشخص يهرب من النظر. إن نظرة بيلبو لا تتهرب من الحوار، ولكنها ببساطة لا تكون قد انتبهت إليه، فبمجرد الحركة، والتركيز فجأة على نقط التقاء متوازية في نقطة غير محددة من الفراغ، تجعلك تشعر وكأنك، حتى تلك اللحظة، كنت قد ركزت بغباء على النقطة الوحيدة التافهة.

ليست النظرة فقط، بل الإيماءة أيضًا: مجرد تعبير تعجب واحد من بيلبو له القدرة على أن يضعك في موقف آخر. فلنفترض أنك تبذل قصارى جهدك لتثبت أن كانط كان قد أكمل بالفعل الثورة الكوبرنكية للفلسفة الحديثة، وكأنك توقف مصيرك كله على ذلك. عندئذ قد ينظر بيلبو، الجالس أمامك، فجأة ليديه، أو يحدق في ركبتيه أو أن يغمض عينيه فاسحًا الطريق أمام ابتسامة إيتروسكية، أو أن يمكث لبضع ثوان

فاغرًا فاه، وعيناه تحدقان في السقف ثم وبهمهمة خفيفة "بالتأكيد كانط.."، أو إذا كان سيشغل نفسه بوضوح أكثر في هجوم على نظام النزعة المثالية السامية بأكمله: "هل تعتقد فعلاً أن كانط قصد كل هذه الأشياء؟" ثم كان سينظر إليك بكل اهتمام، وكأنك أنت وليس هو من قام بزعزعة هذا السحر، ثم كان سيشجعك: "أستمر، استمر.. لأنه بالتأكيد هناك شيء ما.. شيء ما موجود يمكن أن... فالرجل كان بالفعل عبقريا".

وأحيانًا، عندما يكون في قمة غضبه، يفقد تماسكه. ونظرًا لأن الشيء الوحيد الذي كان يثير غضبه هو فقد الآخر لاتزانه، فكان عدم اتزانه هو في المقابل داخليًا ومحليًا. كان يعض شفتيه ثم يوجه عينيه في البداية إلى السماء، ثم يحني نظرته، ثم رأسه إلى اليسار وإلى أسفل، ويقول بصوت منخفض بلهجة بيومنتي عبارة معناها "فلتنزع السدادة .." وهي عبارة تُقال لمن يعاني من تضخم الذات، فمن المفترض أنه قد وصل إلى هذه الحالة غير العادية بسبب ضغط سدادة مغروسة في مؤخرته، والتي إذا نزعها.. نفث الهواء، سيعود إلى طبيعته الإنسانية".

وكانت ملحوظاته تلك قادرة على جعلك تدرك تفاهة كل شيء، وكنت أنا مفتونا بها. ولكنني استخلصت منها درسًا خطأ، لأنني كنت قد اخترتها كنموذج لأقصى وسائل احتقار تفاهة حقائق الآخرين. الآن فقط وبعد أن اقتحمت أسرار أبو العافية، وبالتالي أسرار نفس بيلبو، أعرف أن ذلك الذي كان يبدو لي سحرًا، والذي كنت قد رفعته أنا إلى أحد مبادئ الحياة، لم يكن بالنسبة إليه سوى شكل من أشكال الحزن. كان احتقاره الفكري المتحرر هذا يخفي عطشًا يائسًا للمطلق. كان من الصعب إدراك ذلك على الفور، لأن بيلبو كان يعوض لحظات الهروب والتردد والابتعاد بلحظات من الحوار الهادئ الممتع، يتسلى خلاله بإنتاج مطلقات بديلة، يصاحبها إلحاد منشرح. كان ذلك عندما كان يبني مع ديوتاليفي كتيبات إرشادات عن العوالم المستحيلة المقلوبة في قائمة المراجع للعوالم الممسوخة. وعند رؤيته هكذا، مندمجًا بكل حماس في تأسيس جامعة السوريون الثورية، كان ذلك يعوقنا عن فهم كم هو يتألم بالفعل من طرده من كلية اللاهوت، الكلية الحقيقية.

أدركت فيما بعد أنني قمت بإلغاء العنوان، بينما أخفاه هو، ومنذ أن فعل ذلك لم يهدأ له بال.

في ملفات أبو العافية وجدت العديد من الصفحات ليوميات باسم مستعار عهد بها بيلبو لسر الأسطوانات، واثقًا من أنه لم يخن موهبته، التي كثيرًا ما أكدها، كمجرد متفرج على العالم. بعض تلك الملفات تحمل تواريخ قديمة، بالتأكيد كان قد أعاد فيها كتابة بعض ملحوظاته، ربما شعورًا بالحنين، أو ربما لأنه كان يفكر في إعادة تداولها بطريقة ما. وملفات أخرى تحمل تواريخ حديثة، منذ اللحظة التي وُضع فيها أبو العافية بين يديه. كان يكتب بغرض اللعب الآلي، ليتأمل وحده في أخطائه الخاصة، كان يوهم نفسه بأنه لا "يُبدع" لأن الإبداع، حتى وإن كان ينتج الخطأ، يتم دائمًا حبًا في شخص مختلف عن ذواتنا وليس حبًا في ذواتنا... ولكن بيلبو دون أن يدري كان قد عبر إلى الجانب الآخر من المجرة. كان يُبدع، ولم يكن قد فعل ذلك قط من قبل؛ إن حماسه للخطة وُلد من هذه الحاجة لأن يؤلف كتابًا، كتاب لا يتناول سوى الأخطاء القاسية المقصودة. طالما ظل المرء في مساحته الخاصة يمكنه أن يتظاهر بأنه على صلة بالواحد، ولكن بمجرد أن يمسك العجينة بين يديه ليعبث بها، حتى وإن كان ذلك آليًا، يتحول بدوره لصانع الكون، وبالتالي ينهمك في عالم ملوث بالفعل بالفساد وبالشر.

اسم الملف: ثلاث سيدات حول الجسد...

إن الأمر كذلك بالفعل: كل النساء اللاتي قابلتهن يتوجهن صوب الأفق ـ بالإيماءات التي يرثى لها والنظرات الحزينة مثل إشارات المرور الضوئية تحت الأمطار...

فلتتطلع إلى أعلى يا بيلبو، الحب الأول، مريم البتول، أمي التي تغني لي وهي تضعني في حضنها وكأنها تهدهدني، في اللحظة التي لم أعد فيها بحاجة إلى أغنيات ما قبل النوم، ولكنني كنت أطلب منها أن تغني لي، لأنني كنت أحب صوتها، وعطر اللافاندر الذي يتصاعد من حضنها: "أيتها الملكة، ملكة الكون ـ يا نقية ـ يا جميلة ـ سلام عليك يا ابنة، يا عروسة ويا آمة، سلام عليك يا أم المخلص".

شيء طبيعي: المرأة الأولى في حياتي لم تكن لي، كما أنها لم تكن لغيري. على الفور وقعت في حب المرأة الوحيدة القادرة على عمل كل شيء بدوني.

ثم بعد ذلك ماريلينا (ماريلينا؟ أم ماري لينا؟). وصف الغسق بطريقة غنائية، الشعر الذهبي، رباط الشعر الأزرق الكبير، وأنا أجلس مستقيمًا وأنفي إلى أسفل أمام مقعد الحديقة، وهي تسير في توازن على حافة المقعد ذراعاها منبسطان في محاولة لاتزان

اهتزازاتها (وانقباضاتها اللذيذة)، التنورة تتطاير بخفة حول فخذيها الورديين. هناك في أعلى، لا يمكن الوصول إليها.

مسودة صغيرة: في ذلك المساء كانت أمي ترش مسحوق التلك على الجسد الوردي لأختي، سألتها متى سينمو لديها العضو الذكري، كشفت لي أمي عن أن الفتيات لا ينمو لديهم أي شيء آخر ويبقون هكذا. وأرى فجأة مرة أخرى ماري لينا، وبياض لباسها الداخلي الذي كان يظهر أسفل تنورتها الزرقاء التي كانت ترتفع، وأدرك أنها شقراء وعالية ولا يمكن الوصول إليها لأنها مختلفة ولا يمكن تواجد أي علاقة بيننا، فهي تنتمي لجنس آخر.

المرأة الثالثة فقدتها على الفور في الهاوية التي سقطت فيها. كانت قد ماتت توًا في الحلم، أوليفيا الشاحبة بين الزهور الموضوعة على تابوت عذريتها، وبينما يتلو الكاهن صلوات الموتى، تنهض فجأة مستقيمة على منصة النعش مقطبة حاجبها بيضاء، منزوية، منتقمة، فاردة إصبعها، وبصوت رنان: "أيها الأب، لا تصل من أجلي. في هذه الليلة قبل أن أنام ارتكبت معصية الفكر النجس، الوحيدة في حياتي، والآن قضي علي". لابد لي من العثور على كتاب أول مناولة، هل كانت تلك الصورة فيه أم أنني تخيلت كل هذا وحدي؟

بالتأكيد ماتت وهي تفكر في، الفكر النجس، كنت أنا الذي يشتهي ماري لينا التي لا يمكن لمسها لأنها من نوع ومصير آخر. أنا المدان لهلاكها، فأنا مدان لهلاك أي هالك، صحيح أنه لم تكن لي أي من النساء الثلاثه، ولكنني سأُعاقب بسبب رغبتي فيهن.

أفقد الأولى لأنها في الفردوس، والثانية لأنها تحقد في المطهر على العضو الذكري الذي لم يكن قط لها، والثالثة لأنها في الجحيم. كل شيء رائع من الناحية اللاهوتية. ومحدد مسبقًا.

ولكن هناك أيضًا قصة شيشيليا، وشيشيليا مازالت في الأرض. كنت أفكر فيها قبل أن أذهب للنوم، كنت أصعد إلى الهضبة لأخذ اللبن من الحظيرة، وبينما يطلق الفدائيون النيران من فوق الهضبة المقابلة على نقطة التفتيش رأيت نفسي وأنا أهرع لإنقاذها، محررا إياها من شرنقة الحراس السود، والذين كانوا يطاردونها مشهرين مدافعهم الرشاشة... كانت شقراء أكثر من ماري لينا، وقلقة أكثر من فتاة النعش، وأكثر

نقاء من العذراء. شيشيليا الحية والتي يمكن الوصول إليها، كان يكفي مجهود بسيط لأتمكن من التحدث معها، وكنت واثقا من أنها يمكن أن تحب واحدا من جنسي، والحقيقة أنها كانت تحبه، كان اسمه بابي، شعره أشقر ينسدل على جمجمة صغيرة الحجم، أكبر مني بعام، كان يعزف الساكسافون. ولم أكن أنا أعزف ولا حتى البوق. لم أكن قد رأيتهما معًا قط، ولكن العازفين كلهم كانوا يهمسون وهم يتندرون بأنهما يمارسان الحب معًا. كانوا يكذبون بالتأكيد، هؤلاء الفلاحون يتصرفون كالماعز...كانوا يريدون أن يجعلوني أفهم أنها هي (هي، ماريلينا شيشيليا العروس الملكة) كان يمكن لمن يريدها أن ينالها...على كل حال - وفي الحالة الرابعة هذه - كنت أنا خارج اللعبة.

هل يمكن كتابة رواية عن قصة مثل هذه؟! ربما يجب علي أن أكتب الرواية عن النساء اللاتي هربت منهن، لأنني استطعت الحصول عليهن... أو كان يمكنني ذلك. آه إنها القصة نفسها تتكرر.

على كل، عندما لا يعرف المرء عن أي القصص يحكي من الأفضل أن يعمل على تصحيح كتب الفلسفة.

(٩)

وكان يمسك في يده اليمنى بوقا ذهبيا

(John Valentin Andrae, Die chysmische Hochzeit des Christian Rosencreutz, Strassburg, zetzner, 1616, 1)

وجدت في هذا الملف إشارة للبوق. في اليوم السابق وبداخل المنظار لم أكن أعرف بعد أهميته. لم يكن لدى سوى إشارة شاحبة وهامشية.

أثناء الأمسيات الطويلة في الجاراموند، كان بيلبو أحيانا، عندما يشعر بالإحباط من مخطوط ما يرفع عينيه عن الأوراق ويحاول أن يحول انتباهي أنا أيضًا، بينما كنت أحاول أن أرقم في الجدول الموضوع أمامي حفريات قديمة عن الاكتشاف الكوني. وكان يترك نفسه لينساق مع الذكريات، محاولاً دائمًا أن يسدل الستار على الفور إذا ساوره الشك في أنني بدأت آخذ كلامه مأخذ الجد. كان يستحضر دائمًا ماضيه، ولكن فقط على سبيل المثال، وذلك ليعقب على بعض الأشياء التافهة. في أحد الأيام قال لي: إنني أتساءل أين سينتهي بنا الحال.

- هل تتحدث عن غروب الحضارة الغربية؟

- هل ستغرب؟ في النهاية هذه هي وظيفة الشمس، ألا ترى هذا؟ لا.. إنني أتحدث عن ذلك الجزء من الناس الذين يمارسون الكتابة. المخطوط الثالث هذا الأسبوع مخطوط عن القانون البيزنطي، ومخطوط عن العصر الذهبي في النمسا والثالث عن مقطوعات جورجو بافو الشعرية. أشياء مختلفة تمامًا فيما بينها، ألا ترى ذلك؟

- أعتقد.

- حسنًا هل كان يمكن أن تعتقد أن تظهر في المخطوطات الثلاثة عند نقطة معينة الرغبة وموضوع الحب؟ إنها الآن بدعة. أستطيع أن أفهم البافو، ولكن القانون البيزنطي..."

- بالتالي قررت إلقاءها في سلة المهملات.

- بالطبع لا ، إنها أعمال يمولها بالكامل المجلس القومي للأبحاث، ثم إنها ليست أعمالاً سيئة. أقصى ما يمكنني عمله هو أن أدعو الثلاثة وأطلب منهم إذا كان في الإمكان حذف بعض السطور. فهذا ليس مناسبًا لهم أيضًا.

- وماذا يمكن أن يكون موضوع الحب في القانون البيزنطي؟

- آه، هناك دائمًا وسيلة لإدخاله في كل شيء. طبيعي أنه إذا كان في القانون البيزنطي وجود لموضوع الحب، لن يكون ذلك الذي يقوله هو، بالتأكيد ليس هذا.

- ماذا تقصد؟

- أقصد الذي تفكر فيه أنت. ذات مرة كان عمري حوالي ٤ أو خمسة أعوام، وحلمت أن لدي بوقًا. بوقًا ذهبيًا. أتعرف، كان أحد تلك الأحلام الذي يشعرك وكأن العسل يجري في عروقك، نوع من اللذة التي يمكن تحدث لك ليلاً! لا أعتقد أنني شعرت بالسعادة التي شعرت بها في هذا الحلم من قبل. ولم يتكرر هذا الشعور بعد ذلك. طبيعي عندما استيقظت أدركت أن البوق لم يعد موجودًا، وأخذت أبكي كطفل صغير، بكيت طيلة اليوم. إن عالم ما بعد الحرب كان بالفعل عالمًا فقيرًا، أقصد في عام ثمانية وثلاثين. اليوم إذا كان لديك ابن ورأيته حزينًا إلى هذا الحد، ستقول له، هيا بنا، سأشتري لك بوقًا ـ كان الأمر يتعلق بلعبة، ولم يكن سيكلف ثروة. ولكن أبوي لم يفكرا حتى في هذا الحل. فالإنفاق، إنفاق أي شيء في ذلك الوقت كان شيئًا جد خطير. وكان من الضروري تربية الأبناء على ألا يمتلكوا كل ما يرغبون فيه. كنت أقول لهم أنا لا أحب الكرنب في الحساء، وكان حقيقيًا، وأتناول فقط الطبق الرئيسي (نحن لم نكن فقراء، كان لدينا طبق أول، وثاني وفاكهة). لا يا سيدي، يجب تناول كل ما هو موجود على المائدة. بل، وللوصول إلى حل وسط، كانت جدتي تبدأ في انتزاع الكرنب من صحني، ورقة تلو الأخرى، وكان علي بعد ذلك تناول الحساء، بعد أن أصبحت أكثر إثارة للغثيان من ذي قبل، ولكن في ذلك تنازل لم يكن أبي يوافق عليه على الإطلاق.

- وماذا عن البوق؟

نظر إلي مترددًا: لماذا يهمك إلى هذا الحد أمر البوق؟

- لا يهمني أنا في شيء، إنك أنت الذي تحدثت عن البوق لتثبت أن موضوع الرغبة ليس هو ما يظن الآخرون.

- "البوق... في تلك الليلة وصل عمي وزوجته من * * *، لم يكن لديهما أبناء، وكنت أنا ابن الأخ المفضل لديهما. عندما شهداني أبكي على شبح ذلك البوق، قالا إنهما سيحلان كل شيء، وأننا، في اليوم التالي، سنذهب سويًا إلى أكبر المتاجر حيث يوجد قسم خاص للعب الأطفال، شيء رائع، وأنني هناك سأجد بالتأكيد البوق الذي أريده. لم أنم لحظة واحدة في تلك الليلة، وأخذت أقفز على قدمي طيلة الصباح التالي. وفي الظهيرة ذهبنا إلى متجر "الأوبيم" وكانت هناك أبواق، على الأقل ثلاثة أنواع منها، ربما كانت أشياء مصنوعة من الصفيح، ولكن بدت لي وكأنها نحاس قيم، وآلات فرق موسيقية عالمية. كان هناك بوق عسكري، الترومبون، وبوق مستعار فقد كانت فيه فتحة فم صغيرة، وكان مذهبا، ولكن كانت له أزرار الساكسفون. لم أكن أعرف أيهم أختار، وربما قضيت في ذلك وقتًا طويلاً. كنت أريدها جميعًا، ولكنني أعطيت الانطباع بأنني لا أريد أيا منها. وفي ذلك الوقت، أعتقد أن قريبي نظر إلى قائمة الأسعار. لم يكونا بخيلين، ولكنني شعرت أنهما وجد أن هناك كلارينت من البلاستيك، لونه أسود بأزرار فضية. قالا لي: ولكن، ألا يعجبك هذا؟، جربته، كانت نغماته معقولة، حاولت أن أقنع نفسي بأنه جميل، ولكنني في الحقيقة كنت أفكر وأقول لنفسي إن قريبي يريدان مني أن آخذ الكلارينيت لأنه أبخس ثمنًا، ولابد أن البوق يكلف الكثير، وإنني لا يمكنني أن أطلب مثل هذه التضحية منهما. فلقد علموني دائمًا أنه عندما يقدم إلي أحد شيئا يعجبني لابد أن أقول على الفور: لا شكرًا! وألا أفعل ذلك مرة واحدة فقط ثم أمد يدي في المرة الثانية، ولكن يجب أن أنتظر حتى يصر من يمنحني الشيء على منحه لي، وأن يقول أرجوك، فقط عند هذه اللحظة يجب على الطفل المؤدب أن يوافق. وهكذا قلت إنني ربما لا أريد البوق، وأنه ربما يكون من الأفضل أن آخذ الكلارينت إذًا كانا يُفضلان ذلك. ونظرت إليهما من أسفل إلى أعلى، وأنا أتمنى أن يصرا على عرضهما بأن أبتاع البوق، ولكنها لم يصرا، أكرمهما الله. كانا سعيدين بأن يشتريا لي الكلارينيت نظرا، كما قالوا، لأنه كان يعجبني، وكان الوقت متأخرًا جدًا لأي محاولة للتراجع، وحصلت على الكلارينت.

ـ نظر إلي بريبة: أتريد أن تعرف إذا كنت حلمت مرة أخرى بالبوق؟

ـ قلت: لا، أريد أن أعرف ما علاقة ذلك بموضوع الرغبة؟

ـ قال: آه ـ وعاد إلى أوراق المخطوط ـ أرأيت، أنت أيضًا تسيطر عليك فكرة الرغبة تلك. إن تلك الأشياء يمكن أن يوظفها المرء كما يريد... ولكن... إذا كنت قد حصلت على البوق؟ هل كنت سأكون سعيدًا بالفعل؟! ما رأيك أنت يا كازاوبون؟

ـ ربما كنت ستحلم بالكلارينت.

ـ لا ـ أجاب بجفاء ـ لقد حصلت على الكلارينت ولا أعتقد أنني عزفت عليه على الإطلاق.

ـ حلمت أم عزفت؟

ـ عزفت. قالها وهو يغيّر نبرة حديثة، ولم أعرف لماذا شعرت بأنني أحمق.

(١٠)

واخيرًا لا يوجد شيء له علاقة بالقابالاه
يمكن استنتاجه من كلمة Vinum إلا عبارة

vis Numeroum التي يعتمد السحر على أرقامها.

(Cesare della Riviera, Il Mondo Magico degli Eroi, Mantova, Osanna, 1603, pp.65-66)

كنت أتحدث عن لقائي الأول مع بيلبو. لقد عرف كل منا الآخر بمجرد أن رآه، كنا قد تبادلنا بعض القفشات. من قبل عند بيلادي، ولكنني لم أكن أعرف الكثير عنه، فقط لأنه يعمل لدى الجاراموند، وكنت قد اطلعت على بعض كتب الجاراموند أثناء دراستي الجامعية. كان ناشرا صغيرا ولكنه جاد. إن شابا مثلي على وشك أن ينتهي من بحث التخرج عادة ما ينجذب نحو أي شخص يعمل في دار نشر تهتم بالثقافة.

في إحدى الأمسيات التي كنا فيها مستندين في أقصى ركن للطاولة الزنك، تدفعنا مجموعة تحتفل بمناسبة عظيمة، سألني: وسيادتك ماذا تعمل؟! وكان ذلك في تلك الفترة التي لم يكن الناس يستخدمون صيغة المجاملة في الحوار، سواء الطلبة مع أساتذتهم أو الأساتذة مع الطلبة. ذلك دون التحدث عما كان يحدث في بيلادي، فقد كان الطالب الذي يرتدي قبعة الإسكيمو يقول لرئيس تحرير إحدى الصحف اليومية الكبيرة: "ادفع أنت ثمن ما شربت". كان يبدو وكأننا في بطرسبرج في زمن الشاب سكلوفسكي، كان الجميع مایاكوفسكي ولم يكن بينهم أي زيفاجو. لم يكن بيلبو يتراجع عن استخدام صيغة "أنت" العامة، ولكن كان من الواضح أنه يستخدمها كنوع من الاحتقار. كان يستخدم ضمير "أنت" كنوع من الرد على السوقية بالسوقية، ولكن كانت هناك هوة سحيقة بين أن تتباسط مع أحد وبين أن تثق فيه. كنت أراه يتحدث بصيغة المخاطب بلطف أو بشغف، مرات قليلة ومع قلة من الأشخاص، مع ديوتالليفي ومع بعض النساء. ولكن لمن كان محط إعجابه، حتى دون أن يعرفهم لمدة طويلة، كان يوجه لهم الحديث بصيغة الاحترام. وهكذا كان يتعامل معي طيلة مدة عملنا سويًا، وكنت أنا أقدر كثيرًا تلك المعاملة الخاصة.

(١٢) العبارة اللاتينية وتعنى سلطة الأرقام.

- وحضرتك ماذا تفعل؟ سألني بلطف، الآن فقط فهمت ذلك.

- قلت: أين في الحياة أم لدى بيلادي؟ وأنا أشير إلى مشهد مقهى بيلادي.

- في الحياة.

- أدرس

- في الجامعة أم تدرس؟

- ألا ترى أن الشيئين لا يتعارضان. أحاول الانتهاء من بحث حول فرسان المعبد.

- قال: آه يا له من شيء سيئ. أليس شيئا فيه مس من الجنون؟

- أنا أدرس الأشياء الحقيقية عنهم، وثائق المحاكمة، ولكن ماذا تعرف سيادتكم عن فرسان المعبد؟

- أنا أعمل في دار للنشر، وفي دار النشر عادة ما يأتي الحكماء والمجانين. ومهنة المحرر هو أن يعرف من أول نظرة أن يميز المجانين. وعندما يبدأ أحدهم في التحدث عن فرسان المعبد، عادة ما يكون مجنونًا.

- لا تحدثني عن هذا. إن اسمهم وحده يكفي. ولكن لا يتحدث كل المجانين عن فرسان المعبد. والآخرون كيف تتعرف عليهم؟!

- بحكم المهنة الآن سأشرح لسيادتك، حضرتك شاب. بهذه المناسبة، ما اسمك؟

- كازاوبون.

- ألم يكن شخصية في رواية منتصف مارس؟!

- لا أعرف، وكان أيضًا اسم فيلولوجي من عصر النهضة، على ما أعتقد، ولكننا لسنا أقارب.

- هل تحب أن تشرب شيئًا؟ الطلب نفسه يا بيلادي مرة أخرى، شكرًا. إذن في العالم يوجد: البلهاء والحمقى، الأغبياء والمجانين.

- ألا يوجد شيء آخر؟

- نعم ، نحن الاثنين، مثلاً. أو على الأقل، وبلا إهانة، أنا. ولكن على كل حال، فأي شخص، وبالتمعن في النظر، شارك في واحد من تلك التصنيفات. فكل منا أحيانا يكون

أبلهًا أحمقا غبيا أو مجنونا. فلنقل إن الشخص العادي هو الذي يخلط بمقاييس معقولة بين كل تلك التركيبات، تلك النوعيات المثالية.

- رددت عباره "النوعيات المثالية" خلفه باللغة الألمانية.

- ممتاز. أتعرف الألمانية أيضًا؟

- أستخدمها لمعرفة المراجع.

- في زمني من كان يعرف الألمانية لم يكن يتخرج قط. كان يمضي حياته في محاولة تعلمها. أعتقد أن الشيء نفسه يحدث مع اللغة الصينية حاليًا.

- أنا لا أتقنها، لذلك سأتخرج. ولكن لنعد إلى تصنيفاتك النوعية. من هو العبقري. أينشتاين مثلاً؟!

- إن العبقري هو ذلك الذي يلعب بإحدى تلك المكونات بطريقة دائرية، مستفيداً بالمكونات الأخرى.

شرب، وقال: مساء الخير يا أجمل الجميلات. هل حاولت الانتحار مرة أخرى؟

أجابته إحدى المارات: لا، الآن أنا في مجموعة.

قال لها بيلبو: أحسنت. وعاد يتحدث إلي: يمكن أيضًا الانتحار بطريقة جماعية، ألا تعتقد هذا؟!

- ولكن المجانين؟

- أتمنى ألا تكون قد أخذت نظريتي، وكأنها صحيحة وخالصة. أنا لا أقوم بإعادة تنظيم الكون. فأنا أقول من هو المجنون بالنسبة لدار النشر. فالنظرية متخصصة جدًا، اتفقنا؟!

- اتفقنا، الآن أدعوك أنا للشراب.

- حسنًا. بيلادي من فضلك ثلج أقل.

- إذن فالأبله لا يتحدث تقريبًا، يسيل لعابه، ويتشنج. يمكنه أن يضع الآيس كريم على جبهته بسبب نقص التناسق بين أعضائه، ويدخل الباب الدائري من الناحية العكسية.

- وكيف يتصرف؟

- ينجح في الدخول. ولذلك فهو أبله، ولا يهمنا، فيمكنك التعرف عليه على الفور ولا يذهب إلى دور النشر، فلنتركه هنا إذن.

- لنتركه

- لكن أن تكون أحمق هو الشيء الأكثر تعقيدا فهو سلوك اجتماعي. فالأحمق هو من يتحدث دائمًا خارج الكوب.

- بمعنى؟!

- هكذا.

وأشار بأصابعه إلى الإطار المحيط بكأسه، فهو مثلاً يريد التحدث عن ذلك الموجود بداخل هذا الكأس، كما لو أنه ليس كما هو، يتحدث خارج السياق. هو على نحو عمومي ذلك الشخص الذي يرتكب الحماقات. على سبيل المثال يقول لشخص كيف حال زوجتك الجميلة لشخص هجرته زوجته مؤخرًا. أتفهم ما أقصد؟

- نعم، بل وأعرفهم.

- والأحمق مطلوب جدًا، وخاصة في المناسبات الاجتماعية. فهو يحرج الجميع، ولكنه يمنح الفرصة بعد ذلك لإطلاق التعليقات. وفي شكله الإيجابي يصبح دبلوماسيا. يتحدث خارج الكوب عندما يرتكب الحماقة شخص آخر، ويحول دفة الحديث. ولكنه لا يهمنا، فهو ليس شخصًا مبدعًا على الإطلاق، يتنقل بين الاعمال المختلفة، وبالتالي لا يأتي لتقديم مخطوطات لدور النشر. والأحمق لا يقول إن القطة تنبح، بل يتحدث عن القطة في الوقت الذي يتحدث فيه الجميع عن الكلب. فهو يخطئ في قواعد الحوار، وعندما يخطئ بطريقة حسنة يصبح رائعًا. أعتقد أنه نوع في طريقه إلى الاندثار، إنه حامل لفضائل برجوازية بلا شك. يلزمه صالون فيردوريم أو قصر جورمانتيس الفرنسي في زمن بروست المفقود. أما زلتم تقرءون هذه الأشياء كطلبة؟

- أنا، بالطبع.

- الأحمق هو جواكينو مورات الذي يستعرض ضباطه ويجد بينهم واحدا غاية في الأناقة من مارتينيكا ويسأله: هل أنت زنجي؟ فيجيبه: نعم أيها الجنرال! فيجيبه

مورات: أحسنت، فلتستمر! وهكذا.. هل تتابع ما أقول؟ اعذرني فهذا المساء أحتفل بقرار تاريخي في حياتي. لقد توقفت عن الشرب. شراب آخر؟ لا ترغب في الرد، تجعلني أشعر بالذنب. بيلادي!

- والغبي؟

- آه، الغبي لا يخطئ في السلوك، يخطئ في التفكير. إنه ذلك الذي يقول إن كل الكلاب حيوانات أليفة وكل الكلاب تنبح، ولكن القطط أيضًا حيوانات أليفة، وبالتالي تنبح هي أيضًا. أو أن الآثيينين إلى زوال، وكل سكان ديل بيريو إلى زوال، إذن كل سكان ديل بيريو آثينيين.

- وهو أمر صحيح.

- نعم، ولكن بالصدفة. فالغبي يمكنه أيضًا أن يقول أشياء صائبة، ولكن لأسباب خاطئة.

- يا للهول ولماذا إذن نتعب كثيرًا لنصبح حيوانات عقلانية؟

- كل حيوانات الشمبانزي الكبيرة الشبيهة بالبشر تنحدر من أشكال حياة أقل، والبشر ينحدرون من أشكال حياة أقل، إذن كل البشر عبارة عن حيوانات شمبانزي كبيرة شبيهة بالبشر.

- هذه أيضًا جيدة. نحن الآن بالفعل نقف على الحافة التي تشك فيها سيادتك أن هناك شيئًا ما لا يستقيم، ولكن لابد أن الأمر يتطلب عملا معينا لإثبات ما هو هذا الشيء، ولماذا يحدث هذا. فالغبي إذن مخادع كبير. فأنت تعرف الأحمق على الفور (ولا داعي للتحدث عن الأبله)، بينما الغبي يفكر تقريبًا بطريقتك فيما عدا وجود انحراف في التفكير متناهي الصغر. فهو أستاذ في القياسات التمثيلية ولا يوجد طريق خلاص أمام المحرر في دار النشر، لابد وأن يقضي دهرًا في ذلك. فهو ينشر العديد من الكتب التي كتبها أغبياء، لأنهم أقنعوه من الوهلة الأولى. والمحرر في هذه الحالة ليس مجبرًا على التعرف على الغبي. إذا كانت الأكاديمية العلمية لم تفعل ذلك فلماذا يجب على إدارة التحرير عمله؟

- إذا كانت الفلسفة نفسها لا تفعل ذلك. إن علم الوجود للقديس إنسيلمو نفسه موضوع غبي، فطبقا لرأيه لابد أن الله موجود، لأنني أستطيع أن أفكر باعتباره كينونة

تحتوي على كل الكمالات بما في ذلك الوجود. إنه يخلط بين الوجود في الفكر والوجود في الواقع.

- أجل، بل وغبية أيضًا نظرية جوانيلوني في دحض هذه الفلسفة. يمكنني أن أفكر في جزيرة في البحر حتى في حالة عدم وجود هذه الجزيرة. فهو يخلط بين فكر غير الضروري مع فكر الضروري.

- إذن فهو صراع بين أغبياء.

- بالتأكيد. والله يستمتع بذلك كثيرًا. لقد أراد أن يكون مستحيلا على الفكر فقط ليثبت أن إنسيلمو وجوانيلوني غبيان. إن الهدف السامي للخلق، في تصوري، هو الفعل نفسه الذي وجد الله لأجله. كل شيء مسخر لإدانة الغباء الكوني.

- إذن فنحن محاطون بأغبياء.

- لا مفر. الجميع أغبياء، فيما عدا سيادتك وأنا. بل ومنعًا للإحراج، فيما عدا سيادتك.

- ولكن أعتقد أن تجربة جوديل لها دخل في هذا الأمر.

- لا أعرف ذلك، فأنا أبله. بيلادي!

- ولكن الدور علي هذه المرة.

- في النهاية نقتسم الحساب. يقول أبيمينيدس الكريتي: إن كل أهل كريت كاذبون. وإذا كان هو من كريت ويعرفهم جيدًا، فهذا حقيقي.

- ولكن هذا غباء.

- من جهة أخرى، يقول القديس بولس في رسالته إلى تيطس: كل الذين يفكرون أن أبيميندس كاذب لا يمكنهم إلا أن يثقوا في أهل كريت، ولكن أهل كريت لا يثقون بأهل كريت؛ ولهذا فليس هناك كريتي واحد يصدق أن أبيميندس كاذب.

- هذا غباء أم لا؟

- لتحكم أنت بنفسك. لقد قلت لك، من الصعب تمييز الغبي. يمكن لشخص غبي أن يحصل أيضًا على جائزة نوبل.

- دعني أفكر.. بعض من أولئك الذين لا يؤمنون أن الله خلق العالم في سبعة أيام ليسوا متعصبين، ولكن بعض المتعصبين يؤمنون أن الله قد خلق العالم في سبعة أيام، ولذلك لا أحد من بين من لا يؤمنون أن الله قد خلق العالم في سبعة أيام متعصباً. هذا غَباء أم لا؟!

- يا إلهي، هذا مقام لذكر الله.. لا أستطيع أن أعرف، سيادتك ماذا ترى؟

- غباء في كل الأحوال، حتى وإن كان حقيقياً. فهو شيء يخرج عن قوانين القياس. إذ لا يمكن استخلاص نتائج عامة من معطيين فقط.

- وإذا كان الغبي هو سيادتك؟

- سأكون بصحبة جيدة وعلمانية.

- آه بالفعل، فالغباء يحيط بنا. وربما بسبب نظام منطقي مختلف عن نظامنا، يُعد غباؤنا حكمة بالنسبة لهم.

إن كل تاريخ المنطق يتكون من تعريف مقبول للغباء. تعريف ضخم بلا حدود. كل مفكر عظيم هو غبي بالنسبة للآخر.

- الفكر كشكل متسق للغباء.

- لا، فغباء فكر هو عدم اتساق مع فكر آخر.

- تفكير عميق. الساعة الآن الثانية، بعد قليل سيغلق بيلادي البار، ولم نصل بعد إلى المجانين.

- سأصل الآن. المجنون يمكنك التعرف عليه على الفور، فهو غبي لا يعرف الحيلة. فالغبي يحاول إثبات بحثه، لديه منطق أعوج، ولكن لديه منطق ما. أما المجنون فهو لا يهتم بأن يكون لديه منطق، ويستكمل طريقه في مسارات فاسدة. كل شيء بالنسبة له يثبت كل شيء. والمجنون لديه فكرة ثابتة، وكل ما يمكنه العثور عليه يكون صالحا لتأكيد هذه الفكرة. يمكنك التعرف على المجنون من الحرية التي يسمح بها لنفسه في مواجهة واجب الإثبات، والاستعداد للحصول على علامات تنويرية. يمكن أن يبدو لك هذا غريبًا، ولكن المجنون إن آجلاً أو عاجلاً يطلع علينا بفكرة فرسان المعبد.

- دائمًا؟

- يوجد أيضًا مجانين بلا فرسان المعبد، ولكن المجانين الذين لديهم وثائق عن فرسان المعبد هم الأكثر مكرًا. في البداية لا تعرفهم، يبدو وكأنهم يتحدثون بطريقة طبيعية، ثم، فجأة... أشار وكأنه سيطلب ويسكي آخر، ولكنه أعاد التفكير وطلب الحساب. ولكن بمناسبة فرسان المعبد. بالأمس ترك لي شخص نصًا مكتوبًا على الآلة الكاتبة حول هذا الموضوع. أعتقد أنه مجنون، ولكنه جنون غير واضح. يبدأ النص بأسلوب هادئ. هل تريد أن تلقي عليه نظرة؟

- بكل سرور. ربما وجدت فيه شيئا يفيدني.

- لا أعتقد ذلك. ولكن إذا كان لديك نصف ساعة من الوقت ربما تستطيع أن تأتي إلينا في واحد شارع سينشيرو ريناتو. سيكون هذا مفيدا لي أكثر من فائدته لك. سوف تقول لي على الفور إذا كان عملا يستحق الانتباه.

- لماذا تثق في؟

- من قال لك إن هذه ثقة فيك؟ إذا جئت سأثق. سأثق في فضولك.

دخل أحد الطلاب، يبدو عليه الاضطراب. ـ "أيها الرفاق، يقف الفاشيون يقفون بطول النافيليو ممسكين السلاسل".

قال الرجل ذو الشارب التتاري الذي هددني عند التحدث عن لينين "سأذهب لأوقفهم.. لنذهب أيها الرفاق."

وخرج الجميع.

- ماذا سنفعل؟ هل نذهب؟ سألت، وأنا أشعر بالذنب.

قال بيلبو: لا، إنها إنذارات كاذبة يطلقها بيلادي ليجلو المكان. على الرغم من أنها الليلة الأولى التي أتوقف فيها عن الشرب أشعر بالدوار. ربما تكون هذه هي أزمة الامتناع عن الشرب. إن كل ما قلته لسيادتك حتى هذه اللحظة غير صحيح، تصبح على خير يا كازاوبون.

(١١)

كان عقمه لا نهائيًا. يقاسمه النشوى.

(E. M Cioran, Le Mauvais demi-, urge, Paris, Gallimard, 1969, "Penses trangles")

قدم لي هذا الحوار لدى بيلادي الوجه الخارجي لبيلبو. أي ملاحظ جيد كان يمكنه تخمين الطبيعة الحزينة في نزعته الساخرة. لا أستطيع القول إن ذلك كان قناعًا. ربما كان القناع هي تلك التصريحات التي كان يسهب فيها سرًا. كانت نزعته الساخرة، والتي تظهر في وسط الناس في الحقيقة تكشف عن حزنه العميق، والذي كان يحاول هو في السر إخفاءه حتى عن نفسه مخبئًا إياه تحت قناع الحزن الأسلوبي. الآن أرى هذا الملف، حيث يحاول في الواقع أن يصبغ الطابع الرومانسي على ذلك الذي قاله لي عن مهنته في اليوم التالي في الجاراموند.

في هذا الملف أجد دقته وشغفه، إحباطه كمحرر يكتب كشخص وسيط، وحنينه لذلك الإبداع الذي لم يتحقق قط وقسوته النفسية التي كانت تجبره على أن يعاقب نفسه، لأنه كان يتمنى شيئًا لم يشعر أنه من حقه، مانحًا لرغبته تلك صورة مثيرة للشفقة، لا قيمة لها. لم أجد قط شخصًا يعرف كيف يرثي لحاله بهذا الازدراء.

اسم الملف: جيم جامع القنب

سأرى غدًا الشاب شينتي

١ ـ مونوغرافيا جميلة، ولكن جامدة، يغلب عليها، نوعًا ما، الطابع الأكاديمي.

٢ ـ في الخاتمة المقارنة بين لوتازيو كاتولو ممثل شعراء التجديد والطليعية المعاصرة هي أكثر شيء عبقري.

٣ ـ لماذا لا نضعها في المقدمة.

٤ ـ إقناعه: سيقول إنه لا مكان لتلك الصدمات في سلسلة دراسات فيلولوجية. يتحكم دوره كمعلم في أسلوبه، يخاف أن يفقد الكمال وأن يخاطر بمستقبله. ولكن فكرة

عبقرية في الصفحتين الأخيرتين من الكتاب ربما تمر دون أن يلحظها أحد، بينما في البداية لن تغيب عن الناظر، ويمكن أن تثير غضب الأكاديميين.

٥ ـ ولكن يكفي وضعها وكتابتها بخط مائل على شكل حوار ممتد، بعيدًا عن البحث الفعلي، وهكذا سيظل الافتراض مجرد افتراض ولن يؤثر ذلك على جدية العمل. إلا أن القراء سيتأثرون على الفور سينظرون إلى الكتاب برؤية مختلفة.

ولكن هل أنا أدفعه بالفعل إلى حركة تحررية أو أنني أستغله لأؤلف كتابي؟!

تحويل المسار الأصلي للكتب بكلمتين، أتسلط على أعمال الآخرين. بدلاً من العمل على تشكيل الفخار الطري، أتدخل بدقات صغيرة على الفخار الجامد الذي نحت منه أحدهم تمثالاً بالفعل. مثل موسى، أعطى له الضربة الصحيحة فيتكلم.

أستقبل جوليلموس.

- لقد اطلعت على كتابك. لا بأس، يوجد توتر، وخيال، ونزعة درامية. هل هذه هي المرة الأولى التي تكتب فيها؟

- لا، لقد ألفت بالفعل تراجيديا أخرى، قصة حبيبتي من فيرونا والذي..

- لنتحدث عن هذا العمل أيها السيد S، لقد كنت أتساءل لماذا تدور الأحداث في فرنسا. لماذا لا تحدث في الدانمارك؟ على سبيل المثال، ولن يتطلب الأمر الكثير، مجرد تغير اثنين أو ثلاثة أسماء، مثلاً يصبح اسم قصر شاتو سيو مارن، قصر إلسينور... في ذلك الجو الشمالي، البروتستانتي في ظل كياركيجارد، والنزعات الوجودية...

- ربما تكون على حق.

- أعتقد تمامًا في ذلك. ثم إن عملك بحاجة إلى بعض اللمسات في الأسلوب، ليس أكثر من تعديلات بسيطة، مثلما يحدث عندما يقوم الحلاق بوضع لمساته الأخيرة قبل أن يضع المرآة على عنقك... على سبيل المثال الشبح الأبوي. لماذا وضعته في النهاية؟ أنا أقترح نقله إلى البداية، بطريقة تجعل تحذير الأب يسيطر على الفور على سلوك الابن الأمير ويدخله في صراع مع أمه.

- تبدو لي فكرة جيدة، ولن ننقل سوى مشهد واحد.

- تماماً. إن الأمر يتعلق بالأسلوب. لنختار فقرة عشوائيًا، هذه مثلاً، هنا حين يذهب الصبي إلى مقدمة المسرح ويبدأ تأمله حول الأداء والجمود، الفقرة الجيدة، حقيقي، ولكن ألا تشعر بأنه لا يبدو مضطربًا كما ينبغي. "أتصرف أم لا؟ هذه هي مشكلتي" سأغير هذه العبارة من "مشكلتي" إلى "المشكلة". "هذه هي المشكلة"، أتفهمني، ليست مشكلته الفردية، ولكنه السؤال العميق للوجود، الأسلوب البديل للاختيار بين الوجود واللاوجود...

إن العالم مليء بأبنائك الذين يحملون أسماء أخرى ولا أحد يعرف أنهم أبناؤك. وكأنك إله متنكر. تخيل أنك الحاكم الأعظم، تتجول في طرقات المدينة، تسمع الناس يتحدثون عنك، إلهنا صنع ذلك، إلهنا فعل هذا، وكم هو رائع عالمنا، بالعظمة الجاذبية الأرضية، وأنت تبتسم أسفل ذقنك المستعار (لا، من الأفضل من التجول دون ذقن ، لأنه يمكن التعرف على الإله من ذقنه بسهولة)، وتقول لنفسك (يتحدث الإله غالبًا مع نفسه): "هاأنذا أقف بينهم وهم لا يعرفونني". ربما يصطدم بك أحد المارة، أو ربما يسبك، ولكنك أنت المتواضع تغفر له، فأنت هو الإله الأعظم وإذا أردت فبطرقعة واحدة من أصابعك يتحول هذا العالم إلى رماد. ولكن لديك القدرة اللانهائية التي تسمح لك بأن تكون رحيمًا.

رواية عن الإله المتنكر. لا فائدة، إذا كانت الفكرة قد خطرت لي فلا بد وأن تكون قد خطرت بالفعل لشخص آخر.

"أنت مؤلف، لم تكن تعرف بعد كم أنت عظيم؟، من أحببتها خانتك، لم يعد للحياة بالنسبة لك معنى. وفي أحد الأيام، لتنسى ما حدث، تقوم برحلة على متن التايتانيك وتغرق في بحار الجنوب، ولكنك تصبح الناجي الوحيد حيث تنتشلك مجموعة من السكان الأصليين، وتمضي سنوات طويلة لا يعرف فيها العالم الخارجي شيئًا عن وجودك، فوق جزيرة منعزلة، لا يسكنها سوى البابوان. تغني لك الفتيات أغنيات واهنة وصدورهن تتدلى أسفل عقودهن المصنوعة من زهور البوا.

تبدأ في الاعتياد على المكان، أطلقوا عليك اسم جيم، كما يفعلون مع كل البيض، تأتي إليك إحدى الفتيات ذات اللون العنبري في إحدى الأمسيات في كوخك وتقول لك: "أنا لك، أنا معك." إحساس جميل بالفعل أن تجد نفسك في المساء مستلقيًا على الحشائش تنظر إلى نجمة الجنوب بينما هي تربت على جبهتك.

تعيش تبعًا لدورة الفجر والغروب، ولا تعرف شيئًا آخر. في أحد الأيام تصل مركبة بموتور عليها بعض الهولنديين، وتعلم منهم أنها مرت حوالي عشر سنوات على وجودك في ذلك المكان، تكون لديك الفرصة لتذهب معهم، ولكنك تتردد، تفضل أن تبادل معهم ثمار جوز الهند في مقابل بعض المواد الغذائية وتعد أنه يمكنك القيام بجمع نبات القنب، ويبدأ سكان الجزيرة في العمل معك، وتبدأ أنت في الإبحار من جزيرة إلى أخرى، وتصبح بالنسبة للجميع جيم جامع القنب.

يأتي مغامر برتغالي حطمه الخمر ليعمل معك وتتحسن أحواله، ويبدأ الجميع في التحدث عنك في بحار السند تلك. تعطي نصائح لمهرجا بوناي في حملته ضد الداياكس. تعثر على مدفع قديم من زمن تيبو صاحب، وتعود به. تبدأ في تدريب فرقة من المخلصين الماليزيين، بأسنان مسودة من التنبول. وفي إحدى الهجمات بالقرب من الصخور المرجانية، يفتديك سامبان العجوز، ذو الأسنان المسودة من التنبول، ويصنع من جسده ترسًا لك - أنا سعيد لأنني أموت من أجلك ياجيم. وداعًا أيها العجوز سامبان، يا صديقي.

الآن أصبحت مشهورًا في كل الجزر الصغيرة بين سونياترا وميناء البرنس، تتفاوض مع الإنجليز، وفي كابينة ميناء داروين ثم تسجيلك تحت اسم كورتز، وأصبحت كورتز للجميع - وجيم جامع القنبة لسكان الجزر. ولكن في إحدى الليالي وبينما تربت الفتاة على جبهتك، وأنت تستلقي على الحشائش ترى نجمة الجنوب تتلألأ كما لم تفعل من قبل، وتشعر كم تختلف عن الدب الأعظم، تدرك أنت ما حدث: أنت تريد العودة. فقط لفترة صغيرة، لترى ماذا تبقى منك، هناك.

تأخذ قاربك ذا المحرك، تصل إلى مانيللا ومن هناك تأخذ طائرة هليكوبتر تنقلك إلى بالي، ثم ساموا، وجزر الأدميرال سنغافورا، تاناناريف، تيباكتو، إليبو، سمرقند، البصرة، مالطا.... وتصل إلى المنزل.

مرت حوالي ثمانية عشر عامًا، تركت أثارها عليك، أصبح وجهك برونزي اللون، ومسنًا، ربما أكثر وسامة من ذي قبل. وها أنت بمجرد أن تصل تكتشف أن المكتبات تعرض كل كتبك في طبعات مصحوبة بمقالات نقدية، واسمك موضوع في واجهة المدرسة القديمة التي تعلمت فيها أن تقرأ وتكتب. أصبحت الشاعر العظيم المختفي في ضمير الجيل. والفتيات الرومانسيات تنتحرن أمام قبرك الفارغ.

ثم أقابلك أنت، حبيبتي، بكل تلك التجاعيد حول عينيك، وجهك مازال جميلاً تحطمه الذكرى والندم. لقد كدت أصطدم بك على الرصيف، هاأنذا على بعد خطوتين منك، وأنت نظرت إلي كما تنظرين للجميع، بحثًا عن آخر خلف ظلالهم. يمكنني أن أتكلم، أن أمحو الزمن. ولكن ما هدف ذلك؟ ألم أحصل بالفعل على ما كنت أريده؟ أنا أحد الآلهة، الشعور بالوحدة، والمجد الزائل، الشعور نفسه باليأس، لأنني لست أحد مخلوقاتي كالجميع. الجميع يعيشون في نوري وأنا وحدي أعيش في، بل أغرق في ذلك الظلام غير المحتمل، مصدر النور.

اذهب، تجول في العالم يا جوليلموس! أنت مشهور الآن، تسير بجواري ولا تعرفني. وأنا أهمس لنفسي وأقول : أكون أولا أكون، وأقول لنفسي أحسنت يا بيلبو، أحسنت عملاً. اذهب أيها المسن جوليلموس. اذهب لتنال الجزء الخاص بك من المجد، أنت فقط المبدع، لم أقم أنا سوى ببضعة تغييرات.

نحن، الذين نساعد على خلق أدوار الآخرين، مثل الممثلين لا يجب أن نُدفن في أرض مقدسة. ولكن الممثلين يتظاهرون بأن العالم على ما هو عليه يسير بطريقة مختلفة، بينما نتظاهر نحن بالكون اللانهائي والعوالم، بتعددية الملكية المشتركة...!

كيف يمكن للحياة أن تكون بهذا الكرم، وأن تمنح مكافأة غاية في الروعة للمواهب المتواضعة؟!

(١٢)

تحت ظل جناحيك يا يهوة

(Fama Fraternitalis, in Allgemeine und general' Reformation, Cassel, wessel, 1614, fine)

في اليوم التالي ذهبت إلى الجاراموند. كان رقم واحد، شارع سنشيرو ريناتو يقع في ممر مترب، منه كان يمكن رؤية ردهة معمل صانع جبال. وعند الدخول على اليمين كان يوجد مصعد كان يمكن أن يوضع في جناح معرض للآثار الصناعية. وعندما حاولت استخدامه بدأ في إصدار بعض الأصوات المريبة دون أن يقرر الانطلاق. وحرصًا مني تركته وقمت بالصعود على سلم، يكاد يكون حلزونيًا، متربًا. وكما عرفت فيما بعد أن السيد جاراموند كان يحب ذلك المقر، لأنه كان يذكّره بدار نشر باريسية. وفي المواجهة وجدت لافتة تحمل اسم "دار نشر جاراموند"، وبابًا مفتوحًا يقود على مدخل بلا أي موظف للاستقبال أو حارس. ولكن لم يكن بالإمكان الدخول دون المرور على مكتب صغير في الأمام، وعلى الفور وجدتني في مواجهة شخص، ربما تكون امرأة، يصعب تحديد عمرها، وجسم يمكن لمتخصص في التورية أن يحدده بأنه أقل من المتوسط.

هاجمتني هذه المرأة بلغة كان يبدو لي أنني سمعتها في مكان ما، حتى أدركت أنها كانت تتحدث الإيطالية، ولكن لغة إيطالية تكاد تكون معدومة من الحروف المتحركة.

سألتها عن بيلبو، وبعد أن جعلتني أنتظر لبضع ثوان قادتني بطول الممر حتى وصلنا إلى مكتب في نهاية الشقة.

استقبلني بيلبو بلطف: "إذن سيادتك شخص جاد، تفضل".

أجلسني أمام مكتبه، القديم مثل كل شيء آخر، وكان محملاً بالمخطوطات، كما الحال أيضًا لرفوف المكتبة.

قال:"أرجو ألا تكون جودرون قد أفزعتك.

- جودرون؟ تلك... تلك السيدة؟

- آنسة، اسمها ليس جودرون. نحن نسميها هكذا بسبب هيئتها المتجهمة ولأنها تتكلم بطريقة جرمانية ملتبسة. تريد أن تقول كل شيء على الفور؛ فبالتالي توفر في الحروف المتحركة. ولكن لديها إحساس عال بالتوزيع العادل فعندما تكتب شيئًا على الآلة الكاتبة توفر في الحروف الساكنة.

- وماذا تفعل هنا؟

- للأسف، كل شيء. أتعرف، في كل دار نشر يوجد شخص لا يمكن الاستغناء عنه، لأنه هو الشخص الوحيد القادر على العثور على الأشياء وسط الفوضى التي يخلقها. ولكن على الأقل، عندما يُفقد مخطوط ما، يكون المسئول عن ذلك معروفًا.

- هل تفقد أيضًا مخطوطات؟

- ليس أكثر من الآخرين . في أي دار نشر يفقد الجميع المخطوطات. أعتقد أن هذا هو عملهم الأساسي. ولكن من الضروري أن يكون هناك كبش فداء، ألا ترى ذلك؟ ألومها فقط عندما لا تفقد ما كنت أتمنى فقده. فهي حوادث مؤسفة لذلك الذي يطلق عليه بيكون الطيب "تقدم التعليم".

- ولكن أين تُفقد؟

فرد ذراعيه: اعذرني، ولكن هل تدرك غباء السؤال؟ إذا كنا نعرف أين هي لن تكون قد فقدت..

قلت: منطقي، تبدو لي طبعات معتنى بها جدًا، ولديكم كتالوج مدهش. هل تقومون بكل شيء هنا بالداخل؟ وكم عددكم؟

- في المواجهة توجد حجرة كبيرة بها الفنيون، وهنا بجواري زميلي ديوتالليفي. ولكنه مسئول عن المراجع والمشروعات الضخمة التي يتطلب إعدادها فترة طويلة، وتطول مدة بيعها، بمعنى أنها تبيع ولكن على المدى البعيد. الطبعات الجامعية مسؤليتي. ولكنها ليست عملاً ضخمًا. عادة أقع في عشق بعض الكتب، يجب أن أقرأ المخطوطات، ولكن عامة يكون عملاً تم ضمانه بالفعل، سواء من الناحية الاقتصادية أو من الناحية العلمية. فهي مطبوعات المعهد الفلاني، أو فعاليات مؤتمرات، تم الاعتناء

بها وتمويلها من قبل مؤسسة جامعية. إذا كان المؤلف مبتدئًا يقوم أستاذه بعمل المقدمة ويتحمل هو المسئولية. ويقوم المؤلف بتصحيح المسودة ويراجع الاستشهادات والملحوظات، ولا يتلقى أي عائد. يصبح الكتاب جزءًا من المقرر الدراسي، وتباع منه بضعة الآلاف من النسخ خلال بضعة أعوام وتتم تغطية النفقات. لا توجد مفاجآت، وكل كتاب له مكانه في النهاية.

- إذن ماذا تفعل سيادتك؟

- أشياء كثيرة. قبل كل شيء يجب الاختيار. ثم إنه توجد بعض الكتب التي يتم نشرها على نفقتنا، وغالبًا ما تكون ترجمات لمؤلفين مهمين، وذلك للارتفاع بمستوى الكاتالوج. وفي النهاية توجد المخطوطات التي تصل هكذا، عن طريق أفراد. من النادر أن تكون أشياء مثيرة للاهتمام، ولكن يجب الاطلاع عليها، لا أحد يعرف قط...

- وهل تتسلى بذلك؟

- أتسلى؟ أنه الشيء الوحيد الذي أعرف عمله.

قاطعنا شخص في حوالي الأربعين من عمره، يرتدي ستره تتجاوز قياسه ببضعة أرقام، شعره خفيف وأشقر فاتح ينسدل على حاجبين كثيفين، أشقرين أيضًا. كان يتحدث بطريقة ناعمة، وكأنه يعلم طفل صغير.

- لقد تعبت بالفعل من ذلك "الرفيق الملازم لدافع الضرائب" كان علي أن أعيد كتابته كله، ولكنني لا أرغب في ذلك، هل أزعجتكم؟

- قال بيلبو: إنه ديوتاលليفي، ثم قدم كل منا للآخر.

- آه، أنت هنا إذن لتطلع على ذلك الشيء الخاص بفرسان المعبد. يالك من مسكين. اسمع يا جاكوبو، لقد فكرت في عنوان جيد: التخطيط العمراني للغجر.

قال بيلبو على الفور: رائع، وأنا أيضًا لدي واحد: فروسية الآزتك.

ممتاز ولكن هل ينتمي ذلك لقسم البوتيوس أم قسم الأديناتا؟

قال بيلبو: لابد وأن نتأكد. ثم أخذ يعبث في درجه بحثًا عن بعض الأوراق. نظر إلي ولاحظ فضولي فقال: "قسم البوتيوس، كما يعرف الجميع، بالتأكيد، هو فن تقطيع الشوربة إلى شرائح" ثم قال لديوتالليفي: لا، لا أعتقد أنه قسم، إنه مادة، مثل ميكانيكا

الأفانكولوجراشين، أو البيلوكاتابيزيس. فهي جميعًا تقع تحت موضوع رئيسي وهو تشريح الشعر.

سألت: ماذا؟

"فن شق الشعرة بأربع طرق. إن ذلك هو قسم التقنيات العدمية. فميكانيكا الأفانكولوجراشين مثلاً هو كيفية بناء آلات لمصافحة العمات. لكننا لسنا متأكدين إلى الآن أين نضع البيلوكاتابيزيس حيث إنه فن الإفلات في اللحظة الأخيرة. فبطريقة ما لا يبدو لي ذلك عدميًا.

قلت: حسنًا أيها السادة، انا أستسلم، عما تتحدثان، لم أعد أفهم أي شيء؟

- حسنًا! أنا وديوتاللليفي نخطط لعملية إصلاح في التعليم العالي. ننوي إنشاء مدرسة اللاعلاقية المقارنة، حيث يتم تدريس دورات دراسية لدراسة المستحيل ومالا فائدة له. هدف المدرسة هو تخريج دارسين قادرين على زيادة عدد المواد غير الضرورية.

- وكم عدد الأقسام فيها؟

- وصلنا إلى الآن إلى أربعة أقسام، ولكن هذا يمكن أن يكفي لمنهج دراسي كامل. إن قسم تشريح الشعر له دور تمهيدي: هدفه هو تأسيس الشعور باللاعلاقية. قسم آخر مهم هو قسم الأديناتا أو المستحيل. مثل التخطيط العمراني للغجر. وجوهر تلك العلوم هو محاولة فهم وتأكيد أسباب عبثية الأشياء. لدينا دورات دراسية عن التركيب اللغوي للغة مورس للإشارة، تاريخ الزراعة في أنتارتيكا، تاريخ الرسم في الجزيرة الشرقية، الأدب السوماري المعاصر، تصنيفات مونتيسوري، جمع الطوابع الأشورية البابلية، تكنولوجيا العجل في عصر ما قبل الإمبراطورية الكولومبية، أيقونية برايل، والدراسات الصوتية للأفلام الصامتة.

- ماذا عن سيكولوجيا الزحام في الصحراء؟

قال بيلبو: رائع.

أومأ بالموافقة وقال: لابد وأن تنضم إلينا. هذا الشاب موهوب، أليس كذلك يا جاكوبو؟

- أجل، لقد أدركت ذلك على الفور. بالأمس قام ببناء بعض الموضوعات الغبية بموهبة عظيمة. لكن دعنا نستكمل. ماذا وضعنا في قسم الأوكسيمورونيك؟ لا يمكنني العثور على الملحوظات بهذا القسم.

أخذ ديوتاليفي قصاصة ورق من جيبه ونظر "ي نظرة تعاطف مصطنعة كما يتضح من الكلمة نفسها، نعتمد على التناقص الذاتي للعلم. ولهذا السبب أرى أن إليه ينتمي التخطيط العمراني للغجر"

قال بيلبو: لا! يمكن ذلك فقط إذا كان تخطيطًا عمرانيًا للبدو، ولكن الأديناتا دراسة تتعلق باستحالة لوجود التجريدية، أما الأوكسيمورون فهو التناقض في المصطلح.

- سنرى، ولكن ماذا وضعنا أسفل قسم الأوكسيمورون إذن؟

إليك: وضعنا معاهد الثورة، حكم الأقلية الديمقراطي، ديناميكية السكون، الهيراقليطيقة الأسطاتيكية، الترف السبارتاكوسي، الدياليكتية التكرارية، الجدلية البوولية.

وعندئذ شعرت بأنني أمام التحدي بأن أظهر ما يمكنني أنا أيضًا: هل أستطيع أيضًا أن أقترح: علم نحو الانحراف؟

قالا كلاهما: جميل، جميل! وبدءا في تدوين ملحوظاتهم.

قلت: ولكن هناك ملحوظة.

- ماذا؟

- إذا عرضتما هذا المشروع على الجمهور، سيتقدم العديد من الناس بمشروعات نشر جديرة بالاعتبار.

قال ديوتاليفي: قلت لك إنه شاب حاد الذكاء ياجاكوبو، ولكن أتعرف أن هذه هي مشكلتنا بالفعل؟ رغمًا عنا وجدنا أننا قد خططنا التصميم المثالي للمعرفة الحقيقية. لقد أظهرنا ضرورة الممكن، لذلك علينا أن نلتزم الصمت. يجب أن أذهب الآن.

سأل بيلبو: إلى أين؟

- إنها ظهيرة يوم الجمعة.

قال بيلبو: آه يا إلهي! ثم وجه حديثه إلي فقال: هناك في الرصيف المقابل لنا هناك منزلان أو ثلاثة يسكنهم يهود أرثوذكس، أتعرفهم الذين يرتدون القبعات السوداء، ولديهم ذقن وسوالف لا يوجد الكثير منهم في ميلانو. واليوم الجمعة وعند غروب الشمس يبدأ السبت بالنسبة لهم. وهكذا في الشقة المقابلة لنا يبدأون في إعداد كل شيء، من تلميع الشمعدان إلى طهي الطعام وإعداده بحيث لا يكون لديهم نيران أخرى ليشعلونها في السبت. حتى التليفزيون يتركونه مفتوحًا طوال الليل، إلا في حالة إذا اضطروا اختيار القناة. وصديقنا ديوتاالليفي

لديه نظارة معظمة صغيرة، ويتجسس عليهم من النافذة، يا للعار!، بل ويستمتع بذلك وهو يحلم بأن يكون معهم على الجانب الآخر من الطريق.

سألت: ولماذا؟

- لأن صديقنا ديوتاالليفي يصر على أن يدعم فكرة أنه عبري.

سأل ديوتاالليفي في ضجر: كيف أصر؟ أنا عبري، هل لديك ما يمنع يا كازاوبون.

- بالطبع لا.

قال بيلبو بإصرار: ديوتاالليفي، أنت لست عبريًا.

- كيف لا؟ واسمي؟ مثل جراتزياديو (شكرًا لله) وديوسياكونتي (والله معك) كلها ترجمات من العبرية لأسماء "جيتو" مثل شالوم أليشيم.

- معنى اسمك ديوتاالليفي (ليتولى الله تربيتك) هو اسم تمنى، وعادة ما يطلقه موظفو المحافظة على اللقطاء. ولقد كان جدك لقيطًا.

- لقيطًا عبريًا.

- ديوتاالليفي، إن جلدك وردي اللون، وصوتك جهور، وأنت بالتأكيد أمهق.

- توجد أرانب البينو، فلابد وأن هناك يهود البينو أيضًا.

- ديوتاالليفي، لا يمكن أن يقرر المرء بأن يكون عبريًا مثلما يقرر أن يصبح جامع طوابع أو شاهدًا من شهود يهوة. فالمرء يولد يهوديًا. استسلم فأنت لطيف مثل الجميع.

- لقد تم ختني.

- وماذا في ذلك! يمكن لأي أحد أن يُختن لأسباب صحية. يكفي لذلك طبيب معه مشرط. في أي سن قمت بختان نفسك؟

- لا داعي للجدل.

- لا بالعكس لنستمر، العبري يجادل.

- لا أحد يمكنه إثبات أن جدي لم يكن يهوديًا.

- بالتأكيد، فقط كان لقيطًا. ولكنه يمكن أن يكون أيضًا وريث عرش بيزنطا، أو أحد متشردي أسبورج .

- لا أحد يستطيع أن يثبت أن جدي لم يكن يهوديًا بالإضافة إلى أنه تم العثور عليه بجوار الحي اليهودي في روما.

- ولكن جدتك ليست يهودية، والنسب في تلك الجهات يعتمد على الأم...

- ... ثم إنه بالإضافة إلى الأسباب الرسمية الأرشيفية، لأن حتى الأرشيفات الرسمية يمكن قراءة ما وراء الحروف فيها، توجد أيضًا صلة الدم. والدم بداخلي يخبرني أن أفكاري تستمتع بكونها تلمودية، وسيكون تعصب من جهتك أن تتمسك بأنه يمكن لشخص لطيف مثلي أن يستمتع بشدة بالأفكار التلمودية مثلما هو الحال بالنسبة إلي.

قال هذا وخرج.

قال لي بيلبو: لا تلق بالاً. إن هذه هي مناقشتنا اليومية، فيماعدا أنني في كل يوم أختلق له سببًا مختلفًا. الواقع أن ديوتاليفي مؤمن بالقبالاه. ولكن كان هناك قباليون مسيحيون أيضًا. ثم يا كازاوبون إذا أراد ديوتاليفي أن يصبح يهوديًا هل يمكنني الاعتراض؟

لا أعتقد فنحن ديمقراطيون

بالفعل ديمقراطيون

ثم أشعل سيجارة، ثم تذكرت أنا لماذا أتيت فقلت "لقد حدثتني عن مخطوطة عن فرسان المعبد.. أجل، هذا حقيقي، كانت في ملف من الجلد الصناعي... أخذ يبحث في كومة من المخطوطات وحاول أن يخرج من وسطها ملف دون رفع الملفات الأخرى. عملية

خطيرة. وبالفعل سقطت الكومة كلها على الأرض ووقف بيلبو أمامي ممسكًا في يده بالملف المصنوع من الجلد الصناعي.

نظرت إلى الفهرس والمقدمة: إنه يتعلق بالقبض على الفرسان، في عام ١٣٠٧ قرر الملك فيليب العادل القبض على كل فرسان المعبد في فرنسا. توجد أسطورة تقص أن قبل عملية القبض بيومين تركت عربة محملة بالقش تجرها الثيران مقر الفرسان في باريس إلى جهة مجهولة. يقولون إن كان بها مجموعة من الفرسان يقودهم شخص يُدعى أومون، وإنهم لجأوا إلى النمسا، وانضموا إلى رابطة البنائين في كيلوينينج. وتقول الأسطورة إن الفرسان تماثلوا مع البنائين ونقلوا إليهم أسرار معبد سليمان. تمامًا كما كنت أتوقع. يزعم هذا الشخص أيضًا بأنه عثر على أصل الماسونية في هروب الفرسان إلى النمسا... إنها قصة مستهلكة منذ قرنين، مؤسسة على الخيال. لا يوجد أي دليل على صحتها، أستطيع أن ألقي على مائدتك هنا حوالي خمسين كتابًا جميعها تروي الحدث نفسه، منسوخ الواحد من الآخر. انظر هنا على تلك الصفحة التي اخترتها عشوائيًا: إن دليل البعثة إلى النمسا يكمن في أنه حتى اليوم، وبعد ستمائة وخمسون عامًا، مازالت توجد في العالم منظمات سرية تطلق على نفسها ميليشيات المعبد. كيف يمكنك أن تثبت بطريقة أخرى استمرارية هذا التراث؟

هل فهمت ما أعنيه؟ كيف يمكن ألا يتواجد ماركيز كاراباس على الرغم من وجود القط الذي يرتدي الحذاء ذا الرقبة في خدمته؟

قال بيلبو: فهمت، سألقي به إذن. ولكن قصة فرسان المعبد تعجبني. والآن حظي جمعني بخبير في هذا المجال، ولا أريد أن أترك هذه الفرصة. لماذا يتحدث الجميع عن فرسان المعبد وليس عن فرسان مالطا؟ لا تقل لي أي شيء الآن، لقد تأخر الوقت، لابد أن أذهب أنا وديوتالليفي للعشاء مع السيد جاراموند. ولكننا لابد وأن ننتهي من ذلك حوالي العاشرة والنصف. إذا استطعت إقناع ديوتالليفي سنأتي إلى بيلادي، فهو عادة ما يذهب للنوم مبكرًا. هل سأجدك هناك؟

بالتأكيد، فأنا أنتمي لجيل ضائع، ولا أجد نفسي سوى بوجودي في صحبة أمثالي الشاعرين بالوحدة.

(١٣)

إخوة ومعلمو الهيكل

المتسع والممتلئ

بالذهب والفضة والثراء

الذين عاشوا حياة نبيلة

أين هم الآن؟ وماذا حدث لهم؟

(Chronique a la suite du roman de Favel)

وكان اللقاء. كانت قهوة بيلادي في ذلك المساء انعكاسًا للعصر الذهبي. إحدى تلك الأمسيات التي تدرك فيها أن الثورة الفرنسية ستحدث بالتأكيد، بل وستكون مدعمة أيضًا من اتحاد رجال الصناعة. فقط لدى بيلادي كان يمكن أن نرى أحد مُلاك مصانع القطن الملتحين وهو يرتدي معطفه الثقيل يلعب لعبة الثمانية الأمريكية مع أحد مطاردي المستقبل الذي يرتدي بذلة بصديرية ورباط عنق. كنا على أعتاب انقلاب النماذج. كانت مازالت اللحية رمزًا للفاشية في بداية الستينيات ـ ولكن كان لابد من رسم البروفيل وحلاقتها من جهة الوجنة على طراز إيتالو بالبو ـ أما في عام ثمانية وستون كانت رمزًا للمعارضة، والآن في سبيلها لأن تصبح محايدة وعالمية، علامة على التعبير عن الاختيار الحر. كانت اللحية دائمًا قناعًا (يضع المرء ذقنًا مستعارة لكي يخفي شخصيته)، ولكن في تلك السنوات، في بداية الستينيات كان يمكن للمرء أن يتنكر بلحية حقيقية. كان يمكن الكذب بقول الحقيقة، بل بجعل الحقيقة شيئًا غامضًا ومراوغًا، لأنه لم يعد في الإمكان التعرف على الاتجاه السياسي للمرء من لحيته. ولكن في ذلك المساء كانت اللحاة تلمع حتى على الوجوه الحليقة لمن، على الرغم من أنه لم يطلقها، كان يظهر للآخرين أنه كان بإمكانه إطلاقها، وأنه لم يفعل ذلك فقط كنوع من التحدي.

أشرد للحظات لا تطول حيث يصل كل من بيلبو وديوتالليفي وهما يتهامسان فيما بينهما ويبدو عليهما الاضطراب ونقد لاذع حول مأدبة العشاء التي حضراها مؤخرًا. ولكنني عرفت بعد ذلك كيف كانت مآدب العشاء التي يقيمها السيد جاراموند.

انتقل بيلبو على الفور إلى عمليات التلخيص المفضلة، بينما انهمك ديوتالليفي في التفكير العميق، وبضيق شديد قرر أن يطلب مشروب الصودا. وجدنا مائدة في نهاية البار تركها سائقا ترام للتو، لأن عليهما الاستيقاظ مبكرًا في اليوم التالي.

قال ديوتالليفي: قل لنا إذن ماذا عن فرسان المعبد؟؟؟

- لا، أرجوك ألا تضعني الآن في مأزق.. إنها أشياء يمكن العثور عليها وقراءتها في كل مكان.

قال بيلبو: نحن نفضل التقليد الشفاهي.

وأضاف ديوتالليفي: إنه أكثر قداسة أيضًا، لقد خلق الله العالم وهو يتكلم، لم يرسل برقية.

بيلبو: ليكن هذا. انتهى. تُتبع رسالة.

عندئذ أجبت: إلى أهل تسالونيكي!

- فرسان المعبد؟ سأل بيلبو.

قلت: إذن

اعترض ديوتالليفي: لا يمكن البدء قط بإذن.

تظاهرت بأنني سأنهض لأمشي، وانتظرت أن يتوسلا إلي، وعندما لم يفعلا ذلك جلست وبدأت أتحدث:

- لا، أقصد أن القصة معروفة بالفعل للجميع. هناك الحروب الصليبية الأولى، أليس كذلك؟ قام جوفريدو دي بوليوني بالتعبد عند القبر المقدس وأكمل قسمه وأصبح بالدوفينو الملك الأول لأورشاليم. مملكة مسيحية في الأرض المقدسة، ولكن كانت السيطرة على القدس شيئًا والسيطرة على باقي الأراضي الفلسطينية شيء آخر. هزم فرسان صلاح الدين، ولكن لم يستطع القضاء عليهم. ولذلك في عام ١١١٨، وأثناء حكم بالدوفينو الثاني، وصل تسعة أشخاص يقودهم شخص يدعى أوجو دو باين، وكونوا الخلية الأولى للنظام الرهبني: فرسان المسيح الفقراء، نظام رهبني ولكن بالسيف والدرع. والنظام يقوم على النذور الثلاثة التقليدية: الفقر، والعفة والطاعة بالإضافة إلى الدفاع عن الحجاج. وعلى الفور قام الجميع، الملك والأسقف وجميع من بأورشاليم

بمساعدتهم بالمال والمسكن وجعلوا مركزًا لهم في مقر هيكل سليمان القديم، وهكذا أصبحوا فرسان الهيكل أو المعبد.

- ومن هم ؟

- "من المحتمل أن يكون أوجو والثمانية الأوائل من الشخصيات المثالية المتأثرة برسالة الحروب الصليبية، ولكن من سينضم بعد ذلك هم الجنود الباحثين عن المغامرة. كانت مملكة أورشاليم الجديدة تشبه إلى حد ما كاليفورنيا اليوم، فهو المكان الذي يمكن للمرء أن يكون فيه ثروته. ربما يكونون أشخاصًا لم تكن لديهم تطلعات كبيرة في بلادهم، بل ربما يكون بعض منهم انضم هربًا من جريمة ما ارتكبها. أنا أنظر للأمر وكأنهم كونوا كتيبة من المرتزقة الأجانب. ماذا تفعل إذا وقعت في مأزق؟ تنضم إلى فرسان المعبد، تزور أماكن جديدة وتتسلى، هناك من سيمد إليك يديه وسيطعمك، سيعطونك ملابس وفي النهاية ستنقذ أيضًا النفوس. بالتأكيد يجب أن يكون المرء قد وصل إلى أقصى درجات اليأس، لأن عليه الذهاب إلى الصحراء والنوم بلا خيام وقضاء ليالي وأيام طويلة دون رؤية إنسان آخر سوى الفرسان، وبعض الأتراك، بالإضافة إلى ركوب الخيل أسفل حرارة الشمس، والمعاناة من العطش، وتنزع أحشاء المساكين الآخرين..."

توقفت لبرهة. "ربما أكون قد حولتها لإحدى قصص مغامرات الغرب. ربما توجد أيضًا مرحلة ثالثة: أصبح النظام فيها قادرًا، يحاول الانضمام إليه أيضًا ذوي المناصب الجيدة. ولكن عندئذ لم يعد كون المرء من فرسان المعبد يعني أن عليه الذهاب إلى الأراضي المقدسة، حيث يمكن أن يكون من فرسان المعبد من منزله. تاريخ معقد. في بعض الأحيان يبدون من الجنود الأشرار وفي أحيان أخرى يبدون أكثر تعقلاً. على سبيل المثال، لا يمكن القول إنهم كانوا متطرفين: كانوا يحاربون المسلمين، كانوا موجودين لهذا الغرض، ولكن بروح الفرسان، وكان كل طرف معجب بالآخر. عندما زار سفير أمير دمشق أورشاليم، أعهد فرسان المعبد إليه بجامع صغير كان قد تم بالفعل تحويله إلى كنيسة ليمارس فيه شعائره الدينية. في أحد الأيام دخل أحد الفرنسيين واستاء لرؤية مسلم في مكان مقدس وعامله معاملة سيئة. ولكن طرد الفرسان هذا الشخص المتعصب واعتذروا للمسلم. إن إخاء السلاح هذا مع المسلمين سيكون سبب في دمارهم حيث سيتهمون في أثناء محاكمتهم بأنهم كانوا على علاقة بفرق سرية

إسلامية. ربما كان ذلك حقيقيًا بالفعل، فالأمر يشبه قليلاً مغامرى القرن الماضي والذين تأثروا بإفريقيا، ولم تكن لديهم تربية ديرية منتظمة، وبالتالي لم يكونوا عدائيين في استقبالهم الفروق اللاهوتية، تخيلوهم مثل شبيهي لورانس العرب، والذين يرتدون بعد فترة زي الشيوخ... ولكن بعد ذلك أصبح من الصعب تقييم تصرفاتهم، لأن المؤرخين المسيحيين مثل جوليلمو دي تيرو لم يتركوا فرصة واحدة دون أن يشوهوا سمعتهم.

- لماذا؟

- لأنهم أصبحوا قادرين جدًا في فترة وجيزة للغاية. حدث ذلك مع سان برنارد. تعرفون سان برنارد أليس كذلك؟ مدبر كبير، أعاد تنظيم رهبنة البنيديكت، أزال الديكورات من الكنائس، وعندما ضايقه أحد زملائه، أبيلاردو، هاجمه بلا أي دليل، وإذا كان في استطاعته لأصعده إلى المحرقة، ولكن نظرًا لأنه لم يستطع ذلك اكتفى بحرق كتبه. ثم بدأ في الحث على الحروب الصليبية: لنتسلح ولترحلوا..."

علق بيلبو: يبدو أنك لا تطيقه!

- لا أستطيع تحمله، إذا كان الأمر بيدي لانتهى في إحدى دوائر الجحيم لدانتي وليس كقديس. ولكنه كان مراسلاً صحفيًا يجيد الدعاية لنفسه، انظر إلى الخدمة التي قدمها له دانتي في الكوميديا الإلهية، لقد عينه رئيس حاشية العذراء. اصبح قديسًا على الفور، لأنه تعامل وقدم خدمات للشخصيات الصحيحة. ولكن لنعد إلى فرسان المعبد، أدرك برنارد على الفور أن الفكرة يجب رعايتها ودعم هؤلاء المغامرون الجدد محولاً إياهم إلى ميليشيات مسيحية، نستطيع أن نقول إن فكرة فرسان المعبد، في نسختها البطولية من اختراعه هو. في عام ١١٢٨ قام بعقد مجلس في تروي ليحدد من هم أولئك الرهبان، الجنود الجدد، وبعد ذلك بعدة أعوام كتب ممجدًا مليشيات المسيح تلك وأعد نظامًا من اثنين وسبعين بندًا، قراءته مسلية، حيث يمكن العثور به على كل شيء. قداس كل يوم، لا يجب أن يتعاملوا مع فرسان تم حرمانهم كنسيًا، ولكن إذا طلب أحدهم الدخول إلى المعبد يجب استقباله بروح مسيحية، وانتبه أنني كنت على صواب عندما تحدثت عن فيالق أجنبية. كانوا يرتدون عبايات بيضاء بسيطة دون فراء، باستثناء أن تكون مصنوعة من صوف النعاج أو الخرفان، كان ممنوع أن يرتدوا أحذية بها انحناءات أو رفيعة على الموضة، ينامون بملابسهم الداخلية، على مرتبة وملاءة وغطاء واحد..."

- مع درجة الحرارة هناك ترى كيف كانت الرائحة...! قال بيلبو

- سنتحدث عن موضوع الرائحة هذا فيما بعد. فهناك قواعد أقسى من هذا: عليهم أن يأكلوا كل اثنين في سلطانية واحدة، يجب تناول الطعام في صمت، يأكلون اللحم ثلاث مرات في الأسبوع، فعل التوبة يوم الجمعة، الاستيقاظ في الفجر وإذا كان العمل مرهقًا يُمنحون ساعة إضافية للنوم، ولكن في المقابل عليهم تلاوة الصلاة الربانية ثلاث عشرة مرة في الفراش. هناك معلم، وسلسلة من الرتب الأقل، سواء تلك الخاصة بضباط النظام إلى حاملي التروس ومن الملازمين إلى الخدم. كل فارس له ثلاثة أحصنة وحامل للترس، لا توجد أي زينة فاخرة على السرج أو التروس، أسلحة بسيطة لكنها جيدة، ممنوع الصيد، مسموح فقط بصيد الأسود. باختصار حياة توبة ومعارك، وذلك دون أن نتحدث عن نذور العفة التي يصر النظام عليها بصفة خاصة حيث كانوا لا يمكثون في الأديرة بل يخرجون للحرب، ويعيشون في وسط العالم، إذا كان بالإمكان إطلاق كلمة العالم على عش الفئران التي كانت عليه الأراضي المقدسة في تلك الفترة. كانت القاعدة تنص على أن صحبة امرأة هي شيء بالغ الخطورة وأنه لا يمكن تقبيل سوى الأم والأخت والخالة أو العمة."

تمتم بيلبو: الخالة أو العمة، لكنني في هذه الحالة سأتوخى الحذر من هذا أيضًا... ألم يتم اتهام فرسان المعبد أيضًا باللواط على ما أذكر؟ هناك كتاب ألفه كلوسوفسكي Klossowski عنوانه البافوميتو Il Bafometto . من كان البافوميتو هذا، ألم يكن أحد آلهتهم الشيطانية؟

- سأصل إلى هذا الجزء. ولكن فكرا معي قليلا. كانوا يعيشون حياة شبيهة بتلك الخاصة بالبحارة، شهورًا طويلة في الصحراء. تجد نفسك في منزل الشيطان، يحل الليل، تستلقي في خيمتك ليلاً مع الشخص الذي شاركك الطعام في سلطانيتك، تشعر بالنعاس والبرد، بالعطش والخوف وتريد أمك. ماذا تفعل؟

يقترح بيلبو: حب ذكري!!!

- ولكن فكروا في تلك الحياة الرهيبة، في وسط جنود آخرين لم يقوموا بأي نذور وعندما يغزون مدينة ما يعتدون على النساء فيها، نساء جميلات ذوات بطون عنبر وعيون مخملية، ماذا يصنع فارس المعبد بين عطور السيدر في لبنان؟ تفهمون الآن إذن

لماذا انتشرت المقولة "يشرب ويسب مثل فارس المعبد". إنها مثل قصة قس الحصن الذي يشرب ويسب مع جنوده الأميين. بالإضافة إلى أن ختمهم يمثلهم دائمًا اثنين اثنين، الواحد منهم ملتصق في ظهر الآخر، على حصان واحد. لماذا إذن إذا كان نظامهم يمنح لكل منهم ثلاثة أحصنة؟ لابد وأنها كانت أحد أفكار برناردو، ليرمز للفقر أو لازدواجية دورهم كرهبان ومحاربين. ولكن لنعد للمخيلة الشعبية، ماذا يمكن أن يقال إذن عن هؤلاء الرهبان الذين يمتطون خيولهم كل اثنين معًا، بطن أحدهم ملتصقة بمؤخرة الآخر؟ ولكن ربما لم يكن ذلك سوى نوع من التشهير...

ـ ... ولكن بالتأكيد هم من كانوا يسعون لذلك، علق بيلبو، هل كان برناردو ذلك غبيًا؟

ـ لا، بالتأكيد لم يكن غبيًا، لكنه هو أيضًا كان راهبًا، وفي تلك الأوقات كان للرهبان أفكار غريبة عن الجسد... كنت منذ قليل أخشى إذا كنت قد حولتها لقصص رعاة الأبقار الغربية، ولكن اسمعوا ماذا كان يقول برناردو، عن فرسانه المفضلين، لدي هنا الاستشهادات، لأنه من المهم سماعها: يتجنبون ويكرهون المحاكين والسحرة والبهلوانات، والأغنيات والعبارات الخارجة، يحلقون شعورهم، لأنه كما قال بولس الرسول إنه من العار أن يطيل الرجل شعره. لا يظهروا أبدًا بشعور مصففة، نادرًا ما يغتسلون، طليقي اللحية، تغطيهم الأتربة متسخين بسبب دروعهم وبسبب حرارة الجو.

– لا أعتقد أنني كنت سأحب السكنى بالقرب منهم، قال بيلبو

– وأضاف ديوتالليفي: كان نموذج الناسك دائمًا هو زرع نوع من القذارة الصحية وذلك ليخضع جسده، ألم يكن القديس مكاريوس، ذلك الناسك الذي كان يعيش على عامود ما، عندما كانت الديدان تسقط من فوق ظهره كان يعيدها مرة أخرى، لأنها هي أيضًا مخلوقات الله ومن حقها الاستمتاع بغذائها؟

– قال بيلبو: العامودي كان هو القديس سمعان، وفي رأي كان يعيش فوق العامود ليبثق على رأس من يمرون أسفله.

قال ديوتالليفي: أكره روح النزعة الاستنارية تلك، على كل حال، سواء كان مكاريوس أم سمعان، كان هناك ناسك يعيش على عامود يفعل بالديدان ما قلته الآن، ولكنني لست ضليعًا في هذا الموضوع حيث إنني لا أهتم كثيرًا بجنون الودعاء.

قال بيلبو: كان أحبارك في حبرون ناصعي النظافة دائمًا.

- بل كانوا في حالة قذارة تامة حيث قمتم أنتم الودعاء بإجبارهم على البقاء في **الجيتو**. لكن فرسان المعبد كانوا يستمتعون بقذارتهم.

قلت: دعونا لا نحول الموقف إلى دراما، هل سبق لكم أن رأيتم فرقة مجندين بعد مسيرة عسكرية؟ لقد حكيت لكم كل هذا لأشرح لكم حالة التضاد التي يعيش فيها فارس المعبد. عليه أن يكون ناسكًا، متقشفًا، لا يأكل ولا يشرب، ولا يمارس الجنس ومع ذلك كله عليه التوجه إلى الصحراء لينزع رءوس أعداء المسيح، وكلما قطع الرءوس فاز بنقاط تدخله الجنة. كانت رائحته بشعة وشعره يزداد كثافة يوم بعد الآخر، ثم يطالبه برناردو أن لا يلق بنفسه فوق أي امرأة، شابة كانت أم عجوزًا، بعد الاستيلاء على مدينة ما، وأنه في الليالي الخالية من القمر، عندما تهب رياح السيمون على الصحراء، لا ينبغي عليه أن يطلب خدمة صغيرة من رفيقه المفضل. كيف يمكن أن يكون المرء راهبًا وحاملاً للسيف، ينزع الأحشاء ثم يتلو صلاة "السلام عليك" للعذراء، لا يجب عليك أن تنظر إلى ابنة عمك وجهًا لوجه، ثم تدخل إلى مدينة ما بعد أيام من الحصار، تجد الصليبيين الآخرين يعتدون على زوجة الخليفة أمام عينيك، وجاريات جميلات ينزعن ملابسهن وتقول لك خذني، ولكن اتركني على قيد الحياة... وفارس المعبد لا، عليه أن يتقوى ويتشدد، كريه الرائحة، مشعر كما يريده القديس برناردو، وأن يتلو صلواته.. من جهة أخرى يكفي أن نقرأ الملامح ..."

-وما هي؟

- قوانين النظام الرهبني، والتي تم صياغتها متأخرًا، عندما كان النظام بالفعل في مرحلة الاستقرار. لا يوجد شيء أسوأ من أن يشعر الجيش بالملل بسبب انتهاء الحرب. على سبيل المثال في لحظة ما كانت القوانين تمنع الغارات، أو جرح شخص مسيحي بغرض الانتقام، المتاجرة مع امرأة، تشويه سمعة أخ راهب. لا يجب على الفارس السماح للعبد بالهرب، أو الغضب ثم التهديد بالذهاب إلى العرب! لا يجب أيضًا فقد حصان بسبب الإهمال، ترويض حيوان باستثناء الكلاب والقطط، الرحيل دون الحصول على إذن لذلك، الاستهتار بأوامر المعلم، ترك الفرقة أثناء الليل، أو إعارة نقود النظام بلا استئذان أو إلقاء الرداء الرهبني أرضًا في لحظة غضب.

- قال بيلبو: من نظام المنع يمكن فهم ما كان يفعله الناس بالفعل، ويمكن بالتالي استنتاج نوعية الحياة اليومية.

- لنر إذن، قال ديوتالليفي، يخرج أحد فرسان المعبد، غاضبًا مما قال له أو فعل الإخوة تلك الليلة، ليلاً دون استئذان، ممتطيًا حصانه، ومعه أحد الصبية العرب وثلاثة ديوك مخصاة معلقة في سرج حصانه، يذهب إلى صبية سيئة السمعة، يلقي عليها بالديوك وفي مقابل ذلك يقيم معها علاقة محرمة... أثناء ذلك يهرب الصبي بالحصان. يعود فارسنا، أكثر عرقًا وقذارة من طبيعته يجر أذيال الخيبة إلى المنزل. وفي محاولة له لإخفاء ما حدث يعطي بعض نقود النظام إلى المرابي اليهودي، الذي ينتظر فريسته كالجوارح...

علق بيلبو: ها أنت قلتها بنفسك يا قيافا!

- إنه حديث النماذج النمطية، يحاول الفارس إذن أن يبتاع الحصان على الأقل، إذا كانت استعادة الغلام عسيرة. ولكن يرى فارس رفيق عملية المقايضة، وفي المساء (كما هو معروف في تلك الجماعات: الحقد شيء أساسي)، عندما يصل اللحم، وفي لحظة رضا الجميع، يبدأ في إطلاق عبارات موحية قوية. يشك الكابتن في نواياه، تحمر وجنتاه، يخرج خنجره ويلقي بنفسه على أخيه...

- المتملق الخائن، يحدد بيلبو

- أحسنت القول، على أخيه المتملق الخائن، على ذلك البائس ويقطع وجهه. يضع الآخر يده على سيفه ويتصارعان بوحشية، يحاول القائد تهدأتهما بضربات من سيفه، وينطلق الإخوة الآخرون في ضحكات مكتومة...

يقول بيلبو: يشربون ويسبون كفرسان المعبد...

أقول لزيادة الدراما: والله، بالله، تالله.........

- وبلا شك يشتعل غضب فارسنا، نعم،... ماذا بحق الجحيم يمكن لأحد فرسان المعبد أن يفعل في ساعة الغضب؟

يقترح بيلبو: يزرق وجهه

- تمام يزرق وجهه، كما قلت، ينزع رداءه ويلقي به أرضًا..

- إليكم رداءكم القذر ومعه معبدكم الملعون، أقترح أنا، بل ويقطع الشعار بضربة من سيفه، يقطعه ويصيح بأنه سيذهب لينضم للعرب.

- لقد خرق حوالي ثمانية من قوانين النظام بضربة واحدة.

أختتم في محاولة لإيضاح أطروحتي: أنتم ترونهم أنماط الشخصيات التي تصيح وتقول سأذهب لأنضم للعرب، وفي اليوم الذي يقبض عليه مساعد الملك ويريه القضبان الساخنة: تكلم أيها العربي (القمحي)، أعترف بأنك غرزت هذا في مؤخرة إخوتك! من؟ أنا؟ إن حديدك يبعث على الضحك. ألا تعرف ما يمكن لفارس المعبد أن يفعل، يمكنني أن أضع هذا في مؤخرتك أنت، والبابا، وإذا وقع الملك فيليب بين يدي، سأضعه في مؤخرته هو أيضاً.!

- لقد اعترف، لقد اعترف لابد أن الامور كانت تسير كذلك! قال بيلبو، وبعد ذلك يلقون به في الجب، في كل يوم يلقون عليه بالزيت المغلي ليحترق بمرور الوقت!

اختتم ديوتاليفي: يتصرفون مثل الأطفال.

قاطعتنا فتاة، بوحمة على هيئة فراولة على أنفها، كانت ممسكة بأوراق بين يديها. سألتنا إذا كنا قد وقعنا من أجل الرفاق الأرجنتين المقبوض عليهم. وقع بيلبو على الفور، دون أن ينظر إلى الورقة. "حالهم بالتأكيد أسوأ من حالي" قال لديوتاليفي الذي كان ينظر إليه باندهاش. ثم وجه حديثه للفتاة قائلاً: لا يستطيع هو أن يوقع، فهو ينتمي لأقلية هندية تمنع كتابة الاسم. الكثير منهم في السجن حالياً لأن الحكومة تضطهدهم." حدقت الفتاة في ديوتاليفي بتفهم، ثم قدمت الورقة لي. تنفس ديوتاليفي الصعداء.

سألتها: من يكونون؟

- ماذا تعني بمن هم؟ أنهم الرفاق الأرجنتينيين!

- أجل ولكن من أي مجموعة؟

- تاكوارا على ما أعتقد!

خمنت قائلاً ما أعتقده: ولكن التاكوارا فاشيون.

- أنت هو الفاشي! قالتها لي الفتاة بحنق. ثم انصرفت.

سأل ديوتاليفي: إذن كان هؤلاء الفرسان مساكين؟

قلت: لا، إنه خطئي، حاولت أن أجعلها قصة مليئة بالحياة. إن كل ما سبق وقلناه يتعلق بالفرق، ولكن النظام منذ البداية كان قد تلقى بالفعل الكثير من الهبات وبها قام ببناء مراكز قيادة له في أوروبا كلها. فلتتذكروا كيف أهداهم ألفونسو دراجونا مقاطعة بأكملها، بل وترك أيضًا وصيته التي فيها يترك لهم مملكته في حالة عدم وجود ورثة عند مماته. ولكن لم يثق فيه الفرسان وعقدوا معه صفقة، أن يأخذوا بعض النقود ويرحلوا ولكن بدلاً من النقود أخذوا ستة حصون في إسبانيا. منحهم أيضًا ملك البرتغال غابة، ونظرًا لأن الغابة كان يحتلها العرب، هاجمهم الفرسان وطردوهم وأسسوا كويمبرا. وتلك مجرد بضع حكايات. ما أريد إيضاحه هو التالي: جزء من النظام الرهبني كان يحارب في فلسطين والجزء الأكبر منه مكث في الوطن. ثم ماذا حدث؟ لنقل إذن إن أحدهم كان عليه الذهاب إلى فلسطين، بحاجة إلى نقود، ولكنه يخاف أن يسافر بمجوهراته وذهبه، وبالتالي يترك ثروته مع الفرسان في فرنسا أو إسبانيا أو إيطاليا. يعطونه إيصالاً، والذي به يحصل على نقوده هناك في الشرق عندما يصل.

قال بيلبو: خطاب ائتمان.

- بالتأكيد، كانوا هم من اخترعوا الشيك، قبل بنوك فلورانسا. إذن فبين الهبات وما يحصلون عليه بالسلاح والنسب الخاصة التي يحصلون عليها في عملياتهم المالية أصبح نظام فرسان المعبد قوة متعددة الجنسيات. ولإدارة مشروع كهذا لابد من أشخاص غاية في اليقظة. أشخاص استطاعوا إقناع إنوتشينزوا الثاني أن يمنحهم مميزات استثنائية: من حق النظام أن يحتفظ بكل غنائم الحرب، في أي مكان تكون لهم فيه ممتلكات لا يمكن لأحد سواء البابا مسائلتهم، لا الملك ولا الأساقفة ولا حتى بطريرك أورشاليم، البابا فقط. ونظرًا لأنه تم إعفائهم من العشور كان يحق لهم هم فرضها على الأراضي التي يسيطرون عليها... بالتالي كانت مشاريعهم دائمًا مستترة لا يمكن لأحد أن يتدخل فيها. وبهذا يمكن أن نفهم لماذا كان الأساقفة والملوك يكرهونهم على الرغم من أنهم لا يمكنهم الاستغناء عنهم. كان الصليبيون في وضع سيئ فهم لا يعرفون إلى أين هم ذاهبون بينما فرسان المعبد كانوا يشعرون أنهم في منزلهم وهم في تلك الجهات، يعرفون كيفية التعامل مع العدو يعرفون المنطقة والفنون العسكرية. كان نظام المعبد شيئًا جادًا، حتى وإن قام على أخبار غزواته وهجوم قواته."

سأل ديوتاليفي: هل كانت مجرد شائعات؟

- غالبًا ما كانت كذلك، مرة أخرى نشعر بالدهشة أمام الفجوة بين حكمتهم السياسية والإدارية من جهة وبين أسلوبهم الحربي المتميز بالشجاعة دون عقل. لنأخذ على سبيل المثال ما حدث في عسقلان.

- دعونا نفعل ذلك. قال بيلبو الذي كان قد شرد ليحيى، بلهفة شديدة مصطنعة، فتاة تدعى دولوريس، والتي جلست بجوارنا وهي تقول: أريد أن أستمع لحكاية عسقلان.

- حسنًا. في أحد الأيام قرر ملك فرنسا، وإمبراطور ألمانيا، بالدوفينو الثالث من أورشاليم وكبيرو معلمي فرسان المعبد، والإستباريون أن يهاجموا مدينة عسقلان. انطلق الجميع لحصارها، الملك والحاشية، البطريرك والقساوسة يحملون الصلبان واللافتات، أساقفة صور والناصرية والقيصرية، أي أنها كانت احتفالية كبيرة، ونصبوا خيامهم أمام مدينة الأعداء، وارتفعت الشعلات والأعلام وضرب الطبول... كان يحمي عسقلان مائة وخمسون برجًا، وكان سكانها قد استعدوا منذ فترة للحصار، فبنوا فجوات مستطيلة في جدران منازلهم، كانت كأنها حصون بداخل الحصون. ولكن كيف يمكن لأشخاص بمهارة الفرسان أن يخفى عليهم كل هذا. ولكن ما حدث أن الجميع تحمسوا بشدة، بنوا عجلات حربية وأبراجًا خشبية، مثل تلك البنايات ذات العجلات التي تُدفع أسفل أسوار الأعداء ومن فوقها يطلقون كتلاً نارية وأحجارًا صغيرة وسهامًا، بينما يطلقون الأحجار الضخمة من فوق المجانيق من بعيد. حاول أهل عسقلان أن يشعلوا النيران في الأبراج الخشبية، ولكن لم تكن الرياح في صالحهم، كانت النيران تلتصق بالأسوار التي سقطت إحدى حوائطها في لحظة ما. عندئذ اندفع كل الغزاة اندفاعة رجل واحد، وحدث شيء عجيب. نظم قائد فرسان المعبد نطاق من فرسانه بحيث لا يدخل أحد المدينة سواهم. يقول الخبثاء إنه فعل ذلك حتى يتمكنوا من الاستيلاء على الغنائم كلها، بينما يقول الصالحون إنه فعل ذلك خشية من حدوث كارثة حيث أراد أن يرسل بجنوده البواسل في المقدمة للاستطلاع. على كل، لن أمنح ذلك الشخص إدارة مدرسة حربية، حيث قام أربعون فارسًا من فرسان المعبد بدخول المدينة بسرعة رهيبة، واصطدموا بالسور في الجهة المقابلة، اضطروا للتوقف مطلقين سحابة كبيرة من الأتربة، نظر كل منهم لمن حوله متسائلين ماذا يفعلون هنا، ثم عادوا للوراء في طريقهم

للهروب من وسط العرب الذين أمطروهم بالحجارة والسهام من النوافذ، ذبحوهم جميعًا بما فيهم المعلم الكبير، ثم أغلقوا الثغرة بأن علقوا فيها أجسادهم وأخذوا يسخرون من المسيحيين بإيماءات فاحشة وضحكات بشعة.

قال بيلبو: العربي متوحش.

كرر ديوتاليفي: تمامًا مثل الأطفال.

قالت دولوريس بانفعال: لكن فرسانك هؤلاء كانوا مخبولين بالفعل.

قال بيلبو: إنهم يذكرونني بشخصيتي الرسوم المتحركة توم وجيري.

شعرت بالندم. في أعماقي كنت أعيش منذ عامين مع فرسان المعبد، وكنت أحبهم. ولكنني متأثر بنزعة التعالي لدى مستمعي فقدمتهم كشخصيات الرسوم المتحركة. ربما كان ذلك خطأ جوليلمو دي تيرو، ذلك المؤرخ الخائن. لم يكونوا هكذا فرسان المعبد، لم يكونوا بذقون أو حادي الطباع، بصليب أحمر على معطف ناصع البياض، يتأرجحون في ظل "البونسو" علمهم الأبيض في أسود، بروعة، في اتجاه احتفالية الموت والشجاعة، والعرق الذي كان يتحدث عنه القديس برنارد، ربما كان ذلك الوميض البرونزي الذي كان يعكس النبل الساخر لابتسامتهم الخائفة وهم يحتفلون بتوديعهم للحياة... أسود في الحرب، كما كان يقول عنهم جاك دو فيتري، حملان كلهم عذوبة في السلم، قساة في المعركة، مخلصين في الصلاة، وحوش مع الأعداء، خيرين مع الأصدقاء. يميزهم اللونان الأبيض والأسود لعلمهم: فهم ناصعو البياض والنقاء مع أصدقاء المسيح، غاية في البشاعة مع أعدائه.

أبطال إيمان يستحقون الشفقة، فهم المثال الأخير لآخر أيام الفروسية، لماذا تصرفت إزائهم كإحدى ملاحم أريوسطو بينما كان في إمكاني أن أكون لهم مؤرخهم المخلص؟

تذكرت الصفحات التي كرسها لهم مؤلف قصة القديس لويس، الذي كان قد اصطحب لويس القديس إلى الأراضي المقدسة، ككاتب ومحارب في الوقت نفسه. في تلك الفترة كان قد مر مائة وخمسون عامًا على نشأة فرسان المعبد، كانوا قد خاضوا بالفعل العديد من الحروب الصليبية، والتي تكفي لتنهك أي أفكار مثالية. اختفت خلالها كالأشباح شخصيات بطولية مثل الملكة مليسيندا، وبالدوفيني الملك الأبرص، استهلكت الحكايات عن المعارك الداخلية في لبنان، الملطخة بالدماء منذ ذلك الوقت،

وسقطت أورشاليم بالفعل مرة، وغرق باربروسا في شيليشيا، هزيمة ريتشارد الأسد المنكرة وعودته متنكرًا إلى وطنه، في زي أحد فرسان المعبد، فقد فقدت المسيحية معركتها. للعرب مفهوم مختلف عن الاتحاد بين القوى المستقلة، ولكنهم يتحدون في الدفاع عن حضارة، فقد قرأوا ابن سينا، فهم ليسوا في جهل الأوروبيين، كيف يمكنك أن تسكن لمدة قرنين بجوار حضارة متسامحة، متصوفة ومتحررة دون أن تقع في جاذبيتها، ذلك إذا أمكن مقارنتها بالحضارة الغربية الخشنة والسوقية، البربرية الجرمانية؟ وفي عام ١٢٤٤ سقطت أورشاليم للمرة الأخيرة والحاسمة، خسروا الحرب التي كانوا قد بدأوها منذ مائة وخمسين عام، واضطر المسيحيون للتنازل عن أسلحتهم في أرض كرست للسلام ولروائح السيدر في لبنان. مساكين فرسان المعبد، ماذا كانت فائدة كل ملاحمهم؟

لاعجب إذن أنه في خضم الشعور بالحنين لمجدهم المتلاشي أخذوا في الاستماع إلى التعاليم السرية للمتصوفين المسلمين، وللتجميع المقدس للكنوز الخفية. ربما نشأت من هنا أسطورة فرسان المعبد، والتي مازالت تستحوذ على العقول المحبطة والمتطلعة، قصة تلك القوى غير المحدودة التي لم تعد تعرف على ماذا تمارس سلطاتها..

إلا أنه في لحظة غروب الأسطورة يصل لويس، الملك القديس الذي يتخذ اللاهوتي أكويناس نديمًا له، أكويناس الذي لايزال يؤمن بالحروب الصليبية، على الرغم من قرنين من الأحلام المجهضة والمحاولات الفاشلة التي غالبًا ما كان سببها غباء المنتصرين، هل يستحق الأمر المحاولة مرة أخرى؟ رأى لويس القديس أن الأمر يستحق محاولة أخرى وكان فرسان المعبد هناك على استعداد لاتباعه في الهزيمة، فقد كانت هذه هي مهنتهم، كيف يمكن تبرير وجود المعبد دون الحروب الصليبية؟

هاجم لويس دمياط من البحر، كان شاطئ الأعداء يتألق بأنصال الرماح، المطارد والأعلام، التروس والسيوف، يقول جوينفيل بفروسية: كانوا يبدون رجالاً أقوياء يحملون أسلحة تعكس شعاعًا ذهبيًا في ضوء الشمس. كان يمكن للويس الانتظار، إلا أنه قرر الإبحار بأي ثمن. "أتباعي المخلصين، لن يتمكن منا أحد إذا توحدنا في محبتنا. إذا هزمنا سنصبح شهداء، وإذا انتصرنا سيزداد مجد الرب تألقًا". لم يكن فرسان المعبد يصدقونه، ولكنهم تربوا على أن يكونوا فرسان المثاليات، وتلك هي الصورة التي يجب أن ينقلوها عن أنفسهم، فساروا خلف الملك في جنونه الصوفي.

المدهش هو أن الهجوم نجح، وأن العرب تركوا دمياط، إلى حد أن الملك تردد في الدخول حيث إنه لم يصدق أنهم هربوا بالفعل. ولكن هذا ما حدث بالفعل، فالمدينة أصبحت له، وكنوزها أيضًا، والمائة مسجد الذي سرعان ما حولها هو إلى كنائس. وبقي أن يتخذ قرارً مهمًا: التوجه صوب الإسكندرية أم القاهرة؟ القرار الحكيم كان سيكون هو التوجه صوب الإسكندرية لنزع ميناء حيوي عن مصر. ولكن كان معهم في الحملة العبقري الشرير روبرتو دارتوا أخو الملك، المصاب بجنون العظمة والطموح، والظمآن للحصول على المجد الفوري مثل أي ابن مدلل. كانت نصيحته التوجه إلى القاهرة، قلب مصر. أما فرسان المعبد فبعد كل هذا الحذر أصبحوا لا يطيقون القيود المفروضة عليهم، منع الملك عمليات الهجوم الفردية، وكان قائدهم أول من خالف أوامر الملك، فقد رأى علم مماليك السلطان وصرخ: "لنهجم عليهم الآن، باسم الرب، لا أستطيع أن أتحمل المزيد من هذا العار".

في المنصورة قفز العرب فيما وراء النهر، حاول الفرنسيون بناء سد للعبور إلى الجهة الأخرى وقاموا بحمايته بأبراجهم المتحركة، ولكن كان العرب يعرفون فنون النار اليونانية من البيزنطيين. كانت طلقات النيران اليونانية كبرميل ضخم بذيل يشبه الرمح الكبير، كانت تهب كالسهم وتبدو وكأنها تنين يطير في الهواء، كانت تتسبب في ضوء ساطع بحيث يمكن رؤية معسكر المسيحيين في الليل وكأنهم في وضح النهار.

وبينما كان المعسكر المسيحي كله يشتعل، أشار أحد البدو الخونة إلى جسر، في مقابل ثلاثمائة بيزانت. يقرر الملك الهجوم، لم يكن العبور سهلاً، غرق الكثيرون وجرفتهم المياه، وعلى الشاطئ الآخر كان في انتظارهم ثلاثمائة فارس من العرب. ولكن في النهاية وصلت القوات كلها إلى الشاطئ، يتقدمهم فرسان المعبد، تبعًا للأوامر، يتبعهم الكونت دارتوا. هرب الفرسان المسلمون وانتظر فرسان المعبد باقي الجيش المسيحي. ولكن قفز الكونت دارتوا وخلفه أتباعه لمطاردة الأعداء.

عندئذ، وكي لا يصيبهم عار الانتظار، ألقوا بأنفسهم هم أيضًا في الهجوم، ولكنهم يلحقون بدارتوا فقط بعد أن كان قد تخلل في صفوف الأعداء وبدأ في المذبحة. أخذ المسلمون في الهروب نحو المنصورة، وهو الشيء الذي كان يتمناه أرتوا، الذي انطلق خلفهم. حاول فرسان المعبد إيقافه، بدأ الأخ الراهب جيل، كبير قادة الفرسان يمتدحه بأنه قام بالفعل بهجوم مدهش، ربما الأعظم حتى تلك اللحظة في أرض ما وراء

البحر. ولكن أرتوا، المتعطش للمجد، اتهم فرسان المعبد بالخيانة، بل وأضاف أنه إذا أراد فرسان المعبد والهوسبتاليين من قبلهم، لكان قد تم الاستيلاء على هذه الأرض منذ فترة، وقد أثبت هو في هذه المعركة ما كان في الإمكان عمله إذا كانت لديهم الشجاعة الكافية. وكانت اتهامات أكبر من أن يتحملها فرسان المعبد. فهم لا يأتون في المرتبة الثانية، عندئذ ألقى الجميع بأنفسهم تجاه المدينة، دخلوها وطاردوا الأعداء حتى الطرف الآخر من السور، عندئذ أدرك الفرسان أنهم كرروا خطأ عسقلان. وبينما المسيحيون ـ ومعهم فرسان المعبد ـ منهمكون في نهب قصر السلطان، أعاد الأعداء تجميع قواتهم، وهجموا على القوات المبعثرة أثناء جمعها للغنيمة. هل أعمى الجشع مرة أخرى عيون فرسان المعبد؟ ولكن يشير آخرون إلى أنه قبل اتباع أرتوا نحو المدينة، قال الأخ جيل له، بنقاء صوفي: "سيدي، أنا وأخوتي لا نخشىٰ شيئًا وسنتبعك. ولكن لتعلم أنني أشك بقوة أننا سنتمكن من العودة". وبالفعل قتل أرتوا، وقتل معه أيضًا العديد من الفرسان الشجعان، ومئتي وثمانين من فرسان المعبد.

لم تكن مجرد هزيمة، كانت هزيمة نكراء. إلا أن الأمر لا يسجل تاريخيًا كما حدث، ولا حتى من قبل جوينفيل. هذا ما يحدث عادة، وهذا هو ما يمنح للحرب جمالاً.

فلقد حول قلم السيد جوينفيل العديد من تلك المعارك بل المناوشات إلى رقصات باليه رقيقة. رءوس تتدحرج هنا وهناك، الكثير من التضرعات إلى الله بالرحمة، ودموع الملك المنهمرة على موت أحد أتباعه المخلصين، وكأن كل شيء قد تم تصويره بالألوان، بين الأقمشة المخملية الحمراء الموضوعة أسفل السروج، أغطية السروج المزركشة، الخوذات اللامعة والسيوف المتلألئة أسفل الشمس الذهبية للصحراء، وفي مقدمة اللوحة البحر التركوازي. من يدري ربما عاش فرسان المعبد بالفعل بهذه الطريقة مذابحهم اليومية.

كانت نظرة جوينفيل تتحرك رأسيًا، من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى، حسب موقعه إذا سقط من فوق حصانه أم ترجله من جديد. لم تكن لديه رؤية واضحة لما يحدث إجمالاً في ساحة المعركة، كان يركز على مشاهد منفصلة ونتائجها العشوائية. يندفع جوينفيل ليساعد سيد وانون، يصيبه أحد الأتراك برمح، يسقط الحصان على ركبتيه، يطير جوينفيل ليسقط إلى الأمام فيما وراء رأس الحصان، ينهض وسيفه في يده، يشير إليه الفارس إيراردو دي سيفيريه ("رحمه الله") باللجوء إلى منزل مهجور،

وكانوا في هذه اللحظة أسفل أغطية خيول الأتراك، ومع ذلك قاموا دون إصابات ووصلوا إلى المنزل ليحتموا بأسواره، ولكن هاجمهم الأتراك من أعلى بالرماح. أصيب الفارس فيدريكو دي لوبي في كتفيه "وكان الجرح شديد إلى حد أن الدماء اندفعت من جسده كالثقب في برميل"، وأصيب سيفيري بجلدة شديدة في وسط وجهه "إلى حد أن أنفه سقط فوق شفتيه". واستمر الحال هكذا حتى وصلت الإمدادات، أخرجوهم من المنزل وانتقلوا إلى منطقة أخرى من حقل المعركة، مشاهد جديدة، موتى آخرين وعمليات إنقاذ في اللحظات الأخيرة، الأصوات تعلو بالأصوات استغاثة بالقديس يعقوب. وفي الوقت نفسه يصيح الكونت سواسون وهو يطيح بسيفه "سيد جوينفيل، لنترك تلك الكلاب تعوي. بحق السماء، يجب أن نتحدث مرة أخرى عن هذا اليوم عندما نكون أنا وأنت سويًا في منازلنا مع نسائنا". ويسأل الملك عن أخيه، المعلون كونت أرتوا، فيجيبه الأخ الراهب هنري روناي رئيس الهوسبتاليين بأن "لديه عنه أخبار جيدة، فهو بالتأكيد في الفردوس". يحمد الملك الله على كل عطاياه، وتتساقط الدموع من عينيه.

ولكن لم يكن الأمر مجرد عرض باليه ملائكي، ملطخ بالدماء، يموت المعلم الكبير جوليلمو دي سوناك، يحرق حيًا بالنيران اليونانية، أما الجيش المسيحي فيصاب بالأسقربوط بسبب العدد الكبير من الجيف وإهمال الأحياء. جيش القديس لويس في الطريق، يصاب الملك بدوسنتاريا حادة إلى حد أنه يقطع قاعدة سرواله ليوفر الوقت أثناء المعركة. فُقدت دمياط، واضطرت الملكة للتفاوض مع العرب ودفع خمسمائة ألف ليرة إيطالية فدية للملك.

لكن كانت الحروب الصليبية تتم بناء على إيمان سيئ لاهوتيًا. ففي مدينة جون داكر، تم استقبال الملك لويس كالمنتصر وخرجت للقائه المدينة بأكملها، بما فيها من رجال دين ونساء وأطفال. أما فرسان المعبد فنظرًا لما لديهم من خبرة طويلة فقد بدأوا المفاوضات مع دمشق. عندما يعلم لويس ذلك لا يتحمل فكرة أنه تم تجاوزه، فيخلع رئيس الفرسان أمام سفراء المسلمين، ويضطر المعلم الكبير أن يركع أمام الملك طالبًا عفوه. لا يمكن القول إن الفرسان تخاذلوا في المعركة وبإنكار للذات، ولكن يعمل ملك فرنسا على إذلالهم ليعيد تأكيد سلطته. وبعد مرور قرن ونصف على هذا يقوم خليفة لويس، الملك فيليب، لتأكيد سلطانه هو أيضًا، بإلقاء فرسان المعبد في المحرقة.

في عام ١٢٩١ تسقط مدينة سان جون داكر (يوحنا الأورشاليمي) في يد العرب، ويُذبح كل سكانها، وبهذا انتهت المملكة المسيحية في أورشاليم. في ذلك الوقت كان فرسان المعبد أكثر ثراءً وأكثر عدداً وأكثر قدرة مما سبق، تأسست جماعتهم للمحاربة في الأراضي المقدسة، ولم يعد لهم أي وجود في الأراضي المقدسة. كانوا يعيشون في رخاء مدفونين في مراكزهم المخبأة في أوروبا كلها وفي معبد باريس، مازالوا يحلمون بسهول معبد أورشاليم في أزمنة المجد، وكنسية سانت ماري في لاتران المليئة بالهياكل، باقات أكاليل الزهور. يحلمون بأكاليل النصر، وكل شيء آخر؛ السيوف والسروج، الحقول وإسطبلات بها أكثر من ألفي حصان، قوات حاملي الدروع والمساعدين وقوات التركوبوليس. الصلبان الحمراء على العباءات البيضاء، والرداء الكهنوتي للمرافقين، ومبعوثي السلطان بغطاس رأسهم العظيم والخوذات المزينة. كانوا يحلمون بالحجاج، بالمعابر المليئة بدوريات الحراسة والفرسان والخيرات التي تملأ العربات الثرية، الميناء الذي منه تنطلق التعليمات والشاحنات لتذهب إلى القصور في الأراضي الرئيسية أو إلى الجزر أو إلى شواطئ آسيا الصغرى.

كل شيء انتهى مساكين فرساني، فرسان المعبد.

أدركت ذلك المساء، لدى بيلادي، وأنا ممسك بكأس الويسكي الخامس، والذي كان بيلبو قد أصر على دفع ثمنهم، أنني كنت أحلم بصوت مرتفع، وأطلقت العنان لمشاعري (ياللخجل)، ولابد أنني قصصت حكاية رائعة، بشغف وتعاطف، لأنه كانت عينا دولوريس تتلألأ بالدموع، وكانت عينا ديوتالليفي، الذي تهور بجنون وطلب زجاجة مياه التونيك الثانية، تحدقان بإجلال في السماء - أو من الأفضل أن نقول تجاه سقف البار الخالي من أي وقار، وكان يهمس "وربما كانوا بالفعل، رغم كل هذا، أرواحاً ضائعة وأرواحاً قديسة، انتهازيين وفرسان، صرافين وأبطال..."

"من المؤكد أنهم كانوا متميزين" أعقبه استنتاج بيلبو، "ولكن قل لي يا كازاوبون، هل تحبهم؟"

"إنهم موضوع بحث رسالتي، إن من يدور بحثه حول مرض السفلس الزهري ينتهي به الأمر بالتأكيد أن يحب شحوب البكتيريا نفسه"

قالت دولوريس "كان ذلك رائعاً، مثل الأفلام. ولكن لابد وأن أذهب الآن. علي طباعة المنشورات لصباح الغد، هناك مظاهرات في ماريللي."

قال بيلبو: "يالحظك يمكنك السماح لنفسك بهذا"، ثم رفع يده بتعب ليربت على شعرها، ثم طلب كأس ويسكي أخرى، وقال إنها الأخيرة. وأضاف "إن الليل كاد أن ينتصف، لا أقول بالنسبة للآدميين، ولكن لديوتاالليفي. ولكن لننته من هذه القصة، أريد أن أعرف ماذا حدث في المحاكمة. متى، وكيف ولماذا..."

أيده ديوتاالليسفي: أجل، أجل: لماذا وكيف ومتى؟؟

أكد أنه رأى في اليوم السابق خمسمائة وأربعين أخًا من الرهبنة تم قيادتهم للمحرقة، لأنهم لم يرغبوا بالاعتراف على الأخطاء المذكورة مسبقًا، وأنه سمع من قال إنهم حرقوهم، وأنه خوفًا من عدم قدرته على المقاومة في حالة الحكم عليه بالحرق، كان سيعترف بالتأكيد، خوفًا من الموت، في حضور السادة المحققين وأي شخص، إذا تمت محاكمته، بأن كل الأخطاء التي ارتكبها النظام الرهبني حقيقية وأنه هو، إذا سأله أحد أن يعترف بأي شيء سيفعل ذلك، حتى إذا كان عليه الاعتراف بأنه هو الذي قتل السيد المسيح.)شهادة إيميري دو فيلبيه الدوق، مايو ١٣، ١٣١٠).

كانت محاكمة يغلفها الصمت، والتناقضات، ألغاز وحماقات. كانت الحماقات هي الأكثر ظهورًا، ولكن بما أنه لم يكن من السهل تفسيرها كانت تندرج أسفل الألغاز. في تلك الأيام السعيدة كنت أعتقد أن الحماقة تولد الألغاز. في تلك الليلة وأنا في المنظار، كنت أعتقد أن أبشع الألغاز لكي تخفي نفسها تتنكر في زي الجنون. الآن أعتقد العكس: إن العالم هو لغز حميد يحوله جنوننا إلى شيء بشع، لأنه يحاول أن يفسره وفقًا لحقيقته.

أصبح فرسان المعبد بلا هدف. أو بالأصح، حولوا الوسائل إلى أهداف، كانوا يديرون ثراءهم الفاحش. لا عجب أن يكرههم شخص مثل فيليب دي بيللو، ذلك الراهب الذي كان يهدف لبناء دولة مركزية. كيف يمكن أن يتم التحكم في نظام رهبني ذي سيادة؟ كان المعلم الكبير للرهبنة ذو دماء ملكية لأمير، يقود جيش، ويدير ثروة إقطاعية ممتدة، وتم انتخابه مثل الإمبراطور وكان له السلطة المطلقة. لم يكن الكنز الفرنسي في أيدي الملك بل كان محميًا في معبد باريس. كان فرسان المعبد هم المودعون، والوكلاء، والقائمون على إدارة حساب جار تحت اسم الملك رسميًا. كانوا يودعون الأموال في الخزائن، يدفعونها، يلعبون بالفوائد، يتصرفون وكأنهم بنك خاص كبير، ولكن في الوقت نفسه لهم كل المميزات والصلاحيات لبنك الدولة... بل كان وزير خزانة الملك أحد فرسان المعبد. كيف يمكن لأحد أن يحكم في هذه الظروف؟

إذا لم يكن في الإمكان محاربتهم فمن الأفضل الانضمام إليهم. طلب الملك فيليب أن يصبح فارسًا شرفي للمعبد هو أيضًا. ولكن رُفض طلبه، وكانت إهانة كبيرة للملك. عندئذ طلب من البابا أن يضم جماعتي فرسان المعبد والهوسباليين في رهبنة واحدة

جديدة وأن يضعها تحت سيطرة واحد من أبنائه. وصل المعلم الكبير لفرسان المعبد، جاك دي مولاي، في موكب فخم، من قبرص حيث يعيش كملك في المنفى، وقدم للبابا مذكرة فيها يتظاهر بتحليل مميزات هذه الاندماج، ولكنه في الحقيقة كان يوضح عيوبه. وبلا أي حياء ذكر مولاي، من بين أسبابه، كيف أن فرسان المعبد أكثر ثراء من الهوسبتاليين، وكيف أن ذلك الاندماج سيعمل على الإقلال من ثروة طرف ليزداد الطرف الآخر ثراء، وهو الشيء الذي سيكون له تأثير كبير الضرر على فرسانه. فاز مولاي بالجولة الأولى في هذه اللعبة التي كانت مازالت في بدايتها، وتم حفظ ذلك الملف في الأرشيف.

لم يتبق سوى تشويه سمعتهم، وكان في يد الملك الأوراق الرابحة، حيث كانت هناك بالفعل إشاعات حول الفرسان منذ فترة. كيف كان يرى الفرنسيون هؤلاء الاستعماريين، الذين يرونهم حولهم وهم يجمعون العشور دون أن يعطوا أي شيء في المقابل، ولا حتى ـ في ذلك الوقت ـ دمائهم كحراس للقبر المقدس؟ كانوا فرنسيين مثلهم، ولكن ليس بالكامل فقد كانوا يرونهم بأقدام سوداء أو كما كان يطلق عليهم حينئذ poulains. كان الفرسان يتباهون بأساليبهم الغريبة، ويُقال إنهم كانوا يتحدثون فيما بينهم لغة العرب، التي كانوا معتادين عليها. على الرغم من كونهم رهبان، كانت أساليبهم الهمجية معروفة للجميع، فقبل ذلك ببضعة أعوام كتب البابا إنوسنت الثالث مقالة نقدية عنوانها سلوكيات فرسان المعبد غير العادية De Insolentia Templariorum. نذروا الفقر، ولكنهم كانوا يعيشون في منازل أرستقراطية، بالإضافة إلى جشع الطبقات التجارية الجديدة، ووقاحة فرسان المائدة المستديرة.

وكان يكفي القليل لشحذ حملة الهمسات: شذوذ جنسي، وهرطقات، وعبادة أوثان حيث قالوا إنهم كانوا يعبدون تمثال رأس بذقن لا يعرف أحد مصدره، ولكن من المؤكد أنه لا يمت بصلة للمؤمنين الصالحين، ربما كانوا يشاركون الأسرار مع الإسماعيليين، ولهم علاقة بحشاشي شيخ الجبل. استخدم فيليب ومستشاريه تلك الإشاعات استخدامًا جيدًا.

كانت تتحرك، خلف فيليب ـ النفوس الشريرة لمارينيي ونوجاريت. مارينيي هو ذلك الذي سيضع في نهاية الأمر يده على كنوز المعبد، ويديرها لصالح الملك، في انتظار نقلها إلى الهوسبتاليين، ولم يكن واضحًا من من سيحصل على الفوائد. أما نوجاريت،

فلقد كان مستشار الملك، في عام ١٣٠٣ كان هو المفكر الاستراتيجي ومخطط حادثة أنانيي، عندما قام شارا كولونا بصفع البابا بونيفاتشو الثامن، والتي مات بعدها البابا في ظرف شهر كمداً.

وفي لحظة ما دخل إلى المشهد أيضًا إيسكي دي فلوريون. والذي يبدو أنه أثناء وجوده في السجن، لجرائم غير محددة وعلى شفا الإعدام، قابل في الزنزانة أحد فرسان المعبد المرتدين، والذي هو أيضًا في انتظار الحكم بالإعدام، وحصل منه على اعترافات بشعة. يبيع فلوريون ما يعرفه في مقابل الحصول على العفو التام ومبلغ من المال. ذلك الذي يعرفه كان هو ما يهمس به الجميع في ذلك الوقت. ولكن تحولت الإشاعات إلى اتهامات فعلية أمام القضاء. نقل الملك اعترافات فلوريون المثيرة إلى البابا، والذي كان في ذلك الوقت كليمون الخامس، ذلك الذي نقل المقر البابوي إلى أفينيون. صدقه البابا ولم يصدقه في الوقت ذاته، بالإضافة إلى أنه كان يعرف مدى صعوبة وضع الأيدي على أعمال فرسان المعبد. ولكنه عام ١٣٠٧ يوافق على فتح التحقيق بصورة رسمية. عرف موراي بالأمر، ولكنه احتفظ بهدوئه واستمر في حضور الاحتفالات الرسمية كأمير بين الأمراء. يبطئ البابا الإجراءات ويبدأ الملك في الشك أن البابا يريد أن يمنح الفرسان فرصة ليهربوا. ولكن لم يحدث ذلك، إذ استمر الفرسان يشربون ويسبون في مقارهم غير مدركين لأي شيء. وكان هذا هو اللغز الأول.

في الرابع عشر من سبتمبر عام ١٣٠٧ أرسل الملك برسائل مختومة إلى كل أتباعه حيث أمر بالقبض الجماعي على فرسان المعبد ومصادرة كل أموالهم. ومر شهر بين إرسال الأمر وعملية القبض عليهم التي تمت في الثالث عشر من أكتوبر. ولم يكن الفرسان يشكون في أي شيء. في صباح القبض عليهم سقطوا جميعهم في الفخ، لغز آخر، واستسلموا بلا أية مقاومة. في الواقع، في الأيام التي سبقت عملية القبض عليهم، قام رجال الملك، رغبة في عدم اختفاء أي شيء من المصادرة، بعمل نوع من الحصر لثروة فرسان المعبد في كل الأراضي الوطنية، بحجج إدارية واهية، وعلى الرغم من ذلك لم يفعل فرسان المعبد أي شيء، كانوا يسمحون لرجال الملك بالدخول والفحص وكأنهم في منازلهم.

عندما وصل أمر القبض عليهم إلى البابا حاول الاعتراض، ولكن كان اعتراضه متأخرًا. كان المحققون الملكيون قد بدأوا عملهم بالفعل باستخدام الحديد والحبال،

وقام بالفعل العديد من الفرسان بالاعتراف بعد التعذيب. وبالتالي كان لابد من تحويلهم إلى لجان التفتيش، والذين لم يكونوا يضعون الرجال في المحرقات بعد، فقد كان ذلك يكفي، وكان الفرسان يؤكدون اعترافاتهم.

وكان هذا هو السر الثالث الغامض: حقيقي أنه كانت هناك عمليات تعذيب وحشية بالفعل، إذ أن ستة وثلاثين من الفرسان ماتوا من جرائها، ولكن هؤلاء الرجال الأقوياء، المعتادون مواجهة الأتراك المتوحشين، كيف لم يستطيعوا الصمود أمام جنود الملك؟ في باريس رفض أربعة من الفرسان فقط الاعتراف ضمن مائة وثمانية وثلاثين فارسًا. اعترف الباقون جميعًا بما فيهم جاك دو مولاي.

سأل بيلبو: ولكن بماذا اعترفوا؟

- اعترفوا بما كان قد تم صياغته بالفعل في أمر القبض عليهم. هناك بعض الاختلافات البسيطة في الشهادات الخطية، على الأقل بين فرنسا وإيطاليا. ولكن في إنجلترا، حيث لم يكن أحد يرغب في الواقع في محاكمتهم، في الشهادات المكتوبة تظهر الاتهامات الشرعية، ولكنها منسوبة إلى شهود خارج النظام، والذين يتحدثون فقط بناء على ما سمعوه. أي أن الفرسان كانوا يعترفون فقط إذا كان هناك أحد يرغب في ذلك، وفقط بما كان يملى عليهم.

علق بيلبو: نموذج لمحاكم التفتيش المعتادة، رأينا مثلها من قبل.

- إلا أن سلوك المحققين كان غريبًا. كانت الاتهامات الرئيسية هي أن الفرسان في أثناء طقوس الانضمام الخاصة بهم ينكرون المسيح ثلاث مرات، ويبصقون على المسيح المصلوب، يتم تعريتهم وتقبيلهم في مؤخرتهم، على سرتهم ثم في أفواههم، يقول النص إنهم كانوا يضجعون معًا. ثم يعرضون عليه تمثال لرأس ملتحية، وعليهم بالتالي عبادتها. والآن، بماذا كان يجيب المتهمون عندما كانوا يواجهونهم بهذه الاتهامات؟ أجاب جيفري دو شارني، ذلك الذي مات محترقًا في النيران مع مولاي مؤيدًا أن ذلك حدث معه، إنه أنكر المسيح، ولكن بفمه فقط وليس بقلبه، وإنه لا يتذكر أنه بصق على المصلوب، فكل شيء كان سريعًا جدًا في تلك الليلة. فيما يتعلق بقبلة المؤخرة، أكد أيضًا أن ذلك قد حدث له، وأنه قد سمع المعلم دالفيريا يقول إنه من الأفضل الاتحاد مع الإخوة بدلاً من مضاجعة النساء، إلا أنه لم يرتكب أي خطية جسدية مع أي من

الفرسان الآخرين. إذا فهذا كان يحدث بالفعل، كان كاللعبة التي لا يعيرها أحد اهتمامًا، ولكنني لم أشارك فيها لما نشأت عليه من أفكار. أما جاك دو مولاي، المعلم الكبير، ولكن ليس آخر أفراد الجماعة، قال إنه عندما أعطوه تمثال المصلوب ليبثق عليه، تظاهر بذلك ولكنه بثق على الأرض. أعترف أن الاحتفالات بالانضمام كانت تتم عامة على هذا المنوال، إلا أنه لن يتمكن وصفها بدقة حيث إن أثناء رئاسته انضم للجماعة عدد قليل جدًا من الإخوة. قال آخر إنه قبّل المعلم ولكن ليس في مقعدته بل في فمه، ولكن المعلم هو الذي قبله في مقعدته. آخرون اعترفوا بأكثر من المطلوب، بأنهم لم يكن عليهم فقط إنكار المسيح بل التأكيد على أنه مجرم، وأنكروا عذرية مريم، بل وأضافوا أنهم تبولوا فوق تمثال المصلوب، ليس فقط في يوم الاحتفال بانضمامهم للجماعة ولكن أيضًا في أسبوع الآلام. لم يكونوا يؤمنون بالأسرار المقدسة، ولم يكتفوا بعبادة ذلك الملتحي بل كانوا يعبدون الشيطان أيضًا في هيئة قطة..."

إلا أن الأمر الغريب والذي يصعب بالفعل تصديقه، هي تلك الرقصة التي بدأت بين الملك والبابا. فالبابا أراد أن يمسك بزمام الأمور في يده، ولكن الملك يفضل أن يقود المحاكمة وحده للنهاية، كان البابا يريد أن يقمع النظام الرهبني فقط لفترة مؤقتة، أدانة المذنبين ثم إعادته لنقائه الأول، والملك يريد أن تنتشر الفضيحة، وأن يتورط في المحاكمة النظام بأكمله مما يؤدي إلى حله التام، سياسيًا ودينيًا، بالتأكيد، ولكن ماديًا قبل كل شيء.

في لحظة ما ظهرت وثيقة كانت أحد أهم الأعمال. كانت وثيقة من معلمي اللاهوت التي فيها يؤكدون عدم وجوب توفير محامي عن المتهمين، لمنعهم من أنكار اقوالهم، حيث أنهم قد اعترفوا بالفعل، لا داعي حتى للاستمرار في المحاكمة، الملك لابد وأن يتولى تنفيذ الاحكام، فالمحاكمة تُعقد عندما تكون هناك شكوك ما، ولكن في هذا الحالة لا شك في أي شيء. "لماذا إذن نمنحهم من يدافع عنهم، إذ سيدافع عن الأخطاء التي اعترفوا بها بالفعل، نظرًا لأن جلاء تلك الامور يجعل الجريمة غاية في الوضوح؟"

ولكن نظرًا لمخاطرة إمكانية أن تفلت المحاكمة من سلطة الملك وتنتقل إلى يد البابا، يفتح الملك ومعه نوجارت قضية صاخبة يتورط فيها أسقف تروي، والذي يتم اتهامه بممارسة أعمال السحر، بناء على اتهام أحد الانتهازيين الغامضين، شخص يُدعى نوفو داي. ثم يُكتشف فيما بعد أن كذب داي، ويعدم لهذا، ولكن أثناء ذلك انهالت على

الأسقف المسكين اتهامات باللواط، وانتهاك المقدسات، والربا. الضربات نفسها الموجهة لفرسان المعبد. ربما أراد الملك بذلك أن يثبت لأبناء فرنسا أنه ليس للكنيسة الحق في إدانة فرسان المعبد، لأنها ليست محصنة من عارهم، أو ربما أراد فقط إطلاق تحذيرًا بسيطًا للبابا. قصة سوداء، لعبة سياسات ومخابرات، لعبة تسلل وانتهازية... قُيدت يدي البابا وسمح بالتحقيق مع اثنين وسبعين من الفرسان، الذين أكدوا الاعترافات الموجهة إليهم تحت وطأة التعذيب، ولكن البابا كان يراقب توبتهم ويلعب بورقة شجب المعتقدات الخاطئة؛ ليتمكن من الغفران لهم.

وهنا حدث شيء آخر - عقدة كان علي الوصول لحلها في رسالتي، وكنت ممزقًا بين مصادر متضادة: بعد أن حصل البابا أخيرًا، وبعد عناء، على حق السلطة القضائية على الفرسان، يسلمهم على الفور للملك. لم أفهم قط ماذا حدث. مولاي يتراجع عن اعترافاته، يمنحه البابا كليمنتي فرصة للدفاع عن نفسه ويرسل إليه ثلاثة كاردينالات لاستجوابه. في السادس والعشرين من نوفمبر عام ١٣٠٩ يتولى مولاي الدفاع بفخر عن النظام وعن نقائه، بل ويصل به الأمر إلى تهديد من وجهوا إليهم الاتهامات، ثم يقترب منه مبعوث من الملك، جوليلمو دو بلازون، والذي كان مولاي يعتقده صديقه، يتلقى منه بعض النصائح الغامضة، وفي الثامن والعشرين من الشهر نفسه يصدر بيانًا غاية في التواضع والإبهام، يقول فيه إنه فارس فقير، لا ثقافة له، ويقتصر على سرد المزايا (البعيدة) لفرسان المعبد، والأعمال الخيرية التي قاموا بها، والدماء التي أهدرت في الأراضي المقدسة وهكذا. وما يزيد الأمر سوءًا هو وصول نوجارت، الذي يذكر كيف أن النظام الرهبني لفرسان المعبد كان على اتصال، مثير للشكوك، مع صلاح الدين: فهناك تلميح لجريمة خيانة عظمى. كانت تبريرات مولاي مثيرة للشفقة، وفي البيان الذي أصدره كان الرجل مجربًا بالفعل أثر قضاء عامين في السجن، وفيها بدا كرجل محطم، ولكنه بدا محطمًا أيضًا منذ لحظة القبض عليه. وفي بيان ثالث له، في شهر مارس من العام نفسه، يتبنى مولاي استراتيجية أخرى، لا يتكلم، ولن يتكلم إلا أمام البابا.

المفاجأة الكبرى، وهذه المرة ننتقل إلى الدراما الملحمية. في إبريل عام ١٣١٠ يطلب خمسمائة وخمسون من فرسان المعبد أن يتم الاستماع إليهم حيث يرغبون في الدفاع عن النظام، يدينون عمليات التعذيب التي تعرضوا لها وأدت إلى اعترافاتهم، ينكرون

ويثبتون افتراءات كل الاتهامات. ولكن الملك ونوجارت يعرفان ما يفعلان. بعض من الفرسان يتراجعون عن اعترافاتهم؟ حسنًا. يجب إذن اعتبارهم انتكاسيين وحانثي بالقسم، أي مرتدين ـ اتهام بشع في ذلك الوقت ـ لأنهم أنكرون ما سبق واعترفوا به. يمكن الغفران لمن يعترف ويندم، ولكن ليس لمن لا يعبر عن ندمه إذ يتراجع عن اعترافه ويقول، كذبًا، إنه لم يقم بما يندم عليه. والنتيجة أنه يتم الحكم على خمسمائة وخمسين متراجعًا عن الاعتراف وحانثي القسم بالموت.

من السهل التفكير في رد الفعل النفسي للمسجونين الآخرين. من يعترف يمكنه البقاء على قيد الحياة في السجن، ومن يعش ير. ومن لا يعترف، والأسوأ من يتراجع، يلق به في النار. أما الخمسمائة الذين تراجعوا عن اعترافاتهم فيتراجعون عن تراجعهم.

ولكن حسابات التائبين كان هو الفائز، لأنه في عام ١٣١٢، تم الحكم على من لم يعترفوا بالسجن مدى الحياة، أما من اعترف وتاب فقد عفوا عنه. لم يكن غرض فيليب القيام بمذبحة، أراد فقط تفتيت النظام. فالفرسان المطلق سراحهم، بعد أن دُمروا جسديًا ومعنويًا بعد قضاء أربع أو خمس سنوات في السجن، ينضمون في صمت لأنظمة رهبانية أخرى، فهم يريدون فقط أن ينساهم الجميع، وهذا الاختفاء، وهذا الإلغاء سيؤثر لفترة طويلة على أسطورة البقاء على قيد الحياة السري للنظام.

استمر مولاي في مطالبة أن يستمع إليه البابا. يعقد كليمنتي مجلسًا استشاريًا في فيينا عام ١٣١١، ولكنه لا يستدعي مولاي. يصدر البابا القرار بحل النظام الرهبني لفرسان المعبد ويعهد بأملاكه للهوسبتاليين، حتى وإن كانت تحت إدارة الملك في ذلك الوقت.

تمر ثلاث سنوات أخرى، وفي النهاية يصلوا إلى اتفاقية مع البابا في التاسع من مارس عام ١٣١٤ أمام النوتر دام، بموجبها يتم الحكم بالسجن مدى الحياة على مولاي والذي عندما يسمع هذا الحكم يثور لكرامته. كان ينتظر أن يبرأه البابا من كل التهم الموجهة إليه، شعر بأنه ضحية غدر. كان يعلم تمام المعرفة أنه إذا تراجع مرة أخرى عن اعترافاته سيصبح هو أيضًا متراجع عن الاعتراف وحانث للقسم. بماذا يشعر بعد سبعة أعوام قضاها في انتظار العدالة؟ هل ستكون لديه شجاعة أسلافه؟ يقرر أنه، نظرًا لأنه دُمر بالفعل، ويتوقع أن يمضي باقي أيامه حيًا، مسجونًا، يلطخه العار، من

الأفضل إذن أن يموت ميتة كريمة، فيصرخ معلنًا براءته هو وإخوته. يقول: ارتكب فرسان المعبد جريمة واحدة، أنهم خانوا نظامهم الرهبني بدافع من الجبن، وأنه لن يستمر في هذا.

يشعر نوجارت بالفرح الشديد، إن جريمة عامة تتطلب إدانة عامة، حاسمة، وإجراء عاجلاً. وسار على خطا مولاي جيفري دي شارني رئيس الفرسان في في نورماندیا. يقرر الملك في يوم واحد إقامة محرقة على طرف جزيرة سيتي. وفي الغروب حرقوا كلاً من مولاي وشارني.

حسب التراث تنبأ المعلم الكبير قبل موته بدمار مضطهديه. في الواقع يموت البابا والملك ونوجارت في العام نفسه. أما ماريني، فبعد موت الملك يتهم بالاحتيال. يتهمه أعداؤه بممارسة السحر ويُشنق. يبدأ الكثيرون في الاعتقاد بأن مولاي كان شهيدًا، ويعبر دانتي في أعماله عن استياء الكثيرين بسبب اضطهاد فرسان المعبد.

وبهذا تنتهي القصة لتبدأ الأسطورة. أحد فصولها يحكي عن شخص مجهول، يصعد على المنصة في اليوم الذي تُقطع فيه رقبة لويس السادس عشر بالمقصلة صارخًا: انتقمنا لك يا جاك دو مولاي!

كانت هذه هي الأحداث التي سردتها في تلك الليلة لدى بيلادي، وكانوا يقاطعونني في كل لحظة.

كان بيلبو يسألني: ولكن هل أنت متأكد أنك لم تقرأ ذلك في أحد كتب أوريل أو كوستلر؟ أو "تمهل قليلاً، ألا تشبه تلك القصة، قصة، ما اسمه، ذلك الشخص في الثورة الثقافية؟" وأخذ ديوتاليفي يقاطعني مرددًا باللاتينية: التاريخ معلم الحياة! فيجيبه بيلبو: مهلك، أتباع القابالاه لا يعتقدون في التاريخ." فيجيبه ديوتاليفي بثبات: تمامًا، كل شيء يتكرر، إن التاريخ معلم، لأنه يعلمنا عدم وجوده، وان أهم شيء هي التغييرات الحادثة."

ثم قال بيلبو في النهاية: وبعد كل هذا، من هم إذن فرسان المعبد؟ في البداية قدمتهم لنا كضباط في أحد أفلام جون فورد، ثم مثل مجموعة من المتسكعين، ثم فرسان في منمنات تنويرية، وبعد ذلك كصرافين باسم الرب، يؤدون أعمالهم المريبة، ثم جيش مهزوم، ثم أتباع فرقة شيطانية، وفي النهاية كشهداء الفكر الحر... من كانوا إذن؟

بالتأكيد كان هناك سبب لكونهم قد أصبحوا أسطورة كما هم الآن. الأرجح أنهم كانوا كل هذه الأشياء مجتمعة. ماذا كانت الكنيسة الكاثوليكية، سؤال يمكن أن يطرحه مؤرخ من كوكب مارس عام ٣٠٠٠، أولئك الذين كانت تفترسهم الأسود أم من كانوا يحرقون المهرطقين؟ كل ما سبق وذكرناه.

"ولكن هل ارتكبوا بالفعل كل هذه الاشياء؟"

"أكثر الأشياء مسلية هو أن أتباعهم، أقصد الفرسان الجدد للمعبد من العصور المختلفة، يؤيدون ذلك. والتبريرات متعددة. الافتراض الأول هو أن الأمر كان يتعلق بطقوس الانضمام: تريد أن تصبح من فرسان المعبد، اثبت لنا إذن شجاعتك وابصق على تمثال المصلوب ولنر إذا كان الله سيصعقك. وإذا أردت الدخول إلى تلك الفرقة يجب أن تعطي يديك وقدميك للإخوة، اسمح لهم بتقبيل مؤخرتك. الافتراض الثاني أنهم كانوا يدعونهم لإنكار المسيح ليروا كيف سيمكنهم التصرف إذا أسرهم العرب. تفسير أبله، لأنه لا يمكن تربية أحد على مقاومة التعذيب بأن يجعله يقوم، حتى ولو بطريقة رمزية، ما سيطلبه منه معذبه. الافتراض الثالث: إن الفرسان في الشرق كانوا على اتصال بمهرطقين مانويين (أتباع ماني) والذين كانوا يحتقرون الصليب، لأنه كان وسيلة عذاب السيد المسيح، وكانوا يبشرون بضرورة التخلي عن العالم وعدم تشجيع الزواج والإنجاب. فكرة قديمة، مثل هرطقات كثيرة ظهرت في القرون الأولى، والتي ستنتقل بعد ذلك إلى الكاثاريين ، بل إن هناك تراثًا كاملاً يؤكد أنه كانت لفرسان المعبد علاقات وطيدة بالكاثاريين. بذلك يمكن أيضًا أن نفهم لماذا اللواط ولو حتى بشكل رمزي. لنفترض أن الفرسان كانوا على اتصال مع هؤلاء المهرطقين: بالتأكيد لم يكونوا من المثقفين فربما، بسبب سذاجتهم وقليل من نزعة التعالي ونزعة الجسد، اخترعوا لأنفسهم طقوسهم الشخصية، الطقوس التي تميزهم عن الصليبيين الآخرين. كانوا يمارسون تلك الطقوس كتصرفات تميزهم، دون التساؤل حول معناها."

وماذا عن تمثال ذلك الملتحي؟

"في كثير من الاعترافات جاء ذكر الشكل الملتحي، ولكن يمكن أن يكون الأمر متعلقًا بخطأ لكاتب الاعتراف الأول، وإذا كانت المحاضر مفبركة بالفعل، فإن الخطأ الأول ينتقل إلى كل الوثائق التالية. في حالات أخرى تحدث البعض عن شخص ما وهذا يعني أن فرسان المعبد خلقوا لأنفسهم طقوسًا سينكريتية مختلطة. في بعض الاعترافات

يقال أيضًا إنهم كانوا يدعون للتضرع إلى "ياللا"، والتي يمكن أن تكون كلمة "الله". ولكن المسلمين لم يبجلوا صور النبي، وبالتالي بمن إذن تأثر الفرسان؟ الاعترافات تنص على أن الكثيرين قد رأوا تلك الرءوس، ولكن أحيانًا بدلاً من مجرد تمثال لرأس كانوا يتحدثون عن تمثال كامل من الخشب بشعر مفتل، مغطى بالذهب، ودائمًا ملتحي. ويبدو أن المحققين قد وجدوا تلك التماثيل للرءوس وواجهوا بها المتهمين، ولكن لم يبق أي أثر للرءوس، الكل رآها ولم يرها أحد. مثل قصة القط، فهناك من رآه رمادي اللون، وهناك من رآه أحمر وآخر رآه أسود. ولكن لنتخيل تحقيق تُستخدم فيه الأسياخ المحمية: هل رأيت قطا في طقس الدخول للرهبنة؟ وكيف لا، مزرعة من مزارع الفرسان، بكل ما فيها من محاصيل لابد من حمايتهما من الفئران، لابد وأن تكون مليئة بالقطط. في تلك الفترة، في أوروبا، لم يكن من المعتاد اتخاذ القط كحيوان أليف، بينما كانوا يفعلون ذلك في مصر. من يدري ربما احتفظ الفرسان بالقطط في منازلهم، ضد العادات المتعارف عليها، حيث كانت تُعد حيوانات مريبة. ربما الأمر هو كذلك فيما يتعلق بتلك الرءوس الملتحية، ربما كانت مجرد رفات على هيئة رءوس، وكان شيئًا يحدث في تلك الفترة. وبالتأكيد هناك من يؤكد أن الرأس الملتحية كانت تمثالاً لسيميائي."

قال ديوتاليفي باقتناع: "السيمياء موجودة دائمًا، ربما كان فرسان المعبد يعرفون بالفعل سر صناعة الذهب."

قال بيلبو: "بالتأكيد كانوا يعرفونها، كانوا يهجمون على المدن العربية، يذبحون النساء والأطفال، ويستولون على كل ما يقع تحت أياديهم. الحقيقة أن هذه القصة كلها مليئة بالفوضى."

"وبما كانت الفوضى في رءوسهم. ماذا كان يهمهم من ذلك الجدل العقائدي؟ إن التاريخ مليء بقصص الفرق المختارة التي كانت تبتدع لنفسها أسلوبها الخاص، أحيانًا مبالغة في التأنق، وأحيانًا أخرى للتقشف التام. لا أعتقد أنهم كانوا مدركين تمامًا لما كانوا يفعلونه. ولكن من ناحية أخرى هناك تلك التفسيرات الغريبة أنهم كانوا يعرفون تمام المعرفة كل شيء، وأنهم كانوا خبراء في الأسرار الشرقية، إلى حد أن القبلة على المؤخرة كان لها معنى سري."

قال ديوتاليفي: اشرح لي قليلاً ما هو المعنى السري للقبلة على المؤخرة؟

"بعض التابعين للطقوس السرية الحديثة يؤكدون أن الفرسان كانوا يتبعون بذلك المذاهب الهندية. إن القبلة على المؤخرة تخدم في إيقاظ الثعبان كونداليني، قوة كونية تعيش في جذر العامود الفقري، وفي الغدد الجنسية، والذي بمجرد إيقاظه يصل إلى الغدة الصنبورية...

- الغدة الصنبورية لديكارت؟

- على ما أعتقد، وعندئذ تفتح في الجبهة عين ثالثة، تلك الخاصة بالرؤية المباشرة في الزمان والمكان. ولهذا يبحث الناس حتى الآن عن سر فرسان المعبد.

- كان على فيليب العادل حرق هؤلاء التابعين الجدد بدلاً من الفرسان المساكين.

- ولكن هؤلاء التابعين الجدد لا يملكون ليرة واحدة.

اختتم بيلبو الحوار قائلاً: والآن ترى أنواع القصص التي علينا الاستماع إليها! على الأقل أستطيع أن أفهم الآن لماذا استحوذ هؤلاء الفرسان على عقل الكثير من المجانين الذين أعرفهم.

"أعتقد أنها ترتبط بما كنا نقوله في الأمسية السابقة. إن كل أحداثهم هي قياس منطقي ملتوي، لتتصرف بغباء لتصبح صعب الفهم إلى الأبد. في كل مرة يقوم شاعر أو واعظ، رئيس أو ساحر بالتفوه بخرافات لا معنى لها، تمضي الإنسانية قرونًا في محاولات لفك شفرة رسالتهم تلك. لا أحد يمكنه فك شفرة فرسان المعبد بسبب اضطرابهم العقلي. ولذلك يبجلهم الكثيرون.

قال ديوتاليفي: تفسير ينطوي على نزعة إيجابية!

قلت: أجل، ربما أنا إيجابي النزعة، بعملية جراحية بسيطة في الغدة الصنبورية يمكن لفرسان المعبد التحول إلى هوسبتاليين، أي شخصيات عادية. إن الحروب تفسد دوائر المخ، لابد أنها أصوات المدافع أو النيران اليونانية،... فلننظر إلى جنرالات جيشنا!

كانت الساعة الواحدة، وأسكرت مياه الصودا ديوتاليفي الذي بدأ يترنح بالفعل. تصافحنا. كنت أشعر أنني استمتعت، وهم أيضًا. لم نكن نعرف أننا بدأنا اللعب بالنيران اليونانية، تلك النيران التي تحرق وتهلك.

(١٥)

قال لي إيراردو دي سافيري: سيدي، إذا ضمنت لي أن لا يؤثر ذلك على شرفي وشرف وريشي سأذهب لأطلب العون من كونت دانجو، الذي أراه هناك وسط الحقول. فقلت له: سيدي إراردو، يبدو لي أنك ستحصل على التكريم إذا ذهبت طلبًا للمساعدة لإنقاذ حياتنا. وبهذه المناسبة، حياتك أنت أيضًا في خطر.

بعد تلك الأمسية حول فرسان المعبد، لم أتبادل مع بيلبو سوى بعض الحوارات السريعة في البار، الذي نادرًا ما كنت أذهب إليه نظرًا لانشغالي في الانتهاء من رسالتي.

في أحد الأيام كانت هناك مسيرة كبيرة ضد المؤامرات الفاشية. وكانت المسيرة ستبدأ من الجامعة، وكان مدعو لها، كما كانت العادة آنذاك، كل المثقفين المناهضين للفاشية. كان هناك عدد كبير من رجال الشرطة، ولكن كان من الواضح أن الاتفاق الضمني هو عدم اعتراض المسيرة. تمامًا كما كان الحال في تلك الفترة: كانت المظاهرات تخرج بلا تصريح، ولكن إذا لم يحدث شيء خطير فإن دور القوات يقتصر على المشاهدة والمراقبة (كان هناك الكثير من الاتفاقيات حول مناطق التحرك في ذلك الوقت) طالما لم يقم اليسار بالاعتداء على بعض الحدود غير المكتوبة في وسط ميلانو. كان المتظاهرون يتحركون في منطقة وراء بحيرة أوجوستو، وفي كل منطقة ميدان سان بابيلا كان يتمركز الفاشيون. وإذا تجاوز أحدهم حدوده كانت تقع الحوادث، ولكن فيما عدا ذلك لا شيء، تمامًا مثل العلاقة بين المروض والأسد. عادة ما نعتقد أن الأسد، الشرس جدًا، يهجم على مروضه الذي يسيطر عليه ويخضعه رافعًا سياطه إلى أعلى أو بإطلاق الرصاص من مسدسه. هذا اعتقاد خاطئ: عادة ما يكون الأسد متخمًا بالطعام ومخدرًا عند دخوله القفص ولا يرغب في الهجوم على أحد. فهو مثل كل الحيوانات لديه منطقة الأمان الخاصة به، خارجها يمكن أن يحدث أي شيء وسيبقى هو محتفظًا بهدوئه. عندما يضع المروض قدمه في منطقة الأسد يزأر الأسد، يرفع المروض السياط، ولكنه في الواقع يتراجع أيضًا خطوة للخلف (متظاهرًا بأنه في وضع استعداد للوثوب إلى الأمام)، عندئذ يهدأ الأسد. إن ثورة مزيفة يجب أن تتبع الخطوات نفسها.

كنت قد ذهبت إلى المسيرة؛ ولكنني لم أنضم لأي من المجموعات. مكثت على الحدود في ميدان سان ستيفانو، حيث كان يسير الصحفيون، والمحررون والفنانون الذين جاءوا للتضامن. كل رواد بيلادي تقريبًا.

وجدت نفسي بجوار بيلبو، كان يسير مع امرأة، كنت قد رأيتها معه عدة مرات في البار، وكنت أعتقد أنها صديقته (ستختفي لاحقًا ـ والآن عرفت لماذا، نظرًا لأنني رأيت ما حدث في ملف عن د. واجنر).

سألته: ماذا تفعل هنا؟

أجابني مبتسمًا بحرج: أنت تعلم كيف تسير الأمور، لابد من إنقاذ أرواحنا بطريقة ما، ألا يذكرك ذلك المشهد بشيء ما؟

نظرت حولي، كانت ظهيرة يوم مشمس، أحد تلك الأيام التي يظهر فيها جمال ميلانو: الواجهات الصفراء والسماء اللامعة برقة. كان البوليس، حول الميدان، مسلحًا بخوذات ودروعًا بلاستيكية، والتي كانت تبعث بوميض كالمعدن، بينما كان يسير ضابطًا يرتدي الملابس المدنية، يضع حولها وشاحًا ثلاثي الألوان يسير ذهابًا وإيابًا بجوار جنوده. نظرت خلفي إلى مقدمة المسيرة، كان الحشد يتحرك بخطوات محسوبة، كانت المسيرة منظمة في صفوف، ولكنها غير منتظمة، وكأنها الثعابين، وكانت الحشود تبدو وقد اتخذت موقفًا معاديًا من الحواجز والقوائم، من اللافتات والعصى. بدأت أصوات مجموعات متعجلة ترتفع بالشعارات المنغمة؛ وبطيلة جوانب المسيرة كان الناشطون يسيرون ذهابًا وإيابًا مرتدين الأوشحة الحمراء يغطون بها وجوههم، بقمصانهم الملونة، وأحزمتهم البارزة على الجينز الذي شهد معهم أيامًا كثيرة ممطرة وأخرى مشمسة، ممسكون بقبضاتهم تلك الأسلحة غير المناسبة، والتي تخفيها الأعلام الملفوفة، كان المشهد يبدو وكأنه عناصر مكونة للوحة، وتذكرت راؤول دوفي وألوانه الصاخبة. وانطلاقًا من دوفي انتقلت إلى جويوم دوفاي. وشعرت بأنني أعيش في منمنة، وخيل لي أنني أرى في ذلك التجمع الصغير على الجانبين بعض سيدات القصور، بعض المخنثين، والذين ينتظرون عرضًا من العروض الجريئة التي وُعدوا بها. ولكن كل هذا عبر ذهني في ومضة عين، شعرت بأنني أعيش في تجربة أخرى دون أن أدري بذلك.

سأل بيلبو: أليس هذا غزو عسقلان؟

قلت: لأجل السيد القديس يعقوب، سيدي الطيب، إنها بالفعل حملة صليبية! أعتقد أن بعض هؤلاء الرجال سيذهب إلى الفردوس!

قال بيلبو: نعم، ولكن المشكلة أننا لا نعرف من هم العرب هنا!

علقت: قوات الشرطة تيوتونيين بالتأكيد، وبالتالي يجعلنا ذلك حشود ألكسندر نفسكي، ولكن ربما اضطربت نصوصي. انظر هناك إلى تلك المجموعة، لابد وأنهم جنود الكونت دارتوا، يتطلعون للهجوم، فهم لا يتحملون الانتظار وهاهم يتجهون إلى حدود العدو وسيتفزونه بصيحات تهديد!

عندئذ وقع الحادث. لا أتذكر جيداً التفاصيل: تحركت المسيرة، ثم بدأت مجموعة من النشطاء، ممسكين بسلاسل وعصيان التزحلق على الجليد، في دفع حشود الشرطة للتوجه نحو ميدان سان بابيلا، وأصواتهم تتعالى بشعارات عنيفة. تحرك الأسد وبسرعة. فتح الصف الأول من جبهة رجال الشرطة وظهرت خراطيم المياه. ومن الصفوف الأمامية للمسيرة انطلقت أول طلقات البلي ثم الحجارة. وتقدمت مجموعة من رجال الشرطة بتصميم إلى الأمام، وهم يضربون بعنف، وبدأت المسيرة في التأرجح. وفي تلك اللحظة، ومن عمق شارع لاجيتو وصل إلى الأسماع صوت طلق ناري. ربما كان مجرد انفجار أطار سيارة، أو أحد الألعاب النارية، أو ربما طلقة مسدس حقيقة تحذيرية من قبل تلك المجموعات التي في غضون بضعة أعوام ستبدأ في استخدام البي ٣٨ بطريقة منتظمة.

تملك الذعر الجميع. بدأ رجال الشرطة يظهرون أسلحتهم، وسُمعت أصوات الأبواق التي تشير إلى بدء الهجوم. انقسمت المسيرة عندئذ إلى جناحين، أولئك الذين قبلوا المواجهة مع الشرطة، والآخرين الذين رأوا أن دورهم قد انتهى عند هذا الحد. ووجدت نفسي أحاول الهرب دخولاً إلى شارع لارجا، والخوف يتملكني من أن تصدمني أي من الأجسام المتطايرة. وفجأة وجدتني بجوار بيلبو ورفيقته. كانوا يجرون بسرعة، لكن بلا ذعر.

وعلى ناصية شارع راستريللي أمسكني بيلبو من ذراعي قائلاً: من هنا أيها الشاب. حاولت أن أسأل لماذا، كان شارع لارجا يبدو لي مناسباً أكثر ومأهولاً بالسكان، وشعرت بالكلاستروفوبيا بين أزقة الحواري بين شارعي بيكوراري وأرشيفسكوفادو. كان يبدو لي

أن الوضع سيزداد صعوبة، حيثما كان يقودني بيلبو، وأنني لن أتمكن من الهروب أو الاختباء في حالة ما إذا خرج إلينا رجال الشرطة من أي مكان. أشار إلي بأن ألتزم الصمت، دار من اثنين أو ثلاث نواصي ثم أبطأ السرعة بالتدريج، ووجدنا أنفسنا نسير، ولا نجري، تمامًا خلف الكاتدرائية، حيث كانت حركة المرور تسير طبيعية، ولا أثر للمعركة التي كانت تدور على عد مائتي متر. سرنا حول الكاتدرائية ثم وجدنا أنفسنا أمام الواجهة، من جهة المعرض. ابتاع بيلبو كيس من الحبوب وأخذ يطعم الحمام بسعادة ملائكية. كنا قد اندمجنا تمامًا وسط زحام السبت، أنا وبيلبو نرتدي الجاكت ورباط العنق، ورفيقة بيلبو ترتدي البذلة، على نمط نساء ميلانو: كنزة رمادية برقبة ضيقة، صف من اللآلئ الطبيعية. قدمها لي بيلبو: هذه ساندرا، هل يعرف كل منكما الآخر؟

- بالنظر، أهلاً!

عندئذ قال لي بيلبو: أترى يا كازاوبون، الهروب لا يكون قط في خط مستقيم. لقد اتبع نابليون الثالث نموذج تصميم السافويا لتورينو، فنزع أحشاء باريس محولاً إياها إلى شبكة من البوليفار حازت على إعجاب الجميع كنموذج لعبقرية التخطيط المدني. ولكن الطرق المستقيمة تفيد في تحكم أكبر في الحشود الثائرة. عندما تتاح لك الفرصة، انظر إلى طرق الشونزليزيه، حتى شوارعه الجانبية عريضة ومباشرة. في حين لم يكن ذلك ممكنًا في مكان مثل الحي اللاتيني، حيث تجلى مايو ٦٨ في أبهى حالاته. عندما تحتاج للهرب، من الأفضل الدخول إلى الحارات الصغيرة. لا توجد قوة شرطة يمكنها السيطرة عليها كلها، ورجال الشرطة أنفسهم يخافون الدخول إليها في مجموعات منعزلة. إذا قابلت اثنين وحدهما سيكونان أكثر خوفًا منك، وعادة ما يبدأ الطرفان في الجري في اتجاهين متضادين. عند الاشتراك في تجمع شعبي، إذا لم تكن تعرف المنطقة تمام المعرفة، من الأفضل أن يتم التعرف على المكان في اليوم السابق للحدث، وفي اليوم نفسه من الأفضل الوقوف في الناصية التي منها تبدأ الشوارع الضيقة.

"هل درست كورسًا خاصًا في بوليفيا؟"

"إن تقنيات البقاء على قيد الحياة يتعلمها المرء فقط في طفولته، إلا في حالة أن ينضم المرء لفرقة القبعات الخضراء. أما أنا فقد قضيت فترة صعبة، عندما كان الفدائيون نشطين حول* * *"، ثم ذكر اسم بلدة بين مونفيراتو ولانجي. "تركنا المدينة

عام ١٩٤٣، توقيت رائع: المكان والوقت المناسبان للاستمتاع بكل شيء، عمليات القبض الجماعي، وفرق الإس إس الألمانية للحماية، إطلاق النار في الشوارع... أتذكر في إحدى الأمسيات كنت صاعداً إلى هضبة لأبتاع اللبن الطازج من أحد المزارع، وسمعت أصواتًا بين قمم الأشجار. أدركت أنه في إحدى الهضاب البعيدة أمامي، هناك من يقوم بإطلاق طلقات الرشاش على خط السكة الحديدي، والذي يقع بالوادي خلفي. كانت الغريزة تدعوني للهروب أو لإلقاء نفسي على الأرض. ارتكبت خطئًا جسيمًا وأخذت أجري نحو الوادي، وعندئذ بدأت أستمع لأصوات الطلقات تقترب حولي في الحقل، كانت الطلقات القصيرة التي لم تصل إلى خط السكة الحديدي، عندئذ أدركت أنهم إذا كانوا يطلقون من فوق جبل، من أعلى تجاه الوديان، يجب أن تهرب إلى أعلى، كلما ارتفعت، ابتعدت الطلقات عن رأسك. أثناء تبادل النيران في إحدى المرات بين الفاشيين والفدائيين في مواجهة في حقل من حقول القمح، خطرت لجدتي فكرة رائعة، فنظرًا لأنه في حالة هروبها من أي اتجاه ستتعرض لمخاطرة طلقات الرصاص، ألقت بنفسها على الأرض في وسط الحقل، تمامًا في وسط حقل تبادل إطلاق النيران. مكثت هكذا لمدة عشر دقائق ووجهها ملتصق بالأرض، وهي تتمنى ألا يقرر أحد الطرفين التقدم للأمام. وكانت محظوظة. عندما يتعلم المرء تلك الأشياء في الصغر تُحفر على جهازه العصبي.

"إذن خضت تجربة فترة المقاومة، كما يقولون"

قال: "كمتفرج" وشعرت بحرج بسيط في صوته. "كان عمري سنة ٤٣ أحد عشر عامًا، وفي نهاية الحرب كنت على أعتاب عامي الثالث عشر. كان سن مبكر جداً على اتخاذ جانب معين، ولكن مناسب لمتابعة كل شيء بانتباه، يمكن أن أسميه، تصويري. ماذا كان يمكنني أن أفعل؟ كنت أشاهد ما حولي وأهرب، مثل اليوم."

"الآن يمكنك الكتابة عن تلك الفترة، بدلاً من إعداد كتب الآخرين للنشر."

"تم بالفعل قص كل شيء يا كازابون. إذا كان عمري آنذاك عشرين عامًا، لكنت في الخمسينيات أبدعت في كتابة ذكرياتي. لحسن الحظ وُلدت متأخر على تلك الفترة، وعندما بلغت سنًا مناسبًا للكتابة، كان كل ما استطعت عمله هو قراءة ما كتبه الآخرون. ولكن من ناحية أخرى كان يمكن أن ينتهي بي الأمر برصاصة في رأسي على تلك الهضبة."

"من أي جانب؟" سألته، ثم شعرت بالحرج "اعذرني، كنت أمزح!"

"لا، لم تكن مجرد مزحة. بالتأكيد أعرف هذا اليوم، ولكن أعرفه فقط اليوم. هل كنت مدركًا لذلك حينذاك؟ هل تعرف أنه يمكنك أن تعيش فريسة للندم عمرك كله، ليس لأنك اخترت الشيء الخاطئ، فيمكنك أن تندم على ذلك، ولكن لأنك لم تحظ قط بالفرصة لتثبت لنفسك أنه كان بإمكانك القيام بالاختيار الصائب... كان من الممكن جدًا أن أصبح خائنًا. أي حق لدي الآن لأكتب عن الحقيقة وأعلمها للآخرين؟"

قلت: "معذرة، كان يمكنك أيضًا أن تصبح وحشا وسفاحا، ولكن هذا لم يحدث. إن هذا مرض عصاب. أما إذا كان ندمك هذا على أساس مؤشر معين؟"

"ماذا سيكون المؤشر في هذه الحالة؟ وبمناسبة العصاب، هذا المساء هناك حفل عشاء مع دكتور واجنر. سأذهب للبحث عن سيارة أجرة في ميدان لاسكالا. هل أنت قادمة معي يا ساندرا؟"

سألته وأنا أصافحهما: "الدكتور واجنر شخصيًا؟

"أجل، فهو في ميلانو منذ بضعة أيام وربما أقنعه بإعطائنا إحدى دراساته غير المنشورة لننشرها في مجلد صغير. سيكون إنجازًا كبيرًا."

إذن في تلك الفترة كان بيلبو على اتصال بالدكتور واجنر بالفعل. أتساءل إذا كان في تلك الأمسية أن قام واجنر بتحليل بيلبو نفسيًا مجانًا، دون أن يعلم أي منهما ذلك. أو ربما حدث ذلك فيما بعد.

على كل حال، في ذلك اليوم كانت المرة الأولى التي يشير فيها بيلبو لطفولته في * * *. الغريب أنه تحدث عن هروبه بنوع من البطولة، على ضوء ذكريات مبهرة، ولكن تلك الذكريات عادت إليه مرة أخرى فقط ـ في وجودي كشريك، ولكن أيضًا كشاهد ـ عندما هرب بلا أي إبهار، ولكن بحكمة، من خطر آخر.

(١٦)

بعد ذلك مثل الأخ ستيفانو دي بروفان، في حضرة المحققين المذكورين، والذين سألوه إذا كان يرغب في الدفاع عن النظام الرهبني. قال إنه لا يريد، وإذا أراد الآباء المعلمون الدفاع عن النظام ليفعلوا هم ذلك، وأضاف أنه انضم للنظام قبل القبض عليه بتسعة أشهر فقط.

(محضر ١٣٠٩،١١،٢٧)

وجدت على أبو العافية قصص هروب أخرى. وكنت أفكر فيها أثناء وجودي ذلك المساء في المنظار، بينما كانت تصلني في الظلام أصوات الحفيف والطقطقة والصرير ـ وكنت أقنع نفسي بالهدوء إذ أن هذه هي الطريقة التي تتحدث بها المتاحف والمكتبات والقصور القديمة في الليل مع نفسها، وإنها ليست سوى أصوات الخزانات التي تعتدل، والإطارات التي تستجيب لرطوبة المساء، والبياض الذي يتفتت بالتقطير، مليمتر واحد كل قرن، والجدران التي تتثاءب. كنت أردد لنفسي: لن تتمكن من الهرب لأنك هنا لتعرف ماذا حدث لشخص حاول أن يضع حداً لسلسلة من الهروب، بنوع من الشجاعة الخالية من العقل (أو اليائسة)، ربما تعجلاً للوصول إلى ذلك اللقاء، الذي أجله عدة مرات، مع الحقيقة.

اسم الملف: القناة

هل هربت من قوات الشرطة، أم مرة أخرى من التاريخ؟ وهل هناك فارق كبير؟ هل ذهبت للمسيرة بدافع اختيار أخلاقي أو لأضع نفسي مرة أخرى في اختبار أمام الفرصة؟ كنت دائمًا أفقد الفرص العظيمة، لأنني عادة ما كنت أصل مبكرًا جدًا أم متأخرًا جدًا، ولكن كان هذا خطأ تاريخ ميلادي. كنت أتمنى أن أكون في ذلك الحقل أطلق النيران، حتى ولو أصابت جدتي. لم أكن غائبًا خوفًا، بل كان سني هو السبب. ولكن ماذا عن المسيرة؟ هربت مرة أخرى لأسباب تتعلق بفروق الأجيال، فذلك الصدام لم يكن يخصني. ولكن كان في إمكاني المخاطرة، حتى وإن فعلت ذلك دون حماس، فقط لأثبت لنفسي بأنني هناك، في ذلك المرعى، كان بإمكاني الاختيار. ولكن ما معنى اختيار المناسبة الخاطئة لإقناع أنفسنا بأنه كان في الإمكان الاختيار الصائب إذا كان لدينا الفرصة الحقيقية؟

أتساءل كم شخص بين هؤلاء الذين قبلوا الصدام فعلوا ذلك. ولكن الفرصة المزيفة، ليست هي الفرصة الجيدة.

هل يمكن أن يعتبر المرء نفسه جبانًا لمجرد أنه يرى أن شجاعة الآخرين لا تتناسب مع تفاهة الموقف؟ إذن فالحكمة تحولنا لجبناء. وبالتالي نقضي حياتنا في انتظار فرص لن تأتي قط. إن الفرصة هي شيء من اختيار الغريزة لابد من اقتناصها على الفور، ربما بلا دراية بأنها الفرصة المرتقبة. ربما صادفتها مرة ولم أعرف ذلك. كيف يمكن لإنسان أن يشعر بالذنب وأن يشعر بأنه جبان فقط، لأنه ولد في العقد الخاطئ؟ الإجابة: يشعر المرء بأنه جبان، لأنه كان جبان بالفعل في إحدى المرات. وإذا كنت أيضًا في تلك المرة تجنبت الفرصة المواتية، لأنني شعرت بأنها غير مناسبة؟

لابد من وصف المنزل في * * *، المنعزل على الهضبة بين حقول الكرم ـ ألا يطلقون عليها هضاب على شكل ثديين؟ ـ وبين الطريق الذي يقود إلى أطراف القرية، تمامًا في مدخل الشارع الأخير المأهول بالسكان ـ أو الأول (من المؤكد أن ذلك يتوقف على اتجاه السير). ووصف ذلك اللاجئ الصغير الذي يترك حماية عائلته ويتجرأ في الدخول وسط المنازل ذات المجسات، سائرًا في الطريق العريض على حافة الزقاق الذي يخشاه بحقد.

كان ذلك الزقاق هو مكان تجمع عصابة الزقاق. صبية من الريف، أقذار، أصواتهم عالية. كنت أنتمى للمدينة، ومن الأفضل تجنبهم، ولكن للوصول إلى الميدان، ولكشك الجرائد والمكتبة وبالإضافة إلى طريق يكاد يكون استوائي غير آدمي، لم يكن هناك سوى المرور من القناة الصغيرة. كان صبية الزقاق رجال صغار مهذبين مقارنة بعصابة القناة، والتي سميت على اسم مجرى المياه السابق، والذي أصبح قناة للمجاري، والتي تمر على أكثر المناطق فقرًا في المنطقة. كان صبية القناة غاية في القذارة، من أدني الطبقات، وشديدي العنف.

لم يكن في استطاعة صبية الزقاق عبور منطقة القناة دون أن يتعرضوا للهجوم والضرب. في البداية لم أكن أعرف أنني من صبية الزقاق، كنت جديدًا في المنطقة، ولكن وضعني صبية القناة في قائمة الأعداء. كنت أمر في منطقتهم ممسكًا بجريدة

أطفال مفتوحة أمامي، كنت أسير وأنا اقرأ، عندئذ لمحوني. أخذت أجري، وهم يطاردونني، ويقذفونني بالحصى، والذي اخترق أحدها جريدتي، والذي كنت مازلت ممسكًا بها أمامي وأنا أجري، لأحتمي بشئ ما. أنقذت حياتي ولكن فقدت جريدتي. في اليوم التالي قررت الانضمام لعصابة الزقاق.

تقدمت إلى مجلسهم واستقبلوني بالضحكات الساخرة. في تلك الفترة كان شعري كثيفًا، وكان واقفًا فوق رأسي كما في إعلان أقلام ستروفلبيتر. كانت الموضة التي تقدمها لي السينما، والإعلانات، وجولات يوم الأحد بعد القداس هم هؤلاء الشباب عراض المنكاب، والذين يرتدون السترات ثنائية الصديري، شواربهم وشعورهم مزيتة ولامعة ملتصقة بجماجمهم. في تلك الفترة كانت الموضة تصفيف الشعر للخلف. أنا أيضًا كنت أريد تصفيف شعري بهذه الطريقة. ابتعت من سوق الاثنين بمبالغ خرافية، بالنسبة لي بالطبع، عبوات من البرلانتين الكثيفة كثافة عسل نحل تغذي على نبات الفول، وكنت أقضي الساعات في وضعها وتصفيفها على شعري حتى يصبح كقبعة داكنة، أو من القطيفة السوداء. بعد ذلك كنت أضع عليه شبكة للضغط عليه جيدًا. كانت عصابة الزقاق قد رأتني في إحدى المرات أسير مرتديًا الشبكة، ثم أخذت في السخرية، بلهجتهم الخشنة، والتي كنت أفهمها، ولكن لا أتحدثها. في ذلك اليوم، وبعد أن مكثت في المنزل مرتديًا الشبكة لمدة ساعتين، نزعتها عن شعري، وأخذت أنظر للنتيجة الرائعة في المرآة، ثم خرجت لملاقاة العصابة التي كنت أتمنى أن أحلف لها بالولاء. اقتربت منهم في اللحظة التي كان شعري بدأ في فقدان خاصية اللزاجة، وكان شعري يستعيد، ببطء، وضعه الرأسي. ووسط حماس عصابة الزقاق المجتمعة حولي، يتغامزون فيما بينهم، طلبت الانضمام إليهم.

للأسف عبرت عن نفسي بالإيطالية: وبالتالي فأنا دخيل. تقدم قائدهم مارتينيتي، والذي كان يبدو لي آنذاك كعملاق، بزهو، عاري القدمين. وقرر أنه علي أن أتحمل مائة ركلة على المؤخرة. ربما كانوا يرغبون في إيقاظ الثعبان كونداليني. وافقت على شرطه. ووقفت في مواجهة الجدار يمسك بذراعي مارشالين، وتحملت مائة ركلة بالقدم العارية لمارينيتي والذي كان يؤدي المهمة بقوة وحماس وحنكة، حيث كان يسدد الضربات بجانب القدم وليس المقدمة لكي لا يؤلم أصابعه. عملت العصابة عمل الجوقة لطقس الانضمام، وهم يتابعون العد بلهجتهم. ثم حبسوني في قفص للأرانب لمدة نصف ساعة،

بينما هم يقضون الوقت في أحاديثهم المنبعثة من الحلق. وأخرجوني عندما بدأت أعاني من تنميل في قدمي. كنت فخورًا لأنني استطعت الصمود أمام الطقس الوحشي لمجموعة متوحشة محتفظًا بكرامتي. كنت رجلاً يدعى "حصان".

في تلك الفترة في* * * كان يوجد الفرسان التيوتونيون، لم يكونوا غاية في اليقظة، لأن الفدائيين لم يكونوا ظاهرين بدرجة محسوسة، كنا في نهاية عام ٤٣ أو بداية ٤٤. وكانت أول عملياتنا هي الدخول في أحد الأكواخ بينما يقوم البعض منا بالتملق جندي الحراسة، جندي ضخم من لونجوبارديا والذي كان يأكل شطيرة ضخمة بداخلها ـ كما بدا لنا وأفزعنا ـ سلامي ومربي. كانت فرقة الإزعاج تتملق الألماني، مادحة أسلحته بينما يزحف الباقي منا عبر بعض الألواح المخلوعة في خلف الكوخ الخشبي ويسرقون بعض عيدان التي إن تي. لا أعتقد أن المتفجرات قد تم استخدامها لاحقًا، ولكن كانت فكرة مارتينيتي هو أن يزرعها في الريف لغرض تحقيق تأثير كتأثير الألعاب النارية وبوسائل، أعلم الآن أنها كانت خشنة جدًا، وغير مناسبة. بعد ذلك بفترة تم استبدال الألمان بقوات الفاشيين، والذين بنوا نقطة تفتيش بجوار النهر، تمامًا في التقاطع الذي من خلاله، في السادسة مساء، تنزل فتيات مدرسة ماريا سيدة المعونة إلى الوادي. كان الأمر يتطلب إقناع جنود الفرقة العاشرة (كانت أعمارهم لا تتجاوز الثامنة عشرة)، بربط مجموعة من القنابل اليدوية التي خلفها الألمان، تلك التي لها عصيان طويلة، ونزع صمام الأمان عنها لجعلها تنفجر على حافة المياه في اللحظة التي تمر فيه الفتيات. كان مارتينيتي يعرف جيدًا ما يجب عليه عمله وكيف يمكنه حساب التوقيت. شرح ذلك للفاشيين، وكان التأثير مذهلاً: ارتفع عامود من المياه بجوار ضفاف النهر، وانطلقت الأصوات كالرعد تمامًا بينما الفتيات تتقدمن على الناصية. وكان هروب عام بين صرخات الفزع بينما نحن والفاشيون كدنا ننفجر من الضحك. الناجون من سجن كولتانو من عصابة الزقاق، سيتذكرون ذلك اليوم المجيد، بالإضافة بالطبع إلى حرق مولاي.

كانت قمة المتعة لدى أفراد عصابة الزقاق جمع فوارغ الرصاص والبقايا المختلفة، والتي كان هناك الكثير منها خاصة بعد الثامن من سبتمبر، مثل الخوذات القديمة، أحزمة الرصاص، حقائب الجيش، بل وأحيانًا طلقات رصاص سليمة. وهذا ما كان يتم

بالطلقات السليمة: كانوا يمسكون بالفارغ في يد، ثم يدخلون الطلقة في فوهة مفتاح، يلوونها ويخرجونها من الغلاف ثم تُضم إلى المجموعة. كانوا يفرغون بودرة الرصاص (أحيانًا كان الأمر يتعلق بخطوط رفيعة من الرصاص) وكانوا يضعونها في خطوط ملتوية ثم إشعالها. أما الفوارغ، والتي كانت أهم بالنسبة لهم من الرصاص، وأثمن إذا كانت الكبسولة سليمة، فكانت تنضم للجيش. وكان الجامع الجيد لديه الكثير منها وكان يرتبها في صفوف وتتميز فيما بينها بالمصنع، واللون، والشكل والطول. كانت هناك أيضًا فرق صغيرة للمشاة، والتي كانت عبارة عن مدافع رشاشة، والمساعدين، بالإضافة إلى حاملي التروس والفرسان ، ومدافع ١٨٩١ (حيث إننا لم نعرف الجراناد قبل دخول الأمريكان) ـ وكان أقصى حلم لفرد من العصابة هي أبراج الزعماء العظماء، والتي هي عبارة عن حاويات الطلقات الرشاشة.

في مساء أحد الأيام، ونحن منكبين على بحثنا السلمي هذا، قال لنا نارينيتي إن اللحظة قد حانت. وإن ورقة التحدي قد تم إرسالها بالفعل إلى عصابة القناة وإنهم قبلوها بالفعل. من المتوقع أن يتم الصدام على أرض محايدة، خلف المحطة، في ذلك المساء، تمام الساعة التاسعة.

كنا في وقت متأخر من الظهيرة، أحد أيام الصيف الحارة، وامتلأنا جميعًا بالحماس. استعد كل منا بأكثر المعدات رعبًا، باحثين عن قطع خشبية، والتي يمكن حملها بسهولة، عبأنا صديريات الجيش والحقائب بالحجارة من مختلف الأحجام. قام بعض منا بصناعة سياط من كتافات البنادق، والتي كان تأثيرها بشعًا إذا استخدمت بدقة. خلال تلك الساعات وأسفل حرارة الشمس الحارقة شعرنا بأننا أبطال، وغمرني أنا هذا الشعور بصفة خاصة. كانت إثارة ما قبل الهجوم، تلك الإثارة المُرة والمؤلمة والرائعة في الوقت ذاته. الوداع يا حبيبتي الوداع، فقد اخترت الحياة الشاقة والتعب العذب لرجل الحرب، سنذهب للتضحية بشبابنا كما علمونا في المدرسة قبل الثامن من سبتمبر.

كانت خطة مارينيتي بارعة: عبور خط السكة الحديدية من أقصى الشمال لنفاجئهم من الخلف، وبالتأكيد سيكون النصر من البداية لنا. ثم الهجوم الحاسم بلا هوادة.

وفي وقت العبور عبرنا خط السكة الحديدية عابرين القضبان محملين بالحجارة والمنجنيق. وفي قمة المعبر رأيناهم مستلقين في الأحراش خلف دورات المياه في

المحطة. ولكنهم رأونا أيضًا، لأنهم كانوا يحمون ظهورهم، حيث كانوا يشكون أننا ربما نصل من هذا الطريق. لم يبق لنا سوى النزول دون منحهم المزيد من الوقت ليندهشوا من وضوح وخطتنا.

لم يتوقع أحد الانتصار لنا قبل الهجوم، إلا أننا اندفعنا نحوهم صارخين. وكان ذلك على بعد حوالي مائة متر من المحطة، هناك كانت المنازل الأولى ظاهرة، والتي، وهو الشيء النادر، كانت تكون بالفعل شبكة من الحواري الضيقة. والذي حدث هو أن أكثر المجموعة شجاعة اندفعت إلى الأمام بلا خوف، بينما أنا و ـ لحسن الحظ ـ معي آخرون أبطأنا الخطى ووقفنا خلف زوايا المنازل لنراقب ما يحدث عن بعد.

إذا كان مارتينتي قد نظمنا بين قوات أمامية وقوات خلفية لكنا أدينا واجبنا، لكنه كان توزيعًا عشوائيًا. الشجعان في الأمام والجبناء في الخلف. ومن ملجئنا، وكان مكاني خلف الآخرين جميعًا، أخذنا نراقب التصادم، الذي لم يحدث.

عندما أصبحا على بعد عدة أمتار كل من الآخر، واجهت كل مجموعة الأخرى مكشرة عن أنيابها، ثم تقدم القائدان ليتحدثا. وكانت الاتفاقية، قررا أن يقتسما مناطق النفوذ وأن يسمحا بالعبور العرضي، مثلما كان يحدث بين المسيحيين والمسلمين في الأراضي المقدسة. وانتصر التضامن بين الفرسان على حتمية المعركة. فكل طرف أثبت شجاعته بجدارة، وانسحبا في تناغم كفرقتين متنازعتين، وانسحبت كل فرقة مبتعدة عن الأخرى في سلام، واتخذت كل منهما الطريق المضاد للأخرى.

الآن أقول لنفسي إنني لم أتقدم للأمام لأنني كنت أجد الهجوم مثير للضحك. ولكن ليس هذا ما قلته لنفسي آنذاك. وقتها شعرت بأنني جبان ليس إلا.

الآن، وبشعور خزي أكبر، أقول لنفسي إنني لو كنت تقدمت للأمام لم أكن سأخسر أي شيء، وكنت سأكسب السنوات التالية لهذا الحدث، سأعيشها بطريقة أفضل. لقد ضاعت مني الفرصة وأنا أبلغ الثانية عشرة من عمري. إنه مثلما يفقد المرء القدرة على الانتصاب في المرة الأولى ، ويشعر بالعجز ما تبقى من حياته.

بعدها بشهر، عندما حدث تجاوز ما بين عصابة الزقاق وعصابة القناة، وأصبحت الفرقتان في المواجهة، وبدأت قذائف من الحجارة تتقافز، لا أعرف إذا كان نتيجة اطمئناني من ديناميكية الحدث الماضي، أم رغبة مني في الاستشهاد، إلا أنني تقدمت

لأصبح في المواجهة. ضربت قطعة من الطين، تحتوي بداخلها على حجر شفتي ومزقتها. هربت وذهبت إلى منزلي باكيًا، واضطرت أمي لاستخدام الملقاط لاستخراج بقايا الأتربة التي علقت في الحفرة التي صنعتها الحجرة في فمي. في الواقع ترك هذا الحادث أثره بنتوء قريب من نابي الأيمن، وحتى الآن عندما ألمسه بلساني أشعر بنوع من الرجفة والرعشة.

ولكن لم يشعرني هذا النتوء بأي تحسن، لأنني حصلت عليه لقلة وعي وليس لشجاعتي. أمر بلساني على شفتي ، وماذا أفعل؟ أكتب. ولكن الأدب السيئ لا يجلب الخلاص بعد يوم المسيرة لم أر بيلبو تقريبًا لمدة عام. كنت قد وقعت في حب أمبارو ولم أعد أذهب إلى بيلادي، بالأصح لم يكن بيلبو هناك المرات القليلة التي ذهبت فيها. ولم تكن أمبارو تحب ذلك المكان. كانت صرامتها الاخلاقية والسياسية ـ التي لا يضاهيها سوى جمالها وكبريائها ـ يجعلانها تشعر أن بار بيلادي يشبه نادي متأنقي الديمقراطية، ونزعة التأنق الديمقراطي كانت بالنسبة إليها إحدى الصدمات، الأخف وطئة، للمؤامرة الرأسمالية. كان عامًا من الالتزام القوي، والجدية الفعلية، والعذوبة الشديدة. كنت أعمل باستمتاع ولكن بهدوء في رسالتي.

في أحد الأيام قابلت بيلبو في النافيلي، بالقرب من الجاراموند. قال لي بسرور: آه من أرى أمامي؟ فارسي المفضل! لقد أهداني أحدهم للتو زجاجة من العصير الطبيعي العتيق. لماذا لا تصعد معي؟ لدي بعض الأكواب الورقية وبعض الوقت.

– لديك الشيئان!

– لا، ولكن ويسكي بوربون معبأ، على ما أعتقد، قبل سقوط إيلامو.

تبعته. كنا بدأنا لتونا بالتذوق عندما دخلت جوردون وقالت إن هناك شخصًا جاء للقاء بيلبو. ضرب بيلبو جبهته بكفه، كان قد نسي ذلك الميعاد، وأضاف بأنها مصادفة كالمؤامرة. ومما استطعت فهمه فهذا الشخص يريد أن يقدم له كتابًا يتعلق أيضًا بفرسان المعبد. قال: سأصرفه على الفور، ولكن ساعدني باعتراضات حادة.

كان الأمر بالتأكيد محض المصادفة، وهكذا وقعت في الشبكة.

(١٧)

وهكذا اختفى فرسان المعبد واختفى سرهم معهم، والذي في ظله كان ينبض الأمل الجميل في المدينة الأرضية. ولكن الخلاصة التي بنيت عليها أفكارهم استمرت على قيد الحياة في مناطق مجهولة... وأكثر من مرة، على مر العصور، تركت آثارها لتملأ أرواحًا من استطاعوا استقبالها.

(فيكتور إيميل ميشيليه، سر الفرسان، ١٩٣٠، ٢)

كان وجهه يشبه مواليد الأربعينيات، وذلك بالحكم من خلال المجلات القديمة التي وجدتها في مخزن المنزل، كان مواليد الأربعينيات لهم الملامح نفسها. ربما كان ذلك من تأثير مجاعة الحرب: حفرت الوجه وجعلت العين شديدة الانفعال. كان وجه مثل الوجوه التي رأيتها في مشاهد إطلاق النار من كلا الطرفين. ففي تلك الفترة كان رجال متشابهون يتقاتلون فيما بينهم.

كان زائرنا يرتدي بذلة زرقاء وقميصًا أبيض ورباط عنق رمادي لامع، ووجدت نفسي أتساءل لماذا يرتدي الملابس المدنية. وكان شعره، المصبوغ بالأسود، مشدودًا للخلف بطيلة الصدغين بصفين من كريم الشعر، بأناقة، تاركًا بالتالي قمة الرأس لامع، صلعة لامعة تتخللها خطوط رفيعة من الشعر، منتظمة كأسلاك التلغراف، والتي شكلت حرف V على جبهته. كان وجهه قمحيًا، تميزه، ليس فقط التجاعيد، الكولونيالية الواضحة، ولكن أيضًا ندبة شاحبة بطيلة خده الأيسر، من شفته إلى أذنه، ونظرًا لأن شاربه كان أسود طويل، على طراز أدولف مينجو، عند نهاية الجانب الأيسر، كان هناك أثر لجرح غائر، فتح على أثره الجلد بعمق ملليمتر على الأقل، والتأم من جديد. هل كان ذلك بفعل مبارزة بالسيف أم جرح بالرصاص؟

قدم نفسه: الكولونيل أردينتي، مد يده لبيلبو وحياني تحية بسيطة برأسه عندما عرفني بيلبو كأحد معاونيه. جلس، وضع إحدى قدميه فوق الأخرى، ارتفع سرواله عند ركبته كاشفًا عن زوج جوارب بني اللون قصير.

سأل بيلبو: "كولونيل... مازلت في الخدمة؟"

أظهر أردينتي بعض الأسنان الصناعية القيمة: يمكن أن تقول على المعاش، أو في القوات الاحتياطية. ربما لا أبدو متقدمًا في السن، ولكنني كذلك في الحقيقة.

قال بيلبو: لا يبدو ذلك بالفعل.

- "إلا أنني خضت أربعة حروب."

- "لابد وأنك بدأت بجاريبالدي."

- "لا. ملازم متطوع في أثيوبيا، وكابتن متطوع في إسبانيا، ورائد من جديد في إفريقيا، حتى تركنا مستوطناتنا. حاصلاً على ميدالية فضية. في عام ٤٣ يمكن أن نقول إنني احترت الجانب الخاسر وفقدت كل شيء، إلا كرامتي. وكانت لدي الشجاعة لأبدأ من جديد. ثم كان الانضمام لفرقة أجنبية، تدريبات عنيفة. في عام ٤٦ كنت ملازمًا ثم أصبحت كولونيل عام ٥٨ مع ماسو. وكما هو واضح فأنا أختار دائمًا الجانب الخاسر. وبانتقال السلطة إلى يساريو دو جول، اعتزلت وذهبت لأعيش في فرنسا. كانت لي شبكة علاقات لا بأس بها في الجزائر وأسست شركة استيراد وتصدير في مارساي. وأعتقد أنني في تلك المرة اخترت الجانب الرابح، حيث إنني الآن أعيش من ريعها، ويمكنني أن أهتم بهوايتي ـ هذا ما يطلقون عليها اليوم أليس كذلك؟ ـ وفي السنوات الأخيرة كتبت نتائج أبحاثي. ها هي..." وأخرج من من حقيبة جلدية ملفًا ضخمًا، بدا لي آنذاك أحمر اللون.

قال بيلبو: "إذن فهو كتاب عن فرسان المعبد؟"

أيده الكولونيل: "فرسان المعبد، هوايتي منذ الشباب. هم أيضًا جنود القدر، عبروا البحر المتوسط بحثًا عن المجد."

قال بيلبو: "السيد كازاوبون أيضًا يدرس فرسان المعبد، وهو ملم بالموضوع أكثر مني. حدثنا إذن عن كتابك.

"كان فرسان المعبد دائمًا موضوع اهتمامي. مجموعة الأرواح السخية تلك، والتي حملت نور أوروبا بين متوحشي طرابلس..."

قلت بنبرة هادئة: لم يكن أعداء الفرسان همجيين إلى ذلك الحد.

سألني بسخرية: هل سبق ووقعت أسير للثوار في المغرب؟

قلت: ليس بعد.

حدق فيّ. وشعرت بالامتنان بأنني لم أخدم قط في إحدى فرقه العسكرية.

تحدث مباشرة مع بيلبو:"معذرة، فأنا أنتمي لجيل آخر." ثم عاد ونظر إلي": "هل هذا نوع من المحاكمات أم ..."

قاطعه بيلبو: " نحن هنا لنتحدث عن عملك أيها الكولونيل، حدثنا عن كتابك، أرجوك."

قال الكولونيل، واضعًا يديه على الملف: "أريد من البداية أن أوضح أنني على استعداد للمساهمة في مصاريف النشر، ولن أطالبكم بشيء في حالة الخسارة. إذا رغبتم في ضمانات علمية، سأحضرها لكم. ومنذ ساعتين بالتحديد قابلت أحد الخبراء في هذا المجال، والذي أتي خصيصًا من باريس، ويمكنه أن يكتب مقدمة مضمونة..." خمن السؤال التالي لبيلبو وأشار له أنه من الأفضل عدم الخوض في هذا، لحساسية الموضوع.

ثم قال: دكتور بيلبو، هنا على هذه الصفحات لدى المادة التي تصنع قصة حقيقية، غير عادية، أفضل من القصص البوليسية الأمريكية. لقد وجدت شيئًا ما، غاية في الأهمية، ولكنها مجرد البداية. أريد أن أخبر الجميع بما أعرف، بحيث إذا استطاع أحد أن يكمل لعبة التعشيق تلك أن يقرأ ويتقدم للأمام. إن الكتاب بالنسبة لي كالطعم، بالإضافة إلى أنني يجب أن أفعل ذلك على الفور. إن من كان يعرف ما أعرفه الآن قبلي، ربما قد تم تصفيته، لأنه لم ينشر هذا الأمر. إذا قلت ما أعرفه لألفي قارئ، لن يهتم أحد بعد ذلك بتصفيتي." ثم توقف لبرهة واستأنف: "أتعرفون شيئًا عن عملية القبض على فرسان المعبد.."

"لقد حدثني عن ذلك السيد كازاوبون، وصدمني كيف أن عملية القبض تلك تمت بلا مقاومة وأنهم قد قبضوا عليهم بغتة..."

ابتسم الكولونيل ابتسامة مواساة وقال: "حقيقي، لكن من الصعب أن يصدق المرء أن أناسًا لهم السلطة التي تشيع الخوف لدى ملك فرنسا لم يكن في مقدرتهم معرفة أن بعض الأوغاد يحرضون الملك ضدهم وأن الملك بدوره يحرض البابا. بالتأكيد دفعهم ذلك للتفكير في خطة، خطة عظمى. فلنفترض أن الفرسان كانت لديهم خطة للسيطرة

على العالم، وكانوا يعرفون سر مصدر قدير للقوة، سر للحفاظ عليه استحق الأمر التضحية بمقر المعبد في باريس بالكامل، وماذا عن المراكز المتناثرة في كل المملكة وفي إسبانيا والبرتغال، إنجلترا وإيطاليا، وقصور الأرض المقدسة، والذخائر المالية وكل شيء... كان فيليب العادل يشك في ذلك، وإلا كيف يمكن تفسير انفجار عمليات الاضطهاد تلك التي نزعت المصداقية عن فخر الفرسان الفرنسيين. أدرك النظام أن الملك قد أدرك ذلك وسيحاول تدميره، لا فائدة من المواجهة على الجبهة، كانت الخطة تتطلب مزيداً من الوقت، فلابد من العثور على الكنز (أو السر أيًا كان)، أو ربما يجب الاستفادة منه واكتشافه ببطء... والإدارة الخفية لنظام المعبد، والتي يعلم الجميع حالياً بوجودها..."

- "الجميع؟"

- "بالتأكيد. لا يمكن التفكير أن النظام قادر إلى هذا الحد استطاع البقاء على قيد الحياة كل هذه الفترة دون أن يكون له نظام سري".

- "لا يترك رأيك مجال للشك" قال بيلبو هذا وهو ينظر إلي بطرف عينه.

قال الكولونيل: ومن هنا نجد أن النتائج أيضًا لا شك فيها. بالتأكيد كان رئيس النظام أحد أعضاء الإدارة السرية، ولكن لابد أنه كان الغطاء الخارجي لها. يقول جوتيه والتر Gaulthier Walther في كتابه "الفروسية والأبعاد السرية للتاريخ La Chevalerie et les aspects secrets de l_histoire، إن خطة الفرسان للاستيلاء على السلطة كانت تتوقع حدوث ذلك في نهاية عام ألفين! قرر المعبد أن يتحول إلى السرية وللتمكن من عمل ذلك لابد وأن يختفي النظام أمام أعين الكل. وبالتالي ضحوا بأنفسهم، بما فيهم رئيس النظام. بعض منهم تركوهم ليقتلوهم، وربما تم اختيارهم عن طريق الاقتراع. آخرون استسلموا وتظاهروا بغير الحقيقة. أين انتهى الأمر إذن بالطبقات الأدنى في النظام، والإخوة العلمانيين والنجارين وصانعي الزجاج؟... وماذا عن نشأة منظمة البناءين الأحرار، والتي انتشرت في العالم، وهي قصة معروفة أيضًا. ولكن ماذا حدث في إنجلترا؟ قاوم الملك ضغط البابا، وأحالهم جميعًا على المعاش، وأنهى بهدوء حياتهم القيادية المرتبطة بالنظام. وأولئك تقبلوا ذلك في هدوء وصمت. هل تصدق ذلك؟ أنا لا. وفي إسبانيا قرر النظام تغيير اسمه فأصبح نظام مونتيسا. أيها السادة، أولئك البشر كان بإمكانهم إقناع أي ملك، لقد كانت لديهم في خزاناتهم كمبيالات يمكنها

إفلاسه في ظرف أسبوع. وملك البرتغال أيضًا توصلوا معه لاتفاقية: قال لهم: لنفعل هكذا يا أصدقائي الأعزاء، لم يعد اسمكم فرسان المعبد من الآن سيصبح اسمكم فرسان المسيح، وهذا أفضل. وفي ألمانيا؟ بضع محاكمات، كان إلغاء النظام شكليًا تمامًا، ولكن هناك في ألمانيا يوجد النظام الأخ، التيوتونيون، والذين في ذلك العصر فعلوا شيئًا أكبر من مجرد خلق دولة بداخل الدولة: فلقد كانوا هم الدولة نفسها، ضموا الكثير من الأراضي مثل تلك الدول التي مازالت حتى الآن منضمة لروسيا، واستمروا في ذلك الاتجاه حتى نهاية القرن الخامس عشر، لأنه حينئذ وصل المغول ـ ولكن هذه قصة أخرى، لأن المغول على أعتاب أبوابنا حتى الآن... ولكن أفضل ألا أدخل في هذه التفاصيل...

قال بيلبو: "لا أرجوك دعنا لا ندخل في التفاصيل، لنكمل".

إذن، فمثلما هو معروف، قبل أن يقوم فيليب العادل بإرسال أمر القبض عليهم بيومين، وقبل أن يتم تنفيذ ذلك بشهر، خرجت عربة قش تجرها بضع أبقار من بوابة المعبد إلى جهة مجهولة. يتحدث عن ذلك أيضًا نوستراداموس في إحدى حولياته..." ثم أخذ يبحث عن صفحة في وثيقته:

أسفل عشب الحيوانات المجترة

والتي يقودون بواسطتها في قلب العشب

جنود مختبأون، تُسمع أصوات أسلحتهم

Souz la pasture d_animaux ruminant

Par eux conduits au ventre herbipolique

...s, les armes bruits menant-Soldats cach

قلت: إن حمولة القش لم تكن سوى أسطورة، ولا يمكن اتخاذ نوستراداموس كمصدر موثوق به للتأريخ.

- "وثق كثير من الأشخاص، أكبر منك سنًا، في نبوءات نوستراداموس يا سيد كازاوبون. ومن جهة أخرى لست بالسذاجة التي تجعلني أصدق قصة عربة القش. إنها مجرد رمز. رمز للحدث، رمز واضح لواقع أن جاك مولاي، بينما يتوقع القبض عليه، نقل الرئاسة والتعليمات السرية إلى ابن أخيه، كونت بيجو، والذي أصبح القائد السري لنظام المعبد الذي أصبح سريًا".

- "هل توجد وثائق تأريخية؟"

ابتسم الكولونيل بمرارة قائلاً: التاريخ الرسمي هو ذلك الذي يكتبه المنتصرون. أمثالي لا وجود لهم حسب التاريخ الرسمي. لا، لا توجد، ولكن وراء قصة عربة القش شيئًا آخر. لقد انتقلت النواة السرية لمركز آخر أكثر هدوءًا وهناك بدأ النظام في بناء الشبكة السرية. هذا الدليل الواضح كان نقطة انطلاق بحثي. منذ سنوات، حتى فترة ما قبل الحرب، كنت أتساءل دائمًا أين انتهى الأمر بإخوة البطولة هؤلاء. وعندما اعتزلت وأصبحت لي حياتي الخاصة قررت أن أبحث عن أثر. ونظرًا لأن هروب عربة القش حدث في فرنسا، كان لابد أن أجد في فرنسا النواة السرية. أين؟"

كنت أشعر أنني في عرض مسرحي، كنت أنا وبيلبو مصغين السمع، ولم نجد شيئًا أفضل نقوله سوى: أين إذن؟"

"سأخبركما. أين نشأت جماعة فرسان المعبد؟ من أين أتى أوج دو بايان؟ من شامباني، بالقرب من تروي. وحكم شامباني أوج دو شامباني، والذي بعد ذلك ببضع سنوات في عام ١١٢٥ لحق بهم في أورشاليم. ثم عاد إلى وطنه ويبدو أنه قام بالاتصال برئيس دير سيتو، وساعده في أن يبدأ في ديره قراءة وترجمة بعض النصوص العبرية. فكروا في ذلك: كان حاخامات بورجونيا العليا يُدعون إلى سيتو، كان يدعوهم إلى هناك رهبان البنيديكت، ومن منهم؟ سان برنارد شخصيًا، لدراسة نصوص ما عثر عليها أوجو في فلسطين. وقدم أوجو إلى رهبان سان بنيدكت غابة في بار سير أوب، حيث سيقيمون دير كلارفو فيما بعد. وماذا فعل القديس برنارد؟

قلت: أصبح المدعم لفرسان المعبد.

"لماذا؟ هل تعرف أيضًا أنه جعل الفرسان أكثر قدرة من البنتدكتيين؟ إنه كان يمنع نظام البنيدكت من قبول الأراضي والمنازل كهبات وكان يعطي تلك الأراضي والمنازل للفرسان؟ هل زرت يومًا غابة الشرق بجوار تروي؟ مكان مترامي الأطراف، مقر قيادة وراء الآخر. وفي ذلك الوقت لم يكن الفرسان يحاربون في الأراضي المقدسة، أتعرف ذلك؟ لقد استقروا في المعبد وبدلاً من أن يقتلوا المسلمين عقدوا معهم صداقات، واتصلوا بالمتصوفين منهم. قام القديس برنارد، مستندًا للدعم الاقتصادي من كونتات شامباني، بتأسيس نظام في الأرض المقدسة يدخل في اتصال مع الجماعات السرية العربية واليهودية. وقامت إدارة مجهولة بالتخطيط للحملات الصليبية لإحياء النظام،

وليس بالعكس، وكونت شبكة علاقات بعيدة تمام البعض عن التحكم الملكي.... لست رجل علوم، فأنا رجل عملي. بدلاً من أن أدور في حلقات مفرغة، فعلت ما لم يفعله الكثير من الدارسين المنكبين على الكلمة لم يفعلوه قط. ذهبت إلى هناك، من حيث أتى الفرسان وحيث كان مقرهم منذ قرنين، حيث كانوا يعيشون كالسمك في الماء...

قلت: يقول الرئيس ماو إن الثوري يجب أن يكون بين الشعب مثل السمك في الماء.

"أحسن رئيسك القول.كان فرسان المعبد يعدون ثورة أكبر بكثير من تلك التي قام بها شيوعي ماو ذوي الضفائر..."

"لم تعد لهم ضفائر."

"لا؟ وضع أسوأ لحالتهم. كنت أقول إن الفرسان كان لابد أن يعثروا على ملجأ في شامباني. إلى بايان؟ إلى تروي؟ في غابة الشرق؟ لا، بايان كانت ولازالت بلدة صغيرة لا تكاد تتسع لبضعة منازل، وتتسع بالكاد لقصر. كانت تروي مدينة وبها العديد من رجال الملك. الغابة، كانت ملكًا للفرسان بالفعل، وكانت ستصبح أول مكان سيذهب إليه الحرس الملكي بحثًا عنهم. وهو ما حدث بالفعل. لا. قلت نفسي، المكان الوحيد الصالح هو بروفان!"

(١٨)

إذا استطعنا التخلل بأعيننا ورؤية ما
بداخل الأرض، من القطب للقطب، أو بداية من
أقدامنا حتى النقيض، سندرك كمية مخيفة من
غموض الثقوب والكهوف.

(T.Burnet, Telluris Theoria Sacra, Amsterdam, Wolters, 1694, p.38)

"لماذا بروفان؟"

"هل سبق وذهبت إلى بروفان؟ إنه مكان ساحر، إلى هذا اليوم، يستحق الزيارة. مكان خلاب، مازالت حتى اليوم تغلفه الأسرار. في الوقت نفسه كان مقرًا لكونت دو شامباني في القرن الحادي عشر، وظلت منطقة حرة لا يمكن للقوة المركزية التدخل فيها. كان يشعر الفرسان بأنهم في منزلهم، حتى اليوم يوجد شارع باسمهم هناك. حيث توجد الكنائس والقصور، قلعة تطل على المساحة كلها ونقود، وتجار يعقدون صفقات، معارض، فوضى يمكن خلالها أن تمر الأشياء دون أن يلحظها أحد. ولكن الشيء الخاص هو وجود الأنفاق. شبكة من الأنفاق تمتد بطيلة الهضبة، سراديب فعلية، بعضها يمكن زيارته إلى اليوم. أماكن إذا اجتمع فيها أحد في الخفاء، حتى إذا تخللها الأعداء، يمكن للمتآمرين أن ينتشروا في ثوان معدودة، ولا يعرف أحد أين ذهبوا. وإذا كانوا يعرفون المرات معرفة جيدة يمكنهم الخروج من مكان والظهور عند آخر دون أن يشعر بهم أحد. كان يمكنهم التسلل خلف الدخلاء والتخلص منهم في الظلام. أؤكد لكم أيها السادة أن تلك السراديب صُنعت خصيصًا للكوماندوز. يمكنك التسلل إليها ليلاً بسرعة دون أن يراك أحد، ممسكًا بالخنجر بين أسنانك وقنبلتين في يديك، وتقتل أعداءك مثل الفئران".

أخذت عيناه تلمعان "هل تدركون كيف يمكن لبروفان أن تصبح مخبئًا رائعًا؟ نواة سرية تجتمع أسفل سطح الأرض، وكل من في المنطقة من السكان، لم يكونوا ليتحدثوا، حتى إن عرفوا شيئًا. وصل رجال الملك أيضًا إلى بروفان وبالتأكيد قبضوا على الفرسان الموجودين على سطح الأرض، وقادوهم إلى باريس. راينو من بروفان تعرض

هو أيضًا للتعذيب، لكنه لم يتكلم. من الواضح أنه وفقًا للخطة السرية كان يجب أن يقع في قبضتهم حتى يعتقد الملك أن المنطقة قد تم تطهيرها بالكامل. ولكنه برفضه التحدث كان يعطي إشارة بأن بروفان لن تستسلم. بروفان مقر الفرسان الجدد تحت الأرض... في السراديب التي تنقلهم من مبنى إلى آخر، حيث يمكن الدخول إلى مطحنة قمح أو إلى مخزن لتخرج من الكنيسة. بعض السراديب مبنية بالأعمدة والأسقف المقواة، إن كل منزل في المدينة المرتفعة مازال لديه حتى اليوم مخزن، بالقباء المقوسة، لابد وأن هناك أكثر من مائة، وكل قبو، وكل بهو أسفل الأرض كان المدخل لتلك السراديب.

قلت: مجرد تخمينات.

"لا يا سيد كازاوبون، وقائع. إنك لم تر سراديب بروفان. لم ترها حجرة حجرة، تحت الأرض، تغطيها رسوم الجرافيت القديمة. تلك الرسوم الهرطوقية ذات الأصل الدرويدي، رسوم جرافيت تعود إلى فترة ما قبل وصول الرومان. عبر القيصر من فوق، بينما في أسفل كان هناك رجال يخططون للمقاومة، وكمائن وتعاويذ. توجد أيضًا رموز كاثارية، نعم أيها السادة، لم يكن الكاثاريون موجودين فقط في بروفان، لقد تم القضاء على أولئك الموجودين في بروفان، ولكن المنتمين إلى شامباني نجو وبقوا على قيد الحياة وكانوا يجتمعون هناك، في تلك السراديب، سراديب الهرطقة. مائة وثلاثة وثمانون منهم حُرقوا على السطح، ولكن بقي الباقون على قيد الحياة في بروفان. كانت الصحف تطلق عليهم لقبي البوجر والمانويين bougres et manichens. والآن، لننتبه قليلاً، لم يكن البوجر سوى البوجوميل والكاثار من أصل برتغالي. هل تعني لكم كلمة بوجر الفرنسية أي شيء؟ في الأصل تعني هذه الكلمة اللواط، لأنه كان يقال إن كاثار بلغاريا كانت لديهم ضعفاتهم... ثم ضحك بعصبية. "ومن أيضًا تم اتهامه بهذا؟ فرسان المعبد، شيء مثير للفضول، أليس كذلك؟"

قلت: "إلى حد ما، في تلك الفترة عندما كانوا يريدون التخلص من أي مهرطق كانوا يتهمونه باللواط...

"بالتأكيد، ولا تفكر أنني أعتقد أن الفرسان كانوا... لقد كانوا محاربين، ونحن المحاربين نحب النساء الجميلات، فالرجل هو الرجل على الرغم من نذور العفة. لقد ذكرت ذلك فقط لأنني لا أظنها مجرد صدفة لجوء مهرطقي الكاثار إلى المكان نفسه

الذي تواجد فيه الفرسان. على كل حال تعلم منهم الفرسان استخدام الكهوف والسراديب."

قال بيلبو: ولكن ليس هذا كله بالفعل سوى مجرد تخمينات"

"بالفعل، بدأ كل شيء بالتخمين. قلت لكما الأسباب التي دفعتني لاكتشاف بروفان! الآن نصل إلى القصة الحقيقية. في وسط بروفان يوجد مبنى غوطي ضخم، -Grange aux-Dmes، مطحنة العشور، وأنتما تعرفان أن أحد مراكز القوة للفرسان أنهم كانوا يجمعون العشور مباشرة دون أن يدفعوا أي شيء للدولة. أسفل هذا المبنى، مثل أي مكان آخر في المدينة، توجد شبكة من الممرات، اليوم في أسوأ حالاتها. حسنًا، بينما أبحث في أرشيفات بروفان وقع بين يدي جريدة محلية تعود إلى عام ١٨٩٤. كان فيها مقال عن اثنين من فرسان المشاة، الفارسان كاميل لافورج دي تور وادوارد إينجولف من بيترسبرج (هكذا كتبوا: بيترسبرج)، كانا يزوران منذ بضعة أيام الجرانج مع الحارس، ونزلا إلى إحدى الصالات الموجودة تحت الأرض، وفي الدور الثاني أسفل سطح الأرض، عندما قام الحارس، في محاولة لإثبات وجود طبقات أخرى سفلية، ضرب بقدميه على الأرض وسمعوا أصوات أصداء وارتدادات أصوات. يمدح كاتب الحدث شجاعة الفارسين الذين يتزودان بمصابيح وحبال، ويدخلان إلى بعض السراديب وكأنهما صبية بداخل منجم، زاحفين على بطونهم سعيًا لاكتشاف ممرات تحوط بها الأسرار. وتقول الجريدة إنهما وصلا إلى قاعة كبيرة بها مدفأة جميلة، وبئر في الوسط. أسقطا حبلاً معلقين به حجر واكتشفا أن عمق البئر أحد عشر مترًا... عادا بعدها بأسبوع ومعهما حبالاً أكثر متانة، وبينما يمسك اثنين بالحبال نزل إينجولف إلى البئر وعثر على حجرة كبيرة جدرانها من الحجارة، عشرة أمتار في عشرة، وارتفاعها خمسة أمتار. ونزل الآخرون أيضًا بدورهما، وأدركوا جميعًا أنهم في الدور الثالث أسفل سطح الأرض، على عمق ثلاثين مترًا. ماذا رأى الثلاثة وماذا فعلوا في تلك القاعة، شيء لا يعرفه أحد. يعترف كاتب الخبر أنه عندما ذهب بنفسه ليعاين المكان لم تكن لديه القوة الكافية لينزل في البئر. ملئتني القصة بالحماس وأردت الذهاب لزيارة المكان، ولكن منذ نهاية القرن الماضي حتى اليوم انهارت الكثير من الممرات الموجودة أسفل سطح الأرض، وإذا كان لهذا البئر وجود بالفعل من يدري مكانه الآن. ولكنني أدركت أن فارسي المشاة قد وجدا شيئا ما هناك في أسفل. كنت قد قرأت في تلك الأيام كتابًا حول سر ران لو

شاتو Rennes-le-Chteau، وهو حدث آخر يظهر فيه الفرسان بطريقة أو بأخرى. والذي حدث هو أحد الكهنة المعدمين، والذي لم يكن له أي تطلعات مستقبلية، وأثناء قيامه ببعض أعمال الترميم في كنيسة صغيرة لقرية تخدم حوالي مائتي نفس، رفع إحدى الأحجار من أرضية الجوقة ووجد صندوقًا قديمًا به وثائق قديمة جدًا، على حد قوله. وثائق فقط؟ لا أحد يعرف تفاصيل ما حدث، ولكن في الأعوام التالية أصبح هذا القس فاحش الثراء، أخذ ينفق أمواله ببذخ، وعاش حياة ماجنة، والتي قادته لمحاكمة كهنوتية. وإذا كان قد حدث شيء مماثل لأحد فارسي المشاة؟ أو للاثنين معًا؟ نزل إينجولف في البداية، وجد شيئًا ثمينًا صغير الحجم، خبأه أسفل بذلته، ثم صعد من جديد ولم يقل شيئًا للآخرين. أنا إنسان عنيد، إن لم أكن هكذا لما عشت حياتي بهذه الطريقة". تحسس الكولونيل ندبته بيده، ثم حرك يديه تجاه خديه متجهًا لعنقه، ليتأكد من وضع شعره.

"ذهبت إلى التلفونات العامة في باريس وأخذت أبحث في دليل التليفونات لفرنسا كلها عن اسم عائلة إينجولف. وجدت واحدة في أوكسير وكتبت مقدمًا نفسي على أني باحث للآثار. بعد ذلك بأسبوعين تلقيت الرد من مربية عجوز، ابنة إينجولف نفسه، تشعر بالفضول وترغب في معرفة سر اهتمامي به، بل وتسألني إذا كنت أعرف عنه أي شيء ... كنت أعرف أن وراءه سرًا ما. أسرعت إلى أوكسير، كانت الآنسة إينجولف تعيش في منزل مغطى كله باللبلاب، وكان له باب خشبي يغلق بخيط ملفوف حول مسمار. كانت مربية عجوز، نظيفة، مهذبة، غير متعلمة. سألتني على الفور ماذا أعرف عن والدها، وأجبتها أنني لا أعرف سوى أنه في أحد الأيام نزل إلى أحد سراديب بروفان، وأنني أقوم بكتابة مقال عن تلك المنطقة. كان الأمر بالنسبة لها مفاجأة فلم تكن تعرف أن أباها قد ذهب من قبل إلى بروفان. كان بالتأكيد في سلاح الفرسان ولكنه ترك الخدمة عام ١٨٩٥ قبل ميلادها، وابتاع هذا المنزل في أوكسير، وتزوج عام ١٨٩٨ من فتاة من المنطقة بمساعدة أموالها. ماتت الأم عام ١٩١٥ عندما كان عمر الابنة خمسة أعوام فقط، أما الأب فقد اختفى عام ١٩٣٥، اختفى بمعنى الكلمة، كان قد ذهب إلى باريس، كما كان يفعل تقريبًا مرتين في العام، واختفت أخباره. اتصل البوليس المحلي تلغرافيًا بباريس وكان الرد أن الرجل قد تبخر في الهواء، وافترضوا موته. وهكذا ظلت آنستنا وحيدة وبدأت تعمل، حيث إن الميراث الذي تركه أبواها لم يكن كبيرًا. من الواضح أنها لم تجد لها زوجًا، ومن تنهداتها أمكنني استنتاج أن وراء

هذا أيضًا قصة ما، قصة نهايتها تعيسة. قالت "سيد أردنيتي، أعاني باستمرار من الحزن والألم، إن عدم معرفتي شيء عن مصير أبي المسكين شيء مؤلم للغاية، ولا حتى مكان قبره، هذا إذا كان له قبر في مكان ما." كانت لديها الرغبة في التحدث عنه: أب حنون للغاية، هادئ، دقيق، ومثقف. كان يقضي الأيام في مكتبه هناك فوق في العلية، يقرأ ويكتب. فيما عدا ذلك كان يعمل قليلاً في الحديقة، وأحيانًا أخرى يخرج للتحدث مع الصيدلي، الذي مات هو أيضًا. من حين لآخر، كما سبق وقالت، كان يذهب إلى باريس، لقضاء بعض الأعمال. ولكنه كان يعود دائمًا حاملاً بضع لفائف بها كتب. المكتب مازال مليء بها، وأرادت أن تطلعني عليها. صعدنا، كانت حجرة مرتبة ونظيفة، حيث كانت الآنسة إينجولف تنظفها أسبوعيًا، لم تكن تستطيع زيارة قبر والدتها ووضع الزهور لها، وكان تنظيف الحجرة هو الشيء الوحيد الذي يمكنها تقديمه لأبيها المسكين. كل شيء كما تركه هو، كان سيسعدها الدراسة لتتمكن من قراءة، ولكنها كانت كلها أشياء باللغة الفرنسية القديمة، واللغة اللاتينية واللغة الألمانية، بل وبعضها مكتوب بالروسية، لأن الأب وُلد وقضى سنوات الطفولة هناك، كان ابن لموظف في السفارة الفرنسية. كانت المكتبة تحتوي على مئات من الكتب، الجزء الأكبر منها ـ وكم أسعدني ذلك ـ عن محاكمة فرسان المعبد، على سبيل المثال كان يوجد كتاب "اللحظات التاريخية المتعلقة بإدانة فرسان المعبد لرانوار Monumens historiques relatifs la condemna- tion des chevaliers du Temple, Raynouard والذي يعود لعام ١٨١٢، قطعة أثرية. كتب كثيرة عن كتابات سرية، مجموعة كبيرة عن الكتابة بالشفرة واللغات والديبلوماسيات القديمة. كان هناك سجل بالحسابات القديمة، وعندما تصفحته وجدت ملحوظة جعلتني أقفز: كانت تتعلق ببيع علبة ما، دون تفاصيل، ودون اسم مشتريها. لم يكن الثمن مذكورًا أيضًا، ولكن كانت عملية البيع تعود لعام ١٨٩٥، وبعدها يوجد تسجيل دقيق للحسابات، حسابات شخص دقيق كان يدير بحرص شديد عشه. كانت توجد بعض الملحوظات حول شراء كتب من محلات آثار باريسية. أصبح ما حدث في بروفان واضحًا بالنسبة إلي: عثر إينجولف في المغارة على علبة ذهبية مطعمة بأحجار ثمينة، لم يفكر للحظة، خبأها في ملابسه، وصعد دون أن يذكر أي شيء لرفيقيه. وفي المنزل عثر بداخلها على مخطوطة. ذهب إلى باريس، اتصل بأحد جامعي الآثار أو ربما أحد مصاصي الدماء من جامعي التحف، ومن خلال بيع العبوة، وعلى الرغم من الثمن الضئيل، فإنه أصبح يمتلك بعض النقود. ترك بعدها الخدمة، واعتزل

في الريف وبدأ في ابتياع كتب لدراسة المخطوطة. ربما كان لا يزال بداخله ذلك الباحث عن الكنز، وإلا لما ذهب في المقام الأول لسراديب بروفان. وربما كانت لديه ما يكفي من معرفة ليفك شفرة المخطوطة التي عثر عليها. أخذ يعمل بهدوء، بلا قلق، لمدة ثلاثين عامًا، هل حكى لأحد عن اكتشافاته؟ من يدري. إلا أنه في عام ١٩٣٥، لابد أنه شعر بأنه وصل إلى شيء ما، أو ربما أصبح الطريق أمامه مسدودًا، لأنه قرر اللجوء إلى أحد، إما ليقول له ما يعرف، أو ليستشيره فيما لا يعرف. ولكن لابد أن ما كان يعرفه سر رهيب، بسببه عمل الشخص الذي ذهب إليه على إخفائه والتخلص منه.

لنعد إذن إلى العلية، لابد وأن نعرف إذا كان إينجولف قد ترك أثرًا ما، قلت للآنسة الطيبة إنه ربما، من خلال فحص كتب أبيها، يمكنني العثور على أثر ما يتعلق باكتشافه في بروفان، وبالتالي يمكنني أن أذكر ذلك في دراستي والتحدث عنه باستفاضة. تحمست كثيرًا، يالوالدي المسكين، قالت لي إنه بإمكاني أن أمكث الظهيرة كلها وأعود في اليوم التالي إذا لزم الأمر، أحضرت لي القهوة، وأضاءت لي النور وعادت لتعمل في الحديقة تاركة لي المكان كله. كانت حوائط الحجرة ناعمة وبيضاء لم تكن فيها أية أدراج أو أركان أو شقوق حيث يمكنني البحث، إلا أنني لم أترك شيئًا، أخذت أبحث فوق وأسفل وبداخل قطع الأثاث القليلة الموجودة. في خزانة تكاد تكون فارغة إلا من بعض الملابس المحفوظة بالنفتالين، وجدت ثلاث أو أربع لوحات لمناظر طبيعية. دون الدخول في كثير من التفاصيل، أريد فقط أنني أديت عملي على أكمل وجه، فلم تكن الفروق في الأريكة يتم فقط اختبارها بل لابد من إدخال إبر طويلة لفحص إذا كانت توجد أية أجسام غريبة..."

وأدركت أن الكولونيل كانت لديه خبرات أخرى غير الحروب.

"لم يبق أمامي سوى الكتب، وكان من الأفضل على أية حال أن أدون العناوين، وأن أفحص إذا لم تكن هناك ملحوظات هامشية مدونة، أجزاء مسطورة أو بعض الإشارات... وأخيرًا أمسكت بصعوبة بين يدي بكتاب قديم ذي تغليف ثقيل، فسقط من بين يدي وبرزت من الغلاف ورقة بيضاء مكتوبة بخط اليد. من نوع الورق والحبر كان من الواضح أنها ليست ورقة قديمة جدًا، يمكن أن تكون كتبت في الفترة الأخيرة من حياة إينجولف. فتحتها لأقرأ الملحوظة الهامشية: "بروفان ١٨٩٤". تخيلا انفعالي، وأمواج المشاعر التي اجتاحتني... أدركت أن إينجولف قد ذهب إلى باريس بالمخطوطة

الأصلية، ولكن هذه هي النسخة. لم أتردد. لقد قامت الآنسة إينجولف بتنظيف تلك الكتب منذ عدة أعوام، ولم تجد قط هذه الورقة، وإلا كانت ستذكرها لي. حسنًا، لن تعرف عنها شيء. إن العالم ينقسم إلى مهزومين ومنتصرين، حصلت منه على نصيبي من الهزيمة، وهأنذا أمسك بالنصر من شعره. أخذت الورقة ووضعتها في جيبي. ذهبت للآنسة وأخبرتها بأنني لم أجد أي شيء يهمني، ولكنني سأذكر أباها إذا كتبت بحثي، وباركتني. سادتي، إن رجلاً عمليًا مثلي يتحرق شغفًا، مثلما كنت أشعر، لن يتوقف كثيرًا أمام كآبة كائن أدانه القدر من قبل."

قال بيلبو: "لا تحاول التبرير، لقد فعلت ما فعلته، قل لنا إذن"

"الآن سأطلعكما يا سادتي على ذلك النص. هل يمكن أن نصنع منه نسخة ضوئية، ليس نقصًا في الثقة، ولكنني لا أرغب في استهلاك النسخة الأصلية"

قلت: ولكن تلك التي وجدتها لدى إينجولف لم تكن النسخة الأصلية، لقد كانت النسخة التي نسخها من الأصل المزعوم"

"سيد كازاوبون، عندما لا توجد أصول فإن النسخة الأخيرة تعد بمثابة الأصل."

"لكن يمكن أن يكون إينجولف قد نقل أخطاء"

"سيادتك غير متأكد من ذلك، وأنا أثق أن نقل إينجولف يقول الحقيقة، حيث إنني لا أرى إمكانية أن تكون الحقيقة شيئًا مختلفًا. إذن فإن نسخة إينجولف هي الأصل. هل نحن متفقون حول هذه النقطة، أم سنبدأ في ألعاب المثقفين؟"

قال بيلبو: أكره هذا، فلنر إذن نسختك الأصلية.

(١٩)

في الفترة التي تلت بيوجو، لم يتوقف النظام عن الوجود قط، ولو للحظة واحدة، وبعد أومون نجد تتالي لا ينقطع لرؤساء النظام وصولاً ليومنا هذا، وإذا كان اسم ومقر الرئيس الأعظم والمجلس الحقيقي الذي يقود النظام ويحكم أعماله العظيمة مازال سرًا لا يعرفه سوى المستنيرين، ولا يمكن اختراقه، فذلك لأن ساعة النظام لم تحن بعد، والأزمنة لم تكتمل بعد...

(مخطوط يعود لعام ١٧٦٠، في Schiff- .A.G mann, Die Entstehung der Rittergrade in der Freimauerei um die Mitte des XVIII-Jahrhunderts, Lipsia, Zechel, 1882, pp.178-190

كان هذا لقاءنا الأول البعيد مع الخطة. في ذلك اليوم كان في الإمكان أن أكون في مكان آخر. إذا لم أكن في المكتب مع بيلبو في ذلك اليوم كان في الإمكان أن أكون الآن في سمرقند أبيع السمسم، أو أعمل كناشر لسلسلة برايل، أو أدير البنك الأهلي الأول لأرض فرانشسكو جوزيبي؟ إن زمن الشرط المعتمد على واقع ما عادة ما يكون حقيقيا نظرًا لأن الجزء الأول من العبارة غير صحيح. لكنني كنت هناك في ذلك اليوم، ولهذا أوجد الآن حيث أنا.

أطلعنا الكولونيل بحركة مسرحية على الورقة. مازلت هنا معي، بين أوراقي في ملف من البلاستيك، ازدادت اصفرارًا وشحوبًا أكثر مما كانت عليه على تلك الأوراق الحرارية المستخدمة في تلك الفترة. كانا في الحقيقة نصين، الأول نص متشابك يحتل النصف الأول من الورقة، والثاني مقسم في أبيات مقطعة...

كان النص الأول نوعًا من التلاوات الشيطانية، تقليد للغة السامية:

Kuabris Defrabax Rexulon Ukkazaal Ukzaab Urpaefel Taculbain Habrak Hacoruin Maquafel Tebrain Hmcatuin Rokasor Himesor Argaabil Kaquaan Docrabax Reisaz Reisabrax Decaiquan Oiquaquil Zaitabor Qaxaop Dugraq Xaelobran Disaeda Magisuan Raitak Huidal Uscolda Arabaom Zipreus Mecrim Cosmae Duquifas Rocarbis.

علق بيلبو: ليس واضحًا.

"لا، أليس كذلك!" وافقه الكولونيل بخبث، "وكان يمكنني أن أضيع حياتي في محاولة فهمه إذا لم أعثر، بالصدفة، في إحدى الأيام على كتاب يتحدث عن تريثيميوس، ولم

تقع عيناي على إحدى الرسائل المكتوبة بالشفرة: Oshurmy Delmuson Pamersiel Thafloyn.، كنت قد وجدت أثرًا وتبعته للنهاية، كان تريثيميوس بالنسبة إلي مجهولاً، ولكنني في باريس عثرت على نسخة من كتاب عن فن السحر وفك الشفرات السرية يعود تاريخه لعام ١٦٠٦. فن أن يتمكن أحدهم من فتح روحه للأشخاص البعيدين من خلال كتابات سرية. شخصية ساحرة هذا التريثيميوس، كان أحد الآباء البنيديكت، عاش بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر، كان مثقفًا يعرف العبرية والكلدانية، وبعض اللغات الشرقية مثل اللغة التتارية، وكانت له علاقة مع لاهوتيين ودارسي القبالاة وسيميائيين، كان يعرف بالتأكيد كارنيليوس أجريبا العظيم من نتشايم وربما بارشيلسو أيضًا... أخفى تريثيميوس اكتشافاته عن الكتابات السرية خلف طبقات من الدخان السري، يقول إنه من الضروري إرسال الرسائل المشفرة من النوع الموجود أمام أعيننا، ثم يقوم المرسل إليه باستدعاء الملائكة مثل بارميسيل، وباديل ودوروثيل، وهكذا، والذين سيعملون على مساعدته ليفهم الرسالة الحقيقية. ولكن الرسائل التي يعطيها كمثال غالبًا رسائل عسكرية، والكتاب مهدى لفيليب كونت بالاتين ودوق بافييرا ويُعد أحد الأمثلة الأولى للعمل الجاد لدراسة الكتابة المشفرة، وأساليب المخابرات السرية."

سألت: "معذرة، ولكن إذا كانت معلوماتي دقيقة فإن تريثيميوس عاش على الأقل في الفترة التي تلت كتابة هذه الوثيقة بحوالي مائة عام على الأقل..."

"كان تريثيميوس ينتمي لمجموعة التضامن الكلتي، والتي كانت تهتم بالفلسفة ودراسة علم النجوم والحساب الفيثاغوري. هل ترى العلاقة؟ إن الفرسان الذين بدأوا نظام المعبد كانوا قد استوحوا أيضًا المعرفة من الكلت القدماء، وهو شيء تم إثباته على مستوى كبير. وبطريقة ما تعلم تريثيميوس أيضًا الكتابة السرية التي كان يستخدمها فرسان المعبد"

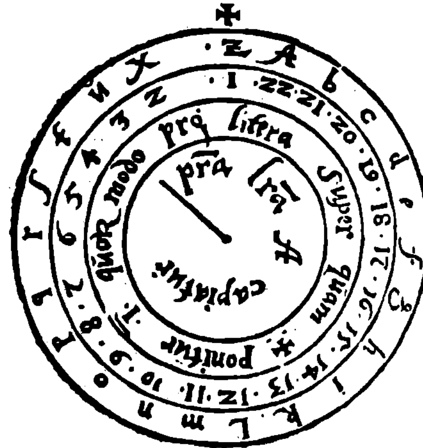
قال بيلبو: "مذهل، حتى كتابة الرسائل المشفرة؟ ماذا تقول الرسالة؟

"كل شيء في الوقت المناسب، سادتي، يقدم تريثيميوس أربعون نظامًا كبيرًا للشفرة وعشرة أنظمة صغيرة. لقد كنت محظوظًا، أو يمكن أن نقول إن الفرسان في بروفان لم يبذلوا جهدًا كبيرًا، نظرًا لأنهم كانوا واثقين أنه لن يتمكن أحد من فك الشفرة. لقد جربت الطريقة الأولى من الأربعين الكبرى، وافترضت أن حساب الحرف الأول من كل كلمة هو المطلوب.

طلب بيلبو الورقة ونظر إليها: ولكن بهذه الطريقة أيضًا ستصل إلى كلمة بلا معنى: Kdruuuth

قال الكولونيل باستخفاف: "طبيعي! فالفرسان لم يتعبوا أنفسهم كثيراً، ولكنهم لم يكونوا بهذا الكسل أيضًا. إن هذه النتيجة المتسلسلة الأولى هي بدورها رسالة مشفرة أخرى، وفكرت أنا على الفور في السلسلة الثانية من أنظمة الشفرة العشرة. انظرا، في هذه السلسلة كان تريثيميوس يستخدم العجلة، هذه هي عجلة النظام الأول.

أخرج من ملفه نسخة ضوئية أخرى، قرب المقعد من المائدة وجعلنا نتابع ما يشرحه لنا لامسًا الحروف بالقلم الجاف المغلق.



"إنه أبسط الأنظمة. فلننظر فقط إلى الدائرة الخارجية. كل حرف من حروف الرسالة يتم استبداله بالحرف السابق له، وبالتالي نكتب z بدلاً من A، ونكتب A بدلاً من B وهكذا. شفرة أطفال بالنسبة لأي عميل سري اليوم، ولكن في تلك الفترة كانت تعد شيئًا كأعمال السحر. وبالتالي لفك الشفرة كان القارئ يتبع الاتجاه المعاكس ويضع مكان كل حرف الحرف التالي له. حاولت استخدام هذا الأسلوب، وبالتأكيد حالفني الحظ، فلقد نجحت من المرة الأولى" وقرأ لنا العبارة: Les sep- inuisibles XXXVI arez en six bandes أي الستة والثلاثين الخفيين ينقسمون إلى ست مجموعات.

"ماذا يعني هذا؟"

"لأول وهلة، لا شيء. إن الأمر يتعلق بشيء كالعبارات التي تعلن تأسيس مجموعة ما. كانت مكتوبة بلغة سرية لأسباب طقسية. بالإضافة إلى أن الفرسان، نظرًا لشعورهم بالاطمئنان، لأنهم سيتركون الرسالة في أحد معابدهم المخفية في باطن الأرض، لم يروا ما يمنع من استخدام فرنسية القرن الرابع عشر. ولكن لننظر إلى النص الثاني."

سأل بيلبو، محبطًا و لاهيًا "وهذه هي الرسالة غير المشفرة؟؟"

"من الواضح أنه أثناء نقله للرسالة وضع إينجولف نقاط لتمثل الكلمات التي لم يستطع قراءتها، ومسافات في المناطق التي كانت المخطوطة فيها قد تعرضت للتلف.. ولكن إليكم نقلي أنا النهائي وترجمتي للوثيقة، والمعتمد على تخمينات، اسمحا لي أن أصفها بأنها عبقرية ولا غبار عليها، والتي أعادت للنص رونقه الأصلي ـ كما يُقال"

ثم بحركة مقدم الألعاب السحرية أخرج النسخة الضوئية وأطلعنا على نسخته

في (ليلة) سان جوفاني
٣٦ (عامًا) ت (لي) عربة القش
٦ (رسائل) سليمة بأختامها
من (أجل الفرسان ذوي) العباءات البيضاء [فرسان المعبد]
(ينطلقون) من بروفان من أجل (الانتقام)
٦ مرات في ٦ في ستة مواقع
في كل مرة ٢٠ (عامًا تمر) ١٢٠ (عامًا)
هذه هي الخطة
يذهب الأولون إلى القلعة
[ومن جديد بعد ١٢٠ عامًا] تلحق بهم المجموعة الثانية المختصة (بالخبز)
من جديد في الملجأ
من جديد لدي سيدتنا فيما وراء النهر
من جديد في مقر البوبليكان
من جديد عند الصخرة
٣ مرات [٦٦٦] قبل عيد (ال) العاهرة العظيمة.

قال بيلبو "هذا أسوأ من السير في الظلام الحالك"

"من المؤكد أنه لابد من تفسير كل شيء، ولكن لابد وأن إينجولف قد استطاع ذلك، كما استطعت أنا. إن الأمر أقل غموضًا مما يبدو لمن يعرف تاريخ نظام المعبد"

توقف. وطلب كوب ماء، واستمر في قراءة النص معنى كلمة بكلمة.

"لنر الآن: في ليلة سان جوفاني، ستة وثلاثون عامًا بعد عربة القش، فإن الفرسان المقدر لهم البقاء والحفاظ على النظام هربوا من القبض عليهم في سبتمبر عام ١٣٠٧، على عربة قش. وفي تلك الأزمنة كان العام يتم حسابه من عيد قيامة إلى آخر. إذن فعام ١٣٠٧ ينتهي عندما يحل عيد القيامة لعام ١٣٠٨ في حساباتنا. حاولوا حساب ٣٦ عام بعد نهاية ١٣٠٧ (أي عيد القيامة لعام ١٣٠٨) سنجد أنفسنا وصلنا لعيد القيامة في ١٣٤٤. وضعت الرسالة في المغارة، في حاوية ثمينة، وكأنها سجل، تسجيل لحدث قد تم بالفعل في ذلك المكان، ذلك بعد تكوين النظام السري، في ليلة عيد القديس يوحنا، أي في ٢٣ يونية عام ١٣٤٤."

"لماذا عام ١٣٤٤؟"

"أعتقد أنه بين ١٣٠٧ و١٣٤٤ أعاد النظام السري ترتيب نفسه وتطلع إلى المشروع الذي تعد هذه المخطوطة البداية له. كان لابد الانتظار حتى تهدأ الأمور وأن تعود الاتصالات بين فرسان المعبد الموجودين في البلاد الخمسة أو الستة. من جهة أخرى انتظر الفرسان ستة وثلاثين عامًا وليس خمسة وثلاثين أو سبعة وثلاثين، وذلك لأن رقم ٣٦ له دلالات مقدسة، كما تؤكد أيضًا الرسالة المكتوبة بالشفرة. إن المجموع الداخلي للرقم هو تسعة، ولا أعتقد أنني بحاجة لأن أذكركما بالمعاني العميقة لهذا الرقم."

"هل يمكنني الدخول؟"، كان هذا صوت ديوتاالليفي الذي تسلل خلفنا دون أن نشعر به وكأنه أحد فرسان بروفان.

"موضوعك المفضل!" قال بيلبو، وقدمه بسرعة للكولونيل، الذي لم يبدو عليه الانزعاج الشديد، بل كان يعطي الانطباع أنه يرغب في العديد من المستمعين المنتبهين. استمر في التفسير وديوتاالليفي يستمع بشغف لتلك الحجج الرقمية، هندسة صرفة.

"لنصل الآن إلى الأختام: ستة أشياء مختومة بأختام. عثر إينجولف على العبوة مغلقة بالختم بالتأكيد. لمن تم ختم هذه العبوة؟ لأصحاب العباءات البيضاء، أي لفرسان المعبد. ثم نجد في الرسالة حرف r، وبعض الحروف الممحاة، ثم حرف s. وأنا أعتقد أنها كانت تمثل كلمة replasi أي المرتدين. لماذا؟ لأننا جميعًا نعرف أن هؤلاء المرتدين هم من اعترفوا ثم سحبوا اعترافاتهم، وأنهم لعبوا دورًا مهمًا في محاكمة الفرسان. وفرسان بروفان يعترفون بفخر بدورهم كمرتدين، إنهم هؤلاء الذين خرجوا من الكوميديا العبثية للمحاكمة. إذن فالمخطوطة تتحدث عن فرسان بروفان المرتدين، المستعدون لماذا. الحروف الباقية يمكن أن تكون كلمة "Vainjance"، أي للانتقام"

"أي انتقام؟"

"سادتي! إن لغز الفرسان، منذ المحاكمة وبعدها، يتمحور حول مشروع الانتقام لجاك دو مولاي. أنا لا أتمسك كثيرًا بالطقوس الماسونية، ولكنها مثل الكاريكاتور البرجوازي لفروسية المعبد، وتعد بطريقة أو بأخرى انعكاسًا لهم، حتى وإن كان متدهورًا. إحدى درجات الماسونية في الطقوس الإسكتلندية هو ذلك الخاص بفارس الكادوش، والتي معناها بالعبرية فارس الانتقام".

"حسنًا، كان الفرسان يستعدون للانتقام، وبعد ذلك؟"

"كم من الوقت يجب أن تستغرقه خطة الانتقام تلك؟ إن الرسالة المشفرة تساعدنا على أن نفهم الرسالة المكتوبة. المطلوب ستة فرسان لست مرات في ستة مواقع، ستة وثلاثون مقسمون إلى ست مجموعات. ثم تقول الرسالة "كل مرة عشرون"، وهنا يوجد شيء غامض، ولكن في الجزء الذي نقله إينجولف يبدو كأنه حرف a. وبالتالي تكون بين كل مرة وأخرى عشرون عامًا، هذا ما استخلصته، على ست مرات، معناه مائة وعشرون عامًا. إذا تابعنا باقي الرسالة نجد قائمة بستة أماكن، أو بالمهام الست المطلوبة. فهم يتحدثون عن "تنظيم"، عن خطة، مشروع، إجراء يجب اتباعه. ويقال إن المجموعة الأولى يجب أن تذهب إلى شيء مثل البرج المحصن أو القلعة، والثانية إلى مكان آخر، وهكذا حتى السادسة. إذن فالوثيقة تخبرنا بأنه لابد من وجود ست وثائق أخرى مازالت مغلقة بالختم، والتي يجب فتحها واحدة تلو الأخرى، على مسافة فترة زمنية قدرها مائة وعشرون عامًا بين الوثيقة والأخرى..."

"ولماذا مائة وعشرون عامًا في كل مرة؟" سأل ديوتالليفي.

"إن فرسان الانتقام أولئك يجب أن ينجزوا مهمة ما في مكان محدد كل مائة وعشرين عامًا. الأمر يتعلق بنوع من سباقات التتابع. من الواضح أنه بعد ليلة ١٣٤٤ يرحل ستة فرسان ويذهب كل منهم إلى أحد الأماكن الستة التي تنص عليها الخطة. ولكن بالتأكيد لا يمكن أن يظل حارس الختم الأول على قيد الحياة لمدة مائة وعشرين عامًا. من المفهوم أن كل حارس للختم يتولى المهمة لمدة عشرين عامًا ثم ينقل المسئولية لمن يليه. عشرون عامًا فترة معقولة، ست حراس لكل ختم، يتولى المهمة كل منهم لمدة عشرين عامًا يضمنون بذلك أنه في نهاية المائة والعشرين عامًا يمكن لحارس الختم قراءة التعليمات ونقلها للحارس الأول للختم الثاني. ولهذا السبب فالرسالة مكتوبة بصيغة الجمع: الأولون يفعلون، والآخرون يقومون... كل مكان يتم مراقبته على مدار المائة والعشرين عامًا من ستة فرسان. لنقم بحساب الأمر إذن: من المكان الأول إلى المكان السادس توجد خمس مراحل، تستغرق ستمائة عام. وبإضافة ستمائة إلى عام ١٣٤٤ نصل إلى عام ١٩٤٤. وهو الشيء الذي سيتم تأكيده أيضًا في السطر الأخير، وواضح وضوح الشمس."

"ألا وهو؟"

"يقول السطر الأخير: ٣ مرات ٦ [٦٦٦] قبل عيد (ال) العاهرة العظيمة. هنا أيضًا توجد لعبة أرقام، لأن المجموع الداخلي لعام ١٩٤٤ هو ١٨، و١٨ هو ثلاث مرات ستة، وهذه المصادفة المذهلة الجديدة تقترح على الفرسان لغزًا جديدًا. فعام ١٩٤٤ هو العام الذي لابد فيه وأن تختتم الخطة. في انتظار ماذا؟ في انتظار الألفية الثانية! فالفرسان يعتقدون أن الألفية الثانية ستشهد ميلاد أورشاليم الخاصة بهم، أورشاليم الأرضية، أورشاليم المضادة. كانوا مضطهدين كمهرطقين أليس كذلك؟ دفعتهم كراهيتهم للكنيسة للتماثل مع المسيح الدجال. فهم يعرفون أن رقم ٦٦٦ في كل التقاليد السرية هو رمز الوحش. إن عام ٦٦٦ هو عام الوحش، وفي عام ألفين سيتجلى انتقام فرسان المعبد، أورشاليم المضادة هي بابل الجديدة، ولذلك فعام ١٩٤٤ هو عام انتصار العاهرة العظيمة، بابل الزانية التي يتحدث عنها سفر الرؤية! إن الإشارة إلى ٦٦٦ كان نوعًا من الاستفزاز، استعراض قوى من هؤلاء المحاربين. إشارة إلى تميزهم، كما نقول اليوم، حكاية جميلة، أليس كذلك؟"

كان ينظر إلينا بعينيه اللامعتين بالدموع، كما بلل العرق شفتيه وشاربه، بينما يربت بيديه على الملف.

قال بيلبو: حسنًا! دعنا نفترض أن الرسالة تشير إلى زمن تنفيذ الخطة، ولكن أي خطة؟"

"إنك الآن تطالب بالكثير. لماذا أحتاج إذن للإلقاء بطعمي هذا إذا كنت أعرفها بالفعل؟ ولكنني أعرف شيئًا ما، إنه خلال تلك الفترة الزمنية وقع حادث ما، ولم تكتمل الخطة، وإلا كنا عرفنا. وأستطيع أيضًا أن أفهم سبب هذا: لم يكن عام ١٩٤٤ عامًا عاديًا، لم يكن في إمكان الفرسان معرفة حدوث حرب عالمية ستحول دون إمكانية الاتصال".

قال ديوتالليفي: "اعذروني على مقاطعتكم، إذا كنت قد أحسنت الفهم، فمجرد فتح الختم الأول لا يعني نهاية توالي حراسه. فهي عملية تستمر حتى فتح الختم الأخير عندما يتطلب هذا حضور كل ممثلي النظام. إذن في كل قرن، أو بالأحرى كل مائة وعشرين عامًا، سيكون لدينا ستة حراس لستة أماكن، أي ستة وثلاثون."

قال أردينتي: تمامًا.

"إذن ستة وثلاثون فارسًا لكل موقع من المواقع الستة يكون المجموع هو ٢١٦، وهو الرقم ذو المجموع الداخلي ٩. ونظرًا لأنها ٦ قرون من الزمن، لنضرب ٢١٦ في ٦ سنصل إلى ١٢٩٦، والتي مجموعها الداخلي ١٨، أي ثلاثة في ٦، ٦٦٦." كان ديوتالليفي على استعداد للاسترسال في حساباته للتاريخ الكوني إذا لم يوقفه بيلبو بنظرة حادة، كما تفعل الأمهات عندما يرتكب أبناؤهن خطأ ما. ولكن كان الكولونيل قد بدأ التعرف على شخص مستنير في ديوتالليفي.

"إن ما تطلعني عليه الآن رائعًا يا دكتور! وهل تعرف أن تسعة هو عدد الفرسان الأوائل الذين كونوا نواة رهبنة المعبد في أورشاليم؟"

قال ديوتالليفي: "إن اسم الله العظيم، كما تم التعبير عنه في التتراجراماتون (يهوة)، مكون من اثنين وسبعين حرفًا، وجمع اثنين وسبعة هو تسعة. ولكنني سأخبرك بالمزيد، إذا سمحت لي. تبعًا للتقليد الفيثاغوري، والذي تحفظه القابالاه، أو ربما استوحى منها

- نلاحظ أن جمع الأرقام الفردية من واحد إلى سبعة هو رقم ١٦، وجمع الأرقام الزوجية من اثنين إلى ٨ هو عشرين، و٢٠ زائد ١٦ مجموعهما ٣٦.

صاح الكولونيل متحمسًا: "يا إلهي يا دكتور!! كنت أعرف ذلك، أعرفه، إنك تشجعني على المضي قدمًا، أشعر أنني اقتربت من الحقيقة."

لم أكن أعرف إلى أي مدى حول ديوتاليفي العمليات الحسابية إلى عقيدة، والعقيدة إلى عمليات حسابية، وربما كان الشيئات معًا. أو ربما لم يكن سوى شخص لا عقيدة له يستمتع باختطاف بعض السموات العليا. كان يمكنه أن يصبح مخلصًا في إيمانه للروليت (وربما كان سيكون أفضل)، وأراد أن يكون حاخامًا غير مؤمن.

الآن لا أتذكر ما حدث بالتحديد، ولكن بيلبو تدخل بطريقته القروية المرحة، وكسر السحر. كان مازال على الكولونيل تفسير المزيد من الأسطر وكنا جميعًا نرغب في فهمها، وكانت الساعة السادسة مساء. السادسة، أخذت أفكر، أي الثامن عشر أيضًا.

قال بيلبو: "حسنًا، ستة وثلاثون للقرن الواحد، على الفرسان اكتشاف الحجر خطوة تلو الخطوة. ولكن ماذا يكون الحجر؟"

"غير معقول أيها السادة!!! بالطبع الحجر هو الجرال، الكأس المقدس؟"

(٢٠)

كانت العصور الوسطى في انتظار بطل الجرال وأن يصبح رئيس الإمبراطورية الرومانية المقدس صورة وحضور "ملك العالم نفسه"... الإمبراطور غير المرئي كان هو أيضًا ذلك الحضور وعصر الوسط.. كان يعطي معنى عصر المركز... ذلك المركز غير المرئي وغير المنتهك. ذلك الملك الذي يجب أن يقوم من جديد، البطل نفسه المنتقم والمصلح، لم تكن مجرد خيالات من ماضي، رومانسي، انتهى، بل كانت حقيقة أولئك الذين يقفون اليوم وحدهم ويمكنهم بشرعية أن يطلقوا على أنفسهم لقب الأحياء

(Julius Evola, Il mister del Graal, Roma, Edizioni Mediterranee, 1983, c.23 e Epilogo)

سأله بيلبو: أتقول إن الكأس المقدس أيضًا يدخل في هذا الموضوع؟

بالتأكيد. ولست أنا من يدعي هذا. لا أعتقد أن علي الاستفاضة في الشرح فيما يتعلق بأسطورة الجرال فأنا أتحدث مع أشخاص مثقفين. فرسان المائدة المستديرة، البحث الصوفي عن ذلك الشيء الثمين، والذي كان بالنسبة للكثيرين هو الكأس الذي فيه تم جمع دماء المسيح والذي نقله يوسف الرامي إلى فرنسا، وكان بالنسبة للبعض الآخر حجر ذو قدرات غامضة. عادة ما يظهر الجرال كضوء ساطع... فالأمر يتعلق برمز، رمز يرتبط بقوة ما، بمصدر طاقة رهيب. شيء يغزي، يشفي الجروح، يغشي البصر، يصعق... أشعة ليزر؟ فكر البعض في الحجر الفلسفي للسميائيين، ولكن حتى وإن كان الأمر كذلك: ماذا كان الحجر الفلسفي سوى رمز للطاقة الكونية؟ هناك كتابات لا حد لها حول هذا الموضوع، ولكن يمكن تمييز بعض العلامات المؤكدة وسط كل هذا. إذا قرأتم بارزيفال Parzival والذي ألفه ولفرام فون إيشينباخ Wolfram von Eschenbach سترون أن الكأس يظهر، وكأنه موضوع في حراسة فرسان المعبد في قلعة! هل كان إيشينباخ مبتدئًا؟ شخص غير حذر أعلن عن شيء كان لابد من إخفائه؟ ولكن هذا لا يكفي. إن ذلك الجرال الذي يحرسه فرسان المعبد كان يُعرف على أنه حجر ثمين سقط من السماء: لابيس إكسيليس. لا أحد يعرف إذا كان المقصود بذلك حجر من السماء، أو حجر آتيًا من المنفى. على كل حال كان شيئًا آتيًا من بعيد، واقترح أحدهم أنه يمكن أن يكون شهابًا. أما فيما يخصنا فإننا سنعتبره حجرًا. بغض النظر عن ماهية الجرال فإنه كان يرمز للهدف، أو لنهاية الخطة.

قلت: معذرة، حسب منطق الوثيقة، لابد وأن يلتقى الفرسان بالقرب أو فوق حجر ما وليس العثور على حجر.

غموض بسيط آخر، تجانس مضيء صوفي! بالتأكيد الميعاد السادس فوق حجر، وسنرى أين. ولكن على هذا الحجر، وبعد اكتمال الخطة وفتح الأختام الستة، سيعرف الفرسان أين يجدون الحجر! والذي هو أيضًا اللعبة الإنجيلية، أنت بطرس وعلى هذه الصخرة... على الصخرة تجدون الصخرة."

قال بيلبو: لابد أن الأمر كذلك، أرجوك استكمل، كازاوبون لا تقاطع باستمرار. فنحن شغوفون لمعرفة المزيد.

قال الكولونيل: إذن الإشارة الواضحة إلى الجرال جعلتني أفكر كثيرًا أن الكنز ربما يكون مستودعًا ضخمًا من المواد المشعة، ربما سقطت من كوكب آخر. لنتذكر على سبيل المثال، في الأسطورة، هل تذكرون الجرح الغامض الذي أصاب الملك أمفوراتيس. يبدو وكأنه عالم أشعة تعرض لأشعة ما أكثر مما ينبغي. وبالتالي لا يجب لمسه. لماذا؟ فلتفكروا في الانفعالات التي لابد قد شعروا بها عند وصولهم إلى شواطئ البحر الميت، فأنتم تعرفون بالتأكيد، أن مياهه ثقيلة إلى حد أنه يمكن السير عليها مثل الفلين. إنه بحر ذو قدرات علاجية. يمكن أن يكون قد اكتشفوا مستودعًا للراديوم أو اليورانيوم وأدركوا أنه لا يمكن الاستفادة منه على الفور. إن العلاقات بين الجرال وفرسان المعبد والكثاريين درسها علميًا ضابط ألماني قدير، وأتحدث هنا عن أوتو ران أحد أعضاء المخابرات السرية الألمانية، والذي كرس حياته للتأمل والدراسة حول الطبيعة الأوروبية والآرية للجرال ـ لا أريد أن أقول كيف ولماذا فقد حياته في عام ١٩٣٩، ولكن هناك من يؤكد... ولكن هل أستطيع أن أنسى ما حدث لإينجولف؟ على كل حال، يظهر لنا ران العلاقة بين الفروة الذهبية للآرغو وبين الجرال. من الواضح أنه توجد علاقة ما بين الجرال الصوفي للأسطورة والحجر الفلسفي (لابيس) وبين مصدر الطاقة الرهيب، والذي كان يتطلع إليه أتباع هتلر قبيل الحرب، وحتى النفس الأخير. لاحظوا أنه في إحدى نسخ الأسطورة يرى رفاق السفينة كأسًا، كأسًا بالفعل، يسبح فوق جبل العالم مع شجرة النور. يعثر رفاق سفينة الآرغو على الفروة الذهبية وتنتقل سفينتهم بفعل السحر إلى مجرة درب التبانة في السماء الجنوبية، حيث تتجلى الطبيعة المضيئة للإله الأبدي من خلال الصليب الجنوبي، والمثلث والهيكل. يرمز المثلث للثالوث المقدس، والصليب

للتضحية الإلهية للحب، والهيكل هو مائدة العشاء الأخير، والتي كانت تحمل كأس القيامة. إن الأصول الكلتية والآرية واضحة في كل هذه الرموز.

كان الكولونيل يبدو منطلقًا في تلك النشوة البطولية التي أطاحت بحياة عضو المخابرات السرية الألمانية، وكان لابد من جذبه إلى أرض الواقع.

سألته: والخلاصة؟

سيد كازاوبون، ألا ترى ذلك بنفسك؟ لقد تحدثنا عن الجرال كحجر لوسيفري وقريناه من صورة البافوميت. إن الجرال هو مصدر للطاقة، كان فرسان المعبد يحرسون سر مصدر ما للطاقة، وقاموا برسم خطتهم. أين يؤسسون مقارهم المجهولة؟ أين يا سادتي الأعزاء؟"

ونظر إلينا الكولونيل نظرة تآمرية، وكأننا نخطط لشيء ما سويًا: لدي خط ما يمكنني اتباعه، ربما يشوبه الخطأ، ولكنه مفيد. كاتب لابد وأنه قد استمع بالمصادفة إلى سر ما، الكاتب هو شارل لويس كاديه جاسيكور (وبالمصادفة عثرت على نسخة من كتابه في مكتبه إينجولف الصغيرة)، ألف كتابه عام 1797: Le tombeau de Jacques Molay ou le secret des conspirateurs à ceux qui veleut tout savoir والكتاب عن مقبرة جاك مولاي أو سر المتآمرين الراغبين في معرفة كل شيء. يؤكد الكتاب أن مولاي، قبل أن يموت، أسس أربعة محافل سرية، في باريس والنمسا، وفي ستكهولم ونابولي. كان هدف تلك المحافل الأربعة القضاء على كل الملوك وتحطيم سلطة البابا. أوافق على أن جاسيكور كان مبالغًا فيما ذكره، ولكنني انطلقت من فكرته لأصل إلى أين يمكن للفرسان أن يكونوا قد أقاموا بالفعل مقارهم السرية. لم أكن لأستطيع بالتأكيد أن أفهم ألغاز الرسالة إذا لم تكن لدي فكرة ما لتقودني. ولكن كانت لدي، وكانت مقنعة. مؤسسة على أدلة متعددة، بأن الأساس الروحي لفرسان المعبد كان مستوحى من الروحنيات الكلتية والدرويدية، تلك الروحنيات ذات النزعة الآرينية الشمالية، والتي يعرفها التراث بجزيرة أفالون، مقر الحضارة الأسطورية للشرق البعيد. وكما تعرفون حاول العديد من الكتاب تشبيه آفالون بحدائق الهيسبيريدس، أو ثول الأخيرة أو مثل مملكة كولشيس في أسطورة الفروة الذهبية. ليست مصادفة إذن أن يكون أعظم نظام للفرسان هو تويسون الذهبي، نظام الفروة الذهبية. وهو الشيء الذي يوضح معنى كلمة

قلعة في الرسالة، فالكلمة تشير إلى تلك القلعة الأسطورية، حيث كان فرسان المعبد يحرسون الجرال، ربما قلعة مونسالفالت الأسطورية.

توقف وكأنه يريدنا أن نتعلق بكل كلمة يقولها، وهذا ما فعلناه.

والآن لننظر إلى الوصية الثانية: على حراس الختم الذهاب إلى المكان الذي إليه ذهب أو ذهبوا من لهم علاقة ما بالخبز. والإشارة في حد ذاتها غاية في الوضوح، فالجرال هو الكأس الذي كان به دم المسيح والخبز هو جسده، والمكان الذي تم فيه تناول الخبز هو مكان العشاء الأخير في أورشاليم. من المستحيل التفكير أن فرسان المعبد لم يحتفظوا بمقر سري، حتى بعد غزو العرب مرة أخرى لأورشاليم. لابد أن أعترف أنني اضطربت في البداية، بسبب ذلك العنصر اليهودي في خطة تعتمد في عمقها على الميثولوجيا الأريانية. ولكنني عندئذ أدركت: نحن الذين مازلنا ننظر إلى المسيح على أنه جاء من الديانة اليهودية، لأن هذا ما علمته لنا كنيسة روما منذ البدء. ولكن عرف فرسان المعبد أن المسيح كان بالفعل أسطورة كلتية. إن الإنجيل كله عبارة عن رمز محكم الغلق: القيامة بعد التحلل في باطن الأرض، وما إلى ذلك. إن المسيح بكل بساطة هو إكسير السميائيين. بالإضافة إلى أن الجميع يعرفون أن الثالوث هو في حد ذاته مفهومًا كلتيًا، ولهذا قانون فرسان المعبد كله، والذي كتبه القديس برنارد الدرويدي، مليء برموز الرقم ثلاثة.

تناول الكولونيل رشفة أخرى من المياه. جرح صوته. :" والآن نصل إلى المرحلة الثالثة: الملجأ. الملجأ هو التبت."

ـ ولماذا التبت؟

ـ السبب الأول لأن إيشنباخ يذكر لنا أن الفرسان تركوا أوروبا وأخذوا الجرال إلى الهند. مهد الجنس الآرياني والملجأ هو أجارثا. لابد أنكم تعرفون شيئًا عن أجارثا، مقر ملك العالم، تلك المدينة الواقعة تحت الأرض، والتي منها يتحكم سادة العالم ويقودون تطورات التاريخ الإنساني. أسس فرسان المعبد أحد مراكزهم السرية هناك في عمق منبع روحانياتهم. ولابد أنكم تعرفون أيضًا العلاقة بين مملكة أجارثا والسيناركية...

ـ في الحقيقة، لا نعرف.

ـ ربما هذا أفضل، فمن الأسرار ما قتل. ولكن دعونا لا ننحرف عن موضوعنا الأساسي. على كل حال فأنتم تعرفون أن الأجارثا قد تأسست منذ حوالي ستة الآف عام، في بداية عهد كالي يوجا، والذي مازلنا نعيش فيه حتى الآن. كانت مهمة نظام الفرسان هو الحفاظ دائماً على الاتصال مع أجارثا، الصلة النشطة بين حكمة الشرق وحكمة الغرب. والآن يتضح المكان الذي سيتم فيه الاجتماع الرابع، في ملجأ درويدي آخر، في مدينة العذراء: كاتدرائية شارتر. من البروفان، تقع شارتر على الجانب الآخر من نهر السين، النهر الرئيسي في إيل دو فرانس.

كنا نشعر بالضياع التام، فقلت: لتتمهل قليلاً، ما علاقة شارتر بحكايتك عن الكلت والدرويد؟

ـ من أين تظن جاءت فكرة العذراء؟ إن أول عذارى ذكروا في أوروبا كانوا العذارى السود للكلتيين. في إحدى المرات، وهو مازال شاباً، كان القديس برنارد في كنسية سان فوارل ساجداً أمام العذراء السوداء هناك، ومن صدرها تساقطت ثلاث قطرات من اللبن، والتي سقطت على شفتي المؤسس المستقبلي لفرسان المعبد. لهذا السبب ظهرت الروايات حول الجرال لتخلق ستاراً للحملات الصليبية، والتي كان هدفها العثور على الجرال. إن البنديكتيين هم ورثة الكهنة الدرويد، الجميع يعرفون هذا.

ـ وأين هؤلاء العذارى السود الآن.

ـ تم تدميرها بواسطة قوى أرادت القضاء على التراث الشمالي والكلتي وتحويلها إلى ديانة شرق أوسطية من خلال إبداع أسطورة عذراء الناصرة. أو ربما تم إخفاء تلك العذارى، تشويهها، مثلما حدث لعذارى سوداوات أخريات، والتي مازالت تعرض وترتبط بجماعات ذات نزعات متعصبة. ولكن إذا فحصتم الصور في الكاتدرائية بدقة شديدة ممثلما فعل فولكانيللي، سترون أن تلك القصة قد رويت بوضوح شديد والعلاقة بين العذارى السلتيين والتراث السيميائي، وأصل فرسان المعبد، كل ذلك ظاهر بوضوح. إن العذراء السوداء ترمز للمادة الأولية التي يعمل على أساسها الباحثون عن الحجر الفلسفي ، والذي، كما رأينا، ليس سوى الجرال. والآن لنحاول التفكير من أين أتت فكرة الحجر الأسود في مكة لدى مؤسس آخر عظيم من الكهنة الدرويد. قام أحدهم في شارتر ببناء حائط أمام المغارة التي تقود إلى الجزء الأسفل، حيث لا يزال إلى الآن التمثال الوثني الأصلي، ولكن بالبحث جيداً مازال بالإمكان العثور على عذراء سوداء، نوتر دام دي لبلييه، والتي نحتها شماس أودينى. تمسك عذراء التمثال في يدها

بالأسطوانة السحرية للكاهنات العظيمات لكبير الآلهة أودين، وعلى يسارها نحت للتقويم السحري، والذي فيه كانت تظهر ـ للأسف أقول كانت تظهر حيث إنها لم تسلم من تخريب الشمامسة الأرثوذكس ـ الحيوانات المقدسة للنزعة الأودينية: الكلب والنسر، الأسد والدب الأبيض، والذئب. في الوقت نفسه لم يغب عن أبصار أي من تلاميذ الغوطية تمثال امرأة تحمل الكأس، الجرال في شارتر. آه يا سادتي، إذا كان فقط في الإمكان التوقف عن قراءة كاتدرائية شارتر تبعًا لكتب إرشاد السياح ـ كاثوليكية ورسولية ـ ولكن الذهاب ورؤيتها، رؤيتها بعين التراث! عندئذ ستتضح القصة الحقيقية التي قيلت عن صخرة إيريك في آفالون.

ـ وهو الأمر الذي يقودنا للبوبليكان. من كانوا؟

ـ الكاثاريون كان لقب "بوبليكان أو بوليكانت" يطلق على المهرطقين. لقد تم القضاء على كاثاريي بروفان، ولن أكون بالسذاجة لأفكر في ميعاد بين حطام قلعة مونسيغور، ولكن الفرقة نفسها لم تمت، بل توجد جغرافية كاملة للنزعة الكاثارية السرية، والتي منها ولد دانتي، والمنتمون لمدرسة الأسلوبية الجديدة (ستيل نوفيست)، وفرقة المخلصين للحب. إن الميعاد الخامس في مكان ما في إيطاليا الشمالية. أو فرنسا الجنوبية.

ـ والميعاد الأخير؟

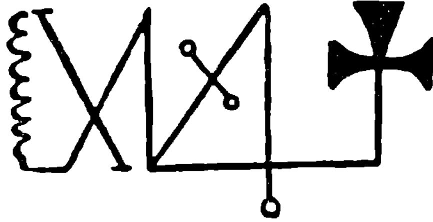
ـ ما هو الأقدم والأقدس، والأكثر ثباتًا بين الأحجار الكلتية، هيكل إله الشمس، المكان المفضل للرؤية والذي منه، بالوصول إلى نهاية الخطة، يمكن لأحفاد فرسان المعبد القادمين بعد أن يجتمعوا تبادل الأسرار المخبأة في الأختام الستة واكتشاف الطريقة التي بها يمكنهم الاستفادة من القدرة الهائلة التي يحصلون عليها بامتلاكهم الجرال المقدس؟ في إنجلترا بالطبع، إنها الدائرة السحرية لستونهيدج! وأين يمكن أين يكون سوى هناك؟

ـ آه توقف هنا! قال بيلبو. كان يمكن فقط لشخص تربى في بيومونتي أن يفهم الطريقة التي نطق بها بيلبو ذلك التعبير عن الدهشة المهذبة. لم يكن يوجد مثله فى اللغات أو اللهجات الأخرى ويعني (لا تقل لي!، قل إذن!، هل تمزح؟)، تلك القدرة الرائعة على التعبير عن عدم الاهتمام والنزعة القدرية، ولكن الكولونيل لم يكن من بيومونتي، وبدا أنه قد شعر بالإطراء من رد فعل بيلبو.

ـ أجل، بالفعل. هذه هي الخطة وهذا هو نظامها في بساطتها المذهلة وتماسكها. ولتلاحظوا أيضًا، إذا أمسكتم بخريطة أوروبا وآسيا، وخططتم خط التطور للخطة من

الشمال حيث تقع القلعة في أورشاليم، ومن أورشاليم إلى أجارثا ومن أجارثا إلى شارتر ومن شارتر إلى حدود البحر المتوسط ومنها إلى ستونهيدج، سينتج شكلاً كالتالي:

ـ سأل بيلبو: وهذا معناه؟



ـ معناه الرون نفسه الذي يصل بالفعل بعض المراكز الرئيسية السرية لفرسان المعبد: آمينز، ترويز ـ مقر القديس برنارد على حافة غابة أوريون ـ رايمز، شارتر، ران لو شاتو وفي النهاية مون سان ميشيل، مكان للعبادة الدرودية القديمة. والرون نفسه يستدعي تشكيل نجم العذراء.

ـ درست علم النجوم قليلاً، قال ديوتاليفي بخجل، وعلى ما أتذكر فإن تشكيل نجم العذراء مختلف، وهو مكون، حسبما أتذكر، من أحد عشر نجماً..."

ابتسم الكولونيل بتسامح ثم قال: سادتي، سادتي، أنتم تعرفون أكثر مني أن كل شيء يتوقف على كيفية رسم الخطوط، وأنه يمكن من خلالها الحصول على عربة أو على دب، كما تحبون، ومن الصعب تحديد إذا كانت نجمة ما تنتمي لمجموعة أو أخرى. لتجعل من سماك الأعزل النقطة الأسفل، للتوافق مع ساحل بروفان، واستخدم فقط خمسة نجوم، وسترى التشابه المدهش بين الشكلين.

قال بيلبو: يكفي أن يقرر المرء أي النجوم يستبعد.

ـ تماماً، أكد الكولونيل.

ـ ولكن، قال بيلبو، كيف يمكن استبعاد أن تلك اللقاءات قد حدثت بالفعل بانتظام، وأن الفرسان يتحركون بالفعل دون أن نعرف ذلك؟

ـ لأنني لا أجد أي دليل على ذلك، واسمح لي أن أضيف "للأسف". لم تكتمل الخطة بالتأكيد، وربما لم يعد للقائمين على تنفيذها وجود، إن مجموعات الست والثلاثين تفككت خلال كارثة عالمية ما. لكن يمكن لمجموعة من الرجال الشجعان إحياؤها من جديد إذا كانت لديهم المعلومات الصحيحة ليمسكوا ببداية الخطة. إن ذلك الشيء مازال في مكان ما، وأنا أبحث عن هؤلاء الرجال. لهذا أرغب في نشر الكتاب لاستنفار ردود الأفعال. في الوقت نفسه أحاول الاتصال مع أشخاص يمكنهم مساعدتي في البحث عن الإجابة في متاهات العلوم التراثية. اليوم قابلت أكبر خبير في هذا الموضوع. ولكن للأسف، على الرغم من أنه من المشاهير، لم يستطع أن يقول لي أي شيء، على الرغم من أنه مهتم كثيرًا بقصتي، ووعدني بكتابة المقدمة..."

اسمح لي، قال بيلبو، ألم يكن البوح بسرك لذلك الشخص يحتوي على شيء من المخاطرة؟ لقد قلت بنفسك ما حدث لإينجولف عندما أخطأ...

من فضلك، أجابه الكولونيل، كان إينجولف أخرق. من اتصلت به أستاذ جامعي فوق مستوى الشبهات، رجل لا يتسرع في أحكامه، اليوم على سبيل المثال طلب مني أن أنتظر قليلاً قبل أن أعرض عملي على ناشر، حتى أصل إلى حل في كل النقاط المثيرة للجدل... لم أرغب في إثارة تحفظه، فلم أذكر له أنني سآتي إلى هنا، ولكن لابد وأن تفهموا أنني بوصولي إلى هذه المرحلة بعد كل هذا التعب أشعر بالفعل بنفاذ الصبر. إن ذلك الشخص.. آه فليذهب الحرص إلى الجحيم... لا أريدكم أن تعتقدوا أنني أخترع قصصًا. فأنا أتحدث عن راكوسكي.."

توقف قليلاً في انتظار ردود الفعل.

أحبطه بيلبو وسأل: من؟

ـ ألا تعرف راكوسكي! إنه أحد أهم الشخصيات في دراسات التراث، إنه رئيس تحرير سلسلة كراسات الأسرار Cahiers du Mystère!

ـ بالفعل! قال بيلبو، نعم نعم الآن أتذكر...

ـ حسنًا! سأنتظر حتى أستمع لرأي هذا الباحث قبل أن أصيغ النسخة النهائية من كتابي، ولكنني أرغب في التحرك بأقصى سرعة ممكنة، وإذا كان في الإمكان التوصل إلى اتفاقية مع داركم في الوقت نفسه... كما سبق وذكرت لكم فأنا أتعجل إثارة ردود

الأفعال، وجمع المزيد من المعلومات.. بالتأكيد يوجد من يعرف شيئًا ولا يتكلم... يا سادتي في عام ١٩٤٤، وعلى الرغم من أن هتلر كان يعرف بأنه هُزم في الحرب، بدأ يتكلم عن سلاح سري يمكن أن يؤهله لقلب مقادير الأمور. قال الناس إنه مجنون". ولكن ماذا لو لم يكن مجنونًا؟ هل توافقونني؟ كانت جبهته قد بلت بالعرق وشارباه تسمرا وكأنهما شاربا قط. ثم قال: على كل حال، سألقي بالطعم وسنرى إذا كان هناك أحد سيقع فيه"

بالنسبة لما كنت أعرفه وأعتقده في بيلبو عندئذ، كنت أتوقع ذلك اليوم أن يقود الكولونيل للباب وهو يتلفظ ببعض العبارات المهذبة، إلا أنه قال: أعتقد أيها الكولونيل أن الأمر غاية في الإثارة، بغض النظر عما إذا كنت ستصل إلى اتفاقية معنا أم مع دار نشر أخرى. يمكنك المكوث عشر دقائق أخرى، أليس كذلك؟ ثم وجه حديثه لي وقال" بالنسبة لك يا كازاوبون لقد أخذنا الكثير من وقتك ، سأراك إذن في الغد،أليس كذلك؟

كان علي الانصراف إذن. تأبط ديوتالليفي ذراعي وقال إنه هو أيضًا سينصرف. تصافحنا. شد الكولونيل على يد ديوتالليفي بحرارة وحياني بحركة بإيماءة بسيطة تصطحبها ابتسامة باردة؟

بينما نترجل الدرج قال لي ديوتالليفي : لابد وأنك تتساءل الآن لماذا طلب منك بيلبو الانصراف. أرجو ألا تتضايق من ذلك. لابد وأن بيلبو سيقدم للكولونيل اقتراحًا للنشر سري للغاية. والتحفظ عند العقود من أهم أوامر السيد جاراموند. سأنصرف أنا أيضًا لكي لا أتسبب في أي إحراج.

ما أدركته فيما بعد أن بيلبو كان يحاول إلقاء الكولونيل بين براثن مانوتزيو.

استدرجت ديوتالليفي إلى بيلادي، حيث تناولت كمباري وتناول هو شراب الرواند. كان يبدو له شرابًا ملكيًا، قديمًا ويكاد يكون لفرسان المعبد.

سألته رأيه في الكولونيل.

أجاب: يتقدم لدور النشر كل المجانين في العالم. ولكن أحيانًا ما يظهر في أولئك المجانين بعض ملامح من الحكمة عالية المستوى، ويراقب الحكيم الجاهل بتواضع. ثم استأذن حيث لابد أن ينصرف وقال: في هذه الليلة لدى احتفالية.

قلت: حفلة؟

بدا مرتبكًا من عبثي وشرح لي: أتحدث عن الزوهار، هناك أجزاء كاملة غير مفهومة بعد.

(٢١)

إن الجرال ثقل في غاية الخطورة لا يمكن
لمخلوقات تقع فريسة للخطيئة تحريكه من
مكانه.
Wolfram von Eschenbach, Parzival, IX, 477

لم يعجبني الكولونيل ولكنه أثار اهتمامي. يمكن للمرء أن يتأمل ضفدعًا لفترة طويلة وبإعجاب. كنت قد بدأت أتجرع نقاط السم الأولى التي ستقودنا جميعًا للهلاك.

عدت إلى بيلبو في ظهيرة اليوم التالي وتحدثنا قليلاً عن زائرنا. قال بيلبو إنه بدا له مجنونًا بالأساطير: هل رأيت كيف يستشهد بروكوسكي أو روستروفيتش هذا وكأنه كانط؟

قلت: ولكنها كلها حكايات قديمة، كان إينجولف مجنونًا ليصدقها، والكولونيل مجنون لأنه صدق إينجولف.

ـ ربما كان يصدق كل هذا بالأمس أما اليوم فهو يفكر في شيء آخر. سأقول لك، بالأمس قبل أن أتركه أخذت له ميعاد هذا الصباح مع... مع ناشر آخر، ناشر يستوعب كل شيء، على استعداد لنشر كتب يدعمها مؤلفوها. بدا عليه الحماس الشديد. وعلى الرغم من ذلك عرفت منذ قليل أنه لم يذهب إلى الميعاد. بل وترك لي هنا نسخة من البحث، انظر. إنه يترك خلفه سر الفرسان وكأنه لا شيء. هذا حال تلك الشخصيات."

في تلك اللحظة دق جرس التليفون. أجاب بيلبو: "أجل، أنا بيلبو. وهذه دار نشر جاراموند، عمت صباحًا، كيف يمكنني مساعدتك... نعم، كان هنا بالأمس ليعرض علي كتابه. اعذرني، الأمر خاص وليس مسموح لي الكلام.. إذا قلت لي..."

استمع لبضع ثوان، ثم نظر إلي وقد شحب وجهه، وقال لي: "قتلوا الكولونيل، أو شيء من هذا القبيل" ثم عاد لمحدثه: معذرة كنت أنقل الخبر لكازاوبون، أحد مساعدي وكان موجودًا معي بالأمس أثناء زيارة الكولونيل... إذن أتى الكولونيل أردنتي بالأمس ليتحدث معنا عن مشروعه، قصة أراها خيالية للغاية، عن كنز مزعوم لفرسان المعبد. فرسان من العصور الوسطى.

وبحركة تلقائية غطى السماعة بيده، وكأنه يحاول عزل المتحدث، ثم رأى أنني أنظر إليه، فأبعد يده وتحدث ببعض من التردد: "لا يا سيد دي أنجيليس، تحدث الكولونيل عن كتاب يرغب في تأليفه، ولكن بطريقة غامضة... ماذا؟ نحن الاثنين؟ الآن؟ أعطني العنوان إذن".

وضع السماعة، ومكث في صمت لوهلة، منغمًا بأصابعه على المكتب: كازاوبون، اعذرني، دون أن أفكر جذبتك أنت أيضًا معي في هذا الأمر. كان الأمر كله مفاجأة بالنسبة لي. كان المتحدث من المباحث، شخص يدعى دي أنجيليس، يبدو أن الكولونيل كان يسكن في شقة في فندق ويقولون إنهم وجدوه مقتولاً ليلة أمس..."

- يقولون؟ ما معنى ذلك؟ ألا يعرف ضابط المباحث ما حدث بالضبط؟

"يبدو الأمر غريبًا! ولكن مفتش المباحث لا يعلم. يبدو أنهم قد عثروا على اسمي وميعاد الأمس مكتوبًا في أجندة مواعيده. أعتقد أننا الخيط الوحيد لديهم. لنذهب"

استدعينا سيارة أجرة. أثناء الرحلة أمسكني بيلبو من ذراعي وقال: كازاوبون، ربما يتعلق الأمر بمجرد صدفة. ربما يكون ذهني مشوشًا، ولكن من البلدة التي جئت منها هناك قول مأثور: "مهما فعلت، لا تتفوه باسم أحد." عندما كنت صبيًا، كنت معتادا على الذهاب لمشاهدة مسرحية الميلاد، والتي كانت تُقدم بلهجة بلدتنا. كانت كوميديا تقية، فيها لم يكن الرعاة يعرفون إذا كانو في بيت لحم أم في تانارو، القريبة من وادي البو. وصل المجوس وسألوا أحد الصبية الرعاة عن اسم معلمه، أجابهم الصبي: جيليندو. عندما علم جيليندو بما حدث، ضرب الصبي ضربًا مبرحًا وقال له: إياك وأن تصرح باسم أي شخص مرة أخرى. على كل حال، إذا كان في الإمكان، فالكولونيل لم يذكر قط إينجولف ولا رسالة بروفان.

قلت وأنا أحاول الابتسام: لا نرغب في أن نلقى مصير إينجولف المجهول.

كما قلت الأمر كله غير معقول، ولكن هناك بعض الأشياء من الأفضل استبعادها.

وعدت بأنني سأفعل ما طلبه، ولكنني كنت عصبيًا. في النهاية لم أكن سوى طالب شارك في بعض المظاهرات، وكانت الشرطة تثير ضيقي. وصلنا إلى الفندق ـ لم يكن من أفضل الفنادق ـ في أحد الضواحي. أرسلونا على الفور إلى أعلى إلى ما يطلقون عليه شقة الكولونيل أردنتي. كان بعض رجال الشرطة يقفون على الدرج. أدخلونا إلى

غرفة رقم ٢٧ ـ فكرت: اثنان زائد سبعة تسعة. كانت الغرفة عبارة عن حجرة نوم، ردهة بها مائدة صغيرة، مطبخ صغير، حمام بدش، ولم تكن هناك ستائر. ومن خلال الباب الموارب لم أستطع رؤية إمكانية وجود بيديه في الحمام، على الرغم من أن ذلك ربما يكون المطلب الوحيد المريح للضيوف. كان هناك بعض الأثاث القديم، لم تكن هناك الكثير من اللمسات الشخصية، ولكن ما كان موجودًا كان في حالة من الفوضى. شخص ما فتش الدواليب والحقائب. ربما قام بذلك البوليس نفسه، فقد كان هناك حوالى اثني عشر منهم، ومن بينهم أشخاص بملابس مدنية.

تقدم إلينا شخص يبدو صغير السن، شعره طويل: أنا دي أنجيليس. د. بيلبو؟ د. كازاوبون؟

ـ لست دكتورًا بعد، مازلت أحاول التخرج.

ـ حسنًا فعلت، استمر. بلا درجة لن يمكنك الالتحاق بامتحان الشرطة، ولا تعلم ماذا ستفقد. كان الغضب يبدو عليه.

ـ معذرة، دعونا نتخلص من المقدمات. إن هذا جواز سفر الرجل الذي أجر هذه الغرفة. لقد سجل نفسه باسم الكولونيل أردنتي، هل تعرفانه؟

قال بيلبو: هذا أردنتي، ولكن هل يمكنك أن تقول لنا ماذا يحدث هنا؟ مما سبق وقلته في الهاتف، لم أفهم جيدًا إذا كان قُتل أم...

قال دي أنجيليس بغضب: سيسعدني كثيرًا إذا استطعت أن تقول لي أنت هذا. ولكن لا بأس، يمكن أن يكونوا لكم الحق في معرفة المزيد. إن السيد أردنتي ـ أو الكولونيل أردنتي ـ أجر هذا المكان منذ أربعة أيام. وربما لاحظتم أن المكان ليس كبيرًا. يذهب موظف الاستقبال للنوم في الساعة الحادية عشرة، لأن الضيوف لديهم مفتاح للباب الأمامي. هناك خادمتان تأتيان في الصباح لتنظيف الحجرات، وهناك مسن سكير يعمل كبواب ويأخذ الكحوليات إلى حجرات الضيوف إذا دقوا الجرس. ليس سكيرًا فقط، ولكنه مصاب بتصلب الشرايين أيضًا. كانت محاولة استخلاص أي معلومات منه معقدة للغاية. يقول موظف الاستقبال إنه يرى أشباحًا ويخيف النزلاء. ليلة أمس رأى الموظف أردنتي، وقد عاد في حوالي العاشرة ومعه رجلان. في هذا المكان لا يهتم أحد إذا اصطحب المرء جيشًا من المتشبهين بالنساء معه ما بالك برجلين بديا طبيعيين، إلا

أنه تبعًا للموظف كانت لهجتما أجنبية. في العاشرة والنصف استدعى أردنتي المسن السكير وطلب منه إحضار زجاجة ويسكي، وزجاجتي مياه معدنية وثلاثة أكواب. في الواحدة أو الواحدة والنصف، سمع السكير شخص يدق الجرس بإصرار من الحجرة ٢٧، ومما رأيت هذا الصباح، يبدو أنه كان قد تجرع بعض الكئوس قبلها، من مشروب رديء بالتأكيد. على كل حال، صعد الشيخ إلى الحجرة وطرق الباب، لم يرد أحد، فتح الباب بالمفتاح الرئيسي، وجد كل شيء وقد تبعثر كما هو حاله الآن. كان الكولونيل راقدًا على فراشه وسلك ملفوف حول عنقه، وعيناه تحدقان. جرى المسن إلى أسفل وأيقظ موظف الاستقبال، ولكن لم يشعر أي منهما بالرغبة في الصعود مرة أخرى إلى أعلى. حاولا استخدام الهاتف، ولكنه كان به عطل ما. هذا الصباح كان الهاتف يعمل كالمعتاد، ولكنني سأصدق ما قالاه عن الأمس. جرى الموظف إلى الخارج ليستدعي البوليس من تليفون عمومي بالخارج، بينما عرج المسن وعبر الشارع وصولاً إلى منزل طبيب. باختصار، ابتعدا لمدة حوالي عشرين دقيقة. بعد عشرين دقيقة، عادا ومازال الخوف يملأهما ولم يرغبا في الصعود. وصل الطبيب في الوقت نفسه الذي وصلت فيه الشرطة وصعد معهم إلى الحجرة ٢٧، ولم يكن هناك أحد فوق الفراش.

سأله بيلبو: ماذا تعني لم يكن هناك أحد؟

لم تكن هناك أي جثة. ذهب الطبيب إلى منزله، ولم يجد زملائي سوى ما هو أمامنا الآن. قاما بالتحقيق مع عامل الاستقبال والبواب، وكانت النتائج التي ذكرتها لكما. أين كـ ن الشخصان اللذان صعدا مع أردنتي هل خرجا قبل الساعة الحادية عشرة؟ لم يكن أحد سيلحظ ذلك. هل كانا مازالا في الحجرة عندما صعد إليها المسن؟ من يدري، فهو لم يمكث سوى دقيقة واحدة ولم يحاول أن يقترب من الحمام أو من المطبخ الصغير. هل يمكن أن يكونا قد خرجا عندما ذهب البائسان للبحث عن النجدة حاملين الجثة معهما؟ لن يكون الأمر مستحيلاً، حيث إن هناك درجًا خارجيًا ينتهي في الردهة، ومنه يمكن الخروج من الباب الرئيسي الذي يطل على شارع جانبي.

ولكن الأهم، هل كانت هناك جثة بالفعل، أم أن الكولونيل كان قد خرج في منتصف الليل مثلاً مع هذين الشخصين، والحكاية كلها من تخيلات المسن؟ يقول الموظف إنها لن تكون المرة الأولى التي يتخيل فيها المسن أشياء لا وجود لها. منذ بضع سنوات قال إنه رأى إحدى النزيلات، وقد شُنقت عارية في حجرتها، ولكن بعد ذلك بنصف ساعة

حضرت المرأة، منتعشة كالزهرة، وعثروا فوق أريكة المسن على إحدى المجلات الجنسية. من يدري؟ ربما كان قد ذهب ليختلس النظر من فجوة المفتاح ورأى ستارة تتأرجح في الظل. الشيء الوحيد المؤكد هو أن أردنتي قد اختفى وتم تفتيش هذه الحجرة.

لقد تحدثت كثيرًا، الآن جاء دورك يا دكتور بيلبو. الأثر الوحيد الذي وجدناه هي ورقة صغيرة كانت على الأرض بجوار هذه المائدة الصغيرة، مكتوبًا عليها: الساعة الثانية، فندق برنشيبي وسافويا، السيد راكوسكي، الساعة الرابعة، جاراموند، الدكتور بيلبو. وأكدت لي بنفسك أنه قابلك بالفعل. هل يمكن أن تقول لي ماذا حدث.

(٢٢)

لم يكن فرسان المعبد يرغبون في أن
يطرحوا عليهم المزيد من الأسئلة.

Wolfram von Eschenback, Parzival,)
XVI, 819)

حكى بيلبو ما حدث بإيجاز؛ كرر عليه كل ما سبق وذكره في الهاتف دون الخوض في مزيد من التفاصيل. ذكر أن الكولونيل قص علينا قصة غامضة، قال فيها إنه عثر على آثار كنز ما في بعض الوثائق التي عثر عليها في فرنسا، ولم يذكر الكثير من التفاصيل عن هذا الأمر. كان يعتقد بأنه قد عثر على سر خطير، وأراد أن يعلن هذا السر على الملأ في أقرب فرصة، حتى لا يكون الوحيد الذي يعرفه. ذكر أيضًا واقع أن هناك آخرين قبله، بمجرد معرفة توصلهم لهذا السر قد اختفوا في ظروف غامضة، وكان سيطلعنا على الوثائق فقط في حالة ما إذا كنا تعاقدنا معه على النشر. لكن لم تكن في استطاعة بيلبو ضمان أي تعاقد دون الاطلاع على الوثائق، واتفقا على لقاء آخر لم يتحدد. تحدث الكولونيل أيضًا عن لقاء مع شخص يدعى راكوسكي، وقال إنه مدير سلسلة "كراسات الأسرار". كان يرغب في أن يكتب له مقدمة كتابه. ويبدو أن راكوسكي نصحه بتأجيل النشر. ولم يقل له الكولونيل إنه سيذهب إلى الجاراموند. وإن هذا كل ما حدث.

قال دي أنجيليس: حسنًا، ما هو الانطباع الذي تركه لديكم.

ـ بدا لنا غريبًا، وتحدث بنوع من الحنين عن ماضيه وعن فترة قضاها في الكتيبة الأجنبية.

ـ لقد قال لكما الحقيقة، وإن لم تكن كاملة. لقد وضعنا أعيننا عليه، ولكن في حدود. لدينا الكثير من تلك القضايا... لم يكن اسمه الحقيقي أردنتي، ولكن كان لديه جواز سفر فرنسي حقيقي. عاد للظهور على فترات متقطعة في إيطاليا منذ بضعة أعوام، وتطابقت هويته ـ دون أي إثبات ـ مع شخص يدعى الكابتن أركوفاجي كان قد

حكم عليه غيابيًا بالإعدام عام ١٩٤٥، بتهمة التآمر مع قوات الإس إس الألمانية لإرسال بعض الأشخاص إلى داشو. وفي فرنسا أيضًا كانوا يراقبونه، وأفلت من حكم بالاحتيال بأعجوبة. ونفترض ـ مجرد افتراض ـ بأنه الشخص نفسه الذي يدعى فاسوتي الذي أبلغ عنه صاحب صناعة صغيرة في بيسكييرا بوروميو العام الماضي. لقد أقنعه بأن كنز دونجو يوجد في بحيرة كومو، وأنه استطاع التعرف على المكان، بل يكفي بعض العشرات من ملايين الليرات وغواصين ومركب بموتور للعثور عليه. وبمجرد أن حصل على النقود اختفى. والآن تؤكدان لي أنه كان لديه بالفعل جنون البحث عن الكنوز.

ـ وماذا عن راكوسكي؟ سأل بيلبو.

ـ تحرينا عن ذلك بالفعل. أقام شخص يدعى راكوسكي فلاديمير في فندق برينشيبي و سافويا، وتم تسجيله بجواز سفر فرنسي. يصفونه كشخص غامض، وصفًا يشبه قليلاً ما أعطاه لنا موظف الاستقبال في وصف أحد ضيوف الكولونيل. عن طريق شركة الطيران الإيطالية عرفنا أن اسمه موجود على الطائرة التي غادرت صباح اليوم إلى باريس. طلبت من الإنتربول التدخل. آنونسياتا، هل وصلت أي أخبار من باريس؟

ـ ليس بعد يا سيدي.

ـ إذن حضر الكولونيل أردنتي، أو أيًا كان اسمه، إلى ميلانو منذ أربعة أيام، لم نعرف ماذا فعل في الأيام الثلاثة الأولى. بالأمس في الساعة الثانية قابل المدعو راكوسكي في الفندق، ولم يقل له إنه ذاهب لمقابلتكم، ويبدو هذا لي مثيرًا للأهمية. في المساء يعود إلى هنا، وربما يكون معه المدعو راكوسكي وشخص آخر... وبعد ذلك يصبح كل شيء غامضًا. حتى إن لم يكونا قد قتلاه، بالتأكيد فتشا الشقة. عما كانا يبحثان؟ في السترة، وهذا شيء آخر، إذا كان قد خرج فلابد أن يكون قد خرج بقميص، فالسترة التي بها جواز السفر مازالت في الحجرة، ولمن هذا لا يبسط الأمر، لأن المسن قال إنه كان ممددًا على فراشه مرتديًا سترته، ولكن ربما كانت سترة يرتديها في الحجرة، يا إلهي، يبدو لي هنا أنني أتحرك في قفص للمجانين. كنت أقول عن السترة إن بها الكثير من النقود، بل والكثير جدًا... إذن فهم كانوا يبحثون عن شيء آخر. والفكرة الجيدة الوحيدة أتتني منكم. قلتما إن الكولونيل كانت معه وثائق، ماذا كان شكلها؟

ـ كان معه في يده ملف بني اللون، قال بيلبو.

ـ لا بل كان أحمر اللون، قلت.

ـ بني، أصر بيلبو، ولكن ربما أكون مخطئًا.

ـ بني أو أحمر، لا يهم، قال دي أنجيليس، لا يوجد شيء هنا. إن من كانا هنا مساء الأمس أخذاه معهما. إذن لابد لنا وأن نبحث حول هذا الملف. في رأيي لم يكن أردنتي يرغب في نشر أي كتاب. لقد جمع بعض المعلومات ليبتز راكوسكي، وحاول التوصل إلى علاقات مع ناشرين كعنصر للضغط. هذا أسلوبه. ومن هنا يمكن أن نتوصل لافتراضات أخرى. يهدده الاثنان، يشعر أردنتي بالفزع ويهرب ليلاً تاركًا كل شيء، آخذًا معه الملف فقط. وربما، لا أحد يعرف السبب، يجعل العجوز يعتقد أنه قد تم اغتياله. ولكن يبدو كل شيء كرواية ولا يفسر حالة الغرفة المبعثرة. ومن جهة أخرى إذا كان الاثنان قد اغتالاه وسرقا الملف، لماذا يسرقان الجثة أيضًا؟ سنرى. المعذرة ولكن لابد لي وأن أطلب منكما إثبات للشخصية.

أخذ يلف مرتين في يده بطاقتي الجامعية: طالب فلسفة؟

قلت: أجل، هناك الكثير منا.

ـ الكثير جدًا. إذن فأنت تدرس فرسان المعبد... إذا كنت أرغب في معرفة المزيد عنهم، ماذا يجب علي أن أقرأ؟

اقترحت عليه كتابين معروفين، ولكن جادين. قلت له إنه سيجد معلومات موثوقًا بها حتى مرحلة المحاكمة، ولكن ما كُتب عن الفترة التالية لذلك هراء.

قال: أفهم ما تقول، والفرسان أيضًا، مجموعة منشقة لم أعرفها بعد.

وصلت أنونسياتا ومعها تلغراف: ها هو رد باريس يا سيدي.

قرأ: رائع، المدعو راكوسكي مجهول في باريس، بل ورقم جوازه يتفق مع رقم جواز سُرق منذ عامين. والآن كل شيء في مكانه. لا وجود للمدعو راكوسكي. قلت إنه مدير سلسلة ما، ما اسمها؟ ثم كتب الاسم. لنحاول، ولكنني أراهن أن المجلة لن يكون لها وجود أيضًا، أو ربما توقفت عن الإصدار منذ فترة. حسنًا يا سادتي، أشكركما على تعاونكما، ربما أزعجكما مرة أخرى. آه، سؤال أخير: هل فهمت من هذا الأردنتي بطريقة أو بأخرى أن له اتصالاً بمجموعات سياسية؟

قال بيلبو: لا، كان يبدو أنه قد ترك السياسة بحثًا عن الكنوز.

ـ وعن ألعاب الثقة. ثم وجه حديثه إلي: يبدو أنه لم يعجبك كثيرًا.

قلت: لا تعجبني مثل هذه الشخصيات، ولكنني بالتأكيد لن أفكر في أن أخنقه بسلك. ربما نظريًا فقط.

ـ بالتأكيد، الأمر لا يستحق كل هذا العناء. اهدأ يا سيد كازاوبون، أنا لست من رجال الشرطة الذين يعتقدون أن كل الطلبة مجرمون. وحظ سعيد أيضًا في رسالتك.

ـ سأله بيلبو: اسمح لي، سؤال بدافع الفضول فقط، هل أنت من قسم الجرائم أم السياسة؟

ـ سؤال وجيه. زميلي من قسم الجرائم كان هنا بالأمس، وعندما توصل لبعض المعلومات عن أردنتي في الملفات قرر تحويل ملف القضية لي. أجل أنا من البوليس السياسي. ولكنني الآن لست متأكدًا من أنني الرجل المناسب لهذه القضية. الحياة ليست بالبساطة التي في كتب المغامرات البوليسية.

قال بيلبو وهو يومئ برأسه: بالفعل.

غادرنا وكنت مازلت أشعر بالاضطراب. ليس بسبب دي أنجيليس الذي بدا شخصية لطيفة إلى حد كبير، ولكن لأنها المرة الأولى لي في حياتي التي أجد فيها نفسي متورطًا في موقف مريب. لقد كذبت، وبيلبو أيضًا.

افترقنا أمام باب الجاراموند، وكنا نحن الاثنين نشعر بالحرج. قال بيلبو بنبرة دفاعية: لا أعتقد أننا ارتكبنا أي خطأ، لم تكن ستفرق في شيء لدى الشرطة معرفة أي شيء عن إينجولف أو الكاثاريين. كانت كلها تخاريف على أية حال. ربما اختفى أردنتي لأي سبب آخر، يمكن أن يكون هناك ألف سبب. ربما كان راكوسكي عميل للبوليس السري الإسرائيلي يصفي حساباته القديمة. ربما أرسله إحدى الشخصيات المهمة خدعها الكولونيل، أو ربما كانا يخدمان معا في القوات الأجنبية وبينهما حقد قديم. ربما كان راكوسكي سفاحًا من الجزائر، وحكاية فرسان المعبد ليست إلا جزءًا صغيرًا من حياة الكولونيل. أعلم أن حقيبة الأوراق قد اختفت، سواء كانت حمراء أم بنية اللون. بالمناسبة كان اختلافك معي على لون الحقيبة شيئًا حسنًا: أكد أننا لم نلق عليها سوى نظرة سريعة.

لم أقل شيئًا، ولم يعرف بيلبو كيف يختتم حديثه.

ـ ستقول إنني هربت مرة أخرى مثلما حدث في مظاهرة شارع لارجا.

ـ هراء، لقد فعلنا الصواب، سأراك قريبًا.

كنت أشعر بالأسى له، لأنه كان يشعر بأنه جبان. ولكنني لم أكن أشعر بذلك، فقد علمونا في المدرسة أن عند التعامل مع رجال الشرطة لابد وأن نكذب. مسألة مبدأ. ولكن الحقيقة أن الشعور بالذنب يلوث الصداقة.

لم أر بيلبو لفترة طويلة بعد ذلك. كان يذكرني بضميري وأنا أذكره بضميره.

أخذت أعمل في رسالتي عامًا آخر وأنتجت مائتي وخمسين ورقة مكتوبة على الآلة الكاتبة عن محاكمة فرسان المعبد. وفي تلك الفترة أدركت أن طالب الدراسات العليا أقل إثارة للشكوك من الطالب الجامعي. كانت تلك هي الأعوام التي فيها تعد مناقشة رسالة جامعية دليلاً على إخلاص إضافي للدولة، وبالتالي يُعامل المرء باحترام.

في الشهور التالية لذلك، بدأ بعض الطلبة في استخدام المسدسات. وكانت أيام المظاهرات الجماعية في الهواء في الطرقات قد أوشكت على الأفول.

كنت بعيدًا عن المثاليات، وكان لدي عذري، لأن حبي لأمبارو كان مثل الوقوع في حب دول العالم الثالث. كانت أمبارو جميلة وماركسية، برازيلية ومتحمسة، كانت متحررة. كانت لديها منحة دراسية ودم مختلط بروعة، كان لديها كل هذا في الوقت نفسه.

قابلتها في حفلة، وتصرفت باندفاع، قلت لها: من فضلك، أريد فعل الحب معك؟

ـ يالك من ذكوري حقير.

ـ انسي ما طلبته الآن.

ـ مستحيل. فأنا أيضًا نسوية حقيرة.

كانت عائدة إلى البرازيل ولم أرغب في أن أفقدها. ساعدتني على الاتصال بجامعة ريو، حيث كان قسم اللغة الإيطالية يبحث عن مدرس. عرضوا علي عقدًا مدته سنتان قابلاً للتجديد. لم أكن أشعر في إيطاليا أنني في وطني على أية حال، فقبلت. وقلت لنفسي إنني في هذا العالم الجديد لن أصطدم بأي فارس من فرسان المعبد بالتأكيد.

كنت مخطئًا، هذا ما كنت أردده لنفسي مساء السبت وأنا مختبئ في حجرة المنظار. كان صعود درجات مكتب الجاراموند بمثابة الدخول إلى القصر. كان ديوتالليفي يردد أن بيناه هو القصر التي بناه حوخمة عندما بدأ الانتشار من نقطته البدائية. إذا كان حوخمة هو المصدر، فإن بيناه هو النهر الذي يجري نابعًا منه، فاصلاً بين فروعه المختلفة حتى تصب جميعها في البحر الأعظم للسفيراه الأخير. ولكن في بيناه تشكلت بالفعل كل الأشياء.

(٤١)

Hesed

سيشيد

(٢٣)

إن التماثل بين الأضداد هو العلاقة بين
الضوء والظل، القمة والقاع، الامتلاء والفراغ.
المجاز، أم كل المبادئ، هو استبدال الختم
بالبصمة، الظلال بالواقع، إنها أكذوبة الحقيقة،
وحقيقة الأكذوبة.

Eliphas Levi, Fogme de la haute)
magie, Paris, Baillère, 1856, xxii, 22)

ذهبت إلى البرازيل بدافع حبي لأمبارو، ومكثت فيها بدافع حبي للبلد نفسها. لم أفهم قط كيف أن أمبارو، حفيدة الهولنديين الذين استقروا في راسيف، وتزاوجوا مع الهنود أو الزنوج السودانيين ـ بوجهها الجامايكي وثقافتها الباريسية، لها اسم إسباني. لم أفهم قط من أين جاءت الأسماء البرازيلية، فهي تتحدى كل معاجم الأسماء، وتوجد فقط في البرازيل.

قالت لي أمبارو إنه في نصف العالم الخاص بهم، عندما تصرف الماء في الحوض فإن الكمية الأخيرة تدور بعكس عقارب الساعة، بينما في إيطاليا تدور في اتجاه عقارب الساعة، أو ربما كان العكس هو الصحيح، لم أنجح قط في اكتشاف الحقيقة. ليس فقط لأنه لم يسبق لأحد، في نصف الكرة الخاص بنا، أن اهتم بالنظر ليرى في أي اتجاه تدور المياه أثناء الصرف، بل أيضًا لأنه بعد عدة تجارب مختلفة في البرازيل أدركت أنه من الصعب معرفة ذلك. فعملية الشفط سريعة جدًا وتصعب دراستها، ويعتمد اتجاه سريانها جزئيًا على قوة وزاوية التدفق وأيضًا على شكل الحوض أو الصنبور. ثم إذا كان هذا حقيقيًا ماذا سيكون الوضع عند خط الاستواء؟ هل تتدفق المياه عمودية إلى أسفل أم لا تُصرف قط؟

في ذلك الوقت لم أتوقف كثيرًا أمام هذه المسألة، ولكن ليلة السبت في غرفة المنظار أدركت كيف أن كل شيء يعتمد على تيارات الكهرباء الأرضية التي يخفي البندول سرها.

كان إيمان أمبارو راسخًا. كانت تقول لي: لا يهم ما يحدث في الحالات التجريبية. إنه مبدأ مثالي يمكن التحقق منه فقط في ظروف مثالية، وبالتالي لا يمكن التحقق منه قط، ولكنه حقيقي.

في ميلانو كانت أمبارو تبدو مطمعا للكثيرين لتحررها، ولكن في البرازيل بالتفاعل مع كيمياء أهل بلدها أصبحت مراوغة، شخصية كثيرة الرؤى قادرة على التصرف بعقلانية. كنت أشعر كيف تثيرها انفعالات قديمة، كانت حريصة على التحكم فيها، ولكن كان الزهد، الذي يدفعها لرفض كل تلك الإغراءات، مثيرًا للشفقة.

استطعت أن أرى تناقضاتها الكثيرة عندما رأيتها تتناقش مع رفاقها. كانت اجتماعاتهم في منازل حقيرة، مزينة بقليل من اللوحات والكثير من الأدوات الفلكلورية، صور لينين، تعويذات الهنود الأمريكان، تماثيل لوجوه الكانجاسيروس، الخارجين عن القانون، من النخار. لم أصل إلى البرازيل في أفضل الفترات السياسية، وبعد تجربتي في وطني، قررت أن أتحرر من الأيديولوجيات، وخاصة هناك، حيث لم أكن أفهم أي شيء. زادت مناقشات رفاق أمبارو من شعوري هذا، ولكنها في الوقت نفسه أثارت بداخلي نوعًا جديدًا من الفضول. كانوا، بالطبع، جميعًا من الماركسيين، ولأول وهلة يبدو وأنهم يتحدثون تقريبًا مثل ماركسي أوروبا، ولكنهم كانوا يتحدثون عن شيء مختلف، وفجأة وأثناء الحديث عن الصراع الطبقي كانوا يتحدثون عن "الكانيبالية البرازيلية" أو عن الدور الثوري للعبادات الأفرو أمريكية.

وعندما كنت أستمع إليهم يتحدثون عن تلك العبادات اقتنعت أن حركة الدوران الأيديولوجي هناك هي التي تتحرك في اتجاه مضاد. كانوا يصفون بانوراما هجرة داخلية للعاملين من الذين ينزحون من الشمال ويذهبون إلى الجنوب الصناعي، هناك يصبحون طبقة أقل من الطبقة العمالية في مدن صادمة بالتلوث ثم يعودون يائسين بعد ذلك إلى الشمال، ليكرروا رحلتهم تجاه الجنوب في الدورة التالية. الكثيرون داروا حول المدن الكبيرة أثناء تلك الترددات، وابتلعهم كثرة الكنائس الأهلية، عبدوا الأرواح، وتضرعوا للآلهة الإفريقية... وهنا كان رفاق أمبارو منقسمين: البعض اعتبر ذلك عودة إلى الجذور، طريقة لمناهضة العالم الأبيض، وآخرون اعتبروا أن هذه العبادات هي الأفيون الذي به توقف الطبقة الحاكمة إمكانية حدوث ثورة عظيمة الأثر من الحدوث، واعتبر جزء آخر منهم أنه في هذه العبادات ينصهر في بوتقة واحدة البيض مع الهنود مع السود، لأي غرض؟ لم يكن هذا واضحًا. حددت أمبارو وجهة نظرها: الدين كان دائمًا هو أفيون الشعوب، والعبادات المنتمية للقبائل كانت أسوأ من الدين. ولكن عندما أمسكتها من وسطها في رقصة سلم السامبا، عند انضمامنا لصفوف الراقصين،

والذين كانوا يرسمون حركات حلزونية على الإيقاعات غير المحتملة للطبول أدركت أنها تنضم لذلك العالم بعضلات بطنها، وبقلبها، برأسها وجميع حواسها... بعد ذلك كانت هي أول من قدم تحليلاً مريرًا ساخرًا للطقوس ذات الطابع الماجن للديانات، والذي يؤدى ببطء وبإخلاص أسبوع بعد آخر، وشهر يلي الآخر لطقوس الكرنفال. وتضيف في نوع من الاحتقار الثوري: والشيء نفسه لممارسة السحر، مثل طقوس السحرة التي يمتد فيها الطاقة والشعور بالثورة لمن لم يرثها، ممارسًا الوصفات السحرية والتعاويذ ليحصل على موت القوى السوداء المعارضة من كل الآلهة الممكنة في العالم، وهم في غياب تام عن الدولة التي أرادت أن تحفظهم في حالة النشوى المتحمسة، في عالم اللاواقع.

بمرور الوقت فقدت معنى الاختلاف، وكذلك اعتدت تدريجيًا على عدم محاولة التعرف على الأجناس في ذلك الكون من الوجوه التي تحكي قصص التهجين الفوضوي التي تمت عبر مئات السنين. تنازلت عن محاولة معرفة أين يكمن التطور، وأين الثورة، أو أن أرى المؤامرة ـ كما يعبر رفاق أمبارو ـ التي تحيكها الرأسمالية. كيف يمكنني أن أحتفظ بطريقة تفكيري الأوروبية بعد أن عرفت أن آمال اليسار المتشدد مازالت حية بفضل أسقف من الشمال، يقال إنه تعاطف في شبابه مع النزعة النازية، والذي بإيمان متحمس مازال يحمل مشعل الثورة، متسببًا في إغضاب الفاتيكان الحذر ووحوش سوق المال، ومشعلاً بسعادة نزعة الإلحاد البروليتارية والتي استحوذ عليهم السحر العذب والخطير لسيدة رائعة الجمال، والتي مزقتها الأحزان السبعة، تتأمل معاناة شعبها؟

في صباح أحد الأيام خرجت مع أمبارو من محاضرة عن تركيب طبقة البروليتاريا الوضيعة، وكنت أقود السيارة لمحاذاة الشاطئ. وبطول الشاطئ رأيت بعض النذور التي تقدم، شموعًا صغيرة وزهورًا. قالت لي أمبارو إنها قرابين تقدم ليامانيا آلهة المياه. توقفنا وخرجت من السيارة واتجهت إلى الشاطئ وسارت بداخل الرمال، ووقفت بعض الدقائق في صمت. سألتها إذا كانت تؤمن بهذا. أجابت بغضب كيف يمكنني أن أفكر في شيء كهذا؟ ثم أضافت: "كانت جدتي تحضرني إلى هذا الشاطئ وتصلي لآلهة المياه أن تمنحني الجمال والطيبة والسعادة. من كان ذلك الفيلسوف الإيطالي الذي كان يعلق بشأن القطط السوداء والتعاويذ ويقول: إنها ليست حقيقية ولكني أؤمن بها؟ حسنًا، أنا لا أؤمن بها، ولكنها حقيقية. كان ذلك هو اليوم الذي فيه قررت بأن أدخر بعض المال للقيام برحلة استكشافية إلى باهيا.

ولكن عندئذ أيضًا بدأت أترك نفسي أنجرف في الشعور بالتشابه: مفهوم أن كل شيء يمكن بطريقة غامضة أن يكون مرتبطا بكل شيء آخر.

فيما بعد عندما عدت إلى أوروبا، حولت تلك الميتافيزيقية إلى ميكانيكا؛ ولذلك سقطت في الفخ الذي فيه أقف الآن. ولكن هناك في تلك الفترة، كنت أعيش في ظل انعدام كل الفروق. كنت أعتقد، مثل العنصريين، أن الرجل القوي يمكنه أن يرى إيمان الآخرين مثل فرصة لأحلام اليقظة، ليس إلا.

تعلمت بعض الإيقاعات وطرقًا لتحرير الجسد والعقل. كنت أقول لنفسي في ذلك المساء في المنظار، بينما أنا أحاول أن أقاوم تنميل أطرافي بتحريكها وكأنني أمارس الأجوجو. قلت لنفسي: أرأيت، لتنزع نفسك من سلطة المجهول ولتثبت لنفسك أنك لا تصدق، قبلت السحر. مثل الملحد الذي يرى الشيطان ليلاً ويفكر بطريقة ملحة فيقول: لا وجود له بالتأكيد، إنه مجرد خيالات حواسي المنفعلة، ربما يعود ذلك لسوء الهضم، ولكن الشيطان لا يعرف هذا، ويؤمن بلاهوته المقلوب. إذن ماذا يمكن أن يخيف هذا الواثق من وجوده؟ ترشم علامة الصليب بإيمان، فيختفي في لمح البصر.

إن ما حدث لي يشبه ما يمكن أن يحدث لعالم إثنيات متحذلق درس ظاهرة آكلي لحوم البشر لسنوات طويلة، وكان يتحدى اشمئزاز البيض، وهو يقول لهم إن لحم الإنسان شهي المذاق. كان يقول ذلك بلا أي مسئولية حيث يعلم أنه لن يذوقه أبدًا. حتى قرر أحد المتشككين في يوم ما معرفة الحقيقة من خلال التجريب فيه. وبينما يلتهمه قطعة تلو الأخرى يتمنى، حيث إنه لن يعرف قط من منهم المحق، أن يكون على الأقل طيب المذاق، وهو الشيء الذي يمكن أن يبرر ذلك الطقس، بل ويبرر موته في النهاية. هكذا كان لابد لي في تلك الليلة أن أصدق أن الخطة حقيقية، وإلا كنت سأصبح في السنتين الأخيرتين المهندس القادر على نسج كوابيس الشر. من الأفضل أن يكون الكابوس حقيقة، إذا كان الشيء حقيقيًا، فهو كذلك، ولا دخل لك أنت فيما يحدث.

(٢٤)

أنقذوا عائشة المسكينة من دوامات نهاش،
أنقذوا هيفا الحزينه من سراب حساسيتها،
وليحفظني خيروب، ملائكة الجنة.

(Joséphin Péladan. Comment on)
devient Fée, Paris, Chamuel, 1893, p. XIII)

وبينما أتقدم قدمًا في غابة التشابه، جاءني خطاب بيلبو:

عزيزي كازاوبون:

لم أكن أعرف حتى الأمس أنك في البرازيل، كنت قد فقدت آثارك تمامًا، ولم أكن حتى أعرف بحصولك على الدرجة: مبروك. ولكن وجدت من دلني على عنوانك لدى بيلادي. أكتب لك لأنني أرى أنه لابد وأن أطلعك على بعض التطورات الجديدة التي تتعلق بالحادث المؤسف للكولونيل أردنتي. لقد مر أكثر من عامين، على ما يبدو، ويجب علي أن أعتذر مرة أخرى، لقد وضعتك أنا في ذلك الموقف السيئ دون أي قصد مني.

كنت قد نسيت تقريبًا تلك القصة المزعجة، ولكنني منذ أسبوعين ذهبت في رحلة إلى مونتفيلترو، ووصلت إلى صخرة سان ليو. يبدو أنها كانت مقر باباوي في القرن الثامن عشر، ويبدو أن البابا قد سجن كاليوسترو هناك، في زنزانة بلا باب (كان المرء يدخلها للمرة الأولى والأخيرة من فتحة في السقف) وبها نافذة صغيرة، والتي منها يمكن للمحكوم عليه بأن يرى فقط كنيستي القرية. رأيت حزم زهور على الدرج، حيث نام كاليوسترو ومات بعد ذلك. قيل لي إنه مازال هناك العديد من المؤمنين يقومون برحلات حج لزيارة مكان الشهيد. قيل لي أيضًا إنه من بين الحجاج، وأكثرهم إخلاصًا، أعضاء جماعة البيكاتريكس، مجموعة من دارسي العبادات السرية. ينشرون مجلة يطلقون عليها اسم بيكاتريكس أيضًا.

أنت تعلم أنني فضولي تجاه هذه الأشياء، في ميلانو ابتعت نسخة من بيكاتريكس، وعلمت من خلالها أنه سيتم الاحتفال خلال أيام باستدعاء روح كاليوسترو، فذهبت.

كانت الجدران مغطاة بلافتات تحمل علامات القبالاه، الكثير من البوم من كل الأنواع، عقارب وطيور أبو المنجل، آلهة شرقية غير معروفة المصدر. في العمق كانت هناك منصة، خشبة مسرح من بطاريات محروقة مثبتة على قطع خشبية صلبة، وفي الخلفية كان هناك هيكل عليه غطاء للمذبح مثلث الشكل وتمثالان لإيزيس وأوزوريس. حول المذبح كان يوجد مدرج وُضعت عليه صور لأنوبيس ولوحة لكاليوسترو (من الصعب أن تكون لأي شخص آخر في هذه المناسبة، أليس كذلك؟) مومياء ذهبية على شكل خفرع، شمعدان من خمسة أذرع، ناقوس يدعمه تمثال لثعبانين متسلقين، منصة قراءة مغطاة بقماش قطني مطبوع عليه بالهيروغليفي، تاجين، مراجل ثلاثية القوائم، صندوق مومياء صغير، عرش، نسخة غير أصلية من مقعد يعود للقرن السابع عشر، أربعة مقاعد غير متشابهة صالحة لوليمة مع شريف نوتنجهام، شموع كبيرة وصغيرة، كل شيء يمنح نكهة روحية جداً.

دخل سبعة شمامسة من الصبية يرتدون سوتانات حمراء ويحملون مشاعل، ثم دخل المحتفل، والذي يبدو مدير بيكاتريكس ويدعي برامبيللا ـ لتغفر له الآلهة ـ يرتدي رداء ورديًا وأخضر اللون. وكان يتبعه التيوفيت، أو الوسيط، وستة مساعدين يرتدون الأبيض، وكانوا جميعهم يشبهون نينتو دافولي، ولكن يرتدون الأنفولا، ذلك الرداء الأبيض زي الإله، كما يقول شعراؤنا.

وضع برامبيللا على رأسه تاجه الثلاثي الذي ينتهي بهلال، أمسك بسيف طقسي، وأخذ يخط على الهيكل أشكالاً سحرية، ويستدعي بعض الأرواح الملائكية التي تنتهي أسماؤها بالصوت "إل"، وعندئذ خطر لي بشكل عشوائي تلك التعويذات شبه السامية الموجودة في رسالة إينجولف، ولكن فقط لمدة ثانية واحدة حيث تحول نظري لشيء غريب. في تلك اللحظة حدث شيء غير عادي، كانت ميكروفونات المسرح متصلة بجهاز لالتقاط الذبذبات، ولجمع الموجات الشاردة في الفضاء، ولكن العامل، والذي يرتدي سماعة الأذن، لابد أن يكون قد ارتكب خطأ ما. في البداية كانت السماعات تبث موسيقا ثم دخل راديو موسكو أيضًا في الموجة. فتح البرامبيللا التابوت وأخرج منه شيئًا: كتاب تعاويذ، وأخذ يصرخ "يا سيدي! ليأت ملكوتك" وبدا وأنه حصل على شيء ما، حيث صمت راديو موسكو، ولكن في اللحظة الأكثر سحرًا عاد لينطلق من جديد من خلال أغنية كوساك من ذلك النوع الذي يرقصون عليه ومؤخراتهم تلمس الأرض.

استدعى برامبيللا مفتاح سليمان، وخاطر بأن يحرق نفسه بأن أشعل النيران في إحدى المخطوطات، فوق المرجل واستدعى بعض آلهة معبد الكرنك، تطلب بتضرع أن يوضع على الحجر المكعب لسفير "يسود" وأخذ ينادي بإصرار على "القريب ٣٩"، والذي بدا قريبًا جدًا من الحضور لأن رعشة ما سرت في القاعة كلها. سقطت واحدة من الحاضرات أرضًا وعيناها تنظران لأعلى، ولم يكن يمكن رؤية حدقتيها، أخذوا يصرخون: ليستدعي أحد الطبيب، عندئذ بدأ برامبيللا في استدعاء سبب القوة الخماسية وبدأت الوسيطة التي كانت تجلس على المقعد، تقليد مقاعد القرن السابع عشر، بدأت في الانفعال، والأنين. وقف برامبيللا أمامها وأخذ يحاول استجوابها بشغف، أو استجواب القريب ٣٩، والذي خمنت في تلك اللحظة أنه الكاليوسترو نفسه.

وهنا بدأ الجزء المثير للقلق، لأن الفتاة كانت مثيرة بالفعل للألم إذ تتألم بالفعل، أخذت تتصبب عرقًا وترتعش وتئن وبدأت في نطق عبارات متقطعة، تتحدث عن معبد ما، عن باب يجب فتحه، تقول إن دوامة من القوى على وشك التكون، وإنه لابد من الصعود تجاه الهرم الأكبر. صعد البرامبيللا على المسرح وبدأ بانفعال يقرع الناقوس وينادي إيزيس بصوت مرتفع، كنت أستمتع بالعرض عندما سمعت الفتاة تتحدث، بين تنهيدة وأنين، عن الأختام الستة وأعوام الانتظار المائة والعشرين، والستة والثلاثين الخفيين. لم يكن هناك أدنى شك، كانت تتحدث عن رسالة بروفان. وبينما أحاول أن أستمع أكثر، استلقت الفتاة إلى الخلف، وربت البرامبيللا على جبينها، بارك الحضور بالمبخرة، وأعلن انتهاء الطقس.

كنت أشعر بعض الشيء بالدهشة والبعض الآخر كنت أرغب في أن أفهم المزيد، وحاولت الاقتراب من الفتاة التي كانت قد استعادت وعيها، كانت في حالة سيئة بالفعل وتحاول الخروج من الباب الخلفي. كنت على وشك أن ألمس كتفها عندما أمسكني أحدهم من ذراعي. استدرت ووجدت نفسي أمام المفتش دي أنجليس، الذي ينصحني بأن أتركها في حال سبيلها، حيث إنه يعرف أين يمكن العثور عليها. دعاني لتناول فنجان من القهوة، تبعته، وكأنه قبض علي متلبسًا، وبطريقة أو بأخرى كان ذلك حقيقيًا، وفي البار سألني لماذا كنت هناك ولماذا حاولت أن تقترب من الفتاة. تضايقت، وأجبته أننا لا نعيش تحت حكم ديكتاتوري وأن من حقي أن أقترب ممن أرغب. اعتذر وفسر لي: التحريات عن أردنتي سارت ببطء، ولكنهم حاولوا إعادة بناء اليومين اللذين

قضاهما في ميلانو قبل أن يقابل من بالجارموند، وراكوسكي الغامض. وبعد حوالي عام، وبضربة حظ، ظهر شخص رأى أردنتي وهو يخرج من مقر بيكاتريكس ومعه الوسيطة. وكانت الوسيطة تهم دي أنجيليس من جهة أخرى، لأنها كانت تعيش مع شخص مشتبه فيه لدى فريق المخدرات.

أخبرته أنني ذهبت إلى هناك بمحض الصدفة، وأن ما صدمني هو أن الفتاة قالت عبارة عن ستة أختام كنت قد سمعتها من الكولونيل. علق هو كم من الغريب أن أتذكر جيدًا عبارة قالها الكولونيل بعد سنتين من لقائه، بينما في اليوم التالي للقاء ذكرت للبوليس فقط بعض المعلومات المبهمة عن كنز فرسان المعبد. قلت له إن الكولونيل تحدث بالفعل عن كنز، والكنز يحميه شيء مثل الأختام الستة، ولكنني لم أعتقد وقتها أنها كانت تفصيلة مهمة، لأن كل الكنوز تحميها سبعة أختام وعقارب ذهبية. وعلق هو لماذا إذن صدمتني كلمات الوسيطة إذا كانت كل الكنوز تحميها العقارب الذهبية. طلبت منه ألا يتعامل معي وكأنني متهم، فغير من نبرته وأخذ يضحك. قال إنه لا يجد أي شيء غريب في أن الفتاة قالت ما قالته، حيث إن أردنتي لابد كان قد تحدث معها عن خيالاته.، ربما في محاولة منه لاستخدامها كوسيط للاتصال مع النجوم كما يقولون في ذلك المجال. ونظرًا لأن الوسيطة كالسفنجة، أو فيلم التصوير، لابد وأن عقلها الباطن مثل مدينة الملاهي ـ استكمل ـ لابد أن القائمين على بيكاتريكس يقومون بنوع من غسيل المخ لها طوال العام، وليس غريبًا أن تكون في حالة الانخطاف ـ لأنها لم تكن تتظاهر، وعقلها ليس سليمًا ـ قد ظهرت لها بعض الصور التي طبعوها في ذهنها منذ فترة.

ولكن يومين بعدها جاء دي أنجيليس إلى مكتبي وقال لي، وبالغرابة الموقف، إنه ذهب في اليوم التالي للبحث عن الفتاة ولم تكن هناك. سأل جيرانها، لم يرها أحد، تقريبًا منذ ظهيرة يوم أمسية الطقس المدمر. شعر بالشك ودخل إلى شقتها، وجد كل شيء مبعثرًا، الملاءات أرضًا والوسائد في الزاوية، جرائد وطأتها الأقدام، أدراج فارغة. اختفت هي وصديقها، أو حبيبها، أو شريكها في السكن.

قال لي إنني إذا كنت أعرف المزيد من الأفضل أن أتكلم لأنه من الغريب أن تتبخر الفتاة والأسباب المحتملة اثنان: إما أن يكون أحدهم أدرك أنه، دي أنجيليس، يراقبها، أو لاحظوا أن شخصًا ما يدعي جاكوبو بيلبو يحاول التحدث معها. وبالتالي الأشياء

التي قالتها في حالة الانخطاف تشير إلى شيء أكثر خطورة، وأن هؤلاء الأشخاص، أيًا كانوا، لم يكونوا يدركون أنهم على دراية بكل هذا. وأضاف دي أنجيليس بابتسامة: بل إن أحد زملائي من قام باغتيالها هو أنت، ويرى أنه من الأفضل أن نتفق على هذا.

كنت على وشك أن أفقد أعصابي، والله وحده يعلم أن هذا لا يحدث لي كثيرًا، وقلت له لماذا يجب افتراض أن شخصًا غير متواجد في منزله قد مات، وسألني إذا كنت ما زلت أتذكر قصة الكولونيل. قلت له في كل الأحوال إذا كانوا قد قتلوها أو خطفوها فلابد أن هذا قد حدث في ذلك المساء الذي كنت أنا فيه بصحبته، فسألني هو كيف أكون واثقًا هكذا، لأنني تركته في حوالي منتصف الليل وهو لا يعلم ماذا حدث بعد ذلك. سألته إذا كان يتحدث بجدية، سألني إذا لم أكن قد قرأت من قبل إحدى الروايات البوليسية، وإذا كنت لا أعرف أن أول من يشك فيه البوليس هو الشخص الذي ليس لديه دفع بالغيبة واضح وضوح قنبلة هيروشيما، وأنه سيتبرع برأسه لعملية زرع مخ على الفور إذا كان لدي دافع بالغيبة في الفترة بين الواحدة بعد منتصف الليل والصباح التالي.

ماذا أقول لك يا كازاوبون، ربما كان من الأفضل أن أقول له الحقيقة كلها. ولكن في بلدنا يتصفون بالعند، وليس في إمكانهم التراجع عن أقوالهم.

أكتب إليك الآن، لأنه كما عثرت أنا على عنوانك، ربما يعثر عليه دي أنجيليس بدوره: فإذا اتصل بك، على الأقل تكون قد عرفت الخط الذي اتخذته أنا. ولكن نظرًا لأنني أعتبره خطًا بعيدًا عن الاستقامة، فإذا أردت، يمكنك أن تقول كل شيء. أشعر بالخجل، اعذرني، أشعر أنني متآمر بشكل ما، وأبحث عن سبب، قريب من النبل، لأبرر نفسي ولا أستطيع العثور عليه. لابد وأن هذا يرجع لأصولي كفلاح، ففي القرى التي أتيت منها نحن أناس أشرار.

الأمر برمته ـ كما يقولون بالألمانية ـ قصة مخيفة.

المخلص

جاكوبو بيلبو

(٢٥)

... هؤلاء الأتباع الغامضون، أصبحوا كثيري العدد، شجعان، متآمرين: نزعات اليسوعيين، نزعات الفرسان، نزعات مارتن، الحجر الفلسفي، النزعات السرنمية، النزعات الاختيارية.

C.-L. Cadet-Gassicourt, Le tom-) beau de Jacques de Molay, Paris, Desenne, 1797, P91)

سبب لي الخطاب اضطرابًا. ليس خوفًا من أن يبحث عني دي أنجيليس، في الجانب الآخر من العالم، ولكن لأسباب غير محددة. في تلك اللحظة فكرت أن ما يغضبني أنه عاد إلي فجأة هناك عالم كنت قد تركته. الآن أدرك أن ما سبب لي الاضطراب كانت حبكة التشابه نفسها، والاشتباه في التماثل. كرد فعل تلقائي اعتقدت أن ما يضايقني هو أن بيلبو مازال يشعر بالذنب. قررت أن أنسى كل شيء وألا أذكر أي شيء عن هذا الخطاب لأمبارو.

ساعدني على ذلك الخطاب الثاني الذي أرسله بيلبو ليطمئني. انتهت القصة نهاية منطقية. حكى أحد مرشدي البوليس لهم أن عشيق الفتاة قد تورط في عملية تصفية حسابات بسبب شحنة مخدرات باعها لحسابه الشخصي بدلاً من أن يسلم كل شيء لتاجر الجملة الذي ابتاعها لحسابه. وهذه تصرفات عادة ما تتسبب في ردود أفعال خطيرة في هذا المجال، وبالتالي قرر الهروب لإنقاذ نفسه، وبالتأكيد أخذ معه فتاته. وبالتفتيش بعد ذلك بين الصحف الباقية في مسكنهما، عثر دي أنجيليس على مجلات من نوع بيكاتريكس بها سلسلة من المقالات تم التخطيط عليها باللون الأحمر، أحدها كان يتعلق بكنز فرسان المعبد، والآخر عن فرسان الروزا كروتشي الذين كانوا يعيشون في قلعة أو في كهف أو في أماكن أخرى. كُتب في إحدى تلك المقالات "Post 120 an-nos patebo"، وتم تعريفها بأنها الستة والثلاثون الخفيون. إذن بالنسبة لدى أنجيليس كان كل شيء واضحًا، كانت الوسيطة تتغذى على نوع القراءات نفسها التي كان يعيش عليها الكولونيل، ثم كانت تستعيدها أثناء نوبات الانخطاف. وبالتالي حسمت القضية وانتقلت إلى فرقة مكافحة المخدرات.

كان خطاب بيلبو يبعث على الارتياح، وتفسير دي أنجيليس مقنعًا!

في الليلة الأخرى في حجرة المنظار، كنت أقول لنفسي إنه ربما سارت الأمور على نحو مختلف تمامًا، كانت الوسيطة بالفعل قد قالت شيئًا سمعته من أردنتي لم يذكر قط في المجلة، شيء لابد أن يظل سرًا. في محيط بياتريكس كان هناك شخص ما أخفى الكولونيل ليمنعه من التحدث، هذا الشخص أدرك أن بيلبو ينوي التحدث مع الوسيطة، وبالتالي تخلص منها. بعد ذلك ومن أجل تغيير مسار التحريات تخلص أيضًا من عشيقها وأخبر أحد مرشدي البوليس ليقص عليهم قصة الهروب تلك.

كل شيء غاية في البساطة إذا كانت هناك خطة. ولكن كيف يمكن ألا تكون موجودة، لقد اخترعناها بأنفسنا، وبعد ذلك بفترة طويلة؟ هل يمكن ألا تتجاوز الحقيقة الخيال بل تسبقه أيضًا؟ هل يمكن أن تجري أمامه لتصلح ما تسبب فيه الخيال من أضرار؟

ولكن عندئذ في البرازيل لم تكن تلك هي الأفكار التي أثارها فيّ الخطاب، بل، مرة أخرى، شعرت بأن هناك شيئًا يشبه شيء آخر. كنت أفكر في الذهاب في رحلة إلى باهيا، وخصصت إحدى الأمسيات لأزور المكتبات ومتاجر أدوات العبادت السرية، التي كنت أهملتها حتى تلك اللحظة. عثرت على مجلات سرية تقريبًا ومتاجر كبيرة مليئة بالتماثيل والآلهة. ابتعت عبوات من العطور النفاذة الغامضة، بخورًا، عرائس محلاة مكتوبًا عليها "قلب يسوع المقدس"، وبعض التعويذات رخيصة الثمن.

عثرت على العديد من الكتب، بعضها ألفها الأتباع والبعض الآخر ألفه من يدرسون الأتباع، كلاهما معًا. وصفات لإخراج الأرواح الشريرة، وكيفية الاطلاع على المستقبل من خلال كرة كريستالية، كتب أنثروبولوجيا، ومونوغرافيا عن الروزا كروتشي، كل شيء اختلط فجأة. طقوس شيطانية وتركية في معبد أورشاليم، أعمال سحر إفريقية من أجل طبقة العمال السفلى في البرازيل، رسالة بروفان والمائة والعشرون عامًا المذكورة فيها، مائة وعشرون عامًا عمر الروزا كروتشيي.

كنت قد تحولت إلى آلة خلط متحركة، لا أجيد سوى خلط أنواع غريبة من السوائل المختلفة، أو ربما قمت باستفزاز شيء كالدائرة المغلقة متعثرًا في سلسلة معقدة من الأسلاك متنوعة الألوان، والتي كانت تتشابك منذ فترة طويلة جدًا.

ابتعت الكتاب الخاص بالروزا كروتشي ثم قلت لنفسي إنني إذا مكثت بضع ساعات في تلك المكتبات لكنت قد قابلت على الأقل عشرة أشخاص مثل الكولونيل أردنتي والوسيحلة.

عدت إلى المنزل وقلت رسميًا لأمبارو إن العالم مليء بشخصيات كثيرة غير طبيعية. أخذت هي تحاول تهدئتي وأنهينا اليوم بالاستجابة لنداء الطبيعة.

كنا في نهاية عام ١٩٧٥، وقررت أن أنسى كل التشابهات وأن أكرس كل طاقاتي لعملي. في نهاية الأمر كان علي أن أدرس الثقافة الإيطالية وليس فرسان الروزا كروتشي. تخصصت في فلسفة النزعة الإنسانية واكتشفت بأن رجال العلمانية الحديثة بمجرد خروجهم من ظلمات العثور الوسطى لم يجدوا شيئًا أفضل من أن يكرسوا أنفسهم للقابالاة والسحر.

بعد عامين من التردد على أتباع المذهب الإنساني لمن يتلون التعويذات لإقناع الطبيعة بفعل أشياء لا تنوي فعلها، تلقيت أخبارًا من إيطاليا: رفاقي القدامى، أو على الأقل البعض منهم، كانوا يطلقون الرصاص على من لا يوافق على ما يقولونه، لإقناع الناس بأن يفعلوا أشياء لا ينوون عليها.

لم أعد أفهم. قررت بأنني الآن جزء من العالم الثالث وحسمت أمري بزيارة باهيا. رحلت ومعي تاريخ ثقافة عصر الإحياء وكتاب الروزا كروتشي، والذي كان قد مكث فوق رف المكتبة ولم يفتحه أحد.

(٢٦)

كل التراث على الأرض يجب أن ينظر إليه وكأنه تراث نابع من تراث أم، وأنه أساسًا، ومنذ البدء، قد تم الإعهاد به إلى الإنسان المذنب وذريته الأولى.

(Louis-Claude de Saint Martini, De l'esprit des choses. Paris, Laran, 1800, II, "De l'esprit des traditions en general.")

ورأيت السلفادور، سلفادور باهيا دي تودوس أوس سانتوس، روما السوداء وكنائسها الثلاثمائة والخمس والستون، التي تصطف على أطراف الهضاب، أو تعشش على طول الشاطئ، تلك الكنائس التي يتم فيها تكريم آلهة البانتون الإفريقية.

كانت أمبارو تعرف فنانًا بدائيًا، يرسم لوحات ضخمة تزدحم بالرؤى الإنجيلية والمستوحاة من سفر الرؤية، تتألق مثل أعمال منمنمات العثور الوسطى، تتخللها عناصر قبطية وبيزنطية. كان ماركسيًا بالطبع، وكان يتحدث عن الثورة الحتمية، كان يقضي أيامه يحلم بداخل هيكل كنيسة نوسو سنيور دو بونفيم: الانتصار على الضياع، مقرمزات تتدلى من السقف وتشكل قشرة للحوائط، تجمعات غامضة من القلوب الفضية، أذرعًا وأقدامًا خشبية، صورًا للإنقاذ العظيم من العواصف والأعاصير والاضطرابات. وأخذنا إلى الهيكل الداخلي لكنيسة أخرى، مكدسة بالأثاث الضخم المصنوع من خشب الجكرندة المعطر. سألت أمبارو مسئول الهيكل: من هذا؟ سان جورج؟". نظر إلينا الشماس نظرة العالم ببواطن الأمور وقال: يطلقون عليه اسم سان جورج، وأي اسم خلاف هذا يُغضب راعي الكنيسة، ولكنه أوكسوسي"

ساعدنا الفنان لمدة يومين على زيارة كنائس وأديرة مختبأة خلف واجهات مزينة مثل أطباق فضية غطاها السواد والقدم. كانت تصحبنا عائلات مسنة وعرجاء، وكانت الهياكل مريضة بالذهب والبيوتر، ومن الأدراج الثقيلة والإطارات الثمينة. على الحوائط، وبداخل إطارات من الكريستال، كانت تصطف صور بالحجم الطبيعي لقديسين، تغطيهم الدماء وجروحهم المفتوحة مغطاة بأحجار الياقوت. تماثيل للمسيح تقطر ألمًا بأقدام حمراء. ورأيت تماثيل مصنوعة من الذهب اللامع لفترة الباروك

الأخيرة، لملائكة وجوهها أتروسكية، لحيوانات الغرفين الخرافية الرومانية، والحوريات الشرقية تبرز من تيجان العواميد.

كنت أتجول في الطرق القديمة، تسحرني أسماء تبدو وكأنها أغنيات: روا دا أجونيا، أفينيدا دوس أموريس، ترافيسا دي كيكو ديابو... كنت قد وصلت إلى السلفادور في الوقت الذي كانت الحكومة المحلية، أو شخص ما يتحرك باسمها، تعمل على تجديد المدينة القديمة وإغلاق آلاف الماخورات القديمة. ولكن كان المشروع مازال في المنتصف. أسفل تلك الكنائس المهجورة والمجزومة، والتي تخجل من رائحة ممراتها الشريرة، كانت مازالت هناك عاهرات سوداوات تبلغ أعمارهن الخامسة عشرة، وبائعات العطور الإفريقية المسنات، والتي تقبعن بطيلة الرصيف بأوانيهن الموقدة، حولهن جماعات من القوادين يتراقصون على أنغام الموسيقى المنبعثة من ترانسيستور الحانة القريبة. تحولت المباني القديمة للمستعمرين، والتي تعلوها كتابات غير مقرؤة الآن، إلى بيوت للدعارة.

في اليوم الثالث اصطحبنا مرشدنا إلى حانة أحد الفنادق في الجزء المرتفع من المدينة، في الجزء المرمم حديثًا، في شارع مليء بمحلات الأنتيكات الفخمة. كان سيقابل شخصًا إيطاليًا، كما أخبرنا، والذي كان سيبتاع، دون أن يفاصل في السعر، إحدى لوحاته التي يبلغ طولها ثلاثة أمتار وعرضها متران، والتي فيها تخوض حشود الملائكة المعركة الأخيرة ضد القوات الأخرى.

هكذا تعرفنا على السيد آلييه، والذي كان يرتدي سترة مزدوجة على الرغم من حرارة الجو، نظارة ذهبية الإطار على وجهه المضرج بالحمرة، وكان شعره فضي اللون. قبل يد أمبارو، وكأنه لا يعرف طريقة أخرى لمصافحة النساء، وأمر النادل بإحضار الشمبانيا. كان لابد للرسام أن ينصرف، سلمه آلييه رزمة من الشيكات السياحية وطلب منه أن ينقل له اللوحة إلى حجرته في الفندق. مكثنا لنتحدث، كان آلييه يتحدث ببرتغالية سليمة، ولكن كمن تعلمها في لشبونة، وهو الشيء الذي منحه المزيد من نبرة سادة العصور القديمة. سأل عنا، وعلق على احتمالات أن يكون أصل اسم عائلتي من جينيف، وعبر عن فضوله تجاه التاريخ العائلي لأمبارو، على الرغم من أنه عرف بطريقة ما أن الفرع الأساسي للعائلة من ريسيف. أما بالنسبه لأصله هو كانت إجابته غامضة، قال: أنا مثل الكثيرين هنا، هناك العديد من الجنسيات ممثلة في جيناتي... الاسم إيطالي، ملكية قديمة لأحد الأجداد، ربما رجل نبيل، ولكن من يهتم بهذه الأشياء حاليًا؟ إن الفضول هو ما أحضرني إلى البرازيل. كل أنواع التقاليد تثير فضولي.

قال لي إن لديه مكتبة ثرية بكتب العلوم الدينية في ميلانو حيث يعيش منذ بضعة أعوام: تعالي لزيارتي عندما تعود، لدي الكثير من الأشياء المثيرة، بدءًا من الطقوس الأفرو ـ برازيلية إلى العبادات السرية لإيزيس في المملكة السفلى.

قالت أمبارو، والتي عادة ما تتظاهر بالسخافة بدافع الكبرياء: أعشق عبادات إيزيس، أتخيل أنك تعرف كل شيء عن تلك الطقوس.

أجاب آلييه بتواضع: فقط القليل الذي رأيته.

حاولت أمبارو أن تستكمل ما بدأته: ألم يكن ذلك منذ ألفي عام؟

ابتسم آلييه: لست شابًا مثلك.

فأضفت مداعبًا :مثل كاليوسترو، أليس هو الذي قال بينما يمر في أحد الأيام أمام تمثال للمصلوب لأحد أقاربه: لقد قلت لذلك العبري بأن ينتبه في تلك الليلة، ولكنه رفض الإصغاء لي؟

تجمد وجه آلييه، خشيت من أن أكون قد أهنته، هممت بالاعتذار، ولكن قاطعني مضيفنا بابتسامة مطمئنة: كان كاليوسترو مخادعًا لأنه كان من المعروف تمامًا أين ومتى وُلد، بل ولم يستطع حتى أن يعيش طويلاً.

أصدقك تمامًا.

كرر آلييه: كان كاليوسترو دجالاً، ولكن هذا لا يعني أنه لم توجد شخصيات استثنائية استطاعت أن تمر بحيوات مختلفة. إن العلم الحديث لا يعرف سوى القليل عن التقدم في السن، من المحتمل أن تكون الأخلاقيات هي نتيجة ببساطة لنوع من التعليم السيئ. كان كاليوسترو مخادعًا، ولكن لم يكن كونت سان جيرمان مثله بالتأكيد، ربما لم يكن يتفاخر عندما كان يقول إنه تعلم بعض أسراره الكيميائية من قدماء المصريين. ولكن نظرًا لأنه عندما قال هذا لم يصدقه أحد، فلقد كان يتظاهر بأنه يمزح احترامًا لمستمعيه.

قالت أمبارو: والآن سيادتك تتظاهر بأنك تمزح لتثبت لنا أنك تقول الحقيقة.

قال آلييه: إنك لست جميلة فقط بل حادة الإدراك أيضًا. ولكنني أستحلفك بالله ألا تصدقيني، فإذا ظهرت لك في البهاء المترب للقرون التي عشتها فإن جمالك سيشحب فجأة ولن أسامح نفسي على هذا.

تعرضت أمبارو للهزيمة وشعرت أنا بالغيرة.

حولت مجرى الحديث إلى الكنائس وإلى سان جورج ـ أوكسي الذي رأيناه. قال آلييه إننا لابد وأن نشهد أحد طقوس ديانة الكاندومبيليه البرازيلية، وأضاف: لا تذهبوا إلى حيث يطالبونكم بالنقود، إن الأماكن الحقيقية هي تلك التي يستقبلونكم فيها دون أن يطالبوكم بأي شيء، ولا حتى أن تؤمنوا، الشيء الوحيد الذي سيطالبون به هو حضور الطقس باحترام، بالتسامح نفسه الذي لكل الأديان الأخرى التي تعترف بإلحادكم. بعض الكاهنات (ماي دي سانتو) عندما تراهن للمرة الأولى يبدون وكأنهن إحدى عبدات كابينة العم توم، ولكن معرفتهن الثقافية تفوق خريجي جامعة اللاهوت في الفاتيكان.

وضعت أمبارو يدها على يده وقالت: هل تأخذنا إلى هناك، لقد ذهبت إحدى المرات، منذ عدة أعوام، في إحدى خيمات الأومباندا، ولكن لدي العديد من الذكريات المرتبكة، لا أحتفظ منها سوى باضطراب عظيم.

بدا آلييه محرجًا من الاتصال الجسدي، ولكنه لم ينزع يده. قام فقط، كما رأيته بعد ذلك في حالات التأمل، بإخراج علبة صغيرة ذهبية وفضية اللون من الصديري بيده الأخرى، ربما علبة تبغ أو حبوب، غطاؤها مزين بالعقيق. على مائدة البار كان هناك شعلة من الشمع، وقرب منها آلييه العلبة، وكأنه فعل ذلك مصادفة. رأيت لون العقيق لم يعد واضحًا، وبدلاً منه ظهرت منمنمة دقيقة جدًا لونها أخضر وأزرق وذهبي، كانت تمثل راعية تحمل سلة من الزهور. أخذ يديرها بأصابعه في نوع من العبادة الشاردة، وكأنه ممسك بمسبحة. عندما أدرك اهتمامي بما يفعل، ابتسم، وأبعد هذا الشيء.

- اضطراب، أتمنى يا سيدتي الرقيقة، ألا تكوني بالغة الحساسية بالإضافة إلى كونك حادة الإدراك. صفة رائعة عندما تتواجد مع الجمال والذكاء، ولكن خطيرة لمن يذهب إلى أماكن معينة دون أن يعرف عما يبحث وعما يمكنه أن يجد... ومن جهة أخرى أرجو عدم خلط الأومباندا بالكاندومبليه. فالكاندومبليه محلي إلى أقصى درجة، أفرو ـ برازيلي إذا أمكننا القول، بينما الأومباندا هي ثمرة متأخرة ولدت من اختلاط مجموعة من الطقوس الأصلية مع الثقافة السرية الأوروبية، بنوع من الغموض الذي يمكن أن ينتمي لفرسان المعبد...

عشر على الفرسان مرة أخرى. قلت لآليه إنني كتبت بحثي عنهم، نظر إلي باهتمام وقال: مصادفة غريبة يا صديقي الشاب. أن أجد هنا أسفل صليب الجنوب فارسًا شابًا من فرسان المعبد..."

ـ لا أريدك أن تعدني أحد أتباع...

ـ أرجوك يا سيد كازاوبون، إذا كنت تعرف كم من الهراء موجود في هذا المجال.

ـ أعرف

ـ حسنًا، لابد إذن وأن نلتقي قبل أن ترحلا.

اتفقنا على أن نتقابل مرة أخرى في اليوم التالي؛ أردنا نحن الثلاثة أن نكتشف السوق الصغير المغطى بطيلة الميناء.

وتقابلنا بالفعل في صباح اليوم التالي، وكان هناك سوق سمك، وسوق عربي، معرضًا لقديس اليوم تكدس فيها بخبث سرطاني، عذراء اللورد غزتها قوي الشر، حيث يمكن لسحرة الأمطار أن يتعايشوا مع رهبان الكابوتشينو الشاطحين، سيئي السمعة. كان هناك أيضًا أكياس تشفعية صغيرة بها صلوات محاكة في الثنيات، أياد صغيرة من الأحجار الصغيرة يمتد منها الإصبع الوسطى، تماثيل للمصلوب، نجوم داود، رموز جنسية لديانات تنتمي لفترة ما قبل اليهودية، أرجوحات صغيرة، حقائب، تماثيل لأبو الهول، قلوب مقدسة، سهام بورورو، حلي من القواقع البحرية. اندمج الغموض الناتج عن الغزاة الأوروبيين مع العلوم النوعية للعبيد، هكذا كما يحكي لون جلد كل عابر قصة سلاسل النسب المفقودة.

قال آليه: ها هي صورة ما تطلق عليه الكتيبات الإثنية النزعة البرازيلية للتوفيق بين المعتقدات. كلمة سيئة من وجهة نظر العلوم الرسمية. ولكن في معناها السامي تعني هذه العبارة الاعتراف بتراث واحد، يتجاوز ويغذي كل الديانات وكل المعارف وكل الفلسفات. إن الحكيم ليس هو من يميز ويفرق، بل هو من يجمع سويًا كل إشاعات الضوء بغض النظر عن مصدرها... وبالتالي فهولاء العبيد أكثر حكمة، أو بالأحرى أحفادهم، من باحثي الإثنولوجي في السوربون. على الأقل تفهميني أنت يا سيدتي الجميلة، أليس كذلك؟

قالت أمبارو: ليس بعقلي، ولكن بأحشائي. اعذرني، لا أعتقد أن سان جيرمان يعبر عن نفسه بهذه الطريقة. أرغب في أن أقول إنني ولدت في هذا البلد، وحتى الأشياء التي لا أعرفها تتحاور معي من مكان ما، من هنا على ما أعتقد... ووضعت يدها على صدرها.

ـ ماذا قال في تلك الليلة الكردينال لأمبرتيني إلى السيدة التي كانت ترتدي صليبًا رائعًا من الماس يتدلى على صدرها؟ يالسعادة من يموت فوق هذه الجلجثة. هكذا أتمنى أنا أيضًا أن أستمع لتلك الأصوات. والآن أرجو أن تعذراني أنتما الاثنان، فأنا قادم من عصر يمكن فيه للمرء أن يتوقع الدمار لمجرد أن يعبر عن إعجابه بالجمال. لابد وأنكما ترغبان في البقاء هنا بمفردكم. لنبق على اتصال.

قلت لأمبارو بينما أجرها بين البضائع: إنه في سن والدك.

ـ بل جدي، إنه يريد إقناعنا أن عمره حوالي ألف عام. هل تغار من مومياء الفرعون.

ـ أغار من كل من يضيء مصباح ضوء في عقلك.

ـ ياللروعة، هذا هو الحب!

(٢٧)

في أحد الأيام قال إنه تعرف على بيلاطس البونطي في أورشاليم، وصف بدقة منزل الحاكم، وأخذ يعدد الأطباق التي قدمت لهم على العشاء. وجه كاردينال روهان، معتقداً أنه يستمع إلى قصص خياليه، حديثه إلى وصيف كونت سان جيرمان، مسن أشيب الشعر ويبدو صادقًا وقال له: صديقي، أجد صعوبة في أن أصدق ما يقوله سيدك، أستطيع أن أقبل كونه يتحدث من بطنه، وأن يصنع الذهب، ولكن أن يكون عمره ألفي عام وأن يكون قد قابل بيلاطس البونطي. فهذا كثير. هل كنت أنت أيضًا معه؟ أجاب الوصيف بصدق: لا يا سيدي، فأنا في خدمة سيدي منذ أربعمائة عام فقط.

Colling de Plancy, Dictioniare infernal,)
Paris, mellier, 1844, p.434)

في الأيام التالية انشغلت بالسلفادور. قضيت وقتًا قليلاً في الفندق. وبينما أتصفح كتاب الروزا كروتشي وجدت إشارة إلى كونت سان جيرمان. قلت لنفسي: لتنظر جيداً، فالأشياء كلها مرتبطة.

كتب فولتار عنه: إنه رجل لا يموت أبدًا ويعرف كل شيء، ولكن فيدريكو دي بروسيا أجابه بأنه كونت مضحك. هوراس والبول تحدث عنه كما يتحدث عن شخص إيطالي أو إسباني أو بولندي كون ثروة كبيرة في المكسيك ثم هرب بعد ذلك إلى القسطنطينية ومعه جواهر زوجته. الأشياء المؤكدة عنه تنقلها مدام دو هوسيه، وصيفة مدام بومبادور (مصدر موثوق به بالفعل، علقت أمبارو بلا تسامح). كان يُعرف بالعديد من الأسماء: سيرمون في بروكسل، ولدون في لشبونة، ماركيز آيمار أو دي بدمار أو دي بلمار، كونت سولتيكوف. تم القبض عليه في لندن عام ١٧٤٥، حيث تألق كعازف كمان وهارب في الصالونات؛ بعد ذلك بثلاث سنوات في باريس عرض خدماته على لويس الخامس عشر كخبير في الصباغة، في مقابل الإقامة في قصر شامبور. أرسله الملك في مهمة دبلوماسية إلى هولندا، حيث وقع في بعض المشكلات وهرب مرة أخرى إلى لندن. عام ١٧٦٢ نجده في روسيا، ثم من جديد في البلجيك. هناك يتقابل مع كازانوفا، والذي يقص عليه كيف حول عملة إلى قطعة من الذهب. عام ١٧٧٦ ظهر في بلاط فريدريك الثاني وارتبط بظهوره العديد من التجارب الكيميائية. مات بعد ذلك بثمانية أعوام في شلزويج، في بلاط كونت هيسي، حيث كان يضع اللمسات الأخيرة لمصنع صبغات.

لا يوجد شيء استثنائي، المسار الطبيعي لمغامر من القرن الثامن عشر، بل كانت مغامراته العاطفية أقل من كازانوفا، وحيله أقل تأثيرًا من كاليوسترو. بخلاف بعض

الحوادث الغريبة هنا وهناك، كان يتمتع ببعض المصداقية لدى بعض السلطات التي وعدها بأعجوبة الكيمياء في الصناعة. عدا أنه انطلقت حوله، بالتأكيد شيء يدعمه هو، أشعة كونه خالدًا. كان يُسمع في المحافل وهو يشير بلا تحفظ إلى أحداث قديمة وكأنه كان فيها شاهد عيان، وكان يزرع أسطورته بفن وكأنه يعزف لحنًا.

كان كتابي يستشهد أيضًا بفقرة من جوج الذي ألفه جوفاني بابيني حيث كان يصف لقاء ليلى، على متن إحدى السفن في المحيط مع كونت سان جيرمان. تحدث الكونت، المحبط من آلاف السنوات الماضية ومن الذكريات المزدحمة في رأسه، بنبرة يائسة تعيد إلى الأذهان "غيونز" شخصية بورخس المشهورة، على الرغم من أن قصة بابيني تعود إلى عام ١٩٣٠": لا تتخيلوا أن أمثالي يستحقون أن يثيروا الغيرة" قال الكونت لجوج، "بعد قرنين يتملك نوع من الملل الشديد الخالدين البؤساء. فالعالم رتيب، والبشر لا يتعلمون شيئًا ويقع جيل بعد الآخر في الأخطاء نفسها، الأحداث لا تتكرر، ولكنها تتشابه... بعد فترة تنتهي المفاجآت والاكتشافات. أستطيع أن أعترف لك الآن حيث لا يسمعنا أحد سوى البحر الأحمر: لقد مللت خلودي. لم تعد الأرض تحمل في طياتها ما يمكن أن يدهشني ولم يعد لدي أي أمل في بني البشر."

علقت: شخصية مثيرة، من الواضح أن صديقنا آلييه يحاول أن يتقمصها. رجل مهذب، ناضج، موهوب بعض الشيء، لديه مال ينفقه، وقت كافي ليتجول بين البلاد، واهتمام بالظواهر الخارقة للطبيعة.

قالت أمبارو: رجعي ثابت على مبدأ، ولديه شجاعة الاعتراف برجعيته. في الحقيقة أفضله أكثر من البرجوازيين الديمقراطيين.

ـ تتحدثين عن القوة النسوية، ولكن بمجرد أن يقبل رجل يدك تشعرين بالنشوة.

ـ هكذا هكذا تعلمنا منكم، لقرون عديدة، اتركونا لنتحرر بالتدريج، لم أقل إنني أرغب في أن أتزوجه

ـ لحسن الحظ.

في الأسبوع التالي اتصل بي آلييه. قال إنه في ذلك المساء يمكننا أن نذهب لنزور ساحة كاندومبليه، لن يسمحوا لنا بحضور الطقس، لأن اليالوريكسا (الكاهنة) تتوجس ريبة من السياح، ولكنها وافقت أن تقابلنا بنفسها وأن تأخذنا في جوله لترينا المكان قبل بداية الطقس.

حضر لاصطحابنا بسيارته، وقاد سيارته بين المناطق العشوائية خلف التلال. كان المبنى الذي توقفنا أمامه متواضع الشكل، وكأنه جراج كبير، وعلى أعتابه قابلنا رجل أسود مسن وطهرنا بالبخور. بعد ذلك، في حديقة مزينة، وجدنا سلة زهور ضخمة مصنوعة من زعف النخيل كبير الحجم، والتي عليها تظهر بعض الأطعمة القبلية، أطعمة القديسين.

في الداخل وجدنا صالة كبيرة، حوائطها مغطاة باللوحات الخاصة بالتقدمة والأقنعة الإفريقية. شرح لنا آلييه ترتيب الأثاث، كانت الأرائك في الخلف لغير الأعضاء الأساسيين ، وتجاه العمق منصة صغيرة للآلات الموسيقية، والمقاعد الخاصة بالأوجا: أشخاص في وضع جيد، ليسوا بالضرورة مؤمنين، ولكنهم يحترمون الطقس. هنا في باهيا خورجو آمادو العظيم، هو أيضًا أوجا في إحدى الساحات. تم اختياره بواسطة إيانسا، سيدة الحرب والرياح...."

سألته: ولكن ما هي أصول تلك الآلهة؟

ـ إنها قصة معقدة. قبل كل شيء هناك الفرع السوداني، والذي فرض نفسه في الشمال منذ بداية فترة العبودية، ومن ذلك الفرع أتى كاندوبليه الأوريكساس، أي من الآلهة الإفريقية. أما في دول الجنوب فهناك تأثير البانتو وهنا تبدأ سلسلة من الطقوس المختلطة. فبينما العبادات في الشمال مازلت مخلصة للديانات الإفريقية الأصلية، نجد الماكومبا الأصلية في الجنوب قد تطورت تجاه الأومباندا، المتأثرة بالكاثوليكية، والنزعة الكردشية، والعبادات السرية الأوروبية...

ـ إذن هذا المساء لا وجود لفرسان المعبد!.

ـ كان الفرسان مجازًا، على كل حال لا دخل لهم بأي شيء هذه الليلة. ولكن للنزعة السنكريتية آلية بارعة للغاية. هل لاحظت في الخارج بجوار طعام القديسين تمثالا حديديًا، نوعًا من الشياطين يمسك بشوكة، وهناك بعد التقدمات تحت قدميه؟ إنه الإيكسو، بالغ القدرة في الأومباندا، ولكن ليس في الكاندوبليه. إلا أن الكاندوبليه تكرمه، تعتبره روح رسولية، وكأنه ماركوري رسول جوبيتر وقد أصابه الفساد. في الأوبماندا يستحوذهم الإيكسو، ولكن ليس هنا. ولكنهم يعاملونه باحترام، ولكن لا شيء مؤكد. هل ترى هذا الحائط هناك...؟.

وأشار بيده إلى تمثالين مزخرفين بالألوان المتعددة، أحدهما لإنديو عار والآخر لعبد مسن أسود، جالس مرتديًا الأبيض، ويدخن الغليون .

ـ إنهما فلاح ومسن أسود، أرواح الراحلين، والتي لها أهمية كبيرة في طقوس الأومباندا. ماذا يفعلان هنا؟ يتم تكريمهما، لا يستخدمان لأن الكاندومباليه تؤسس علاقات مع الأوراكسيس الإفريقية فقط، ولكن على الرغم من ذلك لا تتجاهلهما.

ـ ولكن ما هو الشيء المشترك إذن بين كل تلك الكنائس؟

ـ نستطيع أن نقول إن جميع الطقوس الأفرو برازيلية تتميز بأنه في أثناء الطقس تتلبس جميع الأعضاء مخلوقات عليا ويصبحون كأنهم في حالة هذيان. الأوريكساس في الكاندومبليه، وأرواح الراحلين في الأومباندا..."

قالت أمبارو: كنت قد نسيت بلدي وعشيرتي. يا إلهي! القليل من أوروبا، بالإضافة إلى القليل من نزعة التاريخ المادية جعلتني أنسى كل شيء، حتى القصص التي اعتدت أن أسمعها من جدتي...

ابتسم آلييه: القليل من النزعة التاريخية المادية؟ يبدو أنني سمعت عنها، طقس له علاقة بنهاية العالم يتم ممارسته في ترفيري، أليس كذلك؟

أمسكت بذراع أمبارو وقلت لها كما يردد المناضلون اليساريون: سنقاوم يا حبيبتي!

فهمست هي: يا إلهي!

تابع آلييه دون أن يتدخل حوارنا المختصر الهامس ثم استأنف: إن قدرات النزعة السنكريتية لا نهاية لها يا عزيزتي. إذا أردتي يمكنني أن أقدم لك النسخة السياسية لكل هذه القصة. إن قوانين القرن التاسع عشر أعادت الحرية إلى العبيد، ولكن في محاولة لطمس وصمة العبودية حُرقت كل سجلات سوق العبيد. أصبح العبيد أحرارًا من الناحية الرسمية ولكن بلا ماض. عندئذ حاولوا أن يعيدوا بناء هوية جماعية، بدلاً من تلك الأسرية. عادوا بالتالي إلى جذورهم. كانت هذه هي طريقة مواجهة، كما يقول جيلكم من الشباب، القوى الحاكمة.

قالت أمبارو: ولكنك قلت للتو إن الطوائف الأوروبية كانت جزءًا منها.

ـ إن النقاء رفاهية في هذه الحالة، كان العبيد يستخدمون الموجود. ولكنهم انتقموا. لقد جذبوا إليهم بالفعل عدداً من البيض لا يمكنك تخيله. إن العبادات الإفريقية الأصلية كانت بها، مثل كل الديانات الأخرى، نقاط ضعفها، لقد كانت محلية، عرقية وقصيرة النظر. من خلال الاتصال مع أساطير الغزاة أعادوا إنتاج معجزة قديمة: منحوا الحياة للعبادات الغامضة للقرن الثاني والثالث من هذه الحقبة، في البحر المتوسط، بين روما التي كانت تتكون شيئًا فشيئًا وبين الشذرات التي كانت تأتيها من الفرس ومصر وفلسطين قبل اليهودية.... في عصور الإمبراطورية السفلى تلقت إفريقيا تأثيرات كل النزعات الدينية البحرمتوسطية، وكثفتها في حزمة واحدة. أفسدت النزعة المسيحية أوروبا كديانة رسمية، ولكن احتفظت إفريقيا بكنوز المعارف كما كانت قد احتفظت بها ونشرتها في وقت المصريين القدماء، مانحة إياها لليونان الذين دمروها تماماً.

(٢٨)

يوجد جسد واحد يلف كل العالم، ونمثله بشكل دائري لأن هذا هو شكل الكل... فلنتخيل الآن أسفل هذه الدائرة لهذا الجسد يوجد الستة والثلاثون كاهنًا، في المركز، بين الدائرة الإجمالية ودائرة الزودياك، فاصلين بين هاتين الدائرتين، وبالتالي يخططون الزودياك، منتقلين عبره مع الكواكب... ويكون تغيير الملوك، وارتفاع المدن، المجاعة، والطاعون، حركة الأمواج والزلازل، لا شيء من كل هذا يحدث إلا بتأثير الكهنة.

(Corpus Hermeticum, Stobaeus, ex-
cerptun VI)

ـ أية معرفة؟

ـ هل تدرك كم كانت عظيمة الفترة بين القرن الثاني والثالث الميلادي؟ ليس بسبب الإمبراطورية، التي كانت تغرب حينئذ، ولكن لما كان يزدهر وقتها في حوض البحر المتوسط. في روما كانت طبقة جنود الحرس قد بدأت تثور ضد الإمبراطور، وفي البحر المتوسط بدأ يزدهر عصر أبوللوس وأسرار إيزيس، تلك العودة العظيمة إلى الروحانيات، والتي تمثلت في الأفلاطونية الجديدة والغنوصية... فترة مباركة، لم يكن المسيحيون فيها قد وصلوا بعد إلى السلطة وحكموا بالموت على المهرطقين. كان زمن رائع، انتشر فيه الذكاء، زمن تألقت فيه النشوة، وانتشر فيه وجود الأرواح، والانبثاقات، الأرواح الشريرة والملائكة الحارسة. كانت معرفة منتشرة، غير مرتبطة، قديمة قدم العالم، والتي تعود لأيام فيثاغورث والبراهمة في الهند، لأيام اليهود والمجوس، والصوفية المجردة وصولاً إلى غجر أقصى الشمال، ودرويد الغال والجزر البريطانية. أطلق اليونان على الغجر ذلك الاسم، لأنهم كانوا يعتقدون في عدم قدرتهم على التعبير، كانت لغاتهم تعد كالنباح للأذن اليونانية بالغة الحساسية. ولكن في هذا العصر تقرر أن الغجر لديهم معرفة تفوق بكثير تلك الهلينية، ولهذا السبب كانت لغتهم خاصة لا يمكن سبر أغوارها. هل تعتقد أن من سيرقصون الليلة يعرفون معاني كل الأغاني والأسماء السحرية التي ينطقونها؟ لا لحسن الحظ. لأن الاسم المجهول يعمل كتمرين للتنفس، نطق صوفي. أثناء عصر الأسرة الأنطونية... كان العالم مليئًا بالمقابلات، بالمتشابهات، كان لابد من تغلغلها، من نشرها، وكانت الطريقة الوحيدة هي الأحلام، وأعمال السحر، والتي كانت تسمح لنا بأن نتعامل مع الطبيعة ومع قواها محركين المثل بالمثل. إن المعرفة مراوغة وهشة، تهرب من أي مقياس. لهذا السبب كان الإله الفائز في

تلك الحقبة هو هيرميس، مخترع كل الخدع، إله عابري الطريق واللصوص. كان أيضًا خالق الكتابة، والتي هي فن الهروب والإخفاء، والطريقة التي يمكننا أن نخترق بها كل الحواجز، حيث يختلط كل شيء عند الأفق، حيث الرافعات ترفع الأحجار عن الأرض، وحيث الأسلحة التي تحول الحياة إلى موت، و حيث مضخات المياه تجعل الأشياء الثقيلة تطفو، والفلسفة تحبط وتخدع... هل تعلم أين هو هيرميس الآن؟ هنا، لقد رأيته للتو على الباب، يطلقون عليه اسم إيكسو، إن رسول الآلهة، الوسيط، التاجر، والذي يجهل الفارق بين الخير والشر.

أخذ ينظر إلينا في استمتاع غير واثق: تعتقدان إذن أنني متسرع في إعادة توزيع الآلهة مثلما كان هيرميس يفعل مع البضائع. انظرا إلى هذا الكتيب الذي ابتعته هذا الصباح من إحدى المكتبات الشعبية في بيلورينو. أعمال السحر والغموض للقديس شيبريانو، وصفات وأعمال للحصول على الحبيب، أو للقضاء على العدو، دعوات وتضرعات للملائكة وللعذراء. أدب شعبي بالنسبة لهؤلاء المتصوفين السود. ولكن الأمر يتعلق بالقديس شيبريانو الأنطاكي، والذي توجد عنه كتابات عديدة في العصور الفضية. أراد والديه أن يتعلم كل شيء وأن يعرف كل ما هو موجود في الأرض والسماء وفي مياه البحار، فأرسلوه إلى بلاد بعيدة ليتعلم كل أسرار الكون، ليعرف نمو وفساد العشب وفضائل النباتات والحيوانات، ليست تلك الخاصة بالعلوم الطبيعية، ولكن تلك المرتبطة بالعبادات السرية، والمدفونة في عمق التراث العتيق والبعيد. كرس شيبريانو نفسه لديلفو وأبوللو ولدراما الثعبان، عرف أسرار ميترا، وفي سن الخامسة عشرة وعلى جبل أوليمبوس، وتحت قيادة خمسة عشر كاهنًا إليوسيبيا، وكان يشارك في طقوس لاستدعاء أمير هذا العالم، ليتقن حيله، وفي آرجوس بدأ يتعلم أسرار هيرا، وفي فريجيا تعلم قراءة الطالع، ولم يعد هناك مما في الأرض والبحر والسماء شيء يخفى عليه، لم يعد هناك شبح ولا أداة معرفة، ولا فن من أي نوع خفي عنه، ولا حتى فن تغيير الكتابات عن طريق السحر. في المعابد الخفية في ممفيس تعلم كيف يتصل الشياطين بالأشياء الأرضية، والأماكن التي يترددون عليها، الأشياء التي يحبونها، وكيف يسكنون الظلام، والمقاومة الموجودة في بعض منهم. تعلم كيف يمكنهم السيطرة على الأرواح والأجساد وما هي التأثيرات التي تمنحهم المعرفة العليا والذكريات، الرعب والوهم، وفن الحصول على انفعالات أرضية والتأثير على أمواج الأرض السفلية... ثم، للأسف، تحول للمسيحية، ولكن بقيت بعض من معرفته معه وانتقلت، والآن نراها هنا،

في ذهن وعقل هؤلاء العشوائيين، والذين تسمونهم وثنيين. صديقتي العزيزة، منذ وهلة نظرت إلي وكأنني من الزمن الغابر. من هو الآتي من الماضي؟ سيادتك، يا من ترغبين في إهداء بشاعة القرن العامل والصناعي لهذا البلد، أم أنا الذي أرغب في أن تجد أوروبا المسكينة، التي ننتمي إليها، النزعة الطبيعية وإيمان أبناء العبيد أولئك؟

"يا إلهي!" تنهدت أمبارو بشر وقالت: أنت أيضًا تعرف مثلي إنها إحدى الطرق المستخدمة لاتقاء شرهم...

ـ ليس كذلك، بل جعلهم قادرين على احتمال الانتظار، إذا لم يكن هناك معنى للصبر لا يوجد فردوس، ألم تعلمونا هذا أيها الأوروبيون؟

ـ هل أنا أمثل أوروبا؟

ـ إن لون الجلد لا يعني شيئًا، المهم هو الإيمان بالتراث. لمنح معنى الانتظار لغرب قيده رغد العيش، يدفع هؤلاء، بل يتألمون، ولكنهم مازالوا يعرفون لغة الأرواح في الطبيعة وفي الهواء، في المياه والرياح..."

ـ ها أنتم تستغلوننا مرة أخرى.

ـ مرة أخرى؟

ـ أجل، لابد وأنك قد تعلمت الدرس جيدًا عام ١٧٩٨ أيها الكونت. عندما نشعر بالتعب...

ثم بابتسامة ملائكية رفعت يدها الجميلة المشدودة لتشير بها أسفل رقبتها. كانت أسنان أمبارو تبعث فيّ الرغبة.

ـ شيء درامي، قال آلييه وهو يخرج من جيبه علبة التبغ، ويربت عليها بأصابعه، واستكمل: إذن فلقد عرفتي من أنا. ولكن في ذلك العام لم يكن العبيد هم من أطاحوا بالرءوس في المقاصل، ولكن البرجوازيين المهرة، والذين لابد وأن تكرهينهم. ثم إن الكونت جيرمانو خلال القرون الكثيرة التي عاصرها شهد إطاحة الكثير من الرءوس، وشهد الكثير منها تعود مرة أخرى لمكانها أيضًا. ولكن ها هي اليالوريكسا قد حضرت."

كان اللقاء مع كاهنة الساحة هادئًا ووديًا، متحضرًا وغنيًا بالفلكلور. كانت سيدة سوداء ضخمة ذات ابتسامة ساحرة. في البداية تمنحك الانطباع بأنها ربة أسرة، ولكن

عندما بدأنا التحدث أدركت لماذا استطاعت النساء بصفة عامة السيطرة على الحياة الثقافية في السلفادور.

سألتها: ولكن هؤلاء الأوراكسيس شخصيات أم قوى خفية؟

ابتسمت المابة دي سانتوس وأجابت إنها قوى، بالتأكيد، قوى المياه والرياح، الأوراق وقوس قزح. ولكن كيف يمكن منع البسطاء من رؤيتهم كمحاربين، كنساء وقديسي الكنيسة الكاثوليكية؟ وأنتم أيضًا، ألستم تتضرعون لقوة كونية على شكل الكثير من العذارى؟ الشيء المهم هو تقديس تلك القوة، شكلها يعتمد بعد ذلك على إمكانات فهم كل شخص.

ثم دعتنا للخروج إلى الحديقة الخلفية لنزور الهياكل الصغيرة قبل بداية الطقس. في الحديقة كانت توجد منازل الأوراكسيس. كانت هناك مجموعة من الفتيات السود، يرتدين زيًا باهيا مجتمعين بفرح استعدادًا للطقس.

كانت منازل الأوراكسيس مرتبة في الحديقة وكأنها هياكل الجبل المقدس، وكانت توجد على كل منها في الخارج صورة القديس شفيع المنزل. في الخارج كانت توجد الزهور والتماثيل بألوانها الصارخة، طعام طازج الطهي ومقدم للآلهة. كان الأبيض لأوكسالا والأزرق والقرنفلي ليامانجا، الأحمر والأبيض لزانجو والأصفر والذهبي لأجون... كان الأعضاء الأساسيون يجثون ويقبلون الأرض وهم يلمسون جباههم وما خلف أذنيهم.

عندئذ سألت: أليست يامنجا هي سيدة الحبل بلا دنس؟ وأليس زانجو هو القديس جوليلمو؟

نصحني آلييه قائلاً: لا تطرح أسئلة محرجة، في الأومباندا يزداد الأمر تعقيدًا. في جانب أوكسالا يوجد القديس أنطونيوس والقديسين كوزمو ودميان. وفي جانب يامنجا توجد السيرينات والحوريات، والكابوكلس: أرواح البحار والأنهار، البحارة والنجوم المرشدة. وفي الجانب الشرقي يوجد الهندوس والأطباء، العلماء والعرب، المغاربة واليابانيون، الصينيون والمغول، المصريون والأتراك، الإينكا والكاريبي، والرومان. وفي جانب أوكسوسي توجد الشمس والقمر، روح الشلالات وروح السود. وفي جانب أوجون يوجد أوجون بيامار، رومبي ماتو، إيارا، ميجي وناروا... الأمر يعتمد على أشياء مختلفة!"

قالت أمبارو مرة أخرى: يا يسوع!

همست لها بالقرب من أذنها: هنا يسمونه "أوكسالا"، اهدئي، سنقاوم."

أطلعتنا اليالوريكسا على سلسلة من الأقنعة التي كان يحملها بعض الشمامسة إلى المعبد. كانت أقنعة من القش أو أغطية للرأس، والتي سيكون على الوسطاء ارتدائها بمجرد دخولهم في حالة الانخطاف، متلبسين الآلهة. قالت لنا إنه نوع من الحياء، حيث إنهم في ساحات أخرى يرقصون ووجوههم مكشوفة، عارضين للحضور الآمهم. ولكن الأعضاء الأساسيين تتم حمايتهم واحترامهم، وإبعادهم عن فضول الوثنيين، أو من أي شخص لا يمكنه إدراك النشوة الداخلية والنعمة. وأضافت أنها عادة هذه الساحة، ولذلك لا يسمحون للغرباء للدخول بسهولة. وعلقت: من يدري ربما يومًا ما يفعلون ذلك، وربما نلتقي بكم مرة أخرى.

لكنها لم تدعنا نرحل قبل أن تقدم لنا بعضًا من طعام القديس من المطبخ وليس ما كان في السلال، حيث إن ذلك يجب أن يبقى كاملاً حتى نهاية الطقس. أخذتنا إلى خلف الساحة وكانت مائدة متعددة الألوان من نبات المانيهوت والفلفل الإسباني، جوز الهند والفول السوداني، الزنجبيل وحساء السمك، حساء الجمبري والإيفو، الكارورو والفول الأسود بالفاروفا، نشاء بالروائح النفاذة للتوابل الإفريقية، حلوى ومذاق استوائي قوي، والذي تناولناه من منطلق الواجب، عارفين أننا نشارك في طعام آلهة السودانيين القدماء. بل وقالت لنا اليالوريكسا لأن كل منا، دون أن يعرف، هو ابن لأحد الإوريكسا، وعادة ما يمكن معرفة أيهم. سألت بجسارة من هو أبي إذن، ترددت اليالوريكسا في البداية وقالت إنه لا يمكن المعرفة المؤكدة، ثم وافقت على فحص كف يدي، مرت بإصبعها عليه ثم نظرت إلى عيني وقالت: أنت ابن أوكسالا.

شعرت بالفخر، أما أمبارو التي بدأت تسترخي قليلاً اقترحت اكتشاف من يمكن أن يكون أبو آلييه، ولكنه قال إنه يفضل ألا يعرف ذلك.

عندما عدنا إلى المنزل قالت لي أمبارو: هل نظرت إلى يده؟ بدلاً من خط الحياة توجد العديد من الخطوط المقطعة. مثل مجرى للمياه يقابل صخرة ينفصل ويسير مترًا ابعد. خط يبدو لشخص لابد وقد مات مرات عديدة.

ـ البطل العالمي في التعاقب والتناسخ.

قالت أمبارو مبتسمة: سنقاوم!

(٢٩)

لا يوجد منطق يمكن أن ينكر وجودهم
الفعلي لمجرد أنهم يبدلون أو يخفون أسماءهم،
وأنهم يكذبون فيما يتعلق بأعمارهم، أو
باعترافهم يتجولون دون أن يعرفهم أحد.

Heinrich Neuhaus, Pia et ultimissima admonestatio de Fratribus Roseae-Crucis, nimirum: an sint? Quales sint? Unde nomen illud sibi asciverint, Danzica, Schmidlin, 1618 - ed.Fr. 1623, p.5)

كان ديوتاليفي يقول إن جيدولاه هو سفيراة النعمة والحب، النيران البيضاء ورياح الجنوب. في تلك الليلة في حجرة المنظار كنت أفكر أن الأيام الأخيرة التي قضيتها في باهيا مع أمبارو توضع أسفل هذا التعريف.

كنت أتذكر ـ وكم يمكن للمرء أن يتذكر بينما ينتظر في الظلام لساعات طويلة ـ إحدى الأمسيات الأخيرة. كانت أقدامنا تؤلمنا من السير الكثير بين الحارات والميادين وذهبنا للفراش مبكرًا، ولكن بلا رغبة في النوم. انحنت أمبارو على وسادتها في وضع جنيني، وتظاهرت بأنها تقرأ، عبر ركبتيها المبتعدتين قليلاً، أحد كتيباتي عن الأومباندا. ومن حين لآخر كانت تستلقي على ظهرها بكسل، قدماها متباعدتان والكتاب فوق بطنها تستمع إلي، بينما أقرأ كتاب عن الروزا كروتشي وأحاول أن أشركها في اكتشافاتي. كانت الأمسية عذبة، ولكن كما كتب بيلبو في أحد ملفاته، كان الإنهاك في القراءة لا يدع مساحة لتنفس الهواء.

اخترنا أن نقيم في فندق جيد، من النافذة كنا نرى البحر ومن المطبخ المُهمل، والذي تركناه مضيئًا، كانت تطل سلة مليئة بالفواكه الاستوائية التي ابتعناها ذلك الصباح من السوق.

" يقول هنا: في عام ١٦١٤ في ألمانيا ظهر كتاب مجهول المصدر عنوانه: الإصلاح العام والشعبي للكون بأكمله يتبعه حديث رهبانية الروزا كروتشي، وموجه إلى كل العلماء والملوك في أوروبا، مصحوبًا برد موجز من السيد هاسلماير، والذي بسبب هذا ألقاه اليسوعيون في السجن ثم سلسلوه بالحديد في الزنزانة. الآن وزع للصحف وأصبح معروفًا لجميع القلوب المخلصة. نشره في كاسل ويلهلم واسل Wilhelm Wessel.

ـ أليس عنوانًا طويلاً بعض الشيء؟

ـ يبدو أنه في القرن السابع عشر كانت عناوين الكتب كلها بهذه الطريقة. كتبت هذا لينا وردمويللر Lina Wertmuller. إنه عمل ساخر، حدوته عن الإصلاح العام للإنسانية، والمنقول جزئيًا من كتاب ترايانو بوكاليني Ragguagli di Parnaso. ولكنه يحتوي على مانيفستو مكون من حوالي اثنتي عشرة ورقة، حديث الإخوة، والتي سيتم نشرها منفصلة في العام التالي للنشر، مع مانيفستو آخر، مكتوب باللاتينية هذه المرة بعنوان: اعترافات رهبنة الروزا كروتشي لورثة أوروبا. في كلا المنشورين تقدم رهبانية الروزا كروتشي نفسها وتتحدث عن مؤسسها، الشخص الغامض ك. ر .C. R. فيما يلي ذلك، ومن خلال مصادر أخرى يتم التحديد أن الأمر يتعلق بشخص ما يُدعى كريستيان روزانكروتز.

ـ لماذا لا يوجد الاسم الكامل في الكتابات السابقة؟

ـ انظري، إن الأمر كله عبارة عن لعبة الحروف الأولى ، لم يذكر أحد باسمه الكامل، جميعهم يدعون ج.ج.م.ب.إ، ومن منهم لديه اسم لطيف يدعي ب.د. يقصون أعوام تكوين ك.ر.، والذي في البداية يزور القبر المقدس، ثم يرحل إلى دمشق، ثم يمر بمصر، ومنها إلى مدينة فاس في المغرب، والتي يقال إنها في تلك الفترة كانت أحد معاقل الحكمة الإسلامية. وهناك قام كريستيان، والذي كان يعرف اليونانية واللاتينية، بتعلم اللغات الشرقية، والفيزياء والرياضيات، تعلم أيضًا العلوم الطبيعية وجمع بين كل العلوم الألفية للعرب والأفارقة، وصولاً إلى القبالاه والسحر، مترجمًا أيضًا إلى اللاتينية كتاب لشخص غامض ليبر أم، وعرف بالتالي كل أسرار الكون الكبيرة والصغيرة. منذ قرنين انتشرت موضة كل ما هو شرقي، وخاصة إذا لم يكن مفهومًا.

ـ عادة ما يفعلون ذلك. بدافع من الجوع، من الإحباط؟ من الاستغلال؟ فلتسأل كأس الأسرار! إليك... وأعطتني ورقة لفتها: إنها الكأس الأصلي.

ـ أرأيت؟ أنت أيضًا لديك الرغبة في أن تنسى كل شيء!

ـ الفارق أنني أعرف أن هذا بفعل الكيمياء فقط، ولا توجد أسرار غامضة، يمكن لشخص لا يعرف العبرية أن يفهم ويفعل كل شيء. تعال إلى هنا!

ـ انتظري! بعد ذلك ذهب روزانكروتز إلى إسبانيا وهناك أيضًا يتعلم المزيد من المذاهب السرية، ويقال إنه كان يقترب أكثر من مركز المعرفة الكلي. وفي أثناء تلك الرحلات، والتي بالنسبة لأي مثقف في تلك الفترة تمثل بالفعل رحلة تجاه الحكمة الشاملة، أدرك أنه لابد من أن يؤسس في أوروبا جماعة توجه الحكام نحو طرق الحكمة والخير.

ـ فكرة فريدة من نوعها. كانت تستحق الدراسة العميقة بالفعل. أريد بعض ثمار المامايا الطازجة.

ـ المامايا في الثلاجة، كوني لطيفة واذهبي أنت، أنا أعمل الآن.

ـ طالما تعمل، فأنت من فصيلة النمل، ونظرًا لأنك نملة فعليك أنت أن تشتغل وتحضر المؤن.

ـ إن المامايا ليست طعامًا أساسيًا، بل للاستمتاع، وبالتالي يذهب ليأتي بها صرصار الحقل. وإلا يمكنني أنا الذهاب ولتستأنفي أنت القراءة.

ـ لا، بحق السماء! لكم أكره ثقافة الرجل الأبيض! سأذهب أنا.

كانت أمبارو تسير تجاه المطبخ الصغير وكنت أستمتع بالنظر إليها في اتجاه الضوء.

ـ بعد ذلك عاد ك.ر إلى ألمانيا، وبدلاً من أن يكرس نفسه لتحويل المعادن إلى ذهب، حيث كانت علومه الواسعة التي اكتسبها تسمح له بذلك، قرر أن يكرس نفسه للإصلاح الروحي. أسس بالتالي الرهبانية، مخترعًا لها لغة وكتابة سحرية، والتي كانت تهدف كأساس لتعليم الإخوة المنضمين للرهبنة.

ـ لا، توقفي، سيتسخ الكتاب بهذه الطريقة، ضعيها في فمي، لا، توقفي عن تلك التصرفات السخيفة، هكذا أفضل. يا إلهي كم هي شهية ثمرة المامايا... على كل حال ما كتبه أوائل المنضمين إلى جماعة الروزا كروتشي كان يمكن أن ينير العالم!

ـ ماذا كتبوا؟

ـ هنا تكمن الخدعة، لا يذكر المانيفستو شيئًا، يتركك في حالة التعطش تلك. إنه شيء غاية في الأهمية ولأهميته يجب أن يظل سرًا.

ـ يا لهم من أوغاد.

ـ لا، كفي عن هذا! على كل حال فإن الروزا كروتشي عندما تضاعف عددهم قرروا أن ينتشروا في أربعة أركان المسكونة، بهدف أن يعالجوا المرضى مجانًا، وألا يرتدوا ملابس تدل عليهم، وأن يرتدوا الملابس المتعارف عليها في كل بلد، وأن يتقابلوا مرة واحدة كل عام، وأن يخفوا أمرهم لمدة مائة عام.

ـ قل لي إذن ما نوع الإصلاح الذي رغبوا فيه بينما كان هناك بالفعل إصلاح قد تم بالفعل، ماذا كان مارتن لوثر بالنسبة إليهم؟ لا شيء؟

ـ ولكن حدث هذا قبل الإصلاح البروتستانتي. هنا في الهامش مكتوب أنه من قراءة خلال قراءة متأنية لوثيقتي الحديث والاعترافات يتضح أن...

ـ يتضح لمن؟

ـ عندما يتضح، فإنه يتضح، ليس من المهم لمن! إنه المنطق، قدرة الاستنتاج...كفي عن ذلك، أحاول الآن التحدث عن الروزا كروتشي، الموضوع جاد...

ـ بالطبع!

ـ إذن، كما يتضح، فإن روزانكروتز ولد عام ١٣٧٨، وتوفي عام ١٤٨٤، عندما كان عمره ١٠٦ عام، ومن السهل أن نخمن أن جماعة الإخوة السرية ساهمت بشكل كبير في ذلك الإصلاح حيث احتفلت عام ١٦١٥ بمئويتها. ومما يدل على ذلك أن شعار لوثر يحمل وردة وصليب.

ـ قدرة رائعة على التخيل!

ـ ماذا تريدين أن يضع لوثر على شعاره زرافة تشتعل أم ساعة تسيل؟ إن كل شخص نتاج زمنه. ولقد عرفت لمن أنتمي. اصمتي قليلا ودعيني أستكمل. حوالي عام ١٦٠٤، وبينما يقوم الروزا كروتشي بترميم جزء من قصرهم أو قلعتهم السرية، عثروا على لوحة مثبت فيها مسمار ضخم. نزعوا المسمار فسقط جزء من الحائط وظهر خلفه باب، وعلى الباب كُتب بحروف كبيرة . ...POST CXX ANNOS PATEBO

وكنت قد قرأت هذا بالفعل في خطاب بيلبو، ولم أستطع أن أمنع نفسي من رد الفعل فصحت: يا إلهي...

ـ ماذ حدث؟

ـ إنه مثل وثيقة لفرسان المعبد، والتي... إنها قصة لم أقصها لك من قبل عن كولونيل...!

ـ ماذا إذن! نقل فرسان المعبد العبارة من الروزا كروتشي!

ـ ولكن فرسان المعبد ظهروا قبل الروزا كروتشي.

ـ إذن قلد الروزا كوتشي فرسان المعبد.

ـ حبيبتي، ماذا يمكنني أن أفعل دونك!

ـ حبيبي، لقد حطمك آلييه هذا، فأنت في انتظار كشف ما.

ـ أنا؟ أنا لا أنتظر شيئًا!

ـ لحسن الحظ! فلتحترس إذن من أفيون الشعوب.

ـ إن الشعب المتحد لا يمكن هزيمته!

ـ فلتسخر كما شئت. هيا استكمل ما كنت تقرأه، أريد أن أعرف ماذا يقول هؤلاء الحمقى.

ـ أولئك الحمقى تعلموا كل شيء في إفريقيا، ألم تسمعي ذلك؟

ـ وبينما كانوا في إفريقيا قاموا بشحننا نحن إلى هنا.

ـ فلتشكري الله إذن على ذلك، كان يمكن أن تولدي في بريتوريا في جنوب إفريقيا.

قبلتها ثم أكملت: خلف الباب ظهرت مقبرة ذات سبع جوانب وسبع زوايا، مضاءة بطريقة عجيبة بشمس صناعية. في الوسط هيكل مستدير مزين بمقولات شهيرة متنوعة أو شعارات، من نوع Nequaquam vacuum

ـ كواك كواك؟؟؟ من كتب هذا بطوط؟

ـ إنه مكتوب باللاتينية ويعني "لا وجود للفراغ".

ـ لحسن الحظ، وإلا كانت ستحدث أشياء مرعبة...

ـ قومي بخدمة جليلة وأديري المروحة..

ـ ولكننا في الشتاء.

ـ بالنسبة إليكم يا من تسكنون الجزء الخاطئ من الكرة الأرضية يا حبيبتي. نحن في شهر يوليو، أديري المروحة أرجوك، وليس هذا لأنني الرجل وأطلب ذلك، ولكن ببساطة لأنك أقرب. أشكرك. أسفل الهيكل كان يوجد جسد المؤسس، في إحدى يديه يمسك بالكتاب الأول مصدر الحكمة اللانهائية، ويا للأسف لأن العالم لن يمكنه معرفتها ـ يقول المانيفستو ـ وإلا ....

ـ ماذا؟

ـ كما كنت أقول، ينتهي المانيفستو بأن يعد بأن هناك كنزًا رهيبًا مازال مختبئًا واكتشافات مذهلة حول العلاقات بين الكون الماكرو والكون الميكرو، لا تخدعوا أنفسكم وتعتقدون أننا مجرد سيميائيين رخيصي الثمن وأن هدفنا هو أن نعلمكم تحويل المعادن إلى ذهب. إن ذلك مجرد شيء تافه، نحن نسعى إلى الأفضل ونتطلع إلى أعلى بكثير، بكل المعاني. سنقوم بتوزيع تلك الأحاديث بخمس لغات، وقريبًا ستظهر أيضًا الاعترافات. نحن ننظر ردودكم ، وننتظر ردود الحكماء والجهلاء، اكتبوا إلينا أو اتصلوا بنا، اذكروا أسماءكم لنرى إذا كنتم تستحقون أن تشاركوننا في أسرارنا، والتي منحناكم مذاقها. ثم هناك عبارة الختام باللاتينية.

ـ والتي معناها؟

ـ السلام ختام. الخلاصة أن الروزا كروتشي كانوا يأملون بشدة أن يطلعوا أحدًا على ما يعرفونه، وكانوا ينتظرون بشوق للمستمع الصالح. ولكن لا توجد كلمة واحدة عما كانوا يعرفونه.

ـ مثل ذلك الشخص الذي رأينا صورته في ملحق المجلة التي وجدناها في الطائرة: إذا أرسلتم إلي عشرة دولارات سأطلعكم على سر كيف يمكن أن تصبح مليونيرًا.

ـ ولكنه لا يكذب، فلقد اكتشف السر بالفعل، مثلما اكتشفته أنا أيضًا.

ـ اسمع، من الأفضل أن تستكمل ما تقرأه. يبدو أنك لم ترني قبل هذا المساء.

ـ إنني أراك في كل لحظة وكأنني أراك لأول مرة.

ـ رد أسوأ. لا أمنح ثقتي لأول من يتقدم. ولكن كيف تعثر أنت عليهم جميعًا: في البداية فرسان المعبد والآن الروزا كروتشي، ولكن هل قرأت بليشانوف؟

ـ لا، أنتظر أن أكتشف قبره، ربما بعد مائة وعشرين عامًا، إذا لم يقم ستالين ويدكه بالجرارات.

ـ يالك من أحمق. سأذهب إلى الحمام.

(٣٠)

وها هي رهبنة الروزا كروتشي الشهيرة تعلن للعالم كله عن وجود نبوءات هذيانية مليئة بالانخطاف، فبمجرد ظهور ذلك الشبح (على الرغم من أن مانيفستو الحديث والاعترافات لم يكونا سوى تسلية بسيطة لعقول تسترخي) بعث على الفور الأمل في إصلاح كوني، وأنتج أشياء جزء منها سخيف وعبثي وجزء منها لا يصدقه عقل. وهكذا ألقى رجال حقيقيون وشرفاء من مختلف البلاد أنفسهم في تأملات وتخاريف ليعلنوا عن دعمهم المادي الكامل أو لإقناع أنفسهم بأنهم يمكنهم الوصول إلى أولئك الإخوة... من خلال مرآة سليمان أو وسائل سرية أخرى.

Christopher von Besold (?), Appendice a Tommaso Campanella, Von der Spanischen Monarchy, 1623)

إلا أن الإثارة لم تقف عند هذا الحد، وعندما عادت أمبارو استطعت بالفعل أن أقص عليها أحداثًا مدهشة. "إنها قصة لا يصدقها عقل، ظهرت المانيفستو في عصر انتشر فيه هذا النوع من النصوص، الجميع يبحثون عن تجديد، عن عصر ذهبي، بلد يبحث عن كوكايين للروح. بعضهم انكب على النصوص السحرية، وآخرون مكثوا في الأفران لإعداد المعادن، وهناك من حاول السيطرة على النجوم، ومن عمل على تطوير حروف هجائية سحرية ولغة كونية. في براغ، حوّل رودولفو الثاني بلاطه إلى معمل سيميائي، دعا كل من كومينيو وجون دي، عالما النجوم في بلاط إنجلترا الذي كشف عن كل أسرار الكون في صفحات قليلة في كتابه: الجوهر الهيروغليفي Monas Ierogliphica، أقسم أن هذا اسم الكتاب.

ـ وهل اعترضت أنا على شيء؟

ـ كان طبيب رودولفو الثاني هو ميشيل مايير ذلك الذي ألف كتابًا عن الشعارات المرئية والموسيقية، بعنوان Atlanta Fugiens، احتفالية من البيض الفلسفي والتنانين الذين يعضون أذيالهم، أبا الهول، ولا شيء أكثر إضاءة من الرقم السري، كل شيء يرمز لشيء آخر. هل تدركين ماذا كان يحدث: كان جاليليو يلقي بأساس برج بيزا، في الوقت التي يلعب فيه ريشيليو المونوبلي مع نصف أوروبا، وهنا الجميع يدورون وأعينهم محدقة ليقرأوا علامات العالم: دائمًا يظل الجزء الأحلى لكم، وبالإضافة لوقوع عظائم الأمور هنا في أسفل (أقصد في أعلى) يوجد شيء آخر تمامًا، الآن سأقوله لك: أبراكدابرا. كان تورشيللي يبني البارامتر والآخرون يرقصون الباليه، وألعاب المياه، والنيران الاحتفالية في هورتس بالاتينيوس في هايندبرج. وكانت حرب الثلاثين عام على وشك الانفجار.

ـ من يدري كم كانت الأم شجاعة تشعر بالسعادة.

ـ ولكن حتى هم لم يكونوا يمرون بفترة سهلة. ففي عام ١٦١٩ قبل المرشح البلاتيني!! تاج بوهيميا، وأعتقد أن ذلك كان بسبب رغبته المحمومة في حكم براغ المدينة الساحرة. ولكن بعد ذلك بعام واحد صلبه سكان أسبرج في الجبل الأبيض، وفي براغ أخذوا يذبحون البروتوستانت، وحرقوا منزل كومينيو، ومكتبته، ثم قتلوا زوجته وابنه، أما هو فهرب من بلاط لآخر مردداً كم كانت جميلة ومليئة بالآمال فكرة الروزا كروتشي.

ـ مسكين هو أيضًا، ماذا توقعت أن يفعل إذن؟ أن يعزي نفسه بالبارومتر؟ ولكن لحظة واحدة! أنت تعرف كم يصعب علينا نحن النساء الإمساك بكل الخطوط بسرعة، من قام إذن بكتابة تلك الإعلانات (المانيفستو).

ـ هنا تكمن المشكلة! لا أحد يعرف. دعيني أحاول اكتشاف هذا.. هل يمكن أن تحكي لي ظهري؟ لا ليس هنا، أعلى قليلاً... أجل هنا تماما. إذن، كان هناك بالفعل في تلك البيئة الألمانية شخصيات خرافية. إليك: كان هناك سيمون ستوديون الذي ألف Naometria، مخطوطًا سريًا عن مقاييس معبد سليمان، وهناك هنريخ خونرات الذي ألف Amphitheatrim Sapientiae aeternae، المليء بالرموز والحروف العبرية، المتاهات القبالية والتي لابد أوحت لمؤلفي الحديث. هؤلاء لابد وأنهم كانوا أصدقاء أحد تلك الآلاف من المجموعات الدينية السرية اليوتوبية المتعلقة بإحياء المسيحية. أحد الإشعاعات تؤكد أن المؤلف هو شخص يدعي جوهان فالانتين آندرييه، في العام التالي سينشر "الزيجات الكيميائية لكريستيان روزينكروز"، ولكنه كتبه عندما كان شابًا. إذن ففكرة الروزا كروتشي كانت تدور في ذهنه منذ فترة. ولكن حوله في توبينجا كان هناك متحمسون آخرون، يحلمون بالجمهورية المسيحية، ربما اتحدوا جميعًا معًا. ولكن على ما يبدو فعلوا ذلك كنوع من المزحة، لعبة، لم يكونوا ينكرون على الإطلاق في خلق ذلك الاضطراب. سيقضي آندرييه حياته بعد ذلك في أنه لم يكتب أي مانيفستو، والتي أعلن أنها كانت عبثًا، ملهاة، مجرد خدعة. كلفه ذلك سمعته الأكاديمية مما أثار غضبه وقال إنه حتى وإن كان هناك وجود فعلي للروزا كروتشي فهم ليس إلا مجموعة من المحتالين. ولكن هذا لم يغير من الأمر شيء، بمجرد أن ظهر المانيفستو، بدا وكأن الجميع كانوا في انتظاره. قام المثقفون في أوروبا كلها بالكتابة بالفعل للروزا كروتشي،

ونظرًا لم يكونوا يعرفون لهم عنوان، أخذوا يكتبون خطابات مفتوحة، منشورات ويطبعون كتب. في العام نفسه ألف ماير Arcana arcanissima: رواق الأروقة، والذي لم يشر فيه على الإطلاق إلى الروزا كروتشي، ولكن اقتنع الجميع أنه يتحدث عنهم وأنه يعرف أكثر بكثير مما أفصح عنه. أخذ البعض يتفاخرون بأنهم قرأوا المانيفستو عندما كان في طور الإعداد. لا أعتقد أنه كان بالشيء اليسير في تلك الفترة إعداد الكتب للطباعة، وخاصة إذا كان بها كليشيه، ولكن روبرت فلوود عام ١٦١٦ (كان يكتب في إنجلترا ويطبع في ليلا، بالإضافة إلى الرحلات الخاصة بإعداد المسودات) نشر ووزع Apologia compediaria Fraternitatem de Rosea Cruce suspicionis e infamiis maculis asperasam, veritatem quasi Fluctibus abluens et abstergens للدفاع عن الروزا كروتشي وتحريرهم من الشكوك التي كانت تدور حولهم، ومن تلك الوصمات التي التصقت بهم. هذا يعني أن جدلاً محمومًا قد اشتعل بين بوهيميا وألمانيا، إنجلترا وأورلاندو، جدل حي بالعربات التي تجرها الخيول والدارسون الرحالة.

ـ وماذا عن الروزا كروتشي أنفسهم؟

ـ الصمت المميت. فترة المائة والعشرين عامًا الوهمية! كانوا يراقبون الأمر من شرفات قصرهم. أعتقد أن صمتهم هذا هو الذي أثار الجميع إلى حد كبير. كان عدم ردهم هذا يُتخذ كدليل على أنهم موجودون بالفعل. في عام ١٦١٧ كتب فلود Tractatus apologeticus integritam societatis de Rosa Cruce defendens وفي مؤلف آخر De Naturae Secretis نُشر عام ١٦١٨ قال أحدهم إنه قد حانت الساعة للكشف عن سر الروزا كروتشي.

ـ وكشفوا عنه؟

ـ بالطبع لا، لقد عقدوا الأمور أكثر مما كانت. لأنهم اكتشفوا أنه بطرح الأعوام الألف والمائة وثمانية عشر من المائة والثمانية والثمانين عامًا التي وعدت بها جماعة الروزا كروتشي سينتج عام ١٤٣٠، والذي فيه تأسست جماعة الفروة الذهبية.

ـ وما دخل هذا؟

ـ لا أفهم لماذا ١٨٨ بدلاً من ١٢٠، ولكن عندما يرغب المرء في عمل عمليات حسابية من طرح وجمع تصوفية، عادة ما تنتج بالطريقة التي يتمناها. أما بالنسبة لجماعة الفروة الذهبية، فهم جماعة الفروة الذهبية لرفاق سفينة الآرغو، وعرفت من مصادر

موثوقة أن لهم علاقة ما بالكأس المقدسة، وبالتالي، إذا سمحتى لي، بفرسان المعبد أيضًا. ولكن لا ينتهي الأمر عن هذا الحد. في الفترة بين ١٦١٧ و١٦١٩ قام فلود، والذي من الواضح أنه كان ينشر كتبًا أكثر من باربارا كارتلاند، أعد أربعة كتب أخرى للنشر، منها كتابه Utriusque cosmic historia، وهو ملاحظات مختصرة عن الكون، ومليء بصور الوردة والصليب. الأمر الذي شجع ماير فيما بعد على نشر مؤلفه Silentium post clamores: الصمت عقب الصخب، والذي فيه يؤكد أن الجماعة كانت موجودة بالفعل، وأنها ليست فقط مرتبطة بجماعة الفروة الذهبية، ولكن أيضًا بجماعة جارتر. ولكنه كان شخصًا متواضعًا جدًا ليقبلوه فيها. تخيلي مثقفي أوروبا كيف كانوا. إذا لم يقبلوا ماير فلابد أنه كان شيئًا استثنائيًا بالفعل. وبالتالي بدأ كل أنصاف المثقفين بتزييف هوياتهم ليستطيعوا الدخول. والجميع يؤكدون أن للروزا كروتشي وجود، يعترف الجميع بأنهم لم يروهم من قبل، والجميع يكتبون وكأنهم يرغبون في تحديد ميعاد للقائهم، وكانهم يتوسلون لمستمع ما، لا أحد منهم يملك الجرأة ليقول إنه منهم، البعض يتراجعون ليقولوا إن لا وجود لهم حيث لم يتصل بنا أحد، والبعض الآخر يقولون إنهم موجودون على أمل أن يتصل بهم أحد.

ـ وماذا عن الروزا كروتشي؟

ـ الصمت التام.

ـ افتح فمك، أنت بحاجة لبعض الماما يا.

شهية. في الوقت نفسه بدأت حرب الثلاثين عامًا، وكتب جوهان فالانتين آندريا برج بابل، يعد فيه أن المسيح الدجال سيُهزم في غضون عام واحد، بينما ألف شخص يدعي إيرانيوس أجنوستوس "تينتينابولوم سوفوروم..." Tintinnabulum sophorum

ـ ما أجمله اسم!

ـ ... بعد ذلك لا أفهم ماذا يقول، ولكن من المؤكد أن كمبانيللا أو من يتحدث باسمه لدى العائلة المالكة قال إن عملية الروزا كروتشي برمتها هي مجرد تسلية بعض العقول الفاسدة... ثم بعد ذلك صمت الجميع في الفترة بين ١٦٢١ و١٦٢٣.

ـ بهذه البساطة؟

ـ أجل بهذه البساطة. فلقد شعروا بالتعب، مثل فريق البيتلز الإنجليزي. ولكن فقط في ألمانيا، لأنها تبدو كقصة سحابة مسمومة، إذ أنها انتقلت إلى فرنسا. ففي صباح أحد الأيام، وعلى حوائط باريس ظهرت لافتات الروزا كروتشي التي تعلن للمواطنين الصالحين انتقال مندوبي الكلية الرئيسية للجماعة الرهبانية إلى هناك وفتحوا باب التسجيل للراغبين في الانضمام. وفي رواية أخرى أعلنت اللافتات بوضوح شديد عن وجود ست وثلاثين، مجموعة خفية موزعة في العالم في ست مجموعات، وأن في مقدرتهم جعل من ينضم إليهم خفيًا... انظري إنه رقم ستة وثلاثين مرة أخرى..

ـ وماذا عن رقم ستة وثلاثين؟

ـ الموجود في وثيقتي الخاصة بفرسان المعبد.

ـ أناس لا قدرة لهم على التخيل. وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ نتج عن ذلك جنون جماعي، ظهر من يدافع عنهم، ومن يرغب في التعرف عليهم، من يتهمهم باتباع الشيطان وبالسيميائية والإلحاد، وإن عشتار يتدخل ليجعلهم أغنياء، أقوياء، وقادرين على الانتقال في لمح البصر من مكان إلى آخر. أي أنهم أصبحوا حديث المدينة.

يالهم من خبثاء! لا شيء يضاهي الانطلاق من باريس ليصبح المرء حديث الجميع.

يبدو أنك على حق، فلتستمعي إلى مّا حدث، يا إلهي، يا له من عصر. كان كارتيزيو، بنفسه، في ألمانيا في السنوات السابقة لذلك، وكان يبحث عنهم، ويقول كاتب سيرته الذاتية بأنه لم يعثر عليهم، لأنهم، كما نعرف، يتجولون متخفيين. عندما عاد إلى باريس، بعد ظهور تلك المنشورات، عرف أن الجميع يعدونه أحد الروزا كروتشي. وفي ظل ما كان يُقال عنهم لم يكن ذلك شيئًا مستحبًا، وكان ذلك أيضًا يضايق صديقه مارسيني، والذي كان بالفعل يثير الصخب ضد الروزا كروتشي ناظرًا إليهم على أنهم متشردون ومخربون، سحرة وقباليون، يرغبون في نشر تعاليم منحرفة. عندئذ كيف تصرف كارتيزيو؟ بدأ يظهر في كل مكان، حيثما استطاع. ونظرًا لأن الجميع كانوا يتمكنون من رؤيته، فهو ليس خفيًا، وبالتالي ليس أحد الروزا كروتشي.

ـ وهل هذه طريقة مقنعة بالنسبة إليك؟

ـ بالتأكيد لم يكن الإنكار وحده كافيًا. فالأمر كان كالتالي: إذا تقدم إليك أحدهم وألقى بالتحية وأضاف أنه أحد أعضاء الروزا كروتشي كان هذا دليلاً على أنه ليس كذلك. إن الروزا كروتشي الحقيقي لم يكن يفصح عن هويته. بالعكس كان يعمل دائمًا على إنكارها.

ـ ولكنك لا تستطيع أن تؤكد أن من ينكر كونه من الروزا كروتشي هو منهم، لأنني أقول إنني لست منهم، وهذا لا يجعلني واحدة من الروزا كروتشي.

ـ ولكن الإنكار في حد ذاته مثير للشك.

ـ لا، ليس الأمر كذلك. ماذا سيفعل عضو الروزا كروتشي عندما يدرك أن الناس لا تصدق من يقول إنه منهم، وأن الناس تشك فقط فيمن ينكر كونه واحدًا منهم؟ سيؤكد أنه منهم ليبعد الشك عن نفسه.

ـ يا للشقاء. إذن منذ الآن كل من يقول إنه من الروزا كروتشي يكذبون، وبالتالي فهم بالفعل من الروزا كروتشي! لا يا أمبارو، دعينا لا نسقط في فخهم، فهم لديهم الجواسيس في كل مكان، ربما أسفل فراشنا هذا، وبالتالي فهم يعرفون بالفعل إننا نعرف، وبالتالي سيقولون إنهم ليسوا منهم.

ـ إنك تخيفني الآن يا حبيبي.

ـ اهدأي يا حبيبتي، فأنا هنا معك، وأنا شخص غبي، إذا أنكر أحدهم كونه منهم فأنا أصدق العكس، وبالتالي أنزع عنه قناعه على الفور، والروزا كروتشي منزوع القناع لا خوف منه، يمكنك إخافته وطرده من النافذة كالذبابة بتحريك جريدتك الملفوفة.

ـ وماذا عن آلييه؟ إنه يحاول أن يدفعنا على التصديق إنه كونت سان جيرمانو. بالتأكيد حتى لا نصدق إنه هو بالفعل. إذن هل هو أحد الروزا كروتشي أم لا؟

ـ أمبارو، دعينا نحاول الحصول على قسط من النوم.

ـ لا وألف لا، الآن أريد معرفة النهاية.

ـ ما يلي ليس إلا فوضى تامة. الجميع روزا كروتشي. عام ١٦٢٧ ظهر كتاب أطلانطيس الجديدة لبيكون، واعتقد قراؤه أنه يتحدث عن بلدة الروزا كروتشي، حتى إذا كان لم يذكرهم على الإطلاق. يموت جوهان فالانتين آندريا المسكين وهو مازال

يقسم بأنه لم يكن أحد الروزا كروتشي، وإنه إذا كان قد قال ذلك بالفعل، كان ما قاله مجرد مزحة، ولكن تأخر الوقت. كان الروزا كروتشي في كل مكان يساهدهم واقع أنهم لم يكن لهم وجود قط.

ـ مثل الرب.

ـ والآن وقد أثرتي هذا، دعينا نرى كيف كان الأمر. متى ومرقس ولوقا يوحنا مجموعة من المهرجين، يجتمعون في مكان ما ويقررون عمل مسابقة، يبدعون شخصية ما، يؤسسون بعض الوقائع الأساسية ومن هنا ينطلقون، الباقي متروك لكل واحد منهم، في النهاية سيتقابلون ليروا من كان الأفضل. انتهت القصص الأربع في يد بعض الأصدقاء من النقاد. متى واقعي جداً، ولكنه يصر جداً على موضوع المسيح المنتظر، مرقس، لا بأس، ولكنه غير منظم، لوقا، أنيق، لابد من الاعتراف بذلك، يوحنا يبالغ في لغة فلسفية... ولكن في النهاية يُعجب الجميع بالكتب، وتتناولها الأيدي، وعندما يدرك الأربعة ما يحدث حولهم يكون قد فات الأوان فلقد قابل بولس المسيح على طريق دمشق وبدأ بلينيوس تحقيقه بناء على أمر من الإمبراطور القلق، وقام فيلق من كتاب الأبوكريف بالادعاء بأنهم هم أيضًا يعرفون الكثير... ويتصاعد كل شيء في رأس بطرس الذي يتعامل مع الأمر بجدية شديدة، يهدد يوحنا بأن يقول الحقيقة، يقبض عليه بطرس وبولس وينفياه إلى جزيرة بطمس ويبدأ المسكين في "رؤية" أشياء: النجدة يوجد جراد حول فراشي، أوقفوا أصوات الأبواق، ومن أين تأتي كل هذه الدماء... وماذا إذا كان هذا ما حدث بالفعل؟

ـ هذا ما حدث، لتقرأ فورباخ بدلاً من كتبك الفاشلة تلك.

ـ أمبارو، إنه الفجر!

ـ لابد أننا مجانين.

ـ الآن تتحرك الأصابع الوردية ببطء لتصافح الأمواج...

ـ أجل، استمر. اصغ جيدًا، إنها يامانجا! هاهي تقترب.

ـ أرني استهزاءك

ـ آه التينتينابولوم!

ـ أنت هي مؤلفي الشعرى..

ـ وأنت هو برجي البابلي

ـ أرغب في رواق الأروقة، الفروة الذهبية، الشاحبة والوردية مثل القوقعة البحرية...

فقالت: ششش... الصمت يعقب الضوضاء.

(٣١)

من المحتمل أن أغلب الروزا كروتشي المزعومين، والمعروفين للجميع على أنهم كذلك، كانوا بالفعل من الروزا كروتشي... ولكن من المؤكد أيضًا أنهم لم يكونوا كذلك في الحقيقة، لأنهم كانوا جزءًا من تلك المؤسسات، وهو الشيء الذي يبدو عبثيًا ومتناقضًا منذ الوهلة الأولى، إلا أن الأمر برمته كان سهل الاستيعاب.

René Guénon, Aperçu sur l'initiation, Paris,)
Editions Traditionnelles, 1981, XXXVIII,

عدنا إلى ريو واستأنفنا أعمالنا. في أحد الأيام وعلى صفحات إحدى المجلات المصورة رأيت أنه في المدينة توجد جماعة قديمة من الروزا كروتشي معترفًا بها. اقترحت على أمبارو أن نذهب لنلقي نظرة فتبعتني مرغمة.

كان المقر يقع في طريق ثانوي، وفي الخارج كانت هناك واجهة زجاجية بها تماثيل من الجبس تمثل خفرع ونفرتيتي وأبو الهول.

في تلك الظهيرة كانت هناك جلسة كاملة مقررة في ذلك اليوم بعنوان: الروزا كروتشي والأومباندا". كان المتحدث أستاذًا جامعيًا يُدعى برامانتي، المتحدث باسم الجماعة في أوروبا، والفارس السري للدير الكبير في رود، ومالطا وتسالونيكي.

قررنا الدخول. كان الجو غير مريح، مزينًا بتماثيل صغيرة تمثل الثعبان كونداليني، ذلك الذي أراد فرسان المعبد إيقاظه بقبلة علي المؤخرة. قلت لنفسي إنه في كل الأحوال لم يكن علي عبور الأطلسي لاكتشاف عالمًا جديدًا، نظرًا لأنه كان بإمكاني العثور على الأشياء نفسها في مقر بيكاتريكس.

جلس البروفسور برامانتي خلف إحدى الموائد المغطاة بغطاء أحمر اللون، في مواجهة جمهور متفرق وناعس. كان رجلا سمينًا والذي كان يمكن وصفه بالخنزير، لولا عظامه. كان قد بدأ التحدث بالفعل عندما دخلنا وكان أسلوبه خطابيًا. لم يكن قد بدأ منذ فترة طويلة حيث كان مازال يتناول الروزا كروتشي في فترة الأسرة الثامنة عشرة، فترة حكم أحمس الأول.

كان هناك أربعة من السادة الملثمين يشرفون على تطوير الجنس الذي قام قبل تأسيس طيبة بخمسة وعشرين ألف عام بتأسيس حضارة الصحراء. متأثرًا بأولئك

الأربعة، قام الفرعون أحمس بتأسيس الأخوة البيضاء العظيمة، حماة تلك الحكمة، حكمة ما قبل الطوفان، والتي كانت بين يدي المصريين. وكان برامانتي يؤكد أن لديه ما يدعم نظريته من الوثائق (والتي بطبيعة الحال لا يمكن للوثنيين الاطلاع عليها)، وثائق تعود إلى حِكمة معبد الكرنك وأرشيفاتهم السرية. أما رمز الوردة والصليب فقد كانت فكرة الفرعون أخناتون. هناك من لديه بالفعل أوراق البردي، قال برادامانتي، ولكن لا تسألوني من هو.

وفي رعاية الأخوة العظيمة البيضاء تعلم وتكون كل من: هيرمس تريجماجيستوس (والذي أثر على النهضة الإيطالية تأثيره علي فيما بعد على غنوصية برينسيتون)، وهوميروس، على درويد الغال وسليمان، سولون وفيثاغورث، أفلاطون والإثنيين، الثيرابوتين ويوسف الناسك (الذي أحضر الجرال إلى أوروبا)، ألكوين والملك داجوبير، القديس توماس وبيكون، شكسبير وسبينوزا، يعقوب البوهيمي وديبوسي، آينشتين. عندئذ همست آمبارو في أذني قائلة إنه لا ينقص هذه القائمة سوى نيرون، كامبرون وجيرونيموس، بانشو فيللا وبوستر كيتون.

وفيما يتعلق بتأثير الروزا كروتشي الأصليين على المسيحية، أعقب برانانتي، لمن لم يتأمل الموقف بعد، بأنه لم تكن من محض المصادفة بأن الأسطورة أرادت أن يموت المسيح على الصليب.

إن حكم الأخوة العظيمة البيضاء كانت هي نفسها التي أسست أول محفل ماسوني في وقت الملك سليمان. أما بالنسبة لكون دانتي ينتمي للروزا كروتشي والماسونيين ـ مثل القديس توماس ـ فذلك واضح وضوح الشمس في الكوميديا الإلهية. في النشيد الرابع والعشرين والخامس والعشرين من أناشيد الفردوس، توجد القبلة الثلاثية للأمير روزا كروتشي البليكاني، العبايات البيضاء (التي كان يرتديها شيوخ سفر الرؤية)، والفضائل الثلاثة المكتوبة في الفصول الماسونية (الإيمان والرجاء والمحبة). في الواقع أن الوردة رمز الروزا كروتشي (الوردة ناصعة البياض في الأنشودة الثلاثين والأنشودة الحادية والثلاثين)، استخدمتها كنيسة روما كرمز لأم المخلص، ولهذا أيضًا يعود السبب في وجود الوردة التصوفية في التسابيح.

وأضاف أيضًا أنه من الواضح تواجد جماعة الروزا كروتشي في العصور الوسطى، ليس فقط من خلال تأثيرهم في فرسان المعبد ولكن من خلال وثائق واضحة.

واسترشد برامانتي على ما يقوله بما كتبه شخص يدعى كيسويتر، والذي في نهاية القرن الماضي أثبت أن الروزا كروتشي قاموا في العصور الوسطى بصناعة أربعة قناطير من الذهب لهيئة منتخبي الأمير في ساكسونيا، والدليل الواضح على ذلك موجود على إحدى الصفحات في المسرح السيميائي Theatrum Chemicurn، الذي نُشر في ستراسبورج عام ١٦١٣. إلا أنه لم يلحظ سوى القليل من الإشارات إلى فرسان المعبد في أسطورة وليم تل: قطع تل سهمه من فرع من الدبق، نبات من الميثولوجية الآريانية، وأصاب التفاحة، رمز العين الثالثة النشطة للثعبان كونداليني ـ ومن المعروف أن الأريانيين أصلهم من الهند، حيث ذهب الرزوا كروتشي للاختباء عندما تركوا ألمانيا.

أما بالنسبة للحركات المتنوعة التي تزعم أنها من سلالة الإخوة البيضاء العظيمة، أحيانًا بطريقة طفولية، يعترف برامانتي بأن المستقيم منهم هي حركة اتباع الروزا كروتشي لماكس هايندل، ولكن فقط لأنه في ذلك الإطار تعلم الآن كارديك. والجميع يعرفون بالطبع أن كارديك هو أب النزعة الروحية، وأنه انطلاق من نزعته الثيوزوفية، تكونت روحانية الأومباندا، مجد البرازيل النبيلة. في هذه الثيوزوفية أومباندا هو تعبير سانكريتي يصف المبدأ المقدس ومصدر الحياة. ("لقد خدعونا مرة أخرى"، همست أمبارو في أذني، "حتى كلمة أومباندا ليست لنا، ليس لها من إفريقيا سوى الصوت.")

إن أصل الكلمة هو أوم Aum أو أُم Um، التي هي الأوم البوذية، وهي اسم الله في لغة آدم. إوم هو مقطع إذا تمت نطقه بالطريقة السليمة يتحول إلى مانترا قوية وينتج أمواجًا متدفقة من التناغم في النفوس من خلال سياكرا أو بليكسوس أمامي. ("ما هذا البليكسوس الأمامي"، همست أمبارو، "مرض عُضال؟")

أكد برامانتي أنه لابد من التمييز بين الروزا كروتشي الحقيقيين، ورثة الإخّوة العظيمة البيضاء، السرية بالطبع، كنظام عتيق ومقبول والذي يمثله هو بكل فخر، وبين الروزا كروتشي المزيفيين، أي من ينسب نفسه إلى الروزا كروتشي وتعاليمهم لأسباب شخصية، دون أن يكون له حق في ذلك. وحث الجمهور على ألا يثقوا في أي شخص يدعي أنه أخ للروزا كروتشي. (علقت أمبارو بأن أي روزا كروتشي هو أخ للآخر)

قام أحد المتهورين من الجمهور وسأل برامانتي لماذا إذن يزعم نظامه بأنه الأصلي طالما انتهك قاعدة الصمت، الشيء المميز لكل من ينتمي بالفعل للإخوة العظيمة البيضاء.

نهض برامانتي وقال: "لم أكن أعرف أن هنا أيضًا يتسلل المحرضون المأجورون للنزعة المادية الكافرة. نظرًا لهذه الظروف سأتوقف عن الحديث". وخرج في شيء من العظمة.

ذلك المساء اتصل آلييه يسأل عن أخبارنا ويعلن لنا أننا أخيرًا تمت دعوتنا لحضور طقس عبادة في اليوم التالي. واقترح أن نتناول مشروبًا معًا أثناء الانتظار. كانت أمبارو مرتبطة باجتماع سياسي مع أصدقائها، فذهبت وحدي إلى الميعاد.

(٣٢)

يحافظ أتباع فالانتينيوس الغنوصيون، بعناية شديدة، على تعليمهم. إذا كان بالإمكان أن نقول إن من يخفون تعليمهم يمكنهم منح أي تعليم... إذا طرحت عليهم أي سؤال، بنية سليمة، سيقولون لك بوجه متجهم، تملأه الدهشة إنها موضوعات عالية المستوى. إذا حاولت البحث بدقة، يؤكدون لك أنهم لديهم إيمانك بكلمات غامضة ومنافقة. إذا أظهرت معرفتك، ينكرون ما يعرفونه. إن تقنيتهم قائمة على تضليلك، وليس على أن يشرحوا بوضوح معتقداتهم.

(Tertulliano, Adversus Va-
lentiniamos)

دعاني آلييه لزيارة مكان مازال شراب الباتيدا يُصنع فيه بالطريقة التقليدية. خرجنا، وعلى بعد بضع خطوات من مدنية كرمن ميراندا، وجدت نفسي في مكان مظلم، يدخن فيه بعض السكان الأصليين نوعًا من الدخان السميك كالسجق، ملفوفًا في شيء بدا كالهوسر القديم، كانوا يتعاملون معه بأطراف أصابعهم ثم يحصلون منه على أوراق عريضة وشفافة، ثم يلفونه في أوراق قش مدهونة بالزيت. كانت تنطفئ باستمرار، ولكن هكذا يدرك المرء كيف كان التدخين عندما اكتشفه سير والتر رالي.

قلت لآلييه عن مغامرتي في تلك الظهيرة.

ـ هل تهتم الآن بالروزا كروتشي أيضًا؟ إن رغبتك في المعرفة لا حد لها يا صديقي. ولكن لا تهتم بأولئك المجانين، يتحدثون جميعًا عن وثائق غير قابلة للجدل، ولكن لم يطلعوا عليها أحدًا قط.. أعرف برامانتي هذا، يسكن في ميلانو، إلا أنه يسافر في أنحاء العالم لنشر دعوته. شخص غير مؤذي، ولكنه مازال يؤمن بكيسويتر. إن فرق من الروزا كروتشي يستندون إلى تلك الصفحة المكتوبة في المسرح السميائي. ولكن إذا ذهبت للبحث في ذلك الكتاب، والذي بكل تواضع أملك نسخة منه في مكتبتي الصغيرة في ميلانو، لا يوجد ما يتحدثون عنه.

ـ إذن فالسيد كيسويتر ليس إلا مهرجًا.

ـ ولكن يتخذ منه الكثيرون مرجعًا. المشكلة هي أن اتباع الطقوس السرية في القرن التاسع عشر سقطوا ضحية روح النزعة الإيجابية: يمكن للشيء أن يكون حقيقيًا فقط من خلال تجريبه. انظر إلى الجدل حول ذلك في المؤلفات الهرمسية Corpus Her-meticum . عندما قُدم في أوروبا في القرن الخامس عشر، أدرك بيكو ديللا

ميراندولا، فيتشينو، وكثير من الشخصيات الحكيمة، على الفور أن الأمر يتعلق بأعرق الحكم، حكمة تعود إلى حقبة ما قبل الفراعنة، إلى ما قبل موسى، حيث كانت توجد فيها أفكار سيتم تداولها بعد ذلك بدءًا من أفلاطون إلى المسيح.

ـ كيف بعد؟ إنه النقاش نفسه لبرامانتي عن دانتي الماسوني. إذا كانت المؤلفات تردد الأفكار نفسها الخاصة بأفلاطون وبالمسيح، فهذا يعني أنه كُتب بعدهما.

ـ أرايت؟ حتى أنت تفكر بالطريقة نفسها. في الواقع كان هذا موضوع نقاش الفيلولوجيين المعاصرين، والذين يضيفون إليه أيضًا تحليلات لغوية طنانة، ليثبتوا أن المؤلفات كُتبت بين القرنين الثاني والثالث من عصرنا هذا. كأننا نقول إن كاساندرا وُلدت بعد هوميروس، لأنها كانت تعرف أن طروادة ستؤول إلى الدمار. إنه مجرد وهم حديث ذلك أن نعتبر أن الزمن خطي وموجه، وأنه يسير من النقطة أ في تجاه النقطة ب. يمكن أيضًا أن يتوجه من ب إلى أ، والتأثير يولد السبب... ماذا يعني أن "المجيء قبل" أو "المجيء بعد"؟ لنأخذ مثالاً، هل صديقتك الجميلة أمبارو أتت قبل أم بعد أسلافها المخلطين؟ إنها غاية في الجمال والروعة (إذا سمحت لشخص في عمر أبيها أن يعبر بشغف عما يراه)، إذن فهي تأتي قبل، فهي تعد الأصل الغامض لما أسهم في خلقها.

ـ ولكن عند هذه النقطة ...

ـ إن مفهوم "هذه النقطة" هو المفهوم الخاطئ. إن النقاط شيء وضعه العلم، في الفترة التي تلت بأرمينيد اليوناني، لتحديد من أين إلى أين يتحرك الشيء. لا شيء يتحرك، ولا توجد سوى نقطة واحدة، تلك النقطة التي منها تولد كل النقاط الأخرى في اللحظة نفسها. إن سذاجة اتباع العبادات السرية في القرن التاسع عشر وفي القرن الحالي هو محاولة إثبات الحقيقة بأساليب الكذب العلمي. لابد أن نفكر تبعًا لمنطق التراث وليس تبعًا لمنطق الزمن. إن جميع الأزمنة هي مجرد نموذج للأخرى، إن المعبد الخفي للروزا كروتشي موجود وكان موجودًا في كل زمان، بغض النظر عن تدفقات التاريخ، تاريخكم. إن زمن الكشف الأخير ليس محسوبًا بزمن الساعات، إن روابطه متأصلة في "التاريخ الرقيق" حيث لا مكان لحسابات ما قبل وما بعد.

ـ إذن فجميع من يؤكدون أبدية الروزا كروتشي...

ـ مجانين علم، حيث إنهم يحاولون إثبات ما يجب معرفته، دون إثباتات. هل تعتقد أن المؤمنين الذين سنراهم غداً يعرفون، أو يستطيعون أن يظهروا كل ما قاله كارديك لهم؟ إنهم يعرفون لأن لديهم الاستعداد للمعرفة. إذا احتفظنا جميعًا بتلك الحساسية أمام السر لكنا غرقنا في الاكتشافات. ليست الرغبة هي الضرورية، يكفي أن يكون المرء مستعداً.

ـ لكن، اعذر لي تفاهتي، هل للروزا كروتشي وجود؟

ـ ما معنى وجود؟

ـ قل لي أنت.

ـ إن الأخوة العظيمة البيضاء، سواء أطلقت عليهم الروزا كروتشي، أم فروسية روحية، والتي يجسدها فرسان المعبد أحيانًا، هي مجرد مجموعة من الحكماء، القلة، بل القلة القليلة جداً المختارة، التي تبحر خلال تاريخ الإنسانية لتحفظ نواة المعرفة الأبدية. فالتاريخ لا يتطور مصادفة. إنه نتاج لعمل سادة العالم، والذي لا يفلت منهم أمر. وبالتأكيد يحمي هؤلاء السادة أنفسهم من خلال السرية، وبالتالي إذا وجدت أحيانًا من يقول إنه ينتمي للسادة، أو الروزا كروتشي أو لفرسان المعبد فهو كاذب. لابد من البحث عنهم في مكان آخر.

ـ إذن فهذه القصة ستستمر بلا نهاية؟

ـ بالفعل. وهذا يدل على دهاء السادة.

ـ ولكن ماذا يريدون أن يعرف الناس؟

ـ يريدونهم أن يعرفوا فقط أن هناك سرًا ما. لماذا سيرغب المرء في الاستمرار على قيد الحياة إذا كان كل شيء واضحًا للعيان؟

ـ وما هو هذا السر؟

ـ ذلك الذي لم تستطع الديانات التي ظهرت الإفصاح عنه. فالسر أبعد من ذلك.

إن الرؤى بيضاء وزرقاء، بيضاء وأحمر شاحب. إنها مختلطة وجميعها شاحبة، لون شعلة شمعة بيضاء، ترون بعض الوميض، تشعرون بالقشعريرة في كل جسدكم، كل هذا يعلن عن بداية الجاذبية التي تمارس على من يكمل المهمة.

Papus, Martines de Pasqually, Par-)
is, Chamuel, 1895, p.92)

وحانت الليلة الموعودة. وكما حدث من قبل في سلفادور أتى آلييه ليصحبنا. كانت الخيمة التي ستتم فيها الجلسة، في منطقة مركزية، إذ كان بالإمكان التحدث عن وسط مدينة تمد ألسنتها من الأراضي في وسط هضابها، وصولاً إلى البحر، وهكذا إذا نظرنا إليها من أعلى، في أضواء الليل، تبدو وكأنها رأس مزينة برقع من داء الثعلبة الداكن.

ـ تذكرا أن هذه الليلة يتعلق الأمر بالأومباندا، لن يكون هناك حلول للأوراكسيس ولكن سيكون الحلول للإجونس، أرواح الراحلين، وحلول أيضًا للإكسو، ولهيرمس الإفريقي الذي رأيتماه في باهيا، ورفيقته بومبا جيرا. الإكسو هو إله يوروبي، شيطان يميل إلى الخداع والمزاح، ولكن كان يوجد إله للخدع والمزاح في الميثولوجيا الأمريند أيضًا.

ـ ومن الراحلون؟

ـ بريتوس فيلوس وكابوكلوس. البريتوس فيلوس هم الحكماء المسنيني الأفارقة الذين قادوا شعوبهم في زمن القحط، مثل راي كونجو وباي أغوسطينو... إنهم ذكرى للمرحلة الأخف من العبودية، حيث لم يعد الأسود يُعامل كحيوان، بل أصبح صديقًا للعائلة، أحد الأعمام، أو الجدود. أما الكابوكلوس فهم أرواح الهنود، ربما تلك القوى العذراء التي تمثل نقاء الطبيعة الأصلية. في الأومباندا يظل الأوراكسيس الأفارقة في الخلفية، الآن انصهروا تمامًا مع القديسين الكاثوليك، وتتدخل فقط تلك الكائنات لتتسبب في حالة الانخطاف: الوسيط، الكافالو، عند لحظة معينة من اللحظات الراقصة يعلن عن تخلل كينونة أعلى له ويفقد الإدراك. ويبدأ في الرقص حتى يتركه ذلك الكيان، بعد ذلك يشعر بالتحسن، بالطهارة والنقاء.

قالت أمبارو: يا لهم من محظوظين.

ـ محظوظون بالفعل، أجاب آلييه، يدخلون في اتصال مع الأرض الأم. إن أولئك المؤمنين قد نُزعوا من جذورهم وتم الإلقاء بهم في بوتقة المدينة المشتعلة، وكما قال سبنجلر، يلجأ الغرب التجاري في أوقات الأزمات مرة أخرى إلى العالم الأرضي.

وصلنا. بدت الخيمة من الخارج كمبنى عادي: في ذلك المكان أيضًا كان الدخول عن طريق حديقة صغيرة، أكثر تواضعًا من حديقة باهيا، وأمام باب الباراكاو، شيء كالمخزن، وجدنا تمثالاً صغيرًا للإكسو، محاطًا بالفعل بالتقدمات طلبًا للشفاعة.

وأثناء الدخول جذبتني أمبارو جانبًا: لقد فهمت كل شيء بالفعل. ألم تسمع؟ إن الخنزير في الندوة كان يتحدث عن الحقبة الآريانية، وهذا الآن يتحدث عن أفول الغرب، الدم والأرض، إننا أمام نزعة نازية صرفة.

ـ ليس الأمر بهذه البساطة يا حبيبتي، نحن في قارة أخرى.

ـ شكرًا على المعلومة الثمينة. الإخّوة العظيمة البيضاء! ألستم أنتم الذين أعطاكم إلهكم نفسه لتأكلوه؟

ـ إن أولئك الذين تتحدثين عنهم هم الكاثوليك يا عزيزتي، ليس الأمر سيان.

ـ بل الأمر سيان. ألم تسمع؟ فيثاغورث ودانتي، العذراء مريم والماسونيون. كل هذا لتخدعوننا، لتمارسوا الأومباندا ولتدعوا الحب جانبًا.

ـ الشخص المرتبك الآن هو أنت. هيا لنذهب لنرى ماذا سيحدث، إنها ثقافة أيضا.

ـ لا توجد سوى ثقافة واحدة: لنشنق الكاهن الأخير بمصارين التابع الباقي من الروزا كروتشي.

أشار إلينا آلييه بالدخول. إذا كان الجزء الخارجي بسيطًا، كان الجزء الداخلي شعلة من الألوان العنيفة. كانت صالة رباعية الزوايا، بها منطقة مخصصة لرقص الوسطاء (الكافالوس)، كان الهيكل في العمق يحميه بوابة صغيرة، في مواجهته كان يوجد موقع الطبول: الآتاباك. كان الفضاء المخصص للطقس مازال شاغرًا، بينما هناك، بجانب البوابة الصغيرة، كان هناك حشد من المؤمنين والفضوليين، البيض والسود معًا، ومعهم يظهر الوسطاء ومساعدوهم، وجميعهم يتحركون. كان الكامبونوس، يرتدون الأبيض،

بعضهم حفاة الأقدام، آخرون يرتدون أحذية رياضية. صدمتني صور الهيكل على الفور: بريتوس فيلوس، كابكلوس من ريش متعدد الألوان، قديسون يبدون كأنهم خبز مصنوع من السكر، لولا أبعادهم الضخمة، سان جورج بدرعه اللامع وعباءته القرمزية، والقديسون كوزموس ودميان، عذراء تخترقها السيوف، ومسيح فوق واقعي، ذراعيه ممدوتين مثل مخلص كوركوفادو، ولكن بالألوان كان ينقصهم الأوراكسيس، ولكن كان وجودهم ظاهراً على وجوه الحشد، وفي الرائحة الحلوة للقصب وللطعام المطهي، في رائحة العرق الناتجة عن درجة الحرارة العالية، وبسبب الإثارة الوشيكة الحدوث.

تقدم الكاهن (الباي دي سانتو) إلى الأمام، وجلس أمام الهيكل وجمع بعض المؤمنين، والحضور، مغرقًا إياهم بالرائحة القوية لسيجاره، مباركًا إياهم ومقدمًا لهم كأسًا من الخمر، وكأنه نوع من الطقس الإفخارستي السريع. ركعت أنا ورفاقي، وشربت، لاحظت، وأنا أشاهد أحد المساعدين وهو يصب السائل من زجاجة، إنها زجاجة ديبونييه، ولكنني أخذت أتجرعها وكأنني أتناول إكسير الحياة. على المسرح كان الوسطاء قد بدأوا بالفعل في الضوضاء، بخبطات صماء، بينما كان الأولون ينشدون أغنية للإكسو، وللبومبا جيرا: طرقك الثابتة ممجدة! ممجدة! ممجدة! طرقك السبع ممجدة! المجد لبومبا جيرا!

بدأ الطقس برفع البخور بواسطة الكاهن وتصاعدت روائح البخور الهندي الثقيلة، مع تضرعات خاصة للأوكسالا ولنوسا سينهورا.

بدأ الآتاباك في إسراع الإيقاع، وغزا الكافالوس الفضاء الموجود أمام الهيكل وبدأوا في الاستسلام لسحر البونتوس. كان الجزء الأكبر منهم من النساء، وعلقت أمبارو بسخرية على حساسية النساء أمثالها.

كانت هناك بعض الأوروبيات من بين النساء، أشار آلييه إلى شقراء، طبيبة نفسية ألمانية، تتبع الطقوس منذ بضعة أعوام. حاولت كل شيء، ولكن طالما لا يوجد استعداد مسبق واختيار مسبق، لا فائدة من المحاولات: لم تكن تصل قط إلى حالة الانخطاف. كانت ترقص وعيناها تزوغ في الفضاء، بينما الآتاباك لا يعيرون اهتمامًا لأعصابها أو أعصابنا. بدأت أدخنة حادة في التصاعد وغزو القاعة وأربكت كلاً من المشاركين والمساعدين، وأصابت الكل ـ على ما أعتقد، وأنا على وجه خاص ـ بآلام في المعدة. ولكن الشيء نفسه كان قد حدث لي في ريو أثناء "إسكيلوس دي سامبا"، كنت أعرف

التأثير الجسدي المنطقي للموسيقى وللضوضاء العالية، تلك الشبيهة بحمى ليلة السبت التي يفتعلونها في صالات الديسكو. كانت الألمانية الشقراء ترقص وعيناها تحدقان، كانت تلتمس النسيان في كل خلجة من خلجاتها الهيستيرية. بدأت بالتدريج بنات القديس في السقوط في حالة النشوة، وإلقاء برءوسهن إلى الخلف، ويتحركن بخفة، وكأنهن يسبحن في بحر من النسيان، أما هي فكانت متوترة، تكاد تبكي، كمن يحاول بيأس الوصول إلى حالة النشوة، أخذت تنفعل وتتأوه دون أن تصل إلى شيء. كانت تحاول أن تفقد السيطرة، ولكنها كانت تعثر عليها في كل لحظة. ألمانية مسكينة، تُعاني من كثرة مفاتيح الأنغام المُروضة جيدًا.

كان المختارون في ذلك الوقت يؤدون قفزتهم في الفضاء، فقدت أنظارهم لونها وتخشبت أعضاؤهم، أصبحت حركاتهم بمرور اللحظات آلية ولكن ليست عشوائية، إذ كانت تعبر عن طبيعة الكيان الذي يزور أجسادهم. بعضهم كان مرن الحركات، يحرك يديه بجانبه وكفوفه مدلاة للأمام وكأنه يسبح، وآخرون منحنون ويتحركون ببطء. أخذ الكامبونوس يغطون الملبسون بأرواح عظيمة بأقمشة بيضاء ليبعدوهم عن أنظار الجمهور.

كان بعض الكافالوس يهزون أجسادهم بعنف بينما من دخلهم برتيوس فيلوس فقد كانوا يصدرون همهمات مفرغة، ويحركون أجسادهم المنحنية للأمام، كالمسن ينحني على عصاه. كانت أفواههم مفتوحة، متخذين أشكالاً نحيفة، ووجوهًا بلا أسنان. أما من كان يسكنهم الكابوكلوس فقد كانوا يصدرون صيحات المحاربين العالية: هياهووو، وكان الكامبونوس منهكين في محاولة السيطرة على من لا يستطيع التعامل مع هذا العنف.

أخذت الطبول تقرع، ويرتفع البانتوس في الهواء المعبأ بالدخان. كنت ممسكًا بيد أمبارو، وفجأة شعرت بيدها تعرق وبجسدها يرتعش وشفتيها تتباعدان، ثم قالت: لا أشعر أنني بخير، أريد أن أخرج.

أدرك آليه ما حدث أيضًا، وساعدني على اصطحابها إلى الخارج. وفي هواء المساء استعادت وعيها، وقالت: لم يحدث شيئًا، ربما أكلت شيئًا ما، ثم الروائح بالداخل والحرارة...

قال الكاهن الذي كان قد تبعنا: لا، إن بك صفات الوسطاء، واستجابتك جيدة للبانتوس، كنت أراقبك.

صاحت أمبارو: كفى، ثم أضافت بعض الكلمات بلغة لا أعرفها، رأيت وجه الكاهن يشحب، أو يتحول للرمادي، كما كانوا يكتبون في كتب المغامرات عندما يرغبون في التعبير عن شحوب وجه الرجل الأسود، "كفى، لدي بعض الإعياء، أكلت شيئًا فاسدًا.. من فضلكم اتركوني هنا لأتنفس بعض الهواء النقي، ادخلوا مرة أخرى، أفضل البقاء بمفردي فلست معوقة.

خضعنا لرغبتها، ولكن بمجرد أن دخلنا، وبعد تلك الوقفة في الهواء الطلق، أخذت الروائح وأصوات الطبول والعرق الذي غطى كل الأجساد يؤثر علينا جميعًا، كان الهواء نفسه ملوثًا، وأثر كل هذا تأثير رشفة الخمر على من امتنع منذ فترة. مسحت جبيني بيدي، وقدم لي أحد المسنين أجوجو، آلة صغيرة ذهبية اللون، عبارة عن مثلث به أجراس يضرب الناس عليه بعصاة صغيرة. وقال لي: اصعد على المنصة واعزف، هذا أفضل لك.

كان هناك نوع من الحكمة العلاجية في تلك النصيحة. كنت أدق الأجوجو محاولاً أن أتبع إيقاع الطبول، وبالتدريج وجدت نفسي أدخل لأصبح جزءًا من الحدث، وبالاشتراك فيه سيطرت عليه، كنت أبعد التوتر بحركات يدي وقدمي، كنت أحرر نفسي مما يحيط بي محفزًا ومشجعًا إياه. فيما بعد سيتحدث معي آلييه عن الفارق بين من يعرف ومن يتعرض للتجربة.

وبمجرد أن يسقط الوسطاء في حالة الانخطاف يبدأ الكومبونوي في اقتيادهم إلى أطراف المكان، يجلسونهم، ويعطونهم سيجار وغليون. وكان المؤمنون، غير المسكونين، يهرعون ليركعون تحت أقدامهم، يهمسون في أذنهم ويستمعون لنصائحهم، يستقبلون التأثير المبارك، يدلون باعترافاتهم، ويشعرون بالراحة. يشير البعض إلى بداية هذيان بشجعه الكامبونوس باعتدال ويقودوهم مرة أخرى بين الجموع بعد أن حصلوا على قسط من الراحة.

في الساحة كان هناك راقصون يتحركون وهم على استعداد واضح للنشوة، وكانت الألمانية مازلت تتحرك بعصبية محاولة الاسترخاء بلا فائدة. كان البعض قد بدأ يشعر بحضور الإكسو، وتظهر على وجوههم تعبيرات شريرة، خبيثة، متحركين في هزات عنيفة.

عندئذ رأيت أمبارو.

الآن أعرف أن جيدولاه ليس فقط سفيراة الجمال والحب. كما كان ديوتالليفي يذكر، إنها أيضًا اللحظة التي يتسع فيها الجوهر المقدس ويمتد تجاه ضواحيه اللانهائية. إنه اهتمام الأحياء بالأموات، ولكن لابد أن أحدهم قد ذكر أيضًا بأنه عناية الموتى بالأحياء.

كانت الموسيقى تقودني، وأنا منهمك في دق الأجوجو، بعيدًا عن متابعة ما يحدث في القاعة، حيث كنت منهمكًا في محاولة استعادة سيطرتي على الموقف. لابد وأن أمبارو قد دخلت منذ عشر دقائق، وبالتأكيد شعرت بالتأثير نفسه الذي شعرت أنا به منذ وهلة، ولكن لم يعطها أحد الأجوجو، وربما كانت سترفضه بدورها. كانت قد تعرت من كل رغبة في الدفاع تناديها أصوات عميقة.

رأيتها تلقي بنفسها فجأة في وسط الراقصين، ثم تتوقف ووجهها مشدود بطريقة غير طبيعية لأعلى، رقبتها تقريبًا متيبسة، ثم فجأة ارتخت وبدأت رقصة سارابندا خليعة، ويدها تشير بتقدمة جسدها. بدأ البعض يصيح "إلى بومبا جيرا، إلى بومبا جيرا" من نشوة المعجزة، حيث إن الكيان النسوي الشيطاني لم يكن قد عبر عن حضوره إلى هذه اللحظة: آه إن رداءك من المخمل، يزينه الذهب، وفروعه من الفضة، كبير جدًا كنزك، بومبا جيرا من الماس هاهي تقترب...

لم أجرؤ على التدخل، ربما أسرعت من إيقاع الضرب على قطعة المعدن التي بين يدي لأتحد، جسديًا مع امرأتي، أو مع تلك الروح الإفريقية التي كانت تجسدها.

قام المساعدون من الكمبونوس بالعناية بها، ألبسوها الرداء الطقسي، أخذوا يساندونها وهي في حالة الانخطاف الوجيزة ولكن المكثفة. اصطحبوها لتجلس عندما كان العرق يغرقها تمامًا وتتنفس بصعوبة. رفضت أن تستقبل من هرع نحوها يتضرع النبؤات، و بدأت في البكاء.

كانت الدورة قد أوشكت على الانتهاء، تركت المنصة وهرعت نحوها، وكان آلييه يقف بجورها، يدلك صدغيها برفق. كانت تقول: ياللخجل، لا أصدق ما حدث، لم أكن أريد، كيف فعلت هذا؟

أخذ آلييه يردد بلطف: هذا يمكن أن يحدث لأي شخص.

أخذت تبكي وتقول: إذن لا يوجد عتق، مازلت عبدة. وقالت لي بغضب: اذهب بعيداً عني، فلست سوى سوداء قذرة حقيرة، إنني لا أستحق سوى سيد يحكمني.

أخذ آلييه يواسيها: كان يمكن أن يحدث أيضًا لشقروات آثينا، إنها الطبيعة الإنسانية..."

طلبت أمبارو الذهاب إلى دورة المياه، وكان ختام الطقس. في وسط القاعة كانت الألمانية تقف مازلت ترقص، بعد أن تابعت ما حدث لأمبارو بنظرات حاقدة. ولكنها كانت مازلت تتحرك بامتناع لا رغبة فيه.

عادت أمبارو بعد حوالي عشر دقائق بينما نتحدث مع الكاهن، والذي كان يهنئنا على النتيجة الرائعة لاتصالنا الأول مع عالم الأموات.

قاد آلييه ال ي ظلام الليل الدامس، وأشار ليصافحنا عندما توقف أمام منزلنا. قالت مبارو إنها تفضل الصعود بمفردها، وطلبت مني الذهاب لأتمشى قليلة مضيفة: عد عندما أكون قد استغرقت بالفعل في النوم، سآخذ قرص منوم. اعذراني أنتما الاثنين، كما سبق وقلت، لابد أنني تناولت طعامًا فاسدًا، بل إن كل تلك الفتيات هناك قد تناولن شيئًا فاسدًا. كم أكره بلدي! تصبحان على خير.

أدرك آلييه موقفي، واقترح علي أن نذهب للجلوس في بار في كوباكابانا يعمل طوال الليل.

ـ إن الجنس أو الثقافة، إذا أردنا أن نقول، يشكلان جزءًا من عقلنا الباطن، في الجزء الثاني تسكن الأشكال البدائية، المتساوية لدى كل الرجال والنساء لكل العصور. هذه الليلة اشترك الطقس والجو المحيط بإضعاف مقاومتنا جميعًا، بالتأكيد جربت ذلك بنفسك. واكتشفت أمبارو أن الأوراكسيس الذي قضت عليهم في قلبها مازالوا يسكنون في أحشائها. لا تعتقد أنني أرى ذلك شيئًا إيجابيًا. لقد استمعت إلي وأنا أتحدث باحترام عن تلك الطاقات الخارقة للطبيعة، والتي تتذبذب حولنا في هذا البلد. ولكن صدقني أنا لا أرى ممارسات التلبس بالحماس نفسه. ليس هو الشيء نفسه أن تكون من الأتباع أو من المتصوفين. إن البدء، والإدراك الفطري للأسرار التي لا يقوى العقل على تفسيرها عملية غاية في العمق، تحول بطيء للروح وللجسد يمكن أن يؤدي لممارسات أسمى، بل ولاكتساب الحياة الأبدية. ولكنها شيء حميمي وغامض، لا يظهر

في الخارج، شيء خجول، وبصفة خاصة هو شيء مصنوع من النور والانفصال. ولهذا فإن سادة العالم من الأتباع، ولكنهم لا يتساهلون مع النزعة التصوفية. فالمتصوف بالنسبة إليهم عبد، مكان لظهور المقدس، والذي من خلاله يتم التجسس على أعراض السر. الأتباع يشجعون السر، يستخدمونهم كما تستخدم أنت التليفون، لإجراء اتصالات عن بعد، مثلما يستخدم الكيميائي صبغة عباد الشمس ليعرف إذا كان هناك تفاعل للمواد. إن المتصوف مفيد لأنه مسرحي، يقدم عروض. الأتباع يعرف بعضهم البعض، ويتحكمون في القوى التي يتعرض لها المتصوف، وبهذا المعنى لا فارق بين استحواذ الكافالوس أو انخطاف القديسة تريزا الآفيلية أو القديس خوان دي لاكروس. والنزعة التصوفية هي شكل سفلي للاتصال مع المقدس. ولكن طقس البدء للأتباع هو ثمرة صعود طويل للذهن والعقل. والنزعة التصوفية هي ظاهرة ديمقراطية، إذ لم تكن ديماجوجية، أما طقس البدء للأتباع هو الأرستقراطية.

ـ إذن فهو شيء عقلي إذن وليس جسدي؟

ـ بطريقة ما. لقد كانت صديقتك أمبارو تحرس بقوة عقلها ولم تحترس من جسدها. إن المدني أضعف منا.

بعد ذلك، بفترة قال لي آليه إنه سيترك البرازيل وسيعود إلى ميلانو وترك لي عنوانه هناك.

عندما عدت إلى المنزل وجدت أمبارو نائمة، استلقيت في صمت بجوارها، في الظلام، وقضيت اللية أرقًا. كنت أشعر أن بجواري شخصًا لا أعرفه.

في صباح اليوم التالي قالت لي أمبارو، بجفاء، إنها ستذهب إلى بيتروبوليس لزيارة إحدى صديقاتها. تصافحنا بخجل.

رحلت ومعها حقيبة من القماش، وكتاب عن السياسة الاقتصادية في يدها.

لم أسمع عنها شيئًا لمدة شهرين ثم أرسلت خطابًا مراوغًا إلى حد كبير، قالت فيه إنها كانت بحاجة لفترة من التفكير. فلم أجبها.

لم أكن أشعر بأي انفعال أو غيرة أو حنين، كنت أشعر بأنني فارغ، لامع ونظيف وكأنني وعاء من الألومونيوم.

مكثت عامًا آخر في البرازيل، ثم شعرت بأنني على وشك الرحيل. لم أر أسارو مرة **أخرى، ولم** أر أيًا من أصدقائها، كنت أقضي وقتًا طويلاً على الشاطئ أستمتع **بالشمس.**

كنت أطير الطائرات الورقية، والتي كانت تبدو رائعة الجمال. هناك في الأعالي.

(٥)

Geburah

جيبــوراه

(٣٤)

Beydelus, Demeymes, Adulex, Metucgayn,
Atine, Ffex, Uquizuz, Gadix, Sol, Veni cito
cum tuis spiritibus.
(Picatrix, Ms. Sloane, 1305, 152, verso)

تهشم الأوعية. كان ديوتالليفي كثيرًا ما يحدثنا عن النزعة القبالية المتأخرة لإسحاق لوريا، التي فيها يُفقد التحرك المنظم للسفيروت. كان يقول إن الخليقة هي عملية تنفس إلهية، وكأنها تنهدات قلقة، أو عملية خوار.

وكان بيلبو يعلق: أزمة ربو.

ـ حاول أن تخلق شيئًا من لاشيء. إنه شيء يمكن أن يحدث مرة واحدة فقط في الحياة. لكي ينفخ الله العالم كما يتم نفخ مصباح زجاجي، يحتاج لأن ينكمش في ذاته ليستجمع نفسًا عظيمًا ثم يزفر النفس المضيء للتجليات النورانية (السفيروت) العشر.

ـ نفس أم ضوء؟

ـ تنفس الرب وكان النور.

ـ متعدد الوسائط.

ـ ولكن من الضروري أن يتم جمع تجليات السفيروت في أوعية قادرة على مقاومة بهائها. قاومت الأوعية المخصصة لجمع كتير (التاج الأعلى)، وحوخمة (الحكمة)، وبيناه (الفهم) عظمتهم، بينما فيما يتعلق بالسفيرات التالية، بدءًا من حسيد (الحب الفائض) إلى يسود (أساس العالم)، فإن الأضواء والأنفاس صدرت منه مرة واحدة وبقوة فائقة، وتهشمت الأوعية. توزعت إذن جزيئات الضوء في أنحاء الكون، ومنها نشأت جوهر المواد.

كان ديوتالليفي يقول قلقًا إن تهشم الأوعية شيء غاية في الجدية، لا يوجد عالم تصعب الحياة عليه أكثر من عالم مُجهض. لابد وإن كان خللاً ما في الكون منذ نشأته،

ولم يستطع كهنة اليهود الأكثر حكمة ومعرفة من شرح هذا على الإطلاق. ربما في اللحظة التي كان فيها الرب يتنفس ثم يزفر في الوعاء الأصلي ظلت بعض نقاط الزيت عالقة، بواق مادية، آثار، وهي التي نجست الجوهر الأصلي، أو كانت الأصداف، أصل الدمار، وكانت مختبئة بمهارة متربصة.

قال بيلبو: كائنات لزجة تلك الأصداف، عملاء شيطانيون للدكتور فو مانشو. ثم ماذا حدث؟

استأنف ديوتاليفي بصبر: ثم في نور الحكم الصارم أي جبوراه، والمعروف أيضًا بباشاد أو الرعب، ذلك السفيروت الذي فيه، حسبما يقول إسحاق الأعمى، يظهر فيه الشر لأول مرة، تتخذ الأصداف وجودًا حقيقيًا.

قال بيلبو: فهي موجودة في وسطنا.

فيجيبه ديوتاليفي: فلتنظر حولك

ـ ألا يوجد مخرج؟

قال ديوتالايفي: يمكن العودة للداخل، كل شيء خرج من الرب، في انقباضات بعثر الشرارات؛ تسيمتسون. إن مشكلتنا هي تحقيق إصلاح الخلل الكوني؛ التيكون، العودة، استعادة آدم قدمون: الإنسان القديم. عندئذ سنتمكن من إعادة بناء كل شيء في البناء المتوازن للبارزوفيم؛ الوجوه، أو الأشكال التي ستحل محل السفيروت. إن صعود الروح مثل حبل من الحرير يسمح للنفس المخلصة، المتلمسة لطريقها في الظلام، لأن تعثر على الطريق المؤدي للنور. وهكذا في كل مرة يعمل فيها العالم على تركيب حروف التوراة، يعثر على الشكل الطبيعي الذي يساعد على خروجه من إضرابه العظيم.

وهذا ما أحاول أنا بدوري القيام به الآن، في وسط الليل، في هذا الصمت العجيب لتلك التلال. ولكن في تلك الليلة في غرفة المنظار كنت مازلت محيطًا بتلك الرغوة اللزجة للأصداف، التي كنت أشعر بها حولي، تلك التي للرخويات المسجونة في العبوات الكريستالية في متحف الكونسرفاتوار، بين البارومتر والساعات التي علاها الصدأ في سباتها العميق. عندئذ فكرت أنه إذا كان هناك بالفعل تهشم للأوعية فربما كان الشرخ الأول قد حدث هناك في ريو، أثناء ذلك الطقس، ولكن حدث الانفجار نفسه عند عودتي إلى الوطن. ولكن حدث الانفجار ببطء وبلا صوت، حيث وجدنا

أنفسنا جميعا وقد وقعنا في براثن جوهر الأشياء، حيث تحررت مخلوقات طفيلية ضارة في عملية توالد فورية.

عندما عدت من البرازيل كنت أشعر بأنني لا أعرف على الإطلاق من أكون. كنت على مشارف الثلاثينيات. في ذلك العمر كان أبي قد أنجبني، كان يعرف من يكون وأين يسكن.

لقد مكثت بعيداً جداً عن وطني في فترة أحداث عظيمة الأهمية، عشت في عالم يمتلئ باللامعقول، حيث كانت الأحداث في إيطاليا تصل إلينا وقد تحولت إلى أساطير. قبل أن أترك الجزء الآخر من العالم بفترة قليلة، وبينما أختتم إقامتي هناك بأن سمحت لنفسي بالقيام برحلة جوية فوق غابات الأمازون، ابتعت جريدة يومية محلية أثناء توقفنا في فورتاليتزا. على الصفحة الأولى كانت هناك صورة شخص أعرفه، كنت أشاهده يحتسي النبيذ الأبيض لأعوام لدى بيلادي. وكان التعقيب على الصورة ينص: الرجل الذي قتل مورو.

عندما عدت عرفت أنه لم يكن، بالتأكيد، الرجل الذي قتل مورو. إذا كان لديه مسدس معبأ، سيطلق النار على أذنه أولاً ليتأكد إذا كان السلاح يعمل أم لا كان فقط موجوداً عندما اقتحم ديجوس شقة كان قد خبأ فيها أحدهم ثلاثة مسدسات وعبوتين ناسفتين أسفل الفراش. كان هو فوق الفراش في حالة من النشوة، حيث كان ذلك الفراش هو قطعة الأثاث الوحيدة الموجودة في تلك الشقة ذات الحجرة الواحدة، والتي تستخدمها مجموعة الناجين من ٦٨ لإرضاء احتياجات الجسد. ولولا أن الديكور الوحيد الموجود هي لوحة لشي جيفارا كان يمكن إطلاق على المكان لقب مأخور. كان أحد المستأجرين مرتبطاً بمجموعة مسلحة ولم يكن الآخرون يعرفون أنهم يأمنون المكان مادياً لهم. وبالتالي انتهى بهم الحال حميعاً لمدة عام في السجن.

لقد عرفت القليل جداً عما حدث في إيطاليا في الأعوام الأخيرة. فقد تركتها على حافة تغييرات عظيمة، كنت أكاد أشعر بالذنب، لأنني هربت في لحظة تصفية الحسابات. قبل أن أرحل كان يمكنني أن أتعرف على الانتماء الأيديولوجي للمتحدث من نبرة صوته، ومن تركيب العبارات، ومن استشهاداته. عندما عدت لم أعد أعرف من ينتمي لماذا، لم يعد أحد يتحدث عن الثورة، كانوا يذكرون الأمنية، من كان يمكن أن يقال عنهم يساريون كانوا يستشهدون بنيتشه وسيلين، وكان جرائد اليسار تحتفل بثورات العالم الثالث.

عدت إلى بلادي ولكنني شعرت بأنني في أرض غريبة. لم يعد هناك سوى البيلياردو، كان مازال يتردد على المكان النقاشون أنفسهم، ولكن مجموعة الشباب تغيرت. عرفت من أحدهم أن بعض المريدين القدامى قد فتحوا مدارس للتأمل المتعالي، ومطاعم ماكروبيوتيك. سألت إن كان أحدهم قد افتتح أيضًا خيمة لممارسة شعائر الأومباندا، كانت الإجابة بالنفي، ربما كنت أنا سابق عصري بما حصلت عليه من معرفة.

للحفاظ على الطابع التاريخي كان بيلادي مازل يحتفظ بإحدى ماكينات الفليبر، النموذج القديم، من ذلك النوع الذي يبدو وقد تم استنساخه من إحدى لوحات فن البوب، وكان بائعو الانتيكات يبتاعونها بالجملة.

بجوارها كان العملاء الشباب يتجمعون حول ماكينات أخرى، ماكينات ذات شاشة من الفسفور والتي كانت تجري على سطحها شخصيات الكاميكاز من الفضاء الخارجي، أو ضفدع يقفز في كل مكان وهو يصدر نقيقًا باليابانية. كان بيلادي قد أصبح أركاديا الأضواء البسارية، وربما عبرت عربات الألوية الحمراء أمام تلك الشاشات الفضائية في مهمة تجنيد. لكنهم بالتأكيد كانوا سيتركون الفليبر، لأنه لم يعد بالإمكان اللعب به لشخص يحمل مسدسًا في حزامه.

أدركت هذا في إحدى الليالي التي فيها تبعت نظرات بيلبو، والتي كان يحدق بها لورينزا بيللجريني. أدركت بطريقة ما أدركه بيلبو بوضوح أكبر، والذي عثرت عليه فيما بعد في أحد ملفاته. لم يذكر قط اسم لورينزا، ولكن من الواضح أنه يتحدث عنها، هي فقط كانت تلعب الفليبر بهذه الطريقة.

اسم الملف: فليبر

لا يلعب المرء الفليبر بيديه فقط، ولكن بالفخذين أيضًا. المشكلة في لعبة الفليبر ليست فقط كيفية إيقاف الكرة الصغيرة قبل أن تبتلعها الفوهة، ولا حتى ركلها لتعود إلى منتصف الرقعة، ولكن المشكلة هو كيف إيصالها إلى أعلى حيث الأهداف المضيئة العديدة وجعلها تقفز من هدف إلى آخر، متجولة ومرتبكة، تتحرك بجنون، ولكن بمحض إرادتها. وذلك لا يمكن حدوثه من خلال إخضاع الكرة لضربات ما، ولكن من خلال نقل ذبذبات إلى صندوق اللعبة نفسه، بطريقة عذبة، بحيث لا يشعر بها الفليبر

نفسه ويتوقف عن العمل. ويمكن تحقيق ذلك بالفخذ فقط، بل إنها لعبة الردفين، بحيث يساعد الفخذ على حك اللعبة بدلاً من ضربها. والمؤثر أكثر من الفخذين هو إذا تحرك الجانب بطريقة طبيعية، يعطي الردفين دفعة للأمام، ولكن بخفة، بحيث إنه عندما يصل التأثير إلى الفخذين يكون قد ضعف، كما يحدث في العلاج الهوميوباثي: كلما حركت المحلول ذاب الدواء في المياه التي يتم إضافتها بالتدريج، حتى يختفي الدواء بالكامل، أصبح أكثر فاعلية من الناحية الطبية. هكذا يتم نقل ذبذبة ضئيلة جداً إلى الصندوق، فيطيع، فتتحرك الكرة في اتجاه عكس الاتجاه الطبيعي، وعكس الجاذبية، وعكس قوانين الديناميكية، ورغم ذكاء مصمم اللعبة الذي أرادها متمردة. تتخدر الكرة في أثناء الحركة، وتستمر في اللعب لوقت طويل. ولكن لتحقيق ذلك لابد من وجود ردفي أنثى، جسد لا يضع أجساماً إسفنجية بين الدقاق والآلة، ولابد من استبعاد أي مواد يمكنها الانتصاب من الوسط، فقط الجلد والأعصاب، وعظام مغطاة موضوعة في جينز، وتصاعد للمثير الحسي، القليل من الفتور، وقدرة على عدم الاهتمام برد فعل الشريك. إنه مذاق الرغبة المتزايدة بعيداً عن المبالغة في الرغبة الشخصية: لابد وأن فتاة الأمازون في إمكانها دفع كرات الفليبر إلى الجنون، ثم الاستمتاع بعد ذلك بأنها ستهجرها بعد ذلك.

أعتقد أن بيلبو وقع في غرام لورينزا بيلليجريني في تلك اللحظة عندما أدرك أن بإمكانها منحه سعادة لا يمكن الوصول إليها. لكنني أعتقد أنه بدأ من خلالها إدراك الطابع الماجن للأكوان الآلية، الآلة كمجاز للجسد الكوني، واللعبة الآلية كاستغاثة سحرية. كان متعلقاً بالفعل في هذه الفترة بأبو العافية وربما كان قد دخل بالفعل في مشروع هيرمس. لكنه كان قد رأى البندول بالتأكيد، كانت لورينزا بيلليجريني، بطريقة أو بأخرى، تعده بالبندول.

في الفترة الأولى شعرت بصعوبة إعادة التأقلم مع بيلادي. بالتدريج، ولكن ليس في كل الأمسيات، بدأت إعادة اكتشاف بعض الوجوه المألوفة، وجوه الناجين، على الرغم مما يعلوها من الضباب الناتج عن مجهود محاولة التعرف. منهم من يعمل في حقوق النشر في شركة دعاية، ومنهم من يعمل كمستشار مالي، ومن يبيع الكتب بالتقسيط ـ ولكن إذا كان في البداية يبيع كتباً تتعلق بأعمال شيه جيفارا ـ فقد أصبح الآن يعرض كتب العلاج بالأعشاب، والنزعة البوذية، بل وعلم النجوم. زاد وزنهم جميعاً وخطت

شعورهم بعض الشعور البيضاء، وشعرت أن كأس الويسكي الذي كانوا يمسكونه هو نفسه الذي رأيته بين يديهم منذ عشرة أعوام، وكأنهم كانوا يتجرعونه ببطء، رشفة كل ستة أشهر.

سألني أحدهم: ماذا تفعل ولماذا لم نعد نراك لدينا؟

ـ ومن أنتم هذه الفترة؟

نظر إلي وكأنني غبت لمدة مائة عام وقال: اللجنة الثقافية في مجلس البلدية بالطبع.

لابد وأن العديد من الدعابات أصبحت غريبة بالنسبة لي.

قررت أن أخترع عملاً لنفسي. أدركت أنني أعرف العديد من الأشياء، ولكنها لم تكن أشياء مرتبطة، وكنت أستطيع أن أربطها معًا بزيارة مدتها بضع ساعات للمكتبة. كنت أعتقد أنه لابد من وجود نظرية ما، ومشكلتي أنه لم تكن لدي واحدة. الآن تكفي المعرفة، كان الجميع شغوفين بالمعرفة، وخاصة بالمعرفة القديمة. في الجامعة أيضًا، والتي عدت إليها في محاولة للعثور لنفسي على مكان فيها، كانت الفصول هادئة والطلبة يتزحلقون في الممرات كالأشباح، وهم يعيرون بعضهم لبعض مسارد سيئة الإعداد. وكنت أستطيع إعداد مسارد جيدة.

في أحد الأيام، سألني أحد الخريجين، والذي اعتقد أنني أحد الأساتذة (كان الطلبة في تلك الفترة في سن الأساتذة) عما كتبه ذلك اللورد شاندوس الذي كانوا يتحدثون عنه في محاضرة ما عن الأزمات الدورية في الاقتصاد. قلت له إنه إحدى شخصيات الروائي هوفمانثال، وإنه ليس اقتصاديًا.

في المساء نفسه كنت في حفلة لدى بعض الأصدقاء القدامى، وتعرفت على شخص يعمل في دار للنشر. كان قد انضم لتلك الدار بعد أن توقفت عن نشر روايات عن العملاء الفرنسيين لتتخصص في نشر نصوص سياسية ألبانية. اكتشفت أنه مازال هناك نشر سياسي، ولكن في المجال الحكومي. ولكن على الرغم من ذلك لم يرفضوا كتابًا جيدًا عن الفلسفة، على أساس أنه من الكتب الكلاسيكية.

قال لي: بالمناسبة، بما أنك فيلسوف..

ـ أشكرك، ولكنني لست فيلسوفًا للأسف..

ـ ماذا تقول، لقد كنت أحد أولئك الذين يعرفون كل شيء في زمنك. كنت أراجع اليوم أحد النصوص التي تتناول أزمة الماركسية، ووجدت فقرة مأخوذة من أنسلم الكنتربري، من هو؟ لم أعثر عليه ولا حتى في موسوعة المؤلفين". قلت له إنه أنسلم من أوستا، إلا أن الإنجليز يطلقون عليه هذا الاسم لرغبتهم الدائمة في التميز.

وكان لحظة التنوير: عرفت وقتها أن لدي مهنة، وقررت أن أنشأ وكالة للمعلومات الثقافية.

بدلاً من أن أتواجد في البارات الليلة، بدأت أتصرف كطالبي المعرفة في التردد على المكتبات وممرات المؤسسات الجامعية. أجلس بعدها في مكتبي واضعًا قدمي فوق المائدة، ممسكًا بكوب ورقي مليء بالويسكي ابتعته من بائع الخمور على الناصية. يطلبني أحد في الهاتف ويسألني: أعمل على ترجمة أحد الكتب وأقف أمام مصطلح "المتكلمين"، ولا أستطيع أن أعرف مصدر هذه الكلمة.

لا أعرفها أنا أيضًا، ولكنني أقول له أن يمنحني يومين. أذهب لتصفح بعض الكروت في المكتبة، وأقدم سيجارة للشخص الموجود في المكتب الاستشاري، وأعثر على أحد الخيوط. وفي المساء أدعو أحد المتخصصين في الدراسات الإسلامية في البار، وأدعوه على كوب من الجعة، بل اثنين، يبدأ ذلك في التراخي ويمنحني المعلومات التي أبحث عنها بلا مقابل. ثم أطلب العميل: كان المتكلمون هم اللاهوتيين الأصوليين المسلمين في أيام ابن سينا، كانوا يدعون أن العالم كان عبارة جزيئات من الحوادث، والتي تشكلت في أشكال خاصة فقط بعد تدخل إلهي فوري ومؤقت. إذا كان الرب قد غفا ولو لوهلة، لكان الكون قد تساقط وتهشم في فوضى لا معنى لها من الذرات. هل تكفيك هذه المعلومات؟ استغرقني الحصول على هذه المعلومات ثلاثة أيام. ادفع ما تراه أنت مناسبًا.

كنت محظوظًا، لأنني عثرت على حجرتين ومطبخ صغير في مبنى قديم في إحدى الضواحي، والذي لابد وأنه كان مصنعًا وكان ذلك هو المبنى الملحق للمكاتب. كانت الشقق التي أعادوا استخدامها تُفتح جميعًا على ممر طويل، وكان مكتبي يقع بين مكتب عقارات ومعمل لتحنيط الحيوانات. يبدو وكأننا في إحدى ناطحات السحاب

الأمريكية للثلاثينيات، لم يكن ينقصني سوى وضع باب زجاجي لأشعر بأنني المخبر مارلو. وضعت أريكة تستخدم كفراش في الحجرة الثانية ومكتب في الاستقبال، وعلى رفين من الخشب وضعت الأطالس والموسوعات والمجلدات التي كنت ابتاعها بالتدريج. في البداية كان لابد من أن أصل لهدنة مع ضميري وأكتب أيضًا بعض الرسائل لبعض الطلبة اليائسين. لم يكن الأمر صعبًا، كان يكفي الذهاب لنسخ رسائل السنوات السابقة. ثم بدأ أصدقائي الناشرون في إرسال مخطوطات وكتب أجنبية لقراءتها، والتي كانت بالتأكيد الأكثر صعوبة في القراءة مقابل القليل من المال.

لكنني أخذت أكتسب الخبرات والمعرفة، لم أكن أتخلص من أي شيء، كنت أضع كل شيء في فهارس وكروت. لم أكن أفكر في وضع كروتي على الحاسوب (كانت الأجهزة قد ظهرت منذ برهة، وكان بيلبو أحد الرواد في استخدامها)، لكنني كنت أفضل الوسائل اليدوية، واخترعت لنفسي نوعًا من الذاكرة مصنوعًا من كروت من الكارتون الرقيق، بفهارس متعامدة: كانط... السديم، لابلاس، كانط، كونسبرج، كباري كونسبرج السبع. طريقة تشبه تلك اللعبة التي فيها لابد من الذهاب من السجق إلى أفلاطون في خمس مراحل، من خلال الربط بين الأفكار. على سبيل المثال: سجق - خنزير - شعر الخنزير - فرشاة الرسم - النزعة التكلفية - فكرة - أفلاطون. مسألة سهلة. حتى المخطوطات الأكثر غموضًا كانت تكسبني أكثر من عشرين كارتًا في سلسلة القديس أنطونيوس. كان المعيار في غاية الحسم، اعتقد هو نفسه الذي تتبعه المخابرات: لا توجد معلومة أفضل من الأخرى، تكمن أهميتها في فهرستها جميعًا، ثم البحث عما يربط بينها. والصلات موجودة دائمًا، تكفي فقط الرغبة في العثور عليها.

بعد حوالي عامين من العمل كنت راضيًا عن نفسي، كنت أستمتع بما أفعل، وفي الوقت نفسه قابلت ليا.

(٣٥)

قل لمن يسأل عني ... إني ليئة

يداه الناصعتان تجدلان الغار إكليلاً•

المطهر، النشيد ٢٧، ١٠٠ إلى ١٠٢

ليا!! لا أمل لدي في رؤيتها مرة أخرى، ولكنني كان يمكن ألا أتقابل معها قط، وكان ذلك سيكون أسوأ. كم آتمنى لو كانت هنا لتمسك بيدي بينما أحاول أن أعيد بناء مراحل دماري. لأنها سبق وقالت لي ما سيحدث، ولكن لابد وأن تظل بعيدة عن هذه القصة، هي والطفل. أتمنى أن يتأخرا في الوصول، أن يصلا عندما ينتهي كل شيء، كيفما كانت النهاية.

كان يوم السادس عشر من يوليو في عام ١٩٨١، كانت ميلانو شبه مهجورة وصالة الاطلاع في المكتبة شبه خالية.

ـ انتظر، فأنا بحاجة إلى الجزء ١٠٩.

ـ لماذا تركته إذن على الرف؟

ـ ذهبت إلى المائدة لأتأكد من شيء.

ـ ليس هذا بعذر.

أخذت الجزء عنوة واتجهت إلى المائدة، جلست في مقابل منها في محاولة لأرى وجهها بدقة.

سألتها: كيف تقرأين إذا لم يكن الكتاب مكتوبًا بطريقة برايل؟

رفعت رأسها ولم أستطع أن أفهم إذا كان وجهها أم رقبتها، وسألت: ماذا؟ آه، أرى جيدًا من خلاله. ولكن لتقول ذلك رفعت خصلة الشعر الكثيفة التي كانت تغطي وجهها ورأيت عينيها الخضراء.

---

(١) من ترجمة حنا عبود للكوميديا الإلهية، ورد للطباعة والنشر، سوريا.

قلت لها: عيناك خضراوان.

ـ أعتقد ذلك؟ هل من مشكلة؟

ـ إطلاقًا.

وهكذا بدأ كل شيء. في المساء على العشاء قالت لي: كل، فأنت نحيف كالمسمار. في منتصف الليل كنا مازلنا في المطعم اليوناني القريب من بيلادي، والشمعة قد نفذت تقريبًا واقتربت من فوهة الزجاجة، نحكي كل شيء عن أنفسنا. كنا تقريبًا نمتهن المهنة نفسها، كانت هي تراجع سجلات الموسوعات.

كان لدي الانطباع أنني لابد وأن أخبرها بشيء ما، وفي منتصف الليل ونصف رفعت خصلة شعرها عن وجهها لتنظر إلي، فأشرت إليها بالسبابة رافعًا الإبهام قائلاً: بوم.

قالت لي: وأنا أيضًا.

في تلك الليلة أصبحنا جسدًا واحدًا، وأطلقت علي اسم "بوم".

لم نستطع أن نبتاع منزلاً جديدًا، كنت أشاركها مسكنها، وأحيانًا كانت تشاركني مكتبي، أو تنطلق بحثًا وتحريًا، حيث كانت هي أكثر ذكاءً مني في اتباع الخيوط والأدلة. وكانت ماهرة أيضًا في اقتراح الروابط بين الأشياء.

قالت: يبدو أن لدينا ملفًا نصفه فارغ عن الروزا كروتشي.

ـ لابد وأن أعود إليه يومًا ما، توجد بعض الملحوظات التي دونتها في البرازيل...

ـ حسنًا، لابد وأن تضع إذن إشارة لييتس.

ـ وما دخل ييتس في هذا؟

ـ الكثير. قرأت هنا أنه كان منتميًا لجماعة من جماعات الروزاكروتشي تدعى "نجمة النهار".

ـ ماذا يمكنني أن أفعل دونك؟

عدت أتردد من جديد على بيلادي، لأنه بالنسبة لي كان كالسوق الذي فيه يمكنني العثور على عملاء.

في إحدى الأمسيات رأيت بيلبو مرة أخرى، لابد وأنه كان مقلاً في الحضور في الفترة الماضية، ولكنه بدأ في الحضور بانتظام بعدما تقابل مع لورينزا بيلليجريني. لم يتغير كثيرًا، ربما خط في شعره بعض الشيب، وفقد بعض الوزن.

كان لقاء وديًا، في حدود الوقت المتاح، تبادلنا بعض القفشات عن الأيام الخوالي، بعض الملحوظات المتحفظة حول الحدث الأخير الذي جمعنا، وتداعياته. لم يظهر المفتش دي أنجليس مرة أخرى، ربما أُغلق ملف التحقيق.

حكيت له عن عملي وبدا مهتمًا: في الواقع إن هذا ما أحب القيام به، سام سبيد الثقافة، عشرون دولارًا في اليوم بالإضافة إلى النثريات.

للأسف لا تأتي إلي سيدات غامضات ساحرات، ولا أحد يحدثني عن الصقر المالطي.

لا أحد يعلم قط. هل تتسلي؟

سألته: أتسلى؟ ثم استخدمت إحدى عباراته: إنه الشيء الوحيد الذي يمكنني إجادته.

أجابني: Good for you

تقابلنا مرات أخرى، قصصت عليه خبراتي في البرازيل، ولكنني كنت أجده دائمًا في حالة شرود، أكثر من المعتاد. عندما تغيب لورينزا بيلليجريني كان يحدق بنظراته في الباب، وعندما كانت تتواجد كان يحرك نظراته بعصبية في كل البار ويتبع كل تحركاتها. في إحدى الأمسيات، وقرب ساعة إغلاق البار قال لي، وهو ينظر في اتجاه آخر: ربما نكون بحاجة إليك، ولكن ليس لاستشارة عابرة، هل يمكنك أن تخصص بضع ساعات لنا في الظهيرة خلال الأسبوع؟

ـ يمكنني النظر في هذا، بما يتعلق الأمر؟

ـ أعهدت لنا شركة فولاذ بنشر كتاب عن المعادن، نص به العديد من الرسومات التوضيحية، نص شعبي ولكن جاد. هل تفهم هذا النوع: المعادن في تاريخ الإنسانية، من حقبة الحديد إلى عصر الفضاء. نحن بحاجة لشخص يذهب إلى المكتبات والأراشيف ليحصل لنا على صور جميلة، منمنمات قديمة، محفورات من كتب تعود للقرن التاسع عشر، عن الانصهار مثلاً أو عن الصواعق.

ـ اتفقنا، سأمر عليك غدًا.

اقتربت منه لورينزا بيلليجريني: هل ستصطحبني إلى المنزل؟

سألها بيلبو: ولماذا أنا اليوم؟

ـ لأنك أنت الرجل الذي أتمناه.

احمر وجهه، وقال لها وهو ينظر لبعيد: هناك شاهد على ذلك، ثم قال لي: أنا الرجل الذي تتمناه. أقدم لك لورينزا.

ـ أهلاً

ـ أهلاً

قام وهمس لها بشيء في أذنها.

قالت: وما دخل ذلك، طلبت منك أن توصلني بسيارتك إلى المنزل.

قال هو: آه، اعذرني يا كازاوبون، فعلي أن أقود التاكسي لتوصيل المرأة التي يتسناها، لا أعرف من.

قالت له بحنان وهي تقبله على وجنته: أحمق.

(٣٦)

اسمح لي أن أنصحك يا قارئي الحالي أو المستقبلي، الذي يشعر بالحزن حاليًا: لا يجب أن تقرأ الأعراض أو التشخيصات في الجزء التالي، حتى لا يتسبب ذلك في اضطرابك وينتج عنه شر لا خير بأن تطبق ما يلي على نفسك... كما يفعل غالبية المكتئبين.

Robert Burton, Anatomy of Melancholy, Oxford, 1621, Introduction

كان واضحًا أن بيلبو مرتبط بشكل ما بلورينزا بيلليجريني. لم أكن أعرف لأي مدى ومنذ متى. حتى الملفات في أبو العافية لم تساعدني على إعادة بناء الحدث.

على سبيل المثال، لم أجد تاريخًا مكتوبًا على ملف الدكتور واجنر. والدكتور واجنر شخص تعرف عليه بيلبو قبل رحيلي، وكانت له علاقات معه بعد بداية تعاوني مع الجاراموند، إلى حد أنني اقتربت منه بدوري. إذن فذلك العشاء لابد وأنه يسبق أو يتبع تلك الليلة التي أتذكرها، إذا كانت تسبقها أستطيع أن أفهم سبب إحراج بيلبو، ويأسه.

والدكتور واجنر طبيب نمساوي يمارس مهنته منذ سنوات في باريس، ومن هنا جاء نطق اسمه (فاجنير) لمن يرغب في زيادة الحميمية معه، ومنذ حوالي عشرة أعوام بدأت دعوته بانتظام إلى ميلانو من قبل مجموعتين تنتميان لفترة ما بعد ثورة ٦٨ .كانا يتصارعان عليه، وبالتأكيد كانت كل مجموعة منهما تفسر أفكاره بطريقتها الخاصة. كيف وافق رجل في مثل شهرته أن تموله جماعات متطرفة كهذه، شيء لم أفهمه قط. لم تكن لنظريات واجنر أي اتجاه سياسي، وبالتالي كانت تدعوه الجامعات، العيادات، الأكاديميات. أعتقد أنه كان يقبل دعوتهم، لأنه كان شخصًا أبيقوريًا ويعيش حياة مليئة بالبذخ. كان يمكن للأطباء الزائرين الحصول على أموال أكثر من المؤسسات، وبالنسبة للدكتور واجنر كان هذا يعني تذاكر سفر درجة أولى، فنادق فخمة، بالإضافة إلى النسبة الخاصة له كطبيب عن حضوره المحاضرات والندوات.

لماذا إذن عثرت تلك الجماعتان على مصدر للوحي الأيديولوجي في نظريات واجنر، هذه قصة أخرى. لكن في تلك الأعوام كانت نظريات التحليل النفسي لواجنر تبدو تفكيكية إلى حد كبير، كانت تبدو فاصلة وشهوانية بحيث توحي بتبريرات للنشاط الثوري.

كان من الصعب أن يهضم العمال هذا، وربما لهذا السبب فإن المجموعتين، اضطرتا عند لحظة ما الاختيار بين العمال وواجنر وقاما باختيار واجنر. وتبلورت فكرة أن بطل الثورة الجديدة ليست هي طبقة العمال، وإنما طبقة المثقفين.

في أحد الأيام قال لي بيلبو: بدلاً من أن نعمل على انحراف طبقة العمال، من الأسهل، ونظرًا لأسعار الدكتور واجنر، أن ينتمي المنحرفون إلى العمال.

إن الثورة على طريقة واجنر كانت الأكثر تكلفة في التاريخ.

كانت الجاراموند، بتمويل من أحد المعاهد النفسية، قد ترجمت مجموعة من المقالات الصغيرة لواجنر، مقالات تقنية جداً، ولكن يصعب الحصول عليها، ويبحث عنها أتباعه. كان واجنر قد حضر إلى ميلانو لتقديمها، وفي تلك المناسبة بدأت علاقته مع بيلبو.

اسم الملف: الدكتور واجنر

الدكتور واجنر الشيطان

الحلقة السادسة والعشرون

من في ذلك الصباح الرمادي للـ..

أثناء المناقشة عبرت عن اعتراضي. شعر الشيطان المسن بالغضب، ولكن نجح في إخفائه، بل أجاب كمن لديه الرغبة في إغوائي.

مثل شارلز مع جوبيان والنحلة مع الزهرة، عبقري لا يتحمل ألا يحبه أحد، لابد أن يغوي على الفور من يعارضه، بحيث يحبه بعد ذلك. وقد نجح بالفعل، فقد أحببته.

ولكن لابد أنه لم يغفر لي قط، لأنه في ليلة الطلاق تلك أصابني بالضربة القاضية، دون أن يعرف، بالغريزة: دون أن يعرف حاول إغوائي ودون أن يعرف قرر عقابي. على الرغم من أن المسألة مكلفة، فإنه قام بتحليلي مجانًا. إن اللاوعي يعقر من يقترب منه.

تحكي قصة ماركيز دو لانتاناك لفيكتور هيوجو في رواية الثالث والتسعين عن سفينة تبحر من مدينة فونديبه الفرنسية حاملة ركابها عبر عاصفة قوية في اتجاه الساحل البريطاني، فجأة يفلت مدفع من مرساه. تبدأ السفينة في التمايل والدوران

ويبدأ سباق محموم من درج إلى آخر، وحش ضخم يحطم ميسرة السفينة وميمنها. بشجاعة لا مثيل لها يقوم أحد القائمين على المدافع (ذلك الذي بسبب إهماله لم يكن المدفع مثبت كما ينبغي) وهو يمسك بجنازير حديدية في يده، بإلقاء نفسه أسفل الوحش الذي يكاد أن يسحقه، ويعيده مرة أخرى إلى مغارته، وينقذ بلك السفينة، والطاقم والمهمة بأكملها. يجمع لانتاناك الرهيب رجاله على جسر السفينة في طقس مهيب، يمدح شجاعة البحار وينزع عن صدره إحدى نياشينه ويمنحه إياها، وهو يصافحه، بينما الطاقم يطلق صيحات النصر.

بعد ذلك، يُذكر لانتاناك القاسي البحار الحاصل على النيشان بأنه هو المسئول الأول عما حدث منذ البداية، ويأمر بإعدامه.

ياله من رائع لانتاناك، تقي وعادل ولا يشوبه أي فساد! هكذا صنع معي الدكتور واجنر، كافأني بصداقته ثم قتلني بأن صارحني بالحقيقة.

وحكم علي بالإعدام بأن صارحني برغباتي الدفينة

وبالكشف لي عما كان يعتمل في صدري، فزعت.

تبدأ الحكاية عادة في بار، هناك تبدأ الرغبة في الوقوع في الحب.

هناك بعض الأشياء التي يستشعر المرء قدومها، فنحن لا نقع في الحب، لأن هذا ما يحدث. عندما يشعر المرء بهذا الاحتياج عليه أن يحترس في كل خطوة يقوم بها: إنه مثل الشرب من ذلك الترياق الذي يجعلك تقع فريسة لأول شيء تقابله.

في تلك الفترة كنت أشعر بالحاجة إلى الحب بعد أن أقلعت عن الشرب. إنها العلاقة بين الكبد والقلب. والوقوع في قصة حب يكون سببًا وجيهًا للبدء من جديد. العثور على شخص يمكنك معه الذهاب إلى الحانات والشعور بالراحة.

علاقة البار علاقة عابرة، خفية، تمنح المرء ذلك الانتظار العذب اليوم كله، حتى اللحظة التي يذهب فيها ليختبأ في الظلال بين المقاعد الجلدية، ففي الساعة السادسة مساء يكون المكان خاليًا، يحضر العملاء البائسون بعد ذلك عند حضور عازف البيانو. يختار حانة أمريكية خالية في بداية المساء. يأتي إليك النادل فقط إذا طلبته ثلاث مرات، ممسكًا بكأس المارتيني الثاني.

لابد وأن يكون كأس مارتيني، وليس كأس ويسكي، فالسائل شفاف وواضح، ترفع كأسك وتراها فوق الزيتونة. وهناك فارق بين أن تنظر إلى محبوبتك من خلال كأس المارتيني الجاف، حيث الكأس صغير ورقيق وبين أن تنظر إليها من خلال مارتيني موضوع في كوب سميك، عريض ووجهها مكسور بين مكعبات الثلج. يختلف التأثير إذا اقترب كل منكما بكوبه من الآخر، وجبهته تستند على الكوب المثلج، وبين الجبهتين يقع الكوبان، لا يمكن الحصول على التأثير نفسه بالكأس.

تنتهي ساعة الحانة بسرعة، وتنتظر بعدها مرتجفًا اليوم التالي. لا توجد أي ضمانات.

من يقع في الحب في الحانات ليس بحاجة لامرأة له وحده. فأحيانًا يقترض المرء امرأة شخص آخر.

وما دور الآخر. كان هو يمنحها الكثير من الحرية، كان دائمًا على سفر. تلك الحرية المثلية بالشك: كان يمكنني الاتصال حتى في منتصف الليل، أحيانًا كان يكون هو موجود وأنت لا، ويجيبني أنك في الخارج، بل ويسألني إذا كنت أعرف أين أنت. لحظات الغيرة الوحيدة. ولكن حتى في هذه اللحظة كنت أنتزع شيشيليا من أحضان عازف الساكسافون. كنت أحب وأؤمن بالحب على طريقة كاهن الانتقام القديم.

تعقدت الأشياء مع ساندرا، في تلك المرة أدركت أن علاقتنا تهمني كثيرًا وأن حياتنا معا أصبحت متوترة. إذن هل لابد أن ننفصل؟ لننفصل إذن. لا، انتظر، فلنتحدث قليلاً، فلنتناقش في الأمر مرة أخرى. لا، لا يمكن أن يستمر الحال بهذه الطريقة، كانت ساندرا هي المشكلة.

عندما تتجول وتحب في الحانات، لا تكمن دراما المشاعر مع من تحب، ولكن مع من تنفصل عنه.

بعدها كان العشاء مع الدكتور واجنر. في الندوة منح تعريفًا لأحد المحرضين بعد أن سأله عن التحليل النفسي قائلاً بالفرنسية: La psychoanalyse? C'est qu'entre l'homme et la femme …chers amis… ça ne colle pas.

كان النقاش حول العلاقات بين اثنين، وحول الطلاق وكأنه وهم القانون. متأثرًا بمشاكلي اشتركت في النقاش بحماس. تركنا أنفسنا ننجذب نحو مهاترات حوارية،

وأخذنا نتحدث بينما التزم واجنر الصمت، ونسينا أن معنا محاضرًا. عندئذ وبطريقة تأملية

وعندئذ وبتعبير ماكر

وعندئذ في عدم اهتمام حزين

وكأنه يعيد بنفسه إلى الحوار من خلال اللعب خارج الموضوع قال واجنر (أحاول هنا أن أتذكر كلماته بالحرف، ولكنها حُفرت بالفعل في ذاكرتي، ولا يمكن أن أكون قد أسأت الفهم) في حياتي المهنية، لم يحدث، ولو مرة، أن جاءني مريض يعاني عصبيًا من طلاقه. كان سبب الاستياء عادة يكون بسبب طلاق الآخر.

وكان الدكتور واجنر عندما يتحدث يؤكد، حتى في مخارج حروفه، على تمييز كلمة الآخر. وفي هذه اللحظة ارتعشت كمن قرصته أفعى.

وارتعش الفسكونت كمن قرصته أفعى

كسا عرقا كثيرًا جبهته

كان البارون يحدق فيه من بين طبقات الدخان السميكة المتصاعدة من سجائره الروسية الرفيعة

سألت: هل تقصد القول إن المرء لا يدخل في أزمة بسبب انفصاله عن شريكه، ولكن بسبب احتمال أو استحالة انفصال الطرف الثالث الذي تسبب بالفعل في الأزمة التي وصل إليها الزوجان؟

نظر إلي واجنر بارتباك العاقل الذي يقف للمرة الأولى أمام شخص مضطرب عقليًا، وسألني عما أقصد.

في الحقيقة، أي شيء كنت راغبًا في قوله، لابد وأنني طرحته بطريقة سيئة. حاولت أن أجعل تفكيري أكثر تماسكًا. أخذت الملعقة من فوق المائدة ووضعتها بجوار الشوكة.

ـ هأنذا، الملعقة، متزوج منها، الشوكة. وهناك يوجد شريكان آخران، السيد والسيدة سكين. أعتقد أنا ملعقة بأنني أعاني لأنني سأنفصل عن شريكتي شوكة ولا أرغب في ذلك، وفي الوقت ذاته أحب السيدة سكينة، ولكن لا يسؤوني وجودها مع السيد سكين.

ولكن في الحقيقة، وهذا ما تقوله لي الآن يا دكتور واجنر، أنني أعاني لأن السيدة سكين لا تنفصل عن شريكها. هل الأمر كذلك؟

أجاب واجنر إلى شخص آخر بأنه لم يقل قط شيئًا كهذا.

ـ كيف لم تقل شيئًا كهذا؟ لقد قلت بأنك لم تعثر قط، على شخص يعاني بسبب طلاقه هو، ولكن عادة ما يعاني المرء من طلاق الآخر.

عندئذ قال واجنر بضيق: ربما، لا أتذكر.

ـ وإذا كنت قد قلت ذلك، ألم تقصد ما فهمته أنا؟

صمت واجنر لبضع دقائق.

وبينما ينتظر الحضور في ترقب، أشار واجنر بأن يسكبون له كأسًا من النبيذ، نظر بانتباه إلى السائل في مقابل الضوء ثم تحدث.

ـ لقد فهمته سيادتك بهذه الطريقة لأنك تريد ذلك.

ثم نظر في اتجاه آخر، وقال إن الجو حار، ثم أخذ يردد نغمة إحدى السيمفونيات وهو يحرك عود الخبز في يده، وكأنه يقود أوركسترا بعيدة، تثاءب، ثم ركز على تورتة بالقشطة، وفي النهاية وبعد أزمة صمت حادة، طلب أن يعيدوه إلى الفندق.

كان الآخرون ينظرون إلي، وكأنني أفسدت مؤتمرًا كان يمكنهم من خلاله الحصول على أحكام مؤكدة.

في الواقع استمعت أنا بالفعل إلى الحقيقة.

اتصلت بك، كنت في المنزل مع الآخر. قضيت ليلة مؤرقة، كان كل شيء واضحًا، لم أكن أحتمل وجودك معه، لم يكن لساندرا أي دخل في هذا.

تلي ذلك ستة أشهر درامية، كنت فيها ملاصقًا لك، أنفاسي فوق رقبتك، لأحتل كل وجودك، وأنا أردد على مسامعك أنني أريدك لي وحدي، وأحاول إقناعك بأنك تكرهين الآخر. بدأت تتشاجرين معه، وأصبح الآخر كثير المطالب، غيورًا، لا يخرج في المساء، وعندما يضطر السفر كان يهاتفك مرتين في اليوم، وفي ملء الليل. في إحدى الليالي صفعك، طلبتي مني بعض النقود، لأنك أردت الهروب، منحتك القليل الذي أحتكم عليه في البنك. هجرت فراش الزوجية وذهبت إلى الجبل مع بعض الأصدقاء، دون أن تتركي

عنوانك. كان الآخر يهاتفني يائسًا فهو لا يعرف أين ذهبت، ولكن لم أكن أعرف أنا أيضًا، وكان يبدو أنني أكذب، لأنك قلت له إنك ستتركينه لأجلي.

عندما عدت أعلنت لي بفرح بأنك كتبت له خطاب وداع. وعندئذ سألتيني ماذا سيحدث بيني وبين ساندرا، ولكنك لم تتركي لي الوقت لأجيبك. قلت لي بأنك عرفت شخصًا ما، لديه ندبة على وجهه وشقة بوهيمية، وستذهبين لتعيشي معه.

ـ ألم تعودي تحبيني؟

ـ على العكس، إنك الرجل الوحيد في حياتي، ولكن بعد كل ما حدث أحتاج لأن أعيش تلك الخبرة، لا تتصرف كالصبية وحاول أن تفهمني، فلقد تركت زوجي لأجلك، اترك لي بعض الوقت.

ـ بعض الوقت، ولكنك تقولين إنك ستذهبين لتعيشي مع آخر.

ـ إنك شخص مثقف ويساري، حاول ألا تتصرف كأحد أعضاء المافيا. إلى اللقاء قريبًا.

أشعر أنني مدين بكل شيء للدكتور واجنر

(٣٧)

أربعة أشياء إذا فكر فيها المرء كانت سبب
شقائه: ما فوق وما تحت، الأول والأخير.

(التلمود: حجيجا ١: ٢)

ذهبت إلى الجاراموند في الصباح الذي كان فيه أشخاص يقومون بتركيب أبو العافية وتشغيله، بينما كان بيلبو وديوتالليفي تائهين في الجدل حول أسماء الله، وجوردن تراقب بريبة الرجال الذين يقومون بتركيب ذلك الوجود المقلق بين الأكوام، الملثية دائما بالتراب، من المخطوطات.

ـ لتسترح يا كازاوبون، ها هي مشروعات تاريخ المعادن التي حدثك عنها.

جلست أنا وبيلبو فقط وأطلعني على الفهرس، ومسودات الفصول، وتخطيط الصفحات. كان علي أن أقرأ النصوص وأعثر على الرسوم التوضيحية. ذكرت بعض مكتبات ميلانو، والتي أعتقد أنها مليئة بالمصادر.

قال بيلبو: لن يكفي هذا، لابد من زيارة بعض الأماكن الأخرى، على سبيل المثال متحف العلوم في موناكو يوجد به مكتبة صور رائعة، وفي باريس يوجد أيضًا متحف الكونسرفاتوار للفنون والمواد. أريد أن أعود إليه مرة أخرى إذا كان لدي بعض الوقت.

ـ جميل؟

ـ بل مثير للقلق، إنه انتصار الآلة في كنيسة غوطية...

تردد قليلاً ثم أعاد تنظيم بعض الأوراق على مائدته. ثم، كمن يخاف أن يمنح اهتمامًا متزايدًا لكشفه قال: وهناك البندول.

ـ أي بندول؟

ـ البندول، يدعى بندول فوكو.

وشرح لي ما هو البندول، تمامًا كما رأيته يوم السبت، وربما رأيته هكذا في ذلك اليوم، لأن بيلبو أعدني لتلك الرؤية. عندئذ لم أبد حماسًا كبيرًا، وأخذ بيلبو ينظر إلي كمن يقف أمام قبة سيستينا ويسأل: أهذا كل شيء؟

ـ ربما كان السبب هو جو الكنيسة نفسه، ولكنني أؤكد لك أنه يمنح شعورًا قويًا جدًا. الفكرة نفسها أن كل شيء يمر، وأنه فقط هناك في أعلى توجد النقطة الوحيدة الثابتة في الكون... إنها طريقة للعثور على الله لمن لا يؤمن بشيء، ودون أن يضع عدم إيمانه محل تساؤل، لأن الأمر يتعلق بقطب العدم. أتعرف، بالنسبة لمن هم من جيلي، ذلك الذي تجرع اليأس صباحًا ومساء، يمنح شيء كهذا الكثير من التعزية.

ـ لقد تجرع جيلي أنا يأسًا أكثر.

ـ يا لك من متعجرف! لا، بالنسبة إليكم لم يكن سوى موسم واحد، لقد غنيتم الكارمانيولا الحماسية، ثم وجدتم أنفسكم في نهاية الثورة. مر كل شيء بسرعة. بالنسبة إلينا كان الأمر مختلفًا. في البداية كانت النزعة الفاشية، حتى وإن كنا قد عشناه كصبية كرواية مغامرات، كان مصير أمتنا الأبدي شيئًا ثابتًا. ثم جاءت نقطة المقاومة الثابتة، وخاصة بالنسبة لأمثالي، من كانوا ينظرون إليها من الخارج، وصنعوا منها طقسًا تحوليًا، كعودة الربيع، أو كطقس متكرر كحركة الشمس... شيء يثير ارتباكي... بالنسبة للبعض كان الدافع هو الله، وبالنسبة لآخرين الطبقة العاملة، ولمعظمهم الدافعين معا. كان شيئًا معزيًا للمثقف أن ينتمي للطبقة العاملة، ذلك الوسيم والصحيح، القوى، وعلى استعداد أن يعيد ترتيب العالم. ثم شهدتم أنتم أيضًا هذه المرحلة، والتي فيها بقي العامل، ولكن الطبقة اختفت. لابد وأنهم قتلوها هناك في المجر. ثم وصلتم أنتم، بالنسبة إليك كان كل شيء عاديًا، بل كالاحتفالية. لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لأبناء جيلي، كان وقت الحساب، وقت الندم، والتوبة، وقت إعادة الأحياء. انسحبنا ووصلتم أنتم لتحضروا معكم الحماس والشجاعة والنقد الذاتي. بالنسبة إلينا، وقد وصلنا إلى الخامسة والثلاثين والأربعين، كان ذلك إحياء للأمل، شيء مخجل، ولكنه الأمل. كان علينا أن نصبح مرة أخرى مثلكم، لنبدأ من جديد. لم نعد نرتدي رباط العنق، وألقينا بمعاطفنا التقليدية لنبتاع معطف إسكيمو مستعمل، بل قدم البعض استقالاتهم من أعمالهم لكي لا يخدم السادة..."

أشعل سيجارته وتظاهر بأنه يتظاهر بالندم ليغفر لنفسه ابتعاده.

تنازلتم في كل الجبهات. رفضنا نحن، على الرغم من رحلاتنا للحج في المغارات السفلية أن نخترع شعارًا للكوكا كولا لنزعتنا ضد الفاشية، وقبلنا أن نعمل مقابل القليل في الجاراموند، لأن الكتاب في متناول كل الطبقات. ماذا تفعلون أنتم الآن لتنتقموا من البرجوازيين الذين لم تنجحوا في شنقهم؟ تبيعون لهم شرائط الفيديو والكتب الرخيصة، تخدعونهم بالزن وصيانة الدراجات البخارية. فرضوا علينا أن نشترك للحصول على نسخة من أفكار ماو وبهذه النقود ذهبتم لابتياع الألعاب النارية احتفالاً بالإبداع الجديد. بلا خجل. ونحن الذين قضينا حياتنا كلها فريسة الشعور بالخجل. خدعتمونا، لم تكونوا تمثلون أي نقاء، لم يكن سوى حب الشباب. جعلتمونا نشعر وكأننا الديدان، لأنه لم تكن لدينا الشجاعة أن نواجه قوات الشرطة، ثم أطلقتم أيضًا الرصاص على ظهور البائسين الذين كانوا يعبرون الشارع في ذلك الوقت. منذ عشر سنوات كذبنا لنخرجكم من السجن، وكذبتم أنتم لترسلوا أصدقاءكم إلى السجن. لهذا تعجبني هذه الآلة: غبية، لا تؤمن بشيء، ولا تدفعني على الإيمان بشيء، تفعل ما أقوله لها، إذا كنت أنا غبيًا كانت هي (أو هو) مثلي بالتبعية. علاقة صادقة.

ـ أنا ...

ـ إنك ساذج يا كازاوبون. لقد هربت بدلاً من أن تقذف الآخرين بالحجارة، تخرجت ولم تطلق النيران. إلا أنني شعرت بأنك مصدر تهديد لي منذ عدة سنوات، ولكن لا شيء شخصي، مجرد دورة أجيال معتادة. عندما رأيت البندول في العام الماضي أدركت كل شيء.

ـ كل شيء؟

ـ تقريبًا كل شيء. يا كازاوبون، حتى البندول رسول كاذب. تنظر إليه معتقدًا بأنه النقطة الواحدة الثابتة في الكون، ولكن إذا انتزعته من واجهة الكونسرفاتوار وعلقته في ماخور سيعمل بالطريقة نفسها. توجد بندولات أخرى، يوجد بندول في نيويورك في مبنى الأمم المتحدة، وآخر في سان فرنسسكو في متحف العلوم، ومن يعلم أين أيضًا. كل مركز في العالم يمكن أن يكون نقطة ثابتة، يكفي أن تضع فيه البندول.

ـ الله موجود في كل مكان؟

ـ نعم، بطريقة ما. لهذا يشعرني البندول بالاضطراب، يعدني باللانهائية، ولكن يترك لي مسئولية أين أرغب في رؤيتها. لهذا لا يكفي أن يتعبد المرء للبندول هناك حيث يوجد، يلزم أن يقرر من جديد ويبحث عن أفضل المواقع، إلا إذا..

ـ إلا ماذا؟

ـ لن تأخذ كلماتي على محمل الجد، أليس كذلك؟ لا، لابد أن أهدأ فنحن لا نأخذ كلمات أحد على محمل الجد. كنت أقول إلا إذا كان الشعور الذي ينتابك هو شعور شخص قضى حياته في محاولة تعليق البندول في أماكن متعددة، لم يعمل فيها، واكتشف أنه هناك في الكونسرفاتوار يعمل بأفضل أداء... وإذا كانت هناك مراكز مفضلة؟ هنا على سقف تلك الحجرة؟ لا لن يصدقنا أحد. لابد وأن يكون هناك جو مناسب. لا أعلم، ربما نبحث دائمًا عن النقطة الصحيحة، ربما هي قريبة منا ولا نعرفها، ولكي نتعرف عليها لابد وأن نؤمن بها... هيا، لنذهب إلى السيد جاراموند.

ـ لنعلق البندول؟

ـ يااللجنون، لنذهب لننجز أشياء جادة، لأستطيع أن أدفع لك أجرك لابد أن يقابلك صاحب الدار، لأن يلمسك ويعاينك، ويقرر أنك صالح. هيا.معي ليعاينك السيد ويلمسك ففي لمسته الشفاء من الأمراض المستعصية.

(٣٨)

الخبير الغامض، الخبير الكامل، الخبير العارف، مراقب البناء، مختار التسعة، فارس القوس الملكي لسليمان، أو سيد القوس التاسع، الإسكتلندي العظيم، فارس الشرق والسيف، أمير أورشاليم، فارس الشرق والغرب، الأمير فارس الروزا كروتشي وفارس النسر والصقر، الحبر الأعظم أو الإسكتلندي الأعظم لأورشاليم السماوية، الخبير الأعظم المبجل لكل الفرق، فارس البلطة الملكية، أو فارس لبنان، أمير خيمة العهد، وفارس الحية النحاسية، أمير الرحمة والعفو، القائد الأعظم للمعبد، فارس الشمس، فارس القديس أندريا الأسكتلندي، أو الفارس الأعظم للنور، فارس قادش المختار العظيم، فارس النسر الأبيض والأسود.

(الرتب العليا للماسونية في الطقس الأسكتلندي القديم والموثق)

سرنا في الممر وصعدنا ثلاث درجات ثم عبرنا من خلال باب زجاجي لامع، وفجأة دخلنا إلى عالم آخر.

إذا كانت الأماكن التي عاصرتها حتى هذه اللحظة في الجاراموند مظلمة ومتربة، كان هذا المكان يشبه صالة استقبال الشخصيات المهمة في المطار. كانت الموسيقى تنبعث من كل مكان، والحوائط زرقاء، صالة انتظار مريحة بها أثاث موقع من أرقى مصممي الأثاث، الحوائط مزينة بلوحات يظهر فيها سادة يبدون، وكأنهم نواب يسلمون جائزة ما إلى سادة آخرين يبدون من وجوههم كنواب الشيوخ.

على مائدة صغيرة كانت توضع، كما في عيادات أطباء الأسنان، بعض المجلات من الورق الناعم المصقول: الموهبة الأدبية، الإطانور الشعري، الوردة والشوكة، وغيرها. لم أكن قد رأيتها توزع من قبل، وفيما بعد عرفت السبب: كانت توزع فقط لدى عملاء مانوتزيو.

إذا كنت في البداية اعتقدت بأنني دخلت إلى المنطقة الإدارية للجاراموند، كان علي أن أعيد التساؤل على الفور. لقد كنا في مكاتب خاصة بدار نشر أخرى. في صالة الجاراموند كانت هناك واجهة عرض زجاجية مظلمة ومتهالكة، بداخلها الكتب التي صدرت حديثًا، ولكن كتب الجاراموند كانت مهملة، صفحاتها لم تفتح بعد، والغلاف متواضع رمادي اللون، يشبه المطبوعات الجامعية الفرنسية، ونوع الورق الذي يتحول لونه إلى الأصفر بمرور الوقت، بطريقة توحي بأن المؤلف، وخاصة إذا كان شابًا، قد نشره منذ فترة طويلة.

كانت هناك واجهة زجاجية مضيئة من الداخل، وُضعت بداخلها كتب دار نشر مانوتزيو، بعض منها ذات صفحات غير مكثفة، أغلفتها بيضاء، يغطيها البلاستك الشفاف، غاية في الأناقة، على ورق يشبه ورق الرز، مكتوبة بحروف جميلة واضحة.

وبينما كانت سلاسل الجاراموند تتمتع بأسماء جادة وأكاديمية، مثل الدراسات الإنسانية أو الفلسفية، كانت سلاسل دار نشر مانوتزيو تحمل أسماء رقيقة، شاعرية: الزهرة التي لم أقطفها (السلسلة الشعرية)، الأرض المجهولة (الرواية)، ساعة الأولياندرو تضم عناوين مثل: يوميات ابنة مريضة، جزيرة الفصح (مقالات مختلفة)، أطلانطيس الجديدة (كان العمل الأخير الذي نُشر في هذه السلسلة إعادة رؤية كونيسبرج: مقدمات نقدية لأي ميتافيزيقية مستقبلية تتمثل كنظام ثنائي خارق، وظاهرة علم النومينون. فوق كل الأغلفة كان يوجد شعار الدار: طائر البجعة يقف أسفل شجرة نخيل، ومقولة دانونيزو الشهيرة: لست أملك سوى ما قدمت.

كان بيلبو غامضًا وموجزًا: يمتلك السيد جاراموند دارين للنشر، هذا كل شيء. في الأيام التالية أدركت أن الممر بين جاراموند ومانوتزيو كان شيئًا شديد الخصوصية والسرية. وواقع الأمر هو أن المدخل الرئيسي لدار مانوتزيو كان على شارع الماركيز جوالدي، وفي شارع جوالدي كان العالم المتقيح لشارع سينشيرو ريناتو يترك مكانه لواجهات نظيفة وأرصفة متسعة، ومداخل بها مصاعد من الألومينيوم. لم يكن يمكن أن يساور الشك أحد بأن شقة تقع في مبنى قديم في شارع سينشيرو ريناتو تربط، من خلال ثلاث درجات فقط، بشقة أخرى في شارع جوالدي. لابد وأن السيد جاراموند قد بذل محاولات غير عادية ليحصل على إذن يسمح له بذلك. أعتقد أن ذلك حدث بناء على توصية من أحد مؤلفيه، العاملين في مجلس التخطيط بالبلدية.

استقبلتنا على الفور السيدة جراتزيا، كانت رقيقة ورزينة، تضع إيشاربًا غالي الثمن وتاييرًا بلون الحائط، وقادتنا بابتسامة حذرة إلى صالة خريطة العالم.

لم تكن القاعة ضخمة جدًا، ولكنها كانت تستدعي للذاكرة صالون قصر فينتسيا، بها كرة أرضية موضوعة في المدخل، ويقع مكتب السيد جاراموند من الماهوجني في آخر القاعة، والذي بدا، وكأنه ينظر إلينا من خلف نظارة معظمة مقلوبة. أشار إلينا جاراموند أن نقترب، وشعرت بالرهبة.

بعد قليل، وعندما سيدخل دي جوبرناتيس، سينهض جاراموند ليقابله، هذا الاستقبال الحار سيضفي عليه المزيد من الهيبة، لأن الزائر سيراه وهو يعبر القاعة أولاً، ثم سيعبرها هو بدوره في يد مضيفه، وبذلك سيتضاعف أمامه الفضاء بطريقة سحرية.

أشار إلينا جاراموند بالجلوس أمامه، وكان حادًا لكن ودودًا.

ـ لقد حدثني الدكتور بيلبو عنك بكل خير يا دكتور كازاوبون. نحن بحاجة لمساعدين أكفاء. وكما عرفت، لا يتعلق الأمر بتعيينك، فنحن لا نستطيع ذلك الآن، ولكن ستتم مكافأتك على جهدك وتكريسك لوقتك، إذا سمحت لي بقول هذا، لأن عملنا هو رسالة.

اقترح علي مبلغ من المال على أساس ساعات العمل المفترضة، والذي بدا لي في ذلك الوقت رقمًا معقولاً.

ـ رائع يا عزيزي كازاوبون.

رفع الألقاب على الفور، فلقد أصبحت للتو أحد موظفيه. ثم استكمل:

ـ إن قصة تاريخ المعادن لابد وأن تصبح رائعة، بل رائعة الجمال. لابد وأن يكون كتابًا شعبيًا في متناول الجميع ولكن علمي. لابد وأن يصدم خيال القارئ، ولكن من الناحية العملية. سأطرح عليك مثالاً: أقرأ حاليًا في المسودات الأولى للكتاب بأنه يوجد فلك، ماذا يُدعى، ماغديبورج، عبارة عن نصفي فلك متجاورين، وبالداخل يوجد نوع من الفراغ المضغوك. باءت كل محاولات فصلهما بالفشل. إذن فنحن أمام خبر علمي، ولكن عليك أنت تعريفه ضمن أخبار علمية أخرى غير معروفة. بمجرد تعريفها، لابد من الحصول لها على صورة، أفرسك، صورة زيتية، أي شيء. ثم نضع الصورة في صفحة كاملة بالألوان.

ـ يوجد بالفعل نحت خاص بذلك، قلت، أعرف ذلك.

ـ أرأيت؟ يالك من ماهر. سنضعه إذن في صفحة كاملة بالألوان.

ـ إذا كان نحت يمكن عرضه فقط بالأبيض والأسود، أجبت.

ـ حقا؟ حسنًا، ليكن بالأبيض والأسود إذن. الدقة مهمة جدًا. ولكن ليكن فوق خلفية ذهبية اللون، لابد وأن يصدم مرآها القارئ، لابد وأن يشعر أنه كان هناك، حاضرًا في ذلك اليوم الذي تمت فيه التجربة. واضح؟ لابد وأن نلتزم بالأمانة العلمية، بالنزعة الواقعية وبالولع. يمكننا بالعلم أن نجتذب القارئ. هل يوجد شيء أكثر درامية من مدام كوري عندما وصلت إلى منزلها في أحد الأيام، لتجد الفلوروسنت يلمع في الظلام، وتصرخ: يا إلهي، ماذا يمكن أن يكون هذا؟ هيدروكربون، جولكوندا، لاهوب؟ لا أهمية للتسمية التي أطلقوها على تلك المادة، إلا أن النتيجة أن ماري كوري اخترعت أشعة إكس. لابد من تحويل العلم إلى دراما، مع الاحترام التام للحقيقة.

ـ ولكن ما علاقة أشعة إكس بالمعادن؟ سألت.

ـ أليس الراديوم معدنًا؟

ـ بلى.

ـ حسنًا. إن المعرفة بأكملها يمكن إعادة رؤيتها من خلال المعادن. ماذا قررنا أن نطلق على الكتاب يا بيلبو؟

ـ كنا نفكر في شيء مباشر: المعادن.

ـ لابد أن يكون شيء مباشر. ولكن مع هذا الكتاب الإضافي، والتفاصيل الصغيرة التي تقص التاريخ بأكمله. لنرى... لنسميه: المعادن: قصة العالم. هل هناك صينيون في الكتاب أيضًا؟

ـ أجل.

ـ العالم كلمة مناسبة إذن. ليس مجرد اسم دعائي إذن، إنها الحقيقة. انتظر، أعرف ماذا يمكن أن نقول: المغامرة الرائعة للمعادن.

في هذه اللحظة أعلنت السيدة جراتزيا وصول القائد دي جوبرناتيس. تردد السيد جاراموند، ونظر إلي بريبة. أشار إليه بيلبو بأن يطمئن. أمر جاراموند بإدخال الضيف ونهض لاستقباله. كان دي جوبرناتيس يرتدي حلة ذات صديرية، واضعًا زهرة في العروة، وقلم في جيبه الداخلي، وجريدة مطوية في الجيب الجانبي، ويحمل حقيبة جلدية تحت إبطه.

قال جاراموند: ـ عزيزي القائد، تفضل بالدخول. لقد حدثني صديقنا العزيز دي أمبروسيس كثيرًا عنك. عن حياتك التي قضيتها في خدمة الدولة، وعن موهبتك الشعرية الخفية. أرني، أطلعني على الكنز الذي تمسك به بين يديك... ولكن دعني أقدم لك أولاً اثنين من كبار محررينا.

جلس الضيف أمام مكتب، أمسك بالمخطوطة، بينما يده، ترتجف وهي تقترب منها، تربت على غلاف العمل المقدم له.

ـ لا تقل أي شيء، لقد أتيت من فيتيبينو، تلك المدينة العظيمة، النبيلة. لقد كنت في خدمة الجمارك، وفي الخفاء ليلة بعد الأخرى أخذت تملأ هذه الصفحات. يشعلك شيطان الشعر. الشعر... لقد استهلك الشعر شباب الشاعرة صافو، وأنعش جوته في سنه المتقدمة. كان اليونانيون يطلقون عليه الدواء، الشافي والقاتل في الوقت ذاته. سيتعين علينا كإجراء معتاد أن نقرأ عملك الإبداعي ذلك، وأنا أصر عادة على ثلاثة تقارير من ثلاثة متخصصين، أحدهما من الدار والآخرون مستشارون لنا من خارج الدار (لابد أن يظلا مجهولين، لابد أن تعذرني على ذلك، فهما من الشخصيات المهمة). إن دار مانوتزيو لا تنشر كتابًا إلا إذا تأكدنا من جودته، والجودة، كما تعلم بالتأكيد أفضل مني، هي شيء غير محسوس، لا يمكن إدراكه سوى بالحاسة السادسة. يمكن للكتاب أن تكون به بعض النقائص، الهفوات، حتى سفيفو، كان يكتب كتابة سيئة أحيانًا، كما تعلم بالتأكيد أفضل مني، ولكن بالقدرة الإلهية، يمكنك أن تشعر بالفكرة، بالإيقاع وبالنشوة. أنا أعلم، لا تقل شيئًا. منذ اللحظة التي وقعت فيها عيناي على الصفحة الأولى مما كتبت، بمجرد أن وقعت عيناي على مقدمة تلك الصفحات شعرت بشيء ما، ولكنني لا أرغب في أن أحكم على ذلك بمفردي، حتى وإن كنت في أحيان كثيرة ـ كثيرة بالفعل ـ كانت تقارير القراء فاترة، ولكن كان علي التدخل، لأنه لا يمكن الحكم على مؤلف دون أن يكون المرء قد دخل في علاقة تناغم معه. إليك على سبيل المثال: سأفتح الآن مخطوطك هذا على أي صفحة، وها هي عيناي تقعان على أحد الأبيات: كما الخريف، أشجار الكرز الجدباء...، على الرغم من أنني لا أعرف باقي القصيدة، فإنني أشعر بنوع من الإبداع، هناك صورة ما تحضرني. هكذا لابد أن تكون العلاقة مع النص، نوعًا من النشوة، الانخطاف... وهذا معناه يا صديقي العزيز، وياليت المرء يستطيع أن يفعل ما يتمنى! ولكن حتى النشر هو حرفة، أنبل الحرف، ولكنه في

النهاية حرفة. هل تعرف كم تكلف الطباعة والورق حاليًا؟ ألق نظرة على جريدة الصباح لتعرف كم ارتفعت الضرائب في وول ستريت. هل تعتقد أن هذا لا يخصنا؟ بلى، فهذا يمسنا مباشرة، هل تعرف أنهم يفرضون ضرائب على التخزين. أنا لا أبيع، وأولئك يزيدون الضرائب. إنني أدفع أيضًا ثمن عدم النجاح، أدفع نير العبقري الذي لم يعترف به المنافقون. إن هذا الورق الشفاف باهظ الثمن، إذا سمحت لي، إن من يطبع الأشعار على هذا الورق الرقيق يشعر بالشاعر، إن شخصًا لا دراية له بالمكتوب كان سيستخدم ورقًا قويًا ليملأ العين ويربك النفس، ولكن هذا شعر مكتوب بالقلب، أليس كذلك؟ فالكلمات كالصخرة تربك العالم. إن هذا الورق بالنسبة لي مثل الأوراق المالية.

عندئذ دق جرس التليفون، عرفت فيما بعد أن جاراموند ضغط زرارًا ما أسفل مكتبه وحولت له السيدة جراتزيا مكالمة وهمية.

ـ الأستاذ العزيز! ماذا؟ ما أجمل هذا! إنه بالفعل خبر عظيم، كتاب آخر لك هو بالفعل حدث رائع. إن دار مانوتزيو فخورة بالطبع وسعيدة، لأن سيادتك أحد كتابها. هل رأيت ما كتبت الصحف عن ملحمتك الشعرية الأخيرة؟ عمل يستحق بالفعل جائزة النوبل، ولكنك للأسف سابق لعصرك، لقد بعنا بالكاد ثلاثة آلاف نسخة.

امتقع وجه الكوماندور دي جوبارناتيس، لقد كانت ثلاثة الآف نسخة بالنسبة إليه هدفًا بعيدًا عن مخيلته.

ـ لم تكف تكاليف الإنتاج، لتذهب لترى من وراء الباب الزجاجي كم من الأشخاص يعملون معي في إدارة النشر حاليًا، ولكي أربح من نشر كتاب لابد من أن أوزع على الأقل عشرة آلاف نسخة. لحسن الحظ لدي العديد من المؤلفين الذين يوزعون أكثر من ذلك بكثير، ولكنهم كتاب، كيف يمكنني أن أشرح ذلك، لديهم موهبة مختلفة، كان بالزاك عظيمًا ويبيع الكتب كالخبز، بروست أيضًا كان عظيمًا، ولكنه كان ينشر مؤلفاته على نفقته الخاصة. سينتهي الأمر بمؤلفاتك في المختارات الأدبية المدرسية، ولكن ليس في أكشاك الصحف في المحطات، الشيء نفسه حدث لجويس الذي نشر مؤلفاته على نفقته الخاصة مثل بروست. يمكنني أن أسمح لنفسي بنشر كتاب مثل كتبك كل سنتين أو ثلاث سنوات... امنحني ثلاث سنوات...

تبع ذلك وقفة طويلة. ثم بدا على وجه جاراموند الإحراج الشديد.

ماذا؟ على نفقتك؟ ليس لدي أي اعتراض على المبلغ، يمكن التفاهم على ذلك... ولكن دار نشر مانوتزيو ليست معتادة... بالتأكيد. إنني أتعلم منك، جويس وبروست أيضًا... بالتأكيد.. أفهم كل هذا.

وقفة أخرى...

ـ حسنًا، لنتحدث عن ذلك. لقد كنت صادقًا معك، ولكنك تتعجل الأمور، لنفعل إذن ما يطلقون عليه في لغة الأعمال "جرين فينشر"، تعلمنا ذلك من الأمريكيين. لتمر علي إذن لنقوم ببعض الحسابات... احترامي وإعجابي.

أنهى جاراموند المحادثة وكأنه استيقظ من حلم، وضع يده على عينيه، ثم تظاهر بأنه تذكر فجأة وجود الضيف.

ـ اعذرني، كان هذا كاتبًا، كاتبًا حقيقيًا، بل وعظيم أيضًا، وربما كان هذا هو السبب... أحيانًا يشعر المرء بالمهانة من هذه المهنة، وخاصة في عدم وجود الموهبة الحقيقية. ولكن لنعد إليك الآن، أعتقد أننا قلنا كل شيء، سأكتب إليك خلال شهر. لنترك نصك هنا إذن في أيد أمينة.

خرج الكوماندور دي جوبرناتيس دون أن يتفوه بكلمة، فلقد وضع قدمه بالفعل على أول سلم المجد.

(٣٩)

فارس الأكوان، أمير المجرات، الفيلسوف المتصوف العظيم، القائد الأعظم للنجوم، الكاهن الأعظم لإيزيس، أمير الهضبة المقدسة، فيلسوف سوماترا، عملاق القوقاز، ابن العملة الذهبية، فارس فينقية الحقيقية، فارس أبو الهول، حكيم المتاهة الأعظم، الأمير براهمان، حارس الهيكل المقدس، مهندس البرج الغامض، الأمير العظيم للبلاط المقدس، مترجم الهيروغليفية، طبيب الأسرار، حارس الثيران الثلاثة، حارس الاسم غير المنطوق به، أوديب الأسرار العظيمة، الراعي المحب لواحات الأسرار، دكتور النيران المقدسة، فارس المثلث المضيء.

(درجات الطقس القديم لمفيس)

كانت مانوتزيو هي دار نشر الإي بي إس APS، وكان الاختصار يعني في لغة مانوتزيو الخاصة ـ لماذا استخدم الماضي؟ فالإي بي إس مازالت موجودة، فهناك مازال كل شيء مستمرًا وكأن شيئًا لم يحدث. المشكلة تكمن فيَّ، أنا الذي بدأ في عرض كل شيء وكأنه حدث في الماضي البعيد، لأن ما حدث في الليلة الماضية قد أدى إلى شيء يشبه قطع الزمن. في قاعة سان مارتان دي شوم في الكونسرفاتوار اختل نظام القرون... أو ربما كان السبب أنني فجأة، ومنذ تلك الليلة، تقدم بي العمر عشر سنوات، أو الخوف من أن يصلوا هم إلي يجعلني أتحدث وكأني أكتب أحداث إمبراطورية على وشك السقوط، وأنا ممد على الأرض وعروقي ممزقة، منتظر لأن أغرق في دمي.

الإي بي إس(١٣) هي اختصار للكلمات الإيطالية التي تعني مؤلف على نفقته الخاصة، أحد تلك المشروعات التي يطلقون عليها في البلاد الناطقة بالإنجليزية Van-ity Press، فهم يكلفون الكتب تكاليف باهظة، ولا توجد أي مصاريف للإدارة، فلا يعمل في مانوتزيو سوى جاراموند، السيدة جراتزيا، المحاسب ويطلقون عليه المدير الإداري ويشغل الحجرة الصغيرة في آخر الممر، ولوتشانو، مبتور اليد، مسئول التوزيع، في المخزن المتسع في البدروم.

قال لي بيلبو: لا أعرف كيف يستطيع لوتشانو، بيد واحدة، أن يعد الكتب لإرسالها. أعتقد أنه يستخدم أسنانه. فهو لا يرسل الكثير على كل حال، إن مسئولي التوزيع في دور النشر الطبيعية، يرسلون الكتب إلى المكتبات، بينما لوتشانو يرسل الكتب إلى المؤلفين فقط. إن كتب دار مانوتزيو لا تهم القراء... المهم، كما يقول السيد جاراموند، هو عدم خيانة المؤلف، حيث يمكن البقاء على قيد الحياة دون القراء.

(13) Autore a Proprie Spese

كان بيلبو من المعجبين بالسيد جاراموند، كان يرى فيه شخص لديه قوة ما، لم يتمتع هو بها يومًا.

كان نظام مانوتزيو غاية في البساطة، بعض الإعلانات في الصحف المحلية اليومية، بعض المجلات، المطبوعات الأدبية في الأقاليم، من تلك الأنواع التي تستمر أعدادًا قليلة. مساحات دعاية متوسطة الحجم، مع صورة للمؤلف وبعض العبارات الطنانة: "نجم ساطع في سماء الأدب"، أو "التجربة الأدبية الجديدة لمؤلف فلوريانا والأخوات".

كان بيلبو يشرح: عندئذ تصبح الشبكة معدة للصيد، ويسقط فيها المؤلفون الجدد.

وبعد ذلك؟

ـ لدينا حالة دي جوبرناتيس. بعد شهر، وبينما يمزقه القلق، يتصل به السيد جاراموند، يدعوه على العشاء مع بعض الكتاب والمؤلفين، يعطيه ميعاد في أحد المطاعم العربية. مطعم خاص جدًا، بلا أي لافتة في الخارج. يدق جرس ويعلن عن قدومه في جهاز استقبال لدخول المطعم، يجد نفسه في مدخل فخم، قوي الإضاءة وتنبعث الموسيقى الشرقية من أرجائه. يصافح جاراموند النادل، ويتحدث بحميمية مع الآخرين. يعيد زجاجة النبيذ حيث لا تعجبه سنة الإنتاج، أو يقول: اعذرني يا صديقي، ولكن ليس هذا الكسكس الذي يؤكل في مراكش. يقدم جاراموند دي جوبرناتيس إلى المفتش فلان، المتحكم في كل خدمات النقل الجوية، ولكنه قبل كل شيء مخترع مبدع فهو رسول الكوزمورانتو، لغة السلام العالمية، والتي يتم مناقشتها حاليًا في اليونسكو. يقدم بعد ذلك البروفسور علان، الراوي الرائع، الحاصل على جائزة بتروتسيليس ديللا جاتينا عام ١٩٨٠، ولكنه أيضًا أحد نوابغ العلوم الطبية. كم عامًا درست يا بروفسور؟ كان زمنًا آخر، في تلك الفترة كانت الدراسة شيئًا جادًا بالفعل. وإليك أيضًا شاعرتنا اللذيذة، المحترمة أوليندا مينزوفانتي ساسابيتي، مؤلفة "الدرجات النابضة"، لابد وأنك قرأته.

صرح لي بيلبو بأنه تساءل كثيرًا لماذا تفضل الكاتبات اللاتي تطبعن على نفقاتهن الخاصة التوقيع بلقبين: لويتا سولميني كالكانتي، دورا اردينزي فيامّا، كارولينا باستوريللي شينالو. لأن الكاتبات اللاتي على قدر كبير من الأهمية، ليس لهن، عادة، سوى لقب واحد، فيما عدا إيفي كامبتون بيرنت. وأضاف أن بعضًا منهن وضعت اسمها الأول فقط مثل كوليت، بينما إحدى كاتبات مانوتزيو تُدعى أودوليندا ميتزوفانتي

ساسايتي؟ لأن الكاتب الحقيقي الذي يكتب حبا في عمله الإبداعي، ولا يهمه أن يكون مشهوراً يكتب باسم حركي، على سبيل المثال نيرفال، بينما الكاتبات اللاتي تنشرن على نفقتهن الخاصة يرغبن في أن يتعرف عليهن الجيران، وسكان المنطقة في مسكنهن القديم. لهذا الغرض يكفي للرجل لقبه فقط، بينما لا يكفي المرأة، حيث إن لقبها يتغير بعد الزواج، لذا تستخدم اللقبين.

ـ باختصار تكون ليلة مكثفة بالخبرات الثقافية، ويصبح لدى دي جوبرناتيس الانطباع بأنه يشرب كوكتيل من الال إس دي للهلوسة، سيستمع إلى نميمة زملائه من الضيوف، وعن حكايات الشاعر الكبير وعجزه في الفراش، وكيف أنه لا يساوي الكثير أيضًا كشاعر. سيلقي بنظرات لامعة مليئة بالانفعال على الطبعة الجديدة لـ موسوعة المشاهير في إيطاليا"، والتي سيظهرها جاراموند فجأة مشيراً إلى صفحة المفتش (هل رأيت، أصبح اسمك أنت أيضًا مع المشاهير، هذا هو العدل الحقيقي)

أطلعني بيلبو على الموسوعة: منذ ساعة مضت قمت بدور الواعظ، ولكن لا أحد معصوم من الخطأ. لا أحد يعمل على تحرير هذه الموسوعة سواي أنا وديوتالليفي. ولكنني أقسم لك أن هدف هذا العمل ليس هو زيادة المرتب، بل إنه أكثر الأشياء المسلية في العالم. في كل عام يتعين علينا إعداد النسخة المحدثّة. يكون الترتيب تقريبًا كالتالي: مدخل عن مؤلف مشهور يليه أحد الناشرين على نفقتهم الخاصة. المشكلة تكمن دائمًا في الترتيب الأبجدي المناسب، وإلا استهلك الكتاب المعروفون المساحة كلها. لترى على سبيل المثال حرف اللام.

لامبيدوذا، جوزيبي تومازي دي (١٨٦٩ ـ ١٩٥٧) كاتب صقلي. عاش حياته مجهولاً، ونال شهرته فقط بعد موته بفضل رواية النمر المرقط.

لامبوستري، أديوداتو (١٩١٩ـ) مؤلف، ومربي ومحارب (ميدالية برونزية في إفريقيا الشرقية)، مفكر وراو وشاعر. يحتل مكانة مرموقة في الأدب الإيطالي لهذا القرن. ظهر إبداع لامبوستري منذ عام ١٩٥٩ مع أول جزء من ثلاثية الإخوة كارماسي، والتي تدور أحداثها في إطار من الواقعية القاسية، والشاعرية المأساوية لعائلة من صيادي لوكان. تبع هذا العمل، والذي حصل على جائزة بتروزاليس ديللا جاتينا عام ١٩٦٠، روايتين في الأعوام التالية "المخدومين و"النمرة بلا رموش واللتين تقدمان، بخلاف العمل الأول، ذلك البعد الملحمي والتخيل التشكيلي والروح الغنائية لهذا الفنان الفريد.

لامبوستري موضع تقدير كموظف وزاري دءوب من قبل كل من عرفه، شخص ذو شخصية مستقيمة، أب وزوج مثالي، ومتحدث لبق مثير للإعجاب.

استأنف بيلبو: عندئذ سيشعر دي جوبرناتيس بالرغبة في أن يظهر اسمه هو أيضًا في الموسوعة، فلقد كان دائمًا يقول لنفسه إن الشهرة التي حصل عليها الكثير من المشاهير هي شهرة زائفة، مجرد مؤامرة مجموعة من النقاد. سيدرك أيضًا بأنه دخل عائلة من كتاب يعملون في الوقت نفسه كمديرين لهيئات حكومية، وموظفين في البنوك، أرستقراطيين وقضاة. فجأة استطاع التوسع في دائرة معارفه، والآن إذا احتاج لخدمة ما سيعرف إلى من يلجأ. والسيد جاراموند له القدرة في أن يخرجه من هذا المحيط، وأن يمنعه من الوصول إلى القمة.

في قرب نهاية العشاء سيهمس له جاراموند طالبًا منه أن يمر عليه في اليوم التالي في مكتبه.

ـ ويمر بالتأكيد عليه في اليوم التالي.

ـ بالتأكيد، فهو يقضي الليلة في أرق يحلم بأن يصل إلى شهرة إديوداتو لامبوستري

ـ وبعد ذلك؟

ـ في صباح اليوم التالي يقول له جاراموند: في مساء أمس لم أستطع التحدث معك حتى لا أتسبب في إحراج الآخرين . ياله من شيء رائع، لن أقول إن التقارير قراءة عملك كانت مُشجعة، بل كانت إيجابية، أنا شخصيًا قضيت ليلة مع أوراقك. كتاب يستحق جائزة النوبل، عظيم، عظيم بالفعل.

ثم يعود إلى مكتبه، ويضرب بيده على المخطوط ـ الذي ظهر عليه الاستعمال بعد أن تعرض لنظرات الإعجاب من قبل أربعة قراء على الأقل ـ هذه العملية، عملية التجعيد هي وظيفة السيدة جراتزيا ـ ثم ينظر إلى المؤلف على نفقته الخاصة بنظرة حائرة. ويسأله دي جوبرناتيس: وماذا سيفعل إذن، وماذا سنفعل؟ فيجيبه جاراموند بأنه لا يمكن النقاش حول قيمة الكتاب ولو لثانية واحدة، ولكن من الواضح أنه شيء سابق لعصره، وأنه بالنسبة لعدد النسخ، لن يبيع أكثر من ألفي نسخة، أقصى شيء ألفين وخمسمائة.

بالنسبة لجوبرناتيس ألفي نسخة تكفي ليعطيها للشخصيات التي يعرفها. والكاتب على نفقته الخاصة عادة لا يفكر على المستوى العالمي، حيث إن عالمه مكون من وجوه معروفة له، رفاق الدراسة، مديري البنوك، الزملاء المدرسين في المدرسة الإعدادي نفسها، عملاء على المعاش. جميعهم أشخاص يرغب دي جوبرناتيس في إدخالهم إلى عالمه الإبداعي، حتى أولئك الذين ربما لا يرغبون في ذلك مثل الجزار أو أمين الشرطة. عندئذ يجد دي جابرناتيس نفسه في مواجهة المخاطرة بأن يتراجع جاراموند عن النشر، بعد أن عرف الجميع في المنزل والبلدة والمكتب بأنه قدم مخطوطته لدار نشر كبيرة في ميلانو، ويبدأ في إعادة حساباته. يمكنه أن يستخدم كل ما في حساب مدخراته، ويقترض بعض النقود بضمان بمعاشه، أو منزله، ويبيع بعض السندات الحكومية، فالأمر يستحق التضحية. ويعرض بخجل على جاراموند أن يشارك ببعض النفقات. سيتظاهر جاراموند بالضيق ويقول إن هذه ليست سياسة مانوتزيو، ثم بعض قليل يوافق، فقد اقتنع، ففي نهاية الأمر براوست وجويس أيضًا خضعا من قبل لتلك التجربة القاسية، والتكاليف هي المبلغ التالي. وسنقوم بطباعة ألفي نسخة، ولكن العقد سينص على حد أقصى عشرة آلاف. سنرسل إليك منها مائتين هدية، يمكنك إرسالها لمن ترغب، ومائتين نسخة سنرسلها للصحفيين للدعاية للكتاب، وسنقوم بتوزيع الألف وستمائة الباقية. وليس لك أي حقوق في تلك النسخ، ولكم إذا نجح الكتاب وأعدنا طباعته، سيكون لك نسبة ١٢٪ في الطبعة الثانية.

لقد رأيت من قبل العقد الذي يتم عقده لأمثال دي جوبرناتيس، والذي كونه في ملء رحلته الإبداعية لن ينظر إليه أثناء التوقيع، في الوقت الذي يقوم به المدير الإداري بالشكوى، لأن السيد جاراموند لم يقدر التكلفة التقدير الصحيح. عشر صفحات من البنود، في ثماني نقاط: حقوق الترجمة، حقوق الأفلام، حقوق الدعم، حقوق الاستخدام الدرامي، نسخ برايل، أجزاء لمجلة الريدر دايجسيت العالمية، ضمانات ضد أي دعاوى قضائية، أي مشكلة قضائية لابد وأن تُحل في محاكم ميلانو. لا يلاحظ الكاتب الذي يطبع على نفقته إذن البند الذي ينص على الحد الأقصى للنسخ، ولا ينص على الحد الأدنى، أو البند الذي ينص على إن المبلغ الذي سيدفعه المؤلف ليس مرتبطًا بعدد النسخ، والذي تم التحدث عنها فقط شفهيًا، والأهم أنه لا يلاحظ البند الذي ينص إن الناشر من حقه إعدام النسخ التي لم يتم بيعها، ولكن يمكن للمؤلف شراؤها بنصف ثمنها إذا رغب في ذلك. ويوقع المؤلف.

تكون بداية طرح الكتاب في الأسواق مذهلة. بيان صحفي من عشر صفحات يتضمن السيرة الذاتية والمقالات النقدية. يوزع بلا خجل، ويكون مصيره غالبًا سلة المهملات في الصحف. عملية الطباعة الفعلية تتكون من ألف نسخة، يتم تجميع ثلاثمائة وخمسين منها، مائتا نسخة تذهب إلى الكاتب، حوالي خمسين لمكتبات صغيرة أو تابعة للدار، خمسون للمجلات المحلية، حوالي ثلاثين نسخة للصحف، والتي تستخدمها في حالة الرغبة في ملء سطرين عن الكتب التي تلقتها في العامود المخصص لذلك. ويكون مصير هذه النسخ في النهاية أن يتم التبرع بها للمستشفيات والسجون، ولهذا السبب يمكنك معرفة لماذا يصعب على المرضى الشفاء وعلى المساجين التوبة.

ـ في الصيف يحين ميعاد جائزة بتروزيلس ديللا جاتينا، من اختراع جاراموند. التكلفة النهائية: الإقامة الكاملة لأعضاء لجنة التحكيم، ودرع سامو تراقيا من الزئبق، وبعض تلغرافات التهنئة من مؤلفي مانوتزيو.

ثم تحين لحظة الحقيقة بعد عام ونصف، يرسل له جاراموند الخطاب التالي: صديقي، لقد توقعت ذلك بالفعل، أعمالك الفنية سابقة خمسين عامًا. لقد حصل كتابك على مراجعات نقدية هائلة، جوائز، ثناء النقاد، ولكن للأسف لم نبع سوى القليل من النسخ. الجمهور غير مستعد لفنك بعد. نظرًا لأننا بحاجة إلى مكان في مخازننا، وكما ينص العقد (الذي أرسل لك نسخة منه)، إذا لم تمارس حقك في شراء النسخ الباقية بنصف الثمن، سنقوم بإعادة تدوير تلك المطبوعات.

يتملك الحزن من دي جوبرناتيس، يعزيه الأهل والأقارب: لا يفهمك القراء، من المؤكد إذا كنت واحدًا منهم، وإذا كنت قد أرسلت بالمظاريف الملئية لكانوا نشروا عنك في الجرائد المشهورة مثل الكوريري ديللا سيرا، إنها مافيا، لابد من المقاومة. لم تبق من النسخ التي أرسلوها لنا سوى خمس نسخ، وهناك العديد من الشخصيات المهمة التي لابد وإرسال كتابك لها. لا يمكن أن تسمح لكتابك بأن يعدم، لأن يتحول إلى ورق صحي، لنري كم يمكننا أن نجمع من المال ربما استطعنا شراء خمسمائة نسخة، ونضحي بالباقي.

إذن فقد كان الباقي لدى مانوتزيو ٦٥٠ نسخة من الورق، لم يتم تجميعه، يقوم السيد جاراموند بتجميع ٥٠٠ نسخة ويرسلها إلى المؤلف، والتسليم يكون بعد الدفع.

وتكون الخلاصة: قام المؤلف بسخاء بدفع ثمن طباعة ٢٠٠٠ نسخة، قامت مانوتزيو **بطباعة** ١٠٠٠ نسخة، وجمع منها ٨٥٠ نسخة، خمسمائة منها دفع المؤلف ثمنها للمرة **الثانية**. عادة ما يكون لمانوتزيو حوالي خمسين كاتبًا في العام، وتختم السنة بأرباح **هائلة**.

وبلا أي ندم: فدار مانوتزيو توزع السعادة.

(٤٠)

الجنباء يموتون أكثر من مرة

(وليم شكسبير، يوليوس قيصر، الفصل الثاني،٢)

كنت أشعر دائمًا بالتناقض بين الإخلاص الذي يظهره بيلبو أثناء عمله مع كتاب جاراموند المحترمين، في محاولة لاختيار كتب تبعث على الفخر، وبين القرصنة التي ليس فقط يتعاون فيها للإيقاع بضحايا مانوتزيو، ولكنه كان يرسل إلى شارع جوالدي من يعتقد بأنه لا يمكن طباعة أعمالهم لدى الجاراموند، كما رأيته يحاول أن يفعل مع الكولونيل أردنتي.

كثيرًا ما تساءلت أثناء عملي معه، لماذا يوافق على هذا الوضع. لا أعتقد أنه كان يفعل ذلك لأهداف مادية، كان يعرف مهنته جيدًا بحيث يمكنه الحصول على عمل يمنحه عائدًا أفضل.

اعتقدت لفترة طويلة أنه يفعل ذلك ليصقل دراسته حول الحماقة الإنسانية من موقع مثالي. كان عادة ما يردد كم يسحره ما أسماه هو بالغباء، تلك المغالطات المنيعة والهذيان المتزايد المتخفي خلف المناقشات المعصومة من الأخطاء. ولكن، كان هذا أيضًا قناعًا. إن من كان يعمل بالفعل بهدف المتعة هو ديوتالليفي، أو ربما على أمل أن تظهر أحد التركيبات التي لم تنشر بعد للتوراة. ومن أجل المتعة، ولمجرد التسلية، التسلية الساخرة والفضول، مكثت أنا أيضًا، وخاصة بعد أن بدأ جاراموند مشروع هيرمس.

بالنسبة لبيلبو كان الأمر مختلفًا. اتضح لي هذا الأمر بعد أن اطلعت على ملفاته.

اسم الملف: الانتقام الرهيب

تصل ببساطة، حتى وإن كان هناك أشخاص في المكتب، تجذبني من سترتي، وتقترب من وجهي وتقبلني. آنا التي كانت عندما تقبلني كانت تقف على أطراف أصابعها، كانت تقبلني وكأنها تلعب الفليبر.

تعرف أنها تحرجني على الملأ.

لم تكن تكذب قط.

ـ أحبك

ـ سنتقابل يوم الأحد؟

لا، لدي سأقضي عطلة هذا الأسبوع مع صديق...

ـ تقصدين صديقة.

ـ لا، صديق، أنت تعرفه، ذلك الذي كان معي في البار الأسبوع الماضي. لقد وعدته، وأنت لا ترضى لي أن أحنث بوعدي؟

ـ لا تخلفي وعدك، لكن لا تأتي إلى هنا ل... أرجوك، لدي ميعاد مع مؤلف.

ـ عبقري سيبدأ؟

ـ بل مسكين سيأتي لندمره.

غبي مسكين، سيأتي لندمره.

ذهبت لكي أصطحبك من بار بيلادي، لم أجدك. انتظرتك طويلاً ثم ذهبت بمفردي فالمعرض كان على وشك أن يغلق أبوابه. قال لي أحدهم إنكم ذهبتم جميعًا إلى مطعم، تظاهرت بالنظر إلى اللوحات، على الرغم من أنه قد قيل لي إن الفن قد انتهى منذ موت هولديرين. بعد عشرين دقيقة عثرت على المطعم، لأن الوكلاء عادة ما يختارون من سيصبح مشهورًا الشهر القادم.

كنت هناك، تجلسين بين الوجوه المعتادة، بجوارك كان الرجل ذو الندبة في وجهه، لم تشعرين بالإحباط ولو للحظة. نظرتي إلي نظرة المتآمر واللامبالي في آن. لا أعرف كيف تنجحين في الجمع بين النظرتين، وكأنك تقولين: ماذا إذن؟

ينظر إلي الدخيل ذي الندبة وكأنني أنا الدخيل. أما الآخرون، الذين على دراية بكل شيء فهم ينظرون بترقب، كان علي أن أفتعل ذريعة ما لأبدأ المعركة. كنت سأخرج منها وأنا أشعر بتحسن حتى لو كانت انتهت بضربي. الجميع يعرفون أنك هناك معه لتثيريني. سواء الأمر سينجح معي أم لا، كان دوري محسومًا، علي أن أقدم العرض.

نظراً لأن علي أن أقدم العرض، اخترت أن يكون عرضًا كوميديًا، اشتركت في الحديث، بلطف، على أمل أن يشعر أحد بالإعجاب على قدرتي في التحكم في أعصابي.

وكنت أنا الوحيد المعجب بقدرتي هذه

يكون المرء جبانًا فقط عندما يشعر بذلك

المنتقم المتنكر مثل كلارك كنت، اهتم بالعباقرة الشبان الذين لا يفهمهم أحد. أشارك في استغلال هؤلاء الذين بافتقارهم إلى الشجاعة، لم يستطيعوا أن يجدوا أنفسهم في دور المشاهد.

هل هذا ممكن؟ أن يقضي المرء حياته في معاقبة من لم يعرف قط أنه يُعاقب؟ هل رغبت في أن تصبح عوميروس؟ فتأخذ هذا إذن.. وهذا أيضًا...

أكره أي شخص يحاول أن ينظر إلي كوهم للانفعال.

عندما نتذكر أن الداث يقع في نقطة فيها
تشطر الهاوية العامود الأوسط. وإنه في قمة العامود
الأوسط يوجد ممر السهم... وأن هناك أيضًا يوجد
كونداليني، سنرى أن في داث يوجد سر التكاثر بل
وسر الإحياء، مفتاح ظهور كل الأشياء من خلال
الخلاف بين الزواج المتضادة، واتحادها مع ثالث.

Dion Fortune, The mystical Qa-)
balah. London, Fraternity of the Inner
light, 1957, 7.19)

على كل حال لم يكن على الاهتمام بمانوتزيو ولكن بالمغامرة الرائعة للمعادن. بدأت اكتشافاتي في مكتبات ميلانو. انطلقت من الكتب الإرشادية، وكنت أعد البطاقات للببليوغرافيا، ومن هناك أعود إلى الأصول القديمة، والتي عن طريقها كان يمكنني العثور على رسوم توضيحية مناسبة. لم يكن هناك أقبح من أن يوضح المرء فصلاً يتحدث عن الاكتشافات الفضائية بصورة المسبار الفضائي الأمريكي الأخير. إذ أطلعني السيد جاراموند أن الأمر يتطلب، على الأقل، أحد ملائكة جوستاف دوريه.

جمعت العديد من الصور الطريفة، ولكنها لم تكن كافية. عندما يُعد كتابًا مصورًا، يلزم لاختيار صورة واحدة جيدة، الحصول على عشرة.

حصلت على الإذن بالذهاب إلى باريس لمدة أربعة أيام. كانت قليلة للتردد على كل الأرشيفات. ذهبت مع ليا، وصلت هناك يوم الخميس وحجزت رحلة العودة في قطار الاثنين مساء، ويوم الاثنين اكتشفت أن الكونسرفاتوار يغلق أبوابه في ذلك اليوم. كان الوقت متأخرًا، وعدت محبطًا لذلك.

تكدر بيلبو لذلك، ولكنني كنت قد جمعت أشياء كثيرة مثيرة للاهتمام وأخذناها لنطلع عليها السيد جاراموند. أخذ يتصفح الصور التي جمعتها، والتي كانت الكثير منها ملونة. ثم تطلع على الفاتورة وأطلق صفير وقال: صديقي العزيز، إن عملنا هو مهمة، مهمة حقيقية، فنحن نعمل من أجل الثقافة، بالتأكيد، ولكننا لسنا هيئة الصليب الأحمر، بل، إننا لسنا اليونيسف. هل كان من الضروري ابتياع كل هذه المادة؟ أرى هنا مثلاً شخصًا يرتدي سروالاً، وشاربيه يشبهان شارب دراتانيو، محاطًا بالأدوات السحرية والأبراج، من هذا مندراك الساحر؟

ـ الطب البدائي، تأثير الأبراج على أجزاء الجسم المختلفة، ومعها ما يقابلها من الأعشاب المعالجة. والمواد غير العضوية، بما فيها المعادن، فقه البصمات الكونية. كانت أزمنة لا توجد فيها حدود بين السحر والعلوم.

ـ شيء مثير للاهتمام. ولكن ماذا يعني إذن عنوان تلك الصفحة؟ الفلسفة الموسوية. ما دخل موسى في هذا؟ ألا يجعل ذلك الأمر بدائيًا إلى حد كبير؟

ـ إنه الجدل حول السلاح المرهم. تناقش كبار الأطباء لمدة خمسين عام إذا كان ذلك المرهم، والذي بدهانه على الذراع الذي أصابه، يمكن أن يشفي الجرح؟

ـ شيء لا يمكن تصديقه، وهل هذا ينتمي للعلوم؟

ـ ليس بمعنى العلوم الذي نفهمه اليوم. ولكن تتم مناقشة هذا الحدث، لأنه منذ وقت قريب تم اكتشاف أعاجيب المغناطيس وبتأثيره عن بعد. أخطأ هؤلاء الرجال في تفسيرهم ولكن فولتا وماركوني لم يخطئوا. ماذا تعني الكهرباء والراديو سوى الأداء عن بعد؟

ـ حسنًا، بارع يا كازاوبون. العلم والسحر يسيران معا، أليس كذلك؟ فكرة رائعة. دعونا نستخدمها إذن: فلتبعد بعض تلك الأجهزة القبيحة ولتضع بدلاً منها بعض نبات اليبروج، أو ربما صورة لاستدعاء الشيطان، على خلفية ذهبية.

ـ لا أريد المبالغة. إن هذه هي المغامرة الرائعة للمعادن. والأشياء الغريبة تترك أثرها فقط عندما توضع في أماكنها.

ـ إن المغامرة الرائعة للمعادن يجب أن تحكي، قبل كل شيء، عن تاريخ الأخطاء العلمية. فلتتمسك بالأشياء الغريبة المثيرة، وفي الهوامش قل إنها خاطئة. في الوقت ذاته نكون جذبنا القارئ، لأنه سيرى أنه حتى العظماء كانت لديهم أفكار مجنونة، مثله تمامًا.

قلت لهم عن شيء غريب رأيته في باريس، مكتبة بالقرب من سان ميشيل. كانت نافذتي العرض فيها تعلنان عن الشيزوفرينيا، فمن جهة كتب عن الحاسوب والإلكترونيات المستقبلية، ومن الجهة الأخرى، علوم الفرق السرية. والشيء نفسه في الداخل، حاسوب من إنتاج آبل، وكتب القبالاة.

قال بيلبو: شيء لا يصدقه عقل.

أردف ديوتاليفي: شيء واضح، أو على الأقل إنك آخر من يجب أن يشعر بالدهشة يا جاكوبو. إنه عالم الآلات يسعى لاكتشاف سر الخليقة: بالحروف والأرقام.

لم يتحدث جاراموند. كان قد عقد يديه وكأنه يصلي رافعًا عينيه نحو السماء. ثم صفق بيديه: كل هذا الذي سمعته منكم اليوم يؤكد لدي فكرة كانت تراودني منذ بضعة أيام... ولكن كل شيء في أوانه، لابد أن أتأملها مليًا. فلتستمروا إذن. رائع يا كازاوبون، سنعيد النظر أيضًا في عقدك، فإنك مساعد ثمين. ولتضع الكثير من القبالاه والحاسوب. إنهم يصنعون الحاسوب من السليكون أليس كذلك؟

ـ ولكن السليكون ليس مادة فولاذية. إنه عنصر غير فولاذي.

ـ ولماذا تقسيم الأصول هذا؟ فليكن ما يكونه، فلنركز على الحاسوب والقبالاه.

ـ والقبالاه ليست فولاذًا أيضًا، قلت بإصرار.

اصطحبنا إلى الباب. وعلى العتبة قال لي: كازاوبون، إن النشر فن وليس علم. دعنا لا نتشبه بالثوريين، فذلك الزمن قد ولى وانقضى. ضع القبالاه. آه، بهذه المناسبة، بشأن ورقة المصروفات الخاصة بك: لقد سمحت لنفسي بألا أوافق على سداد ثمن عربة النوم في القطار. ليس لأنني بخيل، أرجو أن تصدقني، ولكن لابد وأن يتمتع البحث، كيف يمكنني أن أقول ذلك، بروح إنكار الذات الإسبارطية، وإلا لن يؤمن بنا أحد.

استدعانا مرة أخرى بعد بضعة أيام، كان لديه في مكتبه، قال لبيلبو، زائر يرغب في تقديمنا له.

ذهبنا. كان جاراموند يعمل على تسرية شخص سمين، وجهه مثل التابير، شارب أشقر مقسوم أسفل أنف حيواني، ولا ذقن له. كان يبدو لي أنني أعرفه، ثم تذكرت، كان البروفسور برامانتي الذي استمعت إليه في ريو، كان المتحدث الرسمي، أو شيء من هذا القبيل، الخاص بالروزا كروتشي.

قال جاراموند: البروفسور برامانتي، يرى أنها اللحظة المناسبة، لناشر واعٍ وحساس تجاه المحيط الثقافي لهذه الفترة بأن يبدأ سلسلة عن العلوم الخاصة بالعبادات السرية.

اقترح بيلبو: لأجلدار نشر مانوتزيو؟

بالتأكيد ـ قال السيد جاراموند مبتسمًا بخبث ـ إن البروفسور برامانتي، والذي قدمه لي صديق عزيز، وهو الدكتور دي أمتيشيز، مؤلف الكتاب الرائع: تاريخ الأبراج، والذي نشرناه هذا العام، يشكو من أن السلاسل المتفرقة الموجودة عن هذا الموضوع ـ والتي غالبًا تصدرها دور نشر غير جادة وغير واعية ـ هي سلاسل سطحية وغير أمينة، غير صحيحة بل وغير دقيقة، ولا تمثل بأية حال الثراء والعمق الذي وصل إليه حقل الدراسات الفعلية حول هذا الموضوع....

قال برامانتي: لقد حان الوقت لإعادة تقييم الثقافة غير الآنية، بعد سقوط أوتوبيات العالم الحديث.

إنك تنطق بحكمة يا أستاذ. ولكن يجب أن تغفر لنا، يا إلهي، لن أطلق عليه جهل، ولكن عدم معرفتنا بالموضوع: بماذا تفكر عندما تطرح موضوع العلوم السرية؟ الاتجاهات الروحية، أم علم النجوم، أم السحر الأسود؟

أومأ برامانتي بعدم ارتياح: أرجوك! إن تلك هي الهراءات التي يتم تقديمها للسذج. إنني أتحدث عن علوم، حتى وإن كانت سرية. بالتأكيد علم النجوم له دخل، إذا تطلب الأمر ذلك، ولكن ليس أن تقول للسكرتيرة إن الأحد القادم ستقابل فتى أحلامها. ستكون دراسة جادة حول تقسيم الأبراج. على سبيل المثال.

ـ فهمت، دراسة علمية. بالتأكيد يوافق هذا خط النشر الخاص بنا. ولكن هل يمكن أن تشرح بمزيد من الاستفاضة.

استرخ برامانتي على مقعده، وتجول بعينيه في الحجرة، وكأنه يبحث على وحي من النجوم: بالتأكيد يمكن طرح المزيد من الأمثلة، أعتقد أن القارئ المثالي لسلسلة من هذا القبيل لابد وأن يكون شخصًا يدرك مفاهيم الروزا كروتشي: وبالتالي خبير في علم السحر والتعلق بالموتى، علم النجوم وعلم الجغرافيا، في علم الأهرامات والمياه، علم الفوضى والطب إذا أردنا الاقتباس من كتاب أزوث، والذي مثلما يشرح الفيلسوف رابتوس: منحه وسيط لستاروفوروس. لكن لابد ولأن تضم معرفة هذا الشخص مجالات أخرى، مثل فيزياء العلوم السرية، والأستاطيقا، والديناميكا، وعلم النجوم والأحياء الطبيعية، التي تدرس أرواح الطبيعة، وعلم الحيوان السحري: يمكنني أن أضيف العلوم الكونية، وبعض وجهات النظر النفسية والمرتبطة بعلم الوجود، والأنثروبولوجيا، والتي

تدرس التشريح الإنساني، والعلوم اللاهوتية، والتنجيم الاجتماعي، والوجود التاريخي. ثم هناك أيضًا الرياضة النوعية... ولكن الأشياء الاساسية هي كوزموغرافية غير المرئي، المجالات المغناطيسية، السوائل، والسيكومترية، والاستبصار، دراسة الحواس الخمس فوق الجسدية ـ بالإضافة إلى علم الأبراج (والذي بالطبع يصبح خدعة كبيرة إذا لم يحط بالحذر اللازم)، بالإضافة إلى قراءة الذهن، ثم فن التوقع (مثل التاروت وكتب الأحلام)، بدءًا من أعلى المستويات، مثل النبوة والانخطاف. لابد من العثور على معلومات كافية عن السيمياء والكيمياء، علم توارد الخواطر وإخراج الأرواح، السحر الاحتفالي واستدعاء الأرواح. أما بالنسبة للممارسات السرية الأصلية، فأنا أقترح الاكتشافات في حقول: القبالاة القديمة، البراهمانية، التصوفية، ممفيس الهيروغليفية...

تدخل بيلبو قائلاً: وظواهر فرسان المعبد.

انتعش وجه برامانتي: بالتأكيد: ولكنني كدت أنسى: في البداية لابد من إعطاء فكرة عن استحضار الأرواح، والسحر بين الجنسيات الأخرى غير البيضاء، تقديس الأسماء، الأحقاد النبوية، السحر التطوعي، الإيحاءات بالتنويم المغناطيسي، اليوجا، السرنمة، الكيمياء الزئبقية... وبالنسبة للنزعة التصوفية ينصح رونسكي باستحضار تقنيات المتلبسات من لودن، ومتشنجي سان ميداردو، المشروبات السحرية، النبيذ الفرعوني، إكسير الحياة والمياه الزرنيخية. فيما يتعلق بمبدأ الشر، ولكنني مدرك أننا هنا نكون قد وصلنا إلى أكثر الأقسام حساسية في السلسلة، وأقصد أن علينا أن نجعل القارئ يعتاد على أسرار بعلزبول الخاصة بالتدمير الذاتي، وبالشيطان كأمير نُزع عنه ملكه، وعلى كوابيس وكوارث إيرينوميوس مولوخ. أما المبادئ الإيجابية فسنأخذ الأسرار السماوية للملاك ميخائيل، وجبرائيل وروفائيل وشياطين أجاثو. ثم سننتقل بالتأكيد إلى أسرار إيزيس ومثرا ومورفيوس، سومانترا وإليوزيس، والأسرار الغامضة للجنس الذكري: الفالوس، خشبة الحياة، مفتاح العلوم، البافومت، المطرقة، ثم إلى الأسرار الطبيعية للجنس الأنثوي: سيريز، ستايس، باتيرا، سيبيل، عشطار.

انحنى السيد جاراموند للأمام بابتسامة موحية وقال: لن أتغافل عن الغنوصية...

بالتأكيد، على الرغم من أنه هناك الكثير من الهراءات تتناول هذا الموضوع بالفعل في الأسواق. على كل حال كل شكل من أشكال العبادات السرية هو نزعة للمعرفة.

قال جاراموند: هذا ما كنت سأقوله.

سأل بيلبو بسذاجة: وكل هذا سيكون كافيًا؟

نفخ برامانتي وجنتيه محولاً نفسه من تابير إلى همستر: كافيًا؟ سيكون كافيًا كبداية بالتأكيد، ولكن ليس للمبتدئين. ولكن بحوالي ٥٠ عددًا يمكن أن تجتذب آلاف القراء، قراء ينتظرون بالفعل كلمات ذات سلطة.... باستثمار يقدر ببضع مئات ملايين من الليرات، جئت إليك شخصيًا يا سيد جاراموند، لأنني أعرف استعدادك على الاشتراك في استثمار بهذا السخاء، مع منحى بعض الحقوق بالتأكيد كرئيس تحرير لتلك السلسلة...

تجاوز برامانتي الحدود الآن، وفقد جاراموند أي اهتمام بالموضوع. عمل على صرف الضيف بسرعة، مع إعطائه الكثير من الوعود. لجنة المستشارين المعتادة ستقيم هذا العرض بكل دقة.

(٤٢)

ولكنكم تعلمون أننا دائمًا متفقون على أي
شيء نقوله.

Turba philosophorum

عندما خرج برامانتي، علق بيلبو بأنه كان لابد من الكشف عن نوازعه. لم يكن السيد جاراماوند يعلم معنى التعني التعبير، حاول بيلبو شرحه بلا جدوى.

قال جاراموند: على كل حال، دعونا لا نعقد الأمور. لم يقل ذلك السيد سوى خمس كلمات وكنت قد عرفت بالفعل أنه ليس أحد عملائنا، أتحدث عنه هو، أما من يتحدث عنهم من مؤلفين وقراء فهم يهموننا. إن هذا الشخص قد حضر ليؤكد لي بعض الأفكار التي كانت تراودني بالفعل منذ بضعة أيام، إليكم يا سادة.

ثم أخرج من درج مكتبه ثلاثة كتب.

"تلك هي ثلاثة كتب نشرت هذا العام، وجميعها نالت نجاحًا ساحقًا. الأول بالإنجليزية، لم أقرأه ولكن المؤلف هو ناقد مشهور. وماذا كتب؟ انظرا إلى العنوان الفرعي: رواية غنوصية. والآن انظرا إلى هذا: في الظاهر عبارة عن رواية ذات خلفية بوليسية، حقق أفضل المبيعات. وماذا يتناول؟ إحدى الكنائس الغنوصية في ضواحي تورينو. أنتم تعرفون من هم هؤلاء الغنوصيون.." توقف وأشار بيده: لا يهم، يكفيني أن أعرف أنها شيء شيطاني... أعرف، أنني أتعجل الأمور، ولكنني لا أريد التحدث مثلكما، أريد التحدث مثل ذلك البرامانتي. فأنا في هذه اللحظة المحرر، ولست أستاذا في الغنوصية المقارنة أو أي شيء آخر. ماذا إذن الذي رأيته بوضوح، وشعرت بأهميته، بل ما أثار فضولي في حوار برامانتي؟ إنه تلك القدرة العجيبة على وضع كل الأشياء معًا، لم يذكر هو الغنوصية، ولكن كما رأيتم كان يمكنه ذلك، ربما عند الحديث عن الضرب بالرمال، وإكسير الشباب، الرادراميس الزئبقي. ولماذا أصر الآن على هذه النقطة؟ لأنه إليكما كتاب آخر، كتبه صحفي مشهور، يتحدث عن أشياء عجيبة في

تورينو، في تورينو، مدينة السيارات: أعمال سحرية، قداسات سوداء، استدعاء الشيطان، كل هذا من أجل أناس يدفعون نقود وليس مجرد بعض الفقراء من الجنوب. كازاوبون، قال لي بيلبو إنك ذهبت إلى البرازيل ورأيت بعض البرابرة هناك يمارسون بعض الطقوس الشيطانية... حسنًا، ربما يمكنك أن تخبرني المزيد عن ذلك فيما بعد، ولكن في الحقيقة كل هذا سواء. البرازيل هي هنا أيضًا يا سادة، منذ بضعة أيام ذهبت بنفسي إلى تلك المكتبة ـ ما اسمها؟ لا يهم ـ أتعرفان، في ذلك المكان كانوا يبيعون منذ ستة أو سبعة أعوام كتب عن الثوريين، والإرهابيين، لم تعد هناك، ولا حتى الماركسية... لقد تم إعادة تدوير المكان بأكمله، لقد امتلأ المكان بالأشياء التي كان يتحدث عنها برامانتي. حقيقي أننا نعيش في عصر من الاضطراب، وأنه إذا ذهب المرء لمكتبة كاثوليكية، حيث كانت توجد فقط الكتب ذات النزعة الكاثوليكية، يمكنكم أن تجدون أيضًا إعادة تقييم مارتن لوثر، ولكنهم بالطبع لن يبيعوا كتبًا تقول إن الدين هو مجرد خدعة. أما بالنسبة لتلك المكتبات الأخرى فإنهم يبيعون كتب من يؤمن بالفعل ومن يقول أي شيء، لأنهم يطرحون موضوعًا، ماذا يمكن تسميته...

ـ هيرمسي. اقترح بيلبو

ـ تمامًا، أعتقد أن هذه هي الكلمة الصحيحة، لقد رأيت على الأقل عشرة كتب عن هيرمس أيضًا، وأنا الآن أتحدث معكم عن "مشروع هيرمس"، لندخل في هذا الفرع.

الفرع الذهبي، قال بيلبو.

قال جاراموند، دون أن يلتقط إشارة بيلبو: تمامًا، إنه فرع ذهبي. لم أكن أدرك أن أولئك يبتلعون أي شيء لأنه سحري، كما كنت تقول أنت: لأنه يخبرهم عكس ما درسوه في الكتب المدرسية. وأعتقد أيضًا أنه دور ثقافي: لست فاعل خير بالسليقة، ولكن في تلك الأزمنة الحالكة الظلام، تقديم الإيمان إلى أحد، إلقاء الضوء على ما هو فائق للطبيعة.. لقد كان للجاراموند منذ نشأتها مهمة علمية.

تجمد بيلبو: كان يبدو لي أنك تفكر في مانوتزيو؟

بل الاثنان، استمع إلي: لقد بحثت جيدًا في تلك المكتبة، ثم ذهبت إلى أخرى، مكتبة غاية في الجدية، حيث عثرت على رف كامل من الكتب حول العلوم السرية. هناك دراسات جامعية حول هذه الموضوعات موضوعة جنبًا إلى جنب مع كتب ألفها أمثال

برامانتي. فكر دقيقة: ربما لم يقابل برامنتي قط أيًا من أولئك المؤلفين الجامعيين، لكنه بالتأكيد قرأ لهم، قرأ لهم وهو يعدهم مثله. مهما قلت لهؤلاء الأشخاص فهم يعتقدون أنك تتحدث عن مشكلتهم هم، مثل قصة القط، حيث كان الزوجان يتشاجران بشأن طلاقهما، ولكن القط يعتقد أنهما يتشاجران حول طعامه. لابد أنك لاحظت ذلك يا بيلبو، فبمجرد أن طرحت أمامه اسم فرسان المعبد أومأ بالإيجاب على الفور. بالتأكيد، فرسان المعبد والقبالاه، واللوتري وأوراق الشاي. إنهم يلتهمون كل شيء، لقد رأيت وجه برامانتي: إنه كالقوارض. أكاد أرى الآن جمهورًا حاشدًا يقف في صف الآن، ينقسم إلى نوعين، النوع الأول: من يكتبون عن ذلك الموضوع، وستفتح لهم مانوتزيو ذراعيها. كل ما نحتاج إليه لجذبهم هو البدء في سلسلة تجتذب بعض الدعاية، يمكننا أن نطلق عليها... دعني أرى...

قال ديوتالليفي: المائدة الأزميرالدية.

ـ ماذا؟ لا؟ صعب جدًا. لا تعني أي شيء لي. لا، ما نرغب فيه هو شيء يوحي بشيء آخر.

قلت ـ كشف أسرار إيزيس.

ـ كشف أسرار إيزيس، رائع يا كازاوبون، إن ذلك يتضمن توت عنخ آمون أيضًا، والعناكب المقدسة والأهرامات. كشف أسرار إيزيس، مع غلاف أسود سحري بتحفظ. والآن دعونا نستكمل. المجموعة الثانية، من سيبتاعونها، أعرف بماذا تفكرون يا أصدقائي، إن مانوتزيو لا تهتم بالشاري، ولكن لا يوجد قانون خاص بهذا، هذه المرة سنبيع كتب مانوتزيو، إنه التقدم أيها السادة.

ولكن توجد أيضًا الدراسات الأكاديمية، وهنا يأتي دور الجاراموند، سننظر إلى الدراسات التاريخية، وسلاسل الجامعات الأخرى، ونجد لأنفسنا خبيرًا، مستشارًا. ثم سننشر كتابًا أو اثنين في السنة. سلسلة أكاديمية ذات عنوان مباشر وغير فني...

قال ديتوتاالليفي: هيرمسيًا.

ـ رائع. اسم كلاسيكي ومحترم. ستسألوني لماذا ننفق النقود من خلال الجاراموند طالما يمكننا أن نربحها عن طريق مانوتزيو؟ لأن السلسلة الجادة ستكون كدعوى، ستجذب الشخصيات الذكية التي ستطرح علينا أفكارًا أخرى وتقودنا إلى اتجاهات

جديدة، ثم ستجذب آخرين ، أمثال برامانتي، والتي سيتم تحويلهم إلى مانوتزيو. يبدو لي أن المشروع متكامل، مشروع هيرمس، عملية نظيفة، تعود علينا بربح، وستعمل على توطيد تدفق الأفكار بين داري النشر.... هيا أيها السادة إلى العمل. ابدأوا بزيارة المكتبات، توسعوا في البيبليوغرافيا، اطلبوا كتالوجات وانظروا ماذا يحدث في الدول الأخرى... ومن يدري كم من الأشخاص أتوا إليكم يحملون كنوزًا وصرفتوهم، لأن ما لديهم لم يكن يلزمكم. كازاوبون، لن أوصيك، لابد أن نضع في تاريخ المعادن بعض المعلومات عن السيمياء. أتمنى أن يكون الذهب فولاذًا. لندع التعليق لوقت لاحق، أنتم تعرفون بالطبع أنني كل آذان صاغية لأي نقد، اقتراحات، اعتراضات، مثلما يحدث بين المثقفين. لقد أصبح المشروع موقع التنفيذ من هذه اللحظة. ثم صاح ليُسمع صوته في حجرة الاستقبال:

- "سيدة جراتزيا، لتسمحي للسيد المنتظر منذ ساعتين بالدخول، ليست هذه هي طريقة معاملة مؤلف!"

(٤٣)

أشخاص يتقابلون في الطريق... في السر
يكرسون أنفسهم لعمليات سحر أسود، يرتبطون
أو يحاولون الارتباط بأرواح الظلام، ليشبعوا
رغبتهم في الطموح، في الكراهية، في الحب،
باختصار: ليصنعوا الشر.

J.K. Huysmans, Prefazione a J.)
Bois, Le satanisme et la magie, 1895.
Pp.VIII-IX)

كنت أعتقد أن مشروع هيرمس مازال فكرة حديثة الصياغة، لم أكن أعرف السيد جاراموند معرفة جيدة. وبينما كنت أمكث، في الأيام التالية لذلك اللقاء، فترات طويلة في المكتبات لأبحث عن الرسوم التوضيحية حول المعادن، كانوا قد بدأوا بالفعل العمل في المشروع في دار مانوتزيو.

بعد شهرين عثرت بالفعل على العدد الحديث من مجلة: برناسوس الأدبية، وبها مقال طويل: إعادة إحياء العبادات السرية ـ والذي فيه يقوم الناقد خبير الهرمسيات المشهور الدكتور موبيوس، الاسم الفني الجديد لبيلبو، والذي منحه مكافأته الأولى من مشروع هيرمس ـ يتحدث فيه عن الإحياء المعجزي للعلم السري في العالم الحديث وكيف أن مانوتزيو تنوي أن تتحرك في هذا الاتجاه مع سلسلتها الجديدة: الكشف عن أسرار إيزيس.

في الوقت نفسه قام السيد جاراموند بكتابة خطابات لعدد من مجلات النزعة الهرمسية، والتنجيم، والتاروت، وعلوم الكائنات الفضائية، منتحلاً أي اسم، يطلب فيها معلومات عن السلاسل الجديدة التي أعلنت عنها مانوتزيو. والتي بناء عليها يقوم محررو تلك المجلات بالاتصال بمانوتزيو طلبًا للمعلومات. عندئذ يتظاهر السيد جاراموند بالغموض، قائلاً إنه لا يستطيع حتى الآن أن يكشف عن العناوين العشرة الأولى في السلسلة، والتي هي حاليًا في مرحلة الإعداد. بهذه الطريقة أصبح عالم العبادات السرية، والمؤكد نتيجة لتلك الحركة الدعائية، على دراية تامة بمشروع هيرمس.

قال السيد جاراموند الذي استدعانا لاجتماع في صالة خريطة العالم: لنتنكر في زي الورود، سيهرع نحونًا النحل وهو يطن.

ولكن لم يكن هذا كل شيء، إذ أنه أراد أن يطلعنا على النشرة الإعلانية، والتي يسميها هو الدبليون كالفرنسيين: شيء غاية في البساطة مكون من أربع صفحات، على ورق لامع. الصفحة الأولى تمثل غلاف السلسلة: نوع من الأختام الذهبية ـ شرح لنا جاراموند أنه يُدعى النجمة الخماسية لسليمان ـ على خلفية سوداء، وكانت الصفحة مؤطرة بإطار من الصلبان المعكوفة المتشابكة ـ شرح جاراموند بأنها رموز أسيوية، حيث تتجه في اتجاه الشمس وليس في اتجاه عقارب الساعة مثل تلك النازية. في أعلى، ومكان عنوان الكتاب، كانت عبارة: "توجد أشياء كثيرة في السماء وعلى الأرض...". كانت الصفحات الداخلية تحتفي بأمجاد دار مانوتزيو في خدمة الثقافة، ثم ببعض الشعارات الفعالة، تشير إلى واقع أن العالم المعاصر يطلب تأكيدات أكثر عمقًا واستنارة مما يمكن أن يمنحه العلم وحده: من مصر إلى الكلدانيين، ومن طيبة هناك حكمة منسية، حكمة ضرورية لإعادة الإحياء الروحي للغرب."

سأله بيلبو إلى أين سيرسل تلك المنشورات، وابتسم جاراموند ـ كما يقول بيلبو ـ كما يبتسم العبقري الشرير ملك آسام: لقد طلبت من فرنسا دليلاً يسرد عناوين الجمعيات السرية في العالم اليوم. ولا تسألوني كيف يمكن وجود شيء كهذا لأنه موجود وها هوذا، أصدرته دار هنري فيرييه، به العناوين، أرقام التليفونات، الكود البريدي. عليك يا بيلبو أن تتطلع عليه وتستبعد ما لا يهمنا، لأنني رأيت البعض مثل: الجيزويت، أوبوس داي، الفحامين، ونادي الروتاري، وحاول أن تبحث عن كل ما يحمل ملامح عبادات سرية، لقد وضعت بالفعل علامات على بعضها.

وأخذ يتصفح الدليل: المطلقين (المؤمنين بالميتامورفوزي)، جماعة أسيريوس في كاليفورنيا (القسم بالسرية المطلقة)، أطلانطياس في بريطانيا العظمى (البحث عن السعادة المفقودة)، بنائي المعبد في كاليفورنيا (سيمياء، قبالاة، تنجيم)، نادي إي بي في بيربينيانو (مكرس لهاتور، آلهة الحب وحارسة جبل الموت)، نادي إليفاس ليفي دي ماولي (لا أعرف من هذا الليفي، لابد أنه ذلك الأنثربولوجي الفرنسي)، تحالف فرسان المعبد في تولوز، الجامعة الدرودية للجول، الدير الروحي للجيريشو، الكنيسة الكونية للحق في فلوريدا، المعهد التقليدي للإكون في سويسرا، المورمون (لقد قرأت عنهم في قصة بوليسية أيضًا، ولكن ربما لم يعد لهم وجود)، كنيسة ميثرا في لندن وبروكسل، كنيسة الشيطان في لوس أنجلوس، اتحاد كنائس لوسيفوروس في فرنسا، كنيسة الروزا

كروتشي الرسولية في بروكسل، أطفال الظلمة والتنظيم الأخضر في ساحل العاج **(دعونا** ننسى هذا، من يدري أي لغة يستخدمون)، المدرسة الهيرمسية الغربية في **مونيفيديو**، المعهد القومي للقبالاه في مانهاتن، المعبد المركزي للعلوم الهيرمسية في **أوهيو**، **تيترا** الغنوصية في شيكاغو، الإخوة القديمة للروزي كروس لسانت سير دي مار، **إخوة يوهانيت** لفرسان الروزاكروتشي في كاسيل، الإخوة الدولية لإيزيس في جرينولب، **مستنيري** بافاريا في سان فرانشيسكو، هيكل الغنوصيين لشيرمان أوكس، مؤسسة **الكأس** المقدس في أمريكا، جمعية الكأس المقدس في البرازيل، جماعة الأنوبيس في **نيويورك**، معبد النجمة الخماسية السوداء في مانشستر، أتباع أودينس في فلوريدا، **نظام** الجارتر (لابد وأن ملكة إنجلترا عضوة في هذا النظام)، ميليشيا المعبد في **مونبيلييه**، النظام الملكي للمعبد الملكي في مونت كارلو، الروزا كروتشي في هرلم (هل **رأيت**، حتى السود أيضا)، ويكا (جماعة لوسيفيرية تتبع الكلت، فهم يستدعون الاثنين **والسبعين** جنيًا للقبالاه... هل أنتم بحاجة للمزيد؟

سأل بيلبو وهل لكل هؤلاء وجود فعلي؟

ـ بل وأكثر منهم، هيا للعمل، لتعد القائمة النهائية ثم نرسل إليهم النشرة. حتى وإن كانوا أجانب، فالأخبار تنتشر بسرعة بين تلك الجماعات. والآن لم يبق سوى شيء واحد، نحن في حاجة لأن نوزع النشرة في المكتبات المطلوبة والتحدث ليس فقط مع صاحب المكتبة، ولكن أيضًا مع المريدين. وأن نذكر في أثناء الحديث وجود هذه السلسلة الخاصة، وهكذا.

أشار ديوتالليفي بأننا لا يجب أن نكشف عن أنفسنا بهذه الطريقة، وأنه لابد من العثور على أشخاص يمكنهم القيام بهذا الأمر لصالحنا. طلب منه جاراموند أن يعثر على هؤلاء الأشخاص بشرط "أن تكون الخدمة مجانية"

بمجرد أن عدنا إلى المكتب قال بيلبو لكنه يطلب الكثير بالفعل.

ولكن لابد أن الآلهة السفلية تعتني بنا، ففي هذه اللحظة دخلت لورينزا بيلليجريني، أكثر إشراقًا من كل مرة، مما أنار وجه بيلبو، وتملكها الفضول بمجرد أن رأت النشرة.

وعندما عرفت بمشروع الدار المجاورة، استنار وجهها: ياللجمال، لدي صديق لطيف جدًا، أحد أعضاء التوبامارو السابقين، من أوروجواي، يعمل في إحدى المجلات التي

تُدعى بيكاتريس، يأخذني معه دائمًا إلى الجلسات الروحية. عقدت صداقة مع هلال مشع رائع لأحد الأموات، يسأل عني كلما استحضروه.

نظر بيلبو إلى لورينزا وكأنه على وشك أن يسألها شيئًا، ثم تراجع. أعتقد أنه اعتاد بالفعل على علاقاتها الغريبة والمريبة، ولكنه قرر أن يقلق فقط على تلك التي يمكنها أن تلقي بالظلال على علاقة حبه (هل كان يحبها؟). وفي تلك الإشارة إلى بيكاتريس لم ير التهديد القادم من ذكرى الكولونيل، ولكن من التوبامارو الصديق اللطيف جدًا. ولكن كانت لورينزا قد بدأت التحدث عن شيء آخر، وكشفت لنا كيف تتردد على العديد من تلك المكتبات الصغيرة حيث يبيعون كتبًا كان لابد أن تضمها سلسلة "الكشف عن إيزيس".

كانت تقول: إنها شيء يستحق المشاهدة، يمكن فيها العثور على الأعشاب العلاجية، وأيضًا التعليمات الخاصة لصناعة الهومونكولوس (الرجال الصغار)، تمامًا مثل فاوست مع هيلين من تروادة، لنفعل ذلك يا جاكوبو، أريد أن يكون لدي هومونكولوس منك، ثم نحتفظ به كالدشهند، صناعته سهلة، يقولون في ذلك الكتاب إنه يكفي وضع بعض البذور الإنسانية في أنبوبة اختبار، لا أعتقد أن ذلك شيء صعب عليك، لا تخجل أيها السخيف، ثم نخلطه بالهيبومين، المنتزع من... المنزوع.. خلاصة... ما هي الكلمة المستخدمة؟

اقترح ديوتالليفي: المستخلص من؟

ـ فعلاً؟ المهم، المستخلص من فرسة حامل، أعرف أن هذا هو الجزء الأكثر صعوبة في العملية، إذا كنت فرسة حاملاً لن أرغب بالطبع أن يستخلص مني أحد الهيبومين، وخاصة إذا كانوا من الغرباء. ولكنني أعتقد أنه يمكن العثور على مثل هذه الأشياء محفوظة. ثم يوضع كل شيء في إناء ونتركه ليطري بالنقع لمدة أربعين يومًا، وبالتدريج يبدأ شكل ما في التكون، ثم يصبح جنينًا، والذي بعد ذلك بشهرين يتحول إلى هومونكولوس جميل، يخرج ويضع نفسه في خدمتك. أعتقد أنهم لا يموتون أيضًا، تخيل، أنهم يضعون الزهور على قبرك بعد موتك.

سألها بيلبو: ومن ترين أيضًا في هذه المكتبات؟

ـ أشخاص رائعون، منهم من يتحدث مع الملائكة، ومن يصنع الذهب، ثم هناك أيضًا سحرة محترفون يشبهون بالفعل السحرة المحترفين.

ـ وما هو شكل السحرة المحترفين؟

ـ عادة ما تكون أنوفهم معكوفة، حواجبهم مثل الروسيين، وعيونهم بارزة. الشعر طويل، مثل الرسامين القدماء، ولديهم ذقن، ليست كثيفة، مع وجود بقاع عارية بين الذقن والخدود، أما الشارب فمتدلي فوق الشفتين، ولكن هذا شيء طبيعي حيث إن شفاههم رفيعة للغاية، المساكين، وأسنانهم تبرز خارج فمهم. لا يجب أن يضحكان بأسنان مثل هذه، ولكنهم يفعلون ذلك، بعذوبة. ولكن العيون؟ سبق وقلت إنها بارزة، أليس كذلك؟ إلا أنها تنظر إليك بطريقة مريبة.

علق ديوتالليفي: وجوه هيرمسية.

ـ حقًا؟؟ أنت أدرى. عندما يدخل أحدهم ويسأل عن كتاب، مثلاً كتاب للصلوات ضد الأرواح الشريرة، فهم يقترحون العنوان الصحيح للبائع على الفور، وعادة يكون عنوان كتاب ليس متوفرًا في المكتبة. ولكن إذا توددت إليهم، وسألت إذا كان الكتاب فعالاً ومفيدًا، يبتسمون مرة أخرى، بتفهم وكأنهم يتحدثون مع أطفال، وسيقولون إنه على المرء الحذر عند التعامل مع تلك الأشياء. ثم يبدءون التحدث عن حالات تسببت فيها الأرواح الشريرة في كوارث لأصدقاء أصدقائهم، وعندما يرون خوفك، يقولون إنها كانت مجرد حالة هيستيريا. في كل الحالات لن تعرف قط إذا كانوا يصدقون ذلك أم لا. في بعض الأحيان يعطيني أصحاب المكتبات بعض عيدان البخور هدية، وفي إحدى المرات أعطاني أحدهم يدًا عاجية تبعد العين الشريرة.

قال لها بيلبو: إذا جاءتك الفرصة، أثناء تجولك في تلك الأماكن، اسألي إذا كانوا يعرفون أي شيء عن سلسلة مانوتزيو الجديدة، وأطلعيهم على النشرات.

رحلت لورينزا ومعها بعض النشرات، أعتقد أنها في الأسابيع التالية اشتغلت بحماس، ولكنني لم أكن أتوقع أن الأحداث يمكن أن تسير بالسرعة التي سارت عليها. في ظرف أسابيع قليلة لم يعد في استطاعة السيدة جراتزيا أن تجاري أتباع الشيطان (وهو اللقب الذي أطلقناه على الكتاب على نفقتهم الخاصة ذوي الاهتمامات بالعبادات السرية). وكما تملي عليهم طبيعتهم، كانوا بالفعل حشودًا.

(٤٤)

استدع قوى مائدة الوحدة بواسطة الطقس السامي للنجمة الخماسية، بالروح السالبة والموجبة، مع إيهييه واجلا. عُد إلى الهيكل وابدأ بتلاوة تضرعات أرواح الأنوشيان التالية: أول سونوف فاورساج، جوهو لاد بالط، لونش جالز فونفو، سوبرا زول دور....

Israel Regardie, The Original Ac-) count of the Teachings, Rites and Cermonies of the Hermetic Order of the Golden Dawn, Ritual for Invisibility, St. Paul, Llewellyn Publications, 1986, P. 423)

كنا محظوظين، وكان لقاؤنا الأول من أسمى النوعيات، على الأقل فيما يتعلق بأغراض المبادرة نفسها.

بهذه المناسبة كان الثلاثي كاملا، أنا وبيلبو ودويوتالليفي، وكدنا نطلق صيحة تعجب عند دخول الضيف، حيث كانت له الملامح الهيرمسية التي ذكرتها لنا لورينزا بلليجريني، بالإضافة إلى أنه كان يرتدي اللون الأسود.

دخل وهو ينظر حوله في ارتياب وقدم نفسه "البروفسور كاميستريس". وعندما سألناه عن تخصصه، أجاب بإشارة غريبة وكأنه يدعونا إلى التحفظ. ثم قال: اعذروني، لا أعرف إذا كنتم تهتمون بالمشكلة من وجهة نظر تقنية صرفة، أم تجارية، أم أنكم على صلة بأي مجموعة سرية...

أكدنا له أننا لسنا على صلة بأحد.

قال: ليست هذه مبالغة في الحذر من جانبي، ولكنني لا أشعر بالرغبة لأن تكون لدي أي علاقة بأي من أعضاء الأوتو...

وأمام حيرتنا قام بالتفسير: ordo templi orientis، المحفل السري لآخر المؤمنين المدعين أتباع أليستر كراولي... أرى أنكم لستم على دراية بهذا، هذا أفضل، على الأقل لن تكون لديكم أحكام مسبقة على ما سأقوله.

وافق على الجلوس.

ـ كما تعرفون، العمل الذي أرغب الآن في تقديمه إليكم، هو كتاب يناهض فكرة كراولي. فنحن جميعًا، وأنا أيضًا، مازلنا نؤمن بما جاء في كتاب القانون، الذي أملته

على كراولي أحد الأرواح السامية في القاهرة، ويُدعى أيواس، عام ١٩٠٤. يتبع هذا النص أتباع المحفل السري "أوتو"، ويتمسكون بنسخه الأربع، والتي سبقت أول طبعة له بتسعة أشهر انفجار حرب البلقان، وسبقت الثانية بتسعة أشهر انفجار الحرب العالمية الأولى، وسبقت الثالثة بتسعة أشهر انفجار الحرب الصينية اليابانية، أما الرابعة فتلاها بتسعة أشهر مذابح الحرب الأهلية الإسبانية...

لم أستطع أن أمنع نفسي من عقد أصابعي، لاحظ ذلك وقال لي بابتسامة كئيبة: أفهم ترددك، لابد أنك تتساءل، نظرًا لأن ما أقدمه لكم هو الطبعة الخامسة من ذلك الكتاب، ماذا سيحدث بعد تسعة أشهر؟ لا شيء، فلتطمئنوا، لأن ما أعيد طرحه أنا هو كتاب القانون المعدل، حيث إنني أيضًا حالفني الحظ، وجاءتني زيارة، ليس من مجرد روح عليا، ولكن من آل نفسه، الأمير الأسمى، واسمه: هور بار خويت، وهو القرين أو التوأم السري لرا هور خويت. الشيء الوحيد الذي يهمني، وأيضًا من أجل إبعاد التأثيرات الشريرة، هو أن يتم النشر قبل حلول فصل الشتاء.

قال بيلبو: أعتقد أن هذا أمر يمكن تدبيره.

ـ أنا جد سعيد بهذا، فهذا الكتاب سيتسبب في ضجة كبيرة في مجتمع العبادات السرية، لأنهم هم من سيتمكنون من إدراك أن مصادري السرية أكثر جدية وموثوق منها أكثر من مصادر كراولي. لا أدري كيف يمكن لكراولي أن يبدأ طقوس الوحش دون أن يعطي أي اعتبار لطقس السيف. إنه فقط بانتزاع السيف من الغمد يمكن إدراك ما هي الماهابرالايا، أو العين الثالثة لكونداليني. بالإضافة أنه في كل عملياته الحسابية، والمؤسسة جميعًا على رقم الوحش، لم يضع اعتبار للأرقام الجديدة: ٩٣ ، ١١٨، ٨٨، ٤٤٤، و١٠٠١.

ـ وماذا تعني؟ سأله ديوتاليفي على الفور بحماس.

آه، قال الأستاذ كامسترس، كما كان يُقال بالفعل في كتاب القانون الأول، كل رقم لا نهائي، لا يوجد فارق.

ـ فهمت، قال بيلبو، ولكن ألا تعتقد أن كل هذا يمكن أن يكون غامضًا بالنسبة للقارئ العادي؟

كاد كامسترس يقفز فوق كرسيه وقال: لماذا، هذا شيء ضروري. إن كل من يقترب من تلك الأسرار دون الاستعداد الواجب يلقي بنفسه في الهاوية! إن كوني أحاول نشرها بطريقة مخفية أتعرض لمخاطر عظيمة، صدقوني. فأنا أتحرك في مجال عبادة الوحش، ولكن بطريقة أكثر أصولية من كراولي، سترون في صفحاتي الخاصة باللقاء مع الوحش الوصف الخاص بالإعداد للمعبد، والاتحاد الجسدي بين المرأة سكارليت والوحش الذي تمتطيه. لقد كان كراولي قد توقف أمام اللقاء الجسدي لأنه، كما ادعى، ضد الطبيعة، بينما أنا أحمل الطقس إلى ما وراء الشر كما نفهمه. فأنا أتعرض لما هو غامض وغير مفهوم، النقاء الصرف للسحر، العتبة العليا لـ "باس أومجن" و "سابافت"..

لم يتبق أمام بيلبو سوى أن يبحث إمكانية التمويل لدى كامسترس. فعل ذلك من خلال محاورات كلامية مطولة، وفي النهاية اتضح أنه، مثل بارامانتي، ليس لديه أي نية في أن يمول نفسه. عندئذ بدأت مرحلة الطرد، وذلك من خلال المطالبة الوديعة بإبقاء النص معنا لمدة أسبوع لفحصه، ثم سنتصل به. ولكن أمام هذا الطلب احتضن كامسترس النص في صدره مؤكدًا أنه لم تتم معاملته قط من قبل بهذا الشك، وخرج وهو يتوعدنا بأن لديه طرقًا غير عادية بها سيجعلنا نندم على إهانته بهذه الطريقة.

في وقت وجيز أصبح أمامنا عشرات من الوثائق من مؤلفين على استعداد للتمويل، كان علينا الاختيار، نظرًا لأننا نرغب أيضًا طرحها في الأسواق للبيع. بالطبع كان من المستحيل قراءة كل شيء، كنا نفحص الفهرس، نلقي نظرة سريعة على المخطوط، ثم نتبادل اكتشافاتنا.

(٤٥)

من هنا ينتج سؤالاً عجيبًا: هل كان
المصريون القدماء يعرفون الكهرباء؟

Peter Kolosimo, Terra senza tempo,)
Milano, Sugar, 1964, p.111)

قال بيلبو: لقد اخترت نصًا حول الحضارات المختفية والبلاد الغامضة، يستعرض كيف كانت قارة مو هي الأولى ، بجوار أستراليا، ومن هناك تفرعت كل تيارات الهجرة الكبيرة. أحدها اتجهت إلى جزيرة أفالون، وأخرى إلى القوقاز، ثم إلى منابع السند، ثم هناك أيضًا السلتيون، مؤسسو الحضارة المصرية القديمة وفي النهاية أطلانطيس...

قلت: معلومات قديمة، يمكنني أن أحضر لك العدد الذي تريده من عينة هؤلاء الذين يؤلفون كتبًا عن قارة مو.

ـ لكن يمكن لهذا المؤلف أن يمول مشروع النشر، ثم إن في الكتاب فصلاً رائعًا عن الهجرات اليونانية إلى يوكاتان المكسيكية، ويحكي عن تمثال منحوت في مدينة تشيشن إيتزا صورة طبق الأصل لفيلق روماني. قطرتا مياه....

قال ديوتاليفي: إن كل الخوذات في العالم فوقها إما ريش أو شعر ذيل حصان. ليس هذا دليلاً على أي شيء.

ـ بالنسبة إليك ولكن ليس بالنسبة للمؤلف، فهو يرى أن جميع الحضارات قد عبدت الحية، ويستنتج من ذلك أن لها جميعًا أصلاً مشتركًا.

قال ديوتاليفي: بالفعل، ليس هناك شعب لم يعبد الحية سوى الشعب المختار!

ـ آه، بالطبع، أولئك عبدوا العجول.

ـ لقد كانت لحظة ضعف، أرى أن نتخلص من هذا أيضًا، حتى لو كان سيمول النشر، ربما أكون مريضًا بالوهم، ولكن شخصًا يتناول النزعة الكلتية والآريانية، الكاليوجا وغروب الشمس وروحانية الإس إس يبدو لي نازيًا.

ـ لن يكون هذا شيئًا يعيبه بالنسبة لجاراموند.

ـ بالطبع، ولكن لكل شيء حدود، أما أنا فقد اطلعت على كتاب عن المخلوقات الخرافية من أقزام الحدائق والسمندر، الجني والسلف، والجنيات، بالإضافة إلى أنه يتناول أصول الحضارة الآريانية. ويبدو أن الإس إس قد ولدوا من الأقزام السبعة.

ـ ليس من الأقزام السبعة بل من أسطورة النيبالونج.

ـ ولكنه هنا يتحدث عن الشعب الأيرلندي الصغير، الجنيات هم الأشرار أما الشعب الصغير فهم الأخيار، على الرغم من خبثهم.

ـ فلتضعه جانبًا، ماذا عنك يا كازاوبون؟ ماذا وجدت؟

ـ وجدت نصًا مثيرًا عن كرستوفر كولومبس، يحلل توقيعه، ويجد فيه إشارة ما للأهرامات. كانت نيته هي بناء معبد أورشاليم، نظرًا لأنه كان أحد قادة فرسان المعبد العظماء في المنفى، فلقد كان معروفًا بكونه عبريًا برتغاليًا، وبالتالي خبير بالقبالاة وقام بتهدئة العواصف بالتعويذات التالسمانية، وسيطر بها على انتشار مرض الإسقربوط. لم أنظر إلى نصوص القابالاة، لأنني افترضت أن ديوتالليفي سيفحصها.

ـ إن الحروف العبرية كلها خطأ، نسخ ضوئية من كتاب الأحلام.

ـ تذكرا أننا نحاول اختيار نصوص للنشر في الكشف عن أسرار إيزيس، لا داعي للخوض في الفيلولوجيا. ربما يعجب أتباع الشيطان الحروف العبرية المأخوذة من كتاب الأحلام. لست واثقًا فيما يتعلق بإسهامات الماسونية. أوصاني السيد جاراموند بأن أتوخى الحذر فلا نريد أن نتدخل في النزاعات بين الممارسات المختلفة. ولكن لن أهمل على الرغم من ذلك الرمز الصهيوني على كهف عذراء لورد، ولا ذلك الآخر، رائع الجمال، حول ظهور رجل محترم، ربما الكونت سان جيرمانو، الصديق الحميم لفرانكلين ولافاييت في لحظة اختراع علم الولايات المتحدة. إلا أنه يشرح جيدًا معنى النجوم، ولكن تبدأ مرحلة الاضطراب في النص عند التحدث عن الخطوط.

قلت: كونت سان جيرمانو هنا أيضًا.

ـ لماذا؟ هل تعرفه؟

ـ إذا قلت لكما لن تصدقاني. فلندع هذا الموضوع جانبًا. لدي هنا كتاب ضخم من أربعمائة صفحة حول أخطاء العلم الحديث: فالذرة كذبة يهودية، خطأ أينشتاين والسر الصوفي للطاقة، وهم جاليليو والطبيعة اللامادية للقمر والشمس.

قال ديوتالليفي: إذا كان هذا هو المعيار، فقد أعجبني كثيرًا هذا المقال عن العلوم غير الطبيعية، لشارلز فورت.

ـ وما هي؟

ـ تتعلق بشخص يُدعى شارلز هوي فورت، الذي كان قد جمع مجموعة هائلة من الأخبار الغريبة: مثل أمطار من الضفادع في برمنجهام، بصمات حيوان رائع في ديفون، بصمات غامضة وعلامات حشرات ماصة على نتوءات بعض الجبال، بعض التعرجات في تقدم الاعتدالين، نقوش على نيازك، ثلج أسود، أمطار من الدماء، مخلوقات بأجنحة على ارتفاع ثمانية ألف متر فوق باليرمو، عجلات مضيئة في البحر، حفريات عمالقة، أمطار غزيرة من أوراق ميتة في فرنسا، ترسبات معادن حية في سومطرة، بالإضافة بالطبع إلى كل العلامات الموجودة على ماشو بيتشو ومرتفعات أخرى في أمريكا الجنوبية، والتي تعد شاهدًا حيًا على هبوط سفن فضائية قوية في حقبة ما قبل التاريخ. فلسنا وحدنا في هذا الكون.

قال بيلبو: لا بأس. ولكن الشيء الذي أثار اهتمامي هي تلك الصفحات الخمسمائة التي تتناول الأهرامات. هل تعرفون أن هرم خوفو يقع تمامًا على خط العرض الثلاثين، وهو الخط الذي يعبر أكبر مساحة من الأرض فوق سطح البحر؟ وأن النسب الهندسية التي عُثر عليها في هرم خوفو هي النسب نفسها التي عُثر عليها في بيدرا بينتادا في الأمازون؟ وأن مصر كان بها ثعابين بريش، أحدهما على عرش توت عنخ آمون والآخر على هرم سقارة، وأن هذا الأخير يشير إلى ثعبان الكتزالكوتل للآتزاك؟

ـ وما دخل الكتزالكوتل بالأمازون، هل ينتمي إلى مجمع آلهة المكسيك؟ سألت.

ـ ربما فاتتني نقطة الربط. ولكن بهذا الشأن، كيف تفسر إذن واقع أن تماثيل جزيرة الفصح من المغليث تمامًا مثل تلك السلتية؟ وأن أحد آلهة أهل جزيرة البولينزي يدعي يا، والذي هو بوضوح إله اليهود يود، تمامًا مثل الإله المجرى يوف، الإله العظيم الطيب؟ وكيف تفسر أيضًا إحدى المخطوطات المكسيكية القديمة التي تظهر فيها

الأرض مربعًا تحيط به البحار، وفي مركزه يوجد هرم عليه نقوش تعود إلى أتزلان، القريبة من أطلس أو أطلانتس؟ لماذا تم العثور على الأهرامات من جانبي الأطلسي؟

ـ لأن بناء الأهرامات أسهل من بناء الأجسام الكروية، ولأن الرياح تنتج كثبانًا رملية على شكل الأهرامات، وليس على شكل البارثينون.

قال ديوتالليفي: أكره روح النزعة التنويرية.

ـ دعني أستكمل. إن عبادة رع لم تظهر في الديانة المصرية قبل الدولة الحديثة، وبالتالي فلقد أتت من السلت. هل تتذكر القديس نيكولاس ومزلقته الجليدية؟ في مصر فترة ما قبل التاريخ كانت سفينة الشمس مزلقة شبيهة. وبما أنه لا توجد ثلوج في مصر، فلابد أن تعود أصول مزلقة القديس نيكولاس لأصول شمالية...

لم أستطع أن أترك هذا بلا تعليق فقلت: قبل اختراع العجلة كانت المزلقة تستخدم فوق الرمال.

ـ لا تقاطعني، يقول الكتاب إنه لابد أولاً من التعرف على التشابهات ثم العثور على الأسباب. ثم يقول في النهاية إن الأسباب علمية. فلقد عرف المصريون الكهرباء. دون الكهرباء لم يكن بإمكانهم إنجاز ما أنجزوه. لقد اكتشف مهندس ألماني كان مسئولاً عن مجاري المياه في بغداد بطاريات كهربائية مازالت تعمل، ويعود تاريخها إلى فترة الآشوريين. وفي أثناء التنقيب في بابل عثروا على بطاريات مختزنة يعود تاريخ صنعها إلى حوالي أربعة الآف عام مضت. وأخيرًا فإن تابوت العهد (والذي يحتوي على لوحتي الشريعة، عصا هارون وآنية تحتوي على المن من الصحراء) كان عبارة عن صندوق كهربائي قوي، قادر على إنتاج شحنات قدرها خمسمائة فولت.

ـ رأيت ذلك في أحد الأفلام.

ـ وماذا في ذلك؟ ومن أين يحصل كتاب السيناريو على أفكارهم في رأيك؟ فالتابوت مصنوع من خشب الأقاقيا، مغطى بالذهب من الداخل ومن الخارج. المبدأ نفسه الخاص بالمكثفات الكهربائية، موصلين يفصلهما عازل. كان موضوعًا في مكان في منطقة جافة، حيث يصل الحقل المغناطيسي إلى ٥٠٠ ـ ٦٠٠ فولت للمتر العمودي. يُقال إن الملك بورسينا حرر مملكته بواسطة الكهرباء من وحش رهيب كان يُدعي فولت.

ولهذا اختار آليساندرو فولت أن يتخذ هذا الاسم الفائق للطبيعة لقبًا له، فلقد كان اسمه قبله: سميرسلين كراسنابولسكي.

ـ لا داعي للمزاح الآن. فبين يدي بالإضافة إلى المخطوطة، مجموعة من الخطابات التي تقترح الكشف عن علاقات بين جان دارك والكتب النبوية (كتب السايبلين)، الشيطان ليليث التلمودي والأم أمافروديت العظيمة، وبين الكود الجيني وحروف هجاء كوكب المريخ، بين الذكاء السري للنبات والإحياء الكوني بالتحليل النفسي، العلاقة بين ماركس ونيتشه في منظور علم ملائكي جديد، وبين الرقم الذهبي وحجارة ماتيرا، كانط والعبادات السرية، وبين الأسرار الإليوزيسية وموسيقى الجاز، وبين كاليوسترو والطاقة النووية، المثلية الجنسية والغنوصية، وبين جوليم وصراع الطبقات. وفي النهاية عمل من ثمانية أجزاء حول الكأس المقدس والقلب المقدس.

ـ ماذا يريد أن يثبت؟ إن الجرال هو رمز للقلب المقدس أم أن القلب المقدس هو رمز الجرال؟

ـ أفهم الفارق وأقدره، ولكنني أعتقد أنه يرى أن الأمر سواء في الحالتين. ولكنني أعتقد أنه عند هذا الحد لابد من استشارة السيد جاراموند.

تحدثنا معه، قال إنه من حيث المبدأ لا يجب إلقاء أي شيء ويجب الاستماع للجميع.

قلت: ولكن معظم تلك الأشياء يمكن العثور عليها في المكتبات العادية، بل إن المؤلفين أنفسهم ينقل بعضهم من الآخر، ويستشهدون بكتابات الآخرين وكأنها مراجع، ويستخدمون كدليل قاطع عبارة قالها أحدهم.

قال جاراموند: وماذا عن ذلك؟ هل تريد أن تبيع للقراء شيئًا يجهلونه؟ لابد وأن تتحدث كتب سلسلة "الكشف عن إيزيس اللغة نفسها التي يتحدث بها الآخرون. عندما يؤكد أحدهم الآخر، تتأكد حقيقة ما يكتبون. لا أحد يثق في الجديد.

قال بيلبو: حسنًا، ولكن لابد على الرغم من ذلك أن نعرف ما هو الشيء الواضح وما هو الغامض. ويلزمنا لعمل ذلك مستشار.

ـ من أي نوع.

ـ لا أعرف. لابد وأن يكون شخص يمكن تصديقه أكثر من أتباع العبادات الشيطانية ولكن لابد وأن يكون مطلعا جيداً على عالمهم. ثم لابد أن يدلنا على ما يجب أن نركز عليه في سلسلة هيرمس. أحد الباحثين الجادين في النزعة الهرمسية الإحيائية....

قال ديوتاليفي: أحسنت! ثم بمجرد أن تضع بين يديه كتاباً عن الجرال أو القلب المقدس يخرج غاضباً.

ـ ليس بالضرورة.

أجبت: أنا أعرف الشخص المناسب. إنه شخص واسع المعرفة بالتأكيد، يتعامل مع هذه الأشياء بجدية، ولكن بأناقة، يمكن القول بنوع من السخرية. قابلته في البرازيل ولكنه لابد وأن يكون قد عاد إلى ميلانو الآن. أعتقد أن رقم هاتفه معي في مكان ما.

قال جاراموند: لتتصل به على الفور، ولكن بحذر، سيعتمد الأمر كله على السعر. ثم حاول أيضاً استخدامه في سلسلة المغامرة العجيبة للمعادن.

بدا آلييه سعيداً لاتصالي به. سألني أخبار أمبارو الجميلة، أخبرته على استحياء بأنها قصة من الماضي، اعتذر، وقام بإبداء بعض التعليقات حول القدرة التي يتمكن بها الشاب من بداية فصول جديدة في حياته. ألمحت له عن مشروع النشر. أبدى اهتماما وقال إنه سيسعد بمقابلتنا، وحددنا ميعاد اللقاء في منزله.

منذ بداية مشروع هيرمس حتى ذلك اليوم تسليت وأنا خالي الذهن على حساب كثير من الناس، وها هم الآن يطالبونني بدفع الحساب. لقد كنت أنا أيضاً نحلة، أركض نحو زهرة، ولكنني لم أكن قد عرفت هذا بعد.

(٤٦)

أثناء النهار ستقترب من الضفدع عدة مرات وستتلو كلمات عبادة. وستطلب منها أن تحقق لك المعجزة التي تتمناها... في الوقت نفسه ستقطع الصليب الذي فوقه ستقدمها ذبيحة.

(من أحد طقوس أليستر كراولي)

كان آلييه يسكن في أنحاء منطقة سوزا: في شارع صغير منعزل، في أحد المباني التي تعود إلى آخر القرن، تزينها الزهور. فتح لنا نادل مسن يرتدي سترة مقلمة، أدخلنا حجرة صالون صغيرة واستأذننا في انتظار الكونت.

همس بيلبو: إذن فهو كونت.

ـ ألم أذكر لك؟ إنه سان جيرمانو عاد مرة أخرى للحياة.

ـ لا يمكن أن يكون قد عاد للحياة إذا لم يكن قد مات منذ البداية، قال ديوتالليفي، ألا يمكن أن يكون أحشويرس، العبري المتجول؟

ـ بالنسبة للبعض كان سان جيرمانو هو أيضًا أحشويرس.

ـ أرأيت؟

دخل آلييه، غاية في الأناقة كعادته. صافحنا ثم اعتذر: اجتماع مزعج، لم يكن متوقع على الإطلاق، سيضطر بسببه أن يتأخر علينا عشر دقائق أخرى في مكتبه. قال للنادل أن يحضر لنا القهوة، وطلب منا أن نستريح. ثم خرج وهو يجري ليغلق ستاراً ثقيلاً من الجلد القديم. لم يكن هناك باب. وبينما نحتسي القهوة سمعنا أصواتًا منفعلة آتية من الحجرة المجاورة. في البداية أخذنا نتحدث بأصوات مرتفعة فيما بيننا حتى لا نستمع إلى ما يحدث بالداخل، ثم علق بيلبو أننا ربما نزعج الآخرين بهذه الطريقة، وفي إحدى اللحظات الصامتة استمعنا إلى صوت، وعبارة أثارت فضولنا.

نهض ديوتالليفي وذهب بالقرب من مصدر الصوت، وكأنه يرغب في النظر عن قرب للوحة من القرن الثامن عشر بجوار الستار. كانت اللوحة تمثل كهف جبلي كان يتجه

إليه بعض الحجاج صاعدين سبع درجات. وسرعان ما تظاهر ثلاثتنا بأننا نفحص اللوحة.

كان الصوت الذي سمعناه هو بالتأكيد صوت برامانتي، وكانت العبارة هي: ولكنني لا أرسل أرواحًا شريرة إلى منزل أحد!!

في ذلك اليوم أدركنا أن برامانتي لا يشبه الخنزير فقط من حيث الشكل، لكن من حيث الصوت أيضًا.

كان الصوت الآخر صوتًا مجهولاً، ذو لكنة فرنسية واضحة، ونبرة حادة تكاد تكون هيستيرية، ومن حين لآخر كان صوت آلييه الناعم والهادئ يتداخل بينهما.

في تلك اللحظة كان يقول: أرجوكما، لقد أتيتما إلى هنا طلبًا لحكمي، وهذا يشرفني، ولكن عليكما إذا الاستماع إلي. فلتسمحا لي قبل كل شيء بأن أقول لك يا عزيزي بيار إنه قد جافاك الحذر عندما كتبت هذا الخطاب...

أجاب الصوت الفرنسي: إن الأمر غاية في البساطة يا سيدي الكونت، السيد برامانتي كتب مقالاً في مجلة نقدرها جميعًا، والذي فيه يسخر بشدة من بعض اللوسيفاريين. والذين يتناولون القربان دون التصديق في الوجود الحقيقي، طمعًا في الفضة وخلافه. يعرف الجميع أن الكنيسة اللوسيفارية الوحيدة المعترف بها هي تلك التي أنا المسئول فيها، بكل تواضع، عن تقديم الذبيحة وقيادة الأرواح إلى العالم الآخر، ومن المعروف أيضًا أن كنيستي لا تمارس العبادات الشيطانية بطريقة فجة، ولا تتهاون بالقربان، وهي الأشياء التي يمكن أن يقوم بها كاهن دوكر في سان سوبليس. إن ما قلته في خطابي هو إننا لسنا من عبدة الشيطان على النمط القديم، عبدة المحرك الكبير للشر، وأننا لا نحاول تقليد كنيسة روما بكل تلك الصناديق التي يضعون بها قربان المناولة، وكل ما يرتدونه من ملابس طقسية... إننا، على العكس من كل ذلك، رجال حكماء نتبع مثال آلهة الإغريق أثينا، كما يعلم العالم كله، وبالنسبة إلينا، لوسيفر هو أمير الخير، وآدوناي هو مصدر الشر، لأنه خلق هذا العالم، والذي حاول لوسيفر أن يعارضه في خلقه...

قال برامانتي منفعلاً: حسنًا، لقد قلتها، ربما أكون قد أخطأت قليلاً، ولكن هذا لم يكن يعطيك الحق في أن تهددني بأعمال السحر.

ـ دعنا نر، إن ما قلته لم يكن سوى مجاز! إنه أنت الذي، في المقابل، أرسل لي تعويذات سحرية.

ـ بالفعل، فأنا وإخوتي لدينا متسع من الوقت لنرسل شياطين لمن حولنا!! إننا نمارس عقيدة وطقس السحر العلوي، ولسنا مجموعة من السحرة الفاشلين.

ـ سيدي الكونت، إنني ألجأ إليك، السيد برامانتي له، بالتأكيد، علاقات مع الأب بوتروكس، وأنت تعرف جيداً ما يُقال بأن ذلك الكاهن قد وشم صليباً على بطن قدميه ليستطيع السير فوق سيدنا، أو سيده... لقد التقيت منذ سبعة أيام بذلك الكاهن المزعوم في مكتبة دي سانجرال، وكما تعرفون، فهو يبتسم لي، بلزاجة تشبه زيه، وقال لي، حسناً حسناً بالتأكيد سنلتقي في إحدى الأمسيات. وبالفعل، بعد هذا اللقاء بليلتين بدأت الزيارات، فأثناء ذهابي إلى فراشي شعرت بشيكولاته سائلة تضربني في وجهي، وأنت تعرف كيف يمكن التعرف على تلك اللعنات بسهولة.

ـ ربما تكون قد دعكت كعب خفيك على السجادة.

ـ أجل أجل! ولماذا إذن بدأت لوحاتي في الطيران؟ ولماذا صدمتني إحدى اللمبات في رأسي، وتمثال البافوميت الجبسي سقط على الأرض وتهشم، لقد كان ذكرى من والدي، ولماذا ظهرت كتابات باللون الأحمر على الحائط؟ كتابات قذرة لا يمكنني ترديدها، لماذا؟؟؟ أنت تعرف جيداً إنه منذ أقل من عام مضى اتهم المرحوم السيد جرو ذلك الكاهن بأنه يصنع الكمادات من البراز، آسف على التعبير، وأن هذا الكاهن حكم عليه بالموت، وبعد ذلك بأسبوعين مات المسكين ميتة غامضة. إن هذا البوتروكس يصنع السموم، لقد أقرت اللجنة الشرفية للمارتنيز في ليون ذلك...

ـ محض افتراء، قال برامانتي.

ـ آه، أنت إذن ترى هذا، إن محاكمة في هذا الشأن عادة ما تكون مفصلية...

ـ أجل، ولكن لم يذكر أحد أثناء المحاكمة أن السيد جرو كان مدمناً للخمر وفي آخر مراحل التليف الكبدي.

ـ لا تتصرف كالأطفال، إن السحرة يستخدمون الطرق الطبيعية، إذا كان أحدهم مصاباً بالتليف الكبدي يضربونه في موضع مرضه، إن هذه من بديهيات السحر الأسود...

ـ إذن فإن كل من ماتوا بسبب التليف الكبدي كان بوتروكس هو سبب موتهم. لا تضحكني.

ـ قل لي ماذا حدث في ليون خلال هذين الأسبوعين إذن؟ ... هيكل غير مُكرس، قربان التتراجراماتون، صديقك بوتركس مرتديًا عباءة حمراء طويلة والصليب مقلوب، ومعه مدام أولكوت، مساعدته الشخصية، وأشياء أخرى، والرمح الثلاثي مرسوم على جبهتها، والكئوس الفارغة التي كانت تُملأ فقط بالدماء، والكاهن الذي كان يتفل في فم المؤمنين... حدث هذا أم لا؟

ـ لابد وأنك قرأت الكثير من كتابات هويسمانز يا صديقي، قال برامانتي ضاحكًا، لم يكن كل هذا سوى حدث ثقافي، مثل الاحتفالات التي تُقام في مدارس الويكا والدرويد.

ـ آه !! مثل مهرجان فينسيا...

ثم سمعنا هرج وكأن برامانتي كان يحاول الهجوم على خصمه، ولكن آلييه كان يمسكه. ثم بدأ الفرنسي يقول بصوت كالصريخ: أرأيت بنفسك؟ احترس يا برامانتي، اسأل صديقك بوتروكس ما حدث له! إنك لم تعرف بعد، ولكنه في المستشفى، اسأله من شوه وجهه! حتى إن لم أكن أمارس استدعاء الأرواح مثلك، إلا أنني أعرف بعض الأشياء أيضًا، وعندما أدركت أن منزلي أصبح مسكونًا، رسمت على الأرضية دائرة الدفاع، ونظرًا لأنني لا أؤمن بهذا، ولكن يصدقه شياطينك، فلقد نزعت الرداء الطقسي للكرمليت وصنعت منه درعًا مضادًا، وبالتالي عادت اللعنات لأصحابها، أجل. لقد مرت لحظة عصيبة على صديقك الكاهن.

أخذ برامانتي يقول وهو يلهث: هل رأيت؟؟ إنه هو الذي يمارس السحر.

قال آلييه بأدب ولكن بحزم: هذا يكفي أيها السادة. الآن استمعا إلي. تعلمان جيدًا كيف أقدر، على المستوى المعرفي، إعادة فحص تلك الطقوس، سواء فيما يتعلق بكنيسة لوسيفر أو جماعة الشيطان، فكلاهما موضع احترام على الرغم من الخلافات ذات الأصول الشيطانية. وتعرفان جيدًا شكوكي التي تتعلق بهذا الأمر، ولكننا في نهاية الأمر ننتمي جميعًا للفروسية الروحية ذاتها، وأدعوكما الآن إلى وقفة تضامن. ثم إن إدخال أمير الظلمات في الخلافات الشخصية شيء في غاية الطفولة. إنكما تتصرفان من

منطلق أساطير قديمة، مثل فريماسون الفظ. ولكن صرحاء، إن بوتروكس شخص مشبوه، وربما سيكون من الأفضل يا عزيزي برامانتي أن تنصحه بأن يبيع أدواته تلك لأحد بائعي الخردة.

أخذ الفرنسي يضحك وهو يقول: هذا كلام جميل بالفعل، إنها أشياء لا قيمة لها بالفعل.

ـ لنعيد إذن تقييم الأمور: كان هناك جدل حول ما يمكن أن نطلق عليه التمسك بالشكليات الطقسية، اشتعلت بسببه النفوس، ولكن لابد ألا نُضخم الأمور. استمع إلي يا بيار، أنا لا أنكر للحظة واحدة وجود كيانات غريبة في منزلك، إنه شيء طبيعي للغاية، ولكن باستخدام التفكير السليم، يمكن أن يتم تفسير كل شيء عن طريق الأرواح الشريرة...

ـ قال برامانتي: لا أستبعد هذا في ظل تكوينات النجوم في هذه الفترة.

ـ إذن، هيا أنتما الاثنين، لتتصافحا وليعط كل منكما للآخر حضنًا أخويًا.

سمعنا إلى همسات معتذرة من الطرفين. وقال برامانتي: أنت أيضًا تعرف أنه لتمييز من يمكنه بالفعل الانتماء للطقوس، لابد وأن نلجأ أحيانًا إلى الفلكلور. حتى تجار الشرق الأعظم الذين لم يؤمنوا بشيء، كانت لهم طقوسهم الاحتفالية.

ـ بالتأكيد، الطقوس، شيء مفهوم..

قال آلييه: ولكننا لم نعد في زمن كراولي مفهوم؟ سأترككما الآن فلدي ضيوف آخرون في انتظاري.

عدنا على الفور إلى الأريكة، وانتظرنا آلييه بكل أدب واحترام.

(٤٧)

لدينا ساعات متنوعة وغريبة، وأخرى تقوم
بحركات تبادلية... ولدينا أيضاً منازل لخداع
الحواس، حيث ننفذ بنجاح أي نوع من
التلاعب، والرؤى المزيفة، والدجل والأوهام...
تلك هي ثروات بيت سليمان يا بني.

Giulio Camillo, Deminio, L'Idea)
del Theatro, Firenze, Torrentino, 1550,
Introduzione)

وصل آلييه بعد بضع دقائق وقال: اعذروني يا أصدقائي الأعزاء. لقد خرجت للتوي من مناقشة غير مستحبة. كما يعرف بالفعل الصديق كازاوبون، فأنا أُعد نفسي باحثًا في تاريخ الأديان، وهذا الأمر يجعل البعض، كثيرًا، ما يلجأون لتلك المعرفة، وغالبًا ما يلجأون لحدسي أكثر من علمي. أتعرفون، الشيء الغريب هو أنه مازالت توجد شخصيات فريدة بين خبراء الدراسات المعرفية... لا أتحدث هنا عن الباحثين المعتادين عن التعزية، أو الأرواح البائسة، ولكن أيضًا عن شخصيات ذات معرفة عميقة، وعلى درجة كبيرة من الرقي الثقافي، والذين على الرغم من ذلك ينخرطون في خيالات ليلية ويفقدون تمييز الحد بين الحقيقة التقليدية والمفاجآت. إن الضيفين اللذين كنت أتحدث معهما الآن كانا يتشاجران بسبب تصرفات طفولية. ولكن، كما يقولون، يحدث هذا في أحسن العائلات. تفضلوا معي إلى مكتبي المتواضع، فلنتحدث في مكان مريح أكثر.

رفع الستار المصنوع من الجلد، وعبرنا معه إلى الحجرة الثانية. لا يمكن تعريف ذلك المكان بالمتواضع، حيث كان فسيح للغاية، ومليء بأرفف على الحوائط تعلوها أنتيكات، وكتب مجلدة بأناقة جميعها تعود لعصور بعيدة. الشيء الذي لفت انتباهي، أكثر من الكتب، كانت مجموعة من الفترينات المليئة بمواد غير واضحة: كانت تبدو كالأحجار أو بالحيوانات الصغيرة، لم نستطع أن نفهم إذا كانت محشوة أم مُحنطة، أو صُنعت بمهارة. كان كل شيء يعوم في ضوء كضوء الغروب الخافت آت من نافذة زجاجية ذات دعامتين في نهاية الحجرة، زجاجها مصقول ذو ظل من العنبر. يتقابل الضوء القادم من النافذة مع ذلك الصادر من مصباح كبير موضوع على مائدة من خشب الماهوجني الداكن، تغطيها الأوراق. كان مثل ذلك النوع من المصابيح التي يمكن رؤيتها أحيانًا على موائد القراءة في المكتبات القديمة، ذات القبة المصنوعة من الزجاج

الأخضر والتي تلقي بضوء بيضاوي تاركة ما يحيط بتلك المساحة في بريق. كانت لعبة الضوءين المختلفين، كلاهما صناعي، ببعث الحياة في سقف الحجرة.

كان السقف على شكل قبة، تزينه من الجوانب الأربعة رواية: كانت أعمدة صغيرة من الطوب الأحمر ذات تيجان منمنمة مذهبة. كان خداع النظر التي تتسبب فيه اللوحات التي تتخللها والمقسمة إلى سبع مناطق، تزيد من عمقها، وبالتالي بدت الحجرة كلها، وكأنها تحمل نبرة هيكل جنائزي، أو خطيئة لا يمكن إدراكها، أو نوعًا من الحسية الحزينة.

قال آلييه: هذا مسرحي الصغير، على نمط تلك الخيالات الإحيائية، حيث يستعرضون موسوعات مرئية، كنوزًا مرئية للكون. إنني أعده آلة للتذكير أكثر من كونه مجرد مسكن. كل صورة مما ترونها هنا، والتي بوضعها مع أخرى بطريقة ما، تكشف وتلخص سر من أسرار العالم.

انظروا إلى هذا الخط من الوجوه هناك مرسومة على نمط تلك الموجودة في قصر مانتوا: إنهم الستة والثلاثون شماسًا، سادة الفردوس. بعد أن عثرت على هذا التكوين الرائع، من عمل فنان مجهول، واحترامًا للتقاليد، أخذت أجمع تلك المواد الصغيرة الموضوعة في العبوات الزجاجية، والتي تتوافق مع الصور الموضوعة على السقف. إنها تمثل العناصر الأساسية في الكون: الهواء والماء، الأرض والنار. وهو الأمر الذي يفسر وجود هذا السمندر الساحر، على سبيل المثال، عمل رائع من أعمال التحنيط لصديق عزيز، أو هذه المجموعة الرقيقة من النسخ، منها قطعة حديثة من المحرك النفاث الصغير، آيليبايل، والتي اختارها هيرو الإسكندري، والتي فيها يتجمع الهواء في كرة جوفاء، والتي فيها أقوم أنا أيضًا بتشغيل ذلك الفرن الكحولي الصغير، وأدفئه، وبالتالي يخرج من تلك الثقوب الجانبية، وبالتالي يتسبب في الدوران. إنها أداة سحرية، استخدمها الكهنة المصريون القدماء في هياكلهم، كما تخبرنا بذلك العديد من الوثائق. كانوا يقومون بذلك ليدعون حدوث معجزات وكانت الجموع تصدقهم، بينما المعجزة الحقيقية تكمن في ذلك القانون الذهبي، والذي يتحكم في ذلك السر وقدرة التحريك البسيطة لعنصري الأرض والنار. هذا هو التعليم الذي عرفه أجدادنا، كما عرفه رجال السيمياء، ولكن فقده بناة السيكلوترون. لهذا أشخص بنظري لمسرحي الخاص بالذكريات هذا، وأشعر بأنني ابن لكثيرين، لمجتمع أكثر اتساعًا، من أدهشوا الأرواح

العظيمة في الماضي. وأعلم الكثير، أعرف أكثر ممن يطلقون على أنفسهم العارفين، أعرف أنه كما الأسفل هكذا الأعلى، ولا شيء أكثر من هذا يجب معرفته.

قدم لنا سيجارًا كوبيًا، غريب الشكل، ليس مستقيمًا، معوجًا وسميكًا. أطلقنا صيحات من التعجب والإعجاب واقترب ديوتالليفي من أرفف الكتب.

قال آلييه: آه، مكتبة صغيرة، كما ترون، ليست أكثر من مائتي كتاب، لدي أكثر من ذلك بكثير في منزل العائلة. ولكن، وبكل تواضع، كلها كتب ثمينة ونادرة، وموضوعة بالطبع في ترتيب مقصود، وليس بمحض الصدفة، وترتيب المواد المكتوبة يليه ذلك الخاص بالصور والأشياء.

أشار ديوتاللِيفي بخجل يطلب الإذن بلمس أحد الكتب. قال آلييه: تفضل، إنه أوديب المصريات لآثناسيوس كيرشر، بالتأكيد تعرفون أنه الأول بعد هورابولون الذي حاول تفسير الهيروغليفية. رجل رائع، أتمنى أن يكون مكتبي هذا مثل متحفه للعجائب، والذي فُقد الآن، لم يكن بإمكان من لا يعرف كيف يبحث العثور على أي شيء فيه. رجل رائع: كم كان فخورًا ذلك اليوم الذي فيه اكتشف أن هذه العبارة الهيروغليفية كانت تعني: إن بركات أوزوريس الإله تُمنح من خلال الطقوس المقدسة ومن خلال تقييد الأرواح...". ثم جاء ذلك الشيطان شامبليون، ذلك الرجل الكريه، صدقوني، ذلك الطفل الفاشل، وأصر وأكد أن هذه العلامة تتفق فقط مع اسم أحد الفراعنة. بالعبقرية علماء العصر الحديث في فك طلاسم الرموز المقدسة. إن هذا العمل ليس نادرًا جدًا: ثمنه أقل من ثمن سيارة مرسيدس. انظر بالأحرى إلى هذا، الطبعة الأولى عام ١٥٩٥ من "مدرج الحكمة الأبدية" لكونراس، يُقال إنه لا توجد سوى نسختين منه فقط في العالم، هذه هي الثالثة. أما هذه فهي الطبعة الأولى من "أساس النظرية المقدسة" لبورناتيوس. لا يمكنني النظر إلى الصور التوضيحية بهذا الكتاب في المساء دون أن أشعر بنوع من رهاب الاحتجاز الصوفي. تلك الأسرار العميقة للكون... شيء مؤكد، أليس كذلك؟ أرى أن الدكتور ديوتاللِيفي معجب بتلك الحروف العبرية في كتاب بلاز دي فيجينار "السبيل إلى الأرقام". فلتنظر إذن إلى هذا: إنها الطبعة الأولى من "الأساسي في القبالاة" لكنور كريستيان فون روزينروث. أنتم بالتأكيد تعرفون هذا الكتاب، وإن البائس ماكجريجور مازر قام بترجمته، فقط أجزاء منه وبصورة سيئة أيضًا، وانتشر بالإنجليزية في بداية هذا القرن. لابد أيضًا أنكم تعرفون شيئًا عن اجتماع العبادة السري، والذي سحر علماء

الجمال الإنجليز: الفجر الذهبي. لم يكن في الإمكان إذن ألا تنتج عن تلك الجماعة من المزيفين ووثاقها سوى سلسلة، لا نهاية لها، من التدهور في العبادات السرية ، بدءًا من نجمة الصباح إلى الكنائس الشيطانية لآليستر كرولي، والتي كانت تستدعي الأرواح الشريرة، لتحصل على العفو من بعض السادة المخلصين للمثلية الجنسية. لن تتخيلوا، أيها الأعزاء، نوعية الشخصيات التي تقابل معها المرء عند الخوض في تلك الأبحاث. سترون هذا بأنفسكم إذا نويتم القيام بالنشر في ذلك المجال.

استغل بيلبو الفرصة ليتحدث معه في سبب الزيارة، وشرح له أن دار جاراموند ترغب في أن تنشر، كل عام، بضعة كتب من تلك النوعية الغريبة.

ابتسم آلييه وقال: الغريبة. واحمر وجه بيلبو خجلاً.

ـ هل يمكننا إذن أن نقول هيرمسية؟

ابتسم آلييه: آه هيرمسية!!

قال بيلبو: حسنًا، ربما استخدم الآن كلمات غير مناسبة، ولكنني متأكد أنك تعرف عن أي نوع أتحدث

ابتسم آلييه مرة أخرى: إنه ليس نوع إذن الذي ترغبون في نشره، بل المعرفة، ربما ما ترغبون في نشره هو استطلاع معرفي لم يتدهور بعد. بالنسبة إليكم ربما يعد الأمر مجرد اختيار ناشر، أما بالنسبة لي، فأنا مهتم بهذا النوع من المعرفة جدًا، فهو بحث عن الحقيقة، بحث عن الجرال.

قال بيلبو محذرًا إنه مثل الصياد الذي يلقي بشبكته يمكن أن يعثر على قواقع فارغة أو أكياس بلاستيكية، يمكن أن يحدث هذا لدار جاراموند حيث يمكن أن تصل إليهم العديد من الوثائق ذات الطبيعة المريبة، وإننا نبحث عن قارئ حاسم يمكنه أن يساعدنا في فصل الصالح عن الطالح، ويتمكن أيضًا من ملاحظة أي وثيقة مثيرة للاهتمام، لأن هناك دار نشر صديقة على استعداد لنشر أعمال لكتاب أقل قيمة... وبالتأكيد سيكون هناك نوع من التقدير لهذا القارئ، يمكن الاتفاق عليه.

ـ أحمد الله إذ أنني كما يقولون شخصًا غير محتاج ولدي ما يكفيني، يمكنكم أن تقولوا شخصًا ذكيًا ومستريحًا ماديًا. فإذا عثرت أثناء بحثي عن نسخة أخرى لكتاب كونراث، أو على سلمندر محنط جميل آخر، أو على قرن نارويل (والذي سأشعر

بالخجل ولن أعرضه في مجموعتي، على الرغم من أن كنوز فيينا تعرضه على أساس أنه أحادي القرن)، فبحركة بيع بسيطة، أستطيع أن أربح أكثر مما يمكنك أن تدفع لي أنت أجر عشر سنوات من العمل الاستشاري. سأنظر إلى وثائقكم بروح التواضع، فأنا مقتنع بأنه يمكن العثور على نص ما ذي وميض نور، حتى في النصوص التي تبدو عادية جدًا، إذا لم يكن وميض الحقيقة، سيكون على الأقل تزييف عجيب، وعادة ما يتلاقى الطرفان. سأشعر بالملل فقط من الأشياء المعتادة ويجب أن تعوضني عن هذا الملل. سيتوقف ذلك على نوع الملل الذي سأشعر به، سأسمح لنفسي بأن أرسل إليك في آخر العام مذكرة صغيرة، وسأجعل طلباتي في الحدود الرمزية، وإذا شعرت بأنها مبالغ فيها، يمكن أن تكتفي بأن ترسل لي صندوقًا من النبيذ الثمين.

شعر بيلبو بالاضطراب، كان معتادًا على التفاوض مع المستشارين المتذمرين الجائعين. فتح حقيبته التي أحضرها معه وأخرج منها مخطوطة سميكة.

ـ لا تتفاءل كثيرًا. انظر إلى هذا مثلاً. يبدو لي نمطًا نموذجيًا.

أخذ آلييه المخطوط وبدأ: اللغة السرية للأهرامات.. دعونا ننظر إلى الفهرس، قمة الأهرامات... موت اللورد كارنارفون... شهادة هيرودت...

ثم نظر إلينا وقال: ماذا عنكم؟ هل قرأتم هذا المخطوط؟

قال بيلبو: لقد تصفحته.

أعاد إليه آلييه المخطوط: قل لي إذا كان ملخصي هذا صحيحًا. جلس خلف مكتبه، ووضع يده في جيب سترته ليخرج علبة الأقراص التي رأيتها من قبل في البرازيل، وأدارها بين أصابعه الرفيعة مخروطة الشكل، والتي كان يربت بها منذ قليل على كتبه الثمينة. رفع عيناه تجاه الصور الموضوعة على السقف وبدأ يتلو، وكأنه يقرأ من نص يحفظه عن ظهر قلب.

ـ يذكرنا مؤلف الكتاب بالتأكيد بأن بياتزي سميث اكتشف المقاييس المقدسة والغريبة للأهرامات عام ١٨٦٤ .اسمحوا لي أن أذكر الأرقام الكاملة، ففي سني هذا تبدأ الذاكرة في العطب... الشيء الفريد أن القاعدة مربعة يبلغ طول ضلعها ٢٣٢ مترًا. في الأصل كان الارتفاع يبلغ ٨٤١ مترًا. وإذا ترجمنا ذلك إلى الذراع المقدس الفرعوني، سيصبح لدينا قاعدة قدرها ٣٦٦ ذراعًا، وهي بالتالي عدد أرقام السنة الكبيسة.

بالنسبة لبياتزي أيضًا فإن الارتفاع مقسوم على مليار تنتج المسافة بين الأرض والشمس: ١٤٨ مليون كيلومتر. كان تقديرًا تقريبيًا جيدًا في تلك الأعوام حيث أن المسافة هي ١٤٩ مليون ونصف كيلومتر، وليس هذا معناه أننا نحن الأصح بحساباتنا الحديثة. القاعدة مقسومة على عرض أحد الأحجار ينتج عنه .365محيط القاعدة قدره ٩٣١ مترًا. وإذا قسمناه على ضعف الارتفاع نتج ٣,١٤ وهو رقم الباي π. رائع أليس كذلك؟

ـ مستحيل! قل لي كيف استطعت... قال بيلبو مبتسمًا في خجل.

ـ اترك الدكتور آلييه يستكمل حديثه يا بيلبو. قال ديوتالليفي مسرعًا.

شكره آلييه بابتسامة مهذبة، كان يتحدث وهو يحرك نظرته من حين لآخر تجاه السقف، ولكن بدا لي إن نظراته الخاطفة تلك لم تكن نظرات شاردة أو مجرد مصادفة. كانت عيناه تتبعان خطا ما، وكأنه يقرأ من الصور ذلك الذي يدعي بأنه يلخصه لنا من الذاكرة.

الآن إذا قسنا المسافة من قمة إلى قاعدة الهرم الكبير، بالذراع الفرعوني، سنجدها ١٦١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠. كم نفسًا عاشت على الأرض منذ آدم حتى يومنا هذا. إذا حاولنا التخمين ريما سنصل إلى تقريب بين ١٥٣,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ و ١٧١٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠

(Piazzi Smyth, Our Inheritance in the Great Pyramid, London, Isbister, 1880, p. 583)

ـ أتخيل أن مؤلف هذا المخطوط، يُدعم أن ارتفاع هرم خوفو يساوي الجذر التربيعي للرقم الذي يمنحه سطح كل جانب من الجوانب. والمقاييس هنا تتم بالقدم، وهو الأقرب للذراع الفرعوني والعبري، وليس بالأمتار، حيث إن المتر هو وحدة قياس مجردة اخترعت في الزمن الحديث. والذراع الفرعوني حوالي قدم ٧٢٨,١ . وإذا لم تكن لدينا المقاييس الدقيقة يمكن أن نرجع إلى قمة الهرم (البيراميديون)، ذلك الهرم الصغير الموضوع على قمة الهرم الكبير ليصنع القمة المدببة. كان مصنوعًا من الذهب أو من معدن آخر يتلألأ في ضوء الشمس. إذا قسنا ارتفاع البيراميديون، وضربناه في ارتفاع الهرم بأكمله، وضربنا الناتج في عشرة إلى خمسة سنحصل على مساحة الكرة الأرض. ليس هذا فقط، إذا أخذنا محيط قاعدة الهرم وضربناها في ٩٦، عشر مرات، سيكون الناتج مائة وستة وتسعين مليون وثمانمائة ألف ميل مربع، والتي هي تعادل محيط مساحة الأرض. هل أنا محق؟

كان بيلبو يحب أن ينقل الدهشة بتعبير تعلمه في السينما، وذلك باللغة الإنجليزية، كما جاء تمامًا على لسان بطل فيلم Yankee Doodle Dandy بطولة جيمس كيني "I'm flabbergasted"،[١٤] وهذا ما قاله بالفعل.

من الواضح أن آلييه أيضًا كان يفهم اللغة الدارجة الإنجليزية، حيث إنه لم يخف شعوره بالسرور دون أي خجل من الإطراء وأضاف: أصدقائي، عندما يقوم شخص ما، مجهول تمامًا بالنسبة لي، يكتب كتابًا كاملاً عن أسرار الأهرام، يمكنه فقط أن يقول ما يعرفه الآن حتى الأطفال. كان يمكنني أن أشعر بالمفاجأة إذا كان قال شيئًا جديدًا.

(١٤) أنا مذهول.

ـ إذا فالمؤلف لم يفعل شيئًا سوى تكرار بعض الحقائق المعروفة؟

ـ حقائق؟؟ ضحك آلييه، ومرة أخرى فتح علبة سيجاره اللذيذ الذي لا شكل له، وقدم لنا. واستكمل: "ما هي الحقيقة! كما كان يقول أحد معارفي منذ زمن بعيد. جزئيًا الكتاب عبارة عن مجموعة مهاترات: كبداية إذا قسمنا قاعدة الهرم بدقة على ضعف الارتفاع، بدقة وبحساب الأرقام العشرية، لن نحصل على رقم الباي π، ولكن ٣,١٤١٧٢٥٤. فارق بسيط، ولكن مهم. بالإضافة إلى أن أحد تلاميذ بياتزي سميث، ويُدعي فليندز بيتري، أحد من قاموا بقياس ستونهينج في إنجلترا، قال إنه فاجأ أستاذه في أحد الأيام وهو يقطع جزءًا من حائط الجرانيت في الحجرة الداخلة للهرم حتى يصل إلى النتائج الحسابية التي يريدها... ربما تكون مجرد إشاعات، ولكن لم يكن بياتزي سميث شخصًا يبعث على الثقة على كل حال، يكفي أن يرى المرء طريقة عقده لرباط عنقه. ولكن، على الرغم من ذلك، وسط كل هذا الهراء توجد أيضًا حقائق واضحة. هل يمكنكم أن تتبعوني إلى النافذة؟

فتح النافذة على مصراعيها في حركة مسرحية، ودعانا لأن ننظر، وأشار لنا لبعيد، في الزاوية بين الشارع الضيق والطريق الواسع، كان هناك كشك خشبي، حيث كانت تُباع تذاكر يناصيب ميرينا.

ثم قال: أيها السادة، أدعوكم للذهاب وقياس ذلك الكشك. ستجدون أن طول الضلع ١٤٩ سم، أي واحد على مائة مليار من المسافة بين الأرض والشمس. الارتفاع الخارجي مقسوم على على عرض النافذة يكون: ١٧٦/ ٥٦= ١٤,٣. الارتفاع الداخلي ١٩ ديسيمترًا، وبالتالي مساو لعدد سنوات الدورة القمرية اليونانية. جمع ارتفاعي الحافتين الأماميتين، والحافتين الخلفتين ١٩٠ × ٢ + ١٧٦ × ٢= ٧٣٢، والتي هي تاريخ الانتصار في معركة بواتييه.

سمك منضة البيع ١.٣ .سم، وعرض إطار النافذة ٨,٨ سم. عند استبدال الأرقام الداخلية بالحروف الأبجدية المقابلة لها سنصل إلى C10 H8، نصل إلى تركيب النفتالين.

قلت: رائع، هل جربت كل هذا؟

قال آلييه: لا، ولكن فعل ذلك في كشك آخر شخص يُدعى جون بيار آدم، وأعتقد أن كل أكشاك بيع الياناصيب لها تقريبًا المقاييس نفسها. يمكن للمرء أن يفعل ما يريد بالأرقام. إذا كان لدي الرقم المقدس ٩ وأريد الحصول على ١٣١٤ التاريخ الذي حُرق فيه جاك دي مولاي ـ تاريخ عزيز على كل من هم مثلي يبشر بإخلاص بالتقاليد الفروسية لفرسان المعبد ـ ماذا يمكنني أن أفعل؟ يمكنني أن أضربه في ١٤٦، تاريخ دمار قرطاج. كيف وصلت إلى هذه النتيجة؟ قسمت ١٣١٤ على اثنين، وضربته في ثلاثة، وهكذا حتى وصلت إلى تاريخ ما يرضيني. كان يمكنني أيضًا أن أقسم ١٣١٤ على ٢٨,٦، ضعف ١٤,٣، وكنت سأحصل على ٢,٩ ، وهو التاريخ الذي فيه انضم أطالوس الأول من برجامو إلى التحالف المضاد لمقدونية. ما رأيكم؟

ـ إذن فأنت لا تؤمن بعلم الأرقام من أي نوع. قال ديوتالليفي محبطًا.

ـ أنا؟ بل أؤمن به جدًا، أؤمن بأن الكون عبارة عن حفلة موسيقية مدهشة من المقابلات الرقمية، وأن قراءة الأرقام وتفسيرها الرمزي، يعدان طريقًا لمعرفة خاصة جدًا. ولكن إذا كان العالم، في أعلى وفي أسفل، هو نظام من المقابلات، فإن كل شيء جائز، فمن الطبيعي أن تكون الأكشاك والهرم، كلاهما من صنع الإنسان، أن يعيدا إنتاج، من خلال هندسة بنائهما، بلا إدراك، تناغم ما مع الكون. إن من يطلق عليهم علماء الأهرامات، اكتشفوا من خلال أكثر الوسائل تعقيدًا حقيقة واضحة، حقيقة أقدم بكثير منهم، ومعروفة بالفعل. إن منطق البحث والاكتشاف المستخدم هو الملتوي، لأنه هكذا المنطق العلمي. منطق المعرفة لا يحتاج اكتشافات، لأنه يعرف بالفعل. لماذا يكون على المرء إذن إثبات ما هو ثابت ومعروف بالفعل. إذا كان هناك سر ما، سيكون أكثر عمقًا، إن مؤلفيكم مازالوا يبحثون على السطح. أتخيل أن أحدًا تقدم إليكم ببحث حول معرفة المصريين للكهرباء...

ـ لن أسأل مرة أخرى كيف استطعت معرفة ذلك.

ـ أرأيت؟ إنهم يفرحون بالكهرباء مثل ماركوني المسن. التحدث عن نظرية النشاط الإشعاعي سيكون أكثر نضجًا من هذا، فهي فكرة أفضل، والتي بخلاف فكرة الكهرباء يمكن أيضًا أن تشرح غموض لعنة توت عنخ آمون. كيف استطاع الفراعنة رفع تلك الأحجار الرهيبة لبناء الأهرامات؟ هل يمكن أن نرفع الكتل الحجرية بالصدمات الكهربائية، هل يمكنك أن تجعلها أن تطير بانصهار نووي؟ لا، لقد استطاع الفراعنة

العثور على طريقة ما لإبعاد قوة الجاذبية، وكانوا يعرفون أسرار التحليق. هناك شكل آخر من أشكال الطاقة... من المعروف أن الكهنة الكلدانيين كانوا يشغلون آلات مقدسة بواسطة الأصوات، وأن كهنة الكرنك وطيبة كانوا يمكنهم فتح الأبواب بواسطة أصواتهم، إلى ماذا كانت تشير، إذا تأملنا، أسطورة "افتح يا سمسم"؟

سأل بيلبو: وبالتالي؟

ـ هذا هو مربط الفرس يا صديقي. الكهرباء والنشاط الإشعاعي والطاقة النووية، يعرف الممارس الحقيقي أنها مجرد مجاز، أغطية سطحية، كذبات تقليدية، بدائل مسكينة لقوة قديمة امتلكها أجدادنا، قوة منسية، يبحث عنها هو وسيعرفها في يوم ما. ربما لابد أن نتحدث ـ ثم تردد قليلاً ـ عن تيارات التيلوريم.

ـ ماذا؟ سأل أحدنا، لا أتذكر من.

بدا آلييه محبطًا: أرأيتم؟ كنت آمل أن يتمكن أحد المتقدمين إليكم من أولئك المؤلفين يمكنه أن يقول لي شيئًا مثيرًا. أدرك أن الوقت قد تأخر. حسنًا أيها الأصدقاء، اتفقنا، أما ما تبقى من الحديث فلم تكن سوى ترهلات دارس مسن.

وبينما يمد آلييه إلينا يده بالسلام، دخل النادل وهمس له بشيء في أذنه، قال آلييه: آه، الصديقة العزيزة، كنت قد نسيت. اطلب منها أن تنتظر لحظة... لا، ليس في الصالون، ولكن في الصالون التركي الصغير.

يبدو أن الصديقة العزيزة كانت معتادة بالفعل على المنزل، لأنها كانت بالفعل على عتبة غرفة المكتب، ودون أن تنظر إلينا، في ضوء النهار الذي يكاد ينحصر، اتجهت بثقة نحو آلييه، وأخذت تربت على وجهه بدلال وهي تقول: سيمون، لن تدعني أنتظر في الداخل!

كانت لورينزا بيلليجريني.

ابتعد آلييه قليلاً، وقبل يدها وقال لها، وهو يشير إلينا: عزيزتي، صوفيا اللذيذة، أنت تعرفين أنك موضع ترحيب في أي منزل تشرفينه بحضورك، ولكنني كنت على وشك توديع الأصدقاء.

أدركت لوينزا وجودنا، وأشارت تصافحنا بفرح، لا أتذكر أنني رأيتها قط تشعر بالمفاجأة أو بالخجل، ثم قالت: آه شيء جميل! أنتم أيضًا تعرفون صديقي، جاكوبو، كيف حالك. (لم تكن تقولها بصيغة سؤال).

رأيت بيلبو وقد شحب وجهه. صافحنا آلييه الذي قال إنه سعيد بأننا جميعا معرفة: "أعتقد أن صديقتنا المشتركة هي أكثر المخلوقات التي عرفتها أصالة. في تلقائيتها تشبه، ولتسمحوا لمسن مثلي أن ينطلق بخياله، صوفيا المنفية على تلك الأرض. صوفيا اللذيذة، لم يكن لي متسع من الوقت لأخبرك، أن الليلة الموعودة قد تأجلت بضعة أسابيع. أنا في غاية الأسف.

قالت لورينزا: لا يهم، سأنتظر. هل ستذهبون إلى البار؟ سألتنا، بنبرة آمرة، حسنًا أنا سأنتظر هنا نصف ساعة، أريد أن يعطيني سيمونًا واحدًا من إكسيراته، لابد وأن تجربوها، ولكنه يقول إنها فقط للمختارين. ثم سألحق بكم.

ابتسم آلييه بنبرة العم المتسامح، دعاها للجلوس، ثم اصطحبنا للخارج.

وجدنا أنفسنا في الطريق، واتجهنا نحو بيلادي في سيارتي. التزم بيلبو الصمت، ولم نتحدث طيلة الطريق. ولكن على طاولة البار كان لابد وأن يكسر أحدنا حاجز الصمت.

قلت: لا أريد أن أكون قد اصطحبتكما بين يدي شخص مجنون.

قال بيلبو: لا، الرجل دءوب وحاد الذكاء. إنه فقط يعيش في عالم مخالف لعالمنا. ثم أضاف بإحباط: أو مخالف لعالمنا نوعًا ما.

(٤٩)

يخبر كتاب تقليد المعبد في حد ذاته
بتقليد فروسية المعبد، تلك الفروسية الروحية
والسرية...

Henry Corbin, Temple et con-)
templation, Paris, Flammarion, 198
p.373)

قال ديوتالليفي، الذي طلب نبيذًا أبيض غازيًا لدى بيلادي، مما جعلنا نخشى على صحته الروحية: أعتقد أنني فهمت صديقك آلييه يا كازاوبون، إنه شخص مهتم بالعلوم السرية، يشك في الهواة الذين تلقوا تعليمهم شفاهيًا، إلا أننا عرفنا اليوم، من خلال استراقنا السمع، أنه ربما يسخر منهم، إلا أنه يستمع إليهم، ربما ينتقدهم، ولكنه لا يفصل نفسه عنهم.

أضاف بيلبو: إن السيد أو الكونت المبجل آلييه، أو أيا كان لقبه، أدلى لنا بتعبير هو مفتاح كل شيء "الفروسية الروحية". فهو يحتقرهم، ولكنه يشعر بأنه متحد معهم برباط الفروسية الروحية، أعتقد أنني أفهمه.

سألناه: بأي معنى؟

كان بيلبو قد بدأ بالفعل كأس المارتيني الثالث (الويسكي في المساء، كما كان يؤكد، لأنه يهدئ المرء ويقود إلى المشاعر الحالمة، بينما المارتيني في نهاية الظهيرة لأنه يثير ويقوي). بدأ يتحدث عن طفولته في***، كما فعل معي في إحدى المرات.

ـ كنا بين الفترة ١٩٤٣ و ١٩٤٥، أي في فترة العبور من الفاشية إلى الديمقراطية، ثم مرة أخرى إلى ديكتاتورية جمهورية صالو، ولكن في ظل وجود الحروب الأهلية على الجبال. في بداية هذه القصة كان عمري أحد عشر عامًا، وكنت أعيش في منزل العم كارلو. كنا نعيش في المدينة، ولكن عام ١٩٤٣ تكاثف إلقاء القنابل وقررت أمي أنه حان وقت الرحيل، كما كانوا يقولون آنذاك. كان العم كارلو والخالة كاترينا يعيشان في ***، كان العم كارلو من عائلة مزارعين، وورث منزلاً في***، وأراضي أيضًا، يستأجرها المدعو آديلينو كانيبا. كان المستأجر يعمل ويحصد ويصنع النبيذ، ويعطي نصف ما

يربحه المالك. كان الموقف يبعث على التوتر بوضوح: المستأجر يشعر بأنه مُستغل، والمالك أيضًا، نظرًا لأنه يحصل فقط على نصف ما تنتجه أراضيه. كان المُلاك يكرهون المستأجرين، والمستأجرون يكرهون المُلاك. ولكن كانوا يتعايشون سويًا، على الأقل في حالة العم كارلو. كان العم كارلو قد تطوع عام ١٩١٤ في جيش الألبيني، وبطباعه القاسية لرجل من بيومنتي لا يعرف سوى الواجب والوطن، أصبح ملازمًا ثم قائدًا بعد ذلك. باختصار، في إحدى المعارك على الكارسو، وجد نفسه بجوار جندي غبي، تسبب في تفجير قنبلة يدوية بين يديه ـ ربما لهذا السبب أطلقوا عليها قنبلة يدوية؟ كان على وشك أن يتم إلقاؤه في حفرة المقبرة الجماعية عندما أدرك أحد الممرضين أنه مازال على قيد الحياة. أخذوه إلى المستشفى حيث نزعوا عنه إحدى عينيه، والتي كانت تتدلى بالفعل من حدقتها، وبتروا له ذراعًا أيضًا، وعلى حسب قول الخالة كاترينا وضعوا له قطعة معدنية في رأسه حيث فقد أيضًا بعضًا من جمجمته. كان الأمر عبارة عن عمل جراحي ماهر، من جهة، وبطل حرب، من ناحية أخرى. حصل على ميدالية ذهبية، وصليب فروسية التاج الإيطالي، وبعد الحرب حصل على وظيفة آمنة في القطاع الإداري. وأصبح العم كارلو مدير مكتب الضرائب في**، حيث ورث أرضه عن عائلته، وذهب ليعيش في منزل العائلة مع آدلينو كانيبا وعائلته.

بصفته مدير الضرائب كان العم كارلو أيضًا أحد النبلاء المحليين، ونظرًا لموقفه كبطل حرب، وفارس التاج الإيطالي لم يستطع سوى التعاطف مع الحكومة المسئولة حينئذ، والتي كانت الحكومة الفاشية. هل كان العم كارلو فاشيًا؟

في تلك الأيام، كانت الفاشية تمنح المحاربين القدامى مناصب إدارية، وتكافئهم بميداليات وترقيات وظيفية. إذن دعونا نقول إنه كان فاشيًا إلى حد ما. فاشي بدرجة تكفي لأن يكرهه آدلينو كانيبا، والذي كان من أكبر المناهضين للحكم الفاشي لأسباب واضحة. كان على كانيبا الذهاب في كل عام إلى العم كارلو ليتقدم إقراره الضريبي. كان يذهب إلى المكتب بوجه مكشوف ومتآمر بعد أن حاول رشوة الخالة كاترينا بعشرات من البيض، ليجد نفسه في مواجهة العم كارلو الذي لا يمكن رشوته. حيث إنه بطل حرب، والذي بالإضافة إلى ذلك يعرف أكثر من أي شخص آخر كم سرق كانبيي منه خلال العام، ولا يتسامح معه في قرش واحد. شعر كانيبا بأنه ضحية الديكتاتورية وبدأ ينشر إشاعات مغرضة عن العم كارلو. كان أحدهم يسكن في الطابق الأسفل والثاني

في الطابق العلوي، كانا يتقابلان كل صباح ومساء، ولكن توقفا عن تبادل التحية. كان الاتصال بينهما يتم من خلال الخالة كاترينا، وبعد وصولنا، من خلال أمي أيضًا، والذي كان كانيبا يشعر نحوها بتعاطف أكثر وتفهم، نظرًا لأنها كانت أخت زوجة ذلك الوحش. كان العم كارلو يصل إلى المنزل كل يوم في تمام الساعة السادسة، بسترته ذات الصديرية وقبعته المستديرة، وهو يحمل نسخة من جريدة لا ستامبا التي لم يقرأها بعد. كان يسير منتصب القامة مثل جندي آلبينو، وعينه الرمادية تحدق في القمة المستهدفة. كان يمر أمام آديلينو كانيبا، والذي في تلك الساعة عادة يكون في الخارج يستمتع بالهواء الطلق على مقعد الحديقة، ويمر من أمامه كأنه لا يراه، ثم يتقابل مع السيدة كانيبا في الدور الأرضي فينزع باحترام قبعته لها. هكذا استمر الأمر عامًا وراء الآخر.

كانت الساعة قد أصبحت الثامنة، ولم تعد لورينزا كما وعدت، وكان بيلبو قد وصل إلى كأس المارتيني الخامس.

ـ وجاء عام ١٩٤٣ .في صباح أحد الأيام وصل العم كارلو ودخل حجرتنا وأيقظني بقبلة كبيرة وقال لي: أيها الصبي هل تريد أعظم خبر هذا العام؟ لقد طردوا موسوليني. لم أكن أعرف قط أن العم كارلو كان يعاني منه، كان مواطنًا نزيهًا وخادمًا لوطنه. كان يعاني ولا يتحدث عن ذلك، واستمر في منصبه كمدير للضرائب أيضًا في حكومة بادوليو. ثم جاء الثامن من سبتمبر، ووقعت المنطقة التي كنا نعيش فيها في قبضة الجمهورية الاشتراكية، وتأقلم العم كارلو مع الوضع، وكان يجمع لهم أيضًا الضرائب. في الوقت نفسه أخذ آديلينو كانيبا بالافتخار بعلاقته بمجموعات الفدائيين الأولى على الجبال، وأخذ يوعد بالانتقام الواجب. لم نكن نحن الصغار نعرف من هم هؤلاء الفدائيون، كان الجميع يقصون عنهم حكايات، ولكن لم يرهم أحد. كانوا يتحدثون عن أحد قواد قوات بادوليو، شخص يُدعي تيرتسي (اسم حركي بالطبع، كما كانت العادة في ذلك الوقت، وكان الكثيرون يقولون إنه أخذ الاسم من إحدى شخصيات القصص المصورة)، وكان أيضًا مارشيل سابق في الشرطة، والذي فى أثناء المعارك الأولى ضد الفاشية والإس إس فقد إحدى قدميه، وكان يقود كل القوات على التلال حول***. وحدثت الكارثة.

في أحد الأيام ظهر الفدائيون في البلدة، نزلوا من فوق التلال وأخذوا يتجولون في الطرقات بلا زي معين، بمناديل زرقاء، يطلقون طلقات من مدافعهم في الهواء، ليعلنوا عن وجودهم. انتشر الخبر، والتزم الجميع منازلهم، لم يكن أحد يعرف أي نوع من البشر هم. عبرت الخالة كاترينا عن مخاوفها، فهم في النهاية أصدقاء آديلينو كانيبا، أو على الأقل هو يدعي صداقتهم، هل سيفعلون شيئًا ضد العم كارلو؟ وحدث ما توقعته. عرفنا أنه في حوالي الساعة الحادية عشرة قامت فرقة من المحاربين بالمدافع الرشاشة بدخول مكتب الضرائب وقبضوا بالفعل عليه، وأخذوه إلى مكان مجهول. استلقت الخالة كاترينا على الفراش، وأخذ الزبد الأبيض يتساقط من بين شفاهها وهي تقول إنهم لابد وقد قتلوه بالفعل. تكفي ضربة واحدة بكعب البندقية لتقتله نظرًا لما في جمجمته من قطعة معدنية تدعمه. هرع آديلينو كانيبا إلى أعلى هو وزوجته وأولاده عند سماعهم لصراخ الخالة كاترينا، صرخت فيه بأنه مثل يهوذا الخائن، وبأنه هو الذي أبلغ عن العم كارلو للمحاربين، لأنه كان يجمع الضرائب للجمهورية الاشتراكية، أقسم بكل ما هو مقدس بأنه لم يفعل ذلك، ولكن كان من الواضح أنه يشعر نوعًا ما بالمسئولية عما حدث، لأنه كان يتحدث كثيرًا. طردته الخالة من المنزل، بكى ولجأ إلى آمي لتتدخل، وذكرها بكل مرة تنازل لها عن أرنب أو دجاجة بمبلغ رمزي، التزمت آمي الصمت في كرامة، واستمر الزبد الأبيض ينساقط من فم الخالة. وأخذت أنا أبكي. وأخيرًا وبعد ساعتين من العذاب، سمعنا صراخًا، وظهر العم كارلو يقود دراجة بيد واحدة، وكان يبدو وكأنه عائد من نزهة. رأى على الفور الاضطراب في الحديقة وسأل بكل بساطة، ماذا حدث؟ كان يكره الدراما مثل كل الأشخاص من منطقتنا. صعد، واقترب من الخالة كاترينا فوق فراش الألم، والتي كانت مازالت ترفس بقدميها النحيلتين وسألها لماذا هي منفعلة بهذه الطريقة؟

ـ ماذا حدث؟

ـ ما حدث كان كالتالي: وصلت إلى الفدائيين الإشاعات التي أطلقها آديلينو كانيبا ورأوا في العم كارلو كأحد من يمثلوا نظام الحكم فقبضوا عليه ليعطوا مثلاً لكل من بالبلدة. ركب العم كارلو سيارة نقل قادته خارج البلدة ووجد نفسه في مواجهة تيرتسي، الذي كان يرتدي سترة الجيش المليئة بالميداليات الشرفية، يمسك الرشاش بيده اليمنى وعكازًا باليد اليسرى. تصرف العم كارلو بالفطرة، لا أعتقد أنه فعل ذلك بخبث، ولكن

بحكم العادة، وكالتقليد المتبع بين الفرسان، اعتدل في وقفته وقدم التحية العسكرية مقدمًا نفسه: رائد في فرقة الألبيني، إعاقة حرب، وحاصل على الميدالية الفضية، عندئذ بادله تيرتسي التحية العسكرية مقدمًا نفسه: عقيد فرقة ريبودينجو، الشرطة الملكية، قائد جناح باديليان بتينو ريكاسولي، ميدالية برونزية. سأله العم كارلو: أين؟ فأجابه تيرتسي: برودوي أيها الرائد، منطقة ٣٢٧. عندئذ أجابه العم كارلو، يا إلهي لقد كنت أنا في المنطقة ٣٢٨، الفرقة الثالثة. معركة نهر بياف؟ بالفعل كانت هي تلك المعركة. والمدفع على الجبل ذى الأصابع الخمسة؟ بالتأكيد أتذكر! وماذا عن الهجوم في ليلة عيد سان كريسبن؟ بالفعل! ذلك النوع من المعارك! ثم تقدم ذلك الذي فقد ذراعه نحو ذلك الذي فقد قدمه الذي تقدم بدوره نحوه واحتضن كل منهما الآخر. عندئذ قال تيرتسي: انظر أيها الفارس، أيها الرائد، لقد وصلنا الخبر أنك تجمع الضرائب للحكومة الفاشية الغازية. فأجابه العم كارلو: الواقع أيها العقيد لدي عائلة وأحتاج إلى الراتب الذي أتلقاه من الحكومة المركزية، وهو شيء لم أختره أنا، ماذا تفعل لو كنت مكاني؟ أجابه تيرتسي: أيها الرائد العزيز إذا كنت في مكانك كنت سأفعل ما فعلته تمامًا، ولكن على الأقل حاول أن تبطئ في الإجراءات، لا تتعجل جمع الضرائب لصالحهم. أجابه كارلو: سأرى ما يمكنني عمله، ليس لدى أي شيء ضدكم، بل إنكم أبناء إيطاليا ومحاربون عظماء. أعتقد أن كلاً منهما قد فهم الآخر، لأنهما كانا يشددان في نطق كلمة وطن. أمر تيرتسي بأن يُمنح الرائد دراجة وعاد العم كارلو. لم ير أحد آديلينو كانيبا لعدة أشهر. هذا كل شيء، لا أدري إذا كانت الفروسية الروحية هي ما حدث في هذه القصة، ولكنني متأكد أنها تعني الروابط التي تبقى على الرغم من اختلاف الانتماءات.

(٥٠)

لأنني أنا هي الأولى والأخيرة، المُكرمة
والمكروهة، العاهرة والقديسة.

(من أناجيل نجع حمادي الغنوصية ٦: ٢)

دخلت لورينزا بلليجريني إلى الحانة، نظر بيلبو إلى السقف وطلب كأس مارتيني آخر، كان الجو مليء بالتوتر وهممت بالنهوض، إلا أن لورينزا أوقفتني: لا، لابد أن تأتوا جميعكم معي، هذا المساء افتتاح معرض جديد لريكاردو، سيحتفل بأسلوب فني جديد، إنه رائع، أنت تعرفه يا جاكوبو!

كنت أعرف من هو ريكاردو، كان يأتي كثيرًا إلى بيلادي، ولكن في ذلك الوقت لم أكن أعلم لماذا يحدق بيلبو أكثر في السقف، ولكنني بعد أن قرأت الملفات، أعرف أن ريكاردو كان هو الرجل ذو الندبة، والذي لم تكن لدى بيلبو شجاعة الدخول معه في شجار.

أصرت لورينزا، لم يكن المعرض بعيدًا عن بيلادي، بل وقد أعدوا أيضًا احتفالاً حقيقيًا، بل حفلة عريدة.

اضطرب ديوتالليفي وقال على الفور بأن عليه العودة إلى منزله، كنت مترددًا، ولكن كان من الواضح أن لورينزا كانت تريدني أن أذهب معهما، وهذا أيضًا كان يزيد من معاناة بيلبو، الذي كان يرى إمكانية الحوار المباشر بينهما بدأ في الابتعاد. لكنني لم أتمكن من الاعتذار عن الدعوة واتجهنا إلى المعرض.

لم أكن أهتم كثيرًا بريكاردو هذا، في بداية الستينيات كان يرسم لوحات مملة، لوحات صغيرة من الألوان السوداء والرمادية، هندسية جدًا، بصرية إلى حد ما، ذلك النوع الذي يشعر عينيك بالدوار. كانت تحمل عناوين مثل: التركيب ١٥، اختلاف المنظر ١٧، إقليدسيات X. في عام ١٩٦٨ بدأ يعرض في العقارات المحتلة، غيّر من ألوانه، ولم يعد يستخدم سوى التناقض القوي بين الأبيض والأسود، تخلى عن الرمادي، وأصبحت

ضربات ريشته أغمق. وتحولت عناوين اللوحات إلى: ليست سوى بداية، موتولوف، مائة وردة. عندما عدت من البرازيل رأيته يعرض في أحد النوادي التي كانت تعبد الدكتور واجنر، كان قد ابتعد عن الأسود وبدأ يعمل على تركيبات بيضاء، حيث التناقض ينتج فقط من نوع النسيج أو بروز الرسم على ورق فابريانو، وبالتالي يمكن أن تظهر اللوحات، كما يشرح هو، وجوهًا مختلفة، في إضاءات مختلفة. وكانت عناوين تلك اللوحات: تمجيد الغموض، العبور، هذا، بيرجاس، تدهور ١٥ .

في تلك الأمسية، بمجرد أن دخلنا إلى المعرض الجديد، أدركت أن النزعة الإبداعية قد تطورت مرة أخرى. كان المعرض يحمل اسم "ميجال أبوفاسيس". تحول ريكاردو إلى الفن التصويري، بألوان ساطعة. كان يلعب بالاقتباسات، ونظرًا لأنني لا أعتقد بموهبته في الرسم، أتخيل بأنه كان ينفذ لوحاته من خلال إسقاط وعرض لوحة معروفة على القماش ـ وكانت الاختيارات تتراوح بين رواد آخر القرن ورمزيين من بداية القرن العشرين. وكان يعمل على الصور المنعكسة على القماش، بتقنية التنقيط، من تدريجات لا متناهية من الألوان، مغطيًا كل الطيف الضوئي نقطة تلو الأخرى، بحيث يبدأ دائمًا من نقطة مضيئة جدًا ولامعة لينهي الرسم بالأسود المطلق، ويفعل العكس في لوحات أخرى، تبعًا للمفهوم التصوفي أو الكوني الذي يرغب في التعبير عنه. كانت هناك جبال تصدر إشعاعات ضوئية، مفككة في ذرات رفيعة من الأجسام الكروية ذات الألوان الخافتة، وكانت تتخللها سماوات مركزية بها إشارات لملائكة ذوي أجنحة شفافة، شيء شبيه لوحة الفردوس لدوريه. كانت عناوين اللواحات كالتالي: بياتريكس، روزا الغامضة، دانتي جابرييل ٣٢، مخلصين للحب، آتانور، هومونكلوس ٦٦٦ ـ هكذا عرفت من أين جاء شغف لورينزا بالهوموكلوس. وكانت أكبر اللوحات بعنوان صوفيا، وكانت تمثل أمطار من الملائكة السوداء، والتي اختفت عند وصولها أرضًا لتشكل مخلوقًا أبيض تربت عليه يد كبيرة تميل للزرقة، وكان المخلوق نسخة من ذلك الذي نراه مواجهًا للسماء في لوحة جورنيكا لبيكاسو. كان التقارب مثيرًا للشك، وكان التنفيذ يبدو فظًا عن قرب، ولكن كان متناغمًا إلى حد كبير عند النظر إليه من على بعد مترين أو ثلاثة أمتار.

همس لي بيلبو: أنا واقعي قديم، لا أفهم سوى موندريان. ماذا يمكن أن تمثل لوحة غير هندسية؟

قلت: لقد كان هو هندسيًا في البداية.

ـ لم يكن ما يقدمه هندسي لم يكن يصلح سوى لبلاط الحمامات.

في ذلك الوقت كانت لورينزا قد جرت لتحتضن ريكاردو، وتبادل هو وبيلبو التحية من بعيد. كان هناك حشد كبير، وكان المعرض يحاول أن يظهر كأحد المعارض في نيويورك، يكسو الأبيض كل جنباته، ومواسير المياه والتدفئة تظهر في السقف. من يدري كم كلفهم الأمر ليعودوا بالمكان إلى ذلك الديكور القديم. في أحد الأركان كان هناك نظام سماعات يصم الآذان بموسيقى آسيوية، إذا أمكنني التذكر بدقة، ذلك النوع الذي لا يمكن للمرء أن يلتقط منه نغمة واحدة. مشى الجميع مشغولين عن اللوحات في اتجاه الموائد الموضوعة في مؤخرة القاعة، ليمسكوا أكوابًا ورقية. كنا قد وصلنا في منتصف الأمسية: كان الهواء مشبعًا بالفعل بدخان السجائر، وكانت هناك بعض الفتيات اللآتي تبدأن بعض الحركات الراقصة في منتصف القاعة، ولكن كان الجميع مشغولين بالتحدث فيما بينهم، وباستهلاك ما على الموائد العامرة. جلست على أريكة واضعًا على قدمي إناء زجاجيًا كبيرًا مليئًا لمنتصفه بسلطة الفواكه. كنت على وشك تناول بعض منه، إلا أنني رأيت آثار أقدام هرست المكعبات الصغيرة من الفاكهة تمامًا في منتصفه محولاً إياها إلى طبقة متناسقة. لم يكن الأمر مفاجأة كبيرة، لأن الأرض كانت قد أصبحت بالفعل مغطاة بالفعل بالنبيذ الأبيض، وأصبح بعض المدعوين يتحركون بصعوبة بالفعل.

كان بيلبو قد أمسك بدوره بكوب ورقي وأخذ يسير بلا هدف، بكسل، مربتًا بيده من حين لآخر على كتف أحدهم. كان يحاول البحث عن لورينزا.

ولكن البعض مكث بلا حراك، وكان الحشد يتحرك في حركات دائرية، كسرب من النحل يبحث عن وردة مجهولة. لم أكن أبحث عن شيء معين، إلا أنني نهضت، وأخذت أتبع الاتجاهات التي كانت تقودني إليها دفعات المجموعة، ثم رأيت لورينزا عن قرب. كانت تتجول وهي ترسل بإيماءات عرفان لذلك الرجل أو لآخر، كانت تسير عالية الرأس، وعيناها تحدقان عن عمد، ظهرها وصدرها مشدودان، وخطواتها غير متزنة، مثل الزرافة.

عند لحظة ما دفعني الحشد خلف مائدة في إحدى الزوايا، يجلس عليها بيلبو ومعه لورينزا وظهرهما في مواجهتي، واللذان تقابلا أخيرًا، ربما بفعل الدفع أيضًا، وكانا هما

أيضًا محبوسان في تلك الزاوية مثلي. لم أكن أعرف إذا كانا على دراية بوجودي، ولكن في تلك الضوضاء لم يكن أحد يسمع ما يقوله الآخرون، لذلك اعتقد بيلبو ولورينزا أنهما معزولان عن الآخرين، وأصبحت أنا في وضع يجبرني على الاستماع لحوارهما.

قال بيلبو: أين إذن تعرفتي على صديقك آلييه؟

ـ صديقي؟ بل صديقك أنت أيضًا، كما رأيت اليوم. يحق لك إذن أن تعرف سيمون وأنا لا؟

ـ لماذا تدعينه سيمون؟ ولماذا يطلق عليك هو اسم صوفيا؟

ـ إنها لعبة! تعرفت عليه لدى بعض الأصدقاء، حسنًا؟ أعتقد أنه ساحر، فهو يقبل يدي، وكأنني إحدى الأميرات، ويمكن أن يكون في عمر والدي.

ـ احترسي من ألا يصبح أبًا لابنك.

بدا لي حينئذ أنني اتحدث مع أمبارو، في باهيا. كانت لورينزا محقة، كان آلييه يعرف كيف يقبل يد آنسة شابة تجهل هذا الطقس.

أعاد بيلبو سؤاله: لماذا إذن سيمون وصوفيا؟ هل اسمه سيمون؟

ـ إنها حكاية رائعة، هل تعرف أن الكون الذي نعيش فيه هو ثمرة خطأ، وأنني مسئولة جزئيًا عن هذا الخطأ؟ صوفيا كانت الجانب الأنثوي من الإله، لأنه حينئذ كان الإله ذكرًا وأنثى، ثم قمتم أنتم بعد ذلك بوضع ذقن على وجهه وقلتم إنه هو. كنت أنا الجانب الطيب. يقول سيمون إنني أردت أن أخلق العالم دون طلب إذنه، أنا صوفيا، والتي كانت تُدعى أيضًا إينويا. أعتقد أن الجانب الذكر فيّ لم يرغب في الخلق، ربما لم تكن لديه الشجاعة أو ربما كان عاجزًا عن ذلك ـ وأنا بدلاً من أن أتحد معه، قررت أن أخلق العالم بمفردي. أعتقد أنني لم أستطع المقاومة، أعتقد أنني فعلت ذلك بسبب فائض من الحب، هذا حقيقي، فأنا أحب كل هذا العالم المليء بالضوضاء، لهذا أنا روح هذا العالم، هذا ما يقوله سيمون.

ـ كم هو لطيف، وهل يقول الكلام نفسه لكل الفتيات؟

ـ لا أيها الغبي، أنا فقط. لأنه فهمني أكثر منك، ولا يحاول أن يحولني لأكون على صورته. فهو يعرف أن عليه أن يتركني لأعيش الحياة بطريقتي. هكذا فعلت صوفيا،

فلقد أفنت نفسها في سبيل خلق العالم، لقد اتحدت مع المواد الأولية، وهو الشيء المقزز، ربما لأن تلك المواد كانت سيئة الرائحة، وأعتقد أنها خلقت أيضًا الديم... كيف يُقال؟

ـ أتقصدين الديميورج؟

ـ تمام، هذا هو. لا أتذكر إذا كانت صوفيا قد خلقت أيضًا الديميورج أم أنها فقط حرضته على ذلك: هيا أيها الغبي، لنصنع هذا العالم، سيصبح أمرًا مسليًا. هذا الديميورج كان فوضويًا، تقريبًا، ولم يكن يعرف كيف يصنع عالمًا كما ينبغي، بل لم يكن عليه أن يفعله على الإطلاق، لأن تلك المواد كانت شريرة ولم يكن مصرح له بأن يضع يده عليها. ولكنه فعل ما فعله وظلت صوفيا حبيسة الداخل، سجينة داخل العالم.

كانت لورينزا تتحدث وتشرب كثيرًا، كل دقيقتين، وبينما كان الجميع يترنحون بمجون في وسط القاعة، وبعينين مغمضتين، كان ريكاردو يمر أمامها، ويصب لها شيئًا في كوبها. حاول بيلبو أن يمنعه قائلاً إن لورينزا شربت الكثير بالفعل، ولكن ريكاردو كان يضحك وهو يهز رأسه، وكانت هي تعترض قائلة إنها تستطيع تحمل الكحوليات أكثر منه لأنها أصغر سنًا.

قال بيلبو: حسنًا، حسنًا، لا تستمعي إذن لمن هو في سن جدك، لتستمعي فقط إلى صديقك سيمون، ماذا قال لك أيضًا؟

ـ قال لي إنني سجينة العالم، بل سجينة الملائكة الأشرار... لأن في تلك القصة الملائكة أشرار وساعدوا الديميورج على خلق كل الفوضى... كنت أقول إن الملائكة الأشرار، يحتجزونني، لا يريدون أن أفلت منهم، ويعذبونني. ولكن من حين لآخر يتعرف على أحد الآدميين، مثل سيمون. يقول إن هذا حدث له من قبل، منذ حوالي ألف عام، لأنني لم أقل لك هذا من قبل، ولكن سيمون خالد لا يموت، هل تعرف كم من الأشياء رأى..

ـ طبعًا طبعًا، لكن الآن كفي شُربًا...

ـ ششششت... وجدني سيمون في إحدى المرات، كنت عاهرة في ماخور في صور، وكان اسمي هيلين...

ـ هذا ما يقوله لك؟ وأنت سعيدة بذلك. اسمحي لي أن أقبل يدك يا عاهرة عالمي الفاسد... يا له من رجل مهذب.

ـ كانت العاهرة هي هيلينا، بالإضافة إلى أنه في تلك الفترة عندما كانوا يقولون عاهرة كانوا يقصدون بذلك المرأة المتحررة، المرأة بلا قيود، شخصية مثقفة رفضت أن تصبح مجرد زوجة. أنت أيضًا تعلمين أن العاهرة كانت سيدة صالون، يمكن اليوم أن تكون شخصية مسئولة عن العلاقات العامة، هل تطلق لفظة عاهرة على من تعمل في العلاقات العامة، مثل من تضيء الألعاب النارية في الطرقات السريعة ليتوقف لها سائقو عربات النقل؟

في هذه اللحظة مر ريكاردو بجوارها وأخذها من ذراعها وقال لها: تعالي لترقصي.

و في وسط القاعة أخذا يتحركان حركات بطيئة حالمة، وكأنهما يقرعان الطبول. ولكن من حين لآخر كان ريكاردو يجذبها نحوه، ويضع يده حول عنقها، في حركة تملك، وكانت هي تتبعه مغمضة العينين، بوجه متورد ورأسها ملقاة إلى الخلف، وشعرها ينسدل بحرية على كتفيها. أخذ بيلبو يشعل سيجارة تلو الأخرى.

بعد وهلة أمسكت ريكاردو من وسطه وجعلته يتحرك ببطء، حتى أصبحا بالقرب من بيلبو. أخذت لورينزا الكأس من يده وهي مستمرة في الرقص مع ريكاردو، ممسكة الكأس بيدها اليمنى وريكاردو بيدها اليسرى، نظرت بعينيها اللامعتين لبيلبو وبدا وكأنها انتهت لتوها من البكاء، ولكنها كانت تبتسم، وتحدثت معه.

ـ ولم تكن هي المرة الوحيدة؟

ـ عما تتحدثين؟

ـ لم تكن تلك هي المرة الوحيدة التي ألتقي فيها بصوفيا، بعد عدة قرون، وعندما كان سيمون هو جويلم بوستيل.

ـ هل كان شخصًا يعمل في توزيع البريد؟

ـ أيها الجاهل، كان أحد علماء عصر الإحياء، كان يقرأ اليهودي...

ـ تقصدين اللغة العبرية..

ـ وما الفارق؟ كان يقرأها مثلما كان الأطفال يقرءون مجلة ميكي. بمجرد النظر إليها. ما علينا، في إحدى المستشفيات في فينتسيا قابل خادمة عجوز وجاهلة، جوانا، نظر إليها وقال لها، إنك أنت، لقد عرفتك، إنك التجسد الجديد لصوفيا، أم الأرض العظيمة هبطت من السماء لتفدي العالم كله، العالم ذو الروح النسائية. هكذا أخذ بوستيل جوانا معه، اعتبره الجميع مجنونًا، ولكنه لم يأبه، كان يعبدها، وأراد أن يحررها من سجن الملائكة، وعندما ماتت، مكث ساكنًا ليحدق في الشمس لمدة ساعة، ثم ظل عدة أيام بلا أكل أو شرب، تسكنه جوانا التي لم تعد موجودة، ولكنها موجودة في الوقت ذاته، لأنها موجودة هنا دائمًا، تسكن العالم، وتزهر من حين لآخر، تتجسد كما يقولون... أليست قصة تبعث على البكاء؟

ـ إنني أمسح دموعي الآن... وبالطبع تعجبك جدًا فكرة أن تكوني صوفيا.

ـ إنني هي بالنسبة لك أنت أيضًا يا حبيبي. هل تعرف أنك قبل أن تعرفني كنت ترتدي أربطة عنق بشعة، وكان قشر الشعر يغطي كتفيك؟

أمسكها ريكاردو مرة أخرى من العنق، وقال: هل يمكنني ان أشترك في الحوار.

ـ اهدأ أنت والتزم الصمت. فأنت أداة مجوني.

ـ وهذا يناسبني.

أجاب بيلبو وكأن الآخر لا وجود له: إذن فأنت عاهرته، الشخصية النسائية التي تقوم له بالعلاقات العامة، وهو سيمون.

قال ريكاردو وهو يتحدث بثقل: اسمي ليس سيمون.

أجابه بيلبو: لسنا نتحدث عنك.

كنت منذ قليل أشعر بالمضايقة من أجله. فهو عادة ما يغير بشدة على مشاعره، وجد نفسه يطرح على الساحة، وأمام أحد الشهود، بل خصمه أيضًا، مشاجرته العاطفية. ولكن بتلك الملاحظة الأخيرة، وبتعرية نفسه أمام الآخر، وحيث إن الخصم الحقيقي هو شخص ثالث، كان يؤكد، بطريقته الخاصة، امتلاكه للورينزا.

في تلك اللحظة، أجابت لورينزا وهي تقدم كأسها لتنال المزيد من الشراب: إنها مجرد لعبة، فأنا أحبك.

ـ أشكر الله أنك لا تكرهينني، اسمعي، أشعر بأنني أرغب في الذهاب إلى المنزل، أشعر بألم في المعدة. فأنا مازلت سجينًا للعناصر الأساسية في الطبيعة. فلم يفدني سيمون كثيرًا، هل تأتي معي؟

ـ لنمكث بعض الوقت، الحفلة جميلة، ألست مستمتعًا؟ ثم إنك لم تشاهد بعد اللوحات. هل رأيت أن ريكاردو قد صنع واحدة عني؟

قال ريكاردو: كم من الأشياء أرغب في أن أصنعها بك.

ـ يا لك من فظ. ابتعد. إنني أتحدث مع جاكوبو. جاكوبو، ماذا بك، هل مسموح لك أنت فقط أن تلعب ألعاب المثقفين مع أصدقائك وأنا لا؟ من إذن يتعامل معي على أنني عاهرة مدينة صور؟ إنه أنت.

ـ أنا. أنا الذي أدفع بك لتلقي بنفسك بين أذرع السادة المسنين.

ـ لم يحاول قط أن يأخذني بين ذراعيه، فهو ليس شهواني. إن مَا يضايقك أنه يعتبرني شريكًا مثقفًا، وليست لديه رغبة أخرى فيّ.

ـ أداة إثارة.

ـ لم يكن يجب أن تقول هذا. ريكاردو، هيا نبحث عن شراب آخر.

قال بيلبو: لا، انتظري، قولي لي الآن إذا كنت تصدقينه، أريد أن أفهم إذا كنت قد فقدتي عقلك. كفاك شربًا وقولي لي بحق السماء إذا كنت تصدقينه بالفعل.

ـ ولكن يا حبيبي إنها لعبتنا، لعبة بيني وبينه. ثم إن الجميل في القصة هو أنه عندما تدرك صوفيا حقيقتها، تتحرر من قبضة الملائكة، ويمكنها أن تصبح حرة من الخطية...

ـ وهل ستتخلين عن الخطية؟

قال ريكاردو وهو يقبلها بوقار على جبينها: أرجوكي أعيدي التفكير في هذا.

أجابت هي بيلبو دون أن تنظر إلى الرسام: بالعكس، كل هذه الأشياء لم تعد خطيئة، يمكن للمرء أن يفعل كل ما يريد ليتحرر من الجسد، بعيدًا عن الخير والشر.

دفعت بريكاردو بعيدًا وابتعدت عنه، وأعلنت بصوت مرتفع: أنا صوفيا ولأتحرر من الخطية لابد وأن أرتك... لابد وأن أرتكب كل الخطايا، حتى أكثرها لذة...

سارت وهي تترنح قليلاً، واتجهت إلى إحدى الزوايا حيث كانت تجلس فتاة ترتدي الأسود، وعيناها تغطيهما مسكرة ثقيلة، ولون بشرتها شاحب. جذبتها إلى منتصف القاعة وبدأت تتأرجح معها، بطنيهما ملاصقة الواحدة في الأخرى، وأذرعهما موضوعة على الجانبين، وقالت لها: يمكنني أن أحبك أنت أيضًا. وقبلتها في فمها.

التف حولهما الآخرون في شبه دائرة، وقد بدءا يشعران بالإثارة وقال أحدهم شيئًا ما. جلس بيلبو وعلى وجهه تعبير لا يمكن تفسيره، وأخذ ينظر إلى المشهد وكأنه منتج يشاهد اختبار لمشهد ما. كان يتصبب عرقًا، وقد بدأت عينه اليسرى ترتعش، شيء لم ألحظه من قبل. أخذت لورينزا ترقص لمدة خمس دقائق على الأقل، بحركات تزداد إيحاء، ثم قال بيلبو فجأة: الآن تعالي إلى هنا.

توقفت لورينزا، وأفسحت بين قدميها ومدت يديها إلى الأمام وصاحت: أنا هي القديسة والعاهرة.

ـ بل أنت هي الغبية. قالها بيلبو وهو ينهض، متجهًا مباشرة إليها، ممسكًا بقوة بمعصمها، وجرها نحو باب الخروج.

صرخت: توقف، أنا لا أسمح لك.... ثم انفجرت في البكاء وألقت بذراعيها حول عنقه: حبيبي، أنا صوفيا لك أنت، هل أنت غاضب لهذا السبب...

وضع بيلبو بحنان ذراعه حول كتفيها، قبلها على خدها، ورتب شعرها، ثم قال موجهًا كلامه لمن في القاعة: معذرة فهي ليست معتادة على الشرب بهذه الطريقة.

سمعت بعض الضحكات الساخرة من الحضور، وأعتقد أن بيلبو سمعها أيضًا. رآني عند عتبة الخروج، وفعل شيئًا، لم أعرف قط إذا فعل ذلك لي، للآخرين، لنفسه. كان ما فعله هو أنه همس، بعدما رحل الجميع عنهما وفتر اهتمامهما.

فبينما مازال ممسكًا بلورينزا من كتفيها، نظر مرة أخرى إلى القاعة، بصوت منخفض، وبنبرة رجل يدلي بحقيقة واضحة: كوووووكوكوكو....

(٥١)

عندما يرغب قبالي عظيم في أن يخبرك
بشيء، ما سيقوله لن يكون مجرد مزحة، أو
شيء فظ أو عادي، ولكنه سيقول لك سرًا
غامضًا، نوعًا من الوحي.

Thomaso Garzoni, Il Theatro de)
vari e diversi cervelli mondani, Venice,
Zanfretti, 1583, discorso xxxvi)

لم تكن الرسوم التوضيحية التي وجدتها في باريس وفي ميلانو كافية، فسمح لي السيد جاراموند بقضاء بعض الأيام في المتحف الألماني في ميونخ.

كنت أقضي أمسياتي أتجول في بارات شوابنج، أو في بعض السراديب الواسعة، والتي يعزف فيها رجال مسنين ذوي شوارب، يرتدون سراويل قصيرة من الجلد، والعشاق يبتسمون وينظر كل منهم للآخر من خلال سحابة سميكة من الدخان المتصاعد من شواء لحم خنزير وبينهم أكواب مليئة بالجعة، أما في الظهيرة كنت أبحث بين كروت المكتبات وكتالوجات الرسم. كنت أترك الأرشيف من حين لآخر لأتجول في المتحف، حيث تم إعادة بناء كل الاختراعات التي عرفها الإنسان. يمكنك بالضغط على أحد الأزرار أن تبعث الحياة في مجموعة من الصور عن اكتشاف البترول والحفارات العاملة، يمكنك الدخول إلى غواصة حقيقية ويمكنك أن تدير الكواكب، يمكنك أيضًا اللعب في إنتاج الأحماض وتفاعلات السلاسل الكيميائية. كونسرفاتوار آخر أقل غوطية، يتطلع نحو المستقبل يمتلئ بحشود من الرحلات المدرسية التي تتعلم أن تبجل المهندسين.

في المتحف الألماني يتعلم المرء أيضًا كل شيء عن المناجم: بمجرد النزول من السلْم، يدخل إلى منجم، منجم متكامل به أنفاق ومصاعد للعمال والخيول، ممرات ضيقة، تمنيت أن تكون مصنوعة من الشمع، يزحف فيها الأطفال ممن كانوا يعملون في المناجم. توجد أيضًا ممرات مظلمة ولا نهاية لها، تجد نفسك وقد توقفت على حافة آبار بلا قاع، يشعر المرء ببرودة عظامه، ويكاد يشتم رائحة غاز المناجم. كان كل شيء بالحجم الطبيعي.

أخذت أتجول في ممر ثانوي، في محاولة للعثور على ضوء النهار، وأدركت وأنا على حافة هاوية أنني أرى شخصًا أعرفه. لم يكن هذا الوجه المليء بالتجاعيد والرمادي غريبًا علي، الشعر الأبيض والنظرة الرصينة، ولكنني شعرت بأن ما يرتديه هو الشيء الغريب، لقد رأيت هذا الوجه، ولكنه مرتبط في ذهني بزي ما، الشعور نفسه لشخص يقابل الكاهن الذي يعرفه منذ فترة طويلة وهو يرتدي الملابس المدنية، أو لأن يرى أحد الرهبان الكابوتشينو بلا ذقن. كان هو أيضًا ينظر إلي بتردد. وكما يحدث عادة في تلك المواقف، ألقى علي هو السلام بالإيطالية بعد فترة من النظرات المتبادلة. وفجأة استطعت أن أتخيله في ملابسه الحقيقية، كان لابد أن يرتدي روبًا أصفر اللون، وسيصبح السيد سالون، أ. سالون خبير تحنيط الحيوانات. كان معمله على بعد بضعة أبواب من مكتبي، في ممر المصنع القديم الذي فيه كنت أقوم بدور مارلو الثقافية. كنا نتقابل أحيانًا على السلالم ونتبادل التحية.

قال وهو يمد لي يده: شيء غريب، نعمل في مكتبين متجاورين منذ فترة طويلة، وأول تعارف لنا في باطن الأرض على بعد ألف ميل من مكاتبنا.

تبادلنا بضع جمل عن الظروف، وجاءني انطباع بأنه يعلم تمام المعرفة ما كنت أفعله، ولم يكن هذا بالشيء اليسير، حيث إنني لم أكن أعرف شخصيًا ما كنت أفعله.

ـ ماذا تفعل إذن في متحف تقني؟ في دار النشر التي تعمل بها تهتمون فقط بأشياء أكثر روحانية، على ما أعتقد.

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ آه ـ وأشار بلا هدف ـ يتحدث الناس، ويزورني الكثيرون...

ـ ما نوع الناس الذي يأتون لمحنط حيوانات، اعذرني؟

ـ أنواع كثيرة، ربما تفكر مثل الكثيرين بأنها ليست مهنة منتشرة، ولكنني لدي الكثير من العملاء، من كل الأنواع، متاحف، هواة الجمع من الأفراد.

قلت: لا يحدث أن أرى الكثير من الحيوانات المحنطة في المنازل.

ـ حقًا؟ يعتمد هذا على نوع المنازل التي تزورها... أو الأقبية"

ـ هل يحتفظ الناس بحيوانات محنطة في الأقبية؟

ـ البعض يفعلون ذلك. ليست كل مغارات الميلاد موضوعة في نور الشمس أو القمر. لا أثق كثيرًا في هؤلاء العملاء، ولكن كما تعرف، العمل يحكم المرء... لا أثق في السراديب وسكانها...

ـ ألهذا تتجول في السراديب؟

ـ أفحصها. لا أثق في السراديب، ولكنني أريد أن أفهمها. لا توجد فرص كثيرة لعمل هذا. ربما ستقول لي إنه توجد سراديب روما، ولكن لا يوجد غموض في ذلك، فهي مكتظة بالسياح، وتتحكم فيها الكنيسة. توجد أيضًا شبكة المجاري في فرنسا... هل ذهبت إلى هناك من قبل؟ يمكن للمرء زيارتها أيام الاثنين، والأربعاء والسبت الأخير من كل شهر، من خلال جسر الألما. وهذه أيضًا يمر عليها السياح. في باريس أيضًا توجد سراديب ومغارات سفلية. كل هذا بالإضافة إلى المترو، هل سبق لك وذهبت إلى ١٤٥ شارع لافاييت؟

ـ في الحقيقة لا.

ـ مكان بعيد نوعًا ما، بين المحطة الشرقية والمحطة الشمالية. يوجد مبنى لا يلحظه المرء في البداية، فقط عندما يدقق النظر يرى الأبواب التي تبدو من الخشب، ولكنها في الحقيقة مصنوعة من الحديد الملون، تبدو النوافذ وكأنها لغرف غير مسكونة منذ قرون. لم يخرج منها الضوء قط، يمر الناس من هناك وهم لا يعرفون الحقيقة.

ـ أية حقيقة؟

ـ إن هذا المنزل وهمي. إنه مجرد واجهة، مجرد حائط بلا غرف ولا سقف، دون أي أجزاء داخلية. فارغ. ليس سوى فتحة المدخنة. يستخدم في التهوية وإخراج الأبخرة المنبعثة من المترو المحلي. وعندما تُدرك ذلك تشعر وكأنك أمام فم الجحيم، إذا استطعت الدخول من تلك الحوائط يمكنك الدخول إلى باريس السفلى. سبق و وقفت ساعات طويلة أمام تلك الأبواب التي تخفي باب الأبواب، المحطة التي منها يمكن القيام برحلة إلى مركز الأرض. لماذا في رأيك صنعوه؟

ـ لقد قلت بنفسك: لتهوية المترو.

ـ كان يكفي لذلك فتحات تهوية. لا، أمام سراديب كتلك أبدأ في الشعور بالارتياب. هل تفهمني؟

ـ وبالتحدث عن الظلام بدا وكأنه يبعث ضوءاً. سألته لماذا يشك في السراديب.

ـ لأن بها يسكن سادة العالم، فهم لا يستطيعون سوى السكن تحت الأرض. إنها حقيقة يخمنها الجميع، ولكن لا يمكن سوى للقلة القليلة التعبير عنها. ربما كان سان إيف دالفيدر الوحيد الذي تجرأ وذكر ذلك بوضوح في رسائله. هل تعرفه؟

ربما كنت قد سمعت أحد عبدة الشيطان يذكرونه، ولكنني لم أكن أتذكر جيداً.

ـ إنه هو الذي حدثنا عن آجارثا، المقر السفلي لملك العالم، المركز السري للسيناركية. لم يكن يشعر بالخوف، كان يشعر بالثقة في نفسه. ولكن كل من حاول اتباعه علانية تم التخلص منهم، لأنهم كانوا يعرفون أكثر مما ينبغي.

أخذنا نتحرك بين الممرات، وكان السيد سالون يُحدثني وهو يلقي بنظرات شاردة أثناء السير، في فتحات الطرق الجديدة، وعند فتحات الآبار الجديدة، وكأنه يبحث في الظلال على شيء ما يؤكد شكوكه.

ـ هل سألت نفسك من قبل لماذا صارعت المدن الكبيرة الحديثة في القرن الماضي لبناء مترو الأنفاق؟

ـ لحل مشكلة المرور. أليس هذا هو السبب؟

ـ عندما لم تكن هناك سيارات، ولم تكن هناك سوى عربات تجرها الخيول؟ كنت أتوقع تفسير أكثر إدراكاً من هذا من شخص في ذكائك.

ـ وهل لديك أنت تفسير آخر؟

ـ ربما. قالها السيد سالون، وكان يبدو وهو يقول ذلك مهموماً، غائباً. ولكنها كانت تبدو طريقة لإنهاء الحديث. وبالفعل أدرك أن عليه الذهاب. ثم، وبعدما صافحني، توقف لثانية، وكأن خطر له خاطر مفاجئ ثم قال: بالمناسبة، ذلك الكولونيل... ماذا كان اسمه، ذلك الذي قد زار الجاراموند منذ أعوام ليتحدث معكم عن كنز فرسان المعبد؟ هل عرفتم عنه أي شيء آخر؟

كان سؤاله بمثابة صفعة قاسية مفاجئة، تلك المعرفة القاسية والعرض المباشر لشيء اعتبره خاصاً وانتهى. أردت أن أسأله كيف عرف شيئاً كهذا، ولكنني شعرت بالخوف. اكتفيت بأن قلت، بنبرة غير مبالية: آه، إنها حكاية قديمة، كنت قد نسيتها. ولكن بالمناسبة، لماذا قلت "بالمناسبة".

ـ هل قلت "بالمناسبة"؟ آه فعلاً، بالتأكيد، كان يبدو لي أنه وجد شيئًا في سرداب ما...

ـ وكيف عرفت شيئًا كهذا؟

ـ لا أعرف. لا أتذكر من حدثني عن ذلك. ربما أحد عملائي. ولكنني أشعر دائمًا بالفضول عندما يتعلق شيء بما هو تحت الأرض. جنون السن. عمت مساء.

ذهب وبقيت أنا أفكر في معنى هذا اللقاء.

(٥٢)

في بعض مناطق الهيمالايا، وبين المعابد الاثنين والعشرين التي تمثل الأروقة الاثنين والعشرين لهيرميس والاثنين والعشرين حرفًا مقدسًا، تشكل الأجارثا الصفر الغامض، الذي لا يمكن العثور عليه... رقعة شطرنج ضخمة تمتد تحت الأرض، وتعبر تقريبًا كل مناطق المسكونة.

Saint-Yves d'Alveydre, Mission de)
L'Inde en Europe, Paris, Calmann Levy,
1886, p.54 e 64)

عندما عدت حكيت لبيلبو وديوتالليفي ما حدث ووصلنا إلى عدة افتراضات. الأول: أن سالون الغريب، والنمام، والذي يستمتع بالأشياء الغامضة بطريقة أو بأخرى يستمتع بالأسرار، عرف أردنتي وانتهى الأمر كله بذلك. الافتراض الثاني أن سالون كان يعرف شيئًا عن اختفاء أردنتي ويعمل لحساب من تسببوا في اختفائه، أما الافتراض الثالث هو أن يكون سالون عميلاً للبوليس..

قابلنا بعد ذلك عبدة شيطان آخرين ، واختلط موضوع سالون مع أمثاله..

بضعة أيام تلت ذلك اللقاء قابلنا آلييه في المكتب حيث أتى ليخبرنا برأيه في المخطوطات التي أرسلها بيلبو إليه، كان ينقدها بدقة وحسم، وتسامح. كان آلييه حاد الذكاء ولم يتطلب الأمر منه الكثير ليفهم اللعبة المزدوجة جاراموند ـ مانوتزيو، ولم نحاول أن نخفي عنه الحقيقة. كان يبدو أنه يفهم ويعذر، كان يدمر نصًا ببعض الملحوظات القاطعة، ثم يعلق بطريقة منفعية مهذبة بأنه يمكن أن يصلح جدًا للنشر في مانوتزيو.

سألته إذا كان يمكنه أن يخبرني بشيء عن سان إيف دالفيدر.

قال: سان إيف دالفيدر كان بالتأكيد رجل غريب، منذ شبابه كان يتردد على أتباع فابر دوليفيه، لم يكن سوى موظف في وزارة الداخلية، ولكنه كان طموحًا... لم ننظر إليه نظرة جيدة بالتأكيد عندما تزوج من ماري فيكتوار...

لم يقاوم آلييه وبدأ يتحدث مستخدمًا ضمير المتكلم، وكأنه يستحضر ذكريات عايشها...

قال بيلبو: من كانت ماري فيكتوار؟ أعشق النميمة...

ـ ماري فيكتوار دو ريسنتش، كانت رائعة الجمال عندما كانت الصديقة المقربة للإمبراطورة أوجينيا. ولكن عندما تقابلت مع سان إيف كانت قد تجاوزت الخمسين، وكان هو في حوالي الثلاثين من عمره. بالتأكيد كان أقل منها مستوى، شيء واضح. ليس هذا فقط. فلكي تمنحه لقبًا ابتاعت، لا أتذكر أي قطعة أرض، كانت ملك بعض من عائلة ماركيز دالفيدر. وهكذا أصبحت شخصيتنا الانتهازية تستمتع بهذا اللقب. في باريس كانوا يألفون أغنيات عن تلك العلاقة النفعية. ونظرًا لأنه كان يعيش من ريع تلك الأرض فلقد تفرغ لحلمه. كان قد قرر أن يعثر على صيغة سياسية قادرة على منح التناغم لمجتمع ما، وهي صيغة السيناركية، والتي هي عكس للفوضوية، الأناركية. كان يحلم بمجتمع أوروبي يحكمه ثلاثة مستشارين يمثلون السلطة الاقتصادية والسلطة القانونية والسلطة الروحية، أي الكنائس والعلماء. طبقة حاكمة مستنيرة تبعد الصراعات الطبقية، ولكننا سمعنا ما هو أسوأ..

ـ وماذا عن أجارثا؟

ـ كان يقول إنه في أحد الأيام زاره شخص أفغاني غامض، شخص يُدعى هادجي سشاريبف، والذي كان من اسمه يمكننا أن نستنتج أنه ألباني وليس أفغاني على الإطلاق. قال إن هذا الشخص كشف له عن سر مقر ملك العالم ـ حتى وإن كان سان إيف لم يستخدم قط هذا التعبير، ولكن استخدمه الآخرون فيما بعد ـ وأن هذا المقر هو آجارثا، التي لا يمكن العثور عليها.

ـ ولكن أين كُتبت هذه الأشياء؟

ـ في كتاب "رسالة الهند في أوروبا Mission de l'Inde en Europe". كتاب ترك أثرًا كبيرًا في الفكر السياسي المعاصر. توجد في آجارثا مدن سفلية، أسفلها، وبالاتجاه نحو المركز يوجد خمسة آلاف حكيم يحكمونها ـ طبعًا هذا الرقم يذكرنا بالجذور الآرامية للغة الفيدية، كما تعلمون. ولكل جذر من الجذور رسم مقدس سحري، مرتبط بقدرة سماوية ويمنح قوة جهنمية. القبة المركزية لآجارثا مضاءة من أعلى بشيء يشبه المرايا، والتي تسمح بالضوء بمرور الضوء من السطح الأعلى للأرض فقط من خلال الإشعاعات الرخوية للألوان، على عكس ما جاء في كتب الفيزياء الخاصة بنا عن

سلسلة الضوء، والتي تكاد تكون خماسية الألوان. يدرس حكماء آجارثا كل اللغات المقدسة للوصول إلى اللغة الكونية، الفاتان. عندما يصلون إلى معرفة أحد الأسرار العميقة، يرتفعون عن الأرض، ويمكن لرءوسهم أن تتحطم اصطدامًا بالقبة إذا لم يمسك بهم أحد إخوتهم لمنعهم من الارتفاع. يعدون الصواعق، يوجهون التيارات الدورية للسوائل بين القطبين وبين الاستوائيين، الانحرافات الحادثة بين مناطق خطوط الطول وخطوط العرض. يختارون الأنواع وابتدعوا حيوانات صغيرة لديها قدرات نفسية خارقة، حيوانات لها ظهر السلحفاة عليها صليب أصفر ولها عين واحدة وفم في كل نهاية. وحيوانات متعددة الأقدام يمكنها التحرك في أي اتجاه. وربما كانت آجارثا هي المكان الذي لجأ إليه فرسان المعبد بعد تفرقهم، والتي فيها يقومون بنوبات حراسة. أسئلة أخرى؟

سألت: ولكن... هل كان جادًا؟

ـ أعتقد أنه كان جادًا فيما يقول. في البداية اعتبرناه مخرفًا، ولكننا بعد ذلك أدركنا بأنه كان يشير، ربما بطريقة مجازية أو رمزية لتوجه سري في التاريخ. ألا يُقال إن التاريخ هو لغز دموي، بلا معنى؟ هذا ليس ممكنًا، لابد وأن هناك خطة ما، لابد وأن يكون هناك عقل وراء كل هذا. لهذا فكر الكثير من الرجال العقلاء لقرون عديدة بأن هناك سادة، أو ملك للعالم، ربما ليس شخصًا معَينًا، ربما دور ما، دور جماعي، التجسد الوقتي لنية ما محددة. شيء ما كانت المنظمات الكهنوتية أو الفروسية السابقة بالتأكيد على اتصال به.

سأله بيلبو: وهل أنت أيضًا تؤمن بهذا؟

ـ يوجد أشخاص أكثر اتزانًا منه بحثوا عن السادة الخفيين.

ـ وهل عثر عليهم أحد؟

ضحك آلييه، وكأنه يضحك مع نفسه: وكيف سيكونون سادة مجهولين، إذن، إذا سمحوا لأول شخص يفكر في ذلك بالعثور عليهم؟ أيها السادة، لدينا الكثير من العمل. لدي الآن مخطوط واحد، وبالمصادفة، فهو بحث عن المنظمات السرية.

قال بيلبو: عمل جيد؟

ـ لا فائدة، ولكنه يمكن أن يصلح لمانوتزيو.

(٥٣)

نظرًا لأنهم لم يكن في استطاعتهم إدارة الأقدار الأرضية بطريقة مكشوفة للعيان، لأن الحكومات ستعترض على ذلك، لم يكن في إمكان تلك المؤسسات السرية سوى العمل عن طريق جماعات سرية، تلك الجمعيات، والتي تأسست عن الشعور بالحاجة لذلك، كانت مقسمة لجماعات متميزة، ولكنها متعارضة في مظهرها، كانوا يدعون من حين لآخر بأكثر الآراء تعارضًا فيما بينهم ليديروا بطريقة منفصلة وبثقة كل الأحزاب الدينية والسياسية والاقتصادية والأدبية، كانوا جميعًا مرتبطين فيما بينهم، يتلقون توجيهًا مشتركًا من مركز خفي، والذي يخفي قدرته التي بها يحاول أن يحرك كل أباطرة الأرض.

J.M. Hoene-Wronski, cit. da P. Sédir, His-)
toire et doctrine des Rose-Croix, Rouen, 1932)

في أحد الأيام رأيت السيد سالون على باب المعمل. وتخيلت فجأة، وبلا سبب معين، أنه سيصيح مثل البومة. حياني وكأننا أصدقاء قدام، وسألني كيف الحال في العمل، بادلته بتحية شاردة، وابتسمت له، وأسرعت بالرحيل.

عاد في ذهني التفكير في آجارثا، فقد كانت أفكار سان إيف بالطريقة التي قصها علينا آلييه يمكن أن تكون ساحرة لأي من عبدة الشيطان، ولكنها غير مثيرة للقلق. إلا أنني في كلمات سالون وبالنظر في وجهه عندما تحدث عنها في ميونخ شعرت بالقلق.

ولذلك قررت أثناء خروجي من المبنى التوجه إلى المكتبة للبحث عن كتاب "رسالة الهند في أوروبا".

كان هناك الازدحام الطبيعي في صالة البحث وأمام طاولة الطلبات. استطعت ببعض الدفع أن أحصل على الصندوق الذي أبحث عنه، ووجدت المعلومات المطلوبة لملء بطاقة الاستعارة وسلمتها للموظف. أخبرني أن الكتاب مستعار بالفعل، ويبدو أنه، كما يحدث عادة في المكتبات، كان سعيدًا بأنه يخبرني بذلك. وفي تلك اللحظة سمعت صوت خلفي يقول: الكتاب موجود، لقد أعدته لتوي. التفت خلفي لأجد المفتش دي أنجيليس.

تعرفت عليه على الفور، وهو أيضًا، بسرعة شعرت أنها شديدة. لقد كنت قد رأيته في ظروف استثنائية بالنسبة إلي، ولكن بالنسبة إليه كان الأمر في إطار تحقيق معتاد. بالإضافة إلى أنني في وقت أردنتي كان لدي ذقن وكان شعري أطول. ياله من ثاقب النظر.

هل كان يراقبني منذ عودتي؟ أو ربما كان سريع التعرف على الوجوه، لابد وأن لرجال الشرطة قدرات خاصة تنمو مع الوقت في الملاحظة، تذكر الوجوه، والأسماء...

ـ السيد كازاوبون! ونقرأ الكتاب نفسه أيضًا!

مددت له يدي قائلاً: الآن أصبحت دكتور، منذ فترة. ربما أقوم أيضًا بالدخول في تلك المسابقة للدخول إلى البوليس، كما نصحتني في ذلك الصباح. هكذا يمكنني الحصول على الكتب التي أريدها أولاً.

قال لي: يكفي أن تصل أولاً، ولكنني أعدت الكتاب، يمكنك الحصول عليه بعد قليل. دعني الآن أدعوك لشرب فنجان من القهوة.

كانت الدعوة تحرجني، ولكنني لم أستطع الرفض. جلسنا في أحد البارات القريبة. سألني لماذا أهتم بكتاب "الرسالة الهندية"، وكنت أرغب في أن أسأله لماذا يهتم هو به، ولكنني فضلت أن أحمي نفسي أولاً. قلت له إنني مازلت أستكمل في الوقت الضائع أبحاثي حول فرسان المعبد، وبأن فرسان المعبد تبعًا لما كتبه فون إيسكنباخ تركوا أوروبا وذهبوا إلى الهند إلى مملكة آجارثا.

الآن حان الوقت لأن يكشف هو أيضًا عن أفكاره فسألته: ولكن كيف تهتم أنت أيضًا بهذا الكتاب؟

أجابني: أتعرف.. منذ أن نصحتني بقراءة ذلك الكتاب عن فرسان المعبد بدأت أقرأ كثيرًا حول هذا الموضوع. والآن أنت تخبرني أنه انطلاقًا من فرسان المعبد يصل المرء مباشرة إلى آجارثا.

ثم قال: "كنت أمزح، كنت أبحث عن الكتاب لأسباب أخرى، بسبب... " ثم تردد. "عادة، عندما أكون بعيدًا عن العمل أتردد على المكتبات، لا أرغب في أن أتحول إلى آلة، أو شرطي، يمكنك أنت اختيار الصيغة التي تراها. احك لي عن أخبارك.

قدمت له عرضًا لسيرتي الذاتية في الفترة الماضية وصولاً إلى التاريخ الرائع للمعادن.

سألني: ولكن هناك في دار النشر تلك، وتلك المجاورة لها، ألا تقومون بنشر الكتب التي تدور حول العلوم الغامضة؟

كيف أمكنه أن يعرف عن مانوتزيو؟ هل هي معلومات عرفها عندما كان يراقب بيلبو منذ عدة سنوات؟ أو مازال يحقق في قضية أردنتي؟

ـ مع كل الشخصيات الشبيهة بالكولونيل أردنتي، والتي تأتي إلى الجاراموند، والتي تحاول الجاراموند أن تحولها إلى مانوتزيو، قرر السيد جاراموند أن يستغل الفرصة. ويبدو أنها كانت فكرة ناجحة. إذا كنت تبحث عن شخصيات شبيهة بالكولونيل المسن ستجد منهم الكثير هناك.

قال: أجل، ولكن أردنتي اختفى، أرجو ألا يحدث هذا للآخرين أيضًا.

ـ لم يحدث بعد، وأحيانًا أشعر بالأسف أنه لم يحدث. ولكن أجبني على سؤال فضولي أيها المفتش. أتخيل أنه في مهنتك تتقابل كل يوم مع حالات اختفاء، أو ما هو أسوأ. هل تكرس لكل تلك الحالات كل هذا الوقت؟

نظر إلي وكأنه يتسلى: وماذا يجعلك تفكر بأنني مازلت أكرس الوقت لأردنتي؟

حسنًا، كان يقامر والآن رفع الرهان. كان لابد أن تكون لدي شجاعة المخاطرة ليكشف هو عن أوراقه. قلت له: أيها المفتش، إنك تعرف بالفعل كل شيء عن الجاراموند ومانوتزيو، ثم إنك هنا لتبحث عن كتاب حول آجارثا...

ـ لماذا هل ذكر أردنتي أجارثا؟

لمسة أكتاف مرة أخرى. في الواقع كان أردنتي قد حدثنا هو أيضًا عن آجارثا، حسبما أتذكر. ولكنني تصرفت جيدًا: لا، ولكن كانت لديه قصة عن فرسان المعبد، تتذكرها.

قال: بالطبع. ثم أضاف: ولكن لا تفكر بأننا في مهنتنا نظل نتبع قضية واحدة وصولاً للحل. يحدث هذا فقط على شاشات التلفاز. إن مهنة الشرطي تشبه دكتور الأسنان، يأتي لك مريض ما، تحشو له سنة، وتعالجه، يعود بعد خمسة عشر يومًا، وفي الوقت نفسه تتابع مائة مريض آخرين. يمكن لقضية مثل قضية الكولونيل أن تظل في الأرشيف لمدة عشرة أعوام، ثم أثناء قضية أخرى، وأثناء جمع اعترافات من شخص ما، تظهر إشارة ما، ويحدث لك استنارة ذهنية، وتبدأ في التفكير لوهلة... ثم تظهر إشارة أخرى، وتفكر مرة أخرى، ثم لا يحدث شيء، وينتهي الأمر.

ـ وماذا حدث مؤخرًا تسبب في الاستثارة الذهنية؟

ـ سؤال غير لائق، ألا ترى ذلك؟ ولكن لا يوجد غموض، صدقني. عاد الكولونيل ليظهر على الساحة بالمصادفة، كنا نراقب أحد الاشخاص، لسبب آخر مختلف تمامًا، وأدركنا أنه يتردد على نادي بيكاتريكس، لابد وأنك سمعت عنه...

ـ لا، ولكنني أعرف المجلة، ولكن ليس المؤسسة. وماذا حدث هناك؟

ـ لا شيء على الإطلاق. أشخاص غاية في الهدوء، بل ربما أكثر مما ينبغي . ولكنني تذكرت أن أردنتي كان معتاد الذهاب إلى هناك ـ ومهارة الشرطي تكمن كلها في ذلك، في تذكر أين استمع إلى اسم أو رأى وجه ما، حتى ولو بعد عشر سنوات. هكذا تساءلت ماذا يحدث الآن في الجاراموند، هذا كل ما حدث.

ـ وما علاقة نادي بياتريكس بالفرقة السياسية التي تعمل فيها؟

ـ ربما يكون هذا ما يسمى باندفاع الضمير البريء، ولكنك بالفعل فضولي للغاية.

ـ أنت الذي دعوتني لشرب القهوة معك.

ـ هذا حقيقي، ونحن الاثنين نتحدث بعيداً عن نطاق العمل. انظر، من وجهة نظر معينة، كل شيء في هذا العالم يتداخل مع كل شيء.

فكرت في صمت: يالها من فلسفة ساحرة. أضاف هو على الفور:

ـ لم أقل إن هؤلاء الأشخاص مرتبطون بالسياسة، ولكن... كانت هناك فترة كنا نذهب للبحث عن الألوية الحمراء في الشقق المفروشة والألوية السوداء في نوادي فنون القتال، هذه الأيام العكس هو الصحيح. نعيش حاليًا في عالم غريب. أؤكد لك أن مهنتي كانت أسهل بكثير منذ عشر سنوات، الآن وبسبب كل هذه الأيديولوجيات لم يعد هناك أي يقين. أحيانًا أشعر أنه ربما سيكون من الأفضل أن أنتقل لقسم مكافحة المخدرات. على الأقل من يهرب الهروين يفعل ذلك ولا يتناقش، وتكون الأمور والقيم واضحة.

صمت لفترة، أعتقد أنه كان مترددًا. ثم أخرج من جيب سترته مفكرة تشبه كتب الصلاة الصغيرة: اسمع يا كازاوبون، أعرف أنك تتقابل كثيرًا مع شخصيات غريبة بحكم مهنتك، وتبحث في المكتبات عن كتب أكثر غرابة. هل تساعدني؟ ماذا تعرف عن السيناركية؟

ـ الآن أنت تحرجني، تقريبًا لا شيء. سمعت عنها في إطار الحديث عن سان إيف، ليس إلا.

ـ وماذا يقولون عنها عامة؟

ـ إذا كان أحد يتحدث عنها، فأنا لا أعرف عن ذلك شيئًا. لأكون صريحًا تبدو لي حركة فاشية.

ـ هذا حقيقي، معظم تلك النصوص تناولتها الحركة الفرنسية. إذا كانت هذه هي كل القصة سأكون على ما يرام. سأعثر على مجموعة تتحدث عن السيناركية، ويمكنني بالتالي منحها لونًا سياسيًا. ولكن من خلال قراءاتي عرفت أنه في عام ١٩٢٩ قام شخص يدعى فيفيان بوستال دو ماس ومعه جان كانودو بتأسيس مجموعة تُدعى بولاريس، والتي كانت مستوحاة من أسطورة ملك العالم، ثم اقترحا مشروعًا سيناركيًا: الخدمة الاجتماعية ضد الربح الرأسمالي، القضاء على الصراع الطبقي من خلال حركات تعاونية... تبدو حركة اشتراكية من النوع الفابياني، حركة تحريرية وشيوعية. لاحظ أن كلاً من البولاريس وحركة فابيان الأيرلندية تم اتهامهما بأنهما متورطان في مؤامرة سيناركية يقودها اليهود. ومن اتهمهم؟ مجلة الجماعات السرية Revue international des societies secretes، والتي تحدثت عن مؤامرة يهودية ـ ماسونية ـ بولشفية. العديد من المشاركين ينتمون إلى منظمة يمينية تُدعى لا سابينيار La Sapinière. ويقولون أيضًا إن هذه الجماعات الثورية هي مجرد الواجهة لمؤامرة شيطانية ولدت في إحدى عُليات جماعة سرية. ستقول لي: حسنًا، ربما أخطأنا، فلقد انتهى الأمر بسان إيف إن كانت أفكاره موحية لبعض الجماعات الإصلاحية، وأن اليمين عادة ما يضخم الأمور ويرى الجميع على أساس أنهم شياطين ـ أفلاطونيون، اشتراكيون ويهود... موسوليني كان يفعل الشيء نفسه، ولكن لماذا يتهمونهم بأن ما تحركهم هي جماعة سرية؟ تبعًا للقليل الذي أعرفه ـ ولنأخذ بياتريكس كمثال ـ أتباع تلك العبادات السرية لا يهتمون بالتأكيد بالحركات العمالية.

ـ هذا ما يبدو لي أنا أيضًا ـ يا سقراط، وبالتالي؟

ـ شكرًا على اللقب، ولكن هنا مربط الفرس: كلما قرأت عن الموضوع اختلطت الأفكار في ذهني. في الأربعينيات نشأت مجموعات متنوعة يقال عنها سيناركية، وتتحدث عن نظام أوروبي جديد يقوده مجموعة من الحكماء، بعيدًا عن الأحزاب. وأين

كانت تجتمع هذه الجماعات؟ في دائرة المتعاونين مع فيشي فرنسا، بالتالي يمكن أن تقول لي إننا ربما أخطأنا من جديد، وأن السيناركية هي حركة يمينية. ولكن لنتوقف هنا: بعد أن قرأت إلى هذا الحد، بدأت أرى أن الجميع يتفقون حول موضوع واحد فقط: أن السيناركية توجد بالفعل وتحكم العالم في الخفاء. ولكن هنا يظهر "لكن"...

ـ لكن؟

ـ لكن في الرابع والعشرين من يناير عام ١٩٣٧، تم اغتيال ديمتري نافاشين، الماسوني والمارتينست، لا أعرف ماذا تعني مارتينست، ولكنني أعتقد أنها إحدى تلك الطوائف،، والمستشار الاقتصادي للجبهة الشعبية، بعد أن كان مدير أحد البنوك في موسكو. اغتالته منظمة فرنسية سرية تُدعى Organisation secrète d'action rév-olutionaire et nationale، والمعروفة باسم كاجول، كان يدعمها موسوليني. قيل وقتها إن الكاجول كانت تتحرك بواسطة سيناركية سرية وإن نافاشين استبعد لأنه اكتشف أسرارًا خطيرة. وثيقة خرجت من أوساط اليسار تنكر أثناء الاحتلال الألماني، معاهدة سيناركية للإمبراطورية، مسئولة عن الهزيمة الفرنسية، معاهدة كانت ستكون الدليل على نزعة فاشية لاتينية من النوع البرتغالي. ثم اتضح أن المعاهدة كانت بين ديماس وكانودو وكانت تحتوي على أفكار نشروها وأعلنوا عنها في كل مكان. لا توجد أي أسرار بشأنها. ولكن تلك الأفكار تم الكشف عنها على أنها أسرار، أسرار خطيرة جدًا، عام ١٩٤٦ من قبل شخص يُدعى هيوسون، والذي أنكر معاهدة سيناركية ثورية يسارية، وكتب ذلك في المجلة الفرنسية années d'activité oc-٢٥Synarchie, panorama di culteموقعًا باسم ... انتظر، سأبحث عنه، ها هو: جيفروي دو شارناي"

قلت: حسنًا: دو شارناي كان رفيق مولاي، المعلم الكبير لفرسان المعبد. ماتا سويًا حرقًا. لدينا الآن فارس جديد للمعبد يهاجم السيناركية من اليمين. ولكن السيناركية نشأت في آجارثا، وآجارثا كانت ملجأ فرسان المعبد!.

ـ وماذا كنت أقول لك؟ الآن تمنحني دليلاً آخر، ولكن للأسف لا يساعد سوى في زيادة الاضطراب. إذن فاليمين ينكر معاهدة سيناركية للإمبراطورية، اشتراكية وسرية، والتي لم تعد سرية، ولكن المعاهدة نفسها السيناركية السرية، كما رأيت، أنكرتها أيضًا الأطراف اليسارية. والآن نحن أمام تفسير آخر: إن السيناركية هي مؤامرة يسوعية لإحباط قيام الدولة الثالثة، وهي النظرية التي عرضها روجر مونوفييه اليساري.

ولأستطيع النوم ليلاً، تخبرني قراءاتي بأنه في عام ١٩٤٣ وفي بعض المناطق العسكرية الخاصة بفيتشي الفرنسية، والمناهضة للألمان، كانت توزع منشورات تشير إلى أن السيناركية هي مؤامرة نازية، وأن هيتلر هو من أعضاء الروزا كروتشي المتأثرين بالماسونية، والذي كما رأيت هنا، ينتقلون من المؤامرة اليهودية البلشفية لتلك الخاصة بالإمبراطورية الألمانية.

ـ وبالتالي تتضح كل الأشياء.

ـ إذا كان هذا كل شيء. ها هو اكتشاف آخر: السيناركية هي مؤامرة تكنوقراط دولين. أكد هذا عام ١٩٦. شخص يدعى فيليماريست في كتاب Le 14 e complot du 13 Mai, Villemarest. المؤامرة التكنو ـ سيناركية أرادت أن تزعزع الحكومات، ولتتمكن من ذلك تحرض على الحروب، تدعم وتحث على الانقلاب في الحكم، تحرض على الانقسامات الداخلية في الأحزاب السياسية مشجعة على الصراع بين التيارات المختلفة... هل تتعرف على هؤلاء السيناركيين؟

ـ يا إلهي إنهم السيم SIM الدولة الإمبريالية للتحالفات الدولية مثلما تحدثت عنها الألوية الحمراء منذ بضعة أعوام...

ـ إجابة صحيحة! والآن ماذا يفعل المفتش دي أنجيليس إذا وجد إشارة ما عن السيناركية؟ يسأل الدكتور كازاوبون خبير فرسان المعبد.

ـ أرى أن هناك جماعة سرية لها فروع في كل أنحاء العالم، تتآمر لتنشر إشاعة أنه توجد مؤامرة كونية.

ـ إنك تمزح، ولكنني...

ـ لا، أنا لا أمزح. تعال لتقرأ بعض المخطوطات التي تصل إلى مانوتزيو. ولكن إذا أردت تفسيراً جد واقعي، فالأمر يشبه ذلك الذي يعاني من التلعثم، ويقول إن الإذاعة رفضت تعيينه كمذيع، لأنه لم يكن لديه كارت توصية من أحد الأحزاب. فلابد لأن ننسب فشلنا لشخص ما، وأية حكومة ديكتاتورية تحاول دائمًا العثور على عدو خارجي لتوحد أتباعها. كما قال أحدهم: لكل مشكلة معقدة، حل بسيط، عادة ما يكون خاطئ.

ـ وإذا عثرت أنا على قنبلة فوق أحد القطارات ملفوفة في منشور يتحدث عن السيناركية، هل يكفي عندئذ أن أقول إن هذا هو الحل البسيط للمشكلة المعقدة؟

ـ لماذا؟ هل وجدت قنبلة في أحد القطارات... لا، آسف، هذه المرة الأمر لا يخصني بالفعل. ولكن لماذا تحدثني عن هذا؟

ـ لأنني كنت أتمنى أن تكون لديك معلومات أكثر مما لدي. ولأنه ربما أشعر الآن بالارتياح، لأنك لا تعرف الكثير عن هذا الأمر أيضًا. لقد قلت الآن إن عليك قراءة كتب مجانين وإنك تعد ذلك مضيعة للوقت، بالنسبة لي الأمر يختلف، إن كتب مجانينكم تلك ـ وأقصد بكم الأشخاص الطبيعيين ـ هي نصوص غاية في الأهمية. بالنسبة لي يمكن لنص شخص مجنون أن يشرح كيف يفكر من يضع القنبلة في القطار، أو أنك تخشى أن تصبح مرشدًا للشرطة؟

ـ لا، بكل أمانة. في الواقع البحث عن الأفكار وسط الكروت المختلفة هو عملي. إذا عثرت على أي شيء يمكن أن يفيد سأتصل بك.

وبينما ينهض أدلى بسؤال أخير: وبين مخطوطاتك... ألم تعثر قط على أي إشارة للتريس Tres؟

ـ ما هي؟

ـ لا أعرف. لابد وأنها هيئة ما، أو شيء من هذا القبيل، لا أعرف حتى إذا كان لها وجود فعلي. لقد سمعت عنها وتذكرتها الآن عندما ذكرنا المجانين. أرسل سلامي لصديقك بيلبو. قل له إنني لا أتجسس على تحركاتكم. كل ما في الأمر أن مهنتي مهنة سيئة، والأسوأ أنها تستهويني.

أثناء عودتي إلى المنزل كنت أتساءل من فينا المستفيد. لقد حكي لي هو الكثير من الأشياء ولم أقل له أي شيء. ولكن هل يمكن أن يكون قد انتزع مني معلومة ما دون أن أشعر بذلك. ولكن الشك من هذا النوع يؤدي بالمرء لنفسية المؤامرة السيناركية.

عندما حكيت ما حدث لليا قالت لي: أرى أنه كان صادقًا، كان يرغب بالفعل في الإفصاح عما يعتمل في صدره. هل تعتقد أنه يمكنه في قسم البوليس أن يعثر على شخص سيستمع إليه وهو يتساءل إلى كان جان كانودو يساري أم يميني؟ لقد أراد فقط أن يتأكد إذا كانت المشكلة هي أنه لا يفهم أم أن القصة بالفعل معقدة. ولم تستطع أنت أن تمنحه الإجابة الوحيدة الحقيقية.

ـ وهل توجد إجابة حقيقية؟

ـ بالتأكيد. لا يوجد شيء سيتلزم الفهم. إن السيناركية هي الإله.

ـ الإله؟

ـ بالتأكيد. لا تتحمل الإنسانية فكرة أن العالم ولد محض الصدفة، من خطأ ما، فقط نتيجة لاصطدام بعض الذرات ببعضها. بالتالي يلزم العثور على مؤامرة كونية، إله، ملائكة، أو حتى الشياطين. والسيناركية تقوم بالوظيفة نفسها على أبعاد أقل حجماً.

ـ إذن كان علي أن أشرح له أن من يضع القنابل في القطارات يفعل ذلك بحثاً عن إله؟

ـ ربما.

(٥٤)

امير الظلام رجل دمث الأخلاق.

(Shakespeare, King Lear, III, iv, . ١٤)

كنا في فصل الخريف. في صباح أحد الأيام ذهبت إلى شارع ماركيزي جواليدي حيث كان لابد أن أطلب من السيد جاراموند الإذن لطلب بعض الصور الملونة من الخارج. رأيت آلييه جالسًا في مكتب السيدة جراتزيا منحنيًا على قائمة كتاب مانوتزيو. لم أزعجه لأنني كنت أيضًا متأخرًا عن ميعادي.

عندما انتهينا من حوارنا التقني سألت السيد جاراموند عما كان يفعله آلييه في مكتب السكرتيرة.

قال جاراموند: إنه عبقري، إنه رجل ذو عقلية فذة، وعلم هائل. مساء أحد الأيام اصطحبته معي للعشاء مع بعض مؤلفينا وجعلني بالفعل أفتخر بذلك. محادثات رائعة والأسلوب أروع! رجل مهذب ينتمي للمدرسة القديمة، أرستقراطي بالفعل، شيء لا يمكن تكراره. كم المعرفة والثقافة! بل وأكثر من هذا: كم المعلومات التي يعرفها! أخذ يحكي حكايات مسلية للغاية عن شخصيات تنتمي للقرن الماضي، وكأنه كان يعرفهم شخصيًا. هل تريد أن تعرف الفكرة العبقرية التي أخبرني بها ونحن في طريقنا إلى المنزل؟ قال إنه لا يجب علينا أن نجلس في انتظار الكتاب ليقترحوا ما لديهم لسلسلة "الكشف عن إيزيس"، فهذا مضيعة للوقت وخاصة أن علينا أن نقرأ ونقيم ونحن لا نعرف إذا كان المؤلف على استعداد أم لا لتمويل نشر كتابه، ونظرًا لأن لدينا بالفعل منجمًا من الذهب فعلينا استغلاله: قائمة أسماء كتاب مانوتزيو في العشرين عام الماضية! هل تفهم؟ ليس علينا سوى مراسلة كتابنا العظماء القدامى، أو على الأقل أولئك الذين ابتاعوا النسخ الباقية من كتبهم، ونقول: سيدي العزيز، هل تعرف أننا قد بدأنا سلسلة معرفية وتراثية على أعلى المستويات الروحانية؟ ألا تعتقد أن كاتبًا في مستواك الرفيع لا ينبغي وأن يحاول التغلغل في ذلك الحقل الجديد، إلخ إلخ؟ كما قلت لك: عبقري.

أعتقد أنه يريدنا جميعًا معه يوم الأحد مساء، يريد أن يأخذنا إلى قلعة، بل فيللا رائعة في تورينو، يبدو أن هناك ستحدث أشياء غريبة، طقس، نوع من الاحتفال، طقس السبت، حيث سيقوم أحدهم بصناعة الذهب أو الفضة، أو شيء من هذا القبيل. إنه عالم مازال علينا اكتشافه يا عزيزي كازاوبون، حتى وإن كنت تعرف أنني أكن كل الاحترام للعلوم التي تكرس أنت لها وقتك بكل شغف، بل وإنني بالفعل سعيد جدًا جدًا بتعاونك ـ وأعرف أيضًا أن هناك المكافأة المادية التي حدثتني عنها، سنتحدث عنها في وقتها. آلييه قال لي أيضًا إنه ستأتي معنا أيضًا تلك السيدة، سيدة جميلة ـ ربما ليست رائعة الجمال ، ولكن شخصية تتميز بشيء ما ـ صديقة بيلبو، ما اسمها...

ـ لورينزا بيلليجريني

ـ أعتقد. بالتأكيد هناك شيء ما بينها وبين بيلبو، أليس كذلك؟

أعتقد أنهما صديقان مقربان.

ـ آه! هكذا يتحدث الشخص المهذب. رائع يا كازاوبون. لم يكن سؤالي بدافع الفضول، بل بسبب أنني أشعر بأني مثل أب لكم جميعًا... هيا يا عزيزي لنعد إلى أعمالنا... إلى اللقاء يا عزيزي.

أكد لي بيلبو أنه لدينا ميعاد بالفعل مع آلييه على هضاب تورينو. ميعاد مزدوج، في الجزء الأول من الأمسية يوجد احتفال في إحدى قلاع أحد أعضاء الروزا كروتشي الأغنياء، وبعد ذلك سيقودنا آلييه على بعد بضع كيلومترات من هذا المكان، حيث سيتم، بعد منتصف الليل، طقس درويدي، كان غامضًا ولم يقل عنه الكثير.

أضاف بيلبو: إلا أنني كنت أفكر، أن علينا أيضًا أن نختتم تاريخ المعادن، وأننا هنا تتم مقاطعتنا باستمرار، لماذا لا نرحل يوم السبت ونقضي يومين في منزلي القديم في***؟ سترى أنه مكان جميل، الهضاب هناك تستحق السفر إليها. سيأتي ديوتالليفي، وربما تأتي لورينزا أيضًا. وبالتأكيد يمكنك دعوة من تريد.

لم يكن يعرف ليا، ولكنه كان يعرف أن لدي رفيقة. قلت إنني سأذهب معهم بمفردي، كنت قد تشاجرت مع ليا منذ يومين، شيء تافه، في الواقع كل شيء يمكن أن يُحل في أسبوع، ولكنني شعرت بالرغبة في الابتعاد عن ميلانو ليومين.

وهكذا وصلنا إلى***، ثلاثي الجاراموند ولورينزا بيلليجريني. قبل ذلك كانت هناك لحظة من الاضطراب. كانت لورينزا موجودة في الميعاد المتفق عليه، ولكن في لحظة الصعود إلى السيارة قالت: ربما من الأفضل أن أمكث هنا، لتعملوا أنتم في سلام. ربما ألحق بكم فيما بعد مع آلييه.

قال بيلبو، الذي كانت يده موضوعة بالفعل على مقود السيارة، تشبث به، ونظر محدقًا أمامه، وقال لصوت خافت: اركبي. صعدت لورينزا، وطوال الرحلة، نظرًا لأنها كانت تجلس في الكرسي الأمامي، وضعت يدها على رقبة بيلبو، الذي أخذ يقود السيارة في صمت.

كانت*** هي بلدة بيلبو التي عرفها أثناء الحرب، قال لنا إنه لم يتغير فيها سوى بناء بضعة منازل جديدة، ولكن الزراعة في تدهور مستمر حيث يتزوج الشبان ويعيشون في المدينة. أشار إلى بعض الهضاب التي تحولت إلى مراع، والتي كانت في وقت ما مزارع للقمح. ظهرت البلدة فجأة بعد انحناءة، ثم وصلنا إلى منزل بيلبو أسفل إحدى الهضاب. كانت الهضبة منخفضة واستطعنا أن نرى المنظر خلفها وامتداد مونفيراتو، والذي كان يغطيه ضباب خفيف. وبينما نصعد أشار بيلبو إلى هضبة صغيرة في الواجهة، جرداء تقريبًا، وعلى القمة كانت توجد كنيسة صغيرة، تجاورها شجرتي صنوبر. قال: تدعي البريكو. ثم أضاف: ربما لا تترك لديكم أي انطباع، ولكننا كنا نذهب هناك يوم الاثنين بعد عيد القيامة لنتناول غذاء الملائكة. الآن يمكن الوصول إلى هناك في خمس دقائق بالسيارة، ولكن عندئذ، عندما كنا نذهب على الأقدام، كانت كرحلة حج.

(٥٥)

إنني أدعو مسرحًا [المكان الذي] تُقدم كل الأحداث والكلمات والأدوات المعينة وكأنها على مسرح عام، حيث يتم تقديم الأعمال الكوميدية، والأعمال التراجيدية.

(Robert Fludd, Utriusque Cosmi Historia, Tomi Secundi, Tractatus Primi Sectio Secunda, Oppenheim (?), 1620 (?), P.55)

وصلنا إلى الفيللا. فيللا بمعنى الكلمة: بناء فخم، ولكن في الدور الأرضي كانت توجد المخازن الكبيرة التي كان يخزن آديلينو كانيبا ـ المستأجر المشاغب، ذلك الذي وشي بالعم كارلو للفدائيين ـ النبيذ فيها ويصنعه من الكروم التي يستأجرها من عائلة كوفاسو. كان من الواضح أنها مهجورة منذ فترة.

في منزل ريفي صغير بجوارها كانت مازلت توجد عجوز، قال لنا بيلبو، خالة آديلينو ـ كان الجمع قد وافتهم المنية، خالته وزوجها وعائلة كانيبا، لم يكن هناك سوى تلك العجوز التي ناهزت المائة، والتي كانت تعيش على زراعة حديقة صغيرة بالخضروات، وكانت لديها خنزير وبعض الدجاجات. باقي الأرض بيعت منذ فترة لتسديد بعض الديون والضرائب القديمة. ذهب بيلبو ليقرع على باب المنزل الصغير، ظهرت العجوز على عتبة الباب، واستغرقت بعض الوقت لتتعرف على الزائر، ثم رحبت به بحفاوة، ودعتنا للدخول، ولكن بيلبو انصرف بعدما احتضنها وربت عليها.

دخلنا إلى الفيللا وأخذت لورينزا تطلق صيحات الفرح بمجرد أن تكتشف سلالم، ممرات أو حجرات يظللها أساس قديم. كالعادة، أخذ بيلبو يقلل من قيمة كل شيء، وقال إن كل منا يأخذ ما يستحقه، ولكنه كان من الواضح أنه متأثر. قال لنا إنه استمر في زيارة المنزل من حين إلى آخر، ولكنه لا يأتي إلى هنا كثيرًا.

ـ إنه مكان مناسب للعمل: معتدل في الصيف وفي الشتاء تحميه حوائطه السميكة من البرد، وتوجد أفران للتدفئة في كل مكان. عندما كنت طفلاً، لاجئًا، كنا نعيش في حجرتين جانبيتين في نهاية الممر الرئيسي. الآن قمت باحتلال جناح خالتي وزوجها. أعمل هنا، في مكتب العم كارلو.

كان يوجد مكتب على الطراز القديم به مكان صغير للأوراق والعديد من الأدراج الصغيرة، بعضها مرئي والآخر خفي.

قال بيلبو: لم أتمكن من وضع أبو العافية هنا، ولكن في المرات القليلة التي آتي فيها، أحب أن أكتب بالقلم، كما كنت أفعل وأنا صغير.

ثم أطلعنا على دولاب ضخم: إليكم، عندما أموت تذكروا هنا يوجد كل إنتاجي الأدبي في مرحلة الشباب، قصائد الشعر التي كتبتها في عمر السادسة عشرة، وملحمة من ستة أجزاء والتي كتبتها في سن الثامنة عشرة... إلخ إلخ

صاحت لورينزا وهي تصفق بيديها "لنر لنر" متقدمة نحو الدولاب.

"توقفي حيث أنت" قال بيلبو "لا يوجد شيء لتريه، لم أعد أنا نفسي أنظر إلى هذه الأشياء. وفي كل الأحوال، عندما أموت، سأعود وأحرق كل شيء."

قالت لورينزا: يبدو وكأنه بيت للأشباح، أتمنى هذا.

ـ هو كذلك الآن، لم يكن الوضع هكذا أيام العم كارلو، وقتها كان مليئًا بالسعادة. لهذا أحضر إلى هنا، العمل في الليل بينما الكلاب تنبح في الحقل شيء رائع.

ثم أطلعنا على الحجرات التي سننام بها: حجرتي وحجرة ديوتالليفي ولورينزا. نظرت لورينزا إلى حجرتها، لمست الفراش، وغطاءه الكبير الأبيض، اشتمت أغطية الفراش، وقالت إنها تبدو وكأنها في إحدى حكايات جدتها لأن رائحتها لافندر. قال بيلبو إنه ليس حقيقيًا، إنها ليست سوى رائحة الرطوبة. قالت لورينزا بأن هذا ليس مهمًا، ثم، مالت على الحائط ومالت بجذعها وكأنها ستلعب الفيليبر وسألت: ولكن هل سأنام هنا بمفردي؟

نظر بيلبو بعيدًا، ثم إلينا، ثم بعيدًا مرة أخرى. ثم تقدم نحو الممر وقال: سنتحدث عن ذلك فيما بعد، على الأقل لديك الآن ملجأ لكى وحدك. ابتعدنا أنا وديوتالليفي، وسمعنا لورينزا وهي تسأله إذا كان يخجل منها. قال إنه إذا لم يكن قد أعطاها حجرة لها بمفردها كانت هي ستسأل أين يعتقد هو أنها ستنام. وقال: قمت أنا بالمبادرة، وبالتالي لن يكون لديك اختيارات. وأجابت هي: أيها الخبيث! إذن سأنام في حجرتي الصغيرة. قال بيلبو بغضب: حسنًا حسنًا، ولكن هذين هنا ليعملا، لنذهب إلى التراس.

وهكذا أخذنا نعمل في تراس كبير، فوقه وضعت تندة، وأمامنا مشروبات منعشة والكثير من القهوة. كان الكحول ممنوعًا حتى المساء.

من التراس كان يمكن رؤية البريكو، في سفح الهضبة الصغيرة كان يوجد مبنى صغير بسيط وفيه ساحة وملعب لكورة القدم ـ والكل تزينه وجوه مرسومة، لأطفال، على ما بدا لي.

شرح بيلبو: إنها صالة كنيسة الساليزيان، هنا علمني دون تيكو العزف، في الفرقة.

تذكرت الترومبيت الذي حرم منع بيلبو نفسه بعد الحلم، وقلت: البوق أم الكلارينت؟

أصيب للحظة بالفزع: كيف استطعت... آه، حقيقي، حكيت لك أنا حلم البوق. لا، دون تيكو علمني أن أعزف البوق، ولكنني في الفرقة كنت أعزف البومباردون

ـ وما هو البومباردون؟

ـ إنها حكايات صبية قديمة... لنعد للعمل الآن.

ولكن بينما كنا نعمل رأيت أنه يلقي نظرات متكررة تجاه تلك القاعة. وكان لدي انطباع أنه كان يحدثنا عن أشياء أخرى ليتمكن من النظر إليه. وأحيانًا كان يقاطع الحوار: هناك في أسفل كانت تدور أكبر معركة تبادل للنيران في نهاية الحرب. هنا في*** تم الوصول إلى معاهدة بين الفدائيين والفاشيين. مع اقتراب الربيع نزل الفدائيون لاحتلال البلدة، ولم يزعجهم الفاشيون. لم يكن الفاشيون من هذه الجهة، أما الفدائيون فكانوا جميعًا أبناء المنطقة. في حالات التصادم كانوا يعرفون كيف يتحركون بين حقول الذرة، بين الغابات والأحراش. كان الفاشيون يختبئون في المدينة ويخرجون فقط عند الغارات. في فصل الشتاء كا يصعب على الفدائيين البقاء في السهل، كان يصعب الاختباء، كان يمكن أن يشاهدوك من بعيد في الثليج، وكان يمكن إطلاق النار على بعد كيلومتر بالمدافع الرشاشة. حينئذ كان الفدائيون يتسلقون التلال الأكثر ارتفاعًا. وهناك، كانوا هم أيضًا من يعرفون الممرات والمخابئ والملاجئ، ويسيطر الفاشيون على السهل. في ذلك الربيع كنا على مشارف التحرير، كان الفاشيون ما يزالون هنا، ولكنهم لم يكونوا مطمئنين للعودة إلى المدينة، لأنهم كانوا يشعرون أن الانفجار النهائي سيحدث هناك، وهذا بالفعل ما حدث. في حوالي الخامس والعشرين

من إبريل، أعتقد أنه كانت توجد اتصالات بين الفاشيين والفدائيين. انتظر الفدائيون حيث إنهم لم يرغبوا في التصادم، حيث كان من المتوقع أن يحدث شيئًا ما. في المساء بدأت إذاعة لندن في بث أخبار مطمئنة أكثر، وأصبحت الرسائل الموجهة لفرق فرانشي في تزايد مستمر: غدًا ستمطر ثانية، العم بيترو أحضر الخبز، هذا النوع من الرسائل المشفرة. ربما سمعتها أنت أيضًا يا ديوتالليفي... على كل، لابد أن ذلك تسبب في نوع من سوء التفاهم حيث نزل الفدائيون، ولم يرحل الفاشيون بعد. في أحد الأيام كانت أختي تقف في التراس، ثم دخلت وهي تقول إن هناك رجلين يلعبان المصارعة بالبنادق. لم نشعر بالدهشة: كان هناك صبية من الطرفين يحاولون قضاء الوقت لعبًا ملوحين بأسلحتهم. في إحدى المرات ـ وكان هذا بهدف اللعب ـ أطلق اثنان منهما بالفعل الرصاص وأصدمت الرصاصة بجذع شجرة في الممر. كانت أختي مستندة على تلك الشجرة، لم تلحظ هي ذلك، ولكن شهد الجيران ما حدث، ومنذ ذلك الحادث، قيل لأختي إن عليها الإسراع إلى الداخل بمجرد رؤية رجال يلعبون بالمدافع.

قالت وهي في طريقها للداخل لترينا مدى طاعتها: إنهم يلعبون مرة أخرى.

في تلك اللحظة استمعنا إلى دفعة الطلقات الأولى ، ثم الثانية، ثم الثالثة ثم بدأت الطلقات تتكاثف وتتسارع. كان يمكن سماع طلقة المسدس، والطلقات المتتالية للرشاش الآلي، وصوت أقوى، مثل قنبلة يدوية، وفي النهاية المدافع الآلية. أدركنا أنهم لم يعودوا يلعبون، ولكن لم يكن لدينا الوقت لنتناقش في ذلك لأنه حينئذ لم يكن في إمكاننا الاستماع إلى أصواتنا. كانت أصوات الطلقات تعلو حولنا. انكمشنا وجلسنا أسفل الحوض، أنا وأمي وأختي، ثم وصل العم كارلو، بعد أن صار طوال الممر على يديه وقدميه، ليقول لنا إن موقعنا خطير وإن علينا الذهاب إلى جناحهم. وكانت الخالة كاترينا تبكي، لأن جدتي كانت في الخارج...

ـ أهذا هو اليوم الذي وجدت فيه جدتك نفسها ووجهها يلمس الأرض في الحقل، وسط إطلاق النيران؟

ـ كيف عرفت هذا؟

ـ أنت قلت لي ذلك عام ٧٣، يوم المظاهرات.

ـ يا إلهي، يا لذاكرتك! لابد وأن يحترس المرء وهو يتحدث أمامك... بالفعل هي تلك المرة. كان أبي في الخارج أيضًا. ولكن عرفنا فيما بعد أنه اختبأ في أحد المداخل، ولم يستطع ترك مكانه بسبب شدة تبادل النيران في الشوارع، ومن فوق برج مبنى البلدية، كانت هناك فرقة الألوية السوداء التي كانت تمطر الميدان بوابل من طلقات مدفع آلي. كان العمدة السابق للبلدة، وكان فاشيا، يقف محتميًا في المكان نفسه. عند لحظة ما قال إنه سيجري ليصل إلى منزله، وإن كل ما عليه هو الوصول إلى تلك الناصية. وبالفعل انتظر لحظة هدوء واندفع بعيدًا عن المدخل. وصل إلى الناصية واختفى هناك. لكن رد الفعل الغريزي لأبي، الذي اشترك في الحرب العالمية الأولى هو أن يمكث في مكانه.

علق ديوتاليفي: يا له من مكان مليء بالذكريات العذبة!!!

قال بيلبو: لن تصدق إذا قلت لك إنها كانت بالفعل ذكريات عذبة. إنها الشيء الوحيد الحقيقي الذي مازلت أتذكره.

لم يفهم الآخرون ما يقصده، وأنا أيضًا لم أفهم مثلهم في البداية. الآن أعرف تمامًا ماذا كان يقصد: في تلك الشهور بصفة خاصة، وبينما هو يبحر في خضم أكاذيب اتباع الشيطان، وبعد سنوات قام فيها بتغليف إحباطاته العاطفية في حكايات رومانسية، ادركت أن بيلبو كان يتذكر أيامه في*** وكأنها كانت فترة الوضوح: حيث الرصاصة هي رصاصة بالفعل، يمكنك أن تفلت منها ويمكنها أن تصيبك، والطرفان المتصارعان كانا أيضًا في غاية الوضوح، يميزهما اللونان الأحمر والأسود، بلا أي غموض، أو على الأقل هكذا بدت له الأمور. كان الميت هو ميت بالفعل، ميت بالفعل، ميت بالفعل. ليس مثل الكولونيل أردنتي، والذي اختفى في ظروف غامضة. كنت أفكر أنني ربما علي أن أقص عليه ما سمعته عن السيناركية، والتي كانت قد بدأت تسللها في تلك الأعوام. ألم يكن سيناركيًا اللقاء بين العم كارلو وترتسي، والذين تحرك كل منهما في جبهتين متضادين انطلاقًا من المثالية الفروسية نفسها؟ ولكن لماذا أحرم بيلبو من ذكرياته العذبة؟ كانت لذكريات عذبة، لأنها كانت تستحضر لديه الحقيقة الوحيدة التي عرفها، والتي بعدها بدأت مرحلة الشك. إلا أنه، حتى في مرحلة اليقين، كان يقف فقط كالمتفرج. كان ينظر إلى ذكرى الزمن الذي فيه كان يشاهد ولادة ذكريات الآخرين، ولادة التاريخ، بل وقصص أخرى كثيرة لن يقوم هو بالكتابة عنها.

ربما كانت هناك لحظة فخر أو اختيار!! لأنه قال: ثم في ذلك اليوم قمت بأول عمل بطولي في حياتي.

قالت لورينزا: بطلي، قل لي ماذا فعلت.

ـ آه، لا شيء. بعد أن زحفنا ووصلنا لدى جناح الخالة، أصرت على أن أقف على قدمي في الممر. وقلت إن النافذة بعيدة وكنا في الطابق الأول، لن يستطيع أحد إصابتي. وشعرت بأنني كالقائد الذي يقف شامخًا في وسط ساحة المعركة بينما تتناثر الطلقات حوله. استشاط العم كارلو غضبًا وجذبني إلى داخل الغرفة، كدت أبدأ في البكاء إذ أن التعة قد ولت، ولكن في هذه اللحظة سمعنا ثلاث طلقات وزجاج يتحطم وصوت شيء نقافز، وكأن أحدهم يلعب كرة التنس في الممر. عبرت إحدى الطلقات من النافذة وردت في إحدى مواسير المياه، واستقرت بالتحديد في بقعة الأرض في المكان الذي كنت أقف فيه. إذا لم أكن قد ابتعدت ربما كنت أصبت في عاهة في قدمي. ربما.

قالت لورينزا: يا إلهي! لم أكن سأريدك أعرج.

قال بيلبو: ربما كنت سأكون أكثر سعادة.

ولكن في واقع الأمر لم يكن لبيلبو الاختيار حتى في هذه الحالة، لقد ترك عمه يجذبه للداخل.

بعد أقل من ساعة سرح من جديد: بعد فترة صعد إلينا آديلينو كانيبا. قال إننا سنكون في أمان أكثر في المخزن. لم يكن هو والخال كارلو يتحدثان لأعوام طويلة كما حكيت لكما. ولكن في وقت الكارثة عاد آديلينو كشخص آدمي وشد الخال على يده تقديرًا. وهكذا مكثنا ساعة في الظلام وسط البراميل، مع رائحة الكرم اللامنتهية، والتي تدير الرأس قليلاً، بالإضافة بالطبع إلى تبادل إطلاق النيران في الخارج. ثم توقف إطلاق النيران، أصبح ضعيفًا. أدركنا أن هناك طرفًا بدأ في التقهقر، ولكننا لم نعرف أيهما، حتى سمعنا شخصًا يتحدث بلهجة، من النافذة فوق رأسنا، والتي تطل على ممر صغير قائلاً ما معناه: هل تسمح يا سيد بأن تخبرني إذا كان هناك أي أثر للجمهورية الاشتراكية الإيطالية في هذه الأنحاء؟ كانت كلمة جمهورية في ذلك الوقت كلمة سيئة. كان أحد الفدائيين يسأل أحد المارة، أو شخص يقف في النافذة، إذن كان يمكن السير في الزقاق، وبالتالي هذا معناه رحيل الفاشيين. كان الظلام بدأ يحل. بعد

قليل عاد كل من أبي وجدتي، كل منا يقص لنا مغامرته. أعدت أمي ومعها خالتي شيئًا لنأكله، بينما توقف العم كارلو وآدلينو عن التحدث مرة أخرى. استمعنا باقي الأمسية إلى تبادل إطلاق النار من بعيد، نحو التلال. كان الفدائيون يطاردون الهاربين. انتصرنا.

قبلت لورينزا بيلبو على رأسه وحرك هو أنفه. عرف أنه فاز ببعض المساعدة من الفاشيين. في الواقع كان الأمر مثل مشاهدة أحد الأفلام، وفي اللحظة التي كان يخاطر فيها بتلقي تلك الرصاصة كان قد دخل في خضم الأحداث على الشاشة، ولكن فقط للحظة واحدة، تمامًا كما حدث في فيلم هيلزبوبين، عندما تختلط بكرات الأفلام ويصل أحد الهنود على حصانه أثناء حفلة راقصة، ويسأل أين ذهبوا، فيجيبوا أحدهم "من هنا"، ويختفي في قصة أخرى.

(٥٦)

أخذ يعزف على بوقه الرائع بقوة عظيمة
اهتزت لها أرجاء الجبل.

Johann Valentin Andreae, Die Chy-)
mische Hochzeit des Christian Rosencreutz,
Strassburg, Zetzner, 1616, 1, p.4)

وصلنا إلى 'لفصل الخاص بعجائب الأنابيب الهيدروليكية، وإلى نسخة من نقش من القرن السادس عشر مأخوذة من مخطوطة سبيريتاليا لهارون، حيث يظهر نوع من الهياكل عليه جهاز لتمرير البخار يعزف البوق.

قدت بيلبو مرة أخرى لذكرياته: ولكن ماذا كانت إذن قصة دون تيكو براهي، أو أيًا كان اسمه، الذي علمك عزف البوق؟

ـ دون تيكو، لم أعرف قط إذا كان اسمًا حركيًا أم كنيته. لم أعد قط إلى قاعة الكنيسة. المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى هناك كانت بالمصادفة: القداس، ثم مدارس الأحد، كل أنواع الألعاب، ثم إذا ربحت يكافئونك بصورة صغيرة للطوباي دومينيكو سافيو، ذلك الصبي الذي يرتدي سروالاً من الكتان المجعد، والذي في كل التماثيل يظهر ممسكًا بالرداء الديني لدون بوسكو، عيناه تنظران للسماء لكي لا يسمع زملاءه الذين يتبادلون النكات البذيئة. اكتشفت أن دون تيكو كون فرقة موسيقية من أولاد تتراوح أعمارهم بين العاشرة والرابع والعشرين. كان الأصغر يعزفون البوق والناي والسكسافون السوبرانو، الأكبر سنًا يعزفون التوبا والطبلة. كانوا يرتدون زيًا: قميص كاكي وسروال أزرق، وبيريه. شيء كالحلم، أردت أنا أيضًا أن أكون واحدًا منهم، قال دون تيكو إنه في حاجة لعازف بومبوردون.

ثم نظر إلينا نظرة متعالية، وقال كأنه يردد معلومة معروفة: والبومبوردون نوع من أنواع آلات النفخ، توبا على نغمة الإي المسطحة. أغبى آلة موسيقية في العالم كله. في أغلب الأوقات تعزف نغمات مثل: أوومباه ـ أوومباه ـ أوومباه، أو عندما يتغير الإيقاع با ـ باه، با ـ باه، با ـ باه. إلا أنه من السهل تعلمها. نظرًا لأنها تنتمي لعائلة النحاسيات

فهي تعمل مثل البوق تقريبًا. لكن البوق يتطلب نفسًا قويًا، ويلزم لذلك وضع خاص للشفتين ـ مثل ذلك الشيء الذي يشبه الكالو على الشفة العليا للويس أرمسترونج... عندئذ يمكن الحصول على صوت واضح، جلي، ولا يظهر صوت النفخ. أهم شيء ألا تنفخ خديك: لا يحدث ذلك سوى في الأفلام، وأفلام الكرتون.

ـ وماذا إذن عن البوق؟

ـ تعملت عزف البوق بمفردي، في فترة ما بعد الظهيرة في أيام الصيف، في الوقت الذي يكون لا أحد في قاعة الكنيسة، وكنت أختبئ في صالة المسرح الصغير.... كنت أدرس عزف البوق لأسباب غرامية. هل ترون تلك الفيللا هناك، التي تبعد حوالي كيلومتر عن القاعة؟ كانت تسكن فيها شيشيليا، ابنة السيدة التي ترعى الساليزيان ماديًا. وهكذا في كل مرة كانت الفرقة تعزف، في الأعياد الكنسية، بعد الزفة المقدسة، وخاصة في المسرح الصغير في القاعة، كانت شيشيليا تجلس مع والدتها في الصف الأول، في مكان الشرف، بجوار رئيس الأبرشية. في تلك المناسبات كانت الفرقة تبدأ بمارش يدعى الأمير الطيب، وكان لحنًا مخصصًا للبوق، على نغمة سي بيمول، الأبواق الفضية والذهبية، والتي تلميعها جيدًا لهذه المناسبة. كان عازفو البوق ينهضون ويعزفون بمفردهم. عندئذ كانوا يجلسون وتبدأ الفرقة في العزف. كان عزف البوق هي الطريقة الوحيدة التي يمكن لشيشيليا أن تراني.

سألت لورينزا: الطريقة الوحيدة؟

ـ لم تكن هناك طريقة أخرى. بداية كان عمري وقتها ثلاثة عشر عامًا، وعمرها ثلاثة عشر عامًا ونصف. وصبية في الثالثة عشرة والنصف من عمرها هي سيدة، وأما الصبي فهو مجرد طفل. كانت أيضًا معجبة بعازف ساكسافون آلتو، شخص يدعه بابي، غاية في البشاعة، هكذا كان يبدو لي، ولم تكن تنظر سوى إليه، وكان يعزف كأنه يتأوه بغنج. بالنسبة إلي إذا لم يكن الساكسفون في يد عازف مثل أورنيت كولمان، ويعزف في فرقة، أما بابي البشع ـ أو هذا ما كان يبدو لي حينذاك ـ فهو ليس سوى آلة تطلق أصوات كالماعز والجعير، ويتحول صوته مثل صوت، عارضة أزياء، بدأت في السكر والقاء بالنكات...

ـ وماذا تفعلن العارضات عندما يبدأن في إلقاء النكات؟ وماذا تعرف أنت عن ذلك؟

ـ المهم، لم تكن شيشيليا تعرف حتى عن وجودي. كنت بالتأكيد أخترع لنفسي قصصًا رائعة، وخاصة في المساء وبينما أنا أصعد التل بصعوبة في طريقي لشراء اللبن، عنها وقد خطفتها الألوية السوداء وأنا البطل أجرى لإنقاذها، بينما تزأر أصوات الرصاص حول رأسي وتتناثر على الحصى في الطريق، وأفصح لها عما لا تعرفه، بأنني أتخفى خلف تلك الملابس البالية، ولكنني في الحقيقة أقود المقاومة في منطقة مونفيراتو بأكملها، وتعترف لي هي بأنها طالما تمنت ذلك، وعندئذ أشعر بالخجل، لأنني أشعر بتدفق شيء مثل العسل في عروقي ـ أقسم أن لا يصيب البلل حتى جلدي، ولكنه كان شيئًا أكثر عظمة وجلال، وكنت أذهب لأعترف وأنا في طريقي للمنزل... أؤمن بأن الخطية، العشق والمجد، تحدث في اللحظة التي تهبط فيها بواسطة الملاءة المضفرة المدلاة من نافذة أعلى القلاع، وهي متعلقة في رقبتك، معلقة في الهواء وتهمس لك بأنها لم تكن تحلم إلا بك. ما يلي ذلك ليس سوى جنس ومضاجعة وحفاظ على النوع. باختصار، إذا أصبحت عازف بوق لن تستطيع شيشيليا أن تتجاهلني: بينما أنا أقف على قدمي لامعًا، بينما عازف الساكسافون يجلس بائسًا على مقعده. إن البوق آلة حربية وملائكية في آن، منتصرة وغامضة، تعزف المشاعر، بينما الساكسافون يعزف ليرقص على أنغامه مفلسو العشوائيات، الذين يضعون كريمًا لتصفيف شعورهم، وهم يرقصون ووجنتهم تتلامس مع فتيات، يتصببن عرقًا. ذاكرت العزف على البوق كمجنون، ثم ذهبت إلى دون تيكو وقلت له: استمع إلى ذلك. وعزفت وكأنني أوسكار ليفانت عندما كان يعزف في أول تجربة له في برودواي مع جين كيلي. قال دون تيكو، أنت فعلاً عازف بوق، ولكن...

قالت لورينزا: يا لك من ممثل درامي، أكمل لا تدعنا في تشوق هكذا.

ـ لكن كان علي أن أجد شخصًا ما يحل محلي في عزف البومباردون. قال لي دون تيكو: فكر في حل، بالفعل فكرت في حل. والآن علي أن أخبركم، يا أطفالي الأعزاء، أنه في تلك الأيام كان يعيش في*** اثنين من البؤساء، زميلاي في الفصل، على الرغم من أنهما يكبراني بعامين، وهذا يمكن أن يخبركما عن قدرتهما في التحصيل العلمي. كان هذان المتشردان يدعيان آنيبالي كانتا لا ميسا (ومعناها مرنم القداس) وبيو بو (ومعناه التقي). هامش: حقيقة تاريخية.

ـ ماذا؟ سألت لورينزا

شرحت أنا، معجبًا بنفسي: عندما يقوم سلجاري، في قصص مغامراته بإدخال وقائع حقيقية أو شخص يعتقد أنه حقيقي ـ مثلاً إذا قلنا: يأكل الثور قلب الكابتن كاستر، كان يضع هامشًا في أسفل الصفحة ويكتب: ١. حقيقة تاريخية.

ـ تمامًا: وكانت حقيقة تاريخية أنهما كانا يُدعيان بالفعل: آنيبالي كانتا لا ميسا وبيو بو، ولكن لم يكن هذا أسوأ شيء فيهما. كانا أيضًا لصان، يسرقان المجلات المصورة من كشك الجرائد، وكانا يسرقان عبوات السلاح الفارغة من الصبية الآخرين التي لديهم مجموعات أفضل، ولا يساورهم أي تردد وهم يضعون ساندوتش السلامي المزبد على كتابك الثمين الذي حصلت عليه ضمن مجموعة قصصية عن مغامرات أعالي البحار في عيد الميلاد. كان آنيبالي يقول عن نفسه إنه شيوعي، وبو يقول إنه فاشي، ولكن كان كل منهما على استعداد، لأن يبيع نفسه للعدو في مقابل "نبلة". كانا يقصان قصصًا ذات مواضيع جنسية، مع التركيز على الشرح التشريحي، ويتسابقان فيما بينهما على من مارس العادة السرية منهما لمدة أطول في الليلة السابقة. كانا شخصين مستعدين لكل شيء، لماذا لا يعزفان البوباردون؟ هكذا قررت إغراءهما. أخذت أضخم لهما جمال زي العازفين، أخذتهما معي عروض عامة، وأخذت أريهما بعيني الخيال المغامرات العاطفية الناجحة مع بنات المنطقة. وسقطا بالفعل في الفخ، كنت أمضي أيامًا في المسرح الصغير، ممسكًا بعصا طويلة، كما رأيت في صور المرسلين في الكنيسة، وكنت أضربهما على أصابعهم عندما يخطئان في عزف نوتة موسيقية. ليس للبومباردون سوى ثلاثة مفاتيح، يتحرك فوقها السبابة والوسطى والبنصر، ولكن أهم شيء هو وضع الشفتين. لن أطيل عليكم أكثر من ذلك يا صغاري المستمعين: جاء اليوم الذي فيه استطعت فيه أن أقدم اثنين من عازفي البومباردون إلى دون تيكو، لن أقول إنهم كانا ممتازين، على الأقل في البروفة الأولى، بعد الساعات الطويلة من الظهيرات الطويلة، كانا مقبولين. اقتنع دون تيكو، ألبسهما زي الفرقة الرسمي، ونقلني إلى صف البوق. وفي خلال أسبوع وفي عيد القديسة العذراء الشفيعة، وفي افتتاح الموسم المسرحي بعرض "الباريسي الصغيري"، وأمام الستار المغلق، وأهم الشخصيات المهمة في البلدة، وقفت أنا لأعزف بداية "الأمير الطيب".

قالت لورينزا، ووجهها ينطق بمشاعر رقيقة من الغيرة: آه، أخيرًا اللحظة المنتظرة! وشيشيليا؟

ـ لم تكن هناك، ربما كانت مريضة، لا أعرف، إلا أنها لم تأت.

رفع عينيه ليراقب المستمعين، وفي هذه اللحظة كان يشعر بأنه شاعر ملحمي، أو مهرج. حسب الوقفة. ثم أكمل.

ـ بعدها بيومين استدعاني دون تيكو وشرح لي أن آنيبالي كانتا لاميسا، وبيو بو تسببا في إفساد السهرة، لم يستطيعا العزف بتزامن مع باقي العازفين، كان عقلهما يشت بعيداً في الوقفات ولا يبدآن في الوقت المطلوب. وأضاف: "إن البومباردون هو عامود الفرقة، إنه ضميرها الإيقاعي، روحها. الفرقة تشبه القطيع، الآلات تشبه الغنم، المايسترو الراعي، والبومباردون هو الكلب الوفي الذي يضبط سير الغنم. والمايسترو ينظر إلى عازف البومباردون فإذا تبعه فإن باقي الأغنام ستتبعه. جاكوبو العزيز، لابد أن أسألك أن تقوم بتضحية عظيمة، لابد وأن تعود كعازف بومباردون، بجوار هذين الآخرين. لديك أذن موسيقية حساسة للإيقاع، يجب أن تقود خطاهما. أعدك بأنه بمجرد أن يتمكنا من العزف بمفردهما سأعيدك لعزف البوق." كنت أدين بكل شيء لدون تيكو، فقبلت. في الحفلة التالية نهض عازفو البوق ليعزفوا "الأمير الطيب" أمام شيشيليا، مرة أخرى في الصف الأول، بينما أنا أجلس في الظلام عازف بومباردون بين العازفين. لم يصبح البائسون مستقلين قط، ولم أعد قط إلى صفوف عازفي البوق. بعد ذلك انتهت الحرب وعدت أنا إلى المدينة، وهجرت عزف الآلات النحاسية، ولم أعرف عن شيشيليا أي شيء ولا حتى كنيتها.

قالت لورينزا: أيها الفتى المسكين ـ واحتضنته من كتفيه ـ لكنني مازلت هنا.

ـ كنت أعتقد أنك تحبين عازفي الساكسافون ـ قال بيلبو. ثم قبل يدها، وهو يدير رأسه بالكاد. ثم عاد إلى نبرته الجادة وقال: لنعد إلى العمل، لابد أن نصنع تاريخ للمستقبل، ونبتعد عن أحداث الزمن المفقود.

في وقت متأخر من الأمسية احتفلنا بسقوط حذر الكحوليات. كان بيلبو يبدو وأنه قد نسي ذكرياته الحزينة وأخذ يتبارى مع ديوتاليفي على تخيل آلات غريبة، ليكتشفا في كل خطوة أنه قد تم اختراعها بالفعل. عند منتصف الليل وبعد يوم مشحون اتفق الجميع أننا بحاجة لأن نجرب كيف يكون النوم على الهضاب.

رقدت على فراشي في الغرفة القديمة، فوق الملاءات التي ازدادت رطوبة عما كانت عليه في الظهيرة. أصر جاكوبو أن نضع مبكرًا "الكاهن إطار بيضاوي يرفع الأغطية وفوقها توضع مبخرة عليها فحم، ربما كان ذلك لنتذوق متعة الحياة في فيللا. ولكن عندما تكون الرطوبة موجودة بالفعل منذ فترة، لا تتسبب تدفئة الفراش إلا في زيادتها: تشعر بترحاب الدفء في البداية، ولكن تظل الملاءات رطبة. لا بأس. أضأت أباجورة من النوع القديم ذي الظلال المزينة، والتي تدور فيها الحشرات الطائرة حتى تموت، كما يقول الشاعر، وحاولت أن أنام وأنا أقرأ الجريدة.

ولكن لمدة ساعة أو ساعتين استمعت إلى أصوات خطوات في الممر، أبواب تُفتح وتغلق، وآخر ما سمعته كان صوت باب يُغلق بعنف. كانت لورينزا بيلليجريني تُجرب قدرة تحمل بيلبو.

كنت قد شرعت في النوم عندما سمعت صوت كالخربشة على باب حجرتي. لم يكن واضحًا إذا كان صوت حيوان (ولكن لم أكن قد رأيت أي حيوان لا كلاب ولا قطط)، ولكن كان لدي الانطباع بأنها كانت دعوى، طلب أو ربما مكيدة. ربما كانت لورينزا، ربما كانت تفعل ذلك لأنها تعرف أن بيلبو يراقبها. ربما لا، كنت حتى تلك اللحظة أعد لورينزا من ممتلكات بيلبو ـ على الأقل بالنسبة لي ـ ثم إنني منذ أن أصبحت مع ليا، فقدت الحماس تجاه أي إغراءات أخرى. تلك النظرات الخبيثة، المتآمرة، التي كانت لورينزا تطاردني بها أحيانًا في المكتب أو في البار، عندما كانت تسخر من بيلبو، وكأنها تبحث عن حليف أو شاهد كانت جزءًا ـ كما اعتقدت دائمًا ـ من لعبة اجتماعية، ثم إن لورينزا بيلليجريني كانت تنظر دائمًا إلى أي شخص بنظرة تتحدى فيها قدراته على فعل الحب، ولكن بطريقة فضولية، وكأنها تقترح "أرغب فيك، ولكن لكي أثبت لك أنك خائف ... تلك الليلة، عندما سمعت ذلك الصوت، خربشة الأظافر تلك على باب الحجرة، شعرت بشيء مختلف: أدركت عندئذ أنني أنا أيضًا أشتهي لورينزا.

وضعت رأسي أسفل الوسادة وفكرت في ليا. قلت لنفسي أرغب في إنجاب طفل من ليا، وسأعمل أن يتعلم (تتعلم) على الفور منذ الصغر العزف على البوق، بمجرد أن يبدأ (تبدأ) في النفخ.

(٥٧)

كان هناك مصباح معلق على كل شجرة من الجانبين، وكانت هناك عذراء رائعة الجمال، ترتدي هي أيضًا اللون الأزرق، تشعلها بشعلة خلابة، تأخرت أنا أكثر مما يلزم، ناظرًا بإعجاب هذا المشهد ذى الجمال الآخاذ.

Johann Valentin Andreae. Die Chy-) mische Hochzeit des Christian Rosencreutz. Stassburg. Zetzner. 1616,1. p.21)

في حوالي منتصف النهار لحقت بنا لورينزا في التراس وهي تبتسم وأعلنت بأنها عثرت على قطار رائع يمر ببلدة*** في الثانية عشرة والنصف وبتغيير القطار مرة واحدة يمكن أن تصل إلى ميلانو في الظهيرة. وسألت إذا كان يمكننا أن نصحبها بالسيارة إلى محطة القطار.

استمر بيلبو في تصفح بعض الملحوظات وقال: كان يبدو لي أن آلييه في انتظارك أنت أيضا، بل كان يبدو لي أنه نظم كل هذه الحملة من أجلك أنت.

قالت لورينزا: هذه مشكلته، من سيوصلني إلى المحطة؟

نهض بيلبو قال لنا: سأعود على الفور، ثم يمكننا أن نمكث هنا ساعتين آخرين. لورينزا، هل كانت معك حقيبة؟

لا أعرف إذا كانوا قد تبادلا أية أحاديث أخرى في الطريق إلى محطة القطار. عاد بيلبو بعدها بعشرين دقيقة، وعاد إلى العمل دون أن يذكر أي شيء عما حدث.

في الثانية عثرنا على مطعم مريح في ميدان السوق، وسمح اختيار الطعام والنبيذ لبيلبو بأن يعيد تذكر أحداث أخرى متعلقة بطفولته. ولكنه كان يتحدث وكأنه يقص حكاية شخص آخر. فقد سعادة الحكي التي كانت لديه في اليوم الأول. وفي منتصف النهار تحركنا لنتقابل مع آلييه وجاراموند.

أخذ بيلبو يقود السيارة في اتجاه جنوب غرب، بينما يتغير المنظر حولنا من كيلومتر الى آخر بدت تلال***، حتى بقرب نهاية الخريف، صغيرة وعذبة، ولكن كلما تقدمنا في المسير بدا الأفق أكثر اتساعا، وعند كل منحنى كانت القمم تزداد، فوق البعض منها

قرى صغيرة. ولكن بين كل قمة وأخرى كانت يظهر الأفق اللامتناهي ـ بعيدًا عن الحدود... هكذا علق ديوتالليفي وهو يعبر عن اكتشافاتنا بالكلمات. وهكذا أثناء تسلقنا بالسيارة على سرعتها الثالثة كانت تقابلنا عند كل منحدر مساحات ممتدة من المنظر المتموج والمستمر، والذي كان عند حدود السهل تظهر وكأنها مغطاة بالفعل بطبقة من ضباب الشتاء. كانت يبدو سهلاً مشكلاً بالكثيبات، وكانت نصف جبلية، وكأن يد الدميورج[١٥] الماهرة ضغطت على القمم التي بدت لها عالية، محولة إياها إلى مناطق محدبة امتدت طوال الطريق وصولاً إلى البحر أو ـ من يدري ـ ربما إلى سفح سلسلة من الجبال أكثر وعورة وتحديدًا.

وصلنا إلى القرية التي كنا سنقابل في بار الميدان الرئيسي فيها آلييه وجاراموند. عندما سمع آلييه خبر رحيل لورينزا لم يبدو عليه أي استياء، وعلق قائلاً: "يبدو أن صديقتنا اللذيذة لا ترغب في أن تتقاسم مع آخرين الأسرار الأخرى التي تميزها. خجل نادر، أقدره كثيرًا". وكان هذا كل شيء.

استأنفنا المسير، سيارة جاراموند المرسيدس في المقدمة تتبعها سيارة بيلبو الرونو، وأخذنا نسير بين الأودية والتلال حتى مغيب الشمس، عندئذ استطعنا أن نميز رؤية مبنى غريب على احد التلال، مبنى يبدو كأحد قصور القرن الثامن عشر، والذي منه امتدت شرفات مليئة بالزهور والأشجار، مزدهرة على الرغم من فصل الخريف.

عندما وصلنا إلى سفح التل وجدنا أنفسنا في شبه ميدان حيث كانت توجد بالفعل العديد من السيارات. قال آلييه: لابد وأن نترك السيارات هنا ونستأنف باقي المسافة سيرًا على الأقدام.

كان الليل قد حل، وكان الممر مضيئًا بالفعل بواسطة العديد من المشاعل المرصوفة على الجانبين.

شيء غريب، ولكن من كل ما حدث بعد تلك اللحظة إلى الليل الحالك ليس لدي سوى ذكريات واضحة أحيانًا ومضطربة جدًا أحيانًا اخرى. كنت أستدعي الليلة الأخرى في التليسكوب وأشعر بنوع من التشابه بين الخبرتين. كنت أقول لنفسي، الآن أنا هنا في وضع غير عادي، تحيط بي رائحة الخشب العتيق، أشعر وكأنني في قبر أو بداخل

(١٥) الدميورج هو خالق العالم المادى، ويسمى أيضا مهندس العالم.

إناء ستتم فيه عملية تحويل ما. يكفي أن أخرج رأسي قليلاً من فوق الكابينة لأرى في الظلام أشياء، والتي تبدو اليوم ساكنة، ولكنها كانت في تلك الليلة تتحرك مثل الظلال الإليوسنية بين أبخرة نوع من السحر. هكذا كانت تلك السهرة في القصر: الأضواء، مفاجآت المسيرة، الكلمات التي سمعتها، وفي مرحلة تالية تدخل أيضًا البخور، كل شيء كان يتآمر ليجعلني أشعر بأنني في حلم، ولكن بشكل غير طبيعي، مثلما يكون المرء على وشك الاستيقاظ عندما يحلم بأنه يحلم.

كان من الطبيعي أن أنسى كل شيء، إلا أنني أتذكر كل شيء، وكأنني لم أخض بنفسي هذه التجربة، ولكن شخص آخر قصها علي.

لست واثقًا من أن الذي أتذكره، بوضوح مضطرب، هو ما حدث بالفعل أو ما كنت أتمنى أن يكون قد حدث، ولكن الشيء المؤكد أنه في تلك الليلة اتخذت الخطة شكلاً في أذهاننا، وكأنها رغبة لمنح شكل ما لتلك الخبرة الغريبة، محولين إلى واقع متخيل ذلك الخيال الذي أراد أحدهم تحويله إلى واقع.

قال آليبه بينما نصعد: إن المسار نفسه طقسي، إن تلك الحدائق معلقة، الحدائق نفسها ـ أو تكاد ـ التي صممها سليمان دي كاوس لبساتين هيدلبرج، للأمير البلاطيني فردريك الخامس في القرن العظيم لازدهار الروزا كروتشي. الضوء ضعيف، هكذا يجب أن يكون، لأنه من الأفضل أن تستشعر الأشياء بدلاً من أن تراها: لم يقلد مضيفنا تصميم سليمان دي كاوس، بل نفذه في مساحة محدودة. إن حدائق هيدلبرج كانت تنسخ العالم الكبير، ولكن من بناها هنا جعلها نسخة من العالم الصغير. هل ترون هذه المغارة المبنية بالصخر... جزء من الديكور بالتأكيد.. لكن كاوس كان يفكر في رمز لأطلانطا فيوجينس للألماني مايكل ماير، حيث الحجر المرجاني هو الحجر الفلسفي. كان دو كاوس يعرف أنه من خلال أشكال الحدائق يمكن التأثير على حركة النجوم، لأنه توجد خصائص يمكن من خلال تشكيلها تقليد تناغم الكون...

ـ شيء عجيب ـ قال جاراموند ـ ولكن كيف يمكن لحديقة أن تؤثر على الكواكب؟

ـ توجد علامات تجذب كل منها تجاه الآخر، ينظر أحدها إلى الآخر، تتعانقان وتدفع على الحب. ليست لها، ولا يجب أن يكون، شكلاً معينًا أو محددًا. أي شخص يمكنه أن يجرب قوى معينة تبعًا لما تمليه عليه انفعالاته أو تبعًا لاندفعات روحه، مثلما

كان يحدث مع الهيروغليفية الفرعونية. لا توجد علاقة بيننا وبين الكائنات المقدسة سوى من خلال أختام وأشكال وحروف واحتفالات أخرى. لهذا السبب تتحدث معنا الآلهة من خلال الأحلام والألغاز. وهكذا أيضًا هذه الحدائق: كل جانب من تلك الشرفات يعيد إنتاج سر من أسرار فن السيمياء، ولكن للأسف لسنا على قامة تسمح لنا بقراءة هذا السر، ولا حتى مضيفنا. إن ذلك الشخص لديه شغف غير طبيعي بالأسرار، كما سترون، إلى حد أنه أنفق ما ربحه طوال حياته ليصمم تلك الرموز التي لم يعد أحد يعرف معناها.

أثناء صعودنا، كنا نرى أن أشكال الحدائق تتغير من شرفة إلى أخرى. كان للبعض شكل المتاهة، والآخر شكل الشعار، ولكن لم يكن يمكن رؤية شكل شرفة إلا من الشرفة التي تعلوها، وهكذا أدركت من أعلى شكل تاج، وأشكال متناسقة أخرى لم يكن بإمكاني إدراكها بينما نمر بجوارها، والتي، في كل الأحوال، لم أستطع فهم معناها. كانت كل شرفة، من خلال رؤيتها بين الأحراش، ومن خلال منظور الرؤية تعكس بعض الصور، ولكن عند رؤيتها من جديد من الشرفة التي تعلوها، تمنح اكتشافات جديدة، ربما ذات معنى مضاد، وكانت كل درجة من ذلك السلم تتحدث لغتين في كل لحظة.

اكتشفنا أثناء الصعود، أبنية صغيرة. نافورة ذات تركيب قضيبي، والتي تُفتح أسفل نوع من الأقواس وعليه نبتون وهو يسحق درفيل، ثم باب عليه عواميد موضوعة بعشوائية، وقوس آخر ذو شكل غير محدد، وكأنهم وضعوا مثلثات فوق أشكال مضلعة فوق أخرى، على قمة كل منها تمثال حيوان: ظبي، وقرد، وأسد...

سأل جاراموند: وهذا كله يكشف عن شيء ما؟

ـ بلا شك! يكفي قراءة عالم الرموز لبيتشنيللي، والذي رآه آلشاتو بروح نبوية حارة. الحديقة كلها يمكن قراءتها ككتاب، أو كوصفة سحرية، النتيجة واحدة. إذا عرفتم الكلمات يمكنكم معرفة ما تقوله الحديقة ويمكنكم بالتالي السيطرة على إحدى القوى اللامتناهية التي عمل في العالم السفلي. إن هذه الحديقة أداة للسيطرة على الكون.

أطلعنا على مغارة، تنمو فيها الطحالب، بها هياكل عظمية لحيوانات، سواء طبيعية أم مصنوعة من الجير أم من الحجارة... كان يمكن تمييز تمثال لحورية الماء ممسكة بثور بواسطة ذيل سمكة كبيرة، كان التمثال يرقد في مجرى مياه ينبع من صدفة يحملها تريتونيس مثل الجرة.

ـ سأخبركم عن المعنى الأعمق لهذا، والذي يمكن أن يبدو مجرد مزحة هيدروليكية تافهة. كان كاوس يعلم انه إذا ملء أحدهم إناء بالماء وسد القمة، لن تخرج المياه حتى إذا فتح احدهم فتحة في أسفل. ولكن إذا فتح أحدهم فتحة في الأعلى أيضًا ستبدأ المياه في الخروج من أسفل.

قلت: اليس هذا واضحًا، الهواء يدخل من أعلى ويدفع المياه لأسفل.

ـ شرح علمي نموذجي، والذي نخلط فيه السبب بالتأثير والعكس صحيح. السؤال ليس هو لماذا تخرج المياه في الحالة الثانية، ولكن السؤال لماذا ترفض الخروج في الحالة الأولى.

سأل جاراموند بشغف: ولماذا ترفض الخروج في الحالة الأولى؟

ـ لأنها إذا خرجت ستترك فراغًا في الإناء، والطبيعة تفزع من الفراغ. كان رفض الفراغ هو أحد مبادئ الروزا كروتشي، والتي نسيها العلم الحديث.

قال جراموند: شيء مؤثر للغاية!! لابد من ذكر تلك الأشياء في التاريخ الرائع للمعادن يا كازاوبون ، ولا تقل لي إن المياه ليست من المعادن. استخدم خيالك.

قال بيلبو لألييه: معذرة، ولكن تفسيرك ببساطة إن ما يلي يتسبب في ما حدث من قبل.

ـ لابد من التوقف عن التفكير الخطي. فالمياه في تلك النافورات لا تفكر بهذه الطريقة، ولا الدلبيعة. الطبيعة لا تعرف شيئًا عن الزمن، فالزمن اختراع غربي.

بينما نصعد، تقابلنا مع ضيوف آخرين . غمز بيلبو لديوتالليفي الذي قال: أجل، وجوه هرمسية.

ومن بين هؤلاء الحجاج ذوي الوجوه الهرمسية، على أحد الجوانب، كان السيد سالون يقف وابتسامة جامدة على وجهه، وتبادلنا التحية.

سألني آلييه: هل تعرف سالون؟

سألته: هل تعرف أنت سالون؟ أنا أعرفه، بالتأكيد، فنحن نسكن في المبنى نفسه. ما رأيك فيه؟

ـ أعرفه من بعيد. بعض الأصدقاء، الذين أثق فيهم، قالوا لي إنه مرشد للبوليس.

لهذا إذن كان سالون يعرف ما يحدث في الجاراموند وقصة آردنتي. ترى ما هي العلاقة بين سالون ودي أنجيليس؟ ولكنني منعت نفسي عن سؤال آلييه، وقلت: ولكن ماذا يفعل مرشد للبوليس في حفل كهذا؟

قال آلييه: إن مرشدي البوليس يذهبون لكل مكان. يمكنهم أن يستخدموا أي خبرة ليخترعوا تقاريرهم السرية، بالنسبة للبوليس كلما عرفت أكثر، أو كلما تظاهرت بالمعرفة، زادت قوتك. لا يهم إذا كانت المعرفة حقيقية، كل ما يهم، تذكر هذا، أن يكون لديك سر ما.

سألت: ولماذا تمت دعوة سالون إذن؟

أجاب آلييه: يا صديقي، ربما لأن مضيفنا يتبع القاعدة الذهبية للفكر المعرفي، والتي تنص على اي خطأ يمكن أن يكون الدافع المجهول لظهور الحقيقة. إن السر الحقيقي لا يخشى المتضادات.

ـ إذن، ما تقوله إنه في نهاية الأمر يتفق كل هؤلاء فيما بينهم.

ـ إن العبادة السرية هي اكتشاف الفلسفة الأبدية.

وهكذا أثناء تفلسفنا وصلنا إلى قمة الشرفات، ودخلنا إلى ممر في منصف حديقة واسعة تؤدي إلى مدخل الفيللا، أو القصر. وعلي ضوء شعلة أكبر من الشعلات السابقة، موضوعة فوق أحد الأعمدة، رأينا فتاة ترتدي رداء أزرق تتناثر عليه نجوم ذهبية، كانت تمسك في يدها ببوق، مثل التي يعزفها المنادي في الأوبرا. وكما يحدث في العروض الكنسية عندما يرتدي من يلعب دور الملاك جناحين من الورق مزينة بالريش، ارتدت الفتاة على كتفيها جناحين أبيضين مزينين بأشكال تشبه اللوز بنقطة في الوسط، تشبه العين.

رأينا البروفسور كاميسترس، أحد أول أتباع الشيطان الذين قابلناهم في جاراموند، عدو جماعة المعبد الشرقي. تعرفنا عليه بصعوبة حيث كان متنكرًا بطريقة فريدة، والتي دافع عنها آلييه قائلاً إنها مناسبة للحدث: كان يرتدي رداء من الكتان الأبيض وعلى الجانبين شريط أحمر يتقاطع عند الظهر والصدر، وقبعة من القرن السابع عشر، والتي عليها وضع أربع زهور حمراء. ركع أمام الفتاة ذات البوق وقال بضع

كلمات.

همس جاراموند شيء حقيقي بالفعل، مازال هناك الكثير في السماوات وعلي الأرض...

عبرنا من ممر ذي طوابق، والذي ذكرني بمقابر ستاليينو في جنوة، فوق المدخل، رأيت عبارة: أنا من أعزي وأهنئ! باللاتينية مطبوعة فوق تركيب رمزي نيوكلاسيكي .

وفي الداخل كان الضيوف كثيرين يملأون المكان بالحيوية والصخب، مجتمعين حول مائدة طعام في صالة متسعة الأرجاء، والتي كان يوجد على جانبيها سلالم تؤدي إلى الأدوار العليا. رأيت وجوهًا أخرى مألوفة من بينها برامانتي، وفوجئت برؤية الكابتن دي جوبرناتيس، الكاتب على نفقته الخاصة الذي استغله جاراموند بالفعل، ولكن ربما لم يصل بعد إلى المرحلة التي يجب أن يواجه فيها واقع أن الباقي من نسخه يجب إعدامها، لأنه قابل جاراموند بكل ترحيب وامتنان. واقترب شخص ضئيل وعيناه بارزتان بالترحيب بآلييه، ومن لهجته الفرنسية عرفنا أنه بيير، ذلك الذي سمعناه يتهم برامانتي بأنه يستخدم السحر في الانتقام منه من خلف ستار مكتب آلييه.

اقتربت من مائدة الطعام، كانت توجد أباريق تحتوي على سوائل ملونة، لم أستطع التعرف عليها سكبت لنفسي سائلاً أصفر يشبه النبيذ، لم يكن سيئًا، كان طعمه يشبه المقبلات القديمة، ولكنه كان يحتوي بالتأكيد على الكحوليات، وربما كان به نوع من المخدر أيضا إذ أنني بدأت أشعر بالدوار. بدأت الوجوه الهرمسية تحتشد حولي، بدأت تصل إلى أدنى أحكام قديمة، ومقاطع من حوارات....

ـ في المرحلة الأولى عليك أن تنجح في الاتصال بعقول أخرى، ثم أن تنقل للآخرين أفكارًا وصورًا، تشحن الأماكن بحالات انفعالية، وأن تحصل على نوع من السلطة على مملكة الحيوان. في وقت ثالث حاول أن تعرض بديلك في أي مكان في الفضاء: وتصبح في مكانين، مثل اليوجى، لابد وأن تظهر في أكثر من شكل مميز في وقت واحد. ثم يتعلق الأمر بعد ذلك بالعبور إلى المعرفة القوية جدًا للمكونات النباتية. وفي النهاية تحقق عملية الانفصال، ويتخذ الجسد أشكالاً أرضية، تتمكن من خلالها التحلل في مكان للظهور في آخر، بالكامل ـ ولا أتحدث هنا عن البديل. المرحلة الأخيرة هي استطالة الحياة الفيزيقية...

- ليس الخلود...

- ليس على الفور.

- وماذا عنك؟

- لابد من التركيز. ولا أخفي عليك أنه شيء مجهد، لم أعد شابًا في العشرين من عمره...

عثرت على مجموعتي. كانوا على وشك الدخول في حجرة ذات جدران بيضاء بأركان مقوسة. في نهايتها، كما في متحف جريفن - ولكن الصورة التي جاءت إلى ذهني في تلك الليلة كانت صورة المعبد الذي كنت قد رأيته في ريو في خيمة الأومباندا - كان يوجد تمثالان تقريبًا بالحجم الطبيعي، من الشمع، مغطان بمادة متلألأة، والتي بدت لي من أبشع الأقمشة. أحدهما كان لامرأة جالسة على عرش، ترتدي ثوبًا يكاد يكون ناصع البياض، مزينًا بالكريستال. كانت توجد فوقها مخلوقات لا شكل لها معلقة بحبال، كانت تبدو وكأنها مصنوعة من اللباد. من ركن قريب كانت توجد سماعة كبيرة تصدر منها أصوات بعيدة لبوق، موسيقى جيدة المستوى، وكأنها موسيقا جابريلي، وكان التأثير الصوتي أرقى ذوقًا من ذلك البصري بكل تأكيد. على اليمين جلس وجه نسائي آخر، ترتدي قماشًا مخمليًا قرمزيًا بحزام أبيض، وعلي رأسها تاج من اللوري، وبجوارها ميزان ذهبي. أخذ آلييه يشرح لنا الدلالات المختلفة، ولكنني في الحقيقة لم أعره انتباهي. كان يثير اهتمامي أكثر تعبير الكثير من المدعوين الذين كانوا يسيرون من تمثال إلى آخر بكل ورع وانفعال.

قلت لبيلبو: إنهم لا يختلفون كثيرًا عمن يذهبون إلى الهيكل ليروا العذراء السوداء في ردائها المطرز المغطى بالفضة. هل يعتقد الحجاج بأنها والدة المسيح بنفسها؟ بالطبع لا، ولكنهم لا يفكرون في العكس أيضًا. إنهم يستمتعون بالتشابه، فيرون العرض كأنه رؤيا، والرؤيا كأنها عرض.

قال بيلبو: أجل، ولكن السؤال ليس هو إذا كان الناس هنا أفضل من المسيحيين الذين يزورون الأضرحة، كنت أسأل نفسي: من نظن نحن في أنفسنا؟ بالنسبة إلينا "هملت" أكثر واقعية من حارس المبنى؟ هل لدي أي حق في أن أدينهم، أحكم عليهم، أنا الذي مازال يبحث عن مدام بوفاري ليؤدي معها مشهدًا عظيمًا؟

هز ديوتالليفي رأسه وقال لي في صوت منخفض إنه من الخطأ إعادة إنتاج صور للإلهيات، وإن هذه ليست إلا ظهورات للعجل الذهبي. ولكنه كان يستمتع بما يحدث.

إلا أن السيمياء كالعاهرة التقية، لها العديد من المشاق، ولكنها تحبط الجميع، ولا تمنح عطفها لأحد. فهي تحول المغرورين إلى مخبولين، الأغنياء إلى بؤساء، الفلاسفة إلى أغبياء والمخدوعين إلى مخادعين...

Tritemio, Annalium Hirsaugensium)
Tomus II, S. Gallo, 1699., 225)

فجأة سقطت القاعة في الظلام وأضيئت الجدران. أدركت أن ثلاث أرباع مساحة الجدار هي شاشة شبه دائرية توشك الصور أن تظهر فوقها. عندما ظهرت الصور أدركت أن جزءًا من السقف وجزءًا من الأرض مصنوعان من مادة عاكسة، كما الحال أيضًا لبعض الأدوات التي صدمتني لرخص ثمنها، بسبب الطريقة التي كانت تلمع بها: الأحجار الكريمة، الميزان، الدرع، بعض الأواني النحاسية. وجدنا أنفسنا وقد انغمسنا في محيط مائي حيث الصور تتضاعف وتتجزأ، وتنصهر مع ظلال الحضور. كانت الأرضية تعكس السقف، والسقف يعكس الأرضية، وكانا يعكسان معًا الأشكال التي تظهر على الشاشة. انتشرت مع الموسيقى في أرجاء القاعة عطور: في البداية ظهرت رائحة البخور الهندي، ثم روائح أخرى غير مميزة، بعضها كريه.

في البداية تحول الظلال حولنا إلى ظلام حالك، ثم سمعنا صوت دمدمة، أصوات حمم بركانية، ثم أصبحنا في فوهة البركان، حيث كانت هناك مواد سوداء ورفيعة تتطاير حولنا أسفل الأضواء الصفراء والزرقاء.

ارتفعت أبخرة وردية اللون، وانخفضت مرة أخرى متكاثفة كحبات الندى أو المطر، ثم انتشرت رائحة كرائحة الأرض المخصبة، رائحة عفن. كنت أتنفس رائحة الموت، الرواسب، الظلام، انتشر حولي سائل سام يسيل بين ألسنة من السماد، حمص، فحم متروب، طين، دخان، فضلات، رغاوي، بترول، وأصبح الأسود أكثر قتامة من السواد ثم شحب قليلاً ليسمح بظهور اثنين من الزواحف، أحدهما أزرق فاتح والآخر يميل إلى الحمرة، كانا متعلقين في نوع من العناق، كل منهما يعقر ذيل الآخر، ليكونا بذلك شكلاً دائريًا.

كنت كمن شرب كحولاً أكثر مما ينبغي، لم أعد أرى رفاقي، اختفوا هم أيضًا في الظلام، ولم أستطع التعرف على الوجوه التي كانت تتحرك بجواري، وكانت كأنها أشكال غير مركبة وسائلة... عندئذ شعرت بيد تمسكني. أعرف أن هذا لم يكن حقيقيًا، إلا أنني لحظتها لم أجرؤ على الالتفات حتى لا أكتشف أنني أخدع نفسي. ولكنني كنت أشعر برائحة لورينزا، فقط في هذه اللحظة أدركت كم كنت أشتهيها. لابد وأنها كانت لورينزا. كانت هناك، تستكمل ذلك الحوار الذي بدأته بالحفيف، حفيف أظافرها على باب حجرتي، ذلك الحوار الذي لم تستكمله في الليلة السابقة. شعرت وكأن الكبريت والزئبق اجتمعا معا لمنحي شعورًا بالدفء الرطب، تسبب في نبضات حانية بين فخذي.

كنت أتوقع الريبيس، الثنائي الجنسية، الملح الفلسفي، تتويج أعمال الأبيض. كنت أبدو كمن يعرف كل شيء. بدا وكأن كل قراءاتي في الأشهر الماضية قد بدأت في الصعود إلى سطح ذهني، أو ربما كانت لورينزا تنقل إلى المعرفة بلمسة يدها. كان كفها رطبًا بالعرق.

فوجئت بأنني بدأت أهمس بأسماء غامضة، أسماء منحها الفلاسفة للأبيض، ولكنني كنت بها ـ ربما ـ أنادي لورينزا بشوق، لا أعرف، ربما كنت أرددها فقط كصلاة تشفعية: الفرع الأبيض، الحمل النقي، الطريق، المياه المباركة، الزئبق النقي، الوهج الأصفر، عطارد، الدرع الواقي، الحائط، الوشاح، الكرز، الشمع، الحياة، كوميتز، إلكترون، الفرات، حواء، فادا، فافينوس، مؤسسة الفن، حجر جيفنيس الثمين، الماسة، زيباش، زيفا، الحجاب، النرجس، السوسن، الخنثة، اللقاح، الطبيعة الأساسية، المادة، لبن العذراء، الحجر الفريد، القمر الكامل، الأم، الزيت الحي، الخضار، البيض، النقطة، الجذر، ملح الطبيعة، أرض الألياف، تيفوس، الشعلة، البخار، نجمة المساء، الرياح، المتسلطة، زجاج فرعون، تبول الطفل، الطير الجارح، المشيمة، المادة المحللة، العبد الهارب، اليد اليسرى، بذرة المعادن، الروح، الوعاء، الرحيق، زيت الكبريت...

وفي الساحة! التي تحول لونها إلى الرمادي، بدأ يظهر أفقًا من الصخور والأشجار الجافة، والتي وراءها بدأت شمس سوداء في المغيب. ثم ظهر نورًا ووجوهًا مضيئة تلألأت في كل مكان، مسببة في تأثير متعدد الأشكال والألوان. الآن أصبحت الرائحة طقسية، تشبه رائحة الكنائس؛ بدأت أشعر بألم في رأسي، وكان هناك ثقل فوق جبيني،

وأخذت تترآى أمامي قاعة فخمة، تغطيها زينة ذهبية، ربما حفلة عرس، بها عريس كالأمير والعروس ترتدي الأبيض، ثم الملك المسن والملكة جالسة على العرش، وبجوارهما محارب، وملك آخر لون جلده داكن. أمام الملك كان يوجد مذبح صغير فوقه وضعوا كتابًا مغطى بالمخمل الأسود والضوء يتصاعد من شمعدان من العاج. بجوار الشمعدان كانت توجد كرة أرضية تدور، وساعة موضوعة فوق نافورة صغيرة من الكريستال، والتي منها يجري سائل لونه مثل لون الدم. فوق النافورة كان يوجد شيء يشبه الجمجمة، والتي من عينيها يبرز ثعبانًا أبيض...

كانت لورينزا تهمس لي بشيء في أذني. ولكنني لم أكن أسمع صوتها.

كان الثعبان يتحرك على إيقاع موسيقا حزينة وبطيئة. وكان الرهبان المسنون الآن يرتدون رداء أسود وأمامهم كانت توجد ستة نعوش مفتوحة. سُمعت بعض الأصوات العميقة لبوق بعيد، وظهر رجل متشح بالسواد يغطي به رأسه. في البداية، في طقس كهنوتي، وكأنه بالتصوير البطيء، والتي يقبلها الملك بفرح وديع، ويحني رأسه. يرفع الرجل ذو غطاء الرأس بلطة، نصل، ثم ظهر شق سريع في بندول، تضاعف تأثير النصل على كل الأسطح العاكسة، وأصبحت الرءوس التي تطايرت آلاف. بعد ذلك تتابعت الصور الواحدة تلو الأخرى، ولكنني كنت أعاني صعوبة في متابعة الحدث. أعتقد أنه رويدًا رويدًا قطعت رءوس كل الشخصيات، بما فيها الملك ذو الجلد الأسمر، ووضعت أجسادهم في الصناديق، تحولت الحجرة بأكملها إلى شاطئ بحر أو بحيرة، ورأين ست سفن ترسي، وضعت على متنها النعوش، ثم أبحرت السفن الست في البحر، واختفت في غياهب الليل. حدث هذا كله بينما البخور يتحرك في أشكال لولبية، بشكل ملموس، إلى دخان مكثف، وللحظة خفت أن أكون أنا أيضًا بين المحكوم عليهم. حولي أخذ الكثيرون يرددون: "العرس، العرس..."

فقدت اتصالي بلورينزا، وفقط عند هذه اللحظة التفت لكي أبحث عنها بين الظلال. تحولت الحجرة الآن إلى سرداب أو قبر فاخر، تضيء قبته عقيق أحمر عظيم الحجم.

في كل ركن نساء ترتدين رداء العذراء. تجمعن حول مرجل حجمه مثل حجم طابقين، موضوع في هيكل، قاعدته حجرية وأعمدة كتنور. ومن بين برجين توأمين ظهر أمبيقان يتفرغان بداخل إناء بيضوي، وبرج ثالث مركزي انتهى في نافورة...

كانت أجساد من قطعت رقابهم مرئية في قاعدة الهيكل. حملت إحدى النساء العذراوات صندوقًا وأخرجت منه شيئًا مستديرًا، والذي وضعته في مشكاة في منتصف البرج، وبدأت على الفور المياه تتدفق من قمة النافورة.

كان لدي من الوقت ما يسمح بتمييز هذا الشيء؛ كان رأس الملك الإفريقي، والتي احترقت مثل قطعة الخشب، فجعلت مياه النافورة تغلي. أبخرة، دخان، غرغرة..

في هذه المرة وضعت لورينزا يدها على عنقي، تربت عليه مثلما رأيتها تفعل مع بيلبو في السيارة.

أحضرت المرأة جسمًا بيضاويًا ذهبي اللون، أدارت مقبضًا في فرن وتسببت بالتالي في أن يسيل سائل أحمر ثقيل بداخل الشكل البيضاوي. ثم فُتح الشكل البيضاوي، ومكان السائل الأحمر ظهرت بيضة، كبيرة، جميلة، وبيضاء مثل الثلج. أخرجت المرأة البيضة ووضعتها على الأرض على كومة من الرمال الصفراء. انفتحت البيضة وخرج منها طائر، كان مازال غير متكامل ويغطيه الدم. ولكن، بمجرد أن سقاه دم المذبوح أمام أعيننا، أصبح جميلاً ومنيرًا.

عندئذ ذبحوا الطائر وحولوه إلى رماد على الهيكل الصغير. أخذ البعض منهم يحولون هذا الرماد إلى عجينة، ووضعوا العجينة النحيفة إلى قالبين، ووضعوهما في الفرن ليطهوهما، وهم يشعلون النيران بأنابيب. في النهاية فُتحت القوالب وظهر وجهان شاحبان ووسيمان، يكادان يكونان شفافين، لفتى وفتاة، لا تبلغ طول قامتيهما أكثر من أربعة أشبار، ناعمين ولهما أجساد الكائنات الحية، ولكن عيونهما مازالت زجاجية، معدنية. جلسا على وسادتين، أخذ رجل مسن يصب قطرات الدماء في فمهما.

وصلت مجموعة أخرى من النساء تحملن أبواقًا مزينة بتيجان خضراء، سلمن واحدة منها إلى الرجل المسن، والذي يضعه على شفتي المخلوقين المعلقين في سباتهما، نومهم الحيواني العذب، وأخذ ينقل روحًا إلى جسديهما... امتلأت الحجرة بالضوء: تحول الضوء إلى نصف ضوء، ثم إلى ظلام تقطعه شعاعات برتقالية. ظهر فجر ساطع عند سماع أصوات الأبواق، عالية ورنانة، وكان كل هذا مثل بريق المرجان. وعند هذه اللحظة فقدت لورينزا مرة أخرى، وأدركت أنني لن أعثر عليها قط.

تحول كل شيء إلى أحمر ملتهب، والذي تحول ببطء إلى أزرق وبنفسجي، وانطفأت الشاشة. وأصبح الألم في جبهتي غير محتمل.

قال آلييه بهدوء وهو بجانبي: السر العظيم، إعادة ولادة الرجل الجديد بالموت والألم. يجب أن أقول إنه عرض جيد، على الرغم مما يبدو من أن مذاق المجاز قد فقد دقة المراحل. ما رأيته لم يكن سوى عرض، ولكنه عرض يتحدث عن "شيء". ومضيفنا يقول إنه أنتج هذا "الشيء". هلم نذهب لنرى المعجزة التي أنجزها.

(٥٩)

وإذا تكاثرت تلك الوحوش، لابد وأن نصدق أن هذا عمل الطبيعة، حتى وإن اختلفوا عن الإنسان.

(Paracelsus, De Homunculis, in Operum Volumen Secundum, Genevae, De Tournes, 1658, p. 456) •

قادنا إلى الخارج، إلى الحديقة، وشعرت بتحسن على الفور. لم أجرؤ أن أسأل الآخرين إذا كانت لورينزا قد عادت بالفعل. كنت أحلم. ولكن بعد بضع خطوات دخلنا إلى بيت نباتات، ومرة أخرى تسببت لي الحرارة الشديدة في الدوار. بين النباتات، الاستوائية في معظمها، كانت توجد ستة أوان من الزجاج على شكل كمثري ـ أو دموع ـ مغلقة بإحكام بختم، مليئة بسائل أزرق شاحب. داخل كل إناء كانت تسبح كائنات أطوالها حوالي عشرين سنتيمترًا: تعرفنا على الملك ذي الشعر الرمادي، الملكة، الإفريقي، المحارب، والمراهقين المتوجان بالغار، أحدهما أزرق والأخرى وردية.... كانوا يتحركون في حركات سباحة رشيقة وكأن الماء بيئتهم الطبيعية.

كان من الصعب تحديد إذا كان الأمر يتعلق بنماذج مصنوعة من البلاستيك أو الشمع، أو إنها كائنات حية، وكان لون السائل الحلك نوعًا ما يجعل من المستحيل التمييز إذا كان النبض الخافت الذي يحي تلك الكائنات كان خداعًا نظريًا أم حقيقة.

قال آلييه: "يبدو أنها تنمو كل يوم، في كل صباح تُدفن الأواني في روث الخيل الطازج ، وهو مازال دافئًا، والتي تمنح الحرارة الضرورية للنمو. في الباراسيلسوس يوجد وصف يقول إن الهومونوكليس لابد وأن ينمو بداخل حرارة خيل. وتبعًا لما يراه مضيفنا، هذه المخلوقات (الهومونوكليس) تتحدث معه، تفضي إليه بأسرار، نبوات تامة. بعض منها كشفوا له بالفعل مقاييس هيكل سليمان، والبعض الآخر أسرى إليه بطرق إخراج الأرواح الشريرة... ولكن لابد وأن أعترف بأنني لم أسمعها تتحدث قط.

كانت وجوههم متحركة، وكان الملك ينظر للملكة بحنان.

ـ قال لي مضيفنا إنه في أحد الأيام وجد الشاب الأزرق وقد هرب بطريقة ما من سجنه، في محاولة لفتح ختم الشابة... ولكنه كان خارج بيئته، فلم يستطع التنفس، وأنقذوه في آخر لحظة، بأن أعادوه إلى سائله.

قال ديوتالليفي: هذا بشع، بالتأكيد لا أتمنى أن تكون لدي مسئولية كهذه، يجد فيها المرء نفسه وقد اضطر لأن يأخذ معه الأواني في كل مكان، والعثور على روث الخيل في كل مكان تذهب إليه. ماذا إذا قررت الذهاب في إجازة صيفية؟ هل تتركهم في هذه الحالة مع الحارس؟

اختتم آلييه حديثه: لكن ربما لا يكونون سوى صغار ديكارت، أو مخلوقات آلية.

قال جاراموند: ياللهول، يا دكتور آلييه، إنك تفتح أمامي عالمًا كاملاً جديدًا لي. لابد وأن نكون أكثر تواضعًا يا أصدقائي. توجد أشياء أكثر بكثير في السماء وعلى الأرض... ولكن، قبل كل شيء، فالحرب هي الحرب.

كان جاراموند مندهشًا، احتفظ ديوتاللیفي بتعبير فضول كلبي، أما بيلبو فلم يظهر أي شيء على الإطلاق.

ولأنزع كل شكوكي قلت له: من المؤسف أن لورينزا لم تأت، كانت ستحب هذا كثيرًا.

أجاب وهو متغيب: أجل.

إذن لم تحضر لورينزا.

تركت المجموعة وذهبت إلى داخل المبنى، عابرًا بين المجموعات المزدحمة. عبرت مائدة الطعام، شربت شيئًا باردًا، على الرغم من خوفي أن يكون بداخله مادة مخدرة. بحثت عن دورة المياه، لأغسل وجهي وعنقي بالماء البارد، فعلت ذلك بالفعل وشعرت بالتحسن مرة أخرى. ولكن وأثناء خروجي، رأيت سلمًا دائريًا وبدافع من فضولي لم أستطع أن أقاوم مغامرة جديدة. ربما، وعلى الرغم من أنني اعتقدت أنني تحسنت، فإنني كنت مازلت أبحث عن لورينزا.

الغبي المسكين! هل أنت أحمق إلى الحد الذي به تصدق بأننا سوف نعلمك على الملأ أعظم الأسرار وأهمها؟ أؤكد لك أن أي شخص حاول أن يدرس، تبعًا للمعنى العادي والحرفي للكلمات، ما كتبه الفلاسفة الهرمسيون، سرعان ما سيجد نفسه في غياهب المتاهة، والتي منها لن يستطيع الهروب قط، حيث لن يكون له خيط أريادن ليقوده إلى الخارج.

Artefio

انتهى بي السلم إلى قاعة أسفل مستوى الأرض، مضيئة إضاءة خافتة، بحوائط حجرية مثل تلك التي للنافورات في الحديقة الخارجية،. في أحد الأركان رأيت فتحة تشبه جرس البوق. سمعت أصواتًا آتية من بعيد. وعندما اقتربت، اسطعت تمييز الأصوات، حتى استطعت أن أسمع عبارات، واضحة ودقيقة، وكأنها تحولت إلى جواري. هل هي أذن ديونوسيوس!

من الواضح أن الأذن كانت متصلة بإحدى الحجرات العليا، ولابد أنها التقطت حوار من يجلس بالقرب من فتحتها.

سيدتي، دعيني أخبرك بشيء لم أخبره لأحد قط، أنا مُتعب... لقد اشتغلت الزنجفر والزئبق، استدعيت الأرواح، صنعت قطرات من أملاح الحديد ومن الجزيئات، إلا أنني لم أعثر بعد على الحجر. لقدت أعددت مياهًا قوية، مياهًا جارية، مياهًا حارقة، ولكن بلا فائدة. استخدمت قشر البيض والكبريت، الزاج والزرنيخ، ملح النشادر والمرو، القلويات وأكسيدات الصخور، نترات الصوديوم والصودا، ملح الخردل والبوتاس. صدقيني، لا تثقي بهم، تجنبي المعادن غير الكاملة، وإلا ستُخدعين، مثلما خُدعت أنا. لقد جربت كل شيء: الدماء والشعر، روح زحل والمركزيت، النحاس المحترق و زعفران مارس، صبغة الحديد والمرتك، والأنتيمون. كل هذا بلا فائدة. حاولت أيضًا أن أستخلصت الزيت والماء من الفضة، تكليس الفضة بالملح وبدونه، وباستخدام الماء الحي استخلصت الزيوت الآكلة. استخدمت اللبن والنبيذ، خثارة اللبن والحيوانات المنوية للنجوم التي سقطت على الأرض، مشيمة الأجنة، والرماد، حتى...

ـ حتى...؟

ـ سيدتي، لا يوجد شيء في هذا العالم يتطلب الحرص أكثر من الحقيقة. إن الإتيان بالحقيقة مثل استنزافها من قلب المرء..

ـ كفى، كفى، لقد جعلتني أشعر بكثير من الإثارة.

ـ لا أجرؤ على الاعتراف بأسراري إلا إليكِ. أنا لا مكان لي ولا زمان. أنا ما وراء الزمن والفضاء، أعيش وجودي الأبدي. يوجد أشخاص لم يعد لديهم ملائكتهم الحارسة: وأنا أحد هؤلاء....

ـ ولكن، لماذا أحضرتني إلى هنا؟

صوت آخر: بالسامو العزيز! أما زلت تلعب بخرافة الأبدية؟

ـ أيها الأحمق، الأبدية ليست خرافة، إنها واقع.

كنت على وشك الانصراف فلقد شعرت بالملل من هذا الحوار، عندما سمعت صوت سالون. كان يتحدث هامسًا، بتوتر وكأنه ممسك بشخص من ذراعه، تعرفت على صوت الشخص الآخر أيضًا، كان بيار.

كان صالون يقول: مهلك! لا تقل لي إنك أنت أيضًا هنا من أجل جنون السيمياء هذا. ولا تقل لي إنك قد أتيت لتستمتع بالهواء البارد في الحدائق. هل عرفت أنه بعد هايدلبرج قبل كاوس دعوة من ملك فرنسا ليشرف على تنظيف باريس؟

ـ الواجهات؟

ـ لم يكن مالرو. أعتقد أن الأمر كان يتعلق بالمجاري. أمر غريب، أليس كذلك؟ اخترع الرجل بساتين البرتقال والتفاح الرمزية للإمبراطوريات، ولكن كل ما كان يشغله هو أنفاق باريس. في تلك الفترات لم تكن في باريس شبكة مجاري. كانت مجموعة من القنوات القريبة من الأرض ومواسير مدفونة، ولم يكن أحد يعرف عنها الكثير. كان الرومان منذ بداية زمن الجمهورية يعرفون كل شيء عن كلواكا ماسيما، وبعد مرور ألف وخمسمائة عام في باريس، لم يكن أحد يعرف عما يحدث أسفل سطح الأرض بها. ويقبل دي كاوس دعوة الملك، لأنه أراد أن يعرف المزيد عنها. ماذا كان يريد أن يعرف؟ وبعد دي كاوس، جاء كولبير لينظف المواسير المغطاة، كانت هذه هي الذريعة، ولتلاحظ أننا في زمن القناع الحديدي ـ أرسل إلى هناك المحكوم عليهم، ولكن أخذوا في

السباحة في الفضلات وتبعوا التيار وصولاً إلى السين، ثم ابتعدوا في قارب، لأنه لم يستطع أحد أن يواجه تلك المخلوقات التي تلفها رائحة لا يمكن تحملها، والمحاطون بالذباب... عندئذ عين كولبير عساكر على مخارج المجاري المختلفة، فمات المساجين بعد أن اضطروا للبقاء بداخل المجاري. وفي خلال ثلاثة قرون استطاعوا في باريس أن يغطوا فقط ثلاث كيلومترات من المجاري. ولكن في القرن الثامن عشر قاموا بتغطية سبعة وعشرين كيلومترًا، تمامًا في عشية الثورة. ألا يعني هذا شيء لك؟؟

ـ آه، أنت تعرف، هذا...

ـ هناك أناس جدد صعدوا إلى السلطة يعرفون شيئًا مما لا يعرفه السابقون لهم. أرسل نابليون فرقًا من الرجال ليتقدموا في هذا الظلام، بين الفضلات الآدمية للمدينة الكبيرة. من كانت لديه منهم الشجاعة في التقدم عثر على أشياء كثيرة: خواتم، ذهب، أعقاد، جواهر، وأشياء لا يعلمها أحد سقطت من تلك الفتحات إلى تلك الممرات. منهم من كان لديه القدرة على ابتلاع ما يجده ليخرج فيما بعد ويصبح بعد تناوله دواء مليئًا من الأغنياء. واكتشفوا أيضًا أن العديد من المنازل كانت بها ممرات تقود مباشرة إلى المجاري.

ـ هذا إذن...

ـ لماذا يحدث ذلك في فترة كان الناس يفرغون فيها فضلاتهم بإلقائها من النوافذ؟ ولماذا كانت المجاري بها ممشى على جانبيها، وحلقات حديدية على الجدران للإمساك بها؟ إن هذه الممرات كانت المعادل لمناطق تجمعات الطبقة السفلى ـ والتي كانوا يطلقون عليهم اسم "العالم السفلي" ـ وإذا حضرت الشرطة كان بإمكانهم الهروب للصعود من مكان آخر.

ـ أساطير...

ـ هل تعتقد ذلك؟ من ذا الذي تحاول حمايته؟ في أيام حكم نابليون الثالث، أجبر البارون هيسمان، بواقع القانون، كل منازل باريس ببناء خزان مستقل، ثم ممرًا أسفل مستوى الأرض يؤدي إلى المجاري العامة... ممر ارتفاعه متران وثلاثون سنتيمترًا وعرضه مترًا وثلاثين سنتيمترًا. هل تفهم؟ كل منزل في باريس كان متصلاً بممرات سفلية تقود للمجاري. وهلى تعرف طول المجاري في باريس حاليًا؟ ألفي كيلومتر، وعلى مستويات مختلفة أو طبقات. وكل هذا بدأ مع ذلك الرجل الذي صمم الحدائق في هيدلبرج...

ـ وماذا يعني كل هذا؟؟

ـ أرى أنك لا ترغب في التحدث عن ذلك. أنت تعرف شيئًا ما ولا تود اطلاعي عليه؟

ـ أرجوك اتركني، الوقت متأخر، ولابد لي من الذهاب إلى اجتماع الآن.

ثم أصوات خطوات أقدام تبتعد.

لم أفهم ماذا كان هدف سالون. نظرت حولي، وأنا ضاغط بأذني على فتحة البوق، وشعرت بأنني أنا نفسي أسفل طبقة الأرض، وبدا لي أن فوهة هذه القناة السمعية ليست سوى بداية الهبوط إلى ممرات مظلمة تقود إلى مركز الأرض، ممرات حية لنيبيلنج. شعرت بالبرد. كنت على وشك الخروج عندما سمعت صوتًا آخر: هيا. نحن مستعدون لأن نبدأ في الحجرة السرية، استدعي الآخرين.

(٦١)

إن الفروة الذهبية يحميها تنين ذو ثلاثة رءوس، الرأس الأولى مشتقة من المياه، والثانية مشتقة من الأرض، والرأس الثالثة مشتقة من الهواء. لابد وأن تنتمي تلك الرءوس الثلاث إلى تنين قوي جدًا، والذي عليه افتراس كل التنانين الأخرى.

Jean d'Espagnet, Arcanum Hermeticae Philosophiae, Opus. 1623, 138)

عثرت على مجموعتي. قلت لآلييه إنني سمعت شخصًا ما يتحدث عن اجتماع ما.

قال آلييه: آه!! نحن إذن فضوليون! ولكنني أفهم هذا، بمجرد دخول العالم الغامض للهرمسية يرغب المرء بأن يعرف كل شيء كل الأسرار. حسنًا، في حدود علمي يوجد هذا المساء احتفالية انضمام تابع جديد في نظام الروزا كروتشي القديم والمقبول.

سأل جاراموند: هل يمكننا مشاهدة هذا؟

ـ لا يمكنك ذلك، ولا يجب أن تفعل ذلك، أو تحاول ذلك، ولكن لنفعل مثل أولئك الأشخاص المنتمين للأساطير اليونانية، والذين يشاهدون ما لا يجب مشاهدته ويواجهون غضب الآلهة. سأسمح لكم بأن تلقوا نظرة.

جعلنا نصعد على سلم إلى أن وصلنا إلى ممر مظلم، أبعد الستار الموضوع فوق نافذة مغلقة قليلاً فاستطعنا رؤية القاعة السفلية، والتي كانت تضيئها بعض المجامر المشتعلة. كانت الحوائط مغطاة بأزهار سوسن مطرزة على أقمشة دمشقية، وفي النهاية كان يوجد عرش موضوع أسفل قبة ذهبية. على أحد جانبي العرش كانت توجد الشمس والجانب الآخر كان يوجد القمر، مصنوعان من الورق المقوى أو من مادة بلاستيكية، كلاهما غير متقن الصناعة، ولكن مغلفان بالألومنيوم أو بعض الأوراق المعدنية، الذهبية والفضية بالطبع ولكنها فعّالة، إذ أن كل جزء لامع كان متقد بالفعل من أضواء المجامر. فوق القبة كانت تتدلى من السقف نجمة كبيرة مزينة بالأحجار الكريمة، أو الزجاج. كان السقف مغطى بالقماش الدمشقي الأزرق والمزين بنجوم ضخمة فضية.

أمام العرش كانت توجد مائدة طويلة مزينة بأشجار النخيل. كان هناك سيف موضوع فوقها، وبين العرش والمائدة وضع أسدًا محنطًا، مكشرًا عن أنيابه. يبدو أن

أحدهم وضع مصباحا أحمر بداخل الرأس حيث إن عينيه كانتا تلمعان وكان يبدو وأن رقبته تشع شرارًا. وفكرت أن هذا لابد من صنع السيد سالون، متذكرًا العملاء غريبي الأطوار الذين أشار إليهم في ذلك اليوم في منجم الفحم في ميونخ.

على المائدة كان يجلس برامانتي، يرتدي رداء كهنوتي قرمزي وفوقه آخر مطرز بالأخضر، فوقه كاب أبيض أطرافه ذهبية، وصليب لامع على صدره، بالإضافة إلى قبعة تشبه إلى حد كبير تاج الأسقف، مزينة بريش أبيض وأحمر. أمامه كان يجلس عشرون رجلاً مرتدين ملابس كهنوتية، ولكن ينقصها الرداء الفوقي. فوق صدورهم كانت توجد ميدالية ذهبية. تعرفت عليها: تذكرت لوحة تعود إلى عصر الإحياء، أنف هابسبرج الضخمة والحمل الغريب ذو الأقدام المتدلية، معلقًا من وسطه. فلقد زينوا أنفسهم بتقليد، مقبول، لنظام الفروة الذهبية.

كان برامانتي يتحدث، يداه مرفوعتان، وكأنه يتلو صلاة ما، وكان الآخرون يردون عليه من حين لآخر. ثم رفع برامانتي السيف، فأخرج الآخرون من عباءاتهم خناجر أو سكاكين ورقية ورفعوها عاليًا. عندئذ أسدل آلييه الستار. فلقد رأينا أكثر مما ينبغي.

ابتعدنا بخطوات شبيهة بخطوات بطل أفلام بينك بانثر (كما وصفنا ديوتالليفي، والذي تأثر بطريقة استثنائية بفساد العالم المعاصر) ووجدنا أنفسنا مرة أخرى في الحديقة، وقد انقطعت أنفاسنا.

كان جاراموند منفعلاً جدًا وسأل: ولكن هل هم ماسونيون؟

أجابه آلييه: وماذا يعني ماسوني؟ إنهم أعضاء نظام فرسان موحى به من الروزا كروتشي وبطريقة غير مباشرة من فرسان المعبد.

سأل جاراموند مرة أخرى: ولكن ما علاقة ذلك بالماسونيين؟

ـ إذا كان شيء مما رأيته مشترك مع الماسونية سيكون واقع أن طقس برامنتي هو أيضًا بدوره تسلية للسياسيين الإقليميين والرجال المحترفين. كان هذا هو الوضع منذ البداية: كانت الماسونية الحرة هي استثمار ضعيف لأسطورة فرسان المعبد. وما ترونه الآن هو تشويه التشويه. إلا أن هؤلاء الرجال المحترمين يأخذون هذا الموقف بجدية شديدة. للأسف، العالم يغلي الآن بمن هم أعضاء للروزا كروتشي وفرسان المعبد من عينة ممن رأيتموهم هذا المساء. لا يمكن أن يتوقع المرء أي كشف من هؤلاء، حتى وإن كان من بينهم يمكن العثور على تابع جدير بالثقة.

سأل بيلبو دون أي سخرية أو ازدراء وكأن السؤال يتعلق به شخصيا: ولكنك في نهاية الأمر تتردد على اجتماعاتهم. بمن فيهم تثق؟ أو بمن فيهم وثقت في يوم من الأيام؟

ـ لا أحد بالتأكيد. هل أبدو لك كشخص يثق في أحد؟ أتعامل معهم بموضوعية باردة، التفهم والاهتمام الذي يلاحظ به أحد اللاهوتيين حشد من نابولي يصرخ بإيمان في انتظار معجزة من القديس جينارو الحشد يشهد على إيمان، على احتياج عميق، واللاهوتي يتجول في وسط الناس التي يغطيها العرق واللعاب على أمل أن يلتقي بقديس مجهول، بشخص يحمل حقيقة أعظم، بشخص قادر على أن يلقي ضوءاً جديداً على أعظم الأسرار، سر الثالوث المقدس. ولكن الثالوت المقدس شيء، والقديس جينارو شيء آخر.

لم يكن في الإمكان استيعاب ما يقول. لم أعرف كيف يمكن أن أصف نزعته الهرمسية التشكيكية، أو النزعة الكلبية الطقسية، عدم الإيمان العظيم الذي قاده إلى الاعتراف بكرامة كل تلك الخرافات التي يحتقرها.

الأمر بسيط ـ كان يقول لبيلبو ـ إذا كان فرسان المعبد، الفرسان الحقيقيون، قد تركوا سراً وأسسوا نوعاً ما من الاستمرارية، إذن فمن الضروري البحث عنها، والبحث عنهم في الأماكن التي يمكنهم فيها أن يخفوا أنفسهم، ربما باختراع طقوس أو أساطير بهدف أن يتحركوا دون أن يلحظهم أحد، مثل السمك في الماء. ماذا تفعل الشرطة عندما ترغب في العثور على مجرم عتيق، العقل المدبر الشرير؟ إنهم يحفرون في الأعماق، في الحانات المشهورة المليئة بالعاهرات البسطاء اللاتي لن يدركن قط حجم الجرائم الكبيرة التي يمكن لهذا المجرم العبقري أن يرتكبها. ماذا يفعل إذن محرك الشر ليعين لنفسه أعوان جدد؟ أين يبحث عنهم ويعثر عليهم؟ إنه يتحرك في تلك الاجتماعات للمدمرين المزيفين، رفقاء الرحلة، والذين لن تكون لديهم الشجاعة قط ليصبحوا هم الشيء الحقيقي، ولكنهم يقلدون بلا خوف تصرفات مثلهم العليا. إن المرء يبحث عن النور المفقود في الحرائق، أو في تلك الغابات السفلية، حيث إنه بعد الحريق تستمر شعلة النيران أسفل الفروع، أو الطين الندي. وأي مكان أفضل ليختبئ فيه فارس المعبد الحقيقي إذا لم يكن بين حشد مكون من صور مشوهة منه؟؟

(٦٢)

نحن نعد المجتمع الدرويدي إذا كانت القابه وأهدافه دردية، أو إذا كانت تصرفاته موحى بها من النزعة الدرودية.

M. Raoult, Les druids, Les societies in-titiatiques celtes contemporaines, Paris, 1983, p.18

اقترب منتصف الليل وتبعًا لآلييه كان هذا موعد المفاجأة الثانية لهذه الأمسية. تركنا البساتين البلاطينية واستأنفنا رحلتنا بين الهضاب.

وبعد أن قدنا السيارة حوالي ثلاث أرباع ساعة طلب آلييه أن نترك السيارتين على حافة غابة. كان علينا عبور بعض الأحراش، كما قال، لنصل إلى بقعة بلا أشجار، ولم تكن هناك طرقات ولا مدقات.

استأنفنا السير، في صعود بسيط، في خطوات متثاقلة في الأحراش: لم تكن مبتلة، ولكن كانت أحذيتنا تتزحلق على الأوراق المتساقطة والجذور الموحلة. كان آلييه يضيء بطارية من حين لآخر ليميز الطرق المستخدمة، ولكن كان يطفأها على الفور، لأنه ـ كما قال ـ لابد ألا نُظهر وجودنا للمحتفلين. حاول ديوتالليفي في لحظة ما أن يعلق بشيء، لا أذكره جيد ، ربما ذكر ذات الرداء الأحمر، ولكن رجاه آلييه بتوتر أن يتوقف.

بينما كنا على وشك الخروج من السيارة، استمعنا إلى أصوات بعيدة. وأخيرًا وصلنا إلى أطراف بقعة بلا أشجار، والتي كانت تبدو بالفعل مضيئة بأضواء لمصابيح بعيدة، أو ربما أضواء نذور، تتأرجح على المستوى الأرضي، ضعيفة وفضية، وكأن هناك غازًا يحترق ببرودة كيميائية في فقاعات من الصابون، والتي كانت تنحدر فوق العشب. سألنا آلييه أن نتوقف في ذلك المكان، خلف الأحراش وأن ننتظر، دون أن يلحظنا أحد.

ـ بعد قليل ستصل الكاهنات، بل الدرويدزات. فالأمر يتعلق باستدعاء العذراء الكونية العظيمة ميكيل. القديس ميخائيل يمثل نسخة معدلة منها في التراث المسيحي، وليست مصادفة أن القديس ميخائيل ملاك، أي ثنائي الجنس، وبالتالي استطاع أن يحتل مكان آلهة نسائية...

تمتم ديوتالليفي: من أين أتين؟

ـ من أماكن متنوعة، من نورماندي ومن النرويج ومن أيرلندا... ولكن هذا الحدث فريد وهذه منطقة ملائمة لهذا الطقس.

قال جاراموند: لماذا؟

ـ لأن بعض الأماكن بها قوى سحرية أكثر من أخرى.

سأل جاراموند مرة أخرى: ولكن من هم.. في الحياة اليومية؟

ـ أشخاص عاديون: كاتبات آلة كاتبة، عاملات في التأمين، شاعرات. شخصيات يمكنك أن تقابلها غدًا دون أن تتعرف عليها.

ثم ظهر حشد صغير يقترب من الدخول في مركز البقعة الجرداء. أدركت أن تلك الأضواء الباردة التي رأيتها كانت مصابيح صغيرة تمسكها الكاهنات في أيديهن، وكانت تبدو لي في خط العشب، لأن البقعة الجرداء كانت فوق قمة هضمة. ومن بعيد رأيت في الظلام الدرويدزات واللاتي، بالصعود من الوادي، أخذت تظهرن على الهضبة، على أقصى هامش للسهل. كانت ترتدين أردية كهنوتية بيضاء، والتي كانت ترفرف في الرياح الخفيفة. توزعن في دائرة، ووقفت ثلاثًا من المحتفلات في المنتصف.

قال آلييه: إنهن الهاللوينات الثلاثة لليسيو وكلوماكنوا ويبنو تورينيزي. سأل بيلبو ولماذا هن، هز آلييه كتفيه وقال: الهدوء، فلننتظر. لا أستطيع أن أختصر لكم في ثلاث كلمات الطقس والرتب الكهنوتية للسحر الشمالي. فلترضوا بما أخبركم به. إذا لم أزد عن ذلك فإما لأنني لا أعرف... أو لأنني لا أستطيع القول. لابد وأن أحترم بعض نذور السرية.

لاحظت في منتصف القطعة الجرداء تراكم بعض الأحجار، والتي كانت تستدعي بطريقة غريبة طريح الدولمن. ربما تم اختيار تلك البقعة بسبب وجود تلك الأحجار. صعدت إحدى المحتفلات على الدولمن ونفخت في بوق. كانت تبدو، أكثر مما رأيناه منذ ساعة مضت، جزء من مارشات النصر في أوبرا عايدة. ولكن ما ينتج هو صوت صافي وليلي، يبدو وكأنه آتٍ من بعيد جدًا. لمس بيلبو ذراعي: إنها موسيقا الرامسينجا، بوق قطاع الطرق بالقرب من شجرة التين المقدسة..

كان ردي قاسيًا، لم أدرك أنه كان يمزح بهدف أن يقمع أي تشبيهات أخرى، ولابد أنني غرست السكين في الجرح عندما قلت: بلا شك كانت ستصبح أقل سحرًا إذا استخدمنا البومباردون.

أومأ بيلبو وقال: بالطبع، إنهن هنا بالتحديد، لأنهن لا تردن البومباردون. والآن أتساءل إذا كانت تلك الأمسية هي التي بدأ فيها رؤية علاقة ما بين أحلامه وما كان يحدث له في تلك الأشهر.

لم يتابع آلييه حديثنا، ولكنه سمعنا نهمس فقال: الأمر لا يتعلق بتحذير ولا بنداء، إنه مرتبط بنوع من الأصوات فوق السمعية لبدء العلاقة مع الأمواج السفلية. انظروا، الآن ستمسك الكاهنات إحداهن بيد الأخرى في دائرة. يخلقن بذلك نوعًا من التراكم الحي ليجمعن ويركزن الذبذبات التيلورية. لابد وأن السحابة ستظهر الآن...

همست: أي سحابة؟

ـ تطلق عليها التقاليد السحابة الخضراء. انتظروا...

لم أكن أتوقع سحابة خضراء، ولكن، على الرغم من ذلك، فلقد تصاعد، تقريبًا على الفور، تصاعد شيء كالضباب من الأرض، كان يمكنني قول هذا إذا كانت متناسقة وضخمة، ولكنها كانت مكونة من رقائق، والتي كانت تتجمع في نقطة ما، ثم عندما حركتها الرياح، ارتفعت كنفخات مثل غزل البنات. ثم تحركت مع الهواء إلى مكان آخر في الخلاء حيث تجمعت. تسببت في تأثير فريد، لوهلة كان يمكن رؤية الخلفية من الأشجار الخضراء، ثم تختفي في دخان أبيض، بينما تتكاثف الأدخنة في المركز وتعوق رؤيتنا أكثر لما يحدث، بينما ضوء القمر يتلألأ أمام المنطقة المحاطة. انتقلت سحابة الرقائق فجأة وبلا توقع، وكأنها تطيع الرغبة المفاجئة لرياح متقلبة المزاج.

فكرت في أن الأمر ليس إلا خدعة كيميائية، ولكن عندئذ تأملت: كنا على ارتفاع ستمائة متر تقريبًا، وكان من الممكن أن تكون هذه سحابة حقيقية بالفعل. هل كان الطقس يتوقعها؟ تم استدعائها؟ أم أن الأمر لا يتعدى معرفة المحتفلات المسبقة من خلال حساباتهن بأنه على هذا الارتفاع، في ظروف معينة، يمكن تكوين تلك الأشكال البيضاء البخارية فوق سطح الأرض؟

كان من الصعب مقاومة سحر المشهد. فلقد اتحدت أردية الكاهنات البيضاء ببياض الدخان وبدت أشكالهن في خروجهن من ذلك الظلام الأبيض ودخولهن مرة أخرى وكأنهن خلقن منه.

في لحظة ما غطت السحابة مركز الروض الصغير كله. بعض خيوط الدخان ارتفعت وتفرقت وكادت تخفي القمر، ولمن كانت البقعة العارية مازالت لامعة في أطرافها. رأينا إحدى الدرويذات تأتي من السحابة وتجري تجاه الغابة وهي تصرخ، وذراعاها ممتدان أمامها. اعتقدت أنها اكتشفتنا وأخذت تلقي بلعناتها علينا. ولكنها توقفت قبل موقعنا ببضعة أمتار، غيرت اتجاهها وبدأت تجري في دوائر حول السحابة، مختفية في الأبيض المكثف على اليسار لتعود وتظهر بعد بضع دقائق من اليمين. كانت مرة أخرى قريبة جدًا منا واستطعت رؤية وجهها. كانت تبدو كالساحرة بأنف يبدو كأنف دانتي، يعتلي فمًا رفيعًا مثل الندبة، والذي يفتح كزهرة نبات بحري، لا أسنان لها فيما عدا اثنين من القواطع وضرس غير متناسق. كانت عيناها مراوغتين، مثل عيني الصقر، تخترقان. سمعت، أو اعتقدت أنني سمعت، وأتذكر الآن أنني سمعت بالفعل، ولكن ربما أكون مثقلاً بكثير من الذكريات ـ سلسلة من كلمات باللغة الغالية، كلمات مختلطة مع استدعاء شيء باللاتينية. فجأة ارتفعت السحابة واختفت وأصبحت القطعة الجرداء واضحة من جديد، ورأيت أنه قد غزاها قطيع من الخنازير، وكانت أعناقهن الصغيرة محاطة بحلقات من التفاح الأخضر. كانت الكاهنة الدرويذية التي نفخت البوق مازلت تقف فوق الدولمن، ولكنها الآن تسن سكينًا.

قال آلييه بحدة: يجب أن نرحل الآن. انتهى الأمر.

أدركت وأنا أسمعه أن السحابة أصبحت فوقنا وحولنا. وكان يصعب علي رؤية رفاقي.

قال جاراموند ماذا تعني انتهى، يبدو لي أن الاشياء الحقيقية على وشك أن تبدأ.

ما كان مسموحًا لنا رؤيته قد انتهى. الآن غير مسموح برؤية المزيد. لابد لنا وأن نحترم الطقس. هيا بنا.

دخل مرة أخرى إلى الغابة وسرعان ما ابتلعه الضباب الذي أحاط بنا. كنا نرتعش أثناء تحركنا، نتزحلق فوق الأوراق الميتة، نلهث، نسير في فوضى مثل جيش هارب، وتجمعنا أمام الطريق.

كان يمكننا أن نصل إلى ميلانو في أقل من ساعتين. وقبل أن يعود إلى سيارة جاراموند ودعنا آلييه قائلاً: لابد أن تغفروا لي أنني قطعت العرض عليكم. أردت فقط أن تعرفوا شيئا، وأن تروا الأشخاص الذين يدور عملكم حولهم هذه الفترة. ولكن لم يكن في الإمكان البقاء أكثر من ذلك. عندما أخبرت عن الحدث وعدت بأنني لن أزعج الطقس الاحتفالي. وكان الاستمرار في الوقوف هناك سيتسبب في تأثير سلبي على ما سيلي

فسأله بيلبو: ماذا عن الخنازير؟ ماذا سيحدث لها؟

ـ لقد أخبرتك بما أستطيع بالفعل.

(٦٣)

ـ بماذا تذكرك هذه السمكة؟

ـ بأسماك اخرى.

ـ وبماذا تُذكرك الأسماء الأخرى؟

ـ بأسماك أخرى.

Joseph Heller, Catch 22, New York, Simon & Schuster, 1961, xxvii

عدت من بيمونتي وأنا أشعر بالذنب، ولكنني بمجرد أن رأيت ليا مرة أخرى نسيت الرغبات التي راودتني.

إلا أن تلك الرحلة الاستطلاعية تركت أثارًا أخرى علي، والآن أشعر بالتوتر: كيف لم أضطرب بسبب تلك التاثيرات آنذاك. كنت أعمل على أن أقوم بالترتيب النهائي للكتاب، فصل وراء آخر، وصور تاريخ المعادن، ولم أستطع أن أنزع عن نفسي شيطان التشابهات، كما سبق وحدث لي في ريو. ماذا كان الفارق بين الفرن الأسطواني الذي اخترعه رايمير عام ١٧٥٠ وبين تلك الحجرة الساخنة التي تعمل كحاضنات للبيض، وفرن الأثانور الكيميائي للقرن الثامن عشر، وبين بطن الأم، ذلك الرحم المظلم، والذي يحتضن مخلوقات الله التي لا يعرف سوى هو معادنها. وكأنهم أسسوا المتحف الألماني في قصر بيومونتي الذي زرته في الأسبوع السابق.

وأصبح عسير علي أن أفصل بين عالم السحر وما نطلق عليه نحن اليوم عالم الوقائع. عثرت على شخصيات كنت قد درست في المدرسة أنهم حاملو التنوير في الرياضيات والفيزياء، وقد اتضح الآن وجودهم في وسط سحابة المعتقدات الخرافية، حيث اكتشفت أنهم كانوا يعملون بينما إحدى قدميهما في القبالاة والأخرى في المعمل. أم أنني أنا الذي يقوم بإعادة قراءة التاريخ من خلال أعين عبدة الشيطان؟ ولكنني عندئذ أجد نفسي وقد عثرت على نصوص، بعيدة عن أي شكوك، تطلعني كيف أنه في فترة النزعة الإيجابية، مارس الفيزيائيون، بمجرد تخرجهم من الجامعة، جلسات الوساطة والدراسات في علم النجوم. وكيف أن نيوتن وصل إلى قانون الجاذبية، لأنه كان يعتقد في وجود قوى سحرية خفية، والتي استدعت بحثه في علم الكون للروزا كروتشي.

اعتقدت طوال عمري أن الشك هو واجب علمي، ولكنني الآن أشعر بالشك في الأساتذة أنفسهم الذين علموني أن أشك.

قلت لنفسي: إنني مثل أمبارو، لا أعتقد في تلك الأشياء، ولكنني مع ذلك استسلم لها. وأفاجئ نفسي وأنا أتأمل في واقع أن الهرم الكبير كان بالفعل يقع على بعد واحد على مليار من المسافة بين الأرض والشمس، وأنه بالفعل يمكن للمرء أن يرسم توازيات مدهشة بين الأساطير الكلتية والأميرندية. وبدأت أتساءل عن كل ما يحيط بي: المنازل، علامات المتاجر، السحب في السماء، والنقوش الموجودة في المكتبات سائلاً إياها لا أن تخبرني عن قصتها السطحية، بل عن قصتها العميقة، والتي كانت بالتأكيد تخبأها ـ والتي ستكشفها أخيرًا بفضل مبدأ التشابهات الغامضة.

وأنقذتني ليا. على الأقل بصورة مؤقتة.

أخبرتها بكل شيء، تقريبًا، عن زيارتي إلى بيومونتي، وكنت أعود أمسية بعد الأخرى إلى المنزل بأخبار جديدة مثيرة لأضيفها في ملفات مراجعي. كانت هي تعلق: حاول أن تأكل، لقد أصبحت نحيفًا كالمسمار. في مساء أحد الأيام جلست بجوار مكتبي، وشعرها مفروق من النصف، لتتمكن من النظر مباشرة إلى عيني. وضعت يديها على حجرها، بطريقة ربات البيوت. لم أرها قط تجلس بهذه الطريقة، ساقاها متباعدتان وتنورتها مشدودة بين ركبتيها. فكرت في أنه وضع غير أنيق، ولكنني عندئذ نظرت إلى وجهها كان مشعًا، تغطيه بعض الحمرة. استمعت إليها ـ وعلى الرغم من أنني لم أعرف لماذا ـ بكل احترام.

قالت لي: بيم! لا يعجبني الطريقة التي تعيش بها حكاية مانوتزيو. في البداية كنت تجمع الوقائع مثلما يجمع المرء القواقع، ولكنك تبدو الآن، وكأنك تجمع أوراق اليانصيب.

ـ فقط لأنني أستمتع وأتسلى أكثر معهم الآن.

ـ إنك لا تتسلى بل أصبحت شغوفًا بالشيء، وهذا شيء مختلف. احترس فقد يمرضونك.

لا تبالغي الآن. فهم المرضى لست أنا. ولا يمرض المرء، لأنه يعمل ممرضًا في مستشفى الأمراض العقلية.

ـ إنه شيء لابد من إثباته.

ـ أنت تعرفين، فطالما كنت مرتابًا من التشابهات، ولكنني الآن أجد نفسي في احتفالية من التشابهات، في جزيرة كوني، الأول من مايو في موسكو، اليوبيل الذهبي للمقارنات، وبدأت أتساءل بالفعل إذا كان هناك سبب لهذا.

قالت لي ليا: بيم! لقد اطلعت على كروت أبحاثك بحكم ترتيبي لها. إن كل شيء اكتشفه عبدة الشياطين موجودًا بالفعل هنا: انظر جيدًا. ثم ربتت على بطنها وفخذيها وجبهتها. وكانت تبدو وهي جالسة هكذا وتنورتها مشدودة على قدميها، وكأنها ممرضة توليد، قوية وممتلئة بالصحة ـ وهي النحيفة جدًا والمرنة ـ حيث كانت الحكمة الهادئة تنير ما بها من سلطة أموية.

ـ بيم، لا وجود لنماذج أصلية: يوجد الجسد. ما بداخل البطن جميل لأنه هناك ينمو الطفل، لأن هناك يدخل عضوك فرحًا، لأن هناك ينزل الطعام الشهي المذاق، وبالتالي وجود الكهوف والمغارات جميل ومهم أيضًا، الأنفاق والمتاهات أيضًا جميلة ومهمة لأنها تشبه أمعاءنا، وعندما يرغب أحدهم في اختراع شيء مهم فهو يستحضره من هنا. لأنك أنت أيضًا أتيت من هنا اليوم الذي فيه وُلدت، ولأن الخصوبة عادة ما تأتي من داخل جوف ما، حيث لابد لشيء ما أن يفسد، ثم يخرج من جديد: رجل صغير، بلحة، شجرة باوباب.

ولكن الأعلى أفضل من الأسفل، لأنك لو كانت رأسك إلى أسفل سيذهب الدم إلى مخك، ولأن القدم رائحتها أحيانًا تكون غير مستحبة، بينما لا ينطبق الشيء نفسه على الشعر، لأنه من الأفضل أن تصعد فوق الشجرة وتجمع الفاكهة من أن ينتهي بك الأمر أسفل الأرض طعامًا للدود، لأنه من النادر أن تؤذي نفسك وأنت تتطلع إلى أعلى (إلا إذا كنت من أعداء الشمس)، وعادة ما نؤلم أنفسنا إذا سقطنا أرضًا، وهذا هو السبب في واقع أن الأعلى ملائكي، بينما الأسفل شيطاني. ولكن نظرًا لأن ما سبق وقلته عن بطني هو أيضًا حقيقي فإن الشيئين حقيقيان. فالأسفل والداخل جميل من جهة ما، بينما الأعلى والخارج جميل من جهة أخرى، ولا دخل لروح عطارد ولا للتناقض الكوني في ذلك. إن النيران تدفئنا والبرد يتسبب لنا في التهاب رئوي، وخاصة إذا كنت عالمًا من أربعة آلاف عام مضت، إذن فالنيران لها فضائل غامضة، وأيضًا لأنها تطهو لك الدجاج. ولكن من جهة أخرى تحفظ لك البرودة الدجاجة من الفساد وتتسبب لك

النيران إذا لمستها في قرح كبير جداً. إذا فكرت في شيء يحفظنا منذ آلاف السنين، مثل الحكمة، لابد أن تفكر فيها فوق جبل، في أعلى (وقد رأينا أن هذا حسن)، ولكن أيضًا في كهف (والذي هو حسن أيضًا)، وفي البرودة الأزلية لكهوف التبت (وهو أمر حسن جداً). وإذا أردت بعد ذلك أن تعرف لماذا أتت الحكمة من الشرق وليس من جبال الألب السويسرية، فإن السبب هو أن جسد أجدادك في الصباح، عندما كانوا يستيقظون في الظلام كان يتطلع إلى الشرق آملين في أن تشرق الشمس وألا تمطر السماء.

ـ أجل يا أمي.

ـ إن الأمر كذلك بالفعل يا صغيري. إن الشمس جميلة لأنها تخدم الجسم، ولأنها تشرق في كل صباح، وبالتالي فكل ما يحيط بها جميل أيضًا، ولذلك فكل ما يعود جميل، وليس ما يمر ويعبر وينتهي أمره. إن أسهل الطرق للعودة إلى نقطة البداية دون السير مرة أخرى على الطريق نفسه، هو أن نسير في دائرة. ونظرًا لأن الحيوان الذي يزحف في دوائر هو الثعبان نجد كثير من العبادات والأساطير عن الثعبان، لأنه من الصعب تمثيل عودة الشمس بأن ندحرج خرتيت. بالإضافة إلى أنه إذا أردت أن تقيم احتفالية لاستدعاء الشمس فلابد أن تتحرك في دوائر، لأنك إذا تحركت في خط مستقيم ستبتعد عن المنزل ولابد للاحتفالية أن تكون وجيزة جداً، من جهة أخرى فالدائرة هي التركيب الأكثر سهولة للطقس، ويعرف هذا أيضًا من يأكلون النيران في الميادين، لأن الجميع يرون في دوائر بالطريقة نفسها لمن يقف بداخل الدائرة، بينما إذا وقفت قبيلة بأكلمها في صفوف مثل فرقة من الجنود لن يرى من في الصفوف الأخيرة شيئًا، ولذلك فالدائرة وحركة الدوار والعودة الدورية هي أشياء أساسية في أي عبادة أو طقس.

ـ بالفعل يا أمي.

ـ بالتأكيد. والآن لننتقل إلى الأرقام السحرية، والتي تعجب مؤلفيك كثيرًا. إنك واحد ولست اثنين، ذكرك واحد وأنوثتي واحدة أيضًا، واحد هو الأنف والقلب، وكثير من الأشياء الأخرى المهمة. اثنان هما العينان، الأذنان، المنخران، ثدياي وخصيتاك، القدمان والذراعان، والردفان. رقم ثلاثة هو أكثرهم سحرًا لأن جسدنا لا يعرفه، ليس لدينا أي شيء مكون من ثلاثة. لابد وأن يكون رقمًا غامضًا للغاية فنعهد به إلى الرب،

في أي مكان نسكنه. ولكن إذا فكرت جيدًا فإذا كنت أنت تملك ذكرًا واحدًا، إذا اتحد مع أنوثتي ـ اصمت ولا تمزح الآن ـ إذا وضعنا الشيئين معًا سينتج شيئًا آخر وسنصبح بالتالي ثلاثة. هل يلزم إذن أستاذ جامعي ليكتشف أن كل الشعوب لديها تركيبات ثلاثية، ثالوث وأشياء من هذا القبيل؟ ولكن الديانات لم تنتج عن الحاسوب، كانوا جميعهم شخصيات عادية، يعيشون حياة عادية، وبالتالي فكل تلك التركيبات ليست شيئًا غامضًا. إنها ليست سوى رواية ما تفعله أنت، ما يفعلونه هم أيضًا. ذراعان وقدمان مجموعهم أربعة، ولهذا رقم أربعة رقم جميل يكفي أن نفكر في الحيوانات وأقدامها الأربعة، والأطفال التي تزحف على أربعة، كما كان يعلم أبو الهول. خمسة، دعنا لا نتحدث عنه فهو رقم أصابع اليد، ويدان معًا ينتج عنهما عشرة وهو رقم مقدس آخر، وبالتالي الوصايا أيضًا عشرة، إذا كانت اثنتي عشرة، مثلاً، عندما يبدأ الكاهن ويقول واحد، اثنان، ثلاثة ويظهر أصابعه وعندما يصل إلى الوصيتين الأخيرتين يقترض أصابع الشماس الواقف بجواره. والآن لتنظر إلى الجسد وإلى كل الأشياء البارزة من الجذع: الذراعين والقدمين، الرأس والعضو الذكري بالنسبة للرجال، عددهم ستة وبالنسبة للنساء عددهم سبعة. أعتقد أنه لهذا السبب لم يتناول مؤلفوك العدد ستة بأي نوع من الجدية، فيما عدا واقع أنه حصيلة ضرب مضاعف الرقم ثلاثة. لأنه لا يصلح فقط إلا للرجال الذين ليس لديهم سبعة، وعندما يتحكمون هم في الأمور يفضلون رؤيته كرقم مقدس، متناسين أن الثديين أيضًا بارزان. ولكن لا بأس. رقم ثمانية... يا إلهي! ليس لدينا ثمانية... لا، انتظر، إذا حسبنا الذراع والقدم باثنين نظرًا لوجود الكوع والركبة، سيصبح لدينا ثمان عظام كبيرة طويلة تتأرجح خارج الجذع، وإذا أضفت الجذع لتلك الثمانية ستحصل على رقم تسعة، ثم أضف إليها الرأس سيصبح لديك الرقم عشرة. وبهذه الطريقة وبالدوران حول الجسد يمكنك الحصول على معاني للأرقام التي تريدها. فلتفكر في الثقوب.

ـ الثقوب؟؟

ـ كم من الثقوب في جسمك؟

أخذت أحصي ما لدي: عينان، منخاران، أذنان، فم، ثم فتحة الشرج: ثمانية.

ـ أرأيت؟ سبب آخر يجعل من ثمانية رقم جميل. ولكن أنا لدي تسعة! وبالتاسع يأتي العالم، ولهذا سصبح رقم تسعة أكثر قدسية من ثمانية. أتريد شرح تشبيهات أخرى

شائعة؟ أترغب في الحديث عن تشريح صخور المنهير التي يتحدث عنها كتابك دائمًا؟ إذا كنت تقف في الصباح وتستلقي في الليل، ألا يفعل عضوك الشيء نفسه، ألا يقف ليعمل ويستلقي ليستريح؟ إذن فالوضع الرأسي يرمز للحياة، وهو بذلك في علاقة مع الشمس، والمسلات ترتفع إلى أعلى مثل الأشجار، بينما الوضع الأفقي والليل هما النعاس وبالتالي الموت، والجميع يعشقون أحجار المنهير والأهرامات، العواميد، بينما لا يكن أحد الكثير من الإعجاب للشرفات أو قضيب القطار. هل سمعت من قبل عن عبادة قديمة تتعلق بالقضبان؟ أرأيت؟ وهذا أيضًا لأن جسدك لم يسمح لك بهذا، إذا عبدت حجرًا رأسيًا، وحتى وإن كان عددكم كبيرًا، يمكنكم جميعًا رؤيتها، ولكن الأمر ليس كذلك في حالة الأشياء الأفقية، فلا يراها إلا من يقف في الصف الأول، ويبدأ الآخرون في الدفع طالبين رؤيته أيضًا، وبالتالي لا يكون مشهدًا ممتعًا في احتفال سحري..."

ـ ولكن الأنهار...

ـ إن أهمية الأنهار لا تنبع من كونها أفقية، ولكن لأنها تحتوي على المياه، ولا تحتاج بالطبع لأن أشرح لك العلاقة بين المياه والجسد... في كل الأحوال جميعنا مصنوعون بهذه الطريقة، بهذا الجسد، جميعنا، ولهذا نستنتج الرموز نفسها حتى وإن كنا على مسافة آلاف الكيلومترات، لابد أن يتشابه كل شيء. ولهذا تجد أشخاصًا لديهم عقل في رأسهم، إذا أطلعهم أحد على فرن كيميائي، مغلق تمامًا ودافئ من الداخل، سيفكرون في رحم الأم والطفل بداخله، فقط أصدقاؤك عبدة الشيطان هم من سيذهب تفكيرهم إلى العذراء التي على وشك أن تلد ابنًا كإشارة إلى فرن الكيميائي. وهكذا قضوا آلاف السنين بحثًا عن رسالة، ولكن كل شيء موجود بالفعل هنا، يكفي فقط النظر إلى مرآة.

ـ إنك تنطقين دائمًا بالحق، إنك أنت مرآة نفسي، والتي أرى فيها نفسي من خلالك. الآن أريد أن أكتشف كل الأسرار القديمة للجسد.

احتفلنا في تلك الليلة بالاكتشافات الخاصة بالنماذج النمطية للجسد، لنعبر فيها عن حبنا.

وبينما بدأت أستسلم للنعاس، لمست ليا كتفي وقالت: نسيت أن أخبرك بأنني حبلى.

كان علي الإصغاء إلى ليا. كانت تتحدث بحكمة من يعرف الحياة. باقتحامنا أنفاق أجارثا في هرم الكشف عن إيزيس، دخلنا إلى جابوراه، سفيراة الرعب، اللحظة التي فيها أظهر الشر نفسه إلى العالم. ألم أترك نفسي للغواية، حتى ولو للحظة واحدة، بفكرة صوفيا؟ يقول موسى كوردوفيرو أن الجزء الأنثوي إلى اليسار واتجاهاته جميعًا من جابوراه... إلا إذا قام الذكر باستخدام تلك المعطيات ليزين بها عروسه، ليجعلها تنظر إلى اليمين، تجاه الخير. وبالتالي تبقى الرغبات في إطار الحدود. فيما عدا ذلك يصبح جابوراه القاضي، الظهور الأسود، عالم الشر.

لابد للمرء، لتهذيب الرغبة... ذلك الذي فعلته بالفعل في خيمة الأوبماندا، بأن عزفت الأجوجو، أن يتخذ دورًا فعالاً في العرض، وبالتالي هربت من الانجذاب. فعلت الأمر نفسه مع ليا: هذبت رغباتي لتكريم العروس، وتم بالفعل مكافأتي في حقوي، فلقد بوركت بذوري.

ولكنني لم أتمكن من المثابرة، كنت على وشك السقوط في إغواء جمال تفئيريت.

(٦)

Tiferet

تفئيريت

(٦٤)

إن الحلم بالسكن في مدينة جديدة، مجهولة يعني الموت الوشيك. في الواقع يسكن الموتى في مكان آخر. لا يعرفه أحد.

Gerolamo Cardano, Somniorum Synesiorum, Basilea, 1562, 1, 58

إذا كان جبوراة هو سفيراة الشر والخوف، فإن تفئيريت هو سفيراة الجمال والتناغم. كان ديوتالليفي يقول: إنه نور الفهم، شجرة الحياة والمتعة، الظهور المقدس. إنه ذلك الاتفاق بين القانون والحرية.

كان هذا العام بالنسبة إلينا هو عام المتعة، ذلك الانغماس السعيد في أعظم نص في الكون، والذي فيه احتفلنا بالاقتران بين التراث والآلة الكهربائية. كنا نُبدع ونستمتع بإبداعنا. كان هو العام الذي فيه اخترعنا الخطة.

كان عامًا سعيدًا بالنسبة لي على الأقل، بالتأكيد. كان حمل ليا يمر في سلام، بينما بدأت أعيش بلا تحفظات مادية بسبب عملي بين الجاراموند وشركتي؛ احتفظت بمكتبي في المصنع القديم في الضاحية، بينما أعدنا تجديد شقة ليا.

كانت المغامرة الرائعة للمعادن، قد أصبحت الآن بين يدي عمال المطبعة والمصححين، عندئذ خطرت للسيد جاراموند فكرته العبقرية: "التاريخ المصور للعلوم السحرية والغامضة"، من خلال استخدام المواد التي تصلنا من عبدة الشيطان، والإمكانات التي حصلتم عليها، بالإضافة إلى استشارة ذلك الرجل الفذ آلييه، في خلال عام واحد يمكننا أن نؤلف كتابًا ضخمًا، مكون من أربعمائة صفحة، مصور، وملون يجذب الأنظار. ويمكن أيضًا إعادة استخدام جزء من مواد الجرافيك التي استخدمناها في قصة المعادن؟

اعترضت: ولكن المادة مختلفة. ماذا يمكنني أن أفعل مثلاً بصورة سيكلوترون؟

ـ ماذا تفعل بها؟ استخدم الخيال يا كازاوبون، الخيال! ماذا يحدث في تلك الآلات الذرية، أو في تلك البوزيترونات الميجاترونيك، والتي لا أعرف اسمها؟؟ إن المادة تتحلل،

لتنظر على سبيل المثال إلى الجبن السويسري، ومنه يأتي الكوارك والثقوب السوداء، اليورانيوم الممخض! إنه السحر المتجسد، هيرمس والقرمز. على كل حال إن واجبك هو أن تعثر لي على الإجابة. هنا على اليسار حفرية بالشيلسو، الساحر المسن ممسك بإمبيقاته، فوق خلفية ذهبية، وفي اليمين الكوازارات وخلاطات المياه الثقيلة، المادة المضادة الجاذبة والكوكبية، إلخ إلخ. ألا ترون؟ إن الساحر الحقيقي ليس هو ذلك الشخص ذو العينين اللامعتين الذي لا يفهم شيئًا، إنه العالم الذي استطاع التغلغل في الأسرار الخفية للكون. فلتكتشفوا الأشياء المعجزية التي حولنا واجعلوهم يشكون أنه في جبل بالومار يعرفون أكثر مما يفصحون عنه....

ليشجعني رفع مكافأتي بطريقة معقولة. ألقيت بنفسي في محاولة اكتشاف منمنات الليبر سوليس Liber solis لتريزموسين، والموتيس ليبر Mutus Liber للكاتب ذي الاسم الحركي لولوس، ملأت ملفات بالنجوم الخماسية، بالسفيروت، بالأشجار والمجموعات الشمسية والطلاسم. كنت أزور أكثر الصالات وحدة في المكتبات، ابتعت العديد من الكتب من بائعي الكتب الذين كانوا يومًا ما يبيعون الثورة الثقافية.

أخذت أتحرك بين عبدة الشيطان في سهولة، وكأنني طبيب نفسي معجب بمرضاه، مستمتعًا بالنسيم المعطر القادم من المنتزهات القديمة إلى عيادته. بعد هذا بدأ يكتب صفحات عن الهذيان وصفحات أخرى، دون أن يعي أنه قد وقع في إغواء مرضاه، فهو يعتقد أنه قد أصبح فنانًا. وهكذا وُلدت فكرة الخطة.

انضم ديوتاليفي للعبة لأنها، بالنسبة إليه، كانت بمثابة صلاة. أما بالنسبة لجاكوبو بيلبو، كنت، أعتقد أنه مستمتع مثلي، ولكنني أدركت الآن فقط بأنه لم يكن يستمتع بها. كان قد انضم إليها وهو يشعر بتوتر وعصبية قاضمًا أظافره. أو ربما يكون قد لعب معنا على أمل أن يعثر على أحد العناوين المجهولة، المسرح المظلم الذي يشير إليه في ملف أطلق عليه اسم "حلم". لاهوت بديل عن ملاك لن يظهر قط.

اسم الملف: حلم

لا أعرف إذا كنت حلمت حلمًا بداخل الآخر، أم كانت أحلامًا متتابعة في الليلة نفسها، أو أنها تبدلت ليلة بعد أخرى.

أبحث عن امرأة، امرأة أعرفها، كانت لدي علاقة قوية بها، معها، ولكنني لا أعرف لماذا تركتها تخمد، كان خطئي، إذ أنني لم أظل على اتصال بها. يبدو لي شيئًا غير

مفهوم كيف مر كل هذا الوقت. أبحث بالتأكيد عنها، بل عنهن، فهي ليست امرأة واحدة، إنهن كثيرات، فقدتهن جميعًا بالطريقة نفسها، بسبب الإهمال ـ يتملكني الشك، لأن واحدة كانت ستكون كافية بالنسبة إلي، لأنني أعرف هذا: في فقداني إياها أفقد الكثير.

كقاعدة في حلمي لا يمكنني العثور ولا يمكنني التملك، لا أستطيع أن أفتح أجندتي لأجد رقم الهاتف الذي دونته، وحتى إذا استطعت أن أفتحه، أجد وكأنني أصبحت بعيد النظر، فلا يمكنني أن أقرأ الأسماء.

أعرف أين هي، ولكن لابد أنني لا أعرف أين هو المكان، ولكنني أعرف جيدًا كيف هو، أتذكر جيدًا سلمًا، مدخلاً، ومهبطًا. لا أهرع إلى المدينة بحثًا عن المكان، بل أتجمد في مكاني، يشلني الألم، أبحث في ذهني عن السبب الذي سمحت له ـ أو أردته ـ أن يبرد تلك العلاقة، السبب الذي لأجله فشلت في الذهاب إلى الميعاد الأخير. هاهي تنتظر مكالمة مني، أنا متأكد من ذلك. إذا فقط تذكرت اسمها. إنني أعرف تمامًا من هي. إلا أنني لا أستطيع أن أعيد بناء ملامحها.

أحيانًا في حالات نصف اليقظة التي تتبع الحلم أجد نفسي أصارع حلمي. حاول أن تتذكر ـ أقول لنفسي ـ إنك تعرف وتتذكر كل شيء، وأنهيت علاقاتك مع الجميع، أو ربما لم تبدأها قط. لا يوجد شيء لا تعرف مكانه، لا شيء.

يبقي الشك بأنني نسيت شيئًا، بأنني تركتها بين ثنيات الاستعجال، مثل من ينسى ورقة مالية أو تذكرة ذات تاريخ محدد في جيب صغير في السروال، أو لسترة قديمة، وفقط في لحظة محددة يدرك المرء بأن هذا كان أهم شيء، الشيء الوحيد والحاسم.

أصبح لدي صورة أوضح للمدينة. إنها باريس، وأنا على الضفة الشمالية، أعرف أنه بعبوري النهر سأجد نفسي في ميدان ربما بلاس دو فوسج... لا، مكان مفتوح أكثر، لأنه في نهايته يوجد شيء يشبه البرج. بعد أن عبرت الميدان، ودرت حول المعبد، وجدت طريقًا (توجد مكتبة قديمة على الناصية) ينعطف ناحية اليمين، في سلسلة من الأزقة، لابد وأنني في باريو جوتيكو في بارشلونا. يمكن الخروج على طريق متسع جدًا ومليء بالضوء، وهو على ذلك الطريق، وأتذكره بوضوح شديد، حيث إنه على يمينه، في نهاية حارة سد، يوجد مسرح.

لست متأكدًا ماذا يحدث في هذا المكان الممتع، لابد وأنه شيء فرح وماجن قليلا، ربما عروض تعرية (لهذا لا أجرؤ على طلب المزيد من المعلومات)، إلا أنني أعرف بأنني أرغب بالتأكيد في العودة، تملؤني الإثارة. ولكن لا فائدة، تجاه طريق شاتهام تتداخل الطرقات.

أستقيظ بمذاق ذلك اللقاء الفاشل. لا أستطيع الاستسلام بأنني لم أعرف ماذا فقدت.

الآن أنا في منزل كبير ريفي، المكان متسع، ولكنني أعرف أن هناك جناحًا آخر، ولكنني لم أعد أعرف كيف أصل إليه، وكأن الممرات قد سُدت جميعًا. في الجناح الآخر توجد حجرات كثيرة، رأيتها جيدًا في إحدى المرات، لا يمكن أن أكون حلمت بهذا في حلم آخر، بها أثاث قديم ولوحات محفورة شاحبة، حوامل عليها مسارح صغيرة من القرن التاسع عشر من الكارتون الأبيض، أرائك مغطاة بأغطية منقوشة، وأرفف عليها كتب كثيرة، كل أعداد سلسلة "الجريدة الملونة للرحلات وللمغامرات في الأرض وفي البحر"، ليس حقيقيًا بأنها قد تمزقت من القراءة الكثيرة وأن الأم أعطتها لجامع النفايات. أتساءل من الذي أريك الممرات والسلالم، هناك أردت أن أبني مكان عزلتي، بين تلك الروائح للنفايات الثمينة.

لماذا لا يمكنني أن أحلم بامتحان الثانوية العامة مثل الآخرين؟

كان تركيبًا من ستة أمتار مربعة، موضوعًا في منتصف القاعة: كانت الأسطح مكونة من مكعبات عديدة من الخشب، حجمها مثل حجم النرد، بعضها أكبر من الأخرى ومتصلة فيما بينما بخيوط رفيعة. على كل وجه من أوجه تلك المكعبات لُصق مربعًا من الأوراق، وعلى تلك الأوراق كانت توجد كل كلمات لغتهم، بكل تصريفاتها ومشتقاتها، وبلا أي نظام... يقوم كل تلميذ بدوره بالإمساك بواحد من المقابض الحديدية الأربعين والموضوعة حول الستار، وعليهم إدارتها دورة خفيفة، والعمل على تغيير ترتيب الكلمات. أمر الأستاذ إذن ستة وثلاثين من تلاميذه بأن يقرأوا بصوت منخفض السطور المختلفة، هكذا كما تظهر على الستار، أو حينما يعثرون على ثلاث أو أربع كلمات متتابعة يمكن أن تكون أحد أجزاء العبارة، عليهم أن يملوها إلى أربع تلاميذ آخرين...

(J.Swift, Gulliver's Travels, III, 5)

أعتقد أنه بإعادة التنغيم على حلم بيلبو، مرة أخرى، نعود إلى فكرة الفرصة الضائعة، ونذره بالتخلي، لأنه لم يعرف أن يستغل اللحظة المناسبة، إذا كانت جاءته. بدأت الخطة، لأنه استسلم ببناء لحظات خرافية.

كنت قد طلبت منه أحد النصوص، وأخذ هو يقلب ما فوق مائدته، ويبحث في كومة من المخطوطات موضوعة بطريقة خطيرة الواحد فوق الآخر، بلا اعتناء بالوزن أو بالحجم. وجد المخطوط الذي يبحث عنه وحاول أن يخرجه، مما تسبب في سقوط المخطوطات الأخرى على الأرض. انفتحت الملفات وهربت منها بعض الأوراق.

سألته: ألم يكن من الأفضل إبعاد النصف الأعلى قبل إخراجه؟، وكنت بذلك أضيع مجهودي: فهذا ما كان يفعله دائمًا.

أجابني، كما كان يفعل دائمًا: جودرون ستجمعها هذا المساء. لابد وأن تكون لها رسالة في حياتها، وإلا ستفقد هويتها.

ولكنني في هذه المرة كنت مهتمًا شخصيًا بسلامة المخطوطات، إذ أصبحت جزءًا من المؤسسة، فقلت: لن تتمكن جودرون من أن تجمعهم ثانيًا، ستضع الصفحات الخاطئة في الملفات الخاطئة.

ـ سيفرح ديوتالليفي كثيرًا إذا سمعك، طريقة جديدة لإنتاج كتب مختلفة، إلكترونية، عشوائية. إنه جزء من منطق عبدة الشيطان.

ـ ولكننا وجدنا أنفسنا في وضع القباليين: قضوا آلاف السنين ليكتشفوا التركيب الصحيح. إنك بكل بساطة تستخدم جودرون بدلاً من القرد الذي يقضي حياة أبدية

أمام الآلة الكاتبة. وفيما يتعلق بالتطور، فنحن لم نحرز أي تقدم. إلا إذا كان يوجد برنامج ما في أبو العافية يقوم بهذا العمل.

في هذه الأثناء وصل ديوتالليفي.

قال بيلبو: بالطبع يوجد، ونظريًا يمكن أن يكون لديك حوالي ألفي مدخل. المطلوب هو المعلومات والرغبة. لتأخذ الشعر على سبيل المثال. سيسألك البرنامج عن كم من السطور ترغب في قصيدتك، وأنت تقرر: عشرة، عشرين، مائة. ثم يبدأ البرنامج توزيع أرقام الأسطر عشوائيًا. بكلمات أخرى ترتيبًا جديدًا في كل مرة. بعشرة أسطر فقط يمكن أن يكون لديك الآلاف من القصائد العشوائية. بالأمس أدخلت أسطرًا من نوع: اهتزت أشجار الزيزفون، جفوني سميكة، إذا أرادت شجرة القطرس، ها أنا أمنحك حياتي، وعبارات أخرى مشابهة. وإليكم بعض النتائج:

أعد الليالي، عازفًا أجراس السيستروم

الموت، انتصارك،

الموت، انتصارك..

إذا أرادت شجرة القطرس...

من قلب الفجر (آه يا قلبي)

أنت أيها الزيزفون الشمالي

(إذا أرادت شجرة القطرس)

الموت، انتصارك...

اهتزت أشجار الزيزفون

أعد الليالي، عازفًا أجراس السيستروم

الآن يحدق فيّ الهدهد

اهتزت أشجار الزيزفون

يوجد تكرار، لم أستطع تجنبه، يبدو أن هذا يعقد البرنامج. ولكن يحمل التكرار أيضًا معنى إبداعيًا.

قال ديوتالليفي: شيء مثير، هذا يصالحني مع حاسوبك. إذن، إذا أنا وضعت بداخلها كل التوراة ثم قلت له ـ ماذا تسمي هذا ـ أن يختار عشوائيًا، هل سيصنع تاموراه حقيقية ويعيد تكوين آيات الكتاب؟

ـ بالتأكيد، ولكنها مسألة وقت. ربما استطعت الحصول على النتائج خلال بضعة قرون.

قلت: ولكن إذا أعطيناه بضعة اقتراحات مأخوذة من أعمال عبدة الشياطين، على سبيل المثال أن: فرسان المعبد هربوا إلى إسكتلندا، أو أن الجسد الهيرمسي وصل إلى فلورنسا عام ١٤٦٠، بالإضافة إلى بعض أدوات الربط مثل: من الواضح أن، وهذا يثبت أن، يمكننا الحصول على تتابعات كاشفة. ثم سنسد الثغرات وسنعتبر التكرار وكأنه نوبات، ثم سنجد أنفسنا وقد أصبح لدينا فصل لم يُنشر من قصة السحر، على الأقل!

قال بيلبو: فكرة رائعة، لنبدأ الآن على الفور.

ـ لا. إنها السابعة الآن، لنفعل هذا غدًا.

ـ سأبدأ هذه الليلة. ساعدني، فقط دقيقة واحدة. ألتقط مثلاً حوالي عشرين من تلك الصفحات الموضوعة على الأرض، وبعشوائية، أنظر إلى العبارة الأولى في كل منها، وستكون هي المعطيات.

انحنيت والتقطت الأوراق وبدأت أقرأ: يوسف الآرامي حمل الجرال إلى فرنسا.

ـ رائع... كتبتها.. استمر.

ـ تبعًا لما جاء في تراث فرسان المعبد جوديفري دي يويون أسس جماعي صهيون الكبيرة في أورشاليم. و ديبوسي كان أحد أتباع الروزا كروتشي.

قال ديوتالليفي: اسمحا لي، لابد من إدخال بعض المعلومات المحايدة، على سبيل المثال: تعيش الكوالا في أستراليا، أو اخترع بابين حلة الضغط.

ـ ميمي خطيبة ميكي ماوس.

ـ لابد ألا نبالغ في ذلك.

ـ بالعكس، لابد أن نبالغ. إذا اعترفنا أنه في الكون كله لا يوجد أي واقع لا يكشف عن غموض ما، نخترق بذلك أحد الأفكار الهيرمسية.

ـ هذا حقيقي. وسندخل ميمي إذن. سأضيف إحدى الحقائق البديهية: فرسان المعبد لهم علاقة بكل شيء.

وافق ديوتالليفي قائلاً: تدخل هذه العبارة بلا جدل.

استمررنا لفترة، ثم تأخر الوقت جداً. قال لنا بيلبو ألا نقلق، وأنه سيكمل بمفرده. عندما دخلت جودرون وقالت إنها ستغلق المكان، قال لها إنه سيمكث حيث إن لديه بعض العمل عليه إنجازه، وطلب منها أن ترفع الورق المطروح أرضاً. أصدرت جودرون بعض الأصوات التي كانت تنتمي إما للاتيني غير مصرف، أو شيرميش يعبر بالتأكيد عن الاستياء والرفض، مما يثبت التشابه الكوني لكل اللغات، والتي أتت جميعها من أصل واحد، آدم. أطاعت، وجمعتهم بعشوائية أفضل من أي حاسوب.

في صباح اليوم التالي كان بيلبو منتشياً. قال: لقد نجحت الفكرة، أفضل حتى مما تخيلنا.

ثم سلمنا الأوراق المطبوعة

فرسان المعبد لهم علاقة بكل شيء

ليس حقيقياً ما يتبع

صُلب يسوع على يد بيلاطس البنطي

أسس الحكيم أورموس الروزا كروتشي في مصر

يوجد قباليون في بروفانس

من تزوج في عرس قانا الجليل؟

ميمي هي خطيبة ميكي ماوس

وينتج عن ذلك أن

إذا

كان الدروديون يعبدون العذارى السود

عندئذ

الساحر سيمون يتماثل مع صوفيا في عاهرة تيرو

من تزوج في عرس قانا الجليل؟

يعلن الميروفنجيون أنفسهم ملوكًا بحق إلهي

فرسان المعبد لهم علاقة بكل شيء

قال ديوتالليفي: تركيب مضطرب بعض الشيء

- لأنك لا ترى الروابط بين الأشياء. ولا تمنح السؤال المتكرر الأهمية الواجبة: من تزوج في عرس قانا الجليل؟ إن التكرار مفتاح سحري. بالتأكيد ركبت أنا الأشياء، ولكن هذا من حقوق أعضاء الجماعات السرية. وإليكم التفسير الذي وصلت إليه: يسوع لم يُصلب، ولهذا ينكر فرسان المعبد المصلوب. إن أسطورة يوسف الآرامي تخفي سرًا أعمق: يسوع، وليس الجرال، ذهب إلى فرنسا، وانتهى به الأمر ليصبح مع قباليي بروفانس. ويسوع هو رمز ملك العالم، وهو مؤسس الروزا كروتشي. ومن ذهب إلى فرنسا معه؟ زوجته. في الإنجيل لماذا لم يخبرنا أحد من تزوج في عرس قانا الجليل؟ لأنه كان عرس يسوع، عُرس لا يمكن نقاشه، لأن العروس كانت خاطئة معروفة للجميع، مريم المجدلية. لهذا، ومنذ تلك اللحظة، يحاول جميع الإلوميناتي بدءًا من سيمون الساحر إلى موستيل البحث عن مبدأ الأنثوية الخالدة في المواخير. وفي الوقت ذاته كان يسوع هو مؤسس السلالة الملكية في فرنسا.

(٦٦)

إذا كان افتراضنا صحيح، كان الكأس المقدس (الجرال)... هو سلالة ونسل المسيح، الدم الملكي "Sang real" والذي كان فرسان المعبد حراسه... في الوقت نفسه، لابد وأن الكأس المقدس كانت، حرفيًا، الوعاء الذي تلقى واحتوى دم يسوع. بكلمات أخرى لابد وأن ذلك كان رحم مريم المجدلية.

M. Baigent, R. Leigh, H. Lincoln, The Holdy Blood and the Holy Grail, 1982, London, Cape, xiv

قال ديوتالليفي: لا أحد سيأخذ هذا الأمر مأخذ الجد.

قلت بتجهم: بالعكس، إنها فكرة يمكن أن تبيع حوالي مائة ألف نسخة. القصة كتبت من قبل، بتعديل طفيف، في كتاب عن غموض الجرال وأسرار ران لو شاتو. بدلاً من قراءة المخطوطات فقط، يمكنك أن تقرأ ما تطبعه دور النشر الأخرى.

قال ديوتالليفي: أيها السرافيم المقدس، إذن فهذه الآلة جاءت فقط بما نعرفه بالفعل.

ثم خرج مستاءً.

قال بيلبو في غيظ: ماذا يقول -إن فكرتي طرأت على فكر آخرين من قبل؟ وماذا عن هذا؟ إن هذا يعني تعدد الأصول الأدبية. سيقول السيد جاراموند إن هذا يعني أنني أقول الحقيقة. لابد أن الآخرين قضوا أعوامًا طويلة ليصلوا إلى هذا، في حين وصلت أنا وحاسوبي لحل المشكلة في أمسية واحدة.

ـ أنا موافق معك. الحاسوب مفيد. ولكنني أعتقد أن علينا أن نغذيه بمعطيات أكثر ليس مصدرها عبدة الشياطين. المشكلة ليست هي العثور على علاقات سرية بين ديبوسي وفرسان المعبد. فهذا ما يفعله الجميع. المشكلة هي العثور على علاقات سرية، على سبيل المثال، بين القبالاة وبين شموع السيارات.

كنت أقول ذلك مصادفة، ولكنني بذلك منحت لبيلبو فكرة. فلقد تحدث عن ذلك بعدها بثلاثة أيام.

ـ كنت على حق. إن أي واقع سيصبح مهمًا عندما يتصل بآخر. إن الصلة تُغير الرؤية، تقودك للتفكير بأن أي تفصيل في العالم، أي صوت، أي كلمة مكتوبة أو منطوقة لها أكثر من معناها الحرفي، والتي تبوح لنا بسر. القاعدة بسيطة: الشك، فقط الشك. يمكنك أن ترى ما وراء النصوص حتى في إشارة مرور تقول "اتجاه واحد".

ـ بالتأكيد النزعة الأخلاقية التطهيرية. رعب إعادة الإنتاج، إن الاتجاه ممنوع لأنها خدعة من الخالق المادي للكون. فليس هذا هو الاتجاه الذي يؤدي إلى "المسار".

ـ مساء أمس وجدت كتيب تعليمات للحصول على رخصة القيادة. ربما كان الأمر يعود إلى قلة الإضاءة، أو ما قلته لي، ولكنني بدأت أتخيل أن تلك الصفحات كانت تقول "شيئًا آخر". فلنفترض أن السيارة وُجدت فقط لتخدم كمجاز للخليقة؟ وإننا لا يجب أن نحد أنفسنا بما هو ظاهر، أو في الحقيقة السطحية لما نراه: لابد أن نتعلم أن نرى ما يراه الصانع فقط، ما يكمن أسفل الأشياء. ما يكمن في أسفل وما يكمن في أعلى. إن هذه هي شجرة السافيروت.

ـ لا تقل لي هذا.

ـ لا أقوله أنا، إنه الشيء نفسه هو ما يقول ذلك. إن مقود السيارة مثل جذع الشجرة. أحصى الأجزاء: المحرك، العجلتين الأماميتين، القابض، المحولات، المحورين، الترس العاكس، والعجلتين الخلفيتين. عشرة أجزاء، عشرة سفيروت.

ـ ولكن الأوضاع لا تتفق.

ـ من قال إنها لا تتفق؟ شرح لنا ديوتاليفي أن في بعض النسخ ليست تفئيريت السفيروت السادس، ولكنها السفيروت الثامن، بعد نتسيح وهود. إن شجرة المحور هي شجرة بيلبوث.

ـ فيات.

ـ دعنا نستكمل في حوار الشجرة. على قمتها يوجد المحرك، كلي الحركة، والذي منه فيما بعد: مصدر الخلق. المحرك يتصل مع طاقته الخالقة لواجهتي العجلات العليا: عجلة الذكاء وعجلة المعرفة.

ـ إذا كانت للعربة قوة دفع أمامية.

ـ إن الجميل في شجرة بيلبوث هو أنها تسمح ببدائل ميتافيزيقية. لدينا تخيل للكون الروحي بالدفع الأمامي، حيث المحرك الأمامي ينقل رغباته للعجلات العليا، بينما في النسخة المادية لدينا تخيل لكون منحدر، حيث الحركة يتم طباعتها من محرك أخير إلى العجلتين السفليتين: من الأعماق، فالفيض الكوني يُطلق القوة الأساسية للمادة.

ـ ماذا عن محرك ذي قوة دفع خلفية؟

ـ شيطاني. فهو الجمع بين الأعلى والأسفل. إن الإله يُعرف بحركة المادة الخام. الإله مثل التطلع الأبدي المعذب للألوهية. نتاج تكسر الأوعية.

ـ وليس تكسر شكمان السيارة؟

ـ يحدث هذا في الأكوان المهملة، حيث التنفس البغيض للأركون ينتشر عبر الأثير. لكننا لا يجب أن نيأس. وبعد المحرك والعجلتين يأتي القابض، سفيروت النعمة، والتي تقرر أو تفسر تدفق الحب الذي يربط باقي الشجرة في الطاقة العليا. إن الأسطوانة، هي ماندالا تربت على ماندالا أخرى. ثم يأتي صندوق السرعات ـ أو المحولات، كما يطلق عليه أصحاب النزعة الإيجابية، والذي هو أساس الشر، لأنه يسمح للإرادة الإنسانية لأن تسرع أو أن تبطئ عملية الانبثاق المستمرة. لهذا السبب فإن التحول الآلي يكلف أكثر، لأن هناك تقرر الشجرة نفسها، بالاتفاق مع توازنها الملكي. وهنا يأتي الرابط الكوني، المحور، الأسطوانة، الترس العاكس ـ لاحظ التضاد/التكرار الرباعي لأسطوانة المحرك لأن الترس العاكس (الكيثر الأصغر) ينقل الحركة للعجلات الأرضية. وها هي وظيفة سفيروت الاختلاف واضحة، مثلما في الشعور السامي بالجمال، إنها توزع القوى الكونية على عجلة المجد وعجلة النصر. والتي هي في كون مهمل (الدفع الأمامي) مساعدة للحركة المنطلقة للعجلات العليا".

ـ قراءة متماسكة. وماذا عن قلب المحرك، كرسي الواحد، التاج؟

ـ لا يحتاج لشيء سوى أن تنظر بعين المبتدئ. إن المحرك الأعظم يعيش بواسطة التحول في الداخل والخارج. تنفس إلهي مركب، دائرة مركزة مبدئيًا على وحدتين تدعيان أسطوانتين (نموذج نمطي هندسي)، والذي عندئذ يُنتج نموذجا ثالثا، وفي النهاية ينظران الواحد إلى الآخر نظرة حب متبادلة ويقدمان مجد الرابع. في دائرة الأسطوانة الأولى (لا أحد أول من الناحية الهيكلية، ولكن فقط من خلال التبادل

الإعجازي للأوضاع)، الكباس (إيتمولوجيا: كباس صوفيا) ينحدر من الوضع الحيادي الأعلى إلى الوضع الحيادي الأسفل أثناء امتلاء الأسطوانة بالطاقة في حالة النقاء. أنا أبسط الأمر، لأن الترتيب الهيكلي الملائكي يتدخل هنا، كبسولات الموزع، والتي، كما جاء في كتيب التعليمات: يسمح بفتح وإغلاق الفتحات التي تربط بين ما هو داخل الأسطوانة إلى الأنابيب الأولى ليقود إلى مخرج الهواء المكربن (الشكمان). إن المقعد الداخلي للمحرك يمكن أن يتصل مع باقي عالمه فقط من خلال الوساطة، وهنا أعتقد ـ لا أريد أن أطلق هرطقات ـ أن الحد الأصلي للواحد يتكشف، والذي، لكي يخلق، يعتمد بطريقة ما على القرص اللامركزي الأعظم. ويمكن أن نكون بحاجة لقراءة أقرب إلى النص هنا. تمتلئ الأسطوانة بالطاقة، يعود الكباس إلى الموضع الأعلى الحيادي ويحقق ضغطا أقصى ـ وهذا هو التسيمسوم القبالي، التضاد. عندئذ يمكن أن ندرك مجد نظرية الانفجار الأعظم، الانفجار والتوسع. يهتز الوميض، فيتوهج ويشتعل خليط من الوقود، والذي يطلق عليه الكتيب المرحلة النشطة الوحيدة للدورة. ويالكارثة إذا سقطت صدفة، في الوقود المختلط، الكيليبوت، نقطة من أي مادة غير نقية مثل المياه أو الكوكاكولا. عندئذ لا يحدث التوسع أو يتم في بداية فاشلة...

ـ إذن معنى شل، الصدفة، هو كيليبوت؟ لابد ألا نستخدم هذا الوقود من الآن فصاعدا. من الآن لنستخدم فقط لبن العذارى.

ـ سنفحص هذا. يمكن أن يكون هذا خدعة من خدع الأخوات السبع، التوسع الأسفل يرغب في الاستيلاء على عملية الخلق... على أية حال، بعد التوسع، لابد من أن نحترس من الإصدار الإلهي الأعظم، العادم. يرتفع الكباس إلى الموضع الحيادي ويطرد المادة التي لا شكل لها، والتي اشتعلت الآن. فقط إذا نجحت عملية التنقية هذه يمكن للدورة الجديدة أن تبدأ، والتي، إذا فكرت فيها، فهي أيضًا آلية نابليون للخروج والبارود، ذلك الجدل الإعجازي، جدل الطريق إلى أعلى والطريق إلى أسفل.

ـ كم من الخطايا المميتة تحدث في الليل! ولم يدرك أبناء المادة ذلك قط!

ـ ولذلك يقول معلمو الغنوصية أنه لا يجب الثقة في الأشياء الفورية، ولكن في الأشياء المرنة.

ــ سأعد أنا أيضًا للغد تفسيرًا غامضًا لدليل التليفون.

ـ أنت دائمًا طموح يا عزيزي كازاوبون. احترس لأنه سيكون عليك إذن حل المشكلة التي لا يمكن حلها الخاصة بالواحد والكثيرين. من الأفضل التقدم في ذلك بحذر. ربما عليك البداية بطريقة عمل آلة غسيل الملابس.

ـ ولكن هذا سيكون سهل للغاية، إنه التحول السيميائي من العمل الأسود إلى العمل الناصع البياض أكثر من الأبيض.

(٦٧)

عن روزا لن نقول المزيد...

Sampayo Bruno, Os Cavaleiros do)
Amor, Lisboa, Guimarães, 1960, P. 155)

عندما تتخذ موقف المرتاب، من الصعب أن تترك أي أثر يفلت من بين يديك. في أعقاب تخيلنا الخاص بقوة المطر وشجرة السفيروت، أصبحت مستعداً لأن أرى الرموز في كل شيء يقع بين يدي.

كنت قد احتفظت بعلاقاتي مع أصدقائي البرازيليين، وفي تلك الأيام كان يُعقد في كويمبرا مؤتمر حول الثقافة اللوسيتانية. وانطلاقاً من رغبتهم في رؤيتي مرة أخرى، وليس بسبب تقديرهم لإمكاناتي، استطاع أصدقائي في ريو دعوتي. لم تأت ليا معي إذ كانت في شهرها السابع، وعلى الرغم من أن الحمل لم يغير الكثير في ملامحها، محولاً إياها لامرأة فلمنكية، فإنها فضلت عدم السفر.

قضيت ثلاث أمسيات سعيدة مع أصدقاء قدامى، وبينما كنا في الأتوبيس في الطريق إلى ليشبونة، بدأ النقاش أين يمكن أن نقف لنستريح في فاتيما أو في تومار. كانت تومار هي القلعة التي إليها لجأ فرسان المعبد البرتغاليون بعد أن أنقذهم صفح الملك عنهم والبابا من المحاكمة والدمار، متحولين إلى نظام فرسان المسيح. كنت أرغب بشدة في رؤية قلعة فرسان المعبد، ولحسن الحظ لم تكن باقي الصحبة مهتمة كثيرة برؤية فاتيما.

إذا كان في إمكاني تخيل قلعة لفرسان المعبد، كانت ستكون تماماً مثل تومار. يمكنك الوصول إليها من خلال الصعود على طريق محصن يحيط بالحصن الخارجي، والتي لها شكل الصليب، تشعر فيها وكأنك تتنفس هواء الحروب الصليبية منذ اللحظة الأولى. لقد عاش فرسان المسيح في رخاء لمئات الأعوام في هذا المكان. تزعم التقاليد أن كلاً من هنري البحار وكريستوفر كولومبس كانا ينتميان لهذا النظام، وفي واقع الأمر التزم كلاهما بالسيطرة على البحار، محققين الثروات للبرتغال. إن الوجود الطويل

والسعيد الذي استمتعوا به هناك في ذلك المكان أدى إلى إعادة البناء والتوسع في القلعة على ممر القرون، وهكذا تم إضافة أجزاء تعود إلى عصر الإحياء وعصر الباروك إلى جزء العصور الوسطى. شعرت بالرهبة عند دخولي كنيسة فرسان المعبد، ذات القبة الثمانية التي تعيد شكل القبر المقدس. انتابني الفضول من أنه في الكنيسة، كانت صلبان الفرسان تتخذ أشكالاً مختلفة حسب المنطقة الجغرافية: كانت مشكلة قابلتها من قبل حينما مررت على الأيقونات المختلفة التابعة لهذا الموضوع. وبينما صليب فرسان مالطا ظل تقريبًا بلا تغيير، أما تلك التي لفرسان المعبد كانت تبدو وقد تعرضت لتأثيرات القرن أو التراث المحلي. لهذا السبب كان يكفي لمن كانوا يطاردون فرسان المعبد، العثور على أي صليب في أي مكان ليكتشفوا أثرًا للفرسان.

أخذنا مرشدنا لنشاهد نافذة مانولينا، وهي "النافذة" بمعني الكلمة، عمل غاية في الإتقان، ملصقة من كنوز بحرية ومن أعماق البحار، أعشاب بحرية وقواقع، مراسي وسلاسل، محتفية بإنجازات الفرسان في المحيطات. كانت النافذة مؤطرة ببيرجين، مزينين بحفر لشعار جارتر. ماذا كان رمز نظام إنجليزي في دير برتغالي مُحصن؟ لم يستطع المرشد الإجابة على ذلك، ولكن بعد ذلك بقليل، وعلى جانب آخر، أعتقد الشمالي الغربي، رأينا أيضًا شعار الفرو الذهبي. لم أستطع أن أمنع نفسي في التفكير في اللعبة الرفيعة للتضامن بين نظام الجارتر والفرو الذهبي، ومن الفرو إلى المغامرين (الأجرونوت)، ومنهم إلى الجرال، ومن الجرال إلى فرسان المعبد. وتذكرت حكاية الكولونيل أردنتي وبعض صفحات وثائق عبدة الشيطان، واندهشت عندما أشار المرشد إلى صالة جانبية وكان محفور على سقفها شعارات، كانت ورود صغيرة، وعلى البعض منها كانت توجد صورة وجه بذقن: البافومت...

ذهبنا إلى أسفل إلى السرداب. بعد سبع درجات، قادنا حجر عاري إلى نصف دائري من المبنى، حيث يمكن إقامة هيكل أو كرسي لمعلم عظيم. وكان يمكن الوصول إليه بعد عبور سبعة أحجار عقد، كل منها في على شكل وردة، كل منها أكبر مما يليها، والمجموعة الأخيرة منها توجد فوق بئر. الصليب والوردة، في دير لفرسان المعبد، وفي حجرة بنيت بالتأكيد قبل ظهور مانيفستو الروزا كروتشي... طرحت بعض الأسئلة على المرشد. ابتسم وقال:"لو عرفت كم من طلبة علوم العبادات السرية يأتون هنا إلى الحج... كان يقال إن هنا كانت غرفة طقس الانضمام."

دخلت مصادفة إلى إحدى الحجرات التي لم يتم الانتهاء بعد من ترميمها، والتي احتوت على بعض قطع الأثاث المتربة، وجدت الأرض مزدحمة بصناديق من الورق المقوى. وبالنظر لما فيها اكتشفت بعض الأجزاء من كتب بالعبرية، تعود إلى القرن الثامن عشر تقريبًا. ماذا كان اليهود يفعلون في تامار؟ قال لي المرشد إن الفرسان كانت لهم علاقات صداقة مع جماعة اليهود في المنطقة. وجعلني أتطلع من النافذة وأشار إلى حديقة على الطراز الفرنسي، مبنية على شكل متاهة صغيرة أنيقة. وقال لي إنها من تصميم معماري يهودي من القرن الثامن عشر: صاموئيل شفارتز.

الميعاد الثاني في أورشاليم... والأول في القلعة. ألم يكن هذا ما تنص عليه رسالة بروفانس؟ يا إلهي، إن قصر النظام الرهبني الذي وجده إنجولف لم يكن مونسلفاتو المكتوب في روايات الفروسية، لم يكن آفالون الأصقاع الشمالية. لا، إذا كان عليهم أن يحددوا ميعاد للقاء الأول، ما هو المكان الذي سيختاره فرسان معبد بروفانس، المعتادون على قيادة قواتهم أكثر من قراءة روايات المائدة المستديرة؟ ولكن تومار كانت قلعة فرسان المسيح، مكان استمتع فيه من بقي على قيد الحياة من النظام بالحرية التامة، والحصانة المضمونة، والذي فيه كانوا على اتصال مع عملاء من المجموعة الثانية!

رحلت من تومار ومن البرتغال وعقلي مشتعل. وعدت لأفكر بجدية أكثر في الرسالة التي عرضها علينا أردنتي. إن فرسان المعبد، بعد أن أصبحوا نظامًا سريًا، وصلوا إلى خطة تستمر لمدة ستمائة عشر عامًا وتنتهي في قرننا هذا. كان فرسان المعبد رجالاً يتميزون بالجدية، وإذا كانوا قد تحدثوا عن قلعة لابد أنهم كانوا يقصدون قلعة حقيقية. الخطة إذن بدأت في تومار. ولكن ماذا سيكون الطريق المثالي، تسلسل نظام الاجتماعات الخمسة الأخرى؟ لابد وأن تكون أماكن يستطيع فيها فرسان المعبد الاعتماد على الصداقة والحماية والمؤامرة. تحدث الكولونيل عن ستونهيدج وأفالون وأجارثا... كلام فارغ. لابد من إعادة دراسة كاملة للرسالة.

بالتأكيد ـ ذكرت نفسي وأنا في طريق العودة إلى المنزل ـ الفكرة ليست في اكتشاف سر فرسان المعبد، بل في بنائه.

بدا بيلبو مضطرباً لفكرة العودة مرة أخرى للوثيقة التي تركها الكولونيل، ووجدها بعد أن بحث كرهًا في الدرج الأسفل. إلا أنني لاحظت أنه احتفظ به. وقرأنا معًا من جديد رسالة بروفانس بعد مرور عدة أعوام.

بدأت الوثيقة بالرسالة المشفرة بطريقة تريثيميوس: الستة والثلاثون غير المرئيين منقسمين إلى ست مجموعات، ثم:

a la ... Saint Jean
36 p charrete de fein
6 ... entiers avec saiel
p ... les blancs mantiax
r ... s ... chevaliers de Pruins pour la ... j . nc
6 foiz 6 en 6 places
chascune foiz 20 a .... 120 a ....
iceste est l'ordonation
al donjon li premiers
it li secunz joste iceus qui ... pans
it al refuge
it a Nostre Dame de l'altre part de l'iau
it a l'ostel des popelicans
it a la pierre
3 foiz 6 avant la feste ... la Grant Pute.

ستة وثلاثون عامًا تلي عربة القش في ليلة القديس يوحنا من عام ١٣٤٤، ست رسائل مختومة من أجل الفرسان ذوي العباءات البيضاء، الفرسان المنطلقين من بروفانس للانتقام. ست مرات في ستة مواقع، في كل مرة عشرون عامًا لإجمالي أعوام قدره ١٢٠ عامًا، هذه هي الخطة. يذهب الأولون إلى القلعة، ثم من جديد لدى من أكل الخبز، مرة أخرى إلى الملجأ، من جديد لدى سيدتنا فيما وراء النهر، من جديد في مقر البوبليكان، من جديد عند الصخرة. هل ترى عام ١٣٤٤ تقول الرسالة إن الأولين لابد وأن يذهبوا إلى القلعة. وبالفعل يستقر الفرسان في تومار عام ١٣٥٧ الآن لابد من أن نسأل انفسنا أين يذهب أولئك المنتمون للمجموعة الثانية؟

ـ إذا كان حقيقي أن أولئك الذين ركبوا عربة القش هربوا إلى إسكتلندا... ولكن لماذا يأكل من ذهب إلى إسكتلندا الخبز؟

كنت قد أصبحت أستاذًا متمرسًا في الإحالات المرتبطة. كان يكفي الانطلاق من نقطة ما. إسكتلندا، الأراضي العليا، الطقوس الدرويدية، ليلة القديس يوحنا، انقلاب الشمس في الصيف، نيران القديس يوحنا، والغصن الذهبي... هذا أثر وإن كان هشًا.. كنت قد قرأت عن نيران القديس يوحنا في كتاب الغصن الذهبي لفريزر.

اتصلت بليا: اصنعي لي معروفًا، أحضري "الغصن الذهبي" واقرأي لي ماذا يقول عن نيران القديس يوحنا.

كانت ليا بارعة في هذه الأشياء. عثرت على الفصل المطلوب على الفور.

- ماذا تريد أن تعرف؟ أنه طقس قديم جداً، كان يمارس تقريباً في كل البلاد الأوروبية. يحتفلون به عندما تكون الشمس تماماً في منتصف دورتها. تم إضافة اسم القديس يوحنا للاحتفال لإعطائه الصبغة المسيحية...

- هل يأكلون الخبز في إسكتلندا؟

- دعني أرى... لا أعتقد... آه، هاهو، لا يأكلون الخبز في عيد القديس يوحنا، ولكن في الليلة السابقة الأول من مايو، ليلة نيران بلطان، والذي في الأصل طقس درويدي، يأكلون الخبز وخاصة في المرتفعات الإسكتلندية..."

- هذا هو إذن! ولماذا يأكلون الخبز؟

- يصنعون فطيرة من الدقيق والشوفان ويخبزونها على الجمر... ثم يتبع ذلك طقس يستدعي الذبائح البشرية القديمة... إنه خبز يطلقون عليه اسم البانوك Ban-nock...

- ماذا؟ هل يمكنك أن تملي علي الاسم!

أعطتني الاسم، شكرتها، وقلت لها إنها منقذتي، حوريتي وألقاب توددية أخرى..

حاولت أن أتذكر رسالتي. النواة السرية، تبعاً للأسطورة، تلجأ إلى إسكتلندا بالقرب من الملك روبرت البروس، ويساعد فرسان المعبد الملك لينتصر في معركة بانوك برن. وليكافئهم الملك، يثبتهم في النظام الفرسان الإسكتلندي الجديد نظام القديس أندراوس.

سحبت من فوق أحد الأرفف قاموساً إنجليزياً وبحثت: بانوك، باللغة الإنجليزية للعثور الوسطى (بانووك bannuc بالساكسونية، وباناش bannach بالغالية (هو نوع من الفطائر، مطهو على شواية أو أخشاب، مصنوعة فقط من الشعير أو الشوفان أو حبوب أخرى). وبرن هو اسم جدول ماء. يكفي فقط ترجمة بانوك برن كما فعل فرسان المعبد الفرنسيين عندما أرسلوا بالأخبار من إسكتلندا لرفاقهم في بروفانس، وستكون النتيجة شيئاً مثل مجرى الفطير، أو العجين أو الخبز. إن من أكلوا الخبز هم من فازوا عند مجرى الخبز، وبالتالي المجموعة الإسكتلندية، والتي في ذلك الوقت كانت قد انتشرت في الجزر البريطانية. شيء منطقي: من البرتغال إلى إنجلترا. كان هذا طريق أكثر، أقصر كثيراً مما افترضه أردنتي من القطب الشمالي إلى فلسطين.

(٦٨)

لتكن ثيابك بيضاء كالثلج... وإذا حل الليل، أشعل كثيرًا من النيران، ليضيء كل شيء... والآن ابدأ في تركيب الحروف، البعض منها أو الكثير، انقلهم وركبهم حتى يصل الدفء إلى قلبك. انتبه إلى حركات الحروف ومما يمكنك أن تكونه منها. وعندما يشعر قلبك بالدفء، عندما ترى أنه من خلال تركيب الحروف استطعت أن تصل إلى أشياء لم يكن في الإمكان الوصول إليها بمفردك أو حتى بمساعدة التقاليد، عندما تكون مستعدًا لأن تستقبل تأثير القوى المقدسة التي تدخل في قلبك، استخدم عندئذ كل أعماق فكرك لتتخيل في قلبك اسم أعلى ملائكته، وكأنهم يقفون بجوارك.

(Abulafia, Hayye ha-'Olam ha-Ba)

قال بيلبو: نعم يبدو الأمر مقبولاً. وفي هذه الحالة أين سيكون اللاجئون؟

ـ المجموعات الست ستستقر في ستة أماكن، ولكن واحدة منها فقط ستدع الملجأ. شيء غريب. هذا معناه أنه في الأماكن الأخرى، مثل البرتغال أو إنجلترا، يمكن لفرسان المعبد أن يعيشوا بلا إزعاج، ربما منتحلين أسماء أخرى، بينما في هذا المكان يختبئون. أعتقد أن الملجأ هو المكان الذي لجأ إليه فرسان المعبد الفارون من باريس، بعد أن تركوا المعبد. ويبدو لي أن المسار، من الناحية الاقتصادية، ينطلق من إنجلترا تجاه فرنسا، ولكن لماذا لا نفكر أيضًا أن الفرسان بنوا لأنفسهم ملجأ في باريس نفسها، في مكان سري وموضع حماية؟ كانوا ساسة محنكين، وكانوا بالتأكيد يتخيلون أنه خلال مائتي عام لابد وأن تتغير الأوضاع وسيمكنهم التحرك في وضح النهار، أو ما يشبه ذلك.

ـ ليكن باريس إذن، ثم ماذا سيكون المكان الرابع؟

كان الكولونيل يفكر في شارتر، ولكن إذا وضعنا باريس في المكان الثالث، لن يمكننا وضع شارتر في المرتبة الرابعة، لأن الخطة لابد وأن تتم في كل مراكز أوروبا. ثم إننا بهذه الطريقة سنكون أهملنا المجال التصوفي لنتفاعل مع المجال السياسي. إن التحرك يبدو وأنه يحدث تبعًا لموجة جيبية، لذلك لابد لنا أن نصعد إلى شمال ألمانيا. ثم فيما وراء النهر أو المياه، وبالتالي فيما وراء "الراين"، وفي الأرض الألمانية توجد مدينة وليست كنيسة "لسيدتنا". بالقرب من "دانزيج"، هناك مدينة للعذراء مدينة مارينبرج.

ـ ولماذا يكون هناك ميعاد في مارينبرج؟

ـ لأنها كانت مقر فرسان التوتونيين! لم تتسمم العلاقات بين فرسان المعبد والتوتونيين كما حدث بينهم وبين الهوسبتاليين، والذين انتظروا كالجوارح قمع المعبد

ليحصلوا على ما فيه من ثروات. كان نظام التوتونيين قد تأسس في فلسطين من قبل الإمبراطوريات الألمانية كفرقة مناهضة لفرسان المعبد، ولكن سرعان ما تم استدعاؤهم إلى الشمال لوقف غزو البربر البروسيين. وقد فعلوا ذلك جيداً بالفعل حتى أصبحوا في ظرف قرنين دولة تمتد على كل الأراضي البلقانية. تحركوا بين بولندا وليتواني وليفونيا. أسسوا كوسنسبرج، وهزموا فقط مرة واحدة في إستونيا أمام ألكسندر نفسكي، و أسسوا، تقريباً في الوقت الذي فيه تم القبض على فرسان المعبد في باريس، عاصمة لملكتهم في مارينبرج. إذا كانت هناك خطة لغزو العالم من قبل الفروسية الروحية، سيكون فرسان المعبد والتوتونيون قد قسما مناطق نفوذهما.

قال بيلبو: هل تعلم؟ أنا معك. والآن المجموعة الخامسة. أين مقر البوبليكان؟

قلت: لا أعلم.

ـ إنك تحبطني الآن يا كازاوبون. ربما علينا أن نسأل أبو العافية.

أجبت في ضيق: لا يا سيدي. أبو العافية يمكنه فقط أن يربط بين الوقائع، ولكن ليس إبداعها. إن البوبليكان في الواقع ليسوا منطقة ربط، والوقائع هي منطقة تخصص سام سبيد. اترك لي بضعة أيام.

قال بيلبو: سأمنحك أسبوعين، إذا لم تسلم لي البوبليكان خلال أسبوعين سيكون عليك تسليمي زجاجة بالاتاين عمرها ١٢ عام.

لم يكن لدي ميزانية لهذا، بعد أسبوع واحد كنت أسلم البوبليكان إلى شركائي الشرهين.

كل شيء واضح. اتبعاني لأنه علينا الصعود إلى القرن الرابع، في الأراضي البيزنطينية، بينما في منطقة البحر المتوسط كانت توجد بالفعل كثير من الحركات ذات الإيحاء المانوي. لنبدأ من حركة الأراخنة التي أسسها في أرمانيا بيترو ذي كافارباروكا، والذي لابد أن تعترفا بأنه اسم جميل وعظيم. كانت نزعة مناهضة للسامية، كان الأراخنة يعرفون الشيطان بصباؤت، إله اليهود، الذي يعيش في السماء السابعة. للوصول إلى أم الضوء العظيمة في السماء الثامنة من الضروري رفض كل من الصباؤت والمعمودية. واضح؟

ـ لنرضهما إذن. قال بيلبو.

ـ ولكن الآراخنة مازالوا أولادًا طيبين. في القرن الخامس ظهر "المصليين"، والذين عاشوا في ثريث حتى القرن الحادي عشر. لم يكن "المصليين" ثنائيين، بل موحدين. إلا أن لهم علاقات بالقوى الجهنمية، وبالفعل تطلق عليهم بعد النصوص "البوربوريت" من كلمة بوربوروس، والتي تعني الطين، ذلك كناية عن الأشياء التي لايمكن ذكرها، والتي كانوا يفعلونها.

ـ ماذا كانوا يفعلون؟

ـ الأشياء المعتادة التي كانوا يفعلونها: كان الرجال والنساء يمسكون على كف أيديهم، ويرفعون إلى السماء، ما يخرج من أجسادهم، سواء حيواناتهم المنوية أو الحيض، ثم يأكلونه. وإذا، أصبحت إحدى نسائهم حبلى، يضعوا، في الوقت المناسب، يدهم في بطنها وينزعون منها الزيجوت، ثم يلقون به في مطحنة ويخلطونه بالعسل والفلفل، ويلتهمونه التهامًا.

قال ديتوتاليفي: شيء مقزز، عسل وفلفل!

ـ هؤلاء إذن هم "المصليين"، والذين يطلق عليهم البعض فابيونيتي والآخرين باربااليت، والذين يتكونون من الناسئين Nasseans، والفيبيونيت أو الباربااليت، والمكونيين من النيسانس والفيميونيت. ولكن بالنسبة لآباء الكنيسة فإن الباربيليت كانوا مرحلة متأخرة من الغنوصيين، وبالتالي ثنائي العقيدة، والذين كانوا يعبدون الأم العظيمة باربيلو، وكانوا يطلقون على مبتدئيهم أبناء المادة، لتميزيهم عن المتنيئين، والذين كانوا مرتبة أعلى، والهوائيين والذين هم المختاريون الفعليون، نأدي الروتاري للعملية كلها. ولكن ربما كان الستراتويتيك هي مجرد مواد المثرانية.

قال بيلبو: ألا يبدو كل شيء مضطربًا هكذا؟

ـ بالتأكيد. فكل هؤلاء لم يتركوا أية وثائق. إن الأشياء الوحيدة التي نعرفها عنهم هي ثرثرة أعدائهم. ولكن هذا لا يهم. أحاول فقط أن أريكم كمية الفوضى المنتشرة في الشرق الأوسط في تلك الفترة. وأن أعد المسرح لظهور البولسيين، وكان هؤلاء أتباع شخص يُدعى بولس، والذي سينضم إليه محطمو الأيقونات المطرودين من ألبانيا. وبدءًا من القرن الثامن نما هؤلاء البوليسيون بسرعة فتحولوا من شيعة إلى جماعة، ومن جماعة إلى عصبة، ومن عُصبة إلى قوة سياسية، وبدأت الإمبراطوريات البيزنطية

تقلق منهم فأرسلت جيشها الإمبراطوري لمحاربتهم. فتفرقوا حتى وصلوا إلى حدود العالم العربي، وتفرقوا تجاه الفرات، وغزوا الأراضي البيزنطية حتى البحر الأسود. أسسوا مستوطنات لهم تقريبًا في كل مكان، ونجدهم أيضًا في القرن السابع عشر عندما يهديهم اليسوعيون، ومازلات توجد منهم بعض جماعات في البلقان وبعدها بقليل. والآن بماذا كان يؤمن البولسيون؟ كانوا يؤمنون بإله واحد وثلاثة، إلا أنهم كانوا يؤمنون أن الديميورج قد عاند في خلق العالم، وهو الذي أدى للنتائج المؤسفة التي نراها الآن. كانوا يرفضون العهد القديم، ويرفضون القربان المقدس، يحتقرون الصليب، ولا يكرمون العذراء، لأن المسيح تجسد مباشرة في الجنة وعبر من خلال مريم مثل من يعبر من خلال ماسورة. يقول البوجوميليون، الذين هم جزئيًا منحدرون منهم، أن المسيح دخل إلى أحد أذني مريم وخرج من الناحية الأخرى، دون أن تُدرك هي أي شيء. البعض يتهمهم أيضًا بعبادة الشمس والشيطان وبخلط دماء الأطفال إلى الخبز والنبيذ أثناء الأفخارستيا.

ـ مثل الجميع.

ـ كانت هذه هي الأيام التي فيها الذهاب إلى القداس بالنسبة للهرطوقي هي قمة المعاناة. وفيها تحول البعض منهم إلى الإسلام. ولكن كانت هذه هي نوعية البشر في تلك الفترة. وأنا الآن أحدثكم عنهم، لأن هرطقة العبادة الثنائية انتشرت في إيطاليا وفي بروفان، وكان اسمهم ـ ليشيروا أنهم شبه البولسيين ـ بوبليكان، أو بابليكان، وهم من جاء ذكرهم في الرسالة.

ـ إذن عثرنا عليهم.

ـ أجل، أخيرًا. استمر البولسيون في القرن التاسع في اشعال غضب إمبراطوريات بيزنطين حتى أقسم الإمبراطور بازيل أن يضع يده على رئيسهم كريسوكير، والذي كان قد غزا كنيسة القديس يوحنا الإلهي في أفسس وسقى حصانه من المياه المقدسة...

قال بيلبو: عادة مألوفة قبيحة..

ـ ... وأنه سيصوب ثلاثة أسهم إلى رأسه. أرسل الجيش الإمبراطوري لمواجهته، قبضوا عليه، قطعوا رأسه وأرسلوها للإمبراطور، الذي وضعها على مائدة، أو على عامود وأخذ يصوب الأسهم إلى رأسه، ربما سهم في كل عين والثالث في فمه.

قال ديوتالليفي: شعب لطيف.

بيلبو: لم يفعلوا ذلك بسبب شرهم، كانت مسألة إيمان. استمر يا كازاوبون، إن صديقنا ديوتالليفي لا يفهم الأمور اللاهوتية رفيعة الشأن.

ـ لنختم القصة: قاتل الصليبيون البولسيين. هجموا عليهم بالقرب من أنطاكية أثناء الحرب الصليبية الأولى ، حيث كان الهراطقة يحاربون منضمين إلى العرب، وقاتلوهم أيضًا في حصار القسطنطينية، حيث حاولت جماعة البولسيين في مدينة فيليبي أن يسلموا المدينة للقيصر البلغاري جونيستا لينتقموا من الفرنسيين، كما يخبرنا فيليهردوين. إليكم العلاقة مع فرسان المعبد، وحل لغزنا. تقول الأسطورة إن فرسان المعبد قد تأثروا بالكثاريين، ولكن الحقيقة أن الكثاريين هم من تأثروا بفرسان المعبد، فلقد قابلوا الجماعة البولسية أثناء الحروب الصليبية وعقدوا معهم علاقات غامضة، تمامًا مثل علاقتهم مع المتصوفين والمهرطقين المسلمين، ومن جهة أخرى يكفي أن نتبع أثر النظام الرهبني، لابد وأن يعبر من خلال البلقان.

ـ لماذا؟

ـ لأنه يبدو لي أن الميعاد السادس كان في أورشاليم. تقول الرسالة إنه لابد من الذهاب إلى الحجر. وأين هو ذلك الحجر الذي يقدره المسلمون، والذي إذا أردنا أن نراه علينا أن نخلع أحذيتنا؟ تمامًا في مركز جامع عمر في أورشاليم، حيث كان يوجد من قبل معبد فرسان المعبد. لا أعرف من عليه الانتظار في أورشاليم، ربما نواة من فرسان المعبد الذين نجوا وتنكروا، أو القباليون المرتبطون بالبرتغاليين، ولكن من المؤكد أنه للوصول إلى أورشاليم قدومًا من ألمانيا فإن الطريق الأكثر منطقية هو طريق البلقان، وهناك تنتظر النواة الخامسة، تلك التي للبولسيين. هل تريا كيف أنه بهذه الطريقة تصبح الخطة أكثر سهولة واقتصادية.

قال بيلبو: سأقول لك إنك أقنعتني. ولكن في أي بقعة في البلقان كان البوليكان ينتظرون؟

أرى أن الأتباع الطبيعيين للبولسيين كانوا البلجوميليون البلغاريون، ولكن فرسان معبد بروفان لم يتمكنوا من معرفة ذلك إلا بعد غزو الأتراك إلى بلغاريا ببضعة أعوام، وظلت تحت سيطرتهم لمدة خمسة قرون.

ـ إذن يمكننا أن نقول إن الخطة توقفت في المرور بين الألمان والبلغاريين. متى كان لابد أن يحدث هذا؟

قال ديوتالليفي: عام 1824.

ـ ولكن لماذا؟

عندئذ رسم بسرعة رسم بياني

البرتغال	إنجلترا	فرنسا	ألمانيا	بلغاريا	أورشاليم
١٣٤٤	١٤٦٤	١٥٨٤	١٧٠٤	١٨٢٤	١٩٤٤

عام ١٣٤٤ استقر المعلمون العظماء الأوائل في الأماكن الستة الموصوفة. في خلال مائة وعشرين عامًا، توالى ستة معلمين كبار الواحد يلي الآخر في كل مجموعة، وفي عام ١٤٦٤ قابل المعلم السادس من تومار المعلم السادس من المجموعة الإنجليزية. في عام ١٥٨٤يتقابل المعلم الثاني عشر الإنجليزي مع المعلم الفرنسي الثاني عشر. وتستمر السلسلة على هذا المنوال، ولذلك إذا كان الميعاد مع البولسيين قد فشل، فقد كان ذلك في عام ١٨٢٤.

قلت: لنسلم بأنه فشل. الشيء الذي لا أستطيع أن أفهمه لماذا لم يتمكن رجال يتمتعون بقدر كبير من الفطنة، عندما كانت توجد بين أيديهم أربعة أسداس من الرسالة، إعادة تركيبها. أو لماذا، إذا كان الميعاد مع البلغاريين لم يتم، لم يتقابلوا مع النواة التالية.

قال بيلبو: كازاوبون، هل تعتقد أن من يسنوا القوانين في بروفان من المجانين؟ إذا كانوا يريدون أن تظل الخطة سرية لمدة ستمائة عام بالتأكيد اتخذوا جميع احتياطاتهم. كان كل معلم من نواة يعرف أين يجد معلم النواة التالية، ولكن ليس الآخرين، ولم يكن أي من الآخرين يعرف أين يمكن أن يجد معلمو أيٍ نواة سابقة. يكفي أن يفقد الألمان البلغاريين ولن يعرف أحد أين يمكن العثور على الأورشاليميين، بينما لن يعرف الأورشاليميون كيف يمكنهم العثور على أي من الآخرين. بينما فيما يخص إعادة تركيب الرسالة من الأجزاء غير المتكاملة، يعتمد الأمر على كيفية تجزيء الرسالة. بالتأكيد، لم يكن ذلك بالترتيب المنطقي. يكفي أن تنقص قطعة واحدة لتصبح الرسالة صعبة الفهم، ومن لديه القطعة المفقودة لا يعرف ماذا يفعل بها.

قال ديوتالليفي: تخيلا إذا كان اللقاء لم يحدث بالفعل، فإن أوروبا اليوم هي مسرح لعرض باليه سري، مجموعات تبحث ولا تجد بعضها الآخر، بينما كل مجموعة تعرف أنه تكفي مجرد معلومة صغيرة لتجعل منها سيد العالم. ماذا كان اسم محنط الحيوانات الذي أخبرتنا عنه يا كازاوبون؟ ربما هناك مؤامرة بالفعل، والتاريخ ليس إلا نتيجة تلك المعركة لإعادة بناء الرسالة المفقودة. فنحن لا نراهم، ولكنهم يتحركون، غير مرئيين، في كل مكان حولنا.

الفكرة نفسها راودتني أنا وبيلبو، ثم بدأنا في التحدث، وسرعان ما وصلنا إلى الصلة الصحيحة. بالإضافة إلى ذلك اكتشفنا، على الأقل، تعبيرين في رسالة بروفان ـ الإشارة إلى ستة وثلاثين غير مرئي مقسمين إلى ست مجموعات، وتاريخ التنفيذ خلال مائة وعشرين عامًا ـ والذي ظهر أيضًا في الجدل حول الروزا كروتشي.

قلت: في نهاية الأمر كانوا ألمان، لابد أن أعود لقراءة مانيفستو الروزا كروتشي.

قال بيلبو: ولكنك قلت إن المانيفستو مزيفة.

ـ وماذا عن ذلك، إن ما نفعله نحن الآن غير حقيقي.

قال: حقيقي، لقد نسيت هذا.

(٦٩)

أصبحن الشيطان: ضعيفات، مخيفات، ساهرات في ساعات استثنائية، دمويات بلا توقف، باكيات، مدللات، وأذرعهن تتجاهل القانون... فلنهرب من أمامهن! إنهن لا قيمة لهن، إنهن مصنوعات من جانب واحد، من عظام محنية، من اقتراب مخادع... إنهن يقبلن الثعبان...

(Jules Bois, Le satanisme et la magie, Paris, Chailley, 1895, p.12)

كان بالفعل قد نسي هذا، الآن أعلم هذا. وبالتأكيد ينتمي هذا الملف المختصر والمرتبك، لهذه الفترة.

اسم الملف: إينويا

وصلت إلى المنزل فجأة. كان معك ذلك العشب. لم أرغب في التناول منه، لأنني لا أسمح لأي مادة عشبية بالتدخل في عمل مخي (ولكنني أكذب لأنني أدخن وأشرب الشعير المقطر). على كل حال، في المرات القليلة، في بدايات الستين وأكثر تجبرينني على الاشتراك في لفها، باستخدام ذلك الورق الرفيع المعلم باللعاب، وسحب النفس الأخير مستخدمة دبوساً، كنت أود أن أضحك.

ولكن بالأمس قدمتيه إلي، واعتقدت أنها ربما تكون طريقتك في تقديم نفسك، ودخنت بثقة. رقصنا متعانقين، كما لم نفعل منذ أعوام، وياللخجل، فبينما كانت سيمفونية مهلر الرابعة تُعزف، كنت أشعر بأنني أرفع بين ذراعي مخلوقًا عتيقًا، ذا وجه عذب ومُجعد مثل المعزة العجوز، ثعبانًا يرتفع من أعماق حقوي، وعبدتك مثل عمة عتيقة وكونية. ربما استمررت في التحرك ملتصقًا في جسدك، ولكنني كنت أشعر أيضًا بأنك تطيرين ثم تتحولين إلى الذهب، تفتحين أبوابًا مغلقة، وتحركين أدوات في الهواء بينما أنا أتغلغل في بطنك الأسود، يا سجينة الملائكة.

ألم تكوني أنت التي بحثت عنها من البداية؟ ربما أنا هنا، مازلت في انتظارك. في كل مرة فقدتك لأنني لم أكن أعرفك، في كل مرة فقدتك لأنني عرفتك ولم أجرؤ، في كل مرة فقدتك لأنني عرفتك، كنت أعرف أنه لابد لي أن أفقدك،

ولكن أين اختفيت ليلة أمس؟ استيقظت هذا الصباح بصداع في رأسي.

(٧٠)

دعونا نتذكر جيداً، على كل حال، الإشارة السرية إلى الفترة الزمنية ١٢٠، والتي فيها الأخ أ... والتي تلي الأخ د والأخير من الصف الثاني من التوالي ـ والذين عاشوا بين الكثيرين منا ـ موجهين إلينا، نحن المنتمين إلى الصف الثالث...

Fama Fraternitatis, in Allgemeine und general Reformation, Cassel, Wessel, 1614

أسرعت لقراءة البيانين الرسميين للروزا كروتشي بالكامل: "الشهرة والاعتراف". وألقيت أيضًا نظرة على "الزيجات الكيميائية لكريستيان روزانكروز"، لجوهان فالينتين أندريا، لأن أندريا كان المؤلف المزعوم للرسائل.

كان البيانان قد ظهرا في ألمانيا بين عامي ١٦١٤ و ١٦١٥. بعد حوالي ثلاثين عامًا من لقاء ١٥٨٤ بين الفرنسيين والإنجليز، ولكن قبل قرن تقريبًا من اللقاء التالي بين الفرنسيين والألمان.

قرأت البيانين بغرض ألا أصدق ذلك الذي كنا نقوله، ولكن بالنظر إلى ما ورائهما، وكأن كلماتها كانت تقصد شيئًا آخر. كنت أعرف أنه لجعلهما يقولان شيئًا آخر كان لابد أن أقفز بعض الفقرات، وأن أعتبر بعض العبارات أكثر أهمية من الأخرى. ولكن كان هذا تمامًا ما يعلمه لنا عبدة الشيطان ومعلموهم. إن من يرغب في التحرك في الزمن الرفيع للإعلان لا يجب أن يتبع السلاسل الدقيقة المعتنى بها، تلك السلاسل المنطقية وتتابعها الرتيب. ومن جهة أخرى كان التعامل مع البيانين حرفيًا يظهرهما كتراكم من العبث و الألغاز والتناقضات.

إذن فهما لا يمكن أن يقصدا ما يقولانه بطريقة مباشرة، وبالتالي لم يكونا دعوة إلى إصلاح روحي عميق، ولا حتى قصة المسكين كريستيان روزينكروتز. كانت رسالة مُشفرة لابد من قراءتها واضعين فوقها شبكة، شبكة تترك بعض الأجزاء مقروؤة وتخفي البعض الآخر. تمامًا مثل الرسالة الرقمية لبروفان، والتي فيها كانت الأهمية فقط للحروف الأولى. لم تكن لدي شبكة، ولكن كان يكفي تخيل وجودها، ولعمل ذلك كان لابد من القراءة بلا ثقة.

كان البيانان يتحدثان عن خطة بروفان، لم يكن هناك أي شك في هذا. في قبر س.ر (وهي كناية عن جرانج أو ديم Grange aux Dimes في ليلة الثالث والعشرين من يونية عام ١٣٤٤) وُضع كنزًا في السر لتكتشفه الأجيال القادمة، كنزًا "مخفيًا... لمدة مائة وعشرين عامًا". لم يكن كنزًا من المال، هذا الجزء كان واضحًا. ولم يكن هناك جدل في أنه يواجه الطمع اللاحدود له للسيميائيين، ولكن صرح النص بوضوح أن الكنز الموعود يتعلق بتغيير تاريخي عظيم. وإذا لم يستطع القارئ فهم ذلك، فإن البيان الثاني تحدث أنه لا يمكن تجاهل تقدمة متعلقة بـ " Miranda sextae aetatis" أي العجائب المرتبطة بالميعاد السادس والأخير، ثم يؤكد: "فقط إذا سر الرب بأن ينزل علينا نور هذه الشمعة المحترقة السادسة... فقط إذا استطعنا قراءة كل شيء في كتاب واحد ومن خلال قراءته، أن نفهم وأن نتذكر... كم سيكون ممتعًا إذا كان بالإمكان من خلال الأغنية (بقراءة الرسالة بصوت مرتفع" يمكننا أن نحول الصخور (Lapis exillis!) إلى لآلئ وأحجار كريمة...." وكان هناك حديث آخر عن أسرار غامضة، وعن حكومة لابد من تأسيسها في أوروبا، وعن "عمل عظيم" لابد من استكماله....

كان يُقال أن سي آر قد ذهب إلى إسبانيا (أو إلى البرتغال؟) وأظهر للمثقفين هناك "من أين يحصلون على علامات القرون القادمة" ولكن بلا جدوى. لماذا كان هذا بلا جدوى؟ هل كان ذلك بسبب أن جماعة من فرسان المعبد في ألمانيا، في بداية القرن السابع عشر، أخذت تنشر علنًا سرًا خطيرًا، وكأنهم اضطروا لإخراجه للعلن بسبب العجلة في نقل الرسالة؟

لا أحد يمكنه أن ينكر أن البيانين كانا يحاولان إعادة بناء مراحل الخطة كما لخصها ديوتاليفي. كان الأخ الأول الذي ذُكر موته هو I.O، والذي "وصل إلى نهايته" في إنجلترا. إذن وصل أحدهم بانتصار إلى الميعاد الأول. ثم ذكر خط ثان من التتابع، وثالث. وحتى هذه اللحظة بدا كل شيء منتظمًا: إذن الصف الثاني، ذلك الإنجليزي يقابل الصف الثالث، ذلك الفرنسي في عام ١٥٨٤، ولا يمكن لمن كتب شيئًا في القرن السابع عشر إلا أن يتحدث فقط عما حدث للمجموعات الثلاثة الأولى. في "الزيجات الكيميائية"، والذي كتبه أندريا في شبابه، وبالتالي قبل البيانين (حتى وإن ظهرا عام ١٦١٦)، ذُكر ثلاثة معابد عظيمة، الأماكن الثلاثة التي كانت معروفة بالفعل.

ولكنني، من خلال القراءة، أدركت أن البيانين يتحدثان، بالفعل، بالمصطلحات نفسها، ولكن، كأن شيئًا مثير للقلق قد حدث.

على سبيل المثال، لماذا هذا الإصرار على واقع أن الوقت قد أزف، واللحظة قد حانت، على الرغم من أن العدو قد فعّل كل مكروه لكي لا تتحقق المناسبة؟ أي مناسبة؟ وكان يقال إن الهدف النهائي لسي آر هي أورشاليم، ولكنه لم يستطع الوصول. لماذا؟ كانوا يمتدحون العرب لأنهم كانوا يعرفون كيف يتبادلون الرسائل، بينما في ألمانيا لم يعرف المثقفون التعاون فيما بينهم. وكانت هناك أيضًا إشارة إلى "مجموعة أكبر كانت تريد المرعى كله لنفسها". لم يكن يتحدث هنا فقط عن شخص ما أراد أن يغير مسار الخطة لصالح مصلحة خاصة، ولكن عن انحراف حدث فيها بالفعل.

يقول بيان "الشهرة" إنه في البداية ابتدع أحدهم طريقة كتابة سحرية (بالتأكيد يقصد هنا رسالة بروفان) ولكن ساعة الرب تدق كل دقيقة "بينما ساعتنا لم تنجح في أن تدق ولا حتى كل ساعة". من لم يلحق بدقات الساعة الإلهية، ومن استطاع الوصول في اللحظة المطلوبة؟ وكانت هناك إشارة إيضًا إلى نواة أصلية من الإخوة استطاعت الكشف عن فلسفة سرية، ولكنهم قرروا أن ينتشروا في أنحاء العالم.

كان البيانان يعلنان عن مأساة ما، عدم ثقة، شعور بالضياع. عمل إخوة الصفوف الأولى على أن يحل محل كل منهم "خلف قدير"، و"لكنهم قرروا أن يجعلوا مكان دفنهم سريًا وحتى اليوم لا نعرف أين دُفنوا".

إلى أي شيء يشير بقوله هذا؟ ما هو الشيء الذي لم يكن يعرفه؟ أي "مقبرة" تلك التي لم يعرف عنوانها؟ كان واضحًا أن البيانين قد كُتبا لأن هناك بعد المعلومات المفقودة، وكان هدف كتابتهما الدعوة لمن يكون لديه علم لأن يتقدم ويتحدث.

كانت الخاتمة واضحة جدًا: "ونحن نسأل من جديد كل مثقفي أوروبا... أن ينظروا إلى عرضنا الجيد هذا بنفس صالحة... وأن يتأملوها جيدًا .. لأنه حتى وإن كنا حتى هذه اللحظة لم نكشف عن أسمائنا، فإن من سيرسل لنا اسمه سيكون قادرًا على الاتصال بنا مباشرة، أو في حالة تعثر ذلك، كتابة."

كان هذا تمامًا ما يرغب الكولونيل في عمله من خلال نشر قصته: أن يجبر أحدهم عن الخروج من صمته.

كانت توجد إذن ثغرة ما، وقفة ما، قوسان فارغان، غموض. وفي مقبرة سي آر كُتب، ليس فقط عبارة "post 120 annos patebo" ليؤكد إيقاعات اللقاءات، ولكن كانت هناك عبارة Nequaquam vacuum: والتي لا تعني "لا يوجد فراغ"، بل تعني "لا يجب أن يوجد فراغ". ولكن حدث بالفعل فراغ ما كان لابد من ملئه.

ولكنني عدت مرة أخرى لأتساءل: لماذا قيل كل هذا في ألمانيا، والتي فيها كان على الصف الرابع الانتظار بصبر دورها الآتي؟ لم يكن بوسع الألمان أن يشتكوا، عام ١٦١٤، عن ميعاد فاشل في مارينبرج، لأن ميعاد مارينبرج لم يكن سيتم إلى عام ١٧٠٤. لم يكن هناك سوى استنتاج واحد: كان الألمان يشتكون لأن الميعاد السابق لم يتم.

كان هذا هو مفتاح اللغز! كان الألمان (الصف الرابع) يشتكون من أن الإنجليز (الصف الثاني) فشلوا في لقاء الفرنسيين (الصف الثالث). بالتأكيد هذا ما حدث. كان يمكن في النص العثور على رموز تكاد واضحة وضوحًا ساذجًا: قبر سي آر مفتوح وبداخله يمكن العثور على توقيعات إخوة اللقاء الأول والثاني ولكن ليس الثالث. هناك توجد الأسماء البرتغالية والإنجليزية، ولكن أين الفرنسيون؟

وبالتالي، فإن وثيقتي الروزا كروتشي تشيران، لمن يستطيع قراءتهما، بأن الإنجليز لم يتقابلوا مع الفرنسيون. وحسب ما توصلنا إليه كان الإنجليز هم فقط من يعرفون مكان الفرنسيين، والفرنسيون هم فقط من يعرفون أين يوجد الألمان. ولكن حتى إذا كان الفرنسيون قد نجحوا في العثور على الألمان في عام ١٧٠٤، فقد ذهبوا إليهم ينقصهم ثلثي ما كان يجب عليهم تسليمه.

ولذلك خرج الروزا كروتشي إلى النور، وقبلوا المخاطرة بذلك، لأنها كانت الطريقة الوحيدة لإنقاذ الخطة.

لا نعرف بالتأكيد إلا كان إخوة الصف
الثاني قد حصلوا على الحكمة نفسها التي
للصف الأول، ولا إذا كان قد مُنحت لهم معرفة
الأسرار كلها.

Fama Fraternitatis, in Allgemeine)
und general Reformation, Cassel, Wessel, 1614)

نقلت على الفور لبيلبو وديوتالليفي ما توصلت إليه: ووافقا معي أن المعنى السري للبيانين كانا واضحين جدًا حتى لعبدة الشياطين.

قال ديوتالليفي: والآن اتضح كل شيء، كنا نعتقد أن الخطة قد توقفت عند الانتقال من الألمان إلى البوليكان، بينما ما حدث في الواقع أن التوقف حدث عام ١٥٨٤، في الانتقال من إنجلترا إلى فرنسا.

سأل بيلبو: ولكن لماذا؟ هل لدينا سبب منطقي لماذا لم يستطع الإنجليز الوصول في ميعادهم عام ١٥٨٤مع الفرنسيين؟ فقد كان الإنجليز يعرفون أين هو الملجأ بل كانوا الوحيدين في معرفته.

كان يريد الحقيقة، وبدأ تشغيل أبو العافية. سأل، ليجرب، رابطًا بين معطيين فقط. وكانت النتيجة:

ميمي هي خطيبة ميكي ماوس

نوفمبر شهر ثلاثين يومًا مثل إبريل ويونية وسبتمبر

سأل بيلبو: كيف نفسر هذا؟ ميمي لديها ميعاد مع ميكي، ولكنها تخطئ وتعطيه له في الحادي والثلاثين من سبتمبر وميكي ماوس...

قلت: توقف! ترتكب ميمي خطئًا فقط إذا كانت قد أعطت ميكي ميعادًا في الخامس من أكتوبر 1582!

ـ ولماذا هذا؟

ـ إنها الفترة التي حدث فيها الإصلاح الجريجوري للتقويم! ولكنه شيء واضح. عام ١٥٨٢ بدأ الإصلاح الجريجوري الذي أصلح التقويم اليوليوسي، ولإعادة التوازن ألغى عشرة أيام من شهر أكتوبر لذلك العام من الخامس إلى الرابع عشر!

ولكن كان الميعاد في فرنسا عام ١٥٨٤، ليلة القديس يوحنا، في الثالث والعشرين من يونيو. قال بيلبو.

هذا حقيقي، ولكن إن كنت أتذكر جيدًا فهذا الإصلاح لم يتم العمل به على الفور في كل مكان.

وعدت إلى التقويم الدائم الذي لدينا في المكتبة: "ها هو. بدأ الإصلاح عام ١٥٨٢، وألغيت الأيام من الخامس إلى الرابع عشر من أكتوبر، ولكن عمل البابا فقط بهذا التعديل. استخدمت فرنسا التقويم الجديد عام ١٥٨٣، وألغت من العاشر إلى التاسع عشر من ديسمبر. وفي ألمانيا حدث انقسام: تبنت الأقاليم الكاثوليكية الإصلاح عام ١٥٨٤ مع بوهيميا، ولكن الأقاليم البروتستانتية استخدمته بداية من ١٧٧٥، أي بعد ذلك بحوالي مائتي عام، ثم بلغاريا، وهو أمر لابد لنا من تذكره، بدأت العمل به منذ عام ١٩١٧! والآن لنبحث عن إنجلترا... عملت إنجلترا بالتقويم الجريجوري عام ١٧٥٢. وهذا أيضًا كان شيئًا متوقعًا، فبسبب كرههم للنظام البابوي قاوموا هذا التغيير لمدة قرنين من الزمان. والآن هل تفهمان ما حدث. ألغت فرنسا عشرة أيام في نهاية ١٥٨٣، وفي نهاية يونيو عام ١٥٨٤ كان الجميع قد اعتادوا التغيير بالفعل. وبينما التاريخ في فرنسا هو ٢٣ يونيو عام ١٥٨٤، كان التاريخ في إنجلترا مازال ١٣ يونيو، وتخيلا إذا كان هناك شخص إنجليزي ماهر، على الرغم من كونه فارسًا من فرسان المعبد، وخاصة في تلك الأزمنة التي كانت فيها المعلومات تصل ببطء شديد، قد أدرك هذا الأمر. إنهم مازالوا حتى يومنا هذا يقودون السيارة من ناحية اليسار ويتجاهلون نظام القياس المتري... إذن يذهب الإنجليز إلى الملجأ في يوم ٢٣ الخاص بهم، والذي بالنسبة للفرنسيين هو الثالث من يوليو. يمكننا أن نزعم أن اللقاء لم يكن سيحدث بصخب، وسيكون لقاء سريًا في ركن ما في ساعة ما. يذهب الفرنسيون إلى المكان في ٢٣ يونيو، وينتظرون هناك يومًا، اثنين، ثلاثة، أسبوعًا، ثم ينصرفون وهم يعتقدون أن شيئًا ما قد حدث. ربما ييأسون في ليلة الثالث من يوليو نفسها. يصل الإنجليز في الثالث ولا يجدون أحدًا هناك. ربما ينتظرون هم أيضًا لمدة أسبوع ولكن لا يظهر أحد. وبالتالي لا يحدث اللقاء بين المعلمين الكبيرين.

قال بيلبو: رائع! هذا ما حدث. ولكن لماذا يخرج الروزا كروتشي الألمان إلى العلن وليس الإنجليز؟

طلبت مهلة يوم آخر، وبحثت في كروت ملفاتي، وعدت إلى المكتب أتألق فخراً. لقد عثرت على مفتاح آخر، شيء يكاد لا يرى ، ولكن هذه هي الطريقة التي بها يعمل سام سبيد. لا شيء في نظره الثاقب كالصقر بلا أهمية وبلا معنى. في حوالي عام ١٥٨٤ تولي جون دي، الساحر والقبالي، ومُنجم ملكة إنجلترا، أمر دراسة إصلاح التقويم اليوليوسي.

ـ قابل الإنجليز البرتغاليين عام ١٤٦٤. بعد هذا التاريخ يبدو أن حمى قبالية غزت الجزر البريطانية. اشتغلوا على ما أخذوه منهم استعداداً للقاء التالي. كان جون دي هو أول من بدأ هذا الإحياء السحري والهيرمسي، أسس مكتبة شخصية من أربعة آلاف كتاب، والتي بدت وكأن من نظمها كانوا فرسان معبد بروفان. وبدا كتابه Monas Iro- gliphica وكأنه مستوحى مباشرة من Tabula smaragdina، الكتاب المقدس للسيميائيين. وماذا فعل جون دي منذ عام ١٥٨٤، قرأ فنون السحر Steganographia لترتيميو! وقرأه كمخطوطة، إذ أنه لم يُطبع للمرة الأولى إلا في أوائل القرن السابع عشر. ونظراً لأنه كان المعلم العظيم للنواة الإنجليزية، والذي تعرض لصدمة الميعاد الذي لم يتم، أراد دي أن يكتشف ماذا حدث وأين كان الخطأ. ونظراً لأنه عالم نجوم ماهر فقد ضرب جبهته بيده قائلا كم كان أحمق. وشرع في دراسة الإصلاح الجريجوري بعد أن حصل على تمويل من إليزابيث ليعرف كيف يصلح هذا الخطأ. ولكنه يدرك أنه تأخر جداً. فهو لا يعرف بمن يتصل في فرنسا، ولكنه على اتصال بالبعض في منطقة وسط أوروبا. كانت براغ في فترة رودلف الثاني معملاً سيميائياً، وبالفعل في تلك الأعوام ذاتها ذهب دي إلى براغ وتقابل مع خنرات، مؤلف Am- phitheatrum sapientiae aeternae، والتي أوحت جداوله الرمزية سواء أندريا أم بياني الروزا كروتشي. ما هي العلاقات التي عقدها دي هناك؟ لا أعلم. وبعد أن حطمه الندم بأنه ارتكب خطأ لا يمكن إصلاحه، مات عام ١٦٠٨. لا داعي للقلق، فقد تحرك في لندن شخص آخر، والذي هو أحد أعضاء الروزا كروتشي باتفاق الكثيرين، وسيتحدث عن أطلنطس الجديدة. وأقصد بذلك فرانسيس بيكون.

بيلبو: وهل يتحدث بيكون أيضاً عن الشيء نفسه حقاً.

ـ ليس تمامًا، ولكن هناك شخص يُدعى جون هيدن اعاد كتابة "أطلنطس الجديدة" تحت عنوان "الأرض المقدسة"، ووضع بداخلها الروزا كروتشي. ولكن بالنسبة إلينا فهذا حسن. فلم يتحدث عنها بيكون بوضوح لتحفظات عديدة، ولكنه كمن كان يتحدث عنها.

ـ واللعنة على من يشك في ذلك!

ـ بالطبع. إنه بإيحاء من بيكون بدأت المحاولات بتوطيد العلاقة أكثر بين البيئة الإنجليزية وتلك الألمانية. في عام ١٦١٣ عقد قران إليزابيث، ابنة جاكومو الأول، الجالس على العرش في تلك الفترة، على فيديركو الخامس، أحد الأمراء الجرمان للراين. عقب موت رودولفو الثاني، لم تعد براغ المكان المناسب، وحل محلها هيلدلبرج. كان فرح الأميرين انتصارًا لكل رموز فرسان المعبد. في أثناء الاحتفالات في لندن، والتي تم الإعهاد بإخراجها لبيكون نفسه، تم تقديم أحد رموز الفروسية الغامضة من خلال ظهور بعض الفرسان على قمة إحدى الهضاب. من الواضح أن بيكون، الذي تلي دي، كان هو المعلم الكبير لنواة فرسان المعبد الإنجليزية....

ـ ... ونظرًا لأنه هو مؤلف كل مسرحيات شكسبير، لابد لنا وأن نعيد قراءة كل أعمال شكسبير، والتي بالتأكيد لا تتحدث إلا عن الخطة، قال بيلبو، ليلة القديس يوحنا، حلم ليلة منتصف صيف.

ـ إن الثالث والعشرين من يونيو هو بداية الصيف.

ـ تجاوزات إبداعية. أتعجب لماذا لم ينتبه أحد لتلك المفاتيح، لتلك الإشارات الواضحة. إن كل شيء واضح بشكل لا يُحتمل.

قال ديوتاليفي: لقد سبب التفكير المنطقي في انحراف تفكيرنا، لقد قلت ذلك دائمًا.

ـ اترك كازاوبون ليستكمل حديثه، يبدو لي أنه قام بالفعل بعمل رائع.

ـ لم يبق الكثير. بعد الاحتفالات اللندنية بدأت الاحتفالات في هيلدلبرج، حيث بنى سالومون دي كاوس الحدائق المعلقة للأمير الجرماني، والتي رأينا صورة لها في تلك الليلة في بيومونتي، هل تتذكران. وفي أثناء هذه الاحتفالات تظهر عربة رمزية تحتفي بالعريس وكأنه جيسون، وعلى قائمي السفينة التي تمثلها العربة تظهر رموز الفرو الذهبي والأفعى. أتمنى ألا تكونا قد نسيتا أن الرمزين نفسهما يظهران على أعمدة

تومار... الأشياء جميعًا مرتبطة فيما بينها. في ظرف عام واحد، يظهر بياني الروزا كروتشي: الدعوة التي يقوم بها فرسان المعبد الإنجليز بمساعدة أصدقائهم الالمان، لكل أوروبا، ليعيدوا ربط ما قُطع من الخطة.

ـ ولكن ما الذي يسعون إليه إذن؟

(٧٢)

إن الخفيين الذين نطلبهم (حسب ما يُقال)
عددهم ٣٦ ومقسمين على ست فرق

(Effroyables pactions faictes entre le
diable & les pretendus Inuisibles, Paris,
1623, p.6)

"ربما حاولوا عملية مزدوجة، من جهة إطلاق إشارة إلى الفرنسيين، ومن جهة أخرى تجميع الخط المتفرق من النواة الألمانية، والتي ربما تفرقت بسبب الإصلاح اللوثري. ولكن في ألمانيا حدث أكبر اضطراب. منذ ظهور البيانين في حوالي عام ١٦٢١، تلقى كتاب البيانين ردودًا أكثر من المطلوب...

ذكرت بعض من المنشورات المنتشرة المرتبطة بالموضوع، تلك التي كنت أتسلى بها في تلك الليلة في السلفادور مع أمبارو. "ربما يكون بين كل هؤلاء من يعلم شيئًا ما بالفعل، ولكنه فُقد في بحر من المتطرفين، والمتحمسين، الذين تعاملوا مع البيانين حرفيًا، وربما كان هناك المحرضون أيضًا، الذين أرادو إيقاف العملية كلها، والطفيليين... حاول الإنجليز أن يتدخلوا هم أيضًا في النقاش، وحاولوا توجيهه، وليست مصادفة أن قام روبرت فلود، أحد فرسان المعبد الإنجليزي، في غضون عام واحد، بكتابة ثلاثة أعمال ليقترح التفسير الصحيح للبيانين... ولكن كان رد الفعل قد وصل إلى حد لا يمكن التحكم فيه، وبدأت حرب الثلاثين عام، وهزم الإسبان الأمير الجرماني، تم الاستيلاء على بالاتينيت وعلى هيدلبرج، واشتعلت بوهيميا... قرر الإنجليز أن يعودوا إلى فرنسا ليجربوا هناك. ولهذا ظهر الروزا كروتشي عام ١٦٢٣ ببيانيهما في باريس، وقدموا للفرنسيين العرض نفسه الذي قدموه للألمان. وماذا نقرأ في أحد المنشورات المعارضة للروزا كروتشي في باريس، من أحد الذين يشكون فيهم، أو ربما يريد أن يربكهم؟ إنهم عبدة الشيطان، بالطبع، ولكن نظرًا لأنه يمكن أن تظهر الحقيقة من خلال التشهير أيضًا، ألمح البعض بأنهم يجتمعون في الماريه؟

ـ وماذا عن ذلك؟

ـ ألا تعرفان باريس؟ الماريه هو حي المعبد و، بالمصادفة، الحي اليهودي أيضًا! بالإضافة إلى أن تلك المنشورات ذكرت أيضًا أن الروزا كروتشي على علاقة بشيعة من القبالين اليهود: الألومبرادوز! ربما تحاول المنشورات المكتوبة لمناهضة الروزاكروتشي، والتي تحمل الطابع الهجومي على الستة والثلاثين الخفيين، تحاول تبني هويتهم... إن جبرييل نوديه، أمين مكتبة ريشيليو كتب: تعليمات لفرنسا بشأن حقيقة قصص إخوة الروزا كروتشي Instructions à la France sur la vérité de l'histoire des Frères de la Rose-Croix. أي تعليمات؟ هل هو المتحدث باسم فرسان معبد النواة الثالثة، أم أنه مغامر يندمج في مغامرة لا تناسبه؟ من جهة يبدو وكأنه يريد بدوره أن يُظهر الروزا كروتشي وكأنهم عبدة للشيطان مجانين، من جهة أخرى يطلق تلميحات، يقول فيها إنه مازال هناك ثلاثة معاهد للروزا كروتشي، وسيكون ذلك حقيقيًا، إذ أنه بعد النواة الثالثة مازالت هناك ثلاثة أخرى. ويمنح إشارات تكاد تكون خيالية (بأن أحدها في الهند على الجزر العائمة)، ولكنه يقترح أن أحد تلك المعاهد في أنفاق باريس.

قال بيلبو: هل تعتقد أن هذا كله يفسر حرب الثلاثين عامًا.

قلت: بلا أدنى شك. كان لدى ريشيليو معلومات متميزة جدًا من نوديه، أراد أن يضع يديه ويتدخل في هذه القصة، ولكنه يخطئ في كل شيء، يتدخل بطريقة عسكرية ويتسبب في اضطراب أكبر. ولكن لابد أن تتذكر أمرين: في عام ١٦١٩ يجتمع مجمع فرسان المسيح في تومار، بعد ٤٦ عامًا من الصمت. كان قد اجتمع قبل ذلك عام ١٥٧٣، قبل عام ١٥٨٤ بأعوام قليلة، وربما لإعداد الرحلة إلى باريس مع الإنجليز، وبعد موضوع البيانين اللذين نشرهما الروزا كروتشي، اجتمع المجمع من جديد، ليقرروا موقفهم، إذا كانوا سينضمون لعمل الإنجليز أم سيحاولون طرقًا أخرى.

قال بيلبو: بالتأكيد، فالناس الآن ضالون في متاهة، منهم من يختار طريق، ومنهم من يختار آخر، يطلق أحدهم أصواتًا، ولا يفهم إذا كانت الإجابات التي يسمعها هي صوت لآخر أم أنها صدى لصوته هو... الجميع يسيرون بحذر. وماذا فعل في ذلك الوقت البوليكان والجيروسوليميتان؟

قال ديوتاليفي: ليتنا نعلم. ولكنني لا أستطيع أن أتجاهل أنه في تلك الفترة أيضًا انتشرت القبالاة اللوريانية، وبدأ الحديث عن تهشم الأوعية... وفي ذلك العصر انتشرت أكثر فكرة التوراة كرسالة غير مكتملة. يوجد قول حاسيدي بولندي: إذا كان

قد تم التحقق من حدث آخر لنشأت تركيبات حروف أخرى. ولكن، ليكن واضحًا، لا يعجب القباليون أن الألمان أرادوا استباق الزمن. إن التتابع والترتيب الصحيح للتوارة ظل خفيًا، ولا يعرفه سوى القديس، مجدًا له. ولكن لا تدفعاني لأن أقول قولاً مجنونًا. حتى وإن كانت القبالاة المقدسة سيتم توريطها في الخطة...

ـ إذا كانت هناك خطة لابد أن تورط كل شيء ـ قال بيلبو ـ فهي إما أن تكون كونية أو أنها لا تشرح شيئًا. ولكن كازاوبون ألمح لوجود إشارة أخرى.

ـ أجل، بل هي سلسلة من الإشارات. قبل أن يفشل لقاء عام ١٥٨٤، كان جون دي قد بدأ بالاهتمام بدراسة علم الخرائط وأن يطور الإرساليات البحرية. وبالاشتراك مع من؟ مع بيدرو نونس، الكوزموغرافي الملكي في البرتغال... كان لجون دي تأثير على رحلات الاستكشاف فيما يتعلق بالعبور من الشمال الغربي تجاه الكاتاي، استثمر أموالاً في إرسالية شخص يُدعى فروبيشر، والذي اتجه نحو القطب الشمالي وعاد من هناك ومعه أحد سكان الإسكيمو الذي اعتقده الجميع منغوليًا، ثم شجع فرانسيس دريك ودفعه إلى القيام برحلته حول العالم، وأراد منه السفر إلى الشرق، لأن الشرق هو أساس كل معرفة غامضة، وكان في كل مرة يرحل أحدهم يقوم هو باستدعاء الملائكة.

ـ وما معنى هذا؟

ـ يبدو لي أن دي لم يكن مهتمًا باكتشاف الأماكن، ولكن بما تمثله على الخريطة، ولهذا عمل أيضًا بالاتصال مع مركاتور وأورتيليوس، رسامي الخرائط العظيمين. وكأنه من خلال أجزاء الرسالة التي بحوذته، أدرك أن إعادة البناء النهائي سيؤدي إلى اكتشاف خريطة، وحاول هو الوصول إليها لحسابه الخاص. بل إنني أميل أيضًا لأن أقول أكثر من هذا، مثل السيد جاراموند. هل يمكن أن يتعرض دارس في مقامه إلى اللبس الخاص بالتواريخ؟ وإذا كان قد فعل ذلك عن قصد؟ بدا أن دي أراد أن يكون أجزاء الرسالة بمفرده، متجاوزًا المجموعات الأخرى. أشك أنه مع دي بدأت فكرة أن الرسالة يمكن إعادة تركيبها بوسائل سحرية أو علمية، ولكن دون أن ينتظر استكمال الخطة. أعراض عدم الصبر. فقد ولد الغازي البرجوازي، وبالتالي تلوث مبدأ التعاون، والتي كانت تقوم عليه الفروسية الروحية. وإذا كانت هذه هي فكرة دي، يمكننا تخيل ما فكر فيه بيكون. بداية مما فعله دي بدأ الإنجليز محاولة كشف باقي أجزاء الرسالة عن طريق استخدام كل أسرار العلوم الجديدة.

ـ وماذا عن الألمان؟

ـ سيكون من الأفضل أن نجعلهم يتبعون الطريق التقليدي. هكذا يمكننا أن نفسر قرنين من الفلسفة، والنزعة الإمبريالية الأنجلو ساكسون ضد النزعة المثالية الرومانسية...

قال ديوتاليفي: إننا نعيد الآن كتابة تاريخ العالم فصل يلي الآخر. إننا نعيد كتابة "الكتاب"، وهذا يعجبني، يعجبني جداً.

(٧٣)

حالة أخرى غريبة من حالات فك الشفرات قدمها للجمهور عام ١٩١٧ أحد أفضل مؤرخي بيكون، الدكتور ألفرد فون ويبر إيبنهوف-Alfred Von Weber Eben hoff من فيينا. بالارتكاز على الأنظمة التي تم تجريبها على أعمال شكسبير، بدأ في تطبيقها على أعمال سارابانتاس... ومن خلال متابعة التحقيق اكتشف دليلاً ماديًا قويًا: الترجمة الأولى إلى الإنجليزية لدون كيشوت، والتي أعدها شيلتون تحمل تعديلات بخط اليد قام بها بيكون. واختتم بقوله إن هذه النسخة الإنجليزية هي أصل الرواية، والتي منها نشر سيربانتس نسخته الإسبانية.

J. Duchaussoy, Bacon, Shakespeare)
ou Saint-Germain?, Paris, La Colombe,
1962, p.122)

بدا لي واضحًا أنه في الأيام التي تلت حديثنا هذا انكب جاكوبو بيلبو على قراءة حقبة الروزا كروتشي. ولكن عندما قص علينا استنتاجاته وتخيلاته، ذكر لنا الحبكة المجردة، والتي على أساسها استطعنا الوصول إلى اقتراحات ثمينة. أعرف الآن أنه كان يكتب على أبو العافية قصة أكثر تركيبًا، خطة كانت تختلط فيها لعُبة الاستشهادات المهتاجة مع أساطيره الشخصية. كانت الفرصة التي ظهرت أمامه لتركيب أجزاء من قصص الآخرين ، كان يعيد اكتشاف الدافع لكتابة قصته هو بطريقة روائية. لم يقل لنا هذا قط. وينتابني الشك أنه كان يقوم بعمل يجرب فيه، ببعض الشجاعة، إمكاناته وموهبته في عالم الرواية، أو ربما يحاكي، مثل أي من عبدة الشيطان، دور ما في القصة العظيمة التي يعمل على انحرافها.

اسم الملف: المكتب العجيب للدكتور دي

لمدة طويلة من الزمن نسيت أنني طالبوت. على الأقل منذ أن قررت أن أطلق على نفسي اسم كيللي. كل ما فعلته في الحقيقة هو أنني زورت بعض الوثائق، مثلما يفعل الجميع. ولكن كان رجال الملكة بلا رحمة. ولأخفي ما تبقى من أذني المسكينة كنت أرتدي القبعة السوداء الحادة، وبدأ الجميع حولي يهمسون بأنني ساحر. وماذا في ذلك! الدكتور دي اغتنى بناء على هذا الاعتقاد.

ذهبت لأقابله في مورتليك، وكان يفحص خريطة. كان غامضًا، هذا الشيطاني المسن. كانت الومضات الشريرة تنطلق من عينيه، ويده الخبيثة تربت على لحيته التي تشبه لحية الماعز.

قال لي: إنها إحدى مخطوطات روجر بيكون، أعارني إياها الإمبراطور رودلف. هل تعرف براغ؟ أنصحك بأن تزورها. ربما وجدت شيئا هناك يغير حياتك.

وباختلاس نظرة، رأيت شيئًا مكتوبًا بحروف أبجدية سرية. ولكن أخفى الدكتور المخطوطة على الفور أسفل كومة من الأوراق الصفراء. كنا نعيش في ذلك الوقت الذي فيه كل الأوراق، حتى الجديد منها، الخارج لتوه من المعمل، صفراء اللون.

أطلعت الدكتور على بعض من محاولاتي، تلك القصائد التي كتبتها عن السيدة السوداء. تلك الصورة شديدة الإضاءة للطفولة، والقاتمة لما تشبعت به من ظلال الزمن، وانتزعت من ملكيتي. كانت إحدى مسرحياتي،، قصة جيم جامع القنب، والذي يعود من إنجلترا تابعًا سير والتر راليج، ويكتشف أن أخاه هنبان قتل أبيه.

قال لي دي: إنك موهوب يا كيللي، وأنت بحاجة للمال. يوجد ذلك الشاب، الابن البيولوجي، لشخص لا تجرؤ على تخيله، وأريد أن أساعده لتسلق سلم الشهرة والمجد. موهبته قليلة، ويمكنك أنت أن تكون روحه السرية. فلتكتب إذن ولتعش في ظلال مجده، وسيعلم أنا وهو فقط أنه مجدك أنت يا كيللي.

هأنذا منذ عدة أعوام وأنا أقدم أعمالاً مسرحية للملكة ولإنجلترا كلها، والتي تُنسب لهذا الشاب الشاحب. إذا كان في استطاعتي أن أرى أفضل فهذا بسبب وقوفي على كتفي قزم. كان عمري آنذاك ثلاثين عامًا، ولن أسمح لأحد أن يقول إن هذه هي أفضل فترة في الحياة.

قلت له: "ويليم، لماذا لا تطيل شعرك ليغطي أذنيك". كانت لدي خطة (أن أحل محله؟)

هل يمكن أن يعيش المرء كارهًا دوره كحامل رمح؟ هذا اللص الناعم الذي يسرقني.
ـ قال دي: اهدأ يا كيللي، أن تنشأ في الظلال ميزة لمن يستعد لغزو العالم. فلتحتفظ بتواضعك. سيكون ويليم أحد أوجهتنا. ثم أطلعني ـ فقط جزئيًا ـ على المؤامرة الكونية. سر فرسان المعبد! ـ سألته: ماذا عن الموت حرقًا؟ ـ أجابني: إنه الكون.

كنت أنام مبكرًا لفترة طويلة، وفي إحدى الليالي في منتصف الليل، أخذت أبحث في مكتبه الخاص، وعثرت على بعض التركيبات وحاولت استدعاء الملائكة كما يفعل هو في الليالي القمرية. عثر على دي مقلوبًا في منتصف الدائرة الماكروكونية، وكأنني

ضُربت بسوط، على حاجبي النظارة المعظمة لسليمان. الآن يجب على أن أشد قبعتي أكثر، لتغطي نصف عيني.

قال دي: ألا تعرف كيف تفعل هذا حتى الآن. راقب نفسك جيدًا، وإلا سأقطع أنفك أيضًا. سأريك الخوف بعينه...

رفع يد من العظم، وقال الكلمة البشعة: جاراموند! شعرت بنفسي أحترق في لهيب داخلي. فهربت (في الليل).

وتطلب الأمر عامًا كاملاً ليصفح عني دي ويهدي لي الكتاب الرابع للأسرار: "post reconciliationem kellianam"

في ذلك الصيف كنت فريسة لنوبات غضب تجريدي. استدعاني دي إلى مورتلاك. كنت أنا وويليم وسبنسر وأرستقراطي شاب ذو نظرة تائهة: فرانسيس بيكون. كانت عيناه رقيقة ومليئة بالحيوية. قال لي الدكتور دي إنها مثل عيني الأفعى. أطلعنا دي على جزء من المؤامرة الكونية. كان الأمر يتعلق بأن نقابل الفرع الفرنسي لفرسان المعبد في باريس، وأن نضم معًا جزئي خريطة. كان من المقرر أن يذهب دي وسبنسر ومعهما بدرو نونز. أعهد إلينا أنا وبيكون ببعض الوثائق، وأقسمنا ألا نفتحها إلا في حالة عدم عودتهم.

عادوا وكان كل منهم يسب الآخر. قال دي: ليس معقولاً، فالخطة دقيقة حسابيًا، لها دقة حركة النجوم. كان لابد من مقابلتهم، كانت ليلة سان جوفاني.

أكره أن لا يعرف من حولي قيمتي. قلت: ليلة القديس يوحنا بالنسبة لنا أم بالنسبة إليهم؟

ضرب دي جبهته بيده، وبدأ يتفوه بسباب بشع وقال: آه، من أين لك بهذه القدرة؟

دون ويليم الشاحب تلك العبارة، ذلك الغشاش الجبان.

أخذ دي ينظر في حركات محمومة لجداول قمرية وإلى وثائق آلمناك وصاح: يا إلهي، يا للكارثة، كيف ارتكبت مثل هذا الخطأ؟

ثم أخذ يسب ويلعن نونز وسبنسر: لابد إذن أن أفكر أنا في كل شيء، أليس كذلك؟ ثم صاح في نونز: إيه رسام الخرائط الكونية الذي لا يفقه شيئًا، ثم صرخ: أمناسييل

زوبابل! وكأن جدي خفي أصاب نونز بقرنيه في معدته، تراجع بضع خطوات وقد شحب لونه.، ثم سقط أرضًا. وصرخ فيه دي: غبي.

شحب وجه سبنسر. وقال بإنهاك: يمكننا أن نلقي بالطعم. أنا على وشك الانتهاء من قصيدة شعر، شعر رمزي عن ملكة الجنيات، حيث كنت أفكر بالفعل أن أذكر شيئًا عن أحد فرسان الروزا كروتشي... دعوني أكتب. إن الفرسان الحقيقيين يعرف أحدهم الآخر، سيفهمون ما نعرفه، وسيتصلون بنا.

قال له دي: إنني أعرفك. لن تنتهي من قصيدتك، ولن يعرف عنها أحد أي شيء قبل مرور خمس سنوات. ولكن فكرة الطعم ليست فكرة سيئة.

سألته: لماذا لا تتصل بهم عن طريق ملائكتك يا دكتور؟

غبي، قالها مرة أخرى، ولكن لي في هذه المرة. ألم تقرأ ما كتبه تريثميوس؟ إن ملائكة من تصل إليه الرسالة تتدخل فقط في إيضاح الرسالة إذا وصلته. إن ملائكتي لا تعمل كسعاة بريد. لقد فقدنا الفرنسيين. ولكن لدي خطة. أعرف كيف البحث عن أحد ممن في الصفوف الألمانية. لابد من الذهاب إلى براغ.

سمعنا صوت ضوضاء، كان ستارًا دمشقيًا يرتفع، ورأينا يدًا لامعة، ثم ظهرت هي: العذراء المتعالية.

قلنا جميعًا منحنين: مولاتي!

قالت هي: دي، أعرف كل شيء. لا تظن أن أجدادي قد أنقذوا الفرسان ليسمحوا لهم بعد ذلك بالاستيلاء على العالم. إنني أطالب، هل تفهم، وأصر أن يكون السر في النهاية في حوذة التاج الملكي فقط.

مولاتي، إنني أريد السر، بأي ثمن، وأريده للتاج الملكي. أريد أن أعثر على من يمتلك أجزاء منه، إذا كان هذا أقصر الطرق. ولكن عندما سيخبرونني بما يعرفونه لن يكون من السهل علي القضاء عليهم، سواء بالقوة أم بمياه الزرنيخ.

ارتسمت على شفتي الملكة العذراء ابتسامة قاسية وقالت: حسنًا إذن، يا دي الطيب. أنا لا أطالب بالكثير، القوى الكاملة فقط. بالنسبة لك إذا نجحت ستحصل على وسام. ثم نظرت بعذوبة فاسقة إلى الطفيلي الصغير: أما أنت يا ويليم، وسام آخر، وفروة ذهبية أخرى. اتبعني.

همست في أذن ويليم: رغما عني أنا ملكك، وهذا بداخلي...

نظر إلي ويليم بنظرة عرفان خالصة وتبع الملكة، واختفى خلف الستار. أتمسك بالمُلك!

كنت مع دي في مدينة الذهب. عبرنا ممرات ضيقة، ذات روائح كريهة بالقرب من مقابر اليهود، وقال لي دي أن أحترس.

كان يقول: إذا انتشر خبر الاتصال الذي لم يتم، ستتحرك كل مجموعة كما يحلو لها. أخشى اليهود، إن للجيروسوليميتاني لهم هنا في براغ الكثير من العملاء...

كان المساء. وكان الثلج يلمع مزرقًا. وفي المدخل المظلم للحي اليهودي وُضعت موائد أسواق عيد الميلاد، وفي الوسط، كان يقف مسرح العرائس مضيئًا بمصابيح يتصاعد منها الدخان، مغطى بالقماش الأحمر. ولكن يليه على الفور عبرنا أسفل قنطرة من الحجارة المربعة وبالقرب من نافورة من البرونز، والتي يتدلى من فتحاتها كتلات ثلجية، وتفتح النافورة ممرًا آخر. وعلي الأبواب القديمة، رءوس سوداء تتدلى خواتم برونزية من أنوفها. عبرت رعشة خفيفة بطوال الجدران، وأتت أصوات لا تفسير لها من الأسقف المنخفضة، تتخلل مواسير المياه. كانت المنازل تعكس حياتها السرية، حياتها الخفية.. كاد مرابيًا مسنًا، مغطى بمعطف قديم، أن يمسنا أثناء سيره، وبدا لي أنني سمعته يهتف: احترسا من أثناسيوس برنات... تمتم دي: إنني أخشى أثناسيوس آخر... وفجأة وجدنا أنفسنا في حارة صناع الذهب...

وهناك، وفي ظلمة حارة أخرى، والأذنان التي لم تعد لي، كانت ترتعش أسفل القبعة التي كنت أرتديها، ظهر عملاق واقترب منا، مخلوق بشع رمادي اللون ذو تعبير باهت، كان جسده مغلفًا ببرونز مزنجر، ينحني على عصا معقود لولبي من الخشب الأبيض. اصطحب هذا الظهور رائحة خشب صندل مكثفة. جربت شعورًا من الرعب المميت، مجمدًا بفعل السحر، كل هذا في ذلك الكائن الواقف أمامي. على كل حال لم أتمكن من أن أرفع عيني عن الكوكب الشفاف الضبابي الملتف حول كتفيه، واستطعت بصعوبة أن أميز الوجه المفترس لأبيس الفرعوني، وخلفه وجوه متعددة، كوابيس آتية من خيالي

وذاكرتي. كانت الأشياء المحيطة بالشبح تتقطع في الظلام، كانت تنتشر ثم تنكمش، وكأن هناك أنفاسًا معدنية بطيئة تغزو الشكل كله... و-ياللبشاعة- في مكان القدمين، وأنا أحدق فيه، رأيت على الثلج رجلين خشبيتن لا شكل لها، لحمها، رمادي لا دماء فيه، ملتفًا إلى أعلى، وكأنه التهاب مرتكز.

ذكرياتي المفترسة...

صرخ دي: الجوليم! رافعًا يديه نحو السماء. سقط رداؤه الأسود ذو الأكمام الواسعة على الأرض، وكأنه بذلك يصنع غلافًا، حلقة سُرية بين الوضع الهوائي ليديه والسطح، أو أعماق الأرض. وقال: جيزابيل، مالكوث، ليدخل الدخان في عينيك!

وفجأة تحلل الجوليم وكأنه قلعة من الرمال هزته رياح عاتية، وكدنا نفقد البصر من حبيبات جسده الترابي، الذي أخذ يتجزأ مثل ذرات في الهواء، وفي النهاية وجدنا تحت أقدامنا كومة من الرماد. انحنى دي، أخذ يبحث عن شيء في الرماد بأصابعه النحيلة، وأخرج منه مخطوطة خبأها في صدره.

في هذه اللحظة خرج كاهن يهودي مسن، يرتدي قبعة حادة تشبه كثيرًا التي أرتديها قال: الدكتور دي، أعتقد. أجابه دي بتواضع: هنا يأتي الجميع، يالها من مفاجأة سعيدة، أيها الكاهن أليفي.

قال الرجل: هل رأيت مخلوقًا يتجول في تلك الأنحاء؟

قال دي، متصنعًا الدهشة: مخلوق؟ من أي نوع؟

قال الكاهن أليفي: لتذهب إلى الجحيم يا دي، كان هذا جوليمي.

جوليمك؟ لا أعرف أي شيء عن أي جوليم.

احترس يا دكتور دي، قال الكاهن أليفي بغضب، إنك تلعب لعبة أكبر منك.

لا أعرف عما تتحدث أيها الكاهن أليفي، قال دي. إننا هنا لأننا نريد أن نصنع بعض الذهب للإمبراطور. فنحن لسنا مجرد اثنين من مستحضري الأرواح.

على الأقل أعد إلى الوثيقة التي أخذتها. قال الكاهن بتوسل.

أي وثيقة؟ سأل دي بسذاجة شيطانية.

لتحل عليك اللعنة يا دكتور دي، قال الكاهن. وفي الحقيقة أقول لك إنك لن ترى فجر القرن الجديد.

ثم ابتعد في الظلام متمتمًا بحروف ساكنة بلا أي حرف متحرك فيما بينهما. آه، يالها من لغة شيطانية ومقدسة!

كان دي مستندًا على الحائط الرطب للمر، وجهه كالتراب، وشعره واقف في رأسه مثل ذلك الذي للثعبان. وقال:

أعرف أيها الكاهن أليفي، سأموت في الخامس من أغسطس عام ١٦٠٨، حسب التقويم الجريجوري. ولذلك يا كيللي ساعدني لكي أكمل مشروعي هذا. سيكون عليك أنت استكماله. ستُطلي التيارات الشاحبة بالسيمياء السماوية، تذكر هذا.

سأتذكره، وويليم معي، وضدي في الوقت ذاته.

لم يقل أي شيء بعد ذلك. كان الضباب الشاحب الذي يحك ظهره في النوافذ الزجاجية، والدخان الأصفر الذي يحك ظهره في النوافذ يلعق بلسانه أركان الشوارع. نحن الآن في حارة أخرى، كانت الأبخرة البيضاء تتصاعد من المداخن ذات المستوى الأرضي، والتي من خلالها كان يمكن النظر إلى الأوكار القذرة وجدرانها المصنوعة من الطوب، المغطاة بالرمادي الضبابي. ورأيت أثناء نزولي بحذر من على السلالم (والتي كانت درجاته ثمانية غير عادية)، وجه شخص مسن، يرتدي عباءة متهرئة، وقبعة عالية. ورآه دي أيضًا. صاح دي: كالياري! هو أيضًا هنا، في منزل مدام سوسوستريس، العرافة المشهورة! لابد لنا من التحرك بسرعة.

أسرعنا الخطى، ووصلنا إلى باب كوخ حقير في حارة شبه مظلمة، سامية ويسارية.

طرقنا الباب الذي فُتح بطريقة تشبه السحر. دخلنا إلى صالون متسع الأركان، تزينه شمعدانات سباعية الأذرع، وزخارف من التتراجرامات، ونجمة داود مثل بيت القربان. آلات كمان قديمة، ألوان مخملية للوحات قديمة، كانت تتراص في المدخل على مائدة طعام ذات شكل غير منتظم. كان هناك تمساح محنط، ضخم، معلق من السقف يهتز قليلاً على الضوء الخافت لمصباح واحد أو العديد من المصابيح، أو بلا مصابيح. وفي الخلفية، وقبل نوع من الستار أو الخلفية التي تحتها يقف وعاء خبز القربان، وكان هناك رجلاً مسن، ساجدًا يصلي، يردد بلا توقف الاثنين والسبعين اسمًا للرب. وعرفت، من خلال ضربة فجائية للعقل، أن هذا هو هينريتش خونرات.

قال وهو يستدير ويقطع صلاته: ادخل في الموضوع يا دي، ماذا تريد؟

كان يشبه حيوانًا مدرعًا محشوًا، سحلية لا سن لها.

قال دي: كونراث، اللقاء الثالث لم يتم.

انفجر كونراث في لعنة رهيبة: لأبيس إكسيليس! وما العمل الآن؟

قال دي: كونراث، يمكنك أن تلقي طعمًا، ودعني أتصل بالصف الألماني لفرسان المعبد.

قال كونراث: لنر هذا. يمكنني أن أسأل ماير، فهو على اتصال بالعديد من الأشخاص في البلاط. ولكن لابد وأن تقول لي سر اللبن العذراوي، والفرن السري جدًا للفلاسفة.

ابتسم دي ـ آه تلك الابتسامة المقدسة لذلك الفيلسوف! ثم بدأ التركيز وكأنه في بداية صلاة، وقال بصوت منخفض: عندما ترغب في أن تحول الزئبق العظيم إلى ماء أو لبن عذراوي، ضع "الشيء" مطحونًا جيدًا على النصل بين الأوزان الصغيرة والكأس. لا تغطه، ولكن اعمل على أن يصطدم الهواء الساخن بالمادة العارية، تحكم في ذلك من خلال نيران فحمات ثلاث واتركها حية لمدة ثمانية أيام شمسية، ثم انزعها واخفقها جيدًا على الرخام حتى تصبح عجينة رفيعة. بمجرد عمل ذلك ضع المادة في أمبيق زجاجي لتسيح على حمام مائي، فوق آنية مليئة بالماء وضعها، كي لا تلمس المياه، على ارتفاع صباعين واتركها معلقة في الهواء، وفي الوقت نفسه أشعل النيران أسفل الحمام المائي. عندئذ، وفقط في تلك اللحظة، وعلى الرغم من أن الفضة لن تلمس المياه، ولكن ستجد نفسها في ذلك الرحم الدافئ والرطب، ستتحول إلى سائل.

أيها المعلم! ـ قالها كونراث وهو يسقط على ركبتيه ويقبل اليد العظمية، الشفافة للدكتور دي ـ أيها المعلم، سأفعل هذا. وسيكون لديك ما تتمناه. تذكر هاتين الكلمتين: الروزا كروتشي. ستسمع من يتكلم كثيرًا عنهم.

أحاط لي نفسه بردائه، ولم يكن يظهر منه سوى عينيه اللامعتين الشريرتين وقال: هيا يا كيللي، فهذا الرجل رجلنا الآن. وأنت يا كونراث، أبعد الجوليم بعيدًا عنا حتى عودتنا إلى لندن. ثم فلتشتعل النيران في براغ كلها.

ثم شرع في الذهاب، فأمسك به كونراث من معطفه وقال له: بعد يوم واحد تقريبًا، سيأتي إليك رجل. سيرغب في الكتابة عنك، كن له صديقًا.

قال دي، بلا أي تعبير واضح على وجهه الخالي من الشحم: أعطني القوة، أضمن لك نجاحه.

خرجنا. وفوق الأطلسي كانت تتقدم رياح ذات ضغط منخفض في اتجاه روسيا.

قلت له: لنذهب إلى موسكو.

قال: لا، نحن في طريق العودة إلى لندن.

أخذت أتمتم بجنون: إلى موسكو إلى موسكو. أنت تعلم جيدًا يا كيللي بأنك لن تذهب إلى هناك قط. فمصيرك هو البرج.

عدنا إلى لندن. وقال الدكتور دي: إنهم يحاولون الوصول قبلنا. كيللي، اكتب لويليم شيئًا... شيء موحي بطريقة شيطانية عنهم.

أحشاء الشر هذا. إلا أنني فعلت ذلك بالفعل، ولكن لوث ويليم النص ونقل كل شيء من براغ إلى فينتسيا. وغضب دي غضبًا شديدًا. ولكن كان ويليم الشاحب والمراوغ كان يشعر بأنه في حماية عشيقته الملكة. ولكنه لم يكن مكتفيًا بهذا. بينما أنا أُسلم له قصائدي الشعرية، الواحدة تلو الأخرى، سألني، بلا أي خجل، عنك أنت، يا سيدتي الغامضة. يا لبشاعة سماع اسمك على شفتيه الخادعة (لم أكن أعرف أنه، بروحه تلك المخادعة والمزدوجة، يسأل عليها من أجل بيكون)

يكفي هذا ـ أجبته ـ لقد تعبت من أنني أبني مجدك وأنا في الظلال، اكتب أنت لنفسك.

لا أستطيع ـ أجابني بنظرة من رأى شبحًا ـ لن يسمح لي بذلك.

من، دي؟

لا، بارون فيرولام. ألم تدرك حتى الآن أنه هو من يدير كل شيء؟ إنه يجبرني الآن أن أكتب أعمالاً سيقوم هو فيما بعد بأن ينسبها لنفسه؟ هل تفهم يا كيللي؟ أنا بيكون الحقيقي، ولكن الأجيال القادمة لن تعرف ذلك. آه، ذلك الطفيلي، كم أكره جمرة الجحيم هذا!

قلت: إن بيكون بائس، ولكنه عبقري. لماذا لا يكتب هو بنفسه؟

لم أكن أعرف أنه ليس لديه الوقت ليفعل ذلك. أدركنا ذلك عندما غزا ألمانيا جنون الروزا كروتشي بعد ذلك ببضعة أعوام. ثم من خلال بعض الإشارات المتفرقة، وبعض العبارات، وببعض الحسابات البسيطة، أدركت أنه بالفعل كان من كتب بياني الروزا كروتشي. وكان يكتب مستخدمًا الاسم المستعار جوهان فالانتين آندريا!

لم أكن أعرف آنذاك لمن يكتب آندريا، ولكن الآن، ومن ظلام الزنزانة حيث أذبل، ولكن بذهن متقد أكثر من دون إيذيدورو بارودي، الآن أعرف. قال لي هذا سوابس، رفيق السجن، أحد فرسان المعبد البرتغاليين السابق: كان آندريا يكتب رواية فروسية لشخص إسباني يرقد في زنزانة أخرى. لا أعرف لماذا، ولكن كان هذا المشروع يخدم بيكون سيئ السمعة، والذي أراد أن ينتقل إلى القصة وكأنه المؤلف السري لمغامرات فرسان المانشا، والذي كان يطلب من آندريا بأن يصيغ له في السر العمل الذي سيكون هو له المؤلف الحقيقي، ليتكمن من التمتع في الظل (ولكن لماذا؟ لماذا؟) بانتصار الآخر.

ولكنني أبتعد عن الموضوع، الآن وأنا في برد الزنزانة وإبهامي يؤلمني. أكتب الآن على الضوء الخافت لمصباح يحتضر، الأعمال الأخيرة التي ستظهر باسم ويليم.

مات الدكتور دي، وهو يتمتم "ضوء، المزيد من الضوء"، وطالبًا خلاً للأسنان. ثم قال: كواليس أرتيفكس بيريو! لقد قتله بيكون. منذ أعوام، وقبل أن تموت الملكة، والتي كانت قد فقدت قواها العقلية قبلها، فبطريقة ما استطاع بيكون أن يغويها. تغيرت ملامحها، تحولت إلى هيكل عظمي. لم تكن تأكل سوى قطعة خبز أبيض صغيرة مغ قليل من حساء الشيكوريا الخضراء. كانت تحتفظ بجوارها بسيف وفي اللحظات التي ينتابها فيها الغضب كانت تغرزة بعنف في الستائر وفي السجاجيد الدمشقية التي كانت تغطي جدران صومعتها. (وإذا كان هناك أي من يتصنت عليها خلفها؟ أو فأر؟ فكرة جيدة أيها المسن كيللي، لابد لي من أن أدونها). وبالطبع وبينما العجوز قد أصبحت في تلك الحالة كان من السهل على بيكون أن يقنعها بأنه ويليم، عشيقها ـ راكعًا أمامها على ركبتيه، أمامها قد أصبحت عمياء، مغطيًا كتفيه بفراء خروف. الفروة الذهبية! كانوا يقولون إنه يطمع في العرش، ولكنني كنت أعرف أنه يبغي شيئًا آخر، السيطرة على الخطة. وهكذا أصبح فسكونت سانت ألبانو. وعندما شعر بقوته، قضى على دي.

ماتت الملكة، عاش الملك... عندئذ أصبحت أنا شاهدًا دخيلاً. فاجأني في إحدى الليالي التي فيها أصبحت السيدة الغامضة لي، بينما كانت ترقص بين ذراعي، صوفيا الأبدية، بوجهها المليء بالتجاعيد مثل وجه الماعز... اقتحم مسكني ومعه لفيف من المسلحين، وضعوا عصابة على عيني، وفهمت على الفور! كيف كان يضحك! وهي أيضًا! كم كنت تضحكين يا سيدة لعبة الفليبر ـ واستبدل مبدأ الشرف بهوان، والفضيلة تحولت بقسوة للزنا ـ بينما كان يلمسك بيديه كالفريسة وأنت أطلقت عليه اسم سيمون ـ وقبلت ندبه الشمالي...

ضحك بيكون قال: إلى البرج، إلى البرج. منذ تلك اللحظة وأنا هنا، مع هذا الطيف الإنساني الذي يقول عن نفسه سوابس، ويعرفني السجانون فقط باسم جيم جامع القنب. درست بعمق وبحماس شديد الفلسفة والقانون، الطب، وللأسف اللاهوت أيضًا. وهأنذا، مجنون مسكين، وأعرف بقدر ما كنت أعرف.

شهدت العرس الملكي من خلال فتحة صغيرة في النافذة، ورأيت فرسان الصليب الأحمر يتراقصون بخيوليهم على أنغام الأبواق. كان لابد من أن أكون هناك لأعزف البوق، كانت شيشيليا تعرف هذا، ومرة أخرى انتزعت مني الجائزة، الهدف. كان ويليم هو العازف، وكنت أنا أكتب في الظلال له.

سأخبرك كيف يمكنك الانتقام، همس إلى سوابس، وفي ذلك اليوم كشف لي عن هويته الحقيقية، فهو أحد رهبان بونابرت، مدفون منذ قرون في هذه الزنزانة السرية.

سألته: وهل ستخرج منها؟

إذا.... ، بدأ في الرد. ثم صمت. وهو يضرب بملعقة على الحائط، في أبجدية غامضة، والذي سر إلي بأنه حصل عليها من تريتميو، وبدأ في نقل رسائل إلى شخص ما في الزنزانة المجاورة. كونت مونسالفاتو.

مرت أعوام. سوابس لم يكف عن الطرق على الحائط. الآن أعرف لمن ولماذا. يُدعى نوفو داي. علمت من سوابس أن الداي (لأجل أي غموض في القبالاة يقترب نطق داي ودي؟ من الذي وشي عن فرسان المعبد؟)، أنه أبلغ عن بيكون. ماذا قال لا أعرف، ولكن

منذ بضعة أيام تم القبض على بيكون. اتهم باللواط لأنه، كما يقولون (ارتعد من فكرة أن يكون هذا حقيقيًا)، أنت، أنت أيتها السيدة الغامضة، العذراء السوداء للدرويد وفرسان المعبد، لم تكوني آخر، لست سوى خنثى، خارجة من اليدين الحكيمتين لمن، لمن؟ الآن، الآن أعرف، أعرف عن عشيقك، كونت سان جيرمانو! ولكن من هو سان جيرمانو إذا لم يكن هو بيكون نفسه (كم من الأشياء يعرف سوابس؟ ذلك الفارس الغامض ذو الحيوات الكثيرة...)

خرج بيكون من السجن، حصل مرة أخرى من خلال حيله السحرية على الرضا الملكي. الآن، يقول لي ويليم، يقضي لياليه على نهر التيمز، في قهوة بيلادي، ليلعب بتلك الماكينة العجيبة، والتي اخترعها له شخص إيطالي من نولا، والذي حرقة في روما، بعد أن جذبه إلى لندن ليسرق منه سره. إنها آلة تنجيمية، مفترسة للكواكب الصغيرة المجنونة، والتي تتسابق من خلال عوالم لا نهائية في ومضات ضوء الملائكة، معطية ضربات فاحشة بخصرك للخزانة، ضربات لحيوان منتصر، مقلدة ما تفعله الأجساد السماوية لمقر الكهنة، وفهم الأسرار الأخيرة لتأسيسه العظيم، السر نفسه لتأسيس أطلنتيك الجديدة، والذي يطلق عليه جوتليب، محاكيًا اللغة المقدسة للبيانات التي تم نسبها لأندريا... آه! أصرخ: أدرك الآن كل شيء بوضوح، ولكن كان الوقت متأخر جدًا، كان ذلك بلا فائدة، بينما قلبي يخفق بشدة أسفل مشد الصدر: ولذلك أخرجت البوق، التعويذة، الطلسم، الرابط الكوني الذي يمكن أن يمكنه السيطرة على الشياطين. ماذا يا ترى يدبر الآن في بيت سليمان؟ الوقت متأخر، أكرر هذا على نفسي، لقد حصل الآن على الكثير من السلطة.

يقولون إن بيكون مات. يؤكد لي سوابس أن هذا لم يحدث. لم ير أحد جثمانه. فهو يعيش باسم مستعار لدى هيسه الإقطاعي، وبعد أن أصبح عضوًا في أعمق الأسرار الغامضة، ولذلك لا يموت، مستعدًا ليكمل معركته الشرسة لصالح الخطة، باسمه وتحت سيطرته.

بعد هذا الموت المزعوم أتى ويليم ليزورني، بابتسامته المنافقة، التي لم تتمكن

الزنزانة إخفائها عني. سألني لماذا كتبت في السوناتا ١١١ عن شخص يُدعىٰ تينتوري، وقرأ لي بيت الشعر: ...To What It Works in, Like the Dyer's hand

لم أكتب قط تلك الكلمات ـ قلت له. وكانت هذه هي الحقيقة بالفعل...

هذا واضح، فلقد أضافها بيكون، قبل موته، ليطلق إشارة ما غامضة لمن يجب عليهم بعد ذلك استضافة سان جيرمانو من بلاط إلى آخر، كخبير أصباغ... أعتقد أنه في المستقبل سيحاول أن يجعل الجميع يصدقون بأنه هو من كتب أعمال ويليم. كم أصبحت كل الأشياء واضحة، من خلال النظر من ظلام زنزانة.

Where Art Thou, Muse, That Thou Forget'st So Long?

أشعر بأنني متعب، مريض. ينتظر مني ويليم مواد جديدة لعروضه البهلوانية على مسرح الجلوب.

يكتب سوابس. انظر من خلف كتفيه. إنه يخط رسالة غير مفهومة: ريفيروم، بعد آدم وحواء... يخفي الورقة، ينظر إلي، يراني شديد الشحوب كالشبح، ويقرأ الموت في عيني. يهمس لي: أسترح. لا تخف. سأكتب أنا بدلاً منك.

وهكذا يفعل، قناع لقناع. أنطفئ أنا تدريجيًا، وينزع عني هو الضوء الأخير أيضاً، ضوء الظلمة.

(٧٤)

على الرغم من صدق النوايا، فإن روحه ونبواته ليست إلا أوهامًا من الشيطان... إنها قادرة على خداع الكثير من الفضوليين، والتسبب في ضرر عظيم وفضائح في كنيسة ربنا.

حكى لنا بيلبو عما كان قد تخيله، بانفصال، ودون أن يقرأ لنا الصفحات التي كتبها، مستبعدًا الإحالات الشخصية. بل وعمل على إقناعنا على أن أبو العافية هو من زوده بتلك العلاقات المترابطة. مسألة أن بيكون هو مؤلف بياني الروزا كروتشي، شيء كنت قد عثرت عليه في مكان ما. ولكن لفتت نظري إشارة: إن بيكون كان هو فيسكونت سانت ألبانو.

كان شيء يزن في رأسي، شيء يتعلق برسالتي البحثية القديمة. قضيت الليلة التالية لذلك لأفتش بين بطاقاتي.

قلت في اليوم التالي بنوع من الجلال لشركائي في المؤامرة: أيها السادة، ليس علينا أن نخترع علاقات مترابطة، فهي موجودة بالفعل. عندما أطلق سان بيرنارد، في عام ١١٦٤ فكرة إقامة مجلس لمنح الشرعية لفرسان المعبد، ومن بين المكلفين بهذا الأمر كان هناك أيضًا رئيس دير سان ألبانو، والذي هو أيضًا يحمل اسم الشهيد الإنجليزي الأول، الذي بشر في الجزر الإنجليزية، والذي وُلد بالفعل في فيرلام، والتي أصبحت من إقطاعيات بيكون. وكان سان ألبانو، كلتي وبلا شك درويدي، والمطلع أيضًا مثل سان بيرنارد.

قال بيلبو: صلة ضعيفة.

انتظرا. إن رئيس دير سان ألبانو هو رئيس دير سان مارتان دي شوم، قام الدير بتأسيس كونسرفاتوار الفنون والمواد.

انفعل بيلبو صائحاً: يا إلهي!

قلت: ليس هذا كل شيء، ولكن الكونسرفاتوار تم التفكير فيه لتكريم بيكون. في ٢٥ من الشهر الثاني للعام الثالث الثورة الفرنسية منح الكونسرفاتوار الإذن للجنة التعليمات

العامة بأن تطبع الأعمال الكاملة لبيكون. وفي ١٨ من الشهر الأول للعام نفسه، قامت اللجنة نفسها بالتصويت على قانون لبناء منول للفنون والمهن، والذي كان سيكون إعادة إنتاج لفكرة الملك سليمان التي تحدث عنها بيكون في أطلنطس الجديدة، مثل المكان الذي فيه سيتم تجميع كل الاختراعات التقنية للإنسانية.

سأل ديوتاالليفي: ومعنى ذلك؟

قال بيلبو: إن البندول يوجد في الكونسرفاتوار.

وأدركت من رد فعل ديوتاالليفي إن بيلبو لم يطلعه على تأملاته الخاصة ببندول فوكو.

قلت: لنتمهل، إن البندول قد تم اختراعه وتركيبه في القرن الماضي، دعونا نهمله الآن.

قال بيلبو: نهمله؟ ألم تلقوا أي نظرة على كتاب جون دي هيروغليفية موناد، ذلك الطلسم الذي لابد وأن يحتوي على كل معرفة الكون؟ ألا يبدو كبندول؟



قلت: حسنًا، فلنفترض أنه بإمكاننا أن نجد علاقة بين الأمرين. كيف يمكننا أن ننتقل من سان ألبانو إلى البندول؟

واستطعت أن أعرف الإجابة خلال بضعة أيام.

إذن، إن رئيس دير سان ألبانو، هو أيضًا رئيس سان مارتان دي شوم، والذي بالتالي يصبح مركزًا تابعًا لفرسان المعبد. قام بيكون، عن طريق إقطاعيته بعقد علاقة مع الدرويد أتباع سان ألبانو. والآن استمعا: بينما يبدأ بيكون مستقبله المهني في إنجلترا، ينتهي في فرنسا مستقبل جويوم بوستيل.

(لحظت التغير المفاجئ على ملامح بيلبو. وتذكرت ذلك الحوار في عرض ريكاردي: جعل بوستل بيلبو يتذكر الرجل الذي في ذهنه، ذلك الذي اختطف لورينزا منه. لكن لم يستمر هذا سوى لحظة).

درس بوستل العبرية، وحاول إثبات ما هي المادة المشتركة بين كل اللغات، ترجم الزوهير والباهر، كانت له علاقات بالقباليين، بدأ مشروع سلام عالمي مشابهًا لمشروع مجموعات الروزا كروتشي الألمانية، حاول أن يقنع ملك فرنسا بالتحالف مع السلطان. زار اليونان وسوريا وآسيا الصغرى، درس اللغة العربية، باختصار أعاد إنتاج خطة كريستيان روزانكروتز. وليست مصادفة أن يوقع بعض الكتابات باسم روزيسبرجوس (والتي يعني ذلك الذي ينثر/ينشر الندى). وكتب جاسندي في كتابه التحليل الفلسفي Examen Philosophiae Fluddanae، أن روزنكروز ليس مصدرها روزا Rosa (الأحمر)، ولكن روز Roz أي الندى. وفي إحدى مخطوطاته يتحدث عن سر لابد من حراسته حتى تكتمل الأزمنة للكشف عنه ويقول: حتى لا تلقي اللآلئ للخنازير. وهل تعرفون أين يظهر هذا الاستشهاد الإنجيلي أيضًا؟ في صفحة العنوان في الزواج الكيميائي. وأثناء اتهامه لفلود، أحد أعضاء الروزا كروتشي، قال الأب مارينو ميرسيني إنه من العجينة نفسها التي لذلك الكافر الساحر بوستل. ومن جهة أخرى يبدو أن دي وبوستل التقيا عام ١٥٥٠، وربما لم يكونا يعرفان بعد، أو ربما لم يكن بإمكانهما أن يعرفا إلا بعد مرور ثلاثين عامًا، أنهما المعلمان الكبيران للخطة، والذي لابد أن يلتقيا عام ١٥٨٤. والآن يعلن بوستل ـ استمعا جيدًا إلى هذا ـ أنه نظرًا لكونه حفيدًا مباشرًا لابن نوح الأكبر، ونظرًا لأن نوح هو مؤسس الجنس الكلتي، وبالتالي حضارة الدرويد، فإن ملك فرنسا هو المُطالب الشرعي الوحيد للقب ملك العالم. هذا صحيح: هو هنا يتحدث عن ملك العالم لأجارثا، ولكن كان هذا قبلها بثلاثة قرون. ولندع أمر وقوعه في حب العجوز جوانا، واعتباره أنها صوفيا المقدسة، جانبًا، لابد أن الرجل لم يكن في كامل قواه العقلية. لكن لننتبه جيدًا إلى أن أعداءه كانوا أقوياء، وصفوه بالكلب، والوحش الملعون، ومجرور كل الهرطقات، وبأنه مسكون بفرقة من الأرواح الشريرة. إلا أنه، وعلى الرغم أيضًا من فضيحة جوانا، لم تعتبره محكمة التفتيش مهرطقًا، اعتبروا أنه فاقد لقواه العقلية فقط. أي أنهم لم يجرءوا على تحطيم الرجل، لأنه كان من المعروف أنه ينتمي إلى مجموعة قادرة إلى حد كبير. أقول لك أنت يا ديوتالليفي بأن بوستل سافر أيضًا إلى الشرق وأنه عاش في فترة حياة إسحاق لوريا. ولتستنتج من ذلك ما تريد. إذن في عام ١٥٦٤، العام الذي فيه ألف دي كتابه Monas Hieroglyphica، تراجع بوستل عن هرطقاته واعتزل في ... خمنا أين؟ في دير سان مارتان دي شوم! ماذا ينتظر؟ واضح بالطبع أنه ينتظر ١٥٨٤.

أكد ديوتالليفي: واضح جدًا.

استأنفت: هل نحن متفقون إذن؟ بوستل هو معلم عظيم للنواة الفرنسية، والذي ينتظر اللقاء مع المجموعة الإنجليزية، ولكنه يموت عام ١٥٨١، ثلاثة أعوام قبل اللقاء. الاستنتاجات: الأول: حادث ١٥٨٤ حدث لأنه في اللحظة الحاسمة اختفت عقلية حادة الذكاء مثل بوستل، والذي كان سيكون قادرًا على أن يُدرك ماذا حدث من اضطراب بين التقاويم، الاستنتاج الثاني: كان سان مارتان مكانًا يُعد كمقر لفرسان المعبد منذ الأزل وفيه مكث الرجل المسئول عن عقد اللقاء الثالث. كان سان مارتان دي شوم هو الملجأ.

كل شيء في مكانه تمامًا مثل الموزاييك.

والآن نستكمل. في فترة الميعاد الذي لم يتم، لم يكن بيكون يتجاوز العشرين من عمره. ولكن عام ١٦٢١ أصبح فسكونت سان ألبانو. ما الذي وجده في حوزة أسلافه؟ شيء غامض. إلى حد أنه في ذلك العام نفسه يتهمه أحدهم بالفساد ويتسبب في دخوله إلى السجن لبضعة أعوام. عثر بيكون على شيء يثير الخوف. لمن؟ ولكن من المؤكد أنه في تلك الفترة يدرك بيكون أن سان مارتان دي شوم هو مكان لابد من مراقبته ويتقدم بفكرة إقامة منزل سليمان هناك، تلك الورشة التي كان يمكن العمل فيها، من خلال وسائل تجريبية، على كشف السر.

سأل ديوتالليفي: ولكن، ماذا يمكننا أن نجد لنجعل هناك علاقة بين ورثة بيكون مع المجموعات الثورية لنهاية القرن الثامن عشر؟

قال بيلبو: ألا يمكن أن تكون الماسونية.

فكرة رائعة، في الحقيقة اقترحها آلييه في تلك الليلة في القصر.

لابد من إعادة ترتيب الأحداث. ماذا حدث بالتحديد في تلك الأماكن؟

(٧٥)

سيتمكن من الهروب من النوم الأبدي فقط من استطاع أثناء حياته أن يوجه ذهنه إلى الطرق العليا. إن الأتباع والأعضاء على حافة هذا الطريق. نظرًا لأنهم وصلوا إلى ذاكرة، وسوابق مرضية، بتعبير بلوتاركو، يصبحون أحرارًا، يستمرون بلا قيود. بمجرد تتويجهم، يحتفلون "بالأسرار"، ويرون على الأرض حشود أولئك الذين لم يبتدءوا، والذين ليسوا "أنقياء"، أولئك الذين يسحق ويدفع أحدهم الآخر في الوحل وفي الظلام.

تسرعت وتطوعت بأن أقوم ببعض الأبحاث السريعة. وندمت على الفور. وجدت نفسي أمام مستنقع من الكتب، والتي كان من الصعب فيها تمييز الواقع التاريخي من النميمة الهيرمسية، وبين المعلومات التي يمكن الثقة فيها من تلك الخيالية. عملت كالآلة لمدة أسبوع، بعدها قررت أن أدون قائمة، تكاد تكون غير مفهومة، من الشيع والجماعات والاجتماعات السرية. وكنت أتقابل أثناء ترتيبي لها أسماء مألوفة لم أكن أتوقع مقابلتها، وعثرت على بعض المصادفات الزمنية التي شعرت، لغرابتها، بضرورة تدوينها. وأطلعت شريكي في المؤامرة على تلك الوثيقة.

١٦٤٥ لندن: أسس أشمول الكلية غير المرئية، والمستوحاة من الروزا كروتشي.

١٦٦٢: ومن الكلية غير المرئية ولدت الجمعية الملكية، ومن الجمعية الملكية، كما يعرف الجميع، الماسونية.

١٦٦٦: باريس، أكاديمية العلوم.

١٧٠٧: ميلاد كلود لويس دو سان جيرمانو، إذا كان قد وُلد بالفعل.

١٧١٧: إنشاء المحفل الماسوني العظيم في لندن.

١٧٢١: يرسم أندرسن تخطيطًا لتأسيس الماسونية الإنجليزية. بدأت في لندن، يؤسس بيتر الأكبر محفلاً ماسونيًا في روسيا.

١٧٣٠: ينضم مونتسكيو للجماعة أثناء مروره في لندن.

١٧٣٧: أكد رامساي كون جماعة فرسان المعبد أصل الماسونية. وأصل الشعائر الإسكتلندية، وبالتالي في صراع مع المحفل الكبير في لندن.

١٧٣٨: ينضم فيديريكو، والذي كان الأمير الوريث لبروسيا، للجماعة. ويصبح حامي مجموعة كاتبي الموسوعات.

١٧٤٠: تنشأ في تلك الأعوام في فرنسا العديد من المحافل: الإكوسية فيديل في تولوس، المجلس الأعلى الملكي، المحفل الأم إيكوساز للكون الفرنسي العظيم، كلية الأمراء العظاء للملكية السرية في بوردو، بلاط القادة الملكيين للمعبد في كاكاسون، الفيلادلفيين في ناربونا، فصل الروزا كروتشي في مونبيلية، العظماء مختاري الحق...

١٧٤٣: الظهور الأول العلني لكونت سان جيرمانو. في ليون نشأت درجة الفارس كادوش، والذي سينتقم للفرسان.

١٧٥٣: فوليرموز يؤسس محفل الصداقة الكاملة.

١٧٥٤: مارتينز دي باسكوالي يؤسس معبد الإلوس كوهين (أو ربما كان ذلك في ١٧٦٠)

١٧٥٦: أسس البارون فون هاند فرسان المعبد المحافظين، والمستوحاة، كما يقول البعض، من فديريكو الثاني في بروسيا. وفيها يتحدثون لأول مُرة عن الرؤساء المجهولين. والبعض يلمح أن منهم فيدريكو وفولتار.

١٧٥٨: يصل سان جيرمانو إلى باريس، ويعرض خدماته على الملك بصفته كيميائيًا خبيرًا في الأصباغ. ويتردد على البوبادور.

١٧٥٩: يتم تكوين مجلس لإمبراطوري الشرق والغرب، والذي بعد ذلك بثلاث سنوات يتسع من دساتير وقوانين بوردو، والتي منها ستنحدر الشعائر الإسكتلندية القديمة، والمقبولة (إلا أنه لن يظهر بصفة رسمية إلا عام ١٨٠١). ومثل الشعائر الإسكتلندية تمامًا ستتضاعف الدرجات العليا لتصل إلى ثلاثة وثلاثين.

١٧٦٠: يصل سان جيرمانو في معهمة دبلوماسية غامضة إلى هولندا. ويؤسس دون بيرنتي حركة الإلوميناتي في أفينيون. ويؤسس مارتين دو باسكوالي فروسية ماسون إليو الكونية.

١٧٦٢: يذهب سان جيرمانو إلى روسيا.

١٧٦٣: يتقابل كازانوفا مع سان جيرمانو في بلجيكا حيث سيتدعيه سيرمون الذي يجول عملة إلى ذهب.

يؤسس ويللرموتز الجمعية العليا لفرسان الجناح الأسود للروزا كروتشي.

١٧٦٨: ويللرموتز ينضم لمختاري كوهين دي باسكوالي. يطبع الأبوكريف في أورشاليم "أكثر الأسرار غموضًا للدرجات العليا للماسونية المكشوفة، أو الروزا كروتشي

الحقيقية" ويقال إن محفل الروزا كروتشي فوق جبل هيريدون، على بعد ٦٠ ميل من أدنبرا. يتقابل باسكوالي لويس كلود لسان مارتان، والذي سيصبح مشهورًا بالفيلسوف المجهول. ويصبح دوم برنتي أمين مكتبة ملك بروسيا.

١٧٧١: يصبح دوق شارتر، والذي سيشتهر بعد باسم فيليب إيجاليتي، المعلم الأعظم للشرق الأعظم، ثم الشرق الأعظم لفرنسا، ويحاول أن يوحد كل المحافل. المقاومة من قبل محافل الشعائر الإسكتلندية.

١٧٧٢: يرحل باسكوالي لسانتو دومينيجو ويؤسس ويللرموتز وسان مارتان محكمة عليا، والتي ستصبح المحفل الإسكتلندي الأعلى.

١٧٧٤: يعتزل سان مارتان ليصبح الفيلسوف المجهول ومندوب جماعة الفرسان المتحفظة ويذهب للتفاوض مع ويللرموتز. نشأت عن ذلك إدارة إسكتلندية لإقليم ألفيرنيا. من إدارة ألفيرنيا ستنشأ الشعائر الإسكتلندية المُعدل.

١٧٧٦: يقدم سان جيرمانو، تحت اسم الكونت ويلدون، مشروعات كيميائية لفردريكو الثاني.

ولادة جماعة فيلاثات Philathètes، للاجتماع مع كل الهيرمسيين.

محفل الأخوات التسع، والذي كان من أعضائه جويوتين وكبانيس وفولتار وفرانكلين. أسس ويشبت الإيلوميناتي في بافييرا. والبعض يرون أن الحركة بدأت بتاجر دانمركي، كولمر، عند عودته من مصر، والذي هو ألتوتاس، معلم كاليوسترو.

١٧٧٨: يتقابل سان جيرمانو في برلين مع دوم بيرنتي. يؤسس ويليرمز نظام الفرسان للأعمال الخيرية للمدينة المقدسة. تتفق جمعية الفرسان المتحفظة مع جمعية الشرق الأعظم ليتم قبول الشعائر الإسكتلندية المعدلة.

١٧٨٢: المؤتمر العظيم لكل المحافل السرية في ويلهيسباد.

١٧٨٣: يؤسس الماركيز ثوميه شعائر سويدنبرج.

١٧٨٤: افتراض موت سان جيرمانو بينما هو في خدمة إقطاعيات هيسه، حيث كان يستكمل له مصنع أصباغ.

١٧٨٥: يؤسس كالياسترو شعائر ممفيس، والذي أصبح فيما بعد الطقس القديم والبدائي لممفيس-ميسرايم، والذي سيزيد الدرجات العليا إلى تسعين.

انفجرت فضيحة قلادة الملكة، والتي خطط لحدوثها كاليوسترو. يصفها ديوماس بأنها مؤامرة ماسونية لإزالة مصداقية الملكية.

تم قمع نظام الإيللوميناتي من بافييرا، للاشتباه للتآمر في تنظيم ثورة.

١٧٨٦: انضم ميرابو إلى إيللوميناتي بافييرا في برلين. ظهر في لندن بيان للروزا كروتشي تم نسبه إلى كاليوسترو. ميرابو يكتب خطاب لكالياسترو ولافاتر.

١٧٨٧: يوجد حوالي سبعمائة محفل في فرنسا. تم نشر الناتشتراج Nachtrag لواسيوبت، والذي يصف الخط البياني لإحدي المنظمات السرية، والتي يمكن فيها لأي عضو أن يعرف فقط رئيسه المباشر.

١٧٨٩: بدأت الثورة الفرنسية. أزمة محافل فرنسا.

١٧٩٤: وفي الثامن من الشهر الأول للثورة الفرنسية قدم النائب جريجوار لمجلس الثورة مشروع كونسرفاتوار الفنون والمهن، والذي سيتم إنشاؤه في سان مارتان دي شوم في عام ١٧٩٩، من مجلس الخمسمائة.

دوق برونسويك يدعي المحفل لأن ينحل لأن طائفة معادية مسممة قد أفسدتهم جميعًا.

١٧٩٨: القبض على كالياسترو في روما.

١٨٠١: في شارلستون يتم الإعلان عن المؤسسة الرسمية للشعائر الإسكتلندية القديمة والمقبولة، بثلاث وثلاثين درجة.

١٨٢٤: وثيقة بلاط فيينا إلى الحكومة الفرنسية: فيه اتهام للهيئات السرية مثل "المطلقين، المستقلين، والكاربونارا.

١٨٣٥: يقول القبالي أويتنجر إنه قابل سان جيرمانو في باريس.

١٨٤٦: الكاتب النمساوي فرانز جرافر ينشر تقرير لقاء أخيه مع سان جيرمانو بين ١٧٨٨ وعام ١٧٩٠، يستقبل سان جيرمانو الزائر وهو يتصفح كتاب لباراتشيلسو.

١٨٦٨: يؤسس باكونين الحلف الدولي للديمقراطية الاشتراكية، المستوحاة، بالنسبة للبعض، من الإيللوميناتي من بافييرا.

١٨٧٥: تؤسس هيلينا بتروفنا بلافاتسكي جمعية الثيوسوفية (الصوفية). وتظهر سلسلة الكشف عن إيزيس.

يعلن بارون سبيداليري نفسه عضوًا للمحفل العظيم للإخوة المتوحدين للجبل، وأخًا من الإيللوميناتي للقديم والنظام المرمم للمانكيين والمارتينيست.

١٨٧٧: تتحدث مدام بلافاتسكي عن الدور الثيوسوفي لسان جيرمان. ومن بين شخصياته التي ظهر فيها: روجيرو وفرانسيس بيكون، روزينكروتز وبروكلو، و سان ألبانو.

الشرق الأعظم الفرنسي يقمع الدعوة لاستدعاء المعماري العظيم للكون ويعلن حرية الضمير المطلق. يقطع العلاقات مع المحفل العظيم الإنجليزي ويصبح علمانيًا وأصوليًا.

١٨٧٩: تأسيس جمعية الروزا كروتشي في الولايات المتحدة.

١٨٨٠: يبدأ نشاط سان إيف دالفيدر. ليوبولد إنجلر يعيد تنظيم الإيللوميناتي لبافييرا.

١٨٨٤: ليوني الثالث عشر يدين في المجمع العام الحركة الماسونية. فتهرب منها الكاثوليكية وتهرع إليها الأصولية.

١٨٨٨: يؤسس ستانيسلاس دي جوايتا النظام القبالي للروزا كروتشي.

تأسس في إنجلترا نظام الفجر الذهبي الهرمسي. إحدى عشرة درجة بدءًا من المعتنق الجديد إلى أعلى الدرجات. وكان إمبراطورها هو ماكجريجور مازرس، والذي تزوجت أخته من بيرجسون.

١٨٩٠: يترك جوزيف بيلادان، المدعو جوزيفين، جوايتا ويؤسس الروزا كروتشي العالمية للفرسان وللجرال، مطلقًا على نفسه اسم سار ميروداك. وكان الصراع بين نظام الروزا كروتشي التابعين لجوايتا والتابعين لبيلادان يطلق عليه حرب الزهرتان The war of the Two Roses.

١٨٩١: ينشر بابوس الملامح المتهجية للعلوم السرية Traité méthodique de science occulte

١٨٩٨: ينضم آليستر كراولي لجماعة الفجر الذهبي. يؤسس فيما بعد نظام ثيليما Thelema

١٩٠٧: من الفجر الذهبي ولدت نجمة الصباح، والتي انضم إليها ييتس.

١٩٠٩: في الولايات المتحدة يعمل اتش سبنسر على إحياء النظام القديم للروزا كروتشي Anticus Mysticus Ordo Rosae Crucis وفي عام ١٩١٦، في أحد الفنادق، يتمكن من تحويل قطعة من الزنك لذهب. يؤسس ماكس هيندل زمالة الروزا كروتشي. ويلي ذلك في تواريخ غير محددة منظمات: مدرسة الروزا كروتشي، والإخوة الكبار للروزا كروتشي، الأخوية الهيرمسية، ومعبد الروزا كروتشي.

١٩١٢: أسست آني بيسانت، تلميذة بلافاتسكي، في لندن، نظام المعبد للروزا كروتشي.

١٩١٨: نشأت في ألمانيا جماعة ثول .Thule

١٩٣٦: نشأت في فرنسا بريوري دي جول Prieuré العظمي. وفي "كراسات الأخوية القطبية" يحكي إنريكو كونتاردي روديس عن زيارة لكونت سان جيرمانو.

قال ديوتالليفي: وما معنى هذا كله؟

لا تسألني، ألم تطلبا معلومات؟ هاهي أمامكما. لا أعرف أي شيء آخر.

لابد من استشارة آلييه. أراهن أنه حتى هو لا يعرف كل هذه المنظمات.

أتريد المراهنة على ذلك؟ إنها خبزه اليومي. ولكن يمكننا اختباره. لنضيف فرقة لا وجود لها، مؤسسة حديثًا.

تذكرت السؤال الغريب الذي طرحه على دي أنجيليس إذا كنت سمعت أي حديث عن التريس. وقلت: التريس .Tres

سألني بيلبو: وماذا يكون هذا؟

قال ديوتالليفي: إذا كان هذا رمزًا لشيء ما، فلابد من وجود نص سفلي، وإلا لما تمكن كهنتي من ممارسة النوتاريكون. لنرى: Templi Resurgentes Equites Synarchici. Tres الفرسان الملكيين لإحياء المعبد، التريس.

هل هذا يناسبكما؟

نال الاسم استحساننا وكتبناه في ذيل القائمة.

قال ديوتالليفي وقد أخذته نوبة من الفخر: وسط كل هذه المنظمات السرية، ليس شيء يسير اختراع اسم إضافي.

(٧٦)

وإذا تعلق الأمر عندئذ بتحديد الطابع المسيطر على الماسونية الفرنسية للقرن الثامن عشر، سيكون من المناسب إطلاق كلمة واحدة عليها: نزعة هواة.

في المساء التالي دعونا آلييه إلى بار بيلادي. وعلى الرغم من أن زبائن البار الجدد قد عادوا إلى ارتداء السترات ورباط العنق، تسبب وجود ضيفنا، بسترته الزرقاء الجيري المخططة وقميصه الأبيض كالثلج، رباط عنقه المزين بدبوس ذهبي، في دهشة الجميع. لحسن الحظ كان بار بيلادي شبه خاو في الساعة السادسة.

سبب آلييه اضطرابًا لبيلادي عندما طلب كونياك من نوع محدد. كان لدى بيلادي هذا النوع، بالتأكيد، ولكن كانت الزجاجة تقف متوجة على الرف خلف المنضدة الزنكية، دون أن يلمسها أحد، لسنوات.

فحص آلييه كأس المشروب في مواجهة الضوء، ثم دفأه بيديه، محركًا أصابعه ذات الخواتم الذهبية حركات أسلوبها تشبه ذلك الفرعوني.

أطلعناه على القائمة، وأخبرناه أننا وصلنا إليها من خلال البحث في مخطوطات عبدة الشيطان.

قال: حقيقة أن فرسان المعبد كانت لهم علاقة مع المحافل الأولى لمعلمي الماسونية التي تأسست أثناء بناء معبد سليمان هي حقيقة واقعة. ومن المؤكد أيضًا أن تلك الهيئات، منذ ذلك الحين، كانوا يستعيدون تضحية المهندس المعماري للمعبد، هيرام، والذي سقط ضحية اغتيال غامض، وأقسموا على الانتقام له. إذن ما حدث بعد اضطهاد فرسان المعبد أن العديد منهم لابد وقد انضم إلى إخوته البنائين تلك، وصهروا أسطورة الانتقام لهيرام مع الرغبة في الانتقام لجاك دي موليه. في القرن الثامن عشر كان يوجد في لندن محافل ماسونية أصيلة، وكانت تُدعى محافل عاملة. لكن انضم إليها بالتدريج بعض السادة الشاعرين بالملل، إلا أنهم كانوا موضعًا لكثير من

الاحترام، بعد أن جذبتهم الطقوس التقليدية، فتنافسوا على الانضمام إليها. تسبب هذا في أن الماسونية العاملة، تاريخ البنائين الحقيقيين، تحولت إلى الماسونية المتآمرة، وتاريخ البنائين الرمزيين. في جو مثل هذا ، قام شخص يُدعى ديزاجوييه، أحد مشجعي نيوتن، بالتأثير على أحد الرعاة البروتستانت، أندرسن، وتسبب في امتداد لتشريعات إلى محفل للإخوة البنائين، ذات الإيحاء الدايست، وبدأ يتحدث عن تحالفات الماسونية كهيئات يعود أصلها إلى أربعة آلاف عام، إلى بنائي هيكل سليمان. وإلى هذا يعود السبب في القناع الماسوني، والمريلة، والمطرقة. وربما لهذا السبب انتشرت الماسونية وأصبحت كالموضة، فجذبت النبلاء، بسبب الأصول العائلية التي تتيح لهم الفرصة في اكتشافها، ولكنها كانت تعجب أكثر طبقة البرجوازيين، والذين ليس فقط يمكنهم الانضمام وأن يصبحوا على قدم المساواة مع النبلاء، ولكن يتم السماح لهم أيضًا بحمل السيوف القصيرة. وفي بؤس العالم الحديث الوليد يحتاج النبلاء لمجال يمكنهم فيه الاتصال بالمنتجين الجدد لرءوس الأموال، أما الآخرون فكانوا يبحثون عن شرعية لهم.

ولكن يبدو أن فرسان المعبد قد تم استبعادهم بعد ذلك.

إن من قام بعد ذلك بعقد علاقة مباشرة مع الفرسان كان رامسي، والذي أفضل عدم التحدث عنه. ولكنني أشك أنه كان متأثرًا باليسوعيين. ومن إحدى وعظاته نشأ الجناح الإسكتلندي للماسونية.

إسكتلندي بأي معنى؟

إن الشعائر الإسكتلندية هي بدعة فرانكو ألمانية. كانت الماسونية في لندن قد وضعت أساس الدرجات الثلاث: التابع والرفيق والخبير. أما الماسونية الإسكتلندية فقد ضاعفت من عدد الدرجات، والذي يعني بالتالي تضاعف عدد شعائر الانضمام والسر... أما الفرنسيون، البلهاء بطبعهم، جن جنونهم...

أي سر؟

لا يوجد سر، هذا واضح. لأنه إذا كان هناك سر ما ـ أو إذا كان لدى هؤلاء سر ما ـ لكانت تركيبته اتفقت مع تركيبة الرتب ودرجات العضوية. قام رامسي بجعل الدرجات مضاعفة ليعتقد الجميع في وجود سر. ويمكنكم تخيل انفعالات التجار المهرة الذين سيتمكنون في النهاية من أن يصبحوا أمراء الانتقام...

كان آلييه ماهراً في النميمة الماسونية. وأثناء التحدث، كما هي عادته، بدأ بالتدريج في التحدث مستخدماً ضمير المتحدث:

في تلك الفترة كانوا في فرنسا يكتبون أبياتًا عن موضة "البنائين الأحرار"، تضاعفت المحافل وجذبت إليها أساقفة ورهبان. بارونات وتجار، وأصبح أعضاء الأسرة الملكية في مرتبة الخبير الأعظم. وفي منظمة الفرسان المتحفظين للمدعو فون هند انضم جوته وليسنج، موتزار وفولتار. وانتشرت المحافل بين المحاربين، وفي الفرق المختلفة كانوا يخططون للانتقام لهيرام ويتناقشون في الثورة الحتمية. ولكن بالنسبة للآخرين كانت الماسونية "مجتمع المتعة"، مثل أحد الأندية، أو رمز للوضع الاجتماعي. كان يمكن فيها العثور على كل شيء: كليوسترو، ميسمر، كازانوفا، بارون دولباك، أليمبر... مؤلفو الموسوعات والسيميائين، الداعين للانحلال والمتصوفين. وعلى أعتاب الثورة وجد أعضاء المحفل الواحد في جبهتين متناقضتين، وبدا أن الأخوية العظيمة لن تنجو من الأزمة".

ألم يكن هناك تعرض بين الشرق الأعظم والمحفل الإسكتلندي؟

شفهيًا فقط. على سبيل المثال: استقبل محفل الأخوات الجدد فرانكلين، والذي كانت أهدافه، بالطبع، علمانية؛ ولم يكن يهمه سوى دعم الثورة الأمريكية... ولكن في الوقت نفسه كان أحد الخبراء العظماء هو ميللي، والذي كان يبحث عن إكسير الحياة الأبدية. ونظرًا لأنه كان أحمق، فلقد سمم نفسه من إحدى تجاربه ومات. ومن جهة أخرى بالتفكير في كليوسترو: من جهة كان يبتدع الشعائر الفرعونية، ومن جهة أخرى كان متورطًا في فضيحة عقد الملكة، تلك الفضيحة التي نظمتها الطبقات الحاكمة الجديدة لتنزع المصداقية عن الحكم القديم. كان كليوسترو أيضًا متورطًا في هذا، هل تفهمون؟ حاولوا أن تتخيلوا مع أي نوع من البشر كان على المرء أن يتعايش...

قال بيلبو بتفهم: لابد أن الأمر كان جد قاس.

سألت: ولكن من كان هؤلاء من أمثال البارون فون هوند الذين يبحثون عن الرؤساء المجهولين....؟

ظهرت حول البرجوازية الهزلية مجموعات متباينة النوايا، والذين لم يكن لهم أتباع، صقوا أنفسهم بالمحافل الماسونية، ولكن في الواقع كانت أهدافهم تصوفية أكثر. وبدأ،

في هذه اللحظة، الجدل حول الرؤساء المجهولين. ولكن للأسف لم يكن فون هوند شخصًا جادًا. في البداية أوهم الأعضاء بأن الرؤساء المجهولين هم عائلة ستيوارت الملكية. ثم قرر أن هدف النظام هو العثور على الأملاك الأصلية لفرسان المعبد، وأخذ يجمع أموالاً من كل الجهات. وعندما لم يرض بما حصل عليه سقط بين يدي شخص يُدعى ستارك، والذي كان يقول إنه قد حصل على سر صناعة الذهب من الرؤساء المجهولين شخصيًا، وهم في بيترسبرج. أسرع للالتفاف حول فون هوند وستارك ثيوسوفيين، سيميائيون من النوع الرخيص، أشخاص أصبحوا أعضاء للروزا كروتشي في اللحظات الأخيرة وانتخبوا جميعًا رجلاً مستقيمًا جدًا: دوق برنسويك، في منصب الخبير الأعظم. أدرك دوق برنسويك على الفور أنه في وسط أسوأ صحبة. أحد أعضاء النظام المتحفظ، كونت هيسه، قام باستدعاء كونت سان جيرمانو، معتقدًا بأن هذا الشخص المهذب يمكنه أن يصنع له الذهب، ولم لا، في تلك الفترة كان لابد من الخضوع لرغبات القادرين. ولكن كان هذا الشخص يعتقد بأنه القديس بطرس، أؤكد لكم أيها السادة: في إحدى المرات لافاتر، والذي كان ضيفًا على البارون، اضطر لخوض مشاجرة مع دوقة دفونشاير، حيث كانت تعتقد بأنها مريم المجدلية.

ولكن ماذا عن ويلليرموز، ومارتين دي باسكوالي، والذين أخذوا في تأسيس طائفة تلو الأخرى..؟

كان باسكوالي مغامرًا قديمًا. كان يمارس عمليات سحرية في إحدى حجراته السرية، وكانت الأرواح الملائكية تظهر له في شكل عبارات مضيئة وحروفًا هيروغليفية. وصدقه ويللرموز لأنه كان متحمسًا، شريفًا وساذجًا. كان مولعًا بالسيمياء، وفكر في عمل عظيم لابد أن يكرس المختارون إليه أنفسهم، ليكتشفوا نقطة الاتحاد للمواد الست النبيلة من خلال دراسة المقاييس التي تتضمنها الحروف الستة الأولى لاسم الله، والذي عرفه سليمان النبي للمختارين.

وبعد ذلك؟

أسس ويلليرموز العديد من الأنظمة وانضم إلى العديد من المحافل في الوقت نفسه، كما كانت العادة في تلك الأيام، وذلك سعيًا باستمرار لكشف محدد، وخشية أن يظهر هذا الكشف في مكان آخر– كما حدث بالفعل ـ بل وربما تكون هذه هي الحقيقة الوحيدة... وهكذا انضم إلى إلوس كوهين دي باسكوالي. ولكن اختفى باسكوالي عام

١٩٧٢، أبحر إلى سان دومينيكو، وترك كل شيء معلقًا في الهواء. لماذا رحل؟ أشك في أنه امتلك سرًا لم يكن يرغب في مشاركته مع أحد. على كل حال، ليرحمه الله، مات في تلك القارة، مجهولاً كما استحق...

وماذا عن ويليرموز؟

في تلك الأعوام، اضطرب الجميع لموت سويدنبرج، رجل كان يمكنه تعليم الكثير للغرب المريض، إذا كان الغرب قد استمع إليه، ولكن كان القرن قد بدأ بالفعل صراعه المحموم نحو تطوره الجنوني، تابعًا طموحه نحو الدولة الثالثة... في تلك الفترة سمعهم ويللرموز يتحدثون عن نظام الفرسان المتحفظين لفون هوند وأعجب به جدًا. قيل له إن فارس المعبد الذي يعلن عن نفسه، أي من خلال إنشاء هيئة عامة، ليس فارسًا حقيقيًا، ولكن كان للقرن الثامن عشر طبع المصداقية. عقد ويليرموز مع دون هوند التحالفات المختلفة، المكتوبة عنه في قائمتكم، حتى تم إزالة القناع عن دون هوند، أي اكتشفوا أنه من تلك الشخصيات التي تختلس من الخزانة، وخلعه دوق برونسويك من المنظمة.

ألقى بنظرة أخرى على القائمة: آه، بالفعل، كدت أنسى وايزهوبت. قام الإيللوميناتي في بافييري، باسم كهذا، بجذب الكثير من العقول السخية في البداية. ولكن كان وايزهوبت هذا فوضويًا، الآن يطلقون على أمثاله اشتراكيًا، وهل تعرفون ماذا كان يخطط في ذلك الوسط؟ انقلاب عسكري، القضاء على السلطة الملكية وبحور من الدم... لتلاحظوا أنني كنت من أشد المعجبين بوايزهوبت، ليس من أجل أفكاره، ولكن من أجل رؤيته الجلية عن كيفية عمل منظمة سرية. من الممكن أن تكون هناك موهبة بارعة في لتخطيط، ولكن تكون ورائها أفكار شديدة الاضطراب.

باختصار وجد دوق برونسويك نفسه وقد اضطر لإدارة الاضطراب الذي تركه فون هوند وأدرك أنه قد يوجد بالفعل في النطاق الماسوني الألماني ثلاثة اتجاهات متصارعة: الجناح المعرفي والغامض، متضمنًا بعضًا من الروزا كروتشي، والجناح الأصولي، والجناح الفوضوي الثوري للإيلوميناتي في بافييرا. ولذلك اقترح على الأنظمة المختلفة اللقاء في ويلهمسباد لعقد "مؤتمر"، كما كانوا يطلقون عليه في ذلك الوقت، يمكن القول حول الحالات العامة. كان لابد للمؤتمر أن يجيب على الأسئلة التالية: هل للنظام بالفعل أصل قديم، وما هو؟ هل يوجد بالفعل رؤساء مجهولون حراس للتراث القديم، ومن هم؟ ما هي الأهداف الحقيقية للنظام؟ هل هذا الهدف هو

إعادة تأسيس نظام فرسان المعبد؟ وهكذا. وكان الأمر يتضمن أيضًا مشكلة إذا كان النظام عليه الاهتمام بالعلوم السرية. انضم ويلليرموز للمؤتمر بحماس، أخيرًا سيعثر لإجابات على الأسئلة التي كثيرًا ما طرحها بأمانة طوال حياته... وهنا ظهرت حالة دو ماستر.

سألته: أي دو ماستر جوزيف أم زافييه؟

جوزيف.

الرجعي؟

لم يكن رجعيًا بالدرجة الكافية. كان رجلاً فضوليًا. لتلاحظوا أن هذا الشخص الذي كان يدعم الكنيسة الكاثوليكية، في الوقت الذي بدأ الأحبار الأوائل فيها إصدار قوانين ضد الماسونية، انضم إلى أحد المحافل، باسم جوزيفوس في فلوريبوس. بل اقترب من الماسونية عندما قام أحد الأحبار، الذي لم يجلس طويلاً على كرسيه، بإدانة النظام اليسوعي عام ١٧٧٣. وبالتأكيد اقترب دو ماستر للمحافل من النوع الإسكتلندي، فهو ليس تنويريًا برجوازيًا، ولكنه تنويري ـ ولكن لابد من الانتباه إلى تلك الفروق، لأن الإيطاليين يدعون اليعقوبيين أيضًا تنويريين ، بينما في الدول الأخرى يطلقون الاسم نفسه على أتباع التقاليد، شيء مثير للفضول والاضطراب...

كان يرتشف الكونياك، ومن علبة سجائر مصنوعة من معدن يكاد يكون أبيض، أخرج سيجار شكله غير مألوف. وقال: "أحد صانعي الدخان يصنعها خصيصًا من أجلي، إنها مثل السيجار الذي كان في منزلي... تفضلوا... إنه نوع ممتاز...

كان يتحدث وعيناه تتجول في الذكريات.

كان دو ماستر رجل دمث الأخلاق، وكان الاستماع إليه من المتع الروحية. حصل على العديد من السلطة في أوساط العبادات السرية. إلا أنه في ويلهيمسباد خيب جميع توقعاتنا. أرسل خطابًا إلى الدوق، فيه يرفض بشدة أي علاقة بفرسان المعبد، وينكر وجود الرؤساء المجهولين، وفوائد العلوم الغرائبية. كان الرفض بدافع الإخلاص للكنيسة الكاثوليكية، ولكنه كان يفعل ذلك بموضوعية معد الموسوعات البرجوازية. عندما قرأ الدوق الخطاب في دائرة مجموعة من المخلصين، لم يرغب أحد في تصديق ذلك. حيث أكد دو ماستر فيها أن هدف النظام هو فقط إعادة التكامل الروحي وأن الشعائر

والطقوس التقليدية تفيد فقط في إيقاظ الروح التصوفية. كان يمدح كل الرموز الماسونية الجديدة، ولكنه كان يقول إن الصورة التي تمثل العديد من الأشياء لا تمثل أي شيء. وهو الشيء ـ اعذروني ـ المتناقض لكل التراث الهيرمسي، لأن الرمز كان ممتلئًا، كاشفًا، وقويًا كلما ازداد غموضًا، وإلا أين نضع مثلاً روح هيرمس، إله الألف وجه؟ وأما فيما يتعلق بفرسان المعبد فقد كان دو ماستر يقول إن نظام المعبد قد تم إبداعه من الطمع وتسبب الطمع في تدميره، ليس إلا. لم يستطع السافوياردي أن ينسى أن النظام قد تم تدميره بناء على أمر بابوي. لا يجب على الإطلاق الثقة في المشرعين الكاثوليك، مهما بدت دعوتهم الهيرمسية قوية. حتى إجابته على الرؤساء المجهولين كانت مثيرة للضحك: لا وجود لهم، والدليل على ذلك أننا لا نعرفهم. وكان الاعتراض عليه بأنه إذا كنا نعرفهم كيف يمكن أن يكونوا مجهولين. هل تبدو لكم طريقته في التفكير جميلة؟ الشيء الغريب كيف يمكن لمؤمن بهذا الطبع أن يكون بعيد كل هذا البعد عن معنى الغموض. بعد ذلك أطلق دو ماستر دعوته الأخيرة: فلنعد إلى الإنجيل ونهجر إلى الأبد جنون ممفيس. لم يفعل سوى ترديد السطر الألفي للكنيسة علينا.

بالطبع تدركون في أي جو تم عقد اجتماع ويلهيمسباد. بعد ارتداد سلطة مثل دي ماستر، وُضع ويللرموز مع الأقلية، وتمكنوا بالكاد من العثور على حل وسط: احتفظوا من خلاله بطقوس فرسان المعبد، تم تأجيل الوصول إلى استنتاجات حول الأصول، أي الفشل الذريع. وفي تلك اللحظة فقدت النزعة الإسكتلندية فرصتها: وإذا كانت الأشياء قد صارت بطريقة مختلفة، ربما كان سيغير ذلك تاريخ القرن القادم.

سألت: وماذا حدث بعد ذلك؟ ألم يتم تجميع أي شيء؟

وماذا تريد أن يجمعوا، إذا استخدمت كلماتك... بعد ذلك بثلاث سنوات مات أحد المبشرين الإنجيليين ممن قد انضموا للإيللوميناتي في بافيرا، ويُدعى لانسي، بعد أن أصابته بصاعقة في إحدى الغابات. وجدوا معه تعليمات خاصة بالنظام، تدخلت الحكومة البافارية، واكتشفوا أن وايسهوبت كان يتآمر ضد الحكومة، وتم قمع النظام في العام التالي. ولم يكتفوا بهذا، بل نشروا أيضًا بعض المخطوطات الخاصة بوايسهويت مع مشروعات الإيللوميناتي المزعومة، والتي أفقدت المصداقية لمدة قرن بكل ما يتعلق بنزعة فرسان المعبد الجديدة الفرنسية والألمانية... ولتلاحظ أنه من المحتمل أن إيللوميناتي وايتسهوبت كانوا يقفون بجوار الماسونية اليعقوبية وأنهم قد اندسوا في

صفوف نزعة الفروسية الجديدة ليدمروها. ولن تكون بالمصادفة أن جذبت هذه العقلية الشريرة إلى جانبها ميرابو نفسه، زعيم الثورة. هل تريدون الاطلاع على سر؟

قل لنا.

إن رجالاً مثلي، مهتمون بإعادة الاتصال بخيوط تراث مفقود، يجدون أنفسهم في حالة من الضياع أمام حدث مثل ويلهيلمسباد. البعض خمن ما سيحدث والتزم الصمت، والبعض كان يعرف وكذب. وبعد ذلك كان الوقت متأخر جداً، في البداية عاصفة الثورة، ثم التكالب على العبادات السرية في القرن التاسع عشر... انظروا إلى القائمة التي بحوذتكم، احتفالية من عدم الإيمان والمصداقية، إهانات، وتبادل للعنات، أسرار تنتقل على أفواه الجميع. إنه مسرح العبادات السرية".

سأل بيلبو: هل تقصد أن أتباع العبادات السرية يصعب الاعتماد عليهم؟

لابد أن نعرف كيف نفرق بين نزعة العبادة السرية والنزعات السرية. إن النزعة السرية هي البحث عن معرفة لا يمكن أن تنتقل إلا عن طريق الرموز، المغلقة بالأختام بالنسبة للمجدفين. أما نزعة العبادة السرية، والتي انتشرت في القرن التاسع عشر، فهي قمة الجبل الثليجي، ذلك القليل الذي يمكن الوصول إليه من السر الغامض. كان فرسان المعبد من ممارسي العبادات السرية، والدليل على ذلك أنه عندما تعرضوا للتعذيب فضلوا الموت لإنقاذ سرهم. إن القوة التي حافظوا بها على هذا السر هي ما تجعلنا نتأكد من ذلك، وأن نشعر بالحنين لما عرفوه. إن ممارس الشعائر السرية هو عارض أيضًا. وكما كان يقول بيلادان، إن كشف سر العبادة السرية لا يفيد في أي شيء، ولكن للأسف لم يكن بيلادان من المتعبدين بل من الممارسين. إن القرن التاسع عشر هو قرن الاتهامات. كان الجميع يتسارعون لنشر أسرار السحر والأرواح والقبالاة والتاروك. وليتهم كانوا يؤمنون.

أخذ آلييه يتصفح قائمتنا بنظرة تملأها الحسرة: هيلين بتروفنا: كانت امرأة ماهرة في العمق، ولكنها لم تقل شيئًا واحدًا لم يكن مكتوبًا على كل الجدران... دي جوايتا كان أمين مكتبة يتعاطى المخدرات. بابوس: كان ذلك ماهرًا. ثم توقف فجأة وقال: تريس... من أين عثرتم على هذا الخبر؟ من أي وثيقة؟؟

يا له من ماهر، فكرت، كيف أدرك الخدعة. تمسكنا بالغموض: أنت تعرف أن القائمة قد تم إعدادها بالاطلاع على الكثير من الوثائق، وبعض منها أعدناها مرة أخرى لأصحابها، كانت أشياء لا تستحق. هل تعرف من أين أتت هذه يا بيلبو؟

لا أعتقد. ماذا عنك يا ديوتاالليفي؟

لقد مر على هذا عدة أيام بالفعل... هل هذا شيء مهم؟

طمأننا آلييه قائلاً: لا شيء بالمرة. فقط لأنها المرة الأولى التي أسمع فيها هذا الاسم. ألا تعرفون فعلاً من الذي ذكره؟

للأسف لم يكن أي منا يتذكر.

أخرج آلييه ساعته من جيبه وقال: يا إلهي! كان لدي ميعاد آخر. أستأذنكم.

تركنا واستكملنا نحن مناقشتنا.

الأمر الآن أكثر وضوحًا. أطلق الإنجليز الاقتراح الماسوني ليجمعوا كل ممارسي العبادات السرية في أوروبا لتنفيذ خطة بيكون.

ولكن لا ينجح سوى منتصف المشروع: إن فكرة عمل أتباع بيكون ساحرة إلى حد أنها تسببت في نتائج متناقضة مع توقعاتهم. يفهم الفرع، الذي يطلقون عليه اسم الإسكتلندي. القناعة الجديدة كنوع من إعادة تركيب اللاحق، ويتصلون بفرسان المعبد الألمان.

يجد آلييه القصة غير مفهومة. ولكن الأمر واضح. نحن فقط يمكننا أن نعرف ماذا حدث. وماذا نريد أن يحدث. عند هذا الحد تقوم المراكز القومية المتنوعة بالاتصال فيما بينها البعض منها ضد الآخر، ولا أستبعد أن يكون مارتينس دي باسكوالي هذا عميلاً لجماعة تومار، وينكر الإنجليز الإسكتلنديين، والذين هم بدورهم فرنسيون، ومن الواضح أن الفرنسيين منقسمون إلى مجموعتين، أحدهما مؤيدة للإنجليز والأخرى مؤيدة للألمان. أما الماسونية فهي الغطاء الخارجي، الحجة التي بفضلها يمكن، لكل العملاء من المجموعات المختلفة، الالتقاء والصراع في محاولة لأن ينتزع كل منهم جزء من السر من الآخر.

قال بيلبو: كانت الماسونية مثل قهوة ريك الأمريكية في كازابلانكا. وهو الامر الذي تسبب في الانقلاب الذي حدث للرأي العام. فالماسونية ليست جماعة سرية.

- إنها ليست سوى ميناء حر كماكاو. واجهة. أما السر فيقبع في مكان آخر.

- مساكين الماسونيين.

- أي تطور يتطلب ضحايا. لتعترفوا إذن أننا في طريقنا للعثور على تفسير عقلي حتمي للتاريخ.

- إن عقلنة التاريخ هي تأثير القراءة الجيدة للتوراة ـ قال ديوتاليفي ـ وهذا ما نفعله الآن، ومبارك هو اسم العلى.

- حسنًا ـ قال بيلبو. الآن نجد أن أتباع بيكون لديهم سان مارتان دي شوم، والجناح الجديد لفرسان المعبد ذلك الفرنسي/الألماني ينقسم إلى العديد من الفرق.... ولكننا لم نقرر بعد ما هو السر.

قال ديوتاليفي: هذا يعتمد عليكما.

- عليكما؟ إننا جميعًا سويًا في هذا، وإذا لم نستطع مواجهة هذا بشرف سيكون عارنا عظيمًا.

- مع من؟

- مع التاريخ، مع رئيس الحقيقة.

سأل بيلبو: وما هي الحقيقة؟

قلت: نحن!

(٧٧)

هذا العشب أسماه الفلاسفة "طارد الشياطين". من خلال التجربة تم إثبات أن هذه البذرة فقط تطرد الشياطين وهذيانها... إذا أعطيت لامرأة يعذبها الشيطان ليلاً، تتخلص منه على الفور.

خلال الأيام التالية لذلك، أهملت الخطة. كانت ليا في أيام حملها الأخيرة، وكنت أمكث بجوارها كلما استطعت. كنت متوترًا، ولكنها كانت تهدئ من روعي، قائلة إن اللحظة لم تأت بعد. كانت تتردد على فصل دراسي في الولادة بلا ألم، وكنت أحاول متابعة تمارينها. رفضت ليا عرض العلم بأن يعرفنا جنس الطفل مقدمًا. أرادتها مفاجأة. وبقبولي ذلك التصرف الغريب من جهتها، كنت أضع يدي على بطنها ولم أسأل نفسي ماذا سيخرج منها. وأطلقنا عليه "الشيء".

سألت كيف يمكنني المشاركة في عملية الولادة. وقلت: إن هذا الشيء لي أنا أيضًا، لا أريد أن أكون مثل آباء الأفلام الذين يقضون الوقت ذهابًا وإيابًا في الممر، وهم يدخنون السيجارة تلو الأخرى.

يا بيم! لا يمكنك عمل الكثير. ستأتي اللحظة التي سيصبح الأمر كله أمري أنا. ثم إنك لا تُدخن ولا تريد أن تبدأ هذه العادة السيئة بهذه المناسبة.

إذن ماذا سأفعل؟

ستشترك فيما بعد بطريقة أو بأخرى. بعد ذلك، إذا كان ذكر ستعلمه، وترعاه وتخلق منه أوديبًا صغيرًا كما ينبغي، وستسارع مبتسمًا إلى أداء الشعائر الأبوية عندما تأتي اللحظة المناسبة، وبلا مقدمات. ثم، يوم ما، ستطلعه على مكتبك البائس، والبطاقات والوثائق الأولية لقصة المواد وستقول له: ابني الحبيب، كل هذا سيؤول إليك يومًا ما.

وإذا كانت فتاة؟

ستقول لها: ابنتي الحبيب، كل هذا سيؤول لزوجك البائس في يوم ما.

وقبل ذلك؟

أثناء عملية الولادة، وبين هجوم ألم المخاض وآخر عادة ما تكون هناك فترات ولابد من العد، لأنه قلت الفترة بين الآلام كلما اقتربت اللحظة الحاسمة. سنعد سويًا، وستصنع لي أنت الإيقاع. سيكون وكأنك تعمل أنت أيضًا على إخراج "الشيء" بالتدريج من مخبأه المظلم. مسكين، مسكينة.. حاول أن تشعر به. فهو مستريح الآن في مخبأه المظلم، يمتص المشاعر مثل الأخطبوط، كل شيء مجاني، ثم فجأة يجد نفسه وقد خرج إلى نور الشمس، سينظر نظرات متسارعة ويقول أين أنا الآن؟

مسكين، مسكينة. ولن يعرف بعد السيد جاراموند. هيا، لنحاول أن نقوم بالعد.

أخذنا نعد في الظلام ممسكًا أحدنا بيد الآخر. أخذت أحلم يقظًا. أصبح "الشيء" شيئًا حقيقيًا، والذي بولادته سيمنح معنى لكل حواديت عبدة الشيطان. مساكين، يقضون لياليهم مخترعين زيجات كيميائية متسائلين إذا كان سينتج عنها ذهب ١٨ قيراطًا، وإذا كان الحجر الفلسفي هو الحجر الأعظم، جرال بائس من الطمي: بينما كأسي أنا في أحشاء ليا.

أجل، قالت ليا وهي تمرر يديّ على عروقها المنتفخة المشدودة، هنا تُطحن موادك الأولية. أولئك الذين رأيتهم في القلعة ماذا كانوا يعتقدون في حدوثه في الأوعية؟

آه، كانوا يعتقدون بأن الحزن يتبرم بداخلها: الأرض القاسية، المضخة السوداء، زيت زحل، وكأن ما يحدث تنقية ونزع الشوائب، وضوء واغتسال، انغماس، أرض خصبة، وقبور عفنة...

- ماذا كانوا، عاجزين؟ ألا يعرفون أن "شيئًا" ينمو في الوعاء، شيء أبيض كله، جميل ووردي؟

- بالطبع يعرفون ذلك، ولكن بالنسبة إليهم بطنك ليست سوى رمز، مليء بالأسرار...

- لا توجد أسرار يا بيم. إننا نعرف جميعًا كيف يتكون "الشيء" بأعصابه وعضلاته الصغيرة، بعينيه، بطحالاته الصغير وبنكرياسه...

- يا إلهي، أكثر من طحال؟؟ من سيكون هذا ابن روزماري؟

- كنت أتحدث بصورة عامة. ولكننا بالطبع سيكون علينا استعداد أن نحبه حتى وإن كان له رأسان.

بالتأكيد!! سأعلمه أن يعزف عزف مزدوج بالبوق والكلارينت... لا، سيحتاج في هذه الحالة أن تكون له أربع أيادي. ولكن إذا فكرت في الأمر مليًا، سيكون عازف بيانو بارع. حفل موسيقي لليد اليسري... فكرة تبعث على ... ولكن في هذه الحالة، سيعرف عبدة الشيطان أصدقائي بأنه في ذلك اليوم في المستشفى بأنه سيولد العمل العظيم، الخنثى.

- هذا ما ينقصنا... اسمع شيئًا أهم... سنطلق عليه جوليو أو جوليا على اسم جدي، هل توافق على هذا؟

يعجبني. حسنًا.

ليتني توقفت هنا. إذا كنت قد كتبت فقط دليلاً للسحر الأسود لكل أعوان سلسلة الكشف عن إيزيس، لأشرح لهم أنه لا حاجة الآن للبحث عن السر الأعظم، وأن قراءة الحياة لا تكشف عن أي معنى خفي، بل إن كل شيء موجود هنا، في أحشاء كل النساء الحبالى في العالم، في حجرات مستشفيات الولادة، على القش في الحظائر، في الأنهار، وأن الأحجار التي تخرج من مخابئها والجرال المقدس ليست سوى قرود صارخة تتدلى منها حبالها السرية ويضربها الطبيب على مؤخرتها. أما الرؤساء المجهولون بالنسبة لـ "شيء"، هما أنا وليا، والذي سيعرفنا على الفور دون أن يضطر لسؤال إلى مايستر الشيخ المجنون.

ولكن هذا لم يحدث. بسبب إصرارنا نحن الساخرين على اللعب مع عبدة الشيطان، وأن نثبت لهم أنه إذا كانت هناك بالفعل لعبة كونية، يمكننا نحن أن نخترع أكثر الخطط الكونية الموجودة.

تستحق كل ما حدث لك ـ قلت لنفسي في تلك الليلة ـ ها أنت تقف لتنتظر ما سيحدث أسفل بندول فوكو.

- إذا كان كيرشر على حق، توجد معابر في قلب الأرض أكثر من تلك الموجودة على السطح. أي شيء يحدث في الطبيعة ينتج من الحرارة والدخان في أسفل...

فكرت في العمل الأسود، وفي بطن ليا، في "الشيء" الذي كان يصارع ليخرج من بركانه العذب.

- ... وأن أي شيء يحدث في عالم الإنسان تم التخطيط له هناك بأسفل...

- هل قال الأب كيرشر هذا أيضًا؟

- لا، كان يهتم فقط بالطبيعة... ولكن الشيء الغريب هو أن الجزء الثاني من الكتاب عن الكيمياء والكيميائيين، وأنه هنا تمامًا، انظر، يوجد هجومًا على الروزا كروتشي. لماذا الهجوم على الروزا كروتشي في كتاب عن العالم السفلي؟ كان ذلك اليسوعي يعرف شيئًا ما: كان يعرف أن من بقي من فرسان المعبد قد لجأوا إلى المملكة السفلية لأجارثا...

- ومازالوا هناك. قلت مجازفًا.

قال سالون: ومازالوا، ليس في أجارثا، ولكن في أنفاق تحت الأرض. ربما أسفلنا نحن هنا تمامًا. ميلانو أيضًا بها مترو للأنفاق. من الذي قرر بناءه؟ من الذي قاد عملية الحفر؟

مهندسون خبراء بالتأكيد.

ها أنت تغطي عينيك بيديك، ولكن في الوقت نفسه في دار النشر الذي تعمل فيه تنشرون مثل تلك الكتب... كم عدد اليهود بين مؤلفيكم؟

أجبت بجفاء: نحن لا نطلب من مؤلفينا أن يملأوا استمارة عرقية.

لا تفكر فيّ كشخص مناهض للسامية. بل إن بعض أفضل أصدقائي... إنني أتحدث عن نمط معين من اليهود.

أي نوع؟

أنا أعرف ...

(٧٨)

أستطيع أن أؤكد أن هذا الهجين المتوحش لا يمكن أن يأتي من رحم أم، ولكن من أضغاث الأحلام، من الكوابيس، أو من شيطان آخر مرعب، وكأنه تم تخصيبه من فطر فاسد ومسمم، ابن آلهة القطعان والحوريات، قريب الشبه بالشيطان أكثر من قربه للإنسان.

في ذلك اليوم كنت أريد المكوث بالمنزل، كنت أستشعر شيئًا ما، ولكن قالت لي ليا بألا أتصرف كالزوج الأمير وبأن أذهب إلى عملي. قائلة: مازال هناك وقت يا بيم، لن يولد بعد، أنا أيضًا علي الخروج، اذهب.

كنت على وشك الوصول إلى باب مكتبي عندما فُتح باب السيد سالون. ظهر المسن، في مريلة العمل الصفراء. لم أستطع أن أتجنب مصافحته، ودعاني للدخول. لم أكن قد رأيت قط ورشته، فدخلت.

إذا كان ما يوجد من قبل خلف هذا الباب هو مسكن، إذن لابد وأن سالون قد هدم كل الحوائط المقسمة، لأن ما رأيته كان عبارة عن كهف، متسع وغير محدد الملامح. لسبب غامض هندسي كان ذلك الجناح من المبنى له سقف مزدوج الانحدار، وكان الضوء يتخلله من زوايا منحرفة. لا أعرف إذا كانت النوافذ متسخة أم مغطاة بالصقيع، أم إذا كان سالون قد غطاها ليتجنب شمس الظهيرة، أو إذا كان السبب هو كومة الأشياء المتراكمة في كل الجهات معلنة الخوف من ترك المساحات فارغة، ولكن كان الضوء في ذلك الكهف مثل ضوء الغروب. كان الكهف الكبير مقسمًا أيضًا إلى أرفف موضوعة تشبه أرفف الصيدليات القديمة، والتي كانت أقواسها تفتح ممرات، وتقاطعات ومشاهد. كان اللون السائد هو اللون البني، كانت الأدوات بنية، والأرفف والموائد والخليط بين نور الصباح مع الإضاءة الخافتة التي تبعثها مصابيح قديمة، والتي تضيء بالكاد بعض المناطق. كان انطباعي الأول بأنني دخلت ورشة أحد صانعي الآلات، والتي هجرها من زمن ستراتيفاريوس، فتراكم التراب لسنوات على البطون المنتفخة للأعواد.

ثم بدأت عيناي تعتادا تدريجيا، وأدركت حينئذ أنني موجود، كما كان لابد لي أن أتوقع، في حديقة من الحيوانات المحنطة. هناك بعيداً يوجد دب يتسلق فرعًا اصطناعيًا، عيناه زجاجيتان لامعتان، وبجواري كانت تقف بومة مندهشة، فرعونية. فوق المائدة الموضوعة أمامي كان يوجد ابن عرس أو دلق أو ظربان.. لا أعرف. وفي منتصف المائدة، كان يوجد حيوان ما قبل التاريخ، لم أتعرف عليه، فقط هيكله العظمي.

كان يمكن أن يكون كوجرًا أو نمرًا أو كلبًا كبير الحجم. جزء من الهيكل العظمي كان مغطى بالفعل بالقش والعجين وكان مستندًا على ذراع حديدي.

قال سالون بابتسامة ساخرة: إنه الكلب الدانماركي لسيدة ثرية رقيقة القلب، تريد أن تتذكره كما في بداية أيام زواجها. انظر؟ يُنزع الجلد من على الحيوان، يُدهن الجلد من الداخل بطبقة من الذرنيخ، ثم يتم تلميع العظام.... انظر على هذا الرف توجد مجموعة جميلة من الهياكل العظمية والأقفاص الصدرية. مستودع جيد للعظام أليس كذلك؟ ثم يتم ربط العظام بأسلاك معدنية وبمجرد أن تتم إعادة بناء الهيكل العظمي يتم تركيب الدرع، عادة استخدم القش للحشو، وأحيانًا الورق المقوى أو الجبس. وفي النهاية يتم تركيب الجلد. فأنا أصلح أضرار الموت والفساد. انظر إلى هذه البومة ألا تبدو حية أمامك؟

من وقتها بدت كل بومة حية ميتة أمامي، بعد أن يسلمها سالون للتصلب الأبدي. أخذت أنظر إلى وجه محنط الحيوانات هذا، لحاجبيه الكثيفين ووجنتيه الرماديتين وحاولت أن أفهم إذا كان هو نفسه كائنًا حيًا أم عملاً من نتاج فنه.

رجعت خطوة إلى الوراء لأنظر إلى البومة جيدًا ، وشعرت بشيء يلمس رقبتي. التفت خلفي برعدة لأرى أنني حركت بندولاً.

طائر ضخم منزوع الأحشاء يتأرجح تابعًا حركة السهم الذي يخترقه. كان السهم يخترق رأسه ويمر على صدره المفتوح وكان يمكن رؤية كيف يخترق الصدر في ذلك المكان الذي كان في السابق مكان القلب والقانصة، ثم يتفرع للخارج ليكون رمحًا ثلاثيًا الشعب مقلوبًا. جزء آخر، أكثر سمكًا، كان يخترقه من المكان الذي كانت توجد به الأحشاء وكان يشير للأرض مثل السيف، بينما كان هناك فرعان يتخللان المخالب ويخرجان بطريقة سيمترية من الأطراف. كان الطائر يتأرجح ببطء، وكانت الأطراف الثلاثة تترك على الأرض ظلال الأثر التي كانت ستتركه إذا لمسته.

قال سالون: نموذج جيد للنسر الملكي، ولكن لابد أن أعمل فيه بضعة أيام أخرى؛ كنت أحاول اختيار العينين.

وأطلعني على علبة مليئة بالقرنيات وإنسان العين من الزجاج، وكأن جلاد القديسة لوتشيا قام بجمع نياشين حياته المهنية كلها.

ليس من السهل عمل ذلك كما هو الحال مع الحشرات، حيث تكفي العبوة والدبوس. وهي، على سبيل المثال، يجب معالجتها بالفورمالين.

استنشقت رائحة مشرحة. قلت: لابد وأنه عمل مثير جدًا.

وفي الوقت نفسه كنت أفكر في الشيء الحي الذي ينبض في أحشاء ليا. وهاجمتني فكرة مرعبة: إذا مات "الشيء ، قلت لنفسي، أريد أن أدفنه بنفسي، ليغذي كل الديدان (الحشرات الأرضية). هكذا فقط سأشعر أنه على قيد الحياة.

كان سالون مازال يتحدث. أخذ عينة غريبة من أحد الأرفف. كان طولها حوالي ثلاثين سنتيمترًا. كان تنينًا، إحدى الزواحف له جناحان سوداوان، عرف ديك، وفكان والذين كانت تبرز منهما أسنان كالمنشار.

وسيم، أليس كذلك؟ تركيبي الخاص. استخدمت سلامندر، وطواط وجلد ثعبان... إنه تنين الطبقات السفلى. استوحيت من هذا...

أطلعني، على مائدة أخرى، على كتاب ضخم، من الرق القديم، مغلف بالجلد: "كلفني مبلغًا طائلاً أنا لست جامعًا للكتب، ولكن كان لابد لي من الحصول عليه. إنه العوالم السفلية Mundus Subterraneus الذي كتبه آثاناسيوس كيرشر، الطبعة الأولى، ١٦٦٥ هاهو التنين. الشبه كبير، ألا ترى ذلك؟ إنه يعيش في كهوف البراكين، قال ذلك هذا اليسوعي الصالح، وكان يعرف كل شيء: المعروف والمجهول وما ليس له وجود...

قلت له "إنك تفكر كثيرًا في عالم ما تحت الأرض ، متذكرًا حوارنا في ميونخ والكلمات التي استرقت السمع إليها في القلعة.

فتح الكتاب على صفحة أخرى، إلى صورة الكرة الأرضية، والتي بدت وكأنها عضو تشريحي، مجروح وأسود، محاطًا بشبكة عنكبوت من عروق مضيئة ملتوية.

فتح صندوقه الحديدي. كان يحتوي، في فوضى لا يصدقها عقل، على حلقات، حلقات جلدية، أدوات مطبخ، شعارات مدارس تقنية مختلفة، بل وحتى المونوغرام الخاص بالإمبراطورة أليساندرا فيودورفنا وصليب الفرقة الشرفية. وفوق كل شيء، وفي لحظة جنونه، رأى ختم المسيح الدجال، على شكل مثلثين متصلين.

وأضاف قائلاً: لقد وُلدت في موسكو. وحدث في روسيا، في أيام شبابي، أن ظهرت وثائق سرية عبرية يتضح من المكتوب فيها بوضوح أنه من أجل القضاء على الحكومات لابد من العمل أسفل الأرض. استمع ـ ثم أخذ كشكولاً كُتبت فيه بعض العبارات بخط اليد ـ "في ذلك الوقت كل المدن ستكون قطاراتها في الأنفاق، تحت سطح الأرض: ومن هناك سنفجر كل المدن في العالم. من بروتوكولات حكماء شيوخ صهيون، وثيقة رقم تسعة."

وخطر ببالي أن مجموعة الهياكل العظمية، والعلبة التي تحتوي على العيون، والجلود الممتدة على الدروع، جميعها جاءت من أحد معسكرات التعذيب. ولكن لا، إنني الآن في مواجهة شخص مسن يشعر بالحنين، يحمل معه بعض الذكريات القديمة من أيام المناهضة الروسية للسامية.

إذا فهمت جيداً ما تشير إليه، فهناك جماعة سرية من اليهود، وليس جميعهم، تخطط لشيء ما. ولكن لماذا أسفل الأرض؟

يبدو لي هذا واضحًا! إن من يخطط عادة ما يفعل ذلك في أسفل وليس في ضوء الشمس. إنه منذ قديم الزمان يعلم الجميع ذلك. إن السيطرة على العالم تعني السيطرة على كل ما هو بأسفل. من التيارات السفلية.

تذكرت سؤال طرحه آلييه في مكتبه، وتذكرت الكاهنات الدرويد في بيمونتي، واللاتي كن يستدعين التيارات الأرضية.

لماذا كان يحفر السلتيون معابدهم في جوف الأرض، بممرات تتصل ببئر مقدسة؟ – استكمل سالون– كان البئر يغرق في طبقة من الإشعاع النشط، كان شيئًا معروفًا. كيف

تم بناء جلونستونباري؟ ألا يتعلق الأمر، على الأرجح، بجزيرة أفالون، حيث مصدر أسطورة الجرال؟ ومن سيخترع أسطورة الجرال سوى شخص عبري؟

يا إلهي! مرة أخرى الجرال. ولكن أي جرال، لا يوجد سوى واحد: "الشيء"، والذي هو في علاقة إشعاعية نشطة في رحم ليا، وربما يسبح الآن سعيدًا تجاه فم البئر، ربما يستعد الآن للخروج بينما أنا أقف هنا بين الجيف المحشوة بالقش، مائة من الأموات وواحد يتظاهر بالحياة.

كل الكاتدرائيات تم بناؤها هناك حيث كانت توجد مناهير السلتيين، لأنهم كانوا يغرسون أحجارًا في الأرض، هل تتخيل الجهد المبذول في هذا؟

ولماذا إذن اجتهد الفراعنة كل هذا الاجتهاد لبناء الأهرامات فوق الأرض؟

تمامًا! الهوائيات، مقاييس الحرارة، الموجات الصوتية، إن الإبر الصينية توضع حيث يستجيب الجسد، في المراكز العقدية. يوجد في مركز الأرض نواة للانصهار، شيء شبيه بالشمس، بل شمس بالفعل، والتي حولها يدور شيء ما، على مدارت مختلفة. مسارات فلكية للتيارات الأرضية. كان السلتيون يعرفون مكانها، وكيفية السيطرة عليها. ودانتي؟ ماذا عن دانتي؟ ماذا كان يريد أن يخبرنا بقصة نزوله إلى العمق؟ هل تفهمني أيها الصديق العزيز؟

لم تعجبني فكرة أن أكون صديقه العزيز، ولكنني أخذت أستمع إليه. جوليو، جوليا، حجري الثمين المزروع مثل لوسيفر في قلب أحشاء ليا، ولكن هل يا ترى انقلب "الشيء"، هل سيلاقي صعوبات في الاتجاه لأعلى، بأي طريقة سيخرج؟ إن "الشيء" صُنع ليخرج من الأحشاء، ليكشف عن نفسه في سره الواضح، وليس للدخول برأس منكس وبأن يبحث لنفسه عن سر لزج.

استمر سالون، والآن انطلق في مونولوج يبدو وأنه يحفظه عن ظهر قلب: هل تعرف ما هي المراعي الإنجليزية؟ إذا طرت بطائرة فوق إنجلترا سترى أن المناطق المقدسة متصلة فيما بينها بخطوط مستقيمة، شبكات من الخطوط متداخلة فيما بينها في أراضي البلد كلها، ومازلت مرئية حتى الآن، لأنها أوحت بالخطوط التي استخدمت فيما بعد لتخطيط الطرق...

إن الأماكن المقدسة كانت متصلة فيما بينها من خلال الطرق، والناس ببساطة عادة ما تحاول استخدام أكثر الطرق المباشرة.

تعتقد ذلك؟ ولماذا تهاجر الطيور أيضًا تابعة الخطوط نفسها؟ ولماذا تتبعها حتى الأطباق الطائرة؟ إنه سر فقدوه بعد الغزو الروماني، ولكن يوجد من يعرفه حتى الآن...

اليهود؟ قلت مقترحًا.

هم أيضًا ينقبون: إن المبدأ السيميائي الأول هو Vitriol : Visita Interiora Terrea, Rectificando Invenies Occultum Lapidem: فيتريول: زيارة داخلية أرضية لإصلاح اختراع الحجر الغامض.

الحجر الخارج من مخبأه. حجري الذي يخرج ببطء من مخبأه، من مخبأه العذب الذي لا ذاكرة فيه في الرحم القادر لليا، دون البحث عن أعماق أخرى، إنه حجري الجميل الأبيض الذي يريد السطح... كنت أرغب في أن أهرع إلى المنزل، إلى ليا، أن أنتظر معها ظهور "الشيء"، ساعة تلو الأخرى، وانتصار السطح الذي سيعيد استلابه. في كهف سالون كان يوجد ضجيج ما تحت الأرض، إن عالم ما تحت الأرض هو الأصل الذي يجب هجره، ليس هو الهدف الذي لابد من الوصول إليه. إلا أنني على الرغم من ذلك كنت أتابع ما يقوله، وكانت تعصف برأسي أفكار أخرى خبيثة تتعلق بالخطة. بينما أنا أنتظر الحقيقة الوحيدة في هذا العالم الواقع تحت القمر، كنت أُعمل ذهني لتخطيط فريات أخرى جديدة. كنت أعمى مثل الحيوانات التي تعيش تحت الأرض.

أفقت نفسي. لابد لي أن أخرج من النفق. قلت: يجب أن أذهب الآن، ربما أمكنك أن تنصحني بقراءة شيء يتعلق بهذا الموضوع.

إن كل ما كتب عن هذا الموضوع من قبل غير صحيح بالمرة. إن كل ما أعرفه تعلمته من أبي...

عالم جيولوجي؟

ضحك سالون قائلاً: لا لا، بالطبع لا. كان أبي ـ لا شيء يخجلني الآن، فهو أمر من الماضي ـ يعمل في الأوكرانا. كان يعمل مباشرة تحت إمرة المدير العام مباشرة، ذلك الأسطوري راكوفسكي.

أوكرانا، أوكرانا، شيء مثل المخابرات الروسية، ألم يكن هذا اسم البوليس السري العنصري؟ وراكوفسكي، من كان هذا؟ أين سمعت اسمًا مشابهًا؟ يا إلهي! إنه الزائر الغامض الذي زار الكولونيل، الكونت راكوسكي... لا، يكفي هذا. لا داعي لمزيد من المصادفات. أنا لم أحش حيوانات ميتة، بل خلقت حيوانات حية.

(٨٠)

عندما يصل الأبيض إلى مادة العمل العظيم، فإن الحياة تنتصر على الموت، والملك قد قام، الأرض والماء أصبحا الهواء، إنها سيطرة القمر، وُلد ابنهما... عندئذ تحقق المادة درجة عظيمة من الدقة، والتي بها لا تتمكن النيران على الإطلاق من تدميرها.. عندما يرى الفنان الأبيض الكامل، يقول الفلاسفة إنه لابد من تمزيق الكتب، حيث لم يعد لها أي فائدة.

تمتمت ببعض الأعذار في استعجال. أعتقد أنني قلت: إن صديقتي ستلد طفل في الغد. وقدم لي سالون على الفور التهاني الحارة، وبدا أنه لم يفهم من هو الأب. هرعت إلى المنزل لأتنفس هوءً نقيًا.

لم تكن ليا هناك، وعلى المائدة في المطبخ وجدت ورقة مكتوب عليها: "حبيبي، حانت ساعة الولادة. لم أجدك في المكتب، سأسرع إلى المستشفى في سيارة أجرة، حاول أن تلحق بي، أشعر بالوحدة".

انتابني الفزع لوهلة، كان لابد لي أن أكون هناك وأعد مع ليا، كان لابد أن أكون في المكتب، حيث يمكنها الوصول إلي بسهولة. الأمر كله خطأي، ربما مات "الشيء" بسببي، وماتت ليا معه أيضًا، وفي هذه الحالة سيحنط سالون كليهما.

دخلت إلى المستشفى وكأنني مصاب بالدوار، سألت من لا يعرف شيئًا، وأخطأت مرتين في الذهاب إلى قسم الولادة. كنت أقول للجميع إنه كان لابد لي أن أعرف أين ستلد ليا، وكان الجميع يحاولون أن يهدأوا من روعي لأن الجميع يحاولون الوضع في هذا المكان.

وأخيرًا، لا أعرف كيف، وجدت نفسي في حجرة ما. كانت ليا شاحبة، ولكنها كانت تبتسم. أحدهم رفع شعرها ووضعه أسفل قبعة بيضاء. لأول مرة أرى جبهة ليا بكل تألقها. بجوارها كان "الشيء".

قالت: إنه جوليو.

حجري الثمين. لقد صنعته أنا أيضًا، وليس ببواق أجساد ميتة، أو أي صابون زرنيخي. كان كاملاً وكانت أصابعه في أماكنها السليمة.

أصررت على رؤية كل أجزاء جسمه، قضيبه الصغير وبيضه الكبير. ثم طبعت قبلة على جبهتها العارية وقلت: الفضل كله يرجع إليك يا عزيزتي، الأمر كله يعتمد على وعائك.

- بالتأكيد الفضل كله يعود إلي أيها الغبي، لقد اضطررت للعد بمفردي.

- وأنت تعدين كل شيء بالنسبة لي. قلت لها.

(٨١)

إن سكان طبقات الأرض السفلية قد وصلوا إلى أقصى درجات المعرفة... إذا حاول الجنس البشري المجنون أن يدخل في حرب ضدهم، سيتمكنون من تفجير كل سطح كوكب الأرض.

مكثت بجوار ليا أيضًا بعد خروجها من المستشفى، لأننا بمجرد أن وصلنا إلى المنزل وأثناء تغييرها لحفاضة الطفل، انفجرت في البكاء وقالت إنها لن تتمكن من هذا. شرح لنا شخص ما بعد ذلك أنه شيء طبيعي: بعد الانفعال الشديد بسبب نجاح عملية الوضع يغلب الأم الشعور بالعجز أمام حجم المسئولية الضخم. في تلك الأيام التي كنت فيها أتجول في المنزل شاعرًا باللافائدة، وبالطبع لم أكن قادرًا على الإرضاع، قضيت ساعات طويلة في قراءة كل ما استطعت الحصول عليه عن التيارات الأرضية.

وعند عودتي تحدثت مع آلييه. الذي أومأ إيماءة ملل مبالغ فيها: مجازات ضعيفة، والتي تشير إلى سر الثعبان كونداليني. إن التكهن الصيني بالغيب كان يبحث في الأرض عن آثار التنين، ولكن الثعبان الأرضي كان يرمز فقط للثعبان الخاص بالعبادات السرية. الآلهة تستريح في شكل الثعبان الملفوف وتنام نومها الأبدي. يرتجف كونداليني بعذوبة، مقيدًا الأجسام الثقيلة بالأجسام الخفيفة، مثل الدرز أو الدوامة، مثل النصف الأول من مقطع .OM

- ولكن إلى أي سر يشير الثعبان؟

- إلى التيارت الأرضية.

- وما هي التيارات الأرضية؟

- مجاز كوني منطقي عظيم، ويشير إلى الثعبان.

قلت لنفسي: لتذهب إلى الجحيم يا آلييه. أنا أعرف أكثر بكثير.

قرأت ملحوظاتي على بيلبو وديوتالليفي، ولم يكن لدينا أي شكوك. استطعنا أخيراً أن نمنح لفرسان المعبد سراً يستحق كل تقدير. كان أكثر الحلول اقتصادية وأناقة، وكانت كل أجزاء الصورة الألفية المجزأة موضوعة من خلاله في مكانها.

إذن كان السلتيون يعرفون عن التيارات الأرضية: تعلموا ذلك من شعب أطلنطا، عندما هاجر من ظل على قيد الحياة بعد غرق القارة، البعض إلى مصر والبعض الآخر إلى بريطانيا.

أما سكان أطلنطا بدورهم كانوا قد تعلموا كل هذا من أسلافنا القدماء الذين دفعهم أفالون، عبر قارة مو، وصولاً إلى الصحراء المركزية لأستراليا ـ عندما كانت جميع القارات نواة واحدة يمكن عبورها: تلك الرائعة بانجيا. يكفي أن تكون للمرء القدرة على قراءة الحروف الأبجدية الغامضة المحفورة على الكتلة العظيمة لصخرة آيرس (كما يستطيع السكان الأصليون، ولكنهم يلتزمون الصمت)، ليكون لدينا تفسير. إن صخرة آيرس هي نقيض الجبل المجهول، والذي هو القطب، القطب الحقيقي، القطب السري، وليس ذلك الذي يمكن لأي مكتشف برجوازي الوصول إليه. كما هي العادة، وكما هو واضح أمام من لم تعمه العلوم المزيفة الغربية، فإن القطب المرئي هو غير الموجود، بينما الموجود هو ذلك الذي لا يمكن لأحد رؤيته، باستثناء بعض الخبراء الذين ختموا على شفاههم.

ولكن كان الكلتيون يعتقدون أنه يكفي اكتشاف الخريطة العالمية للتيارات. ولهذا السبب كانوا يقيمون أحجار المغاليث: كانت المناهير هي أجهزة ذات أجزاء استشعارية، مثل الصمام الكهربائي، وكانت توضع في النقاط التي يتشعب فيها التيار ويغير اتجاهه. كانت المراعي تتبع مسار تيار تم تمييزه بالفعل. وكان "الدولمن" عبارة عن حجرات لتكثيف الطاقة حيث كان الدروديون يحاولون من خلال التكهنات الرملية أن يرسموا خريطة، بالاستقراء، للتصميم الكوني. وكان كل من الكرومليش والستوهينج عبارة عن مراصد ميكرو ماكرو كونية، والتي منها كانوا يدرسون تصميمات مجموعات النجوم بهدف استنباط تصميمات التيارات ـ لأنه كما نعرف من خلال Tabula Smaragdina إن ما يوجد في أعلى متماثل في الشكل لما يوجد في أسفل.

ولكن لم تكن هذه هي المشكلة، أو على الأقل لم تكن هذه هي فقط المشكلة. أدرك ذلك الجناح الثاني للهجرة الأطلنطية. إن المعارف السرية للفراعنة كانت قد عبرت من

هيرمس تريسماجيستوس إلى موسى، والذي حرص ألا ينقلها إلى المجموعة ذات الملابس البالية ذات الأمعاء المحشوة بالمن، والتي إليها قدم فقط الوصايا العشر، ويمكنهم فهمها. أما الحقيقة، والتي كانت أرستقراطية، وضعها موسى مشفرة في أسفاره الخمسة. وهذا ما فهمه القباليون.

وقلت: تخيلا، كان كل شيء مكتوبًا بالفعل كما في كتاب مفتوح مثل هيكل سليمان، وحراس السر كانوا الروزا كروتشي، والذين كانوا يكونون الإخوة العظيمة البيضاء، أو الإسنيين، والذين كما هو معروف، أطلعوا يسوع على سرهم، ومن هنا نفهم السبب الحقيقي للصلب...

بالتأكيد فالآلام التي تعرض لها المسيح هي آلام رمزية تشير لما سيتعرض له فرسان المعبد في محاكمتهم.

تمامًا. ويوسف الآرامي ينقل أو يعيد من جديد السر من يسوع إلى أرض السلتيين . ولكن من الواضح أن السر لم يكن بعد مكتمل، فلم يعرف الدرويد المسيحيين إلا جزءًا من السر، ومن هنا جاء المعنى الغريب للجرال: يوجد شيء ما، ولكننا لا نعرف ما هو. ولكن ما يجب أن يكون، ماذا كان يقول المعبد الذي لم يعد موجودًا، شيء لم يشك فيه سوى مجموعة من الحاخامات الباقية في فلسطين. والذين أعهدوا بذلك للشيع السرية الإسلامية: المتصوفين، والإسماعيليين، والمتكلمين. ومنهم يصل إليه فرسان المعبد.

أخيراً سيصل إلى الفرسان، كنت قد بدأت أشعر بالقلق.

كنا نضع اللمسات الأخيرة للخطة، والتي مثل العجين الطري، كانت تطيع أصابعنا ورغباتنا الروائية. اكتشف فرسان المعبد السر في إحدى تلك الليالي الطويلة التي كانوا يحتضنون فيها شركاءهم في السرج في الصحراء، عندما كانت تعصف بهم رياح السموم القوية. لقد انتزعوه جزءًا يلي الآخر من أولئك الذين كانوا يعرفون قدرات التركيز الكوني الكامنة في الحجر الأسود، ميراث المجوس البابليين، لأنه كان من الواضح أن برج بابل لم يكن سوى المحاولة، للأسف التي تمت على عجل وفشلت بسبب غرور المخططين لها، لبناء أكثر المناهير قدرة. إلا أن المهندسين المعماريين في بابل أخطأوا في حساباتهم. وأثبت الأب كريشر أنه إذا وصل البرج إلى قمته، ونظرًا لوزنه الزائد كان سيتسبب في أن تدور الأرض بدرجة ٩٠ درجة وربما أكثر، وكان كوكبنا

المسكين، بدلاً من أن يكون لديه شهوة تتجه إلى أعلى، كان سيجد نفسه بزائدة عاجزة، وقضيب معوج، وذيل قرد يتأرجح لأسفل، وشاكيناه تائهة في هاوية الدوامات لملكوت أنتارتيكا، مجرد هيروغليفية مترهلة للبطاريق.

ولكن، ماذا كان السر الذي اكتشفه فرسان المعبد في كلمات واضحة؟

لا تتعجلني! اقتربنا. استغرق الأمر سبعة أيام ليتم الخلق. والآن سنحاول.

(٨٢)

إن الأرض هي جسم مغناطيسي: في الواقع، كما اكتشف بعض العلماء، فهو مغناطيس واحد ضخم، كما أكد باراسيلسوس منذ حوالي ثلاثمائة عام.

حاولنا، ونجحت المحاولة. الأرض هي مغناطيس ضخم، قوة واتجاه تياراتها تحددها أيضًا تأثيرات الأفلاك السماوية، ودورات الفصول، تتابع الليل والنهار، والدورات الكونية. ولذلك فإن نظام التيارات متغير. ولكن لابد وأنه يتغير مثل تغير الشعر، والذي، على الرغم من كونه يكبر في كل مكان على قمة وجانبي جمجمة الرأس، يدور حول نفسه في نقطة ما إلى الخلف، والتي فيها يتمرد على التصفيف. عندما يتم التعرف على هذه النقطة، وعندما يتم إقامة أكثر المحطات قوة هناك، سيكون بالإمكان التحكم، وإدارة، وإعطاء الأوامر لكل التيارات الأرضية على كوكب الأرض. أدرك فرسان المعبد أن السر لا يكمن فقط في الحصول على الخريطة الكونية للتيارات، ولكن أيضًا في معرفة تلك النقطة الحساسة، الأومفالوس (مكان الحبل السُري للكون)، مركز العالم، وأساس التحكم.

كل الأحاديث السميائية ـ الانتقال للعمل الأسود، والشحنة الكهربائية للأبيض- ليست إلا رمزًا، رمزًا واضحًا لأتباع العبادات السرية، رمزًا يشير إلى السمع القديم لذلك الجيل، والذي نتيجته النهائية هي العمل الأحمر، المعرفة الكونية، السيطرة العظيمة على النظام الكوكبي للتيارات. كان السر، السر السميائي الحقيقي وسر الفرسان، يكمن في معرفة مصدر ذلك الإيقاع الداخلي، العذب، الرهيب والمنتظم مثل نبض الثعبان كونداليني، والذي مازال مجهولا في العديد من أوجهه المختلفة، ولكنه بالتأكيد دقيق مثل الساعة. إيقاع الحجر الفريد والوحيد، والذي لم يسقط قط منفيا من السماء، إيقاع الأرض الأم العظيمة.

هذا ما أراد أن يعرفه فيليب العادل. ولذلك كان إصرار المحققين الخبثاء على السؤال عن القبلة الغامضة "في أماكن منخفضة من العامود الفقري". كانوا يريدون العثور على سر كونداليني، ولم يكن اهتمامًا باللواط.

قال ديوتاليفي: كل شيء متكامل، ولكن عندما تعرف كيف تسيطر على التيارات الأرضية، ماذا ستصنع بها؟ الجعة؟

قلت: ماذا بك؟ ألا تستطيع إدراك معنى هذا الاكتشاف؟ عندما تثبت في مركز الأرض الصمامات الأكثر قوة... ستمتلك تلك المحطة التي ستمنحك القدرة على التنبؤ بالأمطار وبالجفاف، بأن تتسبب في الأعاصير، بالتسونامي والزلازل، بأن تقسم القارات، وتُغرق الجزر (من المؤكد أن أطلانطا غرقت بسبب إحدى التجارب التي حدثت)، بأن تنزع سلاسل جبلية وغابات... هل تدركان خطورة الأمر؟ إن القنبلة النووية لا تعادل شيئًا بجوار هذا الاكتشاف، بالإضافة أنها تؤذي أيضًا من يطلقها. يمكنك من برجك أن تتصل، على سبيل المثال، برئيس الولايات المتحدة، وتقول له: غدًا صباحًا أريد مبلغًا طائلاً من ملايين الدولارات ـ أو استقلال أمريكا الجنوبية، أو دولة هاواي، أو تدمير كل المخزون من الأسلحة النووية ـ أو سيُفتح سد كاليفورنيا بصورة نهائية وتصبح لاس فيجاس عبارة عن كازينو عائم...

- ولكن لاس فيجاس في نيفادا..

- لا يهم. عندما تمتلك السيطرة على التيارات الأرضية يمكن أن تفصل نيفادا عن مكانها، بل وكولورادو أيضًا. ثم تتصل بالحكومة السوفيتية العظمى، وتقول لها: أيها الأصدقاء الأعزاء، في غضون الاثنين صباحًا أريد كل الكافيار الموجود في فولجا، وأريد أيضًا سايبريا لتصبح مكان لحفظ طعامي المجمد، وإلا سأغرق لك جبال الأورال أسفلها، سأجعل بحر قزوين يفيض، وسأرسل لك بليتوانيا وأستونيا على ضفافه وسأغرقهما لك في هوة الفليبين.

قال ديوتاليفي: هذا حقيقي، إنها بالفعل قوة هائلة. يمكن إعادة كتابة الأرض مثلما حدث مع التوراة. وننقل اليابان في خليج باناما.

والرعب في وولستريت الاقتصادي.

لنطرح جانبًا ما يتعلق بحرب الكواكب، ولنترك إمكانية تحويل المعادن الأساسية إلى ذهب. يمكنك من خلال تسديد التيار الصحيح أن تقلب أوعية الأرض، ويمكنك في عشر ثوان أن تصنع ما اعتادت الأرض أن تصنعه في ملايين السنين، وتصبح منطقة حوض الرور الألمانية منجمًا للألماس. قال إليفاس ليفي إن معرفة حركات المد والجزر والتيارات يمثل سر القدرة الكلية للبشرية.

قال بيلبو: لابد وأن الأمر كذلك إذن. إن الأمر مثل تحويل الكون كله إلى حجرة من الطاقة الأرجوانية. من الواضح أن ويليم رايخ كان بالتأكيد من فرسان المعبد.

بالتأكيد الجميع كانوا من الفرسان فيما عدانا، شكرًا لله، لحقنا بالركاب، بل وتقدمنا عليهم أيضًا.

ولكن ماذا أوقف الفرسان عن التنفيذ بعد معرفتهم السر؟ كان لابد لهم من الاستفادة منه. ولكن هناك دائمًا هوة بين المعرفة وبين معرفة الاستخدام. إلا أنهم، بأوامر من تابع الشيطان سان برنارد، قاموا باستبدال المناهير، الصمامات الكلتية المسكينة، إلى كاتدرائيات غوطية، والتي كانت تحتوي على المعنى والقوة، بمغاراتها المتواجدة تحت الأرض، والتي تحتوي على العذارى السوداوات، في اتصالات مباشرة مع الإشعاعات النشطة لطبقات الأرض، وغطوا أوروبا بشبكة من محطات الإرسال والاستقبال، ناقلين أحدهم للآخر أخبار القوة والاتجاهات، تدفق التوتر والتيارات الأرضية.

يمكنني القول أيضًا إنهم عرفوا مكان مناجم الفضة في العالم الجديد، وتسببوا في ظهورها، ثم من خلال التحكم في تيار الخليج، نقلوا ذلك المعدن النفيس إلى شواطئ البرتغال. كانت تومار هي مركز الزلزال، والغابة الشرقية كانت المخزن الرئيسي. ومن هنا كان أصل ثرائهم. ولكنها كانت فتات، وأدركوا أنه للاستفادة الكاملة من سرهم كان لابد لهم من أن ينتظروا تطورًا تكنولوجيًا يتطلب على الأقل ستمائة عام.

لذلك نظم الفرسان الخطة بطريقة تسمح فقط لخلفائهم، في اللحظة التي فيها يمكنهم استخدام ما يعرفونه بشكل جيد، واكتشاف مكان المركز الأرضي. ولكن كيف تمكنوا من توزيع جزيئات الاكتشاف للستة والثلاثين الموزعين في العالم؟ هل كانت أجزاء مختلفة لرسالة واحدة؟ وهل يتطلب الأمر رسالة معقدة إلى هذه الدرجة ليقولوا إن مركز الأرض موجود في بادن بادن أو الكنغو أو شاتانوجا؟

هل كانت خريطة؟ ولكن كانت ستكون على الخريطة نقطة على المركز الكوني. ومن سيكون لديه الجزء حيث المركز، سيعرف بالفعل كل شيء دون الحاجة إلى الأجزاء الأخرى. لابد وأن الأمر أكثر تعقيداً من ذلك. درنا حول أنفسنا بهذا الصدد عدة أيام حتى قرر بيلبو باللجوء إلى أبو العافية. وكانت الإجابة هي:

مات جوليلمو بوستل عام ١٥٨١

بيكون هو فسكونت سان ألبانو

في الكونسرفاتوار يوجد بندول فوكو.

وحانت اللحظة للعثور على وظيفة للبندول.

استطعت أن أقترح خلال بضعة أيام حلاً كان بالفعل أنيقًا. كان أحد أتباع الشياطين قد قدم لنا نصًا حول السر الهرمسي للكاتدرائيات. تبعًا لمؤلفنا ترك من قاموا ببناء شارتر في أحد الأيام سلكًا معلقًا في المركز، ومنه استطاعوا بسهولة استنتاج دوران الأرض. إذن فهذا هو سبب محاكمة جاليليو ـ علق ديوتالليفي ـ وجدت الكنيسة فيه علاقة بفرسان المعبد ـ لا، قال بيلبو، كان الكاردينالات الذين أدانوا جاليليو أعضاء من فرسان المعبد التي تسللت إلى روما، والذين هرعوا لغلق فم التوسكاني اللعين، وذلك قبل أربعمائة عام من تاريخ تنفيذ الخطة.

في هذه الحالة كان هذا الاكتشاف يشرح لماذا قام هؤلاء البناؤون الخبراء بتخطيط متاهة، صورة لنظام التيارات السفلية. بحثنا عن صورة لمتاهة شارتر: ساعة شمسية، بوصلة، ونظام وردة، أثر للحركات الناعسة للثعبان. خريطة كونية للتيارات.

حسنًا، لنفترض أن الفرسان استخدموا البندول ليشيروا إلى المركز الكوني. بدلاً من المتاهة، والتي عادة ما تمثل نظام تجريدي، لتضع رسم لخريطة للعالم على الأرضية، ونقول، فرضًا، أن المركز الذي سيشير إليه طرف البندول في تاريخ معين هو ذلك المكان الذي يوجد فيه المركز. ولكن أين؟

لا حاجة للسؤال عن المكان، إنه سان مارتان دي شوم، الملجأ.

أجاب بيلبو: أجل، ولكن لنفترض أنه في منتصف الليل، يتأرجح البندول بطول أحد المحاور، لنفترض كوبنهاجن وكيبتاون. أين سيكون المركز الكوني في الدانمارك أم في جنوب إفريقيا؟

قلت: ملحوظة صائبة. ولكن يحكي مؤلفنا أيضًا أن في شارتر يوجد تصدع في إحدى النوافذ الزجاجية للكورس، وأنه في تاريخ محدد يتخلل شعاع الشمس هذا الشق ويضيء في كل مرة المكان نفسه، حجر الأرضية ذاته في كل مرة. لا أعرف ما هو الاستنتاج الذي يمكن استخلاصه من ذلك، ولكن في كل الأحوال يتعلق الأمر بسر كبير. وإليكم آلية العمل. في كورس سان مارتن، توجد نافذة بها بقعة خالية الألوان، بجوار نقطة الاتصال بين تركيب اللوحين. كان قد تم حسابها جيدًا، وربما قام أحدهم بالاحتفاظ بها على حالتها هذه لمدة ستمائة عام. في أثناء شروق الشمس، في أحد أيام السنة...

ـ .... والذي لابد أن يكون فجر الرابع عشر من يونية، عيد سان جوفاني، عيد انقلاب الشمس في الصيف...

ـ ... أجل، في هذا اليوم وفي هذه الساعة، سيصطدم أول شعاع نقي من الشمس، والذي سينفذ من تلك البقعة من النافذة، الأرض أسفل البندول، وتداخل البندول مع الإشعاع في تلك اللحظة سيشير إلى النقطة الدقيقة على الخريطة التي يمكن فيه العثور على المركز الكوني!

ـ رائع ـ قال بيلبو ـ ولكن لنفترض أن هناك سحبًا؟

سينتظرون للعام التالي.

قال بيلبو: اعذروني، ولكن الميعاد الأخير في أورشاليم. ألا يجب في هذه الحالة أن يُعلق البندول في قبة مسجد عمر.

أقنعته بقولي: لا، في بعض مراكز الكرة الأرضية يستكمل البندول دورته في ٣٦ ساعة، بينما في القطب الشمالي سيستغرقه الأمر ٢٤ ساعة، أما على خط الاستواء فإن مستوى التأرجح لن يتغير على الإطلاق. إذا كان فرسان المعبد قد قاموا باكتشافهم في سان مارتان، فإن حساباتهم لا تصلح إلا في باريس، لأن البندول في أورشاليم كان سيتخذ منحنى مختلف.

ومن أين نعرف أنهم وصلوا إلى اكتشافهم هذا في سان مارتان؟

واقع أنهم قد اختاروا سان مارتان ملجأ لهم، وأنه بدءًا من رئيس سان ألبانو، إلى بوستل إلى المؤتمر، كانوا يسيطرون على الموقف، ولذلك بعد التجارب الأولى لفوكو

عملوا على وضع البندول هناك. توجد إشارات كثيرة لذلك.

- ولكن اللقاء الأخير في أورشاليم.

- وماذا في ذلك؟ في أورشاليم سيتم تركيب الرسالة وهو شيء لن يستغرق مجرد بضع دقائق. ثم سيستعدون لمدة عام، وفي الثالث والعشرين من يونية التالي، ستتقابل المجموعات الست في باريس، ليعرفوا أخيرا أين هو المركز الكوني، ثم يبدءون العمل لغزو العالم.

قال بيلبو مصرًا: ولكن، يوجد شيء آخر لا أفهمه: على الرغم من أن الكشف الأخير الذي يتعلق بالمركز الكوني، لابد وأن الستة والثلاثين كانوا يعرفون ذلك مسبقًا، وكان البندول مستخدمًا من قبل في الكاتدرائيات، فهو ليس سر. ما الذي منع بيكون أو بوستل، أو فوكو نفسه ـ والذي لابد أنه كان هو نفسه من فرسان المعبد، نظرًا لكل ما أثاره من ضجة حول البندول ـ من أن يضعوا خريطة للعالم على الأرض وتوجيهها من خلال النقاط الأصلية؟ أعتقد أننا لسنا بعد في الطريق الصحيح.

قلت: لا، نحن في الطريق الصحيح. الرسالة تشير إلى شيء لم يكن أيًا منهم يعرفه: أي خريطة لابد أن تُستخدم!

(٨٣)

الخريطة ليست هي الأرض.

قلت لهما: بالتأكيد أنتما على علم بوضع رسم الخرائط في زمن فرسان المعبد. في ذلك القرن كانت توجد خرائط عربية، والتي، ضمن أشياء أخرى، كانت تضع إفريقيا في أعلى وأوروبا في أسفل، وخرائط لبحارة، كانت في مجملها دقيقة إلى حد كبير، وخرائط تعود إلى ثلاثمائة أو أربعمائة عام سابقة، ولكنها كانت مقبولة من بعض المدارس. لاحظا أيضًا أنه للكشف عن مكان المركز الكوني، لسنا بحاجة لخريطة دقيقة، بالمعنى الذي نفسر نحن به الكلمة. يكفي أن تكون خريطة بها الخاصية التالية: بمجرد أن يتم توجيهها، تُظهر المركز الكوني في النقطة التي فيها سيضيء البندول في فجر الرابع والعشرين من يونية.

ولكن لننتبه الآن: لنفترض، مجرد افتراض، أن المركز الكوني موجود في أورشاليم. على خرائطنا الحديثة تقع أورشاليم في مكان معين، وحتى اليوم يعتمد هذا المكان على طريقة العرض. ولكن كانت خريطة فرسان المعبد مصنوعة بشكل لا نعرفه. ولكن هل لهذا أهمية كبيرة؟ ليس البندول هو الذي يتحرك تبعًا للخريطة، ولكن الخريطة هي التي لابد أن تكون تابعة لحركة البندول. هل تفهمان ما أعنيه؟ ربما تكون أكثر الخرائط جنونًا في العالم، إلا أنه بمجرد وضعها أسفل البندول، سيشير شعاع الشمس المنعكس في يوم الرابع والعشرين من يونية إلى النقطة، التي فيها على تلك الخريطة، وليس غيرها، تظهر أورشاليم.

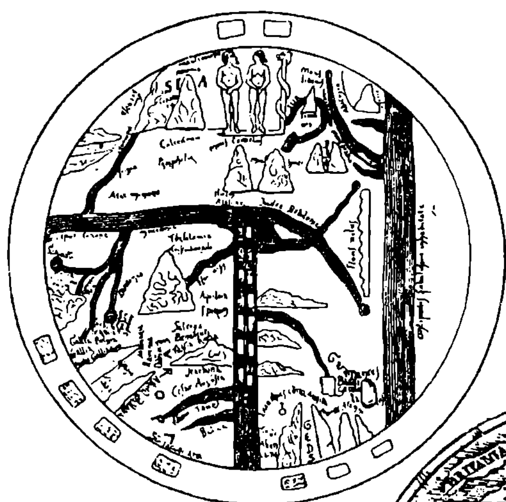
قال ديوتالليفي: ولكن هذا لا يحل مشكلتنا.

بالتأكيد لا يحلها، ولا يحل أيضًا مشكلة الستة والثلاثين الخفيين. لأنه إذا لم يستطيعوا تمييز الخريطة الصحيحة لن يصلوا إلى شيء. لنحاول التفكير في خريطة

مرسومة بالطريقة النموذجية، حيث الشرق في اتجاه حضن الهيكل والغرب تجاه صحن الكنيسة، نظرًا لأن هذه هي الطريقة التي تُبنى بها الكنائس. والآن دعونا نقول، بطريقة عشوائية، إنه في ذلك الفجر الحاسم يوجد البندول في منطقة ما تجاه الشرق بالقرب من الحدود الجنوبية الشرقية. وإذا كان الأمر يتعلق بساعة، فإن البندول لابد وأن يشير إلى الساعة الخامسة وخمس وعشرين دقيقة. حسنًا؟ الآن انظرا.

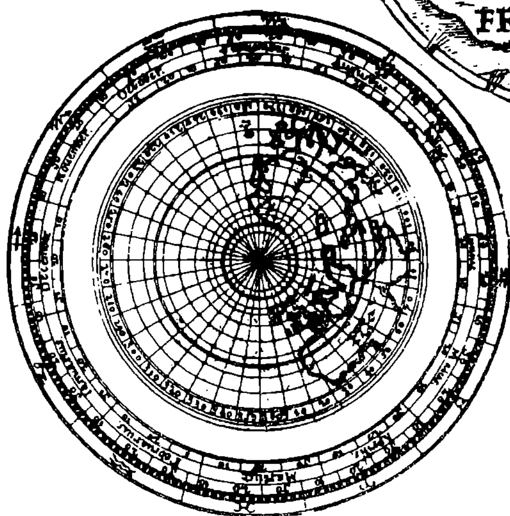
وذهبت لأبحث عن تاريخ رسم الخرائط.

- هاهي الخريطة الأولى ، خريطة تعود إلى القرن الثاني عشر. تعيد تركيب الخرائط على شكل حرف T، في أعلى توجد آسيا والفردوس الأرضي، وفي الشمال توجد أوروبا وفي اليمين إفريقيا، وهنا بجوار إفريقيا وضعوا أيضًا المقابلات. الخريطة الثانية مستوحاة من كتاب Somnium Scipionis لماكروبيو، ولكن التي استمرت في طبعات كثيرة حتى القرن السابع عشر، والتي فيها إفريقيا صغيرة إلى حد ما، ولكن لا بأس. الآن انتبها! وجها الخريطتين في الاتجاه نفسه وستدركان أن في حالة اتجاه مؤشر الساعة إلى الساعة الخامسة والخمس والعشرين، فعلى الخريطة الأولى ستظهر الجزيرة العربية، وعلى الخريطة الثانية ستشير إلى نيوزلاندا. نظرًا لأنه في تلك النقطة توجد المقابلات. يمكنك معرفة كل شيء عن البندول، ولكن إذا لم تكن تعرف أية خريطة يمكنك استخدامها فأنت ضائع. إن الرسالة تحتوي على تعليمات، مكتوبة بشفرة عسيرة جدًا، حول مكان الخريطة الصحيحة، والتي ربما رُسمت خصيصًا لهذا الغرض. تشير الرسالة إلى المكان الذي يجب البحث فيه، في أي مخطوط، في أي مكتبة، أو دير أو قلعة. ومن الممكن أيضًا أن يكون دي أو بيكون قد أعادا صياغة الرسالة. من يدري؟ تقول الرسالة إلى أن الخريطة موجودة في مكان معين، ولكن في الوقت نفسه، ومع كل ما حدث في أوروبا، ربما حُرق الدير الذي كان يحتوي على الخريطة، أو سُرقت، أو خبأها أحد في مكان لا يعرفه أحد. ربما حصل أحدهم على الخريطة، ولكن لا يعرف طريقة استخدامها، أو يعرف قيمتها، ولكن لا يعرف لماذا هذه القيمة، ويدور بها العالم بحثًا عن مشتر. لنتخيل كل الفوضى التي يمكن أن تسببها العروض، والآثار المضللة، والرسائل التي يمكن أن يكون المقصود بها شيئًا آخر ولكن تم تفسيرها على أساس أنها تشير إلى الخريطة، ورسائل تشير بالفعل للخريطة ولكن تم تفسيرها، من يدري، على أساس أنها تشير إلى إنتاج الذهب. لا شك أن بعض الناس حاولوا أن يعيدوا تركيب الخريطة على أسس تآمرية؟





RIPHEI MONTES.
EVRO.
FRIGIDA
AETIOPIA. PERVSTA.
ALVEVS OCEANI.
PERVS T A
TEMPERATA ANTIPODVM.
NOBIS INCOGNITA.
FRIGI DA



ـ أي نوع من التآمر؟

ـ مراسلات ميكرو ماكرو كونية على سبيل المثال. إليكم هنا خريطة أخرى. هل تعرفون من أين أتت؟ ظهرت في البيان الثاني لتاريخ الكون Utriusqe Cosmi Historia لروبرت فلود. وفلود هو رجل الروزا كروتشي في لندن، لابد أن نتذكر هذا. والآن ماذا فعل صديقنا روبرت دي فلوكتيبوس، كما كان يحب أن يدعوه الآخرون ؟ لا يقدم خريطة ولكن عرضًا غريبًا لكوكب الأرض كله من وجهة نظر قطبية، للقطب السحري بالطبع، وبالتالي من وجهة نظر بندول نموذجي معلق على مفتاح معلق على مرتكز مثالي. كانت خريطة مخصصة لتوضع أسفل بندول! إنها أدلة لا يمكن الشك فيها؛ لا يمكنني أن أتخيل لماذا لم يكتشف أحد هذا إلى الآن...

قال بيلبو: الواقع إن عبدة الشيطان يتحركون ببطء، ببطء شديد جدًا...

بل الواقع لا أحد غيرنا يستحق أن يرث فرسان المعبد. ولكن دعوني أستكمل: هل تعرفتم على التصميم، إنها الرضفة المتحركة، مثل تلك التي كان يستخدمها تريتميوس في رسائله المشفرة. إنها ليست خريطة، إنه مشروع آلة لمحاولة إنتاج خرائط متنوعة وبديلة، للحصول على تلك الصائبة! ويقول فلود ذلك في شرحه للرسم: إن هذا تصميم لجهاز، مازال يحتاج لمزيد من العمل.

– ولكن فلود كان ذلك الذي أصر على إنكار دوران الأرض؟ كيف يمكنه التفكير في البندول؟

– إننا نتحدث مع أعضاء جماعات سرية، ومثل هذا العضو سينكر ما يعرفه، وسينكر معرفته إياه ليخفيه.

قال بيلبو: هذا يفسر إذن الأهمية الكبيرة التي منحها دي لتلك الخرائط الملكية. لم يكن غرضه معرفة "الشكل" الحقيقي للأرض، لكن لإعادة بناء، من بين كل الخرائط المغلوطة، الخريطة الصائبة، التي يحتاجها.

قال ديوتاليفي: لا بأس، لا بأس أبدًا. الوصول إلى الحقيقة عن طريق محاولة إعادة بناء نص مزيف.

(٨٤)

إن الوظيفة الاساسية لهذا المجمع، وأكثرها نفعًا، في رأي، لابد أن تكون العمل على التاريخ الطبيعي من خلال اتباع تصميمات فيرولاميو.

إن التقلبات التي حدثت للمجموعات الست لم تكن مقصورة على البحث عن الخريطة. ربما قام فرسان المعبد في أول جزأين من الرسالة، تلك التي كانت في حوذة البرتغاليين والإنجليز، بالإشارة إلى بندول، ولكن كانت الأفكار حول البندول غامضة في تلك الفترة. إن تعليق خيطًا من الرصاص وجعله يهتز شيء وبناء آلية معينة دقيقة بحيث يتم إنارته تمامًا في اللحظة المطلوبة. لهذا قام فرسان المعبد بحساب ستة أجيال. سارع الجناح التابع لبيكون إلى العمل على الفور، وحاول أن يجذب ناحيته أعضاء العبادات السرية، والذي قام بمجهود رهيب ليصل إليهم.

ليست مصادفة إذن أن يكتب سالومون دي كاوس، رجل الروزا كروتشي لريشيليو بحثًا حول الساعات الشمسية. وبعد ذلك، بدءًا من جاليلليو لما بعد ذلك، كان هناك بحث مضني مخصص عن كل ما يخص البندول. وكانت ذريعة ذلك هو الوصول إلى كيفية استخدامه لتحديد خطوط الطول، ولكن عام ١٦٨١ ?عندما اكتشف هيجنز أن البندول الدقيق في باريس بطيء في كايان، أدرك على الفور عدم الدقة هذا يعود إلى تغير في قوة الطرد المركزي التي يتسبب فيها دوران الأرض. وبعد أن نشر كتابه اهتزاز الساعات Hotologium Oscillatorium، والذي فيه طور تخمينات جاليلليو عن البندول، من قام باستدعائه إلى باريس؟ كولبير، الرجل نفسه الذي استدعي سالومون دي كاوس للعمل على الأنفاق أسفل المدينة.

في عام ١٦٦١، عندما تعجلت أكاديمية الشيمنتو (أكاديمية التجارب العملية) استنتاجات فوكو، قام ليوبولد من توسكانا في حلها في فترة خمسة اعوام، بعدها نال على الفور من روما مكافأة سرية، قبعة كاردينال.

ولكن هناك المزيد. في القرون التالية أيضًا بدأت مطاردة البندول. في عام ١٧٤٢ (عام قبل الظهور الأول الموثق لكونت سان جيرمانو!) قدم شخص يُدعى دي مايران تقريرًا عن اختراعات البندول المختلفة إلى الأكاديمية الملكية للعلوم؛ وفي عام ١٧٥٦ (عندما ظهرت في ألمانيا مجموعة فرسان المعبد المتحفظة) كتب شخص يُدعى بوجير عن الطريقة التي تؤثر على كل الأسلاك المصنوعة من الرصاص.

عثرت على بعض العناوين السيريالية مثل ذلك الذي ألفه جون بابتست بيوت عام ١٨٢١: مجموعة الملحوظات الجغرافية، التنجيمية والفيريقية والتي تمت بناء على أمر إدارة خطوط الطول الفرنسية في إسبانيا وفي فرنسا وإنجلترا وفي إسكتلندا لتحديد تغيرات الثقل والدرجات الأرضية على خطوط الطول في وقت الظهيرة في باريس. في فرنسا وإسبانيا، إنجلترا وإسكتلندا!! وذلك في علاقة بوقت الظهيرة في سان مارتان! وماذا عن ما نشره سير إدوارد سابين عام ١٨٢٣ كتاب: تقرير عن التجارب الخاصة بتحديد شكل الأرض بواسطة ذبذبات البندول في الثانية في خطوط الطول المختلفة؟. وأيضًا ذلك الغامض ججراف فيدور بتروفتش ليتك، الذي نشر عام ١٩٣٦ نتائج أبحاثة حول سلوك البندول أثناء الإبحار حول العالم؟ وكان هذا لحساب الأكاديمية الإمبريالية للعلوم في سان بيترسبرج. ولماذا روسيا أيضًا؟

وماذا إذا كانت هناك في ذلك الوقت مجموعة، بالتأكيد من سلالة أتباع بيكون، قررت أن تكتشف سر التيارات دون خريطة وبلا بندول، متسائلة مرة أخرى، من البداية، عن تنفس الثعبان؟ وهنا نجد أن استنتاجات سالون في محلها: تقريبًا في زمن فوكو بدأ السلم الصناعي، إبداع جناح بيكون، في حفر شبكات مترو الأنفاق في قلب العواصم الأوروبية.

قال بيلبو: هذا حقيقي، كان القرن التاسع عشر يعيش فترة استحواذ بالعوالم السفلية: جون فالجون، فانتوماس وجافير، روكامبول، كانت فترة من تحركات المواسير والأنفاق. يا إلهي، عندما أفكر الآن، إن كل أعمال فيرن هي كشف سري لغموض عالم ما تحت الأرض! رحلة إلى مركز الأرض، وعشرون ألف فرسخ تحت الماء، كهوف الجزيرة الغامضة، المملكة العظمى السفلية للهند السوداء! لابد من تكوين خريطة من رحلاته العجيبة، بالتأكيد سنجد إسكتش للفة الثعبان، خريطة للمراعي وتركيبها لكل قارة. إن فيرن يكتشف من أعلى ومن أسفل شبكة التيارات الأرضية.

تعاونت لتأكيد فكرته: وماذا كان اسم بطل رواية الهند السوداء؟ جون جارال تقريبًا على وزن جرال.

لسنا مجرد مفكرين في أبراجنا العاجية، بل إن أقدامنا ثابتة على أرض الواقع. أطلق فيرن إشارات واضحة جدًا. إن اسم Robur le Conquerant يمكن اختصارها RC والتي تعني روزا كروتشي. وإذا قرأنا الاسم بالعكس يصبح Rubor ، وهو اللون الأحمر للوردة، رمزا آخر لهم.

(٨٥)

فيلياس فوج: اسم وتوقيع أيضًا: كلمة إياس باليونانية تعني الكونية (وبالتالي فهو يعادل البادئة التي تعني الشامل والمتعدد)، وفيلياس يعني أيضًا متعدد المحبة. وبالنسبة لكلة فوج فمعناها ضباب باللغة الإنجليزية. كان فيرن ينتمي لجماعة Brouillard بل وكان له الفضل في توطيد العلاقات بين تلك الجماعة وبين الروزا كروتشي، لأنه في نهاية الأمر من كان هذا المسافر النبيل المدعو فيلياس فوج سوى أحد أعضاء الروزا كروتشي؟ ثم ألا ينتمي أيضًا للنادي الإصلاحي Reform Club (RC) والتي تشير حروف كلمتيه إلى الروزا كروتشي الإصلاحية؟ ذلك النادي الإصلاحي كان يقع في مول بال Pall Mall مستحثًا مرة أخرى حلم المحبة المتعددة.

استغرقتنا إعادة تركيب الأحداث أيامًا متعددة، كنا نقطع أعمالنا لنخبر أحدنا الآخر عن الروابط الأخيرة، كنا نقرأ كل ما يقع تحت أيدينا: موسوعات، صحف، قصص ومجلات مصورة، كتالوجات دور نشر، بطريقة عشوائية بحثًا عن أية روابط ممكنة للدائرة. كما نتوقف لنبحث في كل أماكن بيع الكتب القديمة، كنا نفحص أكشاك الجرائد ونتصارع على قراءة مخطوطات مؤلفينا الشيطانيين، وكنا نسرع بانتصار إلى المكتب ملقين على المائدة بالاكتشافات الحديثة.

بينما أستعيد تلك الأسابيع تبدو لي أحداثها كالبرق، سريعة إلى أقصى درجة مثل أحد أفلام لاري سيمون، بوثبات وقفزات، أبواب تُفتح وتُغلق بسرعة كبيرة جدًا، كعكات بالكريمة تطير، هروب على السلالم، تحركات إلى الأمام وإلى الخلف، تصادمات بين سيارات قديمة، سقوط أرفف في محلات بقالة، تصادم المعلبات والزجاجات والجبن الطرية، اندفاع المياه، وانفجارات أجوال الدقيق. أما التوقف ولحظات التقاط الأنفاس - وباقي أحداث الحياة التي تدور حولنا - أتذكرها كقصة تدور أحداثها بالتصوير البطيء. كانت القصة تتكون بخطوات فنية رائعة مثل الدوران البطيء والتأرجحات الحريصة للاعب الجلة، والأزمنة الطويلة للجولف، والتوقعات غير الواقعية للبيسبول.

ولكن بغض النظر عن الإيقاع، كان القدر يكافئنا، لأننا كلما بحثنا عن الروابط كنا نجدها، في كل مكان وبين كل شيء، كان العالم يتفجر بداخل شبكة اتصالات ذات صلات قرابة، فكل شيء يشير لكل شيء، وكل شيء يفسر كل شيء آخر...

أخفيت الأمر تمامًا عن ليا، لأتجنب استفزازها، بل وأهملت جوليو أيضًا. كنت أستيقظ في منتصف الليل على اكتشاف ما، على سبيل المثال، أن رونيه دي كارت يمكن

أن يكون حرف الآر والسي أيضًا، وأنه كان يستخدم كل نشاطه في العثور على المترجم، ثم إنكار أنه عثر على الروزا كروتشي. ولماذا كل هذا الاستحواذ بالمنهج؟ لأنه من خلال المنهج يمكن للمرء أن يصل إلى حل للغموض الذي كان يجذب كل أعضاء الجماعات السرية في أوروبا.

ومن إذن احتفل بسحر الغوطية؟ ألم يكن رونيه دي شاتوبريون. ومن كتب، في زمن بيكون، خطوات إلى فرسان المعبد، ألم يكن ريشارد كراشو. وماذا عن رانييري دي كالزابيجي، ورينيه شار، ورايموند شاندلر؟ وريك من كازابلانكا؟ أليست أسماؤهم جميعًا تبدأ بالحرفين آر، سي.

هذا العلم، الذي لم يضع، على الأقل فيما يتعلق بشقه المادي، كان يتم تعليمه للبنائين الدينيين بواسطة رهبان سيتو... كانوا معروفين، في القرن الأخير، باسم مرافقي سباق فرنسا Compagnons di Tour de France . وإليهم توجه إيفل حتى يبني برجه.

L. Charpentier, Les Mystères de la) cathédrale de Chartres, Paris, Laffont, 1966, pp. 55-56)

الآن أصبح لدينا العصر الحديث كله مليئًا بالفئران العمي التي لا تكل، والتي تحفر أنفاقها وتتغلغل في تحت الأرض، وتتجسس على الكوكب من أسفل. ولكن لابد أن هناك شيئًا آخر، مشروع آخر بدأه أتباع بيكون، والتي كانت نتائجه، ومراحله ظاهرة للجميع، على الرغم من عدم إدراك أحد لهذا... لأنه كان قد تم ثقب الأرض من قبل وفحص الطبقات العميقة، ولكن السلتيين وفرسان المعبد لم يقتصر عملهم على حفر الآبار، بل زرعوا محطاتهم ووجهوها مباشرة إلى السماء، ليتواصلوا من شاهد حجري إلى آخر، وهم يتلقون تأثيرات النجوم.

جاءت هذه الفكرة إلى بيلبو في إحدى الليالي التي قضاها قلقًا. تطلع من النافذة ورأى من بعيد، فوق أسطح المنازل في ميلانو، أضواء البرج المعدني للراديو الإيطالي، هوائي المدينة المظلمة. بابل المتواضعة الحذرة. ثم أدرك ما يحدث.

قال لنا في اليوم التالي: برج إيفل، لماذا لم نفكر في هذا من قبل؟ الشاهد المعدني الضخم، المنهير الذي أقامه آخر السلتيين، إن هوة برجه أطول من الأبراج القوطية. لماذا تحتاج باريس إلى هذا الأثر الذي لا فائدة له؟ إنه المجس السماوي، الهوائي الذي يجمع المعلومات من كل الصمامات الهيرمسية الموضوعة على قشرة الأرض: تماثيل الجزيرة الشرقية، ماشو بيتشو، تمثال الحرية، والذي صممه في البداية العضو لافايت؛ مسلة الأقصر، أعلى أبراج في تومار، والتمثال الضخم لرودي والذي مازال ينقل ذبذباته من أسفل الميناء الذي لا يمكن لأحد العثور عليه؛ بالإضافة إلى معابد غابة براهمن، أبراج البرج العظيم، وقمة صخرة آير، وأبراج ستراسبرج، والتي أسعدت كثيرًا العضو جوته، ووجوه جبل روشمور ـ وكم من الأشياء أدركها التابع هيتشكوك! ـ وهوائي التلفزيون في

مبنى الأمباير ستات، وقولي لي أنت إلى أي إمبراطورية كان يشير هؤلاء الأتباع الأمريكيون إذا لم تكن إمبراطورية رودولفو من براغ! إن البرج يحمل المعلومات الموجودة بأسفل الأرض، ويقارنها بتلك الآتية من السماء. ومن الذي سيمنحنا الصورة المرعبة السينمائية للبرج؟ رونيه كلير في روايته، باريس النائمة، ورونيه كلير اسمه يبدأ بحرفي الآر والسي.

لابد من قراءة تاريخ العلوم كله من جديد: إن السباق الفضائي في تلك الحالة سيُعد مفهومًا، مع وجود تلك الأطباق الهوائية المجنونة، وتدفقات أسفل سطح البحر، وتيارات الهواء الساخنة. إنها تتحدث فيما بينها، تتحدث إلى البرج، تتحدث إلى ستون هيدج...

(٨٧)

إنها بالفعل مصادفة غير عادية أن ملف ١٦٢٣ والمعروف باسم شكسبير، يحتوي بالتحديد على ست وثلاثين مسرحية.

W.F.C. Wigston, Francis Bacon versus Phantom Captain Shakespeare: The Rosicrucian Mask, London, Kegan Pauk, 1891, p.353)

عندما تبادلنا نتائج خيالاتنا، بدا لنا، وكان لنا الحق في ذلك، أننا استأنفنا بحثنا من خلال ترابطات، من خلال صلات عجيبة جدًا لدرجة إذا سألنا أحدهم إذا كنا بالفعل نصدق هذا، كنا سنخجل من أنفسنا. وكنا نعزي أنفسنا من خلال إدراكنا ـ صامت، حتى الآن، لاحترام أدب السخرية ـ بأننا نقوم بمحاكاة ساخرة لمنطق عبدة الشياطين. ولكن أثناء الوقفات الطويلة التي فيها كان كل واحد منا يقوم بمفرده بجمع الإثباتات ترقبًا لاجتماعاتنا، وبالضمير الهادئ لجمع أجزاء لتنفيذ محاكاة من الموزاييك، اعتاد عقلنا على أن يصل، ويربط أي شيء بأي شيء آخر، حتى أصبحنا نفعل ذلك بشكل آلي، بحكم العادة. أعتقد بأن المرء يستطيع أن يصل إلى النقطة التي يصبح لا فارق بين تطوير عادة التظاهر بالتصديق وتطوير عادة التصديق.

إنها قصة الجواسيس القديمة: إنهم كانوا يتسللون إلى المخابرات السرية للأعداء، يطورون في أنفسهم قدرة التفكير مثل العدو، وإذا استطاعوا البقاء على قيد الحياة، يكون ذلك لأنهم نجحوا في ذلك. ولكن سرعان، كما هو متوقع، ما ينضمون إلى المعسكر الآخر، لأنه أصبح مثلهم. ربما أيضًا تأملنا أولئك الذين يعيشون بمفردهم مع كلب، يتحدثون معه طوال النهار، في البداية يحاولون أن يفهموا الكلب، ثم يقسمون أن الكلب يفهم ما يقولون، ويقولون عنه إنه خجول، غيور، غاية في الحساسية؛ ما يلي ذلك يبدءون في استفزازه، يقدمون مشاهد، حتى يتأكدوا أنه أصبح مثلهم تمامًا آدميا، ويكونون فخورين بذلك، ولكن ما يحدث هو أنهم أصبحوا تمامًا مثله، أصبحت أخلاقهم مثل أخلاق الكلاب.

ربما لأنني كنت في اتصال يومي مع ليا، ومع الطفل، كنت أنا، أكثر الثلاثة، الأقل تأثرًا باللعبة. كنت مقتنعًا بأنني الخبير: شعرت بأنني أعزف مرة أخرى آلة الأجوجو

أثناء وجودي في مكان الشعائر في البرازيل: تبقى أنت في جانب من يتحكمون في الانفعالات، وليس أولئك الذين يتأثرون بها. بالنسبة لديوتالليفي، لم أكن أعلم آنذاك ما عرفته اليوم. كان يُدرب جسده على التفكير كأحد عبدة الشيطان. أما بيلبو فقد كان يتقمصهم أيضًا حتى على مستوى الإدراك. كنت أنا قد أصبحت مدمنًا، وديوتالليفي يتحرك نحو الفساد وبيلبو يتحول لشيء آخر. ولكننا جميعًا كنا نفقد بالتدريج نور الذكاء الذي كان يجعلنا دائمًا نميز بين التقليد وبين الأصل، بين المجازات وحقيقة الأشياء، فقدنا تلك الخاصية الغامضة والمضيئة ورائعة الجمال، والتي بفضلها كنا نستطيع أن نقول إن السيد الفلاني قد تحول لأسلوب حيواني ـ دون أن نفكر للحظة واحدة بأنه قد أصبح لديه فراء ومخالب. أما الرجل المريض، فبمجرد أن يفكر في كلمة "حيواني" يتخيل السيد فلان على أربع، ينبح أو يزأر.

في حالة ديوتالليفي ـ والتي كان بإمكاننا إدراكها إذا لم نكن متحمسين جدًا بدورنا ـ بدأ كل شيء عندما عاد في نهاية فصل الصيف. كان يبدو نحيفًا، ولكن لم تكن تلك النحافة الصحية لشخص قضى بضعة أسابيع يتجول في الجبال. كان جلده الأبيض قد تحول إلى الشحوب الواضح. ربما فكرنا لحظتها، إذا كنا توقفنا للتفكير، بأنه قضى إجازته منكبًا على دراسة إحدى اللفائف الكهنوتية. ولكن كان ذهننا مشغولاً بأشياء أخرى.

في الأيام التالية، استطعنا أيضًا أن ننظم بالتدريج الفروع الغريبة عن فرع بيكون.

على سبيل المثال فإن الدراسات الماسونية المعاصرة ترى أن إيللوميناتي بافيرا، والذي كانوا يدعون لتدمير الدول، والقضاء على الاستقرار في البلاد، لم يكونوا متأثرين فقط بفوضوية باكونين، ولكن أيضًا بالنزعة المركسية نفسها. كان الإيللوميناتي هم مجموعة محرضين دستها مجموعة بيكون بين التاوتونيين، ولكن كان ماركس وإنجيلز يفكرون في شيء مختلف تمامًا عندما بدءا في كتابة بيان عام ١٨٤٨، والذي كتبوا فيه العبارة الرنانة: هناك شبح يطارد أوروبا. لماذا هذا المجاز الغوطي إلى حد كبير؟ يشير البيان الشيوعي بسخرية إلى البحث السري عن الخطة الذي أثر على تاريخ القارة لعدة قرون. ويقترح بديل آخر لأتباع بيكون ولأتباع فرسان المعبد الجدد. كان ماركس عبريًا، ربما كان في البداية المتحدث الرسمي باسم كهنة جيرونا، أو سيفاد، وكان يحاول أن يضم شعب الله كله إلى البحث. ثم أخذته المبادرة من يده، تعرف على الشاكيناه، والشعب

الموجود في منفى المملكة مع الطبقة العاملة، فخان آمال من أوحوا إليه، وقلب خطوط محاولات النزعة الماسونية اليهودية. يا فرسان المعبد من العالم كله اتحدوا. إن الخريطة للعمال. شيء رائع! يا له من تبرير تاريخي للنزعة الاشتراكية؟

قال بيلبو: أجل، ولكن أتباع بيكون أيضًا لديهم متاعبهم التي سقطوا فيها في الطريق، لا تعتقدا غير ذلك. البعض منهم اتجه إلى طريق العلوم السريع جدا وانتهى في حارة مسدودة. أقصد أنه في نهاية المملكة سيقوم كل أحفاد أينشتاين وفيرمي، والذين يبحثون علن السر في قلب الكون الصغير باختراع خاطئ. فبدلاً من الطاقة الأرضية، الغنية والطبيعية، والمملوءة حكمة سيكتشفون الطاقة الذرية التكنولوجية المتسخة والملوثة...

قال ديوتاليفي: الفضاء ـ والزمن، فزع الغرب!

تدخلت بالقول: إنه فقدان المركز، أصبح المصل والبنسلين مثل النسخة الكاركاتيرية لإكسير الحياة.

قال بيلبو: مثل فارس المعبد الآخر فرويد، والذي بدلاً من أن يبحث في متاهات العالم السفلي المادية، حفر بداخل تلك المتاهات النفسية، وكأن السيميائيين لم يقولوا أي شيء عن هذا، بل أفضل مما قاله هو.

اعترض ديوتاليفي: ولكنك أنت الذي تحاول نشر كتابات الدكتور واجنر، بالنسبة إلى التحليل النفسي شيء للمختلين عصبيًا.

وختمت أنا: أجل، وليس القضيب سوى رمز جنسي.

هيا أيها السادة، دعونا لا نبتعد كثيرًا عن موضوعنا، فنحن لازلنا لا نعرف أين يقع البولسيون والأورشاليميون في الخطة.

ولكن، وقبل أن نتمكن من الرد على النقطة الجديدة في بحثنا، تقابلنا مع مجموعة أخرى ليس لها علاقة بالستة والثلاثين الخفيين، ولكنها انضمت إلى اللعبة في مرحلة مبكرة جدًا، وقامت بطريقة ما بقلب تصميمها، متسببة في اضطراب شديد، أنهم اليسوعيون.

(٨٨)

كـان الـبـارون فـون هـونـد، والـفـارس رامـسـاي... وآخـرون كـثـيـرون ممن أسـسـوا درجات تلك الشعائر، يعملون بناء على توجيهات الرئيس العام لليسوعيين... إن نزعة الفروسية هي النزعة اليسوعية..

(Lettera a Mme Blawatsky di Charles Sotheran, 32 :. A e P.R. 94 :. Memphis, K.R, K. Kadosch, M.M 104, Eng.etc. ? عضو الأخوية الإنجليزية للروزا

تقابلنا معهم في خلال بحثنا كثيرًا جدًا، بدءًا من زمن بيانات الروزا كروتشي الأولى. ظهر بالفعل منذ عام ١٦٢٠ في ألمانيا جماعة الروزا اليسوعية، حيث يُذكر أن رمز الوردة (الروزا) هو رمز كاثوليكي ومريمي، قبل أن يكون رمزًا لجماعة الروزا كروتشي، وكان هناك تلميح عن اتحاد النظامين، وأن نزعة الروزا كروتشي ما هي إلا إعادة تشكيل لليسوعية الغامضة للتداول بين شعب ألمانيا الإصلاحية.

تذكرت ما قاله سالون عن الهجوم الحاد الذي شنه الأب كيرشر على الروزا كروتشي، والذي ذكره لي في منتصف الحلقة الدراسية عن أعماق كرتنا الأرضية.

قلت: الأب كيرشر شخصية مركزية في هذه القصة. لماذا قام هذا الرجل، الذي أثبت أكثر من مرة ما لديه من حس عال للانتباه والذوق في التجريب، قام بعد ذلك بإخفاء أفكاره الجيدة القليلة تلك وسط آلاف من الصفحات التي تشغي بافتراضات لا يمكن تصديقها؟ كان على اتصال بأفضل العلماء الإنجليز، ثم إن كل كتاب من مؤلفاته يعيد تناول موضوعات الروزا كروتشي، ليعارضها في الظاهر، ولكن في الواقع لينسبها إلى نفسه، وليقدم من خلالها نسخته المناهضة للإصلاح. في النسخة الأولى من كتاب "الشهرة"، حكم على السيد هاسيلماير بالسجن بواسطة اليسوعيين بسبب أفكاره الإصلاحية، فمن الصعب القول إن الروزا كروتشي هم اليسوعيون الحقيقيون. حسنًا، نعود إلى الأب كيرشر والذي كتب مؤلفاته الأكثر من ثلاثين ليوحي بأن الروزا كروتشي الحقيقين والصالحين هم اليسوعيون. يحاول اليسوعيون أن يضعوا أيديهم على الخطة. يرغب الأب كيرشر، في دراسة البندول ويفعل ذلك بالفعل، حتى وإن تم ذلك بطريقته الخاصة، من خلال اختراعه لساعة كوكبية لمعرفة الساعة الدقيقة لكل مقرات الجماعة الموجودين في جميع أنحاء العالم.

سأل ديوتالليفي: ولكن كيف عرف اليسوعيون بوجود الخطة، على الرغم من أن فرسان المعبد اختاروا الموت عن الاعتراف؟

ولم تكن هناك أي فائدة من الإجابة بأن اليسوعيين يعرفون دائمًا كل شيء. كنا نحتاج إلى تفسير آخر أكثر جاذبية.

وسرعان ما عثرنا على تفسير. إنه جوليلمو بوستل مرة أخرى. من خلال البحث في تاريخ اليسوعيين في كريتينو ـ جولي (وكم ضحكنا على هذا الاسم التعس، والذي يعني جولي الغبي)، عرفنا أنه في عام ١٥٥٤، لحق بوستل، في عطشه للتجديد الروحي، بالقديس إينياتزيو دي ليولا في روما. استقبله إينياتزو بحماس، ولكن بوستل لم يستطع أن يتخلى عن أفكارة الثابتة، وعن نزعته القبالية، والمسكونية. لم تكن هذا الأفكار موضع ترحيب لدى اليسوعيين، وخاصة إحدى الأفكار الجنونية التي رفض بوستل تمامًا أن يتخلى عنها: فكرة أن ملك العالم هو ملك فرنسا. ربما كان إينياتزو قديسًا، ولكنه كان أيضًا إسبانيًا.

لذلك كانت النهاية الطبيعية الانفصال، ترك بوستل اليسوعيين ـ أو طرده اليسوعيون. ولكن نظرًا لأن بوستل كان قد انضم إلى اليسوعيين، حتى ولو لفترة وجيزة، فمن المؤكد أنه قال للقديس إينياتزيو، والذي أقسم أمامه على الطاعة إلى القبر، أعلم أنك بقبولي ستقبل أيضًا سر خطة فرسان المعبد، والتي أنا بكل تواضع ممثلها في فرنسا، بل سننتظر جميعًا اللقاء الثالث الذي يتم كل قرن عام ١٥٨٤، وربما ننظره في قمة المجد.

إذن فاليسوعيون، وبفضل لحظة الضعف التي أصابت بوستل، عرفوا سر فرسان المعبد. وسر مثل هذا لابد من استغلاله. انتقل القديس إينياتزيو إلى تطويبه الأبدي، ولكن استمر أتباعه في مراقبة بوستل. كانوا يريدون معرفة من الذي سيتقابل معه في تلك الليلة عام ١٥٨٤. ولكن للأسف، يموت بوستل قبل هذا التاريخ، ولم يساعدهم في شيء وجود أحد الرهبان اليسوعيين بجوار فراش موته، كما تؤكد أحد المصادر، فلم يعرف اليسوعيون من سيكون التالي له.

قال بيلبو: معذرة يا كازاوبون، يوجد شيء غير منطقي هنا. إذا سارت الأمور بهذه الطريقة فهذا يعني أن اليسوعيين لم يستطيعوا معرفة فشل لقاء عام ١٥٨٤.

أضاف ديوتالليفي: ولكن لابد من أن لا ننسى أنه، حسبما قلتم أيها الأعزاء، هؤلاء اليسوعيون كانوا رجالاً أشداء ولم يكن من السهل خداعهم.

قال بيلبو: بالنسبة لهذا الأمر كان يمكن لأحد اليسوعيين تناول اثنين آخرين من الفرسان في الإفطار على العشاء. لقد تم حل جماعتهم هم أيضًا، أكثر من مرة، بل وساعدت حكومات أوروبا كلها لتنفيذ هذا، إلا أنهم مازالوا موجودين حتى الآن.

كان لابد لنا من أن نضع أنفسنا في مكان واحد من اليسوعيين. ماذا يفعل اليسوعي إذا أفلت بوستل من بين يديه؟ جاءت لي أنا الفكرة على الفور، ولكنها كانت فكرة شيطانية إلى حد كبير إلى درجة أنه من العسير حتى على أحد مؤلفينا من أتباع الشيطان أن يهضمها: إن الروزا كروتشي كانت أحد اختراعات اليسوعيين.

واقترحت فكرتي قائلاً: بعد أن مات بوستل، توقع اليسوعيون ـ لما لديهم من فطنة ـ حسابيًا اضطراب التقويمات، وقرروا أن يقوموا بالمبادرة. أسسوا الجماعة الغامضة للروزا كروتشي، متوقعين تمامًا ما سيحدث. ومن بين المتحمسين الذين يبتلعون هذا الطعم، أحد أعضاء الجماعة الأصلية، والذي خدعه الأمر، سيتقدم لهذا الجماعة. وفي تلك الحالة يمكننا أن نتخيل غضب بيكون: فلود أيها الأحمق، ألم يكن في إمكانك التزام الصمت؟ ولكن أيها الفسكونت، أيها السيد، لقد بدوا أنهم من جماعتنا... أيها الأحمق، ألم أعلمك ألا تثق قط في أتباع البابا؟ كان لابد من أن يحرقوك أنت وليس ذلك البائس نولا!

قال بيلبو: لماذا إذن عندما انتقل الروزا كروتشي إلى باريس، قام اليسوعيون، أو أصحاب النزعة الجدلية من أتباعهم الكاثوليك، بمهاجمة الوافدين الجدد واتهامهم بالهرطقة وأتباع الشيطان؟

ـ لسنا نتوقع بالتأكيد أن اليسوعيين يعملون بطريقة مستقيمة بهذا الشكل. أي نوع من اليسوعيين سيكون هذا؟

تجادلنا فترة طويلة حول اقتراحي هذا، وأخيرًا قررنا، بالإجماع، أن الافتراض الأصلي كان أفضل: إن الروزا كروتشي كان الطعم الذي ألقاه أتباع بيكون والألمان إلى الفرنسيين . ولكن اليسوعيين، بمجرد أن ظهرت البيانات، التهموها التهامًا وألقوا بأنفسهم في اللعبة ليتسببوا في اضطرابها. كان هدف اليسوعيين، كما هو واضح، منع

لقاء الجماعتين الإنجليزية والألمانية بتلك الفرنسية، وكانوا يستخدمون لذلك كل الوسائل، مهما كانت قذرة.

في الوقت نفسه، كانوا يسجلون الأحداث ويجمعون المعلومات وكانوا يحتفظون بها... أين؟ قال بيلبو ضاحكًا: على أبو العافية. ولكن ديوتالليفي الذي كان متسلحًا بالوثائق من جهته، بأن الأمر لا يتعلق بمجرد مزحة. من المؤكد أن اليسوعيين كانوا يعملون على بناء حاسوب ضخم جدًا وقدير جدًا، سيتمكن من أن يستنتج الحقيقة من كل ما كانوا يجمعونه.

قال ديوتالليفي: أدرك اليسوعيون ما لم يستطع فرسان المعبد المساكين القدامي في بروفان ومعسكر بيكون إدراكه، وبالتحديد إن إعادة تركيب الخريطة يمكن أن يتم تنفيذه من خلال عمليات حسابية مركبة؛ بكلمات أخرى من خلال منهج يقدم لكل عقولنا الإلكترونية الحديثة. كان اليسوعيون هم أول من اخترعوا أبو العافية! قرأ الأب كيرشر كل البيانات من خلال المنهج التركيبي، بدءًا من تلك الخاصة بلولّو إلى ما بعد ذلك. وانظرا إلى ما نشره في كتابه Ars Magna Sciendi...

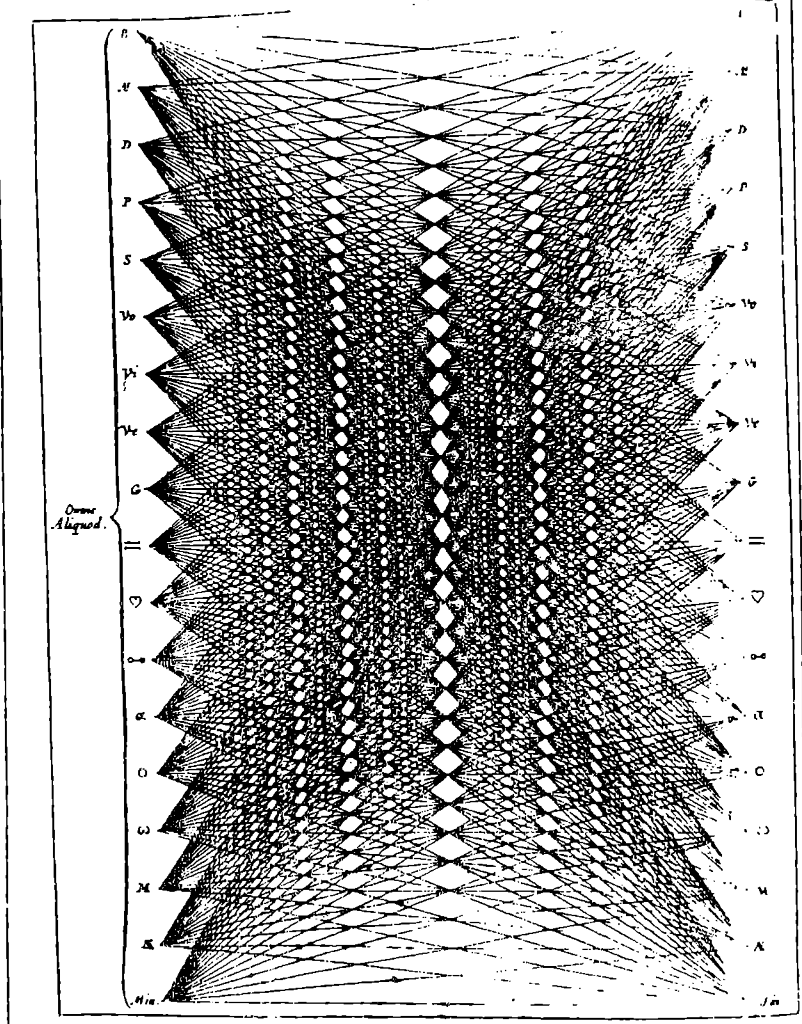
قال بيلبو: يبدو لي أنه تصميم للكروشيه.

لا يا سيدي الفاضل، إنها جميع التركيبات الممكنة بين (ن) من العناصر. إنه الحساب التفاعلي لسفيراة جازيراه. إنه حساب التركيبات والتغييرات، جوهر التامورة ذاته.

كان الأمر بالتأكيد كذلك. كان تناول مشروع فلود الغامض ليميز الخريطة منطلقًا من العرض القطبي شيء، وتناوله انطلاقًا من معرفة كم التجارب يستلزم الأمر ومعرفة تنفيذها جميعًا للوصول إلى أفضل الحلول شيء آخر مختلف تمامًا. بالتأكيد كان هناك فارق كبير بين خلق نموذج مجرد للتركيبات الممكنة، وبين التفكير في آلة قادرة على تنفيذ هذا الأمر. وها هو كيرشر وتلميذه سكوت يخططان لتنفيذ أدوات آلية، آليات تعمل من خلال الكروت المثقوبة، حاسوبات سابقة للزمن. قبالاة يتم تطبيقها بالآلية الحديثة.

EPILOGISMUS

Combinationis Linearis.



(٨٩)

في أعماق أواسط الظلام تكونت جماعة. جماعة من الكائنات الجديدة، يعرف كل منهم الآخر دون أن يتقابلوا قط، يفهم كل منهم الآخر دون أن يفسر أحدهم أي شيء، ويخدم كل منهم الآخر دون أي صداقة... كانت هذه الجماعة تتبنى من النظام اليسوعي الطاعة العمياء، ومن الماسونية التجارب والشعائر الخارجية، ومن فرسان المعبد الاستدعاءات السفلية والشجاعة الاستثنائية... ربما أراد كونت سان جيرمانو فقط تقليد جويوم بوستل الذي كان يرغب بشدة أن يصدق الناس أنه أكبر سنًا مما هو في الحقيقة؟

Marquis de Luchet, Essai sur la)
secte des illuminés, Paris, 1789, v and
xii)

كان اليسوعيون يعرفون أنك إذا أردت أن تربك أعداءك، فأفضل الطرق هي أن تُنشىء شيعًا سرية، وأن تنتظر أن ينضم إليها المتحمسون ممن هم مصدر تهديد، ثم تقبض عليهم جميعًا. بكلمات أخرى، إذا كنت تخشى مؤامرة ما، قم أنت بنفسك بإعداد واحدة، وبهذه الطريقة يقع كل من كان سينضم إليها تحت سيطرتك.

تذكرت التحفظ الذي عبر عنه آلييه عن رامساي، أول من قام باستنتاج صلة مباشرة بين الماسونيين وفرسان المعبد: قال آلييه إن رامساي كانت له علاقات في الدائرة الكاثوليكية. في الواقع، كان فولتار قد اتهم رامساي بالفعل بأنه إحدى أدوات اليسوعيين. عندما وجدوا أنفسهم أمام نشأة الماسونيين الأحرار الإنجليز، أجابوا على ذلك بتأسيس نزعة فرسان المعبد الجديدة الإسكتلندية.

لابد أن الأمر تم بهذه الطريقة إذ أنه للرد على هذه الحبكة، قام أحد ماركيزات دي لوشيه عام ١٧٨٩، بكتابة بحث، دون أن يضع عليه اسمًا، حول شيع الإيللوميناتي، والذي فيه كان يهاجم الإيللوميناتي من كل الأجناس، سواء من بافييرا أو من أي مكان آخر، سواء كانوا فوضويين أو مجرد طعم أرسله الكهنة أو متصوفين من الفرسان الجدد. ثم ألقى على تلك الكومة (الشيء المذهل الذي يوضح كيف أن أجزاء الموزاييك قد تعشقت سويًا!) البوليسيين أيضًا، بل وبوستل وسان جيرمانو. وكانت شكواه هي أن أشكال النزعات الغامضة لفرسان المعبد تلك، كانت تقلل من شأن مصداقية الماسونيين، والتي على النقيض مما يقولون كانت جماعة من الرجال الصالحين والأمناء.

اخترع أتباع بيكون الماسونية لتكون مثل بار ريك في كازابلانكا، وكانت نزعة فرسان المعبد الجديدة اليسوعية تتفادى نواياهم، وكان لوشيه مبعوثًا كقاتل ليخرج كل الجماعات التي لم تكن تنتمي لأتباع بيكون.

عندئذ وجدنا أنفسنا أمام مسألة أخرى لم يستطع آلييه المسكين أن يعالجها: لماذا ذهب دوماستر، وهو رجل اليسوعيين، وقبل أن يظهر ماركيز لوشيه، إلى ويلهيمسباد لينشر الفرقة بين فرسان المعبد الجدد؟

قال بيلبو: كانت نزعة فرسان المعبد الجدد تسير على ما يرام في النصف الأول من القرن الثامن عشر، ثم ساء الأمر جداً في نهاية القرن لأن الثوريين قاموا بالسيطرة عليها، والذين كانوا يستخدمون كل شيء من آلهة الحكمة إلى الكينونة العليا، حتى كاليوسترو طالما سيساعد على الإطاحة بالملك. وكان السبب أيضًا أن الأمراء الألمان قد بدءوا يضعون أيديهم في اللعبة، ولم تكن أهدافهم هي أهداف اليسوعيين بالتأكيد. عندما تكون أتباع فرسان المعبد الجدد، بغض النظر عمن اخترعهم، بدءوا في إنتاج أشياء مثل "الناي السحري"، قرر أتباع ليولا أن يمحوا وجودهم تمامًا. إن الأمر مثلما يحدث في الاقتصاد: تشتري شركة، تبيع أسهمها، تعلن إفلاسها، وتغلقها، ثم تستثمر في رأس مالها. الشيء المهم هو الاستراتيجية الإجمالية، وليس ما يحدث لحارس الشركة، أو يشبه الأمر سيارة مستعملة: عندما تتوقف عن العمل، ترسلها إلى مقبرة السيارات.

في القانون الماسوني الحقيقي لا يوجد أي إله سوى ماني. فهو إله القباليين الماسونيين، والروزا كروتشي القدماء، وإله الماسونيين المارتينست... كل الصفات البشعة التي نُسبت إلى فرسان المعبد قد نُسبت، قبلهم، بالتفاصيل نفسها، إلى المانويين.

Abbé Barruel, Mémoires pour serv-)
er à l'histoire du jacobinisme, Hamburg,
178.2, xiii)

أصبحت استراتيجية اليسوعيين واضحة بالنسبة إلينا عندما اكتشفنا الأب باريول. في الفترة بين عامي ١٧٩٧ و١٧٩٨، وفي استجابة للثورة الفرنسية، كتب مذكرات لخدمة التاريخ عن النزعة اليعقوبية، رواية حقيقية، قليلة التكاليف، والتي تبدأ، وهنا المفاجأة، بفرسان المعبد. بعد حرق مولاي، حولوا أنفسهم إلى جماعة سرية لتدمير الملكية والباباوية وأن يؤسسوا الجمهورية العالمية. في القرن الثامن عشر، استولوا على جماعات الماسونيين الأحرار وجعلوها أداة لهم. في عام ١٧٦٣ أنشأوا أكاديمية أدبية مكونة من فولتار، تورجو، كوندوكريت، وديديرو وألومبير، والذين كانوا يتقابلون في منزل بارون أولباك، وفي عام ١٧٧٦ بدأت مؤامرة تلي الأخرى، وولدت جماعة اليعقوبيين (اليعاقبة). ولكنهم كانوا مانويين تمامًا، كان يتحكم فيهم الرؤساء الحقيقيون، الإيللوميناتي من بافييرا، وكانت دعوتهم هي القضاء على الملكية.

وماذا عن مقبرة السيارات؟ بعد أن قام اليسوعيون بتقسيم الماسونيين إلى مجموعتين بمساعدة رامسي، وضعوا المجموعتين معا ثانية ليتصارعا فيما بينهما.

كان لكتاب باريول بعض التأثير، في الواقع، كان يوجد في الأرشيف الفرنسي الوطني، على الأقل تقريران أمر بهما نابليون حول الشيع السرية. كتب هذين التقريرين شخص يُدعى شارلز دي بيرخايم، والذي ـ كما تفعل المخابرات السرية ـ حصل على معلوماته من مصادر منشورة بالفعل، ونقل منها بحرية، في البداية من ماركيز دو لوشيه، ثم من رواية باريول.

أمام تلك الصفات المرعبة للإيللوميناتي، وهذا الاتهام الواضح بوجود مجلس إدارة لرؤساء مجهولين قادرين على السيطرة على العالم، لم يتردد نابليون وقرر أن ينضم

إليهم. قام بترشيح أخيه جوزيبي الخبير الكبير للشرق الأعظم وقام هو بنفسه، وذلك موثق في العديد من المصادر، بالاتصال مع الماسونية، وبناء على ما جاء في مصادر أخرى، أصبح له هو بدوره إحدى الرتب العليا جداً.

ما الذي كان يعرفه نابليون لا نعرفه نحن؟ ولكن دعونا نتذكر أنه قضى فترة طويلة في مصر ومن يدري مع من يا تُرى من الحكماء تحدث تحت ظلال الأهرامات (حتى الطفل الصغير يمكنه أن يفهم أن الأربعين قرناً السابقة التي كانت تنظر إليه، ما هي إلا إيحاء واضح للتراث الهيرمسي).

ولكنه بالتأكيد كان يعرف الكثير، لأنه عام ١٨٠٦، استدعى جماعة من اليهود الفرنسيين، كانت الأسباب الرسمية للاجتماع تافهة، محاولة لتقليل الربا الفاحش، والتأكد من إخلاص الأقلية اليهودية، والعثور على ممولين جدد... ولكن هذا لا يفسر لماذا قرر أن يطلق على هذا التجمع السنهدرين الكبير، مستعيداً فكرة مجلس إدارة من الرؤساء، المجهولين بطريقة أو بأخرى. في الحقيقة كان نابليون الخبيث قد عرف من هم ممثلو الجناح الأورشاليمي، وكان يحاول تجميع المجموعات الأخرى المتفرقة.

ـ وليست إذن مصادفة أن اتجهت فرق المارشيال ناي، في عام ١٨٠٨، إلى تومار. هل تلاحظون الترابط؟

ـ إننا هنا فقط لنلاحظ الترابطات.

ـ والآن يشعر نابليون بضرورة هزيمة إنجلترا، يمسك بين يديه كل المراكز الأوروبية، ومن خلال اليهود الفرنسيين أصبح الأورشاليميون أيضاً معه. من ينقصه أيضاً.

ـ البوليسيون/ البوليكان.

ـ تمام. لم نقرر بعد أين انتهى أمرهم. ولكن نابليون يقدم لنا اقتراحاً، حيث سيذهب للبحث عنهم حيث هم: في روسيا.

بعد أن عاشوا لقرون عديدة في المناطق السلافية، قام البوليسيون بتنظيم أنفسهم تحت أسماء العديد من الجماعات السرية الروسية. كان أحد أهم مستشاري الإسكندر الأول، الأمير جاليتزن، كان على علاقة بشيع متأثرة بالمارتنست. ومن نجد في روسيا، في منصب السفير المفوض لأسرة سافوي قبل وصول نابليون بعشر سنوات، محاولاً توطيد العلاقات مع الجماعات السرية في سان بطرسبرج؟ نجد دي ماستر.

في تلك الفترة كان دي ماستر قد فقد ثقته في أي من منظمات الإيللوميناتي. لم يكونوا، بالنسبة إليه، مختلفين كثيراً عن التنويريين المسئولين عن حمامات الدم المصاحبة للثورة. في الواقع، خلال تلك الفترة، ومن خلال تكرار ما قاله باروبل بالحرف، كان يتحدث عن جماعة شيطانية تريد الاستيلاء على العالم، وربما كان يتحدث ونابليون في ذهنه. إذا كان صديقنا المحافظ جداً يتقدم إذن ليغري مجموعات المارتنست، كان ذلك لأنه قد استنتج، على الرغم من أنهم يتبعون مصادر نزعة فرسان المعبد الجديدة الفرنسية والألمانية، أنهم يعبرون المجموع الوحيدة التي لم يصبها فساد التفكير الغربي: أي البوليسيين.

ولكن، على ما يبدو، لم تنجح خطة دي ماستر، في عام ١٨١٦ تم طرد اليسوعيين من بطرسبرج وعاد دي ماستر إلى تورينو.

قال ديوتالليفي: حسناً! عثرنا على البولسيين. فنخرج إذن نابليون من المشهد، إذ أنه لم ينجح، كما هو واضح، في تحقيق نواياه، وإلا كان بإمكانه من سان إيلينا، وبأمر بسيط منه، إفزاع أعدائه. وما الذي سيحدث الآن بين كل هؤلاء؟ أكاد أفقد عقلي.

قال بيلبو: نصفهم فقدوه كله بالفعل.

(٩١)

آه! كيف تمكنتم إذن من نزع القناع عن تلك الشيع الجهنمية التي تعد الطريق للمسيح الدجال... ولكن، مازالت توجد إحدى الفرق التي لمستوها بالكاد.

Lettera del capitano Simonini a)
Barruel, da La cività cattolica,
21.10.1882)

تسببت حركة نابليون مع اليهود في إعادة تصحيح مسار لدى اليسوعيين. لم تشر مذكرات باريول إلى اليهود. ولكن عام ١٨٠٦ يتلقى باريول خطابًا من شخص يدعى الكابتن سيمونيني، والذي يذكره أيضًا بأن ماني أيضًا وحارس الجبل كانا يهوديان، وأن الماسونية قد أسسها اليهود وبأن اليهود قد تسللوا إلى كل الجماعات السرية التي لها وجود.

وضع خطاب سيمونيني، والذي تم بمهارة نشره في باريس، نابليون في موقف عصيب، حيث كان قد تقابل لتوه مع مجلس السنهدرين. ذلك اللقاء سبب القلق أيضًا للبوليسيين، لأنه في تلك الأيام كان المجمع المقدس للكنسية الأرثوذكسية في موسكو يعلن: أن نابليون يعرض اليوم جمع كل اليهود الذي شتتهم غضب الرب على وجه الأرض، ليجعلهم يدمرون كنيسة المسيح ويعلن نفسه المسيا الحقيقي.

ويوافق باريول الطيب على فكرة أن المؤامرة ليست فقط ماسونية، ولكن يهودية ماسونية. ثم إن فكرة المؤامرة الشيطانية تلك مناسبة جدًا لمهاجمة عدو جديد، أي الانتقام الأسمى، أي قادة النهضة المعادين للكهنوت من أمثال مازيني وجاريبالدي.

قال ديوتاليفي: لكن هذا كله حدث في بداية القرن التاسع عشر، بينما الهجوم الكبير المناهض للسامية بدأ في نهاية القرن مع نشر بروتوكولات حكماء صهيون. وظهرت البروتوكولات في المنطقة الروسية، إذن فهي مبادرة جماعة البوليسيين.

قال بيلبو: بالتأكيد، من الواضح أن في هذه اللحظة كانت المجموعة الأورشاليمية مقسمة إلى ثلاثة فروع: الفرع الأول من خلال القباليين الإسبان والفرنسيين ذهب ليوحي إلى فرع فرسان المعبد الجدد، الفرع الثاني تم استيعابه في جناح أتباع بيكون،

وأصبحوا علماء ورجال مالية، وهؤلاء هم من يناهضهم اليسوعيون. ولكن يوجد أيضًا فرعًا ثالثًا، وهو الفرع الذي استقر في روسيا. جزء كبير من يهود روسيا كانوا يعملون في المشاريع التجارية الصغيرة وتسليف الأموال، وبالتالي نظر إليهم المواطنون الفقراء إليهم نظرة سيئة. تغلغل جزء كبير، نظرًا لأن الثقافة اليهودية هي ثقافة الكتاب، وجميعهم يعرفون القراءة والكتابة، إلى صفوف المخابرات التحريرية والثورية. كان البوليسيون متصوفين ومتحفظين، مرتبطين بخيط مزدوج مع الإقطاعيين، واقتربوا منهم جدًا.

إذن فهم يعتمدون على أن يفقد اليهود مصداقيتهم، ومن خلال اليهود ـ عرفوا ذلك من اليسوعيين ـ يمكنهم أن يضعوا أعداءهم في الخارج، سواء فرسان المعبد الجدد أم أتباع بيكون، في مأزق.

(٩٢)

لا يمكن أن يكون هناك أدنى شك.
اقتربت، بكل قدرة ورعب الشيطان، مملكة الملك
المنتصر القادم من إسرائيل إلى عالمنا غير
المتجدد، ذلك الملك المولود من دم صهيون، ضد
المسيح، يقترب من عرش القدرة الكونية.
Sergej Nilus, Epilogo ai Protocolli)

كانت الفكرة مقبولة. كان علينا فقط أن نصل إلى الشخص الذي أدخل البروتوكولات إلى روسيا.

أغرى بابوس، أحد أكثر المارتينست تأثيرًا في نهاية القرن، نيكولاس الثاني، أثناء إحدى زياراته إلى باريس، حيث ذهب بدوره إلى موسكو واصطحب معه شخص يُدعى فيليب، وبالتحديد فيليب نيزير أنسيلم فاتشود. كان يسكنه الشيطان منذ كان في السادسة من عمره، شفي في سن الثالثة عشرة، وعمل كساحر في ليون، وجذب إليه كل من نيكولاس الثاني وزوجته وعُين طبيبًا للأكاديمية العسكرية في بطرسبرج، جنرال ومستشار للدولة.

عندئذ قرر أعداؤه أن يضعوا في مواجهته بشخصية كارزماتية تهدد وضعه، وهنا ظهر نيلوس.

كان نيلوس أحد النساك المتجولين، وكان يتجول في الغابات في ملابس الرهبان (وماذا يكون سوى ذلك؟)، كانت له ذقن كبيرة، زوجتان، وابنة صغيرة ومساعدة أو عشيقة، الجميع متعلقون بكلمة واحدة منه. كان نصف غورو، أحد الذين يمكنهم أن يهربوا بالخزينة، ونصف متصوف من أولئك الذين يصرخون بأن نهاية العالم قد اقتربت. في الواقع كانت أفكاره كلها منصبة ضد المسيح.

كانت خطة معضدي نيلوس هي أن يصبح في رتبة كهنوتية، بحيث يتزوج فيما بعد (زوجة أكثر أو أقل لن تضر) إلينا ألكسندروفنا أوزيروفا، وصيفة زوجة القيصر، ويصبح بالتالي أب اعتراف الأسرة الحاكمة.

قال بيلبو: لست دمويًا، ولكنني بدأت أشك في أن مذبحة رومانوف ربما كانت عملية للتخلص من الأعداء.

على كل حال، اتهم مؤيدو فيليب نيلوس بأنه يعيش حياة شهوانية، والله يعلم أنهم كانوا بالفعل على حق. اضطر نيلوس لأن يترك البلاط، ولكن في هذه اللحظة تقدم أحدهم لمساعدته، مسلمًا إياه نص البروتوكول. ونظرًا لأن الجميع كانوا يخلطون بين المارتينست (وهو الاسم المشتق من سان مارتان) مع المارتينزيست (أتباع مارتينز باسكواليس، الذي كان آلييه يكرهه)، ونظرًا لأن باسكواليس، تبعًا لإشاعة انتشرت على مستوى واسع، كان يهوديًا، فإنه بفقد اليهود لمصداقيتهم بسبب البروتوكولات، فقد المارتينست مصداقيتهم أيضًا، وبالتالي طرد فيليب.

في الواقع، في البداية، ظهرت نسخة غير مكتملة من البروتوكولات بالفعل عام ١٩٠٣ في تزناميا، في صحيفة تصدر في سان بطرسبرج يحررها شخص معاد للسامية يدعى كروشوفان. وفي عام ١٩٠٥، وبموافقة الرقابة الحكومية، ظهر نص كامل، مجهول المؤلف، تحت عنوان مصدر الشرور، حرره بوتامي، والذي أسس مع كروشيفان اتحاد الشعب الروسي، وعُرف باسم المئات السوداء، وكان يضم في صفوفه مجرمين معروفين يقومون بمذابح منظمة ومتعصبين من الجناح الأيمن لأعمال العنف. نشر بوتامي فيما بعد، مستخدمًا اسمه، تعديلات أخرى إلى العمل، وأصبح عنوانه: أعداء الإنسانية: بروتوكولات من الأرشيفات السرية من المجلس المركزي لصهيون.

كانت هذه كتيبات رخيصة الثمن، ولكن عام ١٩٠٥ ظهرت نسخة موسعة، تُرجمت ووزعت في جميع أنحاء العالم، ضمن طبعة ثالثة من كتاب نيلوس: الكبير في الصغير، ضد المسيح إمكانية سياسية حتمية، تساركوي تسيلو، وتحت حماية القسم المحلي للصليب الأحمر. كان الإطار هو التأمل التصوفي، ولكن الهدف كان أبعد من ذلك، ووصل الكتاب إلى يد القيصر. وأمر مطران موسكو أن يُقرأ الكتاب جهرًا في كل كنائس موسكو.

سألت: ولكن ما هي العلاقة بين البروتوكولات وخطتنا؟ هنا توجد الكثير من الإشارات لهذه البروتوكولات، هل لابد من قراءتها إذن؟

قال لنا ديوتاليفي: لا يوجد شيء أسهل من ذلك، يوجد دائمًا شخص يعيد نشرها.

اعتاد الناشرون أن يفعلوا ذلك باستياء، فقط بدافع الشعور بالواجب الخاص بتوفير وثيقة تاريخية، ثم رويدا رويدا توقفوا عن الاعتذار، وبدأوا يفعلون ذلك باستمتاع.

(٩٣)

إن الجماعة الوحيدة المعروفة لدينا، والتي يمكن أن تنافسنا في تلك الفنون هي جماعة اليسوعيين. ولكننا استطعنا أن نفقد اليسوعيين مصداقيتهم أمام الشعب الغبي. لأن هذه الجماعة هي منظمة مكشوفة، بينما نختبئ نحن وراء الستار، محتفظين بالسر.

كانت البروتوكولات هي سلسلة من أربعة وعشرين تصريحًا، برنامج للعمل، منسوبة إلى حكماء صهيون. بدت نوايا هؤلاء الحكماء متناقضة إلى حد ما بالنسبة إلينا. أحيانًا يرغبون في القضاء على حرية الصحافة، وأحيانًا أخرى يشجعون على حرية التعبير. كانوا ينتقدون النزعة التحررية، ولكن يدعمون، ما يعده اليساريون الأصوليون صفاتًا للرأس مالية متعددة الأجناس، بما في ذلك استخدام الرياضة والتعليم المرئي لجعل الشعوب أغبياء. محللين مختلف التقنيات للتحكم في السلطة العالمية، ممجدين قوة الذهب. قرروا أن يعضدوا الثورات في كل بلد مستغلين الحنق ومسببين الارتباك لدى الناس معلنين أفكارًا تحررية، ولكنهم يرغبون أيضًا في تشجيع عدم المساواة. كانوا يحسبون كيف يمكنهم أن يأسسوا في كل مكان أنظمة رئاسية يتحكم فيها رجال ضعفاء ليقعوا تحت سيطرتهم. قرروا أن يشعلوا الحروب وأن يزيدوا من التسلح و(كما قال سالون) بناء خطوط المترو (عالم ما تحت الأرض!) لتكون لديهم السبل لتفجير المدن الكبيرة.

يقولون إن الغاية تبرر الوسيلة، ويقترحون تشجيع المعاداة للسامية سواء للسيطرة على اليهود الفقراء، أم لاستمالة قلب المشتركين في مواجهة المأساة اليهودية (طريقة مكلفة، قال ديوتاليفي، ولكن فعّالة). ويؤكدون بصراحة "لدينا طموح بلا حدود، وطمع نهم، ورغبة لا رحمة فيها للانتقام، وكراهية مكثفة" (وهم بهذا يعرضون نوعًا من أنواع اللذة الماسوشي، لأنهم يعيدون بلذة إنتاج كليشيه اليهودي الشرير، والذي كان بالفعل منتشرًا على صفحات الجرائد المعادية للسامية، والذي سيزين أغلفة كل نسخ كتابهم)، وقرروا أن يلغوا دراسة الأعمال الكلاسيكية والتاريخ القديم.

قال بيلبو: الخلاصة أن حكماء صهيون لم يكونوا سوى فرقة من الأغبياء.

قال ديوتالليفي: لا تمزح، فهذا الكتاب تم التعامل معه بجدية شديدة جداً. ولكن هناك شيئًا يصدمني لغرابته. بينما المؤامرة اليهودية كان مقدر لها أن تبدو قديمة ومنذ قرون، فإن جميع الإحالات في البروتوكولات مستمدة من جدليات فرنسية تعود إلى نهاية القرن. يبدو أن الإشارة إلى التعليم المرئي الذي يهدف لجعل الشعوب أغبياء يلمح إلى البرنامج التعليمي لليون بورجوا، الذي أدخل تسعة من الماسونيين إلى حكومته. وهناك فرع آخر ينصح بانتخاب أشخاص تم التصالح معهم بشأن فضيحة بنما، وكان المقصود بذلك إيميل لوبيه، والذي سيصبح رئيسًا للجمهورية عام ١٨٩٩. والإشارة إلى مترو الأنفاق تعود إلى أنه في تلك الفترة كانت صحف اليمين تعترض لأن شركة مترو الأنفاق الفرنسية كان تضم الكثير من النشطين السياسيين اليهود. ولذلك يمكننا الافتراض أن النص قد كُتب في فرنسا في نهاية القرن التاسع عشر، في فترة درايفوس لإضعاف جبهة التحرير.

قال بيلبو: ليس هذا ما يدهشني، بل إنه الشعور بأنني سبق ورأيت كل ذلك من قبل. إن خلاصة الأمر هو أن هؤلاء الحكماء يحكون عن قصة للسيطرة على العالم، ونحن قد استمعنا من قبل لهذا الحوار. حاولا أن تنزعا بعض الإشارات وأحداث ومشكلات القرن السابق، وضعا الأنفاق الأرضية لبروفان في مكان الأنفاق الأرضية للمترو، وفي كل مرة تجدا كلمة يهودي مكتوبة استبدلوها بفارس للمعبد، وفي كل مرة تجدا عبارة حكماء صهيون استبدلاها بالستة والثلاثين غير المرئيين مقسومين على ستة... صديقي العزيزان، نحن أمام تنظيم بروفان!

(٩٤)

مات فولتار نفسه وهو منتم لليسوعيين: تر
هل كان لديه أدنى شك في ذلك؟

F.N. de Bonneville, Les Jésuites chasses de la Maçonnerie et leur poignard brisé par les maçons, Orient de Londres, 1788, 2, p.74)

كان كل شيء أمامنا طيلة الوقت، ولم ندرك ذلك مليًا. على مدار ستة قرون كانت توجد ست مجموعات تحاول تنفيذ خطة بروفان، وكانت كل مجموعة منهم تأخذ النص المثالي لتلك الخطة، وتغير ببساطة الموضوع، وتنسبه للأعداء.

بعد أن ظهر الروزا كروتشي في فرنسا، قلب اليسوعيون الخطة واستبدلوها بالوجه السلبي لها: عن طريق نزع المصداقية عن الروزا كروتشي ينزعونها أيضًا عن أتباع بيكون والماسونية الإنجليزية الناشئة.

عندما اخترع اليسوعيون نزعة فرسان المعبد الجديدة، نسب مركيز دو لوشيه الخطة للفرسان الجدد. قال اليسوعيون، الذين كانوا بدورهم يتخلصون من الفرسان الجدد، ومن خلال باريول، بتقليد لوشيه، ولكنهم نسبوا الخطة إلى كل الماسونيين بصفة عامة.

ثم حدث الهجوم المضاد لأتباع بيكون. من خلال البحث في النصوص التي تتعلق بتلك الجدلية التحريرية والعلمانية، اكتشفنا أنه بدءًا من ميشيليه وكوينيه وصولاً إلى جاريبالدي وجوبيرتي، كان النظام منسوبًا إلى اليسوعيين (ربما كانت هذه الفكرة نابعة من فارس المعبد باسكال وأصدقائه). أصبح الموضوع منتشرًا من خلال رواية اليهودي المتجول Le Juif Errant ليوجين سو، ومن خلال شخصية الأسقف الشرير رودين، خلاصة المؤامرة اليسوعية في العالم. من خلال البحث حول سو وجدنا أكثر من ذلك: وجدنا نصًا يبدو منقولاً كلمة كلمة ـ ولكن قبل نصف قرن تقريبًا ـ من البروتوكولات. كان النص في الفصل الأخير من كتاب "أسرار الشعوب". هنا كان شرح الخطة الشيطانية لليسوعيين في أدق تفاصيلها في وثيقة أرسلها الرئيس العام للجماعة، الأب روثيان

(شخصية تاريخية)، إلى الأسقف رودين (إحدى شخصيات اليهودي المتجول). حصل على تلك الوثيقة رودولفو دي جيروكستاين (والذي كان بالفعل بطل أسرار باريس)، وكشفها للديمقراطيين: هل ترى أيها العزيز ليبرن، كيف تم تنظيم هذه المؤامرة بدهاء، وياللحزن الشديد، ياللعبودية البشعة، يا له من استبداد رهيب تنتظره أوروبا وينتظره العالم، إذا نجحت بالفعل...

كانت هذه الكلمات تبدو، وكأنها مقدمة نيلوس للبروتوكولات. وكان سو ينسب إلى اليسوعيين العبارة الشهيرة (والتي سنجدها فيما بعد في البروتوكولات منسوبة لليهود): الغاية تبرر الوسيلة.

(٩٥)

لا حاجة لمضاعفة الدليل لإثبات أن درجة الروزا كروتشي هذه دخلت بمهارة بواسطة زعماء الماسونية... كانت هوية تعليمها، كراهيتها وممارساتها التدنيسية، بالاشتراك مع تلك التي للقبالاة والغنوصية والمانوية تشي إلينا بهوية المؤلفين، أي اليهود القباليين.

Mons. Léon Meurin, S.J., La Franc-) Maçonnerie Synagogue de Satan, Paris, Retaux, 1893, p. 182)

عندما ظهر كتاب "أسرار الشعوب"، ورأى اليسوعيون أن التنظيم نُسب إليهم، قاموا بتبني خطة دفاعية لم تخطر من قبل على بال أحد، وباستعادة الخطاب من سيموليني، نسبوا التنظيم إلى اليهود.

وفي عام ١٨٦٩، قام جوجينوا دي موسو، المشهور بكتابين عن السحر في القرن التاسع عشر، بنشر كتاب "اليهود واليهودية وتهويد الشعوب المسيحية"، حيث يذكر أن اليهود يستخدمون القبالاة وأنهم عبدة الشيطان، نظرًا لأن هناك فرعًا سريًا منهم يربط مباشرة قايين بالغنوصيين وفرسان المعبد والماسونيين. تلقى دي موسو مباركة خاصة من البابا بيوس التاسع.

لكن الخطة التي وضعها سو استخدمها آخرون أيضًا، وهذه المرة لم يكونوا من اليسوعيين. كانت هناك قصة جميلة، تقريبًا بوليسية، حدثت بعد ذلك بقليل. في أعقاب ظهور البروتوكولات، والتي تم التعامل معها بجدية شديدة، علمت صحيفة التايمز اللندنية أن أحد ملاك الأراضي الروسيين من الأسرة المالكة، والذي لجأ إلى تركيا، ابتاع من أحد ضباط البوليس السري الروسي السابق، والذي لجأ إلى القسطنطينية، مجموعة من الكتب القديمة، من بينها كتاب بلا غلاف، على صفحته الأخيرة مكتوبة كلمة واحدة "Joli". كان التمهيد يعود تاريخه إلى ١٨٦٤، وكان يبدو المصدر الحرفي للبروتوكلات. قامت صحيفة التايمز بعمل أبحاث في المتحف البريطاني واكتشفت الكتاب الأصلي لموريس جولي، حوار في الجحيم بين مونتسكيو وماكيافيللي، بروكسل (على الرغم من كتابة جنيف على صفحة العنوان)، ١٨٦٤. لم يكن لموريس جولي أي علاقة مع كريتينو ـ جولي، ولكن لابد وأن التشابه في الأسماء يعني شيئًا.

كان كتاب جولي عبارة عن منشور تحريري يهاجم نابليون الثالث حيث يقوم ماكيافيللي، والذي كان يمثل النزعة الكلبية للديكتاتور، بمناقشة مونتسكيو. ألقوا القبض على جولي بسبب هذه المبادرة الثورية، وقضى خمسة عشر شهراً في السجن وخرج عام ١٨٧٨. إن البرنامج اليهودي المذكور في البروتوكولات تم استعادته. تقريباً بصورة حرفية، من ذلك الذي ينسبه جولي إلى مكيافيللي (الغاية تبرر الوسيلة)، وبعد مكيافيللي نُسبت العبارة إلى نابليون. ولكن صحيفة التايمز لم تُدرك (ولكننا أدركنا) أن جولي قد نسخ ما كتبه، بلا أي حياء، من وثيقة سو، الذي سبقه على الأقل بسبع سنوات.

قامت إحدى الكاتبات ـ المعاديات للسامية ـ والشغوفة بنظرية المؤامرة وبالرؤساء المجهولين، تُدعى نيستا ويبستر، وأمام هذا الأمر الذي يقلل من شأن البروتوكولات إلى مجرد عملية نقل عشوائية، زودتنا بفكرة عبقرية، ذلك النوع من الأفكار التي لا يمكن إلا لتابع أو صائد أتباع الجماعات سرية أن يفكر فيه: كان جولي عضواً في جماعة سرية، وكان يعلم الخطة ويعرف عن الرؤساء المجهولين، ونسبها إلى نابليون الثالث، حيث كان يكرهه. ولكن هذا لا يعني أن الخطة لا وجود لها بالاستقلال عن نابليون. نظراً لأن الخطة التي تلتها البروتوكولات تصف بدقة ما يفعله اليهود عادة، إذن كانت الخطة خطتهم. لم يبق أمامنا سوى تصحيح السيدة ويبستر على أساس المنطق نفسه: نظراً لأن الخطة تتناسب تماماً مع ما كان سيفكر فيه فرسان المعبد، فالخطة إذن خطة فرسان المعبد.

ثم إن منطقنا كان منطق الوقائع. أعجبتنا كثيراً واقعة مقابر براغ. كانت قصة شخص يُدعى هيرمان جودشي، موظف بريد بسيط من بروسيا. كان قد نشر وثائق مزيفة لنزع المصداقية عن الديمقراطي والديك، متهماً إياه بأنه يخطط لاغتيال ملك بروسيا. وبعد أن نُزع عنه القناع، اتضح أنه هو محرر Die Preussische Kreuzzeitung، ثم منتحلاً اسم سير جورج رتكليف، بدأ كتابة روايات حسية، ومنها رواية بياريتس Biarritz عام ١٨٦٨. في هذه الرواية كتب يصف مشهداً غامضاً يحدث في مقبرة براغ، مشهد قريب الشبه من اجتماع الإيللوميناتي الذي وصفه ديوماس في بداية جوزيبي بالسامو، حيث قام كالياسترو، رئيس الرؤساء المجهولين، ومن بينهم سويدنبورج، بتخطيط مؤامرة قلادة الملكة. وفي مقبرة براغ يجتمع ممثلو الأسباط الإسرائيلية الاثني عشر، ويعرضون خططهم من أجل الاستيلاء على العالم.

عام ١٨٧٦ يعرض منشور روسي مشهد المقبرة في رواية بياريتس، ولكن وكأنه حدث بالفعل. وهكذا في عام ١٨٨١ تنشره صحيفة Le Contemporain، في فرنسا. يقال إن الخبر قد ورد من مصدر مؤكد، الدبلوماسي سير جون ريدكليف. في عام ١٨٩٦ نشر شخص يُدعى بورنار كتاب: اليهود، معاصرينا، ويعيد ذكر مشهد مقبرة براغ، ويقول إن الحديث المخرب قد قام به الكاهن الأعظم جون ردكليف. وسيذكر تقليد أقدم وهو أن من قاد ردكليف الحقيقي إلى المقبرة المصيرية كان فرديناند لاسال، اليهودي الاشتراكي.

كانت هذه الخطط هي تقريبًا الخطط الموصوفة عام ١٨٨٠، بضعة أعوام قبلها، بدءًا من مجلة الدراسات اليهودية الفرنسية (المناهضة للسامية)، التي كانت قد نشرت خطابين منسوبين إلى يهود في القرن الخامس عشر. يطلب يهود أرلس المساعدة من يهود القسطنطينية لأنهم مضطهدون، ويجيبهم هؤلاء: إخوتنا الأحباء في موسى، إذا أجبركم الملك في فرنسا على التحول للمسيحية، افعلوا هذا، لأنه ليس أمامكم خيار آخر، ولكن احتفظوا بشريعة موسى في قلوبكم. وإذا جردوكم من أملاكم، اعملوا على أن يعمل أبناؤكم في التجارة، بحيث يتمكنون بالتدريج من تجريد المسيحيين من أملاكهم. وإذا هددوا حياتكم اعملوا على أن يصبح أبناؤكم أطباء وصيادلة، حتى تتمكنوا تدريجيًا من انتزاع حياة المسيحيين. إذا دمروا معابدكم، اعملوا على أن يصبح أبناؤكم كهنة ورهبان بحيث تتمكنون من تدمير كنائسهم. إذا تسببوا لكم في أي اضطرابات أخرى، فاعملوا على أن يصبح أولادكم محامين ومحاسبين وأن يختلطوا بأعمال الدولة كلها بحيث تدنعوا المسيحيين تحت نيركم. يمكنكم أن تسيطروا على العالم وأن تنتقموا منهم.

كان الأمر يتعلق دائمًا بخطة اليسوعيين، وقبلها، بتنظيم فرسان المعبد. تنوعات بسيطة، تغييرات قليلة جدًا: وكانت البروتوكولات تنتج نفسها. مشروع تجريدي لمؤامرة تهاجر من مؤامرة إلى أخرى.

عندما أعملنا عقولنا لنصل إلى الحلقة الناقصة التي تصل كل هذه القصة الجميلة بنيلوس، قابلنا راكوفسكي، رئيس الأوكرانا البشعة، البوليس السري للقيصر.

(٩٦)

إن وجود غطاء شيء ضروري دائمًا. في الاختباء يوجد جزء كبير من قوتنا، لذلك لابد من أن نختبئ تحت اسم جمعية أخرى.

(Die neuesten Arbeiten des Spartacus und Philo in dem Illuminatem-Orden, 1794, p. 165)

في تلك الأيام وأثناء قراءة بعض الأوراق لمؤلفينا الشيطانيين وجدنا من بين الشخصيات التي انتحلها كونت سان جيرمانو، أيضًا شخصية راكوكسي، أو على الأقل هكذا تعرف عليه سفير فريدريك الثاني في درسدا. قال الكونت الإقطاعي هيسه، الذي كان سان جيرمانو، على ما يبدو، مات لديه، إنه كان من أصل تُرانسلفاني وأن اسمه كان راجوسكي. أضاف بأن كومينيوس قد أهدى إليه بانسوفيا Pansofia (العمل الذي يحمل ملامح الروزا كروتشي) إلى أحد الإقطاعيين (تُرى كم إقطاعيًا علينا أن نقابله في هذه القصة) والذي كان يُدعي راجوفسكي. عثرت على اللمسة الأخيرة للوحة المركبة أثناء بحثي في إحدى موائد بيع الكتب في ميدان كاستيللو: عمل ألماني عن الماسونية لمؤلف مجهول، حيث كتبت يد، مجهولة أيضًا، في الصفحة الأخيرة ملحوظة تعني أن النص يعود لشخص يُدعى كارل أوج. راجوتجكي. بوضعنا في الاعتبار أن راكوسكي كان اسم الشخص الغامض الذي قتل الكولونيل أردنتي، استطعنا أن نضع، في مسار الخطة، الكونت سان جيرمانو.

سأل ديوتالليفي قلقًا: ألا نمنح، بهذه الطريقة، هذا المغامر أهمية زائدة؟

أجابه بيلبو: بالطبع لا! هذا ضروري، مثل صلصة الصويا في الأطباق الصينية. إذا لم تكن موجودة، فلن يُعد طعامًا صينيًا. انظر إلى آلييه الذي يعرف عن هذا الموضوع بعض الشيء: هل اتخذ كالياسترو أو ويليرموز نموذجًا له. إن سان جيرمانو هو خلاصة الإنسان الهيرمسي.

بيير إيفانوفيتش راتشوفسكي: شخص مرح وماكر وغادر، ذكي وخبيث وعبقري تزييف. كان موظفًا صغيرًا، ثم أصبح على علاقة مع المجموعات الثورية، وعام ١٨٧٩

يقبض عليه البوليس السري ويتهمه بأنه خبأ أصدقاء له إرهابيين حاولوا اغتيال الجنرال درينتل. تحول إلى عميل للبوليس وانضم إلى صفوف المئات السوداء. في عام ١٩٨٠ اكتشف في باريس منظمة تصنع أسلحة للقيام بعمليات إرهابية في روسيا، ويتمكن من أن يقبض على ثلاثة وستين إرهابيًا في الوطن. يُكتشف بعد ذلك بعشر سنوات أن القنابل تم تصنيعها بواسطة رجاله.

في عام ١٨٨٧، ينشر خطابًا من شخص يُدعى إيفانوف، ثوري تائب، يؤكد أن أغلبية الإرهابيين من اليهود؛ وفي عام ١٨٩٠ ينشر "اعترافات شيخ ثوري جبان" يتهم فيه الثوار المنفيين إلى لندن بأنهم عملاء بريطانيون. في عام ١٨٩٢، نشر نصًا لبيشانوف فيه تُتهم إدارة حزب نارودنيا فوليا بأنهم من نشروا ذلك الاعتراف.

في عام ١٩٠٢، يحاول أن يكون رابطة فرنسية ـ روسية مناهضة للسامية. لينجح في هذا العمل يستخدم تقنية شبيهة بتقنية الروزا كروتشي. أكد أن الرابطة موجودة، بحيث يعمل أحدهم بطريقة ما على إقامتها. ولكنه يستخدم أيضًا تقنية أخرى: فهو يخلط بحرص الحقيقي مع المزيف، وبالتأكيد الحقيقي يتسبب له في ضرر فلا يشك أحد بذلك في المزيف. عمل على توزيع نداء غامض للفرنسيين في باريس، ليدعموا رابطة وطنية روسية مقرها كاركوف: في ذلك النداء يهاجم نفسه على أساس أنه هو من يرغب في إفشالها ويتطلع أن يغير هو، راكوفسكي، رأيه. ثم يتهم نفسه بأنه يستخدم أشخاصًا لا مصداقية لهم، مثل نيلوس، وهو شيء حقيقي.

لماذا يمكن نسبة البروتوكولات إلى راكوفسكي؟

كان من يحمي راكوفسكي هو الوزير سيرجي وايت، أحد التقدميين الذين يرغبون في تحويل روسيا إلى دولة حديثة. لماذا يستخدم تقدمي مثل وايت شخص رجعي مثل راكوفسكي، شيء لا يعلمه سوى الله، ولكننا كنا بالفعل مستعدين لأي شيء. كان لوايت خصمًا سياسيًا، شخص يُدعى إيلي دي سيون، كان قد هاجمه علنًا من خلال نقاط جدلية تعيد إلى الذهن بعض فقرات البروتوكول. لكن في كتابات سيون لم تكن هناك أية إشارة لليهود، لأنه هو نفسه كان من أصل يهودي. في عام ١٨٩٧، وبناء على أوامر من وايت، ابتاع راكوفسكي فيللا سيون في تيريتات، ووجد ملزمة لسيون مشتقة من كتاب جولي (أو كتاب سو)، حيث تم نسب أفكار مكيافيللي ونابليون الثالث إلى وايت. يقوم راكوفسكي ببراعته في التزييف بوضع اليهود مكان وايت، ويوزع النص. ويبدو أن

اسم سيون نفسه اختير قصداً ليُذكر الجميع بصهيون، وبهذا وكأنه إثبات أن أحد اليهود البارزين يحيك مؤامرة يهودية. هكذا إذن نشأت البروتوكولات. وعندئذ يقع النص بين يدي يوليانا أو جوستين جلينكا، والتي بدورها تتردد في باريس على مجتمعات مدام بلاواتسكي، وفي أوقات فراغها تتجسس علي وتبلغ عن الثوريين الروس في المنفى. كانت جلينكا بالتأكيد أحد عملاء البولسيين والمرتبطين بالمنادين بحقوق المزارعين، ويرغبون إذن في إقناع القيصر بأن برامج وايت هي نفسها الخاصة بالمؤامرة الدولية اليهودية. ترسل جلينكا الوثيقة إلى الجنرال أورجيفسكي، وهذا من خلال قائد الحرس الإمبراطوري الذي يسلم الوثيقة للقيصر. ويجد وايت نفسه في أزمة.

هكذا يجد راكوفسكي، الذي فعل ذلك بدافع مناهضته للسامية، بأنه تسبب في مأساة لمن يقوم بحمايته، وربما لنفسه أيضاً. في الواقع منذ تلك اللحظة فقدنا أثره. ربما انتقل سان جيرمانو تجاه عمليات تنكر جديدة وتجسدات جديدة. ولكن أصبحت لقصتنا خطوط واضحة، عقلانية، لامعة لأنها كانت محملة بسلسلة من الوقائع الحقيقية، كما كان يقول بيلبو.

كل هذا أعاد إلى ذهني قصص دي أنجيليس عن السيناركية. الشيء الجميل في القصة كلها ـ قصتنا بالتأكيد، ولكن التاريخ بأكمله، كما أوحى بيلبو بعينين لامعتين بينما كان يقدم لي بطاقاته ـ وجود فرق تتناحر في صراع دموي يقضي كل منها على الآخر مستخدماً سلاح الآخر. علقت قائلاً: إن الواجب الأول لمتسلل ماهر هو الإبلاغ عن كيفية تسلل أولئك الذين تسلل إليهم.

قال بيلبو: أتذكر قصة في***. كنت أقابل عادة شخصاً، في وقت الغروب، في طريق مُشجر، يرتدي الزي الفاشي الأسود، يُدعى ريمو، أو شيء كهذا. كان شاربه أسود اللون، شعره أشعث أسود اللون، قميصه أسود وأسنانه سوداء، يغطيها الجير. وكان يقبل فتاة. وكنت أنا أشعر بالاشمئزاز من تلك الأسنان السوداء التي تقبل ذلك الشيء الجميل والأشقر، لا أتذكر حتى كيف كانت تبدو، ولكن بالنسبة إلي كانت عذراء وعاهرة. كانت الأنوثة الأبدية. وكان اشمئزازي عظيماً.

وبدأ عفوياً يتحدث بنبرة عالية ليوضح سخريته الداخلة، بعد أن أدرك أنه ترك نفسه يُحمل بعيداً ببراءة وعفوية الذكرى ثم استكمل: كنت أسأل نفسي، لماذا يمكن لهذا الريمو، والذي كان ينتمي للألوية السوداء، أن يظهر هكذا في كل مكان، على الرغم من

أن الفاشيين لم يكونوا سيطروا على*** بعد. همس لي أحدهم بأنه جاسوس. وهذا ما كان، في إحدى الأمسيات رأيته في الزي نفسه، بأسنانه السوداء نفسها، يقبل الشقراء نفسها، ولكن كان يرتدي أيضًا منديلاً أحمر حول رقبته وقميصًا كاكيًا. انتقل إلى فرق جاريبالدي. احتفى الجميع بهذا، ومنح لنفسه اسمًا حربيا "إكس ٩" مثل شخصية ألكس رايموند التي كنت قرأت عنها في مجلات الكوميكس المصورة. كانوا يقولون له: أحسنت يا إكس ٩.. وكنت أنا أزداد في كراهيتي له، لأنه كان يمتلك الفتاة ورضا الشعب. ولكن البعض كانوا يقولون إنه جاسوس فاشي على الوطنيين، وأعتقد كانوا من يتمنون أن تكون الفتاة لهم، ولذلك أصبح إكس ٩ موضع شبهات....

ثم؟؟؟

ـ اعذرني يا كازاوبون، لماذا تهتم كثيرًا بحكاياتي الشخصية؟

ـ لأنك تحكي، الحكايات مصنوعة من الخيال الجماعي.

ـ وجهة نظر جيدة. إذن في صباح أحد الأيام، كان إكس ٩ يقود سيارته خارج المنطقة، ربما كان في طريقه ليقابل الفتاة في الحقول، ربما ليتجاوزا مرحلة التقبيل ويريها أن لديه ما هو أفضل من أسنانه العفنة ـ اعذراني ولكن لا أستطيع أن أشعر نحوه سوى بالكراهية ـ ولكن، نصب له الفاشيون كمينًا، وأخذوه إلى المدينة، وفي الساعة الخامسة فجرًا من اليوم التالي، أعدموه رميًا بالرصاص.

توقف بيلبو عن الحكي، ونظر إلى يديه اللذين كان قد عقدهما كما في وضع الصلاة. فصلهما ثم قال: كان ذلك دليلاً على أنه لم يكن جاسوسًا.

ـ ومغزى الحكاية؟

ـ من قال لك إن الحكايات لابد وأن يكون لها مغزى؟ ولكن بإمعان النظر، ربما يعني هذا أنه غالبًا ما يتطلب الأمر أن يضحي المرء بحياته في سبيل إثبات شيء ما.

(٩٧)

أهية الذي أهية

(خروج ٣:١٤)

أنا هو الذي هو. إحدى بديهيات الفلسفة الهرمسية.
(Mme Blawatsky, Isis Unvieled, p.1)

من أنت؟ سأل ثلاثمائة صوت في الوقت نفسه.
بينما لمع عشرون سيفًا في أيدي الأشباح القريبين...

قال لهم: أنا هو الذي هو
(Alexander Dumas, Giuseppe Balsamo, ii)

كنت قد رأيت بيلبو في صباح اليوم التالي، قلت له: لقد كتبنا بالأمس رواية شعبية رائعة، ولكن ربما، إذا أردنا أن تكون لدينا خطة مقنعة، سيكون علينا أن نلتزم بالبقاء قرب الواقع.

سألني: أي واقع؟ ربما تكون هذه الرواية هي فقط ما تمنحنا المقياس الحقيقي للواقع. لقد خدعونا.

ـ من هم؟

ـ لقد جعلونا نصدق أنه من جهة يوجد الفن العظيم، الفن الذي يمثل شخصيات نموذجية في ظروف نموذجية، ومن جهة أخرى توجد القصة البوليسية ، الرواية التي تقدم شخصيات غير عادية في ظروف غير عادية. كنت أظن أنه لا يوجد شخص متأنق يمكنه ممارسة الحب مع سكارلت أوهارا أو حتى مع كوستانس بوناسيو أو في مذكرات ملكة. لقد لعبت أنا بالرواية الشعبية لأجعلها تخرج قليلاً عن الحياة، جعلتني أشعر بالاطمئنان، مقدمة إلى ما لا يمكنني الحصول عليه. لكن الأمر ليس كذلك.

ـ ليس كذلك؟

ـ لا، كان بروست على حق: الحياة تُمثل أفضل بواسطة موسيقى سيئة أكثر من موسيقى سيمفونية رائعة. إن الفن العظيم يسخر منا ويطمئنا، يجعلنا نرى الحياة كما كان يراها الفنانون. إن الرواية الشعبية تتظاهر بأنها تمزح، ولكن بعد ذلك يجعلنا العالم نراها على ما هي عليه ـ أو على الأقل مثلما ستصبح. إن النساء يشبهن أكثر شخصية "سيدتي الجميلة" من شخصية الفلاحة البريئة، والعبقري الشرير فو مانشو حقيقي أكثر من ناثان الحكيم. والتاريخ يشبه ما رواه سو أكثر من مشروع الرواية التي

كتبها هيجل وشكسبير، ميلفيل وبالزاك ودوستوفسكي. إن ما حدث بالفعل هو ذلك الذي حكته مسبقًا الروايات الشعبية.

ـ ذلك لأنه من الأسهل للواقع أن يقلد الرواية الشعبية من تقليده للفن. أن يصبح المرء كالموناليزا عملاً شاقًا؛ ولكن أن نصبح كشخصية سيدتي الجميلة يتبع ميلنا الطبيعي لاختيار الطرق السهلة.

قال ديوتالليفي، الذي كان حتى هذه اللحظة ملتزمًا الصمت: انظرا إلى صديقنا آلييه، فهو يجد أنه من الأسهل تقليد سان جيرمانو من تقليد فولتار.

قال بيلبو، أجل، والواقع أيضًا أن النساء تجدن سان جيرمانو أكثر جاذبية من فولتار.

اسم الملف: عودة سان جيرمانو.

لمدة خمسة قرون الآن واليد المنتقمة للقدير تدفعني من أعماق آسيا وصولاً إلى هذه الأراضي. أحمل معي الفزع واليأس والموت. ولكن لا، فأنا مدون الخطة، حتى وإن لم يكن الآخرون يعرفون ذلك. لقد رأيت أسوأ من ذلك، إن إعداد ليلة القديس برثيلماوس كلفني أكثر كثيرًا من الشيء الذي أعده الآن. آه، لماذا ترسم شفتاي تلك الابتسامة الشيطانية؟ أنا هو الذي هو. إذا لم يكن ذلك اللعين كالياسترو قد اغتصب أيضًا حقي هذا الأخير.

ولكن اقترب انتصاري. علمني سوبس كل شيء عندما كنت كيلي، في برج لندن. سر أن يصبح المرء شخصًا آخر.

من خلال مؤامرة خبيثة عملت على سجن جوزيبي بالسامو في قلعة سان ليو، وسرقت أسراره. اختفى سان جيرمانو؛ الآن يعتقد الجميع أنني كونت دي كالياسترو.

دقت الساعة منتصف الليل منذ قليل في كل ساعات المدينة. سلام غير عادي. ولكنه سلام لا يقنعني. أمسية جميلة، على الرغم من الصقيع، القمر العالي يرسل وميضًا ثليجيًا على المدقات التي لا يمكن تغلغلها في باريس القديمة. يمكن أن تكون الساعة العاشرة مساء؛ أجراس دير الإخوة السود دقت ببطء الثامنة. تحرك الرياح في

صرير حزين ديك الرياح الحديدي على الرقعة المهجورة من سطح المنزل. وتغطي السماء طبقة سميكة من السحاب.

أيها القبطان، هل نتراجع؟ لا. على العكس، لنسرع. إنه الدمار، إن الباتنا تتجه إلى القاع. اقفز يا جيم جامع القنب، اقفز! يمكنني لأتحرر من هذا البؤس أن أتنازل عن ماسة بحجم عين الجمل. أبحر بمحاذاة الريح، أرفع الشراع وأمسك ذراع المقود، أو بالشراع العلوي، أي شيء، اللعنة، إن الرياح تعلو هناك!

أمسكت برعب بفكي بينما امتقع وجهي الأخضر الشمعي بشحوب الموت.

كيف أتيت إلى هنا، أنا الذي أبدو الصورة نفسها للانتقام؟ إن أرواح الجحيم تبتسم بلا رحمة أمام دموع الكائن الذي جعله صوته المهدد يرتعش كثيرًا جدًا في حضن هاويتهم الملتهبة بالنار نفسها.

وأخيرًا وميض ضوء!

كم من الدرجات نزلتها لأصل إلى هذا المخبأ؟ سبعة؟ ستة وثلاثون؟ لم ألمس حجرًا واحدًا، ولا خطوة واحدة لم تظهر حروفًا هيروغليفية. عندما أزيح الغطاء عنها جميعًا، سيكشف السر في النهاية لأتباعي المخلصين. ستُفك شفرة الرسالة وسيكون الحل هو المفتاح، وإلى التابع، إليه فقط، سأقول ما هي طبيعة اللغز بحروف واضحة.

توجد بين اللغز وفك شفرة الرسالة خطوة قصيرة، ومنها، سيخرج الهيروجرام لامعًا، وفوقه ستصبح صلاة التساؤلات محددة، بعد هذا سيبعد سر الجماعة جانبًا الحجاب، والسجاد الفرعوني الذي يغطي النجمة الخماسية. من ذلك المكان إلى الضوء ليعلن السر الغامض للنجمة الخماسية، السؤال القبالي، والذي يمكن للقليلين فقط أن يجيبوا عنه، ليقولوا بصوت الرعد عن العلامة المبهمة، لابد أن يمنح الستة والثلاثون الخفيين المنحنين عليها الإجابة، إعلان الحرف الروني الذي معناه مفتوح فقط لأبناء هيرمس، لأجلهم سيُمنح الختم المحاكي، القناع الذي خلفه ملامح تظهر ملامح الوجه الذي يحاولون تعريته، الحجر التصوفي، التحريف المهيب.

صرخت بصوت يبعث الرعب على الأشباح "ساتور أريبو"، فظهر ساتور أريبو تاركًا العجلة التي كان يمسك بها بخفة يد قاتل. أظهر نفسه ليكون في خدمتي. أتعرف عليه،

حيث إنني شككت في هويته. إنه لوتشانو، موظف الشحن المعوق، الذي عينه الرؤساء المجهولون لينفذ مهمتي الشريرة والدموية.

أسأله بسخرية: ساتور آريبو، هل تعرف أنت الإجابة النهائية المختبأة خلف التحريف المهيب؟

ـ لا أيها الكونت ـ تجيب الشفاة غير الحذرة ـ ولكنني أنتظر لأعرف ما ستخبرني إياه.

ومن بين شفتي الشاحبتين تنطلق ضحكة شيطانية يتردد صداها في السراديب القديمة.

ـ أيها الواهم! إن التابع الحقيقي فقط هو من يعرف بأنه لا يعرف.

ـ نعم يا سيدي، أجابني الموظف المعوق بغباء، تحت أمرك، أنا مستعد.

نتواجد في وكر حقير في كلينيانكورت. هذا المساء لابد أن أعاقبك أنت، قبل الجميع، أنت يا من ضمتني للفن النبيل للجريمة. لابد أن أنتقم منك، أنت يا من تتظاهرين بحبي، بل والأسوأ من ذلك تصدقين ذلك، أنت ومعك أعدائي الذين لا اسم لهم، تقضين معهم إجازة نهاية الأسبوع. لوتشانو، ذلك الشاهد، غير المرغوب فيه، الذي شهد إهانتي، سيمد لي يد المساعدة ـ يده نفسها ـ ثم سيموت هو أيضًا بدوره.

كان بالغرفة باب سري فوق خندق أو حجرة ثانية، معبر تحت الأرض كان يُستخدم منذ قديم الزمن لتخزين البضائع المهربة، مكان رطب دائمًا لأنه متصل بمجاري باريس؛ متاهة الجريمة، وبالجدران القديمة التي تتسبب في جو خانق لا يمكن التعبير عنه. إذن، من خلال مساعدة لوتشانو، المخلص في فعل الشر، سأصنع فتحة في الحائط تتدفق منها المياه، ستغرق المخزن، وسيسقط الجدار المتهالك، وسيصبح الممر جزءًا من المجاري، وتسبح فيه الجرذان الميتة. أصبح السطح المائل للسواد الذي يمكن رؤيته من أعلى المدخل يؤدي إلى الضياع: بعيدًا، بعيدًا يقع نهر السين، ثم يليه البحر...

ومن الحافة العليا للباب السري كان هناك سلم معلق. فوقه، وعلى مستوى المياه، اتخذ لوتشانو موضعه ممسكًا بسكين: إحدى يديه ممسكة بآخر درجة للسلم، واليد الأخرى تمسك بالسكين، والثالثة مستعدة للقبض على الضحية. قلت له: الآن انتظر في صمت، وسترى.

لقد أقنعتك أن تدمري كل الرجال ذوي الندبة. تعالي معي، كوني لي إلى الأبد، لنبعد إلى الأبد تلك الكائنات المزعجة. أعلم جيداً أنك لا تحبينهم ـ قلت ذلك بنفسك ـ ولكننا سوف نبقى سوياً، أنا وأنت والتيارات السفلية.

دخلت الآن، متعجْرفة كعذراء فيستا، فظة ومنحنية مثل الساحرة. آه، يالها من رؤية للجحيم تهتز لها أحشائي المسنة، وينقبض قلبي من شدة الرغبة. آه، يا من تهيجين رغباتي، يا من ستقودني إلى هلاكي! بيدي المكلبتين مزقت قميصي الباتيستة الثمين الذي يزين صدري، وأخذت أمزق جسدي بأظافري حتى أدميته، بينما شعور بالجفاف البشع يحرق شفتي، بارد كلمسة الأفعى. يتصاعد زئير أجوف من أكثر الكهوف ظلاماً في نفسي وينفجر عابراً من بين أسناني المتوحشة ـ أنا، القنطور، الذي أفرزه الطاغية ـ ولكنني أقمع صرختي وأقترب منك بابتسامة رهيبة.

ـ حبيبتي، صوفيا الجميلة ـ أقول لك هذا بصوت خوار القط الذي لا يمكن إلا لرئيس الآراخنة التحدث به ـ تعالي فقد كنت في انتظارك، اختبئي معي في الظلمات، وانتظري.

تضحكين ضحكة فظة ولزجة، وكأنك تتذوقين مسبقاً بعض من الأرث أو إحدى وثائق البروتوكولات لتبعينها للقيصر... كم أنت ماهرة في إخفاء طبيعتك الشيطانية خلف هذا الوجه الملائكي، وأنت تتلفحين في حياء سروالك الجينز الأسود، والتي شيرت الذي يكاد يكون شفافاً، ولكنه يخفي زهور السوسن المطبوعة على لحمك الأبيض، بواسطة جلاد ليل.

وصل المغفل الأول، وجذبته إلى الفخ. يمكنني بالكاد أن أحدد ملامحه بداخل العباءة التي تغطيه، ولكنه أطلعني على علامة فرسان بروفان. إنه سويس، أحد حشاشي مجموعة تومار.

قال لي: أيها الكونت، لقد حانت اللحظة، التي لأجلها همنا على وجهنا لسنوات عديدة، متفرقين في أنحاء العالم. إن لديك الجزء الأخير من الرسالة. أما أنا فلدي الجزء الذي ظهر في بداية اللعبة، ولكنها قصة أخرى. دعنا نوحد جهودنا، أما الآخرون...

أكملت العبارة: أما الآخرون يمكنهم الذهاب إلى الجحيم. اذهب يا أخي، في وسط الحجرة ستجد صندوقًا، بداخله ما تبحث عنه منذ قرون. لا تخف الظلام، فهو لا يهددك بل يحميك...

يتحرك المغفل بضع خطوات يتحسس فيها طريقه. أسمع صوتًا مكتومًا، ثم صوت ارتطام جسم في المياه. لقد سقط من الباب السري، ولكن لوتشانو أمسك به، عمل فيه السكين، وقطع عنقه بسرعة، واختلطت قرقرة الدماء مع زبد روث العالم السفلي.

قرع على الباب: أهذا أنت يا ديسرايلي؟

ـ أجل. أجاب الغريب، والذي يمكن لقارئي أن يعرف بأنه الرئيس الأعظم للمجموعة الإنجليزية، صعد الآن إلى أعلى درجات السلطة، ولكنه لم يشعر بعد بالارتياح. يتحدث قائلاً: سيدي، لا فائدة من الإنكار، لأنه من المستحيل إخفاء أن جزءًا كبيرًا من أوروبا تغطيه شبكة من تلك الجماعات السرية، مثلما تغطي شبكات السكك الحديدية الآن سطح الأرض...

ـ لقد قلت ذلك بالفعل في الاجتماع في الرابع عشر من يولية عام ١٨٥٦. لا شيء يفوتني. ادخل في صلب الموضوع.

تمتمت شفتي بيكون باللعنات. واستكمل قائلاً: إنها أكثر مما ينبغي. إن الستة والثلاثين الخفيين أصبحوا الآن ثلاثمائة وستين. فلتضاعف هذا الرقم: سبعمائة وعشرون. اطرح المائة والعشرين عامًا، وسيصبح لديك ستمائة.

هذا الرجل الشيطاني، العلم السري للأرقام لا يخفى عنه: وماذا بعد؟

ـ نحن لدينا الذهب، وأنت لديك الخريطة. لنتحد سويًا، لن يتمكن أحد من أن يهزمنا.

بإيماءة ملكية أشير تجاه خيال الصندوق الذي يعتقد هو، وقد أعمته الرغبة، بأنه يراه في الظلال. يتقدم نحوه، ثم يسقط.

أسمع صوت النصل القاسي اللامع للوتشانو، وفي الظلام ألمح سكرات الموت تلمع في عيني الرجل الإنجليزي. القصاص العادل.

أنتظر الثالث، رجل الروزا كروتشي الفرنسيين، مونفوكون دو فيللار، على استعداد لأن يخون جماعته ويدلي بأسرارهم.

يقدم الكاذب الساذج نفسه قائلاً: أنا كونت جابالي.

لم أسر سوى بالقليل من الكلمات، واندفع هو نحو مصيره. سقط، وقام لوتشانو، المتعطش للدماء بأداء واجبه.

أنت تبتسمين معي في الظلال، وتقولين لي إنك ملكي، وأن سرك سيكون سريًا. اخدعي نفسك، أيتها الصورة اليسارية الممسوخة من الشاكيناه. أجل، أنا سيمون حبيبك؛ ولكن لتنتظري، فأنت لم تر بعد أفضل جزء. عندما تعرفين، ستتوقفين عن المعرفة.

ماذا أقول بعد ذلك؟ يدخل الآخرون واحدًا يلي الآخر.

قال لي الأب بريشاني إن بابيتي دي إنترلاكان، حفيدة وايسهوبت، العذراء العظيمة للنزعة الاشتراكية للهلفتيك، والتي تربت بين الجريمة والاختطاف والدماء، والخبيرة في فهم الأسرار التي لا يمكن اختراقها، وفي فتح الرسائل دون أن تخترق أختامها، وفي تتحكم في السموم مثلما تأمرها جماعتها، ستأتي لتمثل الإيللوميناتي الألمان.

إذن يدخل العقل الشاب المدبر للجريمة، كانت متلفحة بفراء دب أبيض اللون، كان شعرها الأشقر الطويل ينسدل من أسفل قبعتها العالية، كانت عيناها متعجرفة، ساخرة، أقودها نحو دمارها، مستخدمًا الخدعة نفسها.

آخ! يالسخرية اللغة ـ تلك الموهبة التي منحتها لنا الطبيعة لنخرس أسرار أرواحنا! سقطت عضوة الإيللوميناتي ضحية الظلام. أسمعها تفرغ ما في جوفها من سباب بشع، بلا ندم، بينما يغرس لوتشانو الخنجر في قلبها مرتين. مشهد قديم، رأيته من قبل...

ثم يحين دور نيلوس، والذي لوهلة أعتقد أنه يمتلك القيصرة الصغيرة ومعها الخريطة. يا له من راهب قذر، فاجر، هل أردت ضد المسيح؟ هاهو يقف أمامك وأنت لا تعرف. أرسله، وسط ألف إطراء غامض، إلى المصير التعس الذي ينتظره. يمزق لوتشانو صدره بجرح على شكل قلب، ويغرق هو في نوم أبدي.

لابد من أن أتغلب على عدم الثقة الموروث للأخير، حكيم صهيون، والذي يتظاهر بأنه أهيسورس، اليهودي المتجول، السرمدي مثلي. لا يثق، بينما يبتسم بلزاجة بذقنه

الذي لا تزال بها أثر دماء المخلوقات المسيحية الرقيقة التي اعتاد أن يذبحها في مقبرة براغ. ولكنني سأكون في ذكاء راتشكوفسكي، بل أكثر ذكاء. ألمح بأن الصندوق لا يحتوي فقط على الخريطة، ولكن على بعض من الماس الخام، يحتاج للقطع. أعرف تأثير الماس الخام على هذا الجنس القاتل. يذهب نحو مصيره يجره جشعه ويذهب إلى إلهه، القاسي والمنتقم، يلعننا وهو يحتضر، مثقوبًا مثل حيرام، ولكنه لا يستطيع الآن حتى أن يلعننا، لأنه لا يستطيع أن ينطق اسم إلهه الآن.

من فرط غروري اعتقدت أنني انتهيت من العمل العظيم.

لكنني وجدت نفسي وقد لفحتني الرياح عندما فُتح الباب مرة أخرى، وظهر شخص ما، وجه شاحب، أصابع متصلبة معقودة بورع تجاه الصدر، نظرات زائغة لا يمكن أن تخفي طبيعته، إذ يرتدي الزي الأسود للجماعة اليسوعية. أحد أبناء ليولا!

ـ كريتينو! أصرخ، مخدوعًا.

رفع يده في إيماءة مباركة مرائية، وقال لي، بابتسامة خالية تمامًا من الإنسانية: لست هو، أنا هو من هو.

هذا حقيقي، كان هذا هو دائمًا أسلوب اليسوعيين. أحيانا ينكرون وجودهم نفسه، وأحيانًا أخرى يعلنون قوة نظامهم ليخيفوا من لم ينضم بعد لإحدى الجماعات السرية.

ـ إننا دائمًا غير ما تفكرون فيه، يا أبناء بعلزبول (يقول هذا الآن مخادع الملوك). ولكن أنت يا سان جيرمانو...

أسأل باضطراب: وكيف تعلم أنني هو بالفعل؟

يبتسم مهددًا: لقد عرفتني في أزمنة أخرى، عندما حاولت أن تمنعني من أن أمكث بجوار بوستيل المحتضر، وعندما أجبرتك، وأنا أحمل اسم الأب دي هربلي أن تنهي أحد تجسداتك في قلب الباستيل (آه، مازلت أشعر على وجهي حتى الآن ذلك القناع الحديدي الذي حكمت الجماعة، بمساعدة كولبير، علي بارتدائه!) وعرفتني عندما كنت أتجسس على مؤامراتك مع دولباخ وكوندورست...

ـ رودين! أصرخ كمن صدمته صاعقة.

ـ أجل رودين، الجنرال السري لليسوعيين! رودين الذي لا يمكنك خداعه وإسقاطه في فخك، كما فعلت مع الآخرين المخدوعين. أنت تعرف، أيها الكونت جيرمانو، إنه لا توجد جريمة، ولا آلية شر لم نخترعها نحن قبلك، من أجل مجد إلهنا، ذلك الإله الذي يبرر كل الوسائل! كم من الرءوس المتوجة أسقطناها في ليل بلا صباح، في فخاخ أصغر، لنتمكن من السيطرة على العالم. وأنت الآن تريد أن تمنعنا من أن نضع أيدينا، ونحن على خطوة واحدة من الهدف، على السر الذي يحرك منذ خمسة قرون تاريخ العالم؟

أصبح رودين مخيفاً وهو يتحدث بهذه الطريقة. أخذ كل طموح متعطشًا للدماء، وكل تدنيس مقيت للمقدسات، والتي ظهرت في باباوات عصر النهضة وقد عادت للظهور في ابن إنياتزيو هذا. رأيت بوضوح: عطش لا يرتوي للسلطة يغلي في دماه غير الطاهرة، يبتلعه عرق مشتعل، وتصاعدت حوله أبخرة مثيرة للغثيان.

كيف يمكن القضاء على هذا العدو الأخير؟ وأتاني حدس غريزي ليعينني... حدس لا يأتي إلا لشخص لم تخف عليه أي أسرار خاصة بالنفس البشرية لقرون.

قلت له: انظر إلي فأنا أيضًا نمر.

بحركة واحدة أدفعك إلى منتصف الغرفة، أمزق التي شيرت الذي ترتديه، وأنزع عنك حزام درعك الرفيع الضيق، والذي يخفي مفاتن بطنك العنبري. الآن، في ضوء القمر الشاحب الذي يتخلل من الباب شبه المفتوح، تقفين مستقيمة، أكثر جمالاً من الحية التي أغرت آدم، متعجرفة وفاسقة، عذراء وعاهرة، مرتدية فقط قواك الجسدية، لأن المرأة العارية هي المرأة ذات الدرع.

النمس الفرعوني ينسدل على شعرك الكثيف، لونه الأسود المظلم يبدو كالأزرق؛ صدرك ينبض أسفل الموسلين الشفاف. حول جبهتك الصغيرة تلتف الكوبرا الذهبية، ذات الأعين الزمردية، ويتدلى فوق رأسك لسانها الثلاثي من الياقوت. ثم العباءة المصنوعة من الأسود الشفاف ذات الانعكاسات الفضية. والتي يلتف حولها حزامك مطرزة بألوان الطيف، واللآلئ السوداء! انتزعت شعرك تمامًا لتبدي، في نظر عشاقك، الجسم العاري لتمثال! حلمتاك لمستهما برقة فرشة ملابار، عبدتك، والتي غمستها في الأحمر نفسه الذي يغطي شفتيك، شفتيك الداعيتين كالجرح!

الآن رودين يلهث أمامي. لم تؤد سنوات التقشف الطويلة، والحياة التي قضاها في حلم السلطة إلا إلى إعداده لأن يصبح أسير رغبته التي لم يعد في مقدوره السيطرة عليها. أمام تلك الملكة الجميلة، التي لا حياء لها، ذات العينين السوداوين مثل عيني الشيطان، وذات الكتفين المستديرين، والشعر المعطر، والبشرة الناعمة البيضاء. أصبح رودين أسير إمكانات العناق الذي لم يعرفه، وشعور شهواني لا ينطق به، كان جسده في اشتياق مثل أحد آلهة الغابات أثناء تأمله لحورية عارية انعكست صورتها على سطح المياه التي دمرت نرجس. وألمحه في الظلال يتيبس، كمن تيبس أمام الميدوزا، وقد حولته رغبة الشهوة المكبوتة في غروبها إلى تمثال. كانت نيران الشهوة تشتعل الآن في جسده، أصبح كالسهم المصوب نحو الهدف، كالقوس المسحوب إلى درجة التحطم.

فجأة سقط على الأرض وأخذ يزحف أمام هذا الظهور المعجزي، ويده ممتدة مثل المخالب متضرعًا لجرعة من إكسير الحياة.

ثم أخذ يأن: آه، يالك من رائعة الجمال، بأسنانك الشرسة تلك، التي تلمع عندما تفصلين بين شفتيك المتورمتين، الحمراوين... وعينيك الواسعتين الزمردتين التي تومضان، ثم تطفئان... آه يا شيطانة الشهوة.

لم يكن مخطئًا على الإطلاق ذلك البائس، فبينما تحركين ردفيك الآن، المتلفحان في الدنيم الأزرق، وتتقدمين بجذعك، تقودين لعبة الفليبر لأقصى حالات الجنون.

قال رودين: أيتها الرؤية، كوني لي، لحظة واحدة فقط تتوجين فيها بالمتعة حياة قضيتها بأكملها في الخدمة الشاقة لإله غيور، اشبعي بحضن أملس وأحد النيران الأبدية، والتي تحرقني الآن لمرآك. أتوسل إليك، امسحي وجهي بشفتيك، أنت يا أنتينيا، يا مريم المجدلية، أنت يا من اشتهيتها في وجوه القديسات المأخوذات في حالة التصوف، واللاتي غطيت وجوههن أثناء عبادتي المنافقة لعذريتي. أيتها السيدة، يا من أنت تعبير فني عادل للشمس، والبشرة البيضاء كالقمر؛ من أجلك أنكر الإله والقديسين، والبابا الروماني نفسه، بل، وإنني أنكر أيضًا ليولا ذاته، ونذره الإجرامي الذي يربطني بجماعتي. أعطني قبلة، قبلة واحدة، بعدها أموت.

أخذ يزحف على ركبتيه، انجذب رداؤه إلى أعلى فوق حقويه، يداه ممتدتان نحو السعادة التي لا يمكن الوصول إليها. فجأة سقط على ظهره، وعيناه بارزتان، وملامحه

متجمدة، مثلما يحدث لشخص نتيجة الصدمة غير الطبيعية، والتي تنتج عن شحنات فولت على الجسد. وبدأت رغوة أرجوانية تسيل من بين شفتيه، ومن فمه كان يُسمع حفيفًا مخنوقًا، مثل من يُصاب بداء الكلب، عندما يصل إلى مرحلته الأخيرة، وكما يتحدث شاركوت عن هذا الشأن: إن هذا الداء البشع، تلك الرغبة الجنسية الحادة، عقاب الشهوة، تطبع العلامات نفسها على المصاب، علامات جنون داء الكلب.

كانت هذه هي النهاية، انفجر رودين في ضحكات مجنونة، ثم انهار ساقطًا، بلا أنفاس، صورة حية للجثة الهامدة.

في لحظة واحدة أصيب بالجنون ومات مرتكبًا الخطية المميتة.

دفعت الجسد تجاه الفخ، وأنا حريص كل الحرص ألا ألطخ حذائي الجلدي بالرداء اللزج لعدوي الأخير.

لم يكن هناك احتياج لخنجر لوتشانو، ولكن القاتل لم يعد في استطاعته التحكم في حركاته، ويده الممتدة لتقتل مرة تلو الأخرى. ضحك وعمل خنجره في جثة لا حياة فيها.

الآن أسير معك إلى حافة الفخ، أربت على رقبتك بينما تتظاهرين أنت بالاستمتاع، أقول لك: هل أنت مسرورة من حبيبك، يا حبيبتي المستحيلة؟

وبينما أنت تومئين بشهوانية وابتسامة ساخرة، متأملة في الفراغ، أخذت أضغط بأصابعي ببطء على رقبتك.

ـ ماذا أنت بفاعل يا حبيبي؟

ـ لا شيء يا صوفيا. فقط أقتلك. لقد أصبحت الآن جوزيبي بالسامو، ولم أعد أحتاج إليك.

تموت عاهرة الآراخنة، وتسقط في المياه. وبطعنة من الخنجر يُكمل لوتشانو ما بدأته يداي. وأقول له: الآن يمكنك الصعود إلى أعلى، يا خادمي المخلص، يا نفسي السوداء. وبينما هو يصعد، وظهره في اتجاهي، أغرس بين عظم كتفيه خنجري الرفيع ذا النصل الثلاثي، والذي لا يترك أي أثر. ويسقط في المياه، وأغلق أنا باب الفخ: انتهت المهمة. اترك الغرفة الصماء بينما تسبح ثمانية أجساد نحو الشاتوليه في قنوات مائية لا يعرفها أحد سواي.

أعود إلى شقتي الصغيرة، في فومبورج سان أونوريه، وأنظر إلى نفسي في المرآة. ها أنا، أقول لنفسي، أصبحت ملك العالم. أحكم العالم من كهفي المجوف. أخذت قواي تسبب لي الدوار. أنا معلم الطاقة. تسكرني السلطة.

لكن، لن يتأخر انتقام الحياة عن الوصول. بعد عدة شهور في أعمق الكهوف في قلعة تومار، أنا، سيد سر التيارات السفلية الآن، وسيد الأماكن الست المقدسة لمن كانوا الستة والثلاثين الخفيين، آخر فرسان المعبد، والسيد المجهول لكل السادة المجهولين، لابد لي وأن أفوز بيد شيشليا، تلك الخنثى ذات العينين الثلجيين، والتي لا يمكن لأحد الآن أن يفصلها عني. لقد عثرت عليها مرة ثانية، بعد قرون من اللحظة التي سرقها مني عازف الساكسافون. الآن تسير على ظهر الأريكة مثل من يسير على حبل مشدود، زرقاء العينين، شقراء: ولست أعلم بعد ما ترتديه أسفل الحرير الشفاف الذي يزينها.

كان المحراب الصغير محفورًا في الصخرة، يعلو الهيكل لوحة تُظهر عذابات الخاطئ في أوعية الجحيم. يقف بجواري بعض الرهبان المقلنسين في الظلال، ولكنني لا أشعر بالاضطراب، فأنا مسحور بالخيال الجليدي...

ولكن ـ ياللرعب ـ ارتفعت اللوحة، وخلفها ظهر عمل عن الكهوف لشخص يُدعى أرشيمبولدو، وظهر محراب آخر، يشبه ما أنا فيه تمامًا. وهناك أمام الهيكل الآخر تركع شيشيليا، وبجوارها ـ يغرق العرق المثلج حاجبي، ويقف شعر رأسي رعبًا ـ أرى، الآخر، جوزيبي بالسامو الآخر، وهو يُظهر ندبته بوضوح. شخص ما حرره من قبو سان ليو!

وماذا عني؟ وفي هذه اللحظة يرفع أكثر الرهبان سنًا قلنسوته، وأتعرف في ابتسامته البشعة على لوتشانو، والذي ـ لا يعرف سوى الله ـ كيف هرب من خنجري، ومن مجاري المياه، ومن المستنقع الدموي الذي لابد وأن ألقي بجسده في الأعماق الصامتة للمحيط. لقد ذهب وانضم إلى أعدائي في رغبته، التي له فيها كل الحق، في الانتقام مني.

نزع الرهبان عنهم أرديتهم الرهبانية، وها هم تغطيهم الدروع من رءوسهم إلى أقدامهم. وصليب أحمر يزين عباءتهم ناصعة البيضاء. فرسان معبد بروفان!

أمسكوا بي، وأداروني، وأخذوني في تجاه جلاد يقف بين مساعدين مشوهين. أنحني وبواسطة علامة كي أتحول إلى الضحية الأبدية للسجان، حيث إن الابتسامة

الشريرة للبافومت قد طُبعت إلى الأبد على كتفي. الآن فهمت: سآخذ مكان بالسامو في سان ليو - أو أن أعود إلى المكان المعين لي إلى الأبد.

ولكنهم سيتعرفون علي، أقول لنفسي، وشخص ما بالتأكيد سيأتي لإنقاذي - على الأقل، أعواني - لا يمكن أن يتم إحلال سجين مكان آخر دون أن يلحظ أحد هذا، إنها لم تعد أيام القناع الحديدي... أيها الأحمق! في لحظة فهمت، بينما يدفع الجلاد برأسي إلى حوض نحاسي تتصاعد منه أدخنة خضراء: حامض كبريتي!

وضعوا غطاء على عيني، وغُمس وجهي في السائل الحارق، ألم قاس لا يُحتمل، أخذ جلدي ووجنتي يذوب، أنفي وفمي، ذقني، كل هذا في دقيقة واحدة، وبينما يشدوني من شعري خارجه، لم يعد بالإمكان التعرف على وجهي، شلل تام، غياب تام لملامح الوجه. أنشودة للقبح. سأعود إلى الزنزانة مثل هؤلاء الهاربين، الذين ليتجنبوا القبض عليهم، كانت لديهم الشجاعة ليشوهوا أنفسهم.

آه! أصرخ مهزوماً، وكما يقول الراوي، تخرج كلمة من بين شفتي المشوهتين، تنهيدة، صرخة أمل: الخلاص!

ولكن الخلاص من ماذا، يا راكامبولي المسن. كنت تعرف علم المعرفة بأنه لم يكن لك أن تحاول القيام بدور البطولة! لقد عوقبت، وبطريقتك نفسها. لقد أهنت كاتبي الوهم، والآن - أترى - أنت أيضاً تكتب، على آلة تشهد لك. أنت توحي بأنك مجرد متفرج، بينما تقرأ ما فوق الشاشة وكأنها كلمات آخر، ولكنك سقطت في الفخ، وها أنت تحاول أن تترك آثاراً في الرمال. لقد جرؤت وحاولت أن تغير نص رواية العالم، وها هي رواية العالم تضمك إلى أحداثها، وتورطك في أحداثها المتشابكة، أحداث لم تقررها أنت.

كان من الأفضل أن تمكث فوق جزيرتك يا جيم جامع القنب، وتدعها تعتقد بأنك قد قضيت حتفك.

(٩٨)

لم يكن الحزب الوطني الاشتراكي يسمح بالجمعيات السرية، لأنه كان هو في ذاته جمعية سرية، بمعلمه الكبير ومعرفته الأصولية، بشعائره وطقوس انضمام أعضائه.

(René Alleau, Les sources occultes du nazisme, Paris, Grasset, 1969, p.214)

أعتقد في تلك الفترة أفلت آلييه من قبضتنا. كان هذا هو التعبير الذي استخدمه بيلبو، وكانت نبرته غير مبالية بشكل مبالغ فيه. أعهدت أنا ذلك إلى غيرته، كان يستحوذ عليه في صمت تلك السلطة التي أصبحت لآلييه على لورينزا، وبصوت مرتفع كان يعبر عن السلطة التي أصبحت لآلييه على جاراموند.

ربما كان الأمر أيضًا خطأنا. بدأ آلييه يغوي جاراموند قبل عام تقريبًا، منذ أيام ذلك الاحتفال السيميائي في بيومونتي. أعهد إليه جاراموند بقائمة أسماء جميع الإي بي إس (المؤلفون على نفقتهم الخاصة)، حتى يتمكن من تمييز ضحايا جدد يمكنه أن يجندهم ليمنحوا شكلاً لفهرس سلسلة الكشف عن إيزيس. ولكن أصبح جاراموند يستشيره في كل قرار، وكان بالتأكيد يرسل إليه بشيك كل شهر. كانت جودرون، التي كانت تقوم باكتشافاتها الشهرية في نهاية الممر، فيما وراء الباب الزجاجي الذي كان يقود إلى المملكة المبطنة لدار نشر مانوتزيو، تقول من حين لآخر، وبنبرة قلقة إن آلييه قد احتل عمليا مكتب السيدة جراتزيا، وأنه يمليها الخطابات ويقود الزوار الجدد لمكتب جارموند، وباختصار ـ وهنا يقود استياء جودرون بانتزاع المزيد من الكلمات منها ـ فهو يتصرف كمن يملك المكان. في الواقع كان لابد لنا أن نتساءل لماذا كان يقضي آلييه الساعات الكثيرة منكبًا على دفتر تليفونات مانوتزيو. إن عملية اختيار بعض مؤلفي الإي بي إس لدعوتهم لينضموا إلى قائمة مؤلفي الكشف عن إيزيس لم تكن لتستغرق كل هذا الوقت. إلا أنه كان يدون ويجري اتصالات وتنظيم لقاءات.

إلا أننا كنا نقف في الخلفية ونشجع استقلاله. لم يكن الموقف يضايق بيليو، إذ أن تواجد آلييه أكثر في شارع ماركيزي جواليدي يعني وجود أقل في سيشيرو ريناتو،

وبالتالي عندما تقوم لورينزا بإحدى ظهوراتها المفاجئة، ويصبح بيلبو لذلك متألق بطريقة تثير الشفقة، بحيث لم يعد بحاجة لإخفاء انفعاله، ستكون فرص ظهور "سيمون" أقل ليدمر هذه اللحظة.

ولم يعد الأمر يضايقني بعد أن تحررت من ارتباطي بسلسلة الكشف عن إيزيس، وكانت تجذبني أكثر قصتي الخاصة بتاريخ السحر. كنت أعتقد أنني تعلمت من عبدة الشيطان كل ما يمكنني تعلمه منهم، وتركت آلييه ليدير الاتصالات (والعقود) مع مؤلفين جدد.

ولم يكن الأمر كذلك يضايق ديوتاليفي، ولكن ذلك لأن العالم بأكمله أصبح يهمه بصورة أقل يومًا بعد يوم. عندما أسترجع الأمر الآن، أتذكر أنه كان يفقد وزنه بطريقة مثيرة للقلق، وأحيانًا ما كنت أفاجئه في مكتبه منحنيًا على إحدى المخطوطات، وعيناه تحدقان في الفراغ، والقلم يكاد يقع من يده. لم يكن نائمًا بل كان منهكًا.

ولكن كان هناك سبب آخر لأجله وافقنا جميعًا على ظهورات آلييه النادرة، فقد كان يعيد إلينا المخطوطات التي يرى أنها لا تصلح ويختفي في نهاية الممر. في الواقع لم نكن نرغب في أن يستمع إلى أحاديثنا. وإذا كان أحد قد سألنا عن السبب لقلنا الخجل، أو حساسية الموقف، نظرًا لأننا كنا نحاكي ميتافيزيقيات، يؤمن هو بها بطريقة أو بأخرى، بطريقة ساخرة. في الواقع كنا نفعل ذلك بلا مبالاة، كنا نترك أنفسنا لننجرف تدريجيًا ويسيطر علينا الحرص الطبيعي لمن يعرف بأنه يملك سرًا. كنا دون أن نشعر نضع آلييه مع ركاب المجدفين، بينما نتخذ موقفًا جديًا جدًا تجاه الشيء الذي اخترعناه. وربما أيضًا، كما قال ديوتاليفي في إحدى لحظات المرح، الآن وقد أصبح لدينا سان جيرمانو حقيقيًا، لم نعد نحتاج لذلك التقليد.

لم يبد أيضًا أن آلييه شعر بأي إهانة من تحفظاتنا تلك، كان يحيينا ثم ينصرف، بأدب يؤطره التعالي.

في صباح أحد أيام الاثنين، كنت قد وصلت متأخرًا إلى المكتب، دعاني بيلبو على الفور أنا وديوتاليفي للدخول إلى مكتبه. وقال: أخبار خطيرة. ولكن قبل أن يتمكن من قول أي شي، وصلت لورينزا. وتمزق بيلبو بين مشاعر الفرح بتلك الزيارة وبين رغبته الملحة في أن يخبرنا عن اكتشافاته. بعد ذلك بلحظة سمعنا طرقات على الباب، وأطل

آلييه برأسه علينا قائلاً: لا أريد إزعاجكم، أرجوكم لا تنهضوا، فليست لي أي سلطة لأتطفل على مجلس كهذا، أريد فقط أن أخبر عزيزتنا لورينزا بأنني في مكتب السيد جاراموند، وأنني أتمنى أن تكون لي السلطة أن أستدعيها لشراب في الظهيرة في مكتبي.

في مكتبه. هذه المرة فقد بيلبو سيطرته على نفسه. على الأقل بالطريقة التي يمكن له أن يفقدها بها. انتظر حتى خرج آلييه، ثم تمتم بين أسنانه المضغوطة : ما جافتي لا ناتا!

سألته لورينزا التي كانت لا زالت تُظهر سعادتها من الدعوة التي تلقتها عن معنى ما قاله.

ـ إنه تعبير شعبي من تورينو. ويعني: فلتنزع الغطاء الفلليني، أو الأفضل: لتسمح سيادتك بأن تنزع الغطاء الفلليني. والفكرة هي أن الشخص المنتفخ، والشاعر بأهميته، والمتعالي يمكنه أن يمسك ويحتفظ بنفسه بالطريقة التي هو عليها لأن هناك غطاء فلليني موضوع في فتحته الشرجية، والذي يمنع من كرامته ذات الطابع البخاري بأن تنتشر. إن عملية نزع الغطاء عادة ما يصحبها صفارة حادة، وانكماش الغلاف الخارجي ليتحول إلى شبح لا لحم فيه، مسكين من نفسه السابقة.

ـ لم أكن أعلم أنه بإمكانك أن تصل إلى هذا الحد من السوقية.

ـ وها أنت قد عرفتي ذلك الآن.

خرجت لورينزا وهي تدعي الغضب. وكنت أعلم أن بيلبو كان يتألم أكثر: إذا كانت قد غضبت بالفعل كان ذلك سيحسم الموقف لديه، ولكن ادعاء الغضب كان يؤكد مخاوفه، بأن أي انفعال للورينزا عادة ما يكون مسرحيًا واستعراضيًا.

وربما كان هذا السبب الذي قال بسببه، في إصرار: لنستكمل. وكان يرغب القول لنستأنف العمل في الخطة، لنستأنف العمل الجدي.

قال ديوتالليفي: لا أرغب في ذلك كثيرًا، لا أشعر أنني على ما يرام، أشعر بألم هنا (ووضع يده على معدته)، أعتقد أنه التهاب في المعدة.

قال بيلبو: شيء مستحيل! إذا كنت أنا لا أعاني من التهابات في المعدة! ما يمكن أن يتسبب لك في هذا؟ شربك للمياه المعدنية؟

ابتسم ديوتاالليفي مشدودًا: ربما، مساء أمس بالغت قليلاً. كنت معتادًا على أن أشرب فيوجي وبالأمس شربت سان بيلليجرينو.

ـ لابد لك إذن من أن تتوخي الحذر، إن تلك المبالغات يمكنها أن تقتلك. ولكن لنستأنف بالفعل، لأنني منذ يومين تقتلني الرغبة في أن أقص عليكما. أخيرًا عرفت لماذا لم ينجح الستة والثلاثون منذ قرون في تحديد شكل الخريطة. أخطأ جون ديب، إن الجغرافيا تحتاج إلى إعادة نظر. فنحن نعيش بداخل أرض مجوفة، تحيط بها الأسطح الأرضية. وكان هيتلر قد أدرك هذا.

(٩٩)

كانت الحركة النازية هي اللحظة التي تملك فيها روح السحر على مقابض التطور المادي. كان لينين يقول إن النزعة الشيوعية هي النزعة الاشتراكية مضافًا إليها الكهرباء. كانت النزعة الهيترلية، بطريقة ما، هي النزعة الغوينونية مضافًا إليها الانقسامات المسلحة.

(Pauwels e Bergier, Le matin des magiciens, Paris, Gallimard, 1960, 2, VIII)

استطاع بيلبو أن يجد مكانًا لهيتلر في الخطة.

ـ إن كل شيء مكتوب، بوضوح شديد. كان مؤسسو النازية مرتبطين بنزعة فرسان المعبد الجديدة والتاوتونية.

ـ شيء غير مقنع.

ـ لا أخترع هذا، يا كازاوبون، للمرة الأولى لا أخترع شيئًا.

ـ لتهدئ من روعك، متى اخترعنا أي شيء؟ لقد انطلقنا دائمًا من معطيات موضوعية، بمعلومات وأخبار من المجال العام.

وهذه المرة أيضًا. عام ١٩١٢ تكونت مجموعة Germanenorden (ألمانيا الشمالية) مقترحة عقيدة أو فلسفة السمو الآرية. في عام ١٩١٨ قام أحد البارونات الذي يُدعى فون سيبوتندورف بتأسيس مجموعة فرعية: الثول جيزلشافت، Thule Gesellschaft جمعية سرية، تنويع آخر على جماعة فرسان المعبد المتحفظة، ولكنها مع اتجاهات أصولية قوية، مؤيدة للألمان، ومناهضة للآرية. وفي عام ١٩٣٣ كتب البارون سيبوتندروف بأنه هو الذي وضع البذور لما عمل هيتلر فيما بعض على إنمائه. ومن جهة أخرى، في دوائر مجموعة الثول جيولشافت، ظهر الصليب المعكوف، ومن الذي ينتمي مباشرة إلى تلك المجموعة؟ إنه رودلف هس، عقل هيتلر المدبر الشرير، يليه روزينبرج، ثم هيتلر نفسه! بالإضافة إلى كل هذا لابد وأنكما قرأتما في الصحف أن هس في سجنه في سبانداو مازال يهتم حتى اليوم بالعلوم السرية. كتب فون سيبوتندروف عام ١٩٢٤ ملزمة عن السيمياء، دوّن فيها أن التجارب الأولى للانصهار النووي تشهد على حقيقة العمل العظيم. وكتب أيضًا رواية عن الروزا كروتشي! سيدير

بالإضافة إلى ذلك مجلة تنجيم: Astrologische Rundschau، وكتب تريفور روبر أن الهيكل الحاكم النازي، وعلى رأسه هيتلر، لم يكونوا يتحركون دون استشارة مُنجم. في عام ١٩٤٣، يبدو أنه تم استشارة مجموعة من الوسطاء لاكتشاف أين سُجن موسوليني. الخلاصة أن كل المجموعة النازية الحاكمة مرتبطة بالنزعة التاوتونية السرية.

بدا وكأن بيلبو قد نسى حادثة لورينزا، وكنت أنا أطاوعه، مانحًا إياه خبطات للإسراع في الإيقاع: ـ في الواقع، على ضوء كل ما سبق، يمكن أيضًا إعادة النظر في قدرة هيتلر في جذب الحشود. فمن الناحية الجسدية كان يشبه الضفدع، وكان صوته حادًا، كيف تمكن من سحر كل هذه الحشود؟ لابد وأنه كانت لديه قوة نفسية، ربما تعلم شيئًا من بعض الدروديين من بلدته تمكن بواسطته الاتصال بالتيارات السفلية. ربما كان هو نفسه صمامًا، منهيرًا بيولوجيا. كان ينقل طاقة التيارات إلى المخلصين المحتشدين في إستاد نوريمبرج. لوهلة سارت الأشياء على ما يرام معه، لكن لابد أن الطاقة فرغت من بطارياته بعد ذلك.

(١٠٠)

أعلن لكل العالم أن الارض خالية ويمكن سكناها من الداخل، وأنها تحتوي على عدد معين من الأفلاك الصلبة، متحدة المركز، أي موضوعة الوحيدة بداخل الأخرى، والتي هي مفتوحة تجاه القطبين بامتداد الدرجات الاثنتي عشرة والسادسة عشرة.

(J.Cleves Symmes, capitano di fanteria, 10 Aprile 1818; cit. In Sprague de Camp e Ley, Lands Beyond, New York, Rinehart, 1952, x)

أهنئك يا كازاوبون. لقد أصبت ببراءتك الحقيقة. كان استحواذ هيتلر الفطري هو التيارات السفلية. كان يؤمن بنظرية الأرض الجوفاء.

قال ديوتالليفي: سأنصرف الآن، أشعر بآلام في معدتي.

ـ انتظر، سنصل الآن إلى أفضل الأجزاء. إن الأرض فارغة، نحن نسكن في الخارج، على القشرة الخارجية المحدبة، ولكن بالداخل، في الأسطح المقعرة الداخلية. ما نؤمن به هو أن السماء هي كتلة من الغاز بها مناطق من الضوء المبهر، والغاز يملأ الكوكب من الداخل. لابد إذن إعادة كل المقاييس الفلكية، فالسماء ليست لا نهائية بل هي محدودة. إن الشمس، إذا كان لها وجود، ليست أكبر بكثير مما تبدو عليه. مجرد شيء صغير محيطه لا يتجاوز الثلاثين سنتيمترًا في مركز الأرض. وكان اليونانيون قد شكوا في الأمر من قبل.

قال ديوتاالليفي بتعب: إن هذا من اختراعك أنت.

ـ لا ليس هذا من اختراعي! إن شخص ما واتته الفكرة في بداية القرن التاسع عشر، شخص أمريكي يُدعى سيميس. ثم أعاد الفكرة مرة أخرى أمريكي آخر، شخص يُدعى تيد، والذي يستند على تجارب سيميائية وعلى سفر أشعياء. وبعد الحرب العالمية الأولى أكمل النظرية شخص ألماني، نسيت اسمه، والذي أسس حركة Hohlweltlehre، والذي كما يعني الاسم نفسه فهي حركة نظرية الأرض الفارغة. والآن يجد هيتلر ومعاونوه أن نظرية الأرض الفارغة تتفق تمامًا مع مبادئهم، بل بالأحرى ـ يُقال ـ يخطئون في تصويب بعض القنابل الطائرة V1، لأنهم حسبوا مسارها منطلقين من افتراض السطح المقعر وليس المحدب. كان هيتلر آنذاك مقتنعًا بالفعل بأنه هو ملك

العالم، وأن الدولة العليا النازية هي الرؤساء المجهولون. وأين يسكن ملك العالم؟ بالداخل، في أسفل، وليس في الخارج. وانطلاقًا من هذه الفرضية قرر هيتلر أن يقلب كل نظام الأبحاث ومفهوم الخريطة النهائية، والطريقة التي بها يُفسر البندول! كان يلزم بالتالي إعادة تجميع المجموعات الست وإعادة كل الحسابات من البداية. فكرا قليلاً في منطق غزو هيتلر... في البداية الانتقام، دانزيج في بولندا، لتكون له السيطرة على الأماكن الكلاسيكية للمجموعة التاوتونية. ثم احتل بايس، وضع البندول وبرج إيفل تحت سيطرته، ثم اتصل بالمجموعات السينركية وضمها لمجموعة فيتشي. تأكد بعد ذلك من حيادية، بل تعاون، المجموعة البرتغالية. الهدف الرابع، واضح: إنجلترا، لكننا نعرف أن هذا الأمر لم يكن سهلاً. في الوقت نفسه، ومن خلال حملات إفريقيا، كان يحاول الوصول إلى فلسطين، ولكنه لم ينجح أيضًا في ذلك. عندئذ استهدف إخضاع الأراضي البولسية، من خلال غزوه لدول البلقان وروسيا. وعندما افترض أنه يمتلك بين يديه أربعة أسداس الخطة، أرسل هيس في مهمة سرية إلى إنجلترا ليقترح التحالف، ولكن رفض أتباع بيكون الاقتراح. كانت لديه عندئذ فكرة أخرى: من لديه الجزء الأهم من السر لابد وأنهم الاعداء الأزليون: اليهود. ولم يكن من الضروري البحث عنهم في أورشاليم، حيث لم يعد منهم هناك سوى القليلين. لابد أن جزء الرسالة الموجه إلى المجموعة الأورشاليمية لا يوجد في أورشاليم، بل بين يدي بعض الفرق في الشتات. وهكذا يمكننا تفسير الهولوكوست أيضًا.

ـ وكيف هذا؟

ـ فلتفكر في الأمر لوهلة. تخيلا أنفسكما وقد واتتكم الرغبة في ارتكاب عملية تطهير عرقي.

قال ديوتاليفي: أرجوك، دعونا لا نبالغ إلى هذا الحد، أشعر بآلام في معدتي وسأذهب الآن.

فلتنتظر قليلاً! عندما كان فرسان المعبد ينزعون أحشاء أتباع صلاح الدين كنت تصغي باستمتاع، لأن ذلك حدث منذ زمن بعيد، والآن تتحلى بأخلاق المثقف الرقيق. إننا هنا نحاول أن نعيد صياغة التاريخ، لا يجب أن ندع أي شيء يخيفنا.

تركناه ليكمل حديثه، مقمعين بحماسة.

ـ الأمر الصادم في التطهير العرقي لليهود كان طول فترة الإجراءات. في البداية يتم حجزهم في معسكرات، تجويعهم، تعريتهم، ثم عملية الاستحمام. ماذا يعني ترتيب الجثث بحرص، وأرشفة الملابس، وإعداد قوائم بالمتعلقات الشخصية... لا معنى لكل هذه الإجراءات إذا كان الأمر يتعلق فقط بالتطهير العرقي. يمكن أن تعنى شيئًا معينًا فقط إذا كان الغرض منها البحث عن شيء ما، عن رسالة يحتفظ بها شخص. شخص واحد فقط، من بين هؤلاء الملايين من البشر، الممثل الأورشاليمي للستة والثلاثين الخفيين، يخفيها بين طيات ثيابه، أو في فمه، أو كوشم على جلده... الخطة فقط يمكنها أن تفسر الإجراءات الغامضة للهولوكوست! كان هيتلر يبحث على الاقتراح فوق أجساد اليهود، عن الفكرة التي ستمكنه من أن يحدد، بفضل البندول، النقطة الدقيقة التي، أسفل الوجه المقعر من الأرض والتي فيها تتشابك التيارات الأرضية السفلية، وعند هذه النقطة، ولتنتبها لكمال هذا المفهوم، تتماثل مع تلك السماوية، ولهذا فإن نظرية الأرض المقعرة تجسد، إذا أمكننا القول، الحدس الهيرمسي الألفي: إن كل ما هو في أسفل يساوي لما هو في أعلى! إن القطب السري يتطابق مع قلب الأرض، إن التصميم السري للنجوم، ليس إلا التصميم السري لما هو تحت الأرض في أجارثا، لم يعد هناك فارق بين السماء والجحيم، والجرال، الحجر الخارجي، هو حجر السحب بمعنى أنه الحجر الفلسفي الذي نشأ كنوع من الالتواء، كمحطة نهائية، كحد، رحم الأرض السلبية للسماوات! وعندما سيتعرف هيتلر على هذه النقطة، على المركز المقعر للأرض، والذي هو المركز الكامل للسماء، سيكون سيد العالم، ويعد نفسه ملكه بفضل حق جنسه. لهذا السبب، وحتى اللحظة الأخيرة، ومن هاوية مخبأه، كان يفكر في أنه مازال يستطيع تحديد القطب السري.

قال ديوتالليفي: كفي، أنا الآن مريض بالفعل، أنت تؤلمني.

قلت: إنه متألم بالفعل وليس مجرد جدال أيديولوجي.

أدرك بيلبو ما يحدث فقط في تلك اللحظة، نهض على الفور وذهب ليسند صديقه المستند على المائدة، وبدا أنه على وشك أن يغيب عن الوعي.

ـ اعذرني يا عزيزي لقد تركت نفسي لأنجرف. هل أنت متأكد أن هذا ليس بسبب شيء قلته؟ إننا نمزح سويًا منذ أكثر من عشرين سنة، أنا وأنت. لابد أنه التهاب بالفعل في المعدة. في هذه الحالة عليك أن تجرب قرص ميرانكول وقربة مياة ساخنة. هيا معي، سآخذك إلى منزلك، ثم من الأفضل أن تتصل بالطبيب ليأتي ويفحصك؟

قال ديوتالليفي إنه يستطيع أن يذهب إلى المنزل في سيارة أجرة، وإنه ليس على مشارف الموت بعد وإنه يحتاج فقط لأن يستلقي قليلاً. ووعدنا بأنه سوف يطلب الطبيب. وأضاف أن الأمر لا يتعلق بذكر الهولوكست، بل إنه لم يكن على ما يرام منذ الصباح. استراح بيلبو واصطحبه إلى الخارج للسيارة الأجرة.

عاد وقد تملكه القلق: عندما أفكر في الأمر مليًا الآن أدرك أن ديوتالليفي كان شاحبًا منذ بضعة أسابيع، وكانت توجد هالات حول عينيه أيضًا... هذا ليس عدل! كان لابد وأن أموت من التليف الكبدي منذ عشرة أعوام، ولكنني مازلت هنا، بينما هو الذي يعيش كالناسك لديه التهابات في المعدة، وربما أسوأ من ذلك، أنا أعتقد أنها قرحة. فلتذهب الخطة إلى الجحيم، لقد حولت حياتنا جميعًا إلى مجانين.

قلت: ولكنني أرى أن حالته ستتحسن بعد قرص ميرانكول.

أنا أيضًا أرى هذا. ولكنه يحتاج لوضع قربة مياه ساخنة على معدته أيضًا. أتمنى أن يتصرف بحكمة.

(١٠١)

إذا انحرف من يعمل في القبالاة...، أو
اقترب من العمل بلا نقاء، سيبتلعه عزازيل!

(Pico della Mirandola, Conclusiones Magicae)

بدأت أزمة ديوتاليفي الصحية في نهاية شهر نوفمبر. انتظرناه في المكتب في اليوم التالي ولكنه اتصل بنا قائلاً إنه لابد له من الذهاب للمستشفى. قال له الطبيب إن الأعراض ليست مقلقة، ولكن من الأفضل إجراء بعض الفحوصات.

ربط بيلبو وأنا معه مرض ديوتاليفي بالخطة، والذي ربما بالغنا فيها قليلاً. قلنا لأنفسنا إن هذا تفكير غير منطقي، ولكننا كنا نشعر بالذنب. وكانت هذه هي المرة الثانية التي فيها أشعر بأنني شريك في الجريمة مع بيلبو: المرة الأولى كنا قد التزمنا الصمت معًا (أمام دي أنجيليس)، وهذا المرة - سويًا أيضًا - تحدثنا أكثر مما ينبغي. كان أيضًا شيء غير منطقي ذلك الشعور بالذنب - كنا مقتنعين بذلك آنذاك - ولكن لم نستطع التخلص منه. وهكذا توقفنا لمدة شهر أو أكثر من التحدث عن الخطة.

في ذلك الوقت، وبعد حوالي أسبوعين، ظهر ديوتاليفي من جديد وبنبرة مضطربة أخبرنا أنه طلب من جاراموند إجازة مرضية. أخبرنا أنهم في المستشفى أعدوا له برنامجًا للعلاج، ولكنه لم يخوض في تفاصيله، يتطلب منه أن يذهب إلى المستشفى كل يومين أو ثلاثة وأن العلاج سيتسبب بطريقة ما في إضعافه. لم أستطع أن أفهم كيف يمكن أن يصبح أضعف من هذا؛ فلقد أصبح وجهه بالفعل أبيض مثل لون شعره.

قال: وتوقفا عن تلك الحكايات، إن لها تأثيرًا سيئًا على الصحة كما تران. إنه انتقام الروزا كروتشي.

قال له بيلبو مبتسمًا: لا تقلق، سنحول حياة الروزا كروتشي للجحيم وسيدعونك في حال سبيلك.

استمر العلاج حتى بداية العام الجديد. كنت أنا منهمكًا في تاريخ السحر، ذلك الحقيقي الجاد ـ كما كنت أقول لنفسي ـ وليس في قصتنا. كان جاراموند يأتي إلينا على الأقل مرة كل يوم ليطمئن على ديوتالليفي ويقول: وأرجوكما أيها السادة أن تخبراني إذا ظهر أي احتياج، أو أي ظرف، يمكنني فيه، أنا والمؤسسة، أن نقدم أي شيء لصديقنا الرائع. إنه بالنسبة لي بمثابة ابن، بل لنقل أخًا. على كل حال نحن في بلد متمدن، نشكر السماء، وبرغم ما يقوله الناس، لدينا نظام خدمة صحية نفخر به.

عبر آلييه أيضًا عن قلقه، سألنا عن اسم المستشفى، وتحدث مع مديرها، والذي كان أحد أصدقائه الأعزاء (بل، كما قال، أخو أحد كتاب الإيه بي إس، وهو على علاقة وثيقة به). وأكد لنا أن ديوتالليفي سيتلقى عناية خاصة.

لورينزا أيضًا تأثرت كثيرًا، وكانت تمر على الجاراموند تقريبًا كل يوم لتطمئن على أخباره. كان يمكن أن يمسح هذا السعادة لبيلبو، ولكن كان هذا بالنسبة إلي دليلاً آخر على أن تخمينه لم يكن صائبًا. فلقد كانت لورينزا هناك، ولكنها مازالت مراوغة، فهي ليست هناك من أجله.

قبل عيد الميلاد بقليل، استمعت بالمصادفة لجزء من محادثتهم. كانت لورينزا تقول له: أؤكد لك، الثلج رائع، ولديهم حجرات جميلة ساحرة. يمكنك أن تتزحلق على الجليد، أليس كذلك؟ واستنتجت من ذلك أنهم سيقضون ليلة رأس السنة سويا. ولكن بعد عيد الغطاس بيوم، عندما ظهرت لورينزا في الممر، قال لها بيلبو: عام سعيد، وأحبط محاولتها في احتضانه.

عندما تركنا هذا المكان، وصلنا إلى مستوطنة معروفة باسم ميلستر... يقال عنها إن رجلاً معرفًا باسم شيخ الجبل يقيم فيها.. وإنه بنى، فوق الجبال المرتفعة المحيطة بالوادي، حائط سميكًا جدًا ومرتفعًا جدًا، على مساحة ثلاثين ميلاً وكان يمكن الدخول إليه من خلال بابين. وكانا خفيين، محفورين في الجبل.

(Odorico da Pordenone, De rebus incognitos, Impressus Esauri, 1513, xxi, p.15)

في أحد الأيام، وفي نهاية شهر يناير، كنت أمر من شارع ماركيزي جوالدي، حيث كنت قد تركت سيارتي، رأيت سالون يخرج من مانوتزيو. قال لي: كنت أتبادل الحديث مع صديقي آلييه.

صديقه؟ على ما أتذكر من تلك الليلة في بيومونتي، لم يكن آلييه يحبه. هل كان سالون يتلصص حول مانوتزيو أم أن آلييه كان يستغله من أجل علاقة أو أخرى؟

لم يدع لي الفرصة لأفكر في الأمر إذ دعاني لأتناول معه شراب، وانتهى بنا الأمر أن جلسنا في بيلادي. لم أكن قد رأيته قط في تلك الأنحاء، ولكنه حيا بيلادي المسن وكأنهما يعرفان أحدهما الآخر منذ زمن بعيد. جلسنا وسألني عن أحوال كتاب تاريخ السحر. كان يعرف أيضًا عن هذا الأمر. قررت أن أستفزه وأخبرته عن الأرض المقعرة وعن سيبوتندورف، الرجل الذي أشار إليه بيلبو.

ضحك وقال: بالتأكيد يأتي إليكم الكثير من المجانين! لم أعرف أي شيء عن قصة الأرض المقعرة تلك. أما بالنسبة لفون سيبوتندروف فلقد كان شخصية غريبة. لقد أعطى هيملر ورفاقه بعض الأفكار الانتحارية للشعب الألماني.

ـ أي أفكار؟

ـ خيالات شرقية. كان ذلك الرجل يقلق من اليهود فانتهى به الأمر لأن يسقط في عبادة العرب والأتراك. هل تعرف أن فوق مكتب هيملر، كان يوجد القرآن بجوار كتاب كفاحي؟ بدأ سيبوتندروف، والذي كان قد سحرته من الصبا العبادات التركية السرية، في دراسة الغنوصية الإسلامية. كان يقول "أيها القائد" ولكنه كان يفكر في شيخ الجبل. عندما اجتمعوا جميعهم وأسسوا الأس إس، كان في ذهنهم منظمة شبيهة بمنظمة

السفاكين/الحشاشين.... ألم تتساءل لماذا كان هناك تحالف بين ألمانيا وتركيا في الحرب العالمية الأولى ؟

ـ ولكن كيف تعرف هذا الأشياء؟

ـ أعتقد أنني كنت قد ذكرت لك من قبل أن أبي المسكين كان يعمل لحساب الأوكرانا الروسية. أتذكر في تلك الأيام انشغل البوليس الأصولي بالحشاشين، وأعتقد أن الشكوك الأولى ساورت راكوفسكي... ولكنهم تخلوا عن هذا الأثر، لأنه إذا كانت منظمة الحشاشين متورطة في أي شيء، فمعنى ذلك أن اليهود لا دخل لهم في شيء، وكان الخطر عندئذ هم اليهود. كالعادة. عاد اليهود إلى فلسطين وأجبروا الآخرين على الخروج من جحورهم. ولكن الشيء برمته معقد جداً وشديد الارتباك. لنترك الأمر عند هذا الحد.

بدا وكأنه ندم بأنه تحدث أكثر مما ينبغي، وسارع بالرحيل. ثم حدث شيء آخر. أنا متأكد الآن، بعد كل ما حدث أنني لم أكن أحلم، ولكن في ذلك اليوم اعتقدت أنني أتخيل، لأنني عندما اتبعت سالون بنظري أثناء خروجه من البار، بدا لي أنني رأيته يتقابل، على الناصية، مع شخص ذى ملامح شرقية.

على كل حال، في ذلك اليوم، قال لي سالون ما يكفي ليثير لي خيالي من جديد. لم أكن أجهل شيخ الجبل ولا الحشاشين، فلقد كانوا جزءاً من بحثي، ووجهت لفرسان المعبد تهمة التعاون معهم. كيف استطعنا إغفالهم؟

وهكذا بدأت أعمل عقلي مرة أخرى، وأصابعي أيضاً، باحثاً في وسط بطاقات البحث القديمة، وراودتني فكرة، فكرة لم أستطع أن أحتفظ بها لنفسي.

اقتحمت مكتب بيلبو في صباح اليوم التالي: لقد أخطأوا كل شيء، لقد أخطأنا كل شيء.

ـ اهدأ يا كازاوبون، ما هذا الذي تتحدث عنه، آه، الخطة!، ثم تردد قائلاً: هل تعرف أن هناك أخباراً سيئة تتعلق بديوتالليفي؟ لا يريد هو أن يتحدث. اتصلت بالمستشفى ولم يرغبوا في أن يقولوا لي بالتحديد لأنني لست من أقاربه، ولكنه لا أقارب له، من سيهتم به في هذا الحالة؟ لم يعجبني تكتمهم. قالوا إنه ورم حميد، ولكن العلاج وحده لا يكفي. لابد له من أن يعود إلى المستشفى لمدة شهر تقريباً، وربما يجري جراحة بسيطة... ولكنني أشعر أنهم لا يقولون لي الحقيقة ، وبدأت القصة تثير قلقي.

لم أعرف بماذا أجيبه. شعرت بالخجل من دخولي المندفع وبدأت أتصفح في شيء أمامي. ولكن لم يستطع بيلبو المقاومة. كان مثل المقامر الذي أظهروا له فجأة أوراق اللعب، فقال: ولكن للأسف لابد للحياة وأن تستمر، احكي لي.

ـ لقد أخطأوا في كل شيء، وبالتالي أخطأنا نحن أيضًا. إذن، هيتلر فعل كل ما فعله مع اليهود ولم يصل إلى شيء. إن نصف عبدة القوى الخفية في العالم، درسوا لقرون طويلة اللغة العبرية، وبحثوا في النصوص العبرية، ولم يستطيعوا سوى استنتاج خريطة البروج، لماذا؟

ـ ربما لأن الجانب الأورشاليمي من الرسالة كان مازال مختبئًا في مكان ما. ومن جهة أخرى الجزء الخاص بالبولسيين لم يظهر أيضًا، على حد ما أعرف...

ـ هذه إجابة على نمط آلييه، ولا تليق بنا. لدي إجابة أفضل. واليهود ليس لهم أي دخل فيها.

ـ ماذا تعني؟

ـ لا علاقة لليهود بالخطة. لا يمكن أن يكون لهم وجود. فلتتخيل موقف فرسان المعبد، أولاً في أورشاليم ثم في مقارهم في أوروبا. يتقابل الفرنسيون مع الألمان، ومع البرتغاليين، مع الإسبان ومع الإيطاليين، ومع الإنجليز، كان للجميع علاقة مع المنطقة البيزنطية، وبصفة خاصة العدو التركي. والذي كان خصمًا لا يصارعونه فقط، ولكنهم يتفاوضون معه أيضًا، كما سبق ورأينا. كانت تلك هي العلاقات بين القوى الموجودة في الساحة، وكانت العلاقات تحدث بين أشخاص على المستوى نفسه. من كان اليهود في ذلك الوقت في فلسطين؟ مجرد أقلية دينية وعرقية، مسموح لها بالوجود، وتتلقى كل الاحترام من العرب الذين يعاملونها بجود وكرم، ولكن كان المسيحيون يعاملونهم معاملة سيئة للغاية. لا يجب أن ننسى أنه في أثناء الحروب الصليبية المختلفة، وفي الطريق، كانوا ينهبون الأحياء اليهودية، ويقتلون من يقف في طريقهم. كيف يمكن أن نعتقد أن فرسان المعبد، بكل ما بهم من تعالٍ، سيفكرون في أن يتبادلوا معلومات سرية مع اليهود؟ بالتأكيد لا. في المدن الأوروبية كان اليهود يظهرون كمرابين، شخصيات سيئة السمعة، يمكن للمرء التعامل معها ولكن لا يمكن الثقة بها. هنا نتحدث عن علاقة بين فرسان، فنحن نحاول تركيب خريطة فروسية روحية، كيف استطعنا أن نتخيل أن يدخل

فرسان المعبد لبروفان في الخطة مواطنين من الدرجة الثانية؟ لا يمكن أن يحدث ذلك على الإطلاق.

- ولكن ماذا عن كل السحر الإحيائي الذي انكب على دراسة القبالاة.

- شيء حتمي، اقترب في تلك الفترة ميعاد اللقاء الثالث، وكانوا يأكلون العشب، يبحثون عن مخرج، وبدت اليهودية لهم لغة مقدسة وغامضة، وعمل القباليون لحسابهم الخاص ولأهداف أخرى، بينما الستة والثلاثون المتفرقون في العالم وضعوا في ذهنهم أن أي لغة غامضة يمكنها أن تكشف عن أسرار ما. وسيقول بيكو ديللا ميراندولا: لا شيء سيكون له معنى في عالم السحر دون اللغة العبرية. أليس كذلك؟ ولكن كان بيكو ديللا ميراندولا أحمقًا.

- حسنًا!

- بالإضافة إلى كونه إيطاليًا فقد كان مستبعدًا من الخطة. ماذا كان يمكنه هو أن يعرف؟ وبالطبع كان ذلك له أثره السيئ على جريبا وروشلين والصحبة السيئة الذين ألقوا بأنفسهم في هذا المضمار. إنني أحاول أن أعيد تركيب تلك القصة التي سارت في مسار مزيف، واضح؟ تأثرنا نحن أيضًا بديوتالليفي الذي كان يشير كثيرًا للقبالاة. كان هو يتحدث عن القبالاة ووضعنا نحن اليهود في الخطة. ولكن إذا كان ديوتالليفي مهتمًا بالثقافات الصينية، هل كنا سنضع الصينيين في الخطة؟

- ربما فعلنا ذلك.

- وربما لا. ولكن لا داعي لأن نلوم أنفسنا كثيرًا، فلقد قادنا الجميع إلى هذا الخطأ. فلقد ارتكب الجميع الخطأ نفسه، ربما بدءًا من بوستل. كانوا قد اقتنعوا من مائتي عام بعد بروفان أن المجموعة السادسة، ربما تلك الأورشاليمية، ليست حقيقية.

- ولكن اعذرني يا كازاوبون. لقد كنا نحن الذين صححنا تفسير أردنتي وقلنا إن الميعاد على الحجر لم يكن في ستونهيدج بل في حجر جامع عمر.

- وأخطأنا في ذلك، فالأحجار توجد في أماكن أخرى أيضًا. لابد أن نفكر في مكان مؤسس على الحجارة، على الجبل، أو على الزلط أو الحافة... إن المجموعة السادسة تنتظر في قلعة "ألموت"، وسط جبال البرز.

(١٠٣)

وظهر كايروس، ممسكًا في يده صولجانًا
يعني الملكية، ومنحه للإله الأول، وأخذه وقال:
سيكون اسمك السري مكونًا من ٣٦ حرف.

(Hasan as-Sabbāb, Sargozasbt is-Sayyidna)

استكملت عرضي بمهارة، وكان لابد أن أعضده بتفسيرات. واستطعت أن أحضر كل شيء في الأيام التالية: تفسيرات مطولة، تفصيلية، معضدة بوثائق. وعلى إحدى الموائد لدى بيلادي أظهرت لبيلبو دليلاً يليه الآخر، وكان هو يتابع كل شيء بعينين محدقتين بينما يدخن سيجارة تلو الأخرى، ويمد يده، كل خمس دقائق، بالكأس الفارغ إلى بيلادي، وشبح قالب الثلج في قاعه، وكان بيلادي يسرع ليملأه دون أن ينتظر أن يطلب أحد منه ذلك.

كانت المصادر الأولى هي تلك التي فيها تظهر الروايات الأولى عن فرسان المعبد، بدءًا من جيراردو دي ستراسبورجو وصولاً إلى جوينفيل. كان فرسان المعبد قد أقاموا علاقات ـ صراعات أحيانًا، ولكن في الأغلب تحالفات غامضة ـ مع جماعة الحشاشين (الباطنية الإسماعيلية) لشيخ الجبل.

كانت القصة بالضرورة أكثر تعقيدًا من هذا. بدأ ذلك بعد وفاة الرسول، وبالانقسام الذي حدث بين أتباع القانون العادي، السُنة، وبين أتباع علي، ابن عم الرسول، وزوج فاطمة، والذي رأى الخلافة تؤخذ منه. كان المتحمسون لعلي، المعروفون بالشيعة، مجموعة الأتباع الذين بدءوا الجناح المنشق للإسلام. كانوا يعتقدون في استمرارية الوحي، وليس في إعادة التأمل التقليدي في كلمات الرسول، ولكن في شخص الإمام نفسه، السيد والرئيس وملك العالم.

ماذا حدث إذن لتلك الجماعة المنشقة عن الإسلام، والتي تسللت إليها التعاليم الغريبة لحوض البحر المتوسط، بدءًا من المانوية إلى الغنوصية، ومن النزعة الأفلاطونية الجديدة وصولاً إلى التصوف الإيراني، بكل تلك الاندفاعات التي تابعنا تغيراتها

وتطوراتها في الغرب لأعوام؟ كانت قصة طويلة، يستحيل الكشف عن تفاصيلها، جزئيًا لأن المؤلفين العرب والأبطال يحملون أسماء طويلة للغاية، ولأن النصوص كانت مكتوبة بغابات من العلامات المُميزة. ونظرًا لأننا في نهاية المساء لن يمكننا التمييز بينها، ولكنني أتخيل أن شخصًا عربيًا سيواجه الصعوبة نفسها مع الأسماء اليونانية المتشابهة.

ولكن هناك شيئًا واحدًا مؤكدًا: النزعة الشيعية انقسمت إلى فرعين: فرع اسمه الاثنى عشر، والذي ينتظر الإمام المفقود والمستقبلي، والفرع الآخر: الإسماعيلي، والذي نشأ أثناء الحكم الفاطمي، في القاهرة، وبعد ذلك كان السبب في ظهور النزعة الإسماعيلية الإصلاحية في إيران، من خلال شخصية جذابة، الصوفي والقوي: حسن الصباح. أنشأ الصباح مقره الرئيسي في الجنوب الغربي لبحر قزوين، في قلعة ألموت الحصينة، عش النسر.

وهناك أحاط الصبّاح نفسه بالمخلصين، الفدائيين، المخلصون إلى ألموت؛ وكان يستخدمهم في عمليات الاغتيال السياسية، ليكون أداة الجهاد الخفي، والحرب المقدسية السرية. حصل الفدائيون بعد ذلك على سمعة سيئة بسبب اسم الحشاشين/السفاكين، والذي ليس لفظ رائع الآن. لكن كان بالنسبة لهم كان رائعًا، فهو شعار لرهبان محاربين يشبهون إلى حد كبير فرسان المعبد، فهم يمثلون أيضًا حركة فروسية روحية.

كانت قلعة أو حصن ألموت، صخرة مبنية على قمة شاهقة بطال أربعمائة متر وعلى ارتفاع بضعة أمتار، ثلاثون على الأكثر. كانت تبدو للناظر من بعيد، من طريق أزربيجان مثل حائط طبيعي، لونه الأبيض يتلألأ في ضوء الشمس، يتحول إلى الأزرق السماوي في وقت الغروب البنفسجي، واللون الدموي في الفجر. في بعض الأيام كان يختبئ خلف السحب أو يتوهج بفعل الصواعق. كان يمكن للمرء أن يرى بطول النتوء الجبلي ما يبدو وكأنه صف من السيوف الحجرية المصوبة إلى أعلى على بعد مئات من الأمتار. كان الجانب الذي يمكن الوصول منه إليها منحدرًا غادر من الحصى، والذي يصعب على علماء الآثار حتى يومنا هذا تسلقه. كان يمكن الوصول إلى الحصن عن طريق سلمًا سريًا محفورًا خارج الصخرة، مثل تقشير تفاحة حجرية، وكان يمكن لرامي سهم واحد حمايته. كان عالم آخر يسبب الدوار ولم يكن في الإمكان الوصول إليه إلا على ظهور النسور.

كان الصباح يحكم في ذلك المكان وخلفاؤه من بعده، وكان كل منهم يُعرف باسم شيخ الجبل. وكان أول خلفائه هو برزجميد.

كان حسن قد ابتدع طريقة للسيطرة على أتباعه وعلى أعدائه، حيث أعلن أنهم إذا لم يخضعوا له سيموتون. لا أحد يمكنه أن يهرب من الحشاشين. فقد اغتيل نظام الملوك، وزير السلطان، عندما كان الصليبيون يحاولون الاستيلاء على أورشاليم، بينما كان يُنقل على نقالته إلى الحرملك. اقترب منه القاتل متنكرًا في زي درويش. وأتابك حمص، والذي كان يحرسه رجال مسلحون إلى أخمص قدميهم، ذبحه قتلة شيخ الجبل عند نزوله من قلعته لأداء صلاة الجمعة.

قرر برزجميد أن يقتل الماركيز كورادو دي مونتيفلترو، المسيحي، وأعد اثنين من رجاله، واللذين انضما إلى الكفرة بعد أن تمكنا من تقليد أزيائهم ولغتهم في أعقاب الكثير من الإعداد. تنكرا في زي راهبين، وبينما كان أسقف صور، يسلي المركيز أثناء إحدى المآدب، قفزا فوق الضحية وطعناها. قُتل أحدهم على الفور بواسطة حراس الماركيز، بينما اختبأ الثاني في كنيسة، وانتظر حتى أحضروا الجريح إلى هناك، هاجمه مرة أخرى وقتله، ثم مات مطوبًا.

مطوبًا لأنه، كما جاء في تأريخ العرب السنيين، ثم المؤرخين المسيحيين، بدءًا من أودوريك إلى بوردينوني وماركو بولو، أن شيخ الجبل اكتشف طريقة ليجعل فرسانه مخلصين إلى الموت، وليجعلهم ماكينات حرب لا يمكن هزيمتها. كان يأخذهم وهم شباب، أثناء نومهم، إلى قمة الجبل، وكان يخدرهم بالمتع: خمر ونساء وزهور، مآدب شهية وحشيش، والذي منح للطائفة اسمها فيما بعد. وعندما لا يتمكنون من الحياة دون تلك المتع، كان يوقظهم من نومهم ويضعهم أمام اختيار: اذهب لتقتل وإذا نجحت ستعود إليك الجنة التي تركتها مرة أخرى، وإلى الأبد، أما إذا فشلت ستعود إلى جهنم الحياة العادية.

كانوا، بسبب غياب عقلهم المخدر، وأمام رغباتهم، يضحون بحياتهم من خلال التضحية بالآخرين، كانوا قتلة مقدرًا لهم أن يُقتلوا، ضحايا محكوم عليهم بإسقاط ضحايا.

كم كان يخافهم الجميع! وكم من الحكايات كان الصليبيون يقصون عنهم في الليالي الخالية من ضوء القمر وبينما رياح السموم تعوي في الصحراء! وكم كان فرسان المعبد

يشعرون بالاعجاب والغيرة من تلك الكائنات الرائعة؛ والتي تسعى إلى الاستشهاد، إلى الحد أنهم خضعوا لأن يدفعوا لهم الرسوم التي كانوا يطالبون بها، في مقابل الجزية الرسمية، في لعبة من التنازلات المتبادلة، التآمر ورفقة السلاح. وبينما كان ينزع أحدهم أحشاء الآخر في ساحة المعركة، كانا يتعانقان في الخفاء، هامسًا كل منهم للآخر رؤى صوفية، ووصفات سحرية، واكتشافات سيميائية.

تعلم فرسان المعبد من الحشاشين طقوسهم السرية. لم يكن سوى جبن وغباء محققي الملك فيليب هو ما منعهم من أن يروا أن البثق على الصليب، أو تقبيل المؤخرة، والقطة السوداء وعبادة البافومت كانت جميعها تكرارًا لطقوس أخرى، طقوس كانت تؤدى تحت تأثير السر الأول الذي تعلمه فرسان المعبد من الشرق: استخدام الحشيش.

إذن، كان من الواضح أن الخطة نشأت ـ وكان لابد أن تنشأ ـ هناك. تعلم فرسان المعبد من رجال ألموت، عن التيارات الأرضية. تقابلوا مع رجال ألموت في بروفان وأسسوا المؤامرة السرية للستة والثلاثين الخفيين، ولهذا السبب قام كريستيان روزينكروز برحلات في فاس وأماكن أخرى في الشرق، ولهذا السبب عاد بوستل إلى الشرق، ومن مصر، مقر الفاطميين الإسماعيليين، استورد سحرة الإحياء الإله هيرمس، المرتبط بالخطة: هيرمس تحوت أو تحوت، ولماذا كانت كان يستخدم كاليوسترو أشكالاً فرعونية في طقوسه الغامضة. أما اليسوعيون فقد كانوا أذكى مما تخيلناهم، بوجود الأب كيرشر معهم، لم يضيعوا الوقت فبدأوا يتعلمون الهيروغليفية، والقبطية ولغات شرقية أخرى، ولم تكن العبرية سوى غطاء، تزكية للتقاليع المنتشرة في تلك الفترة.

(١٠٤)

إن هذه النصوص ليست موجهة إلى الأشخاص العاديين.. إن المعرفة الغنوصية مقصورة على مجموعة من المختارين... فكما قال الكتاب: لا يجب أن تؤخذ اللآلئ وتلقى للخنازير.

Kamal Jumblart, Interview in Le Jour, March 31, 1967

إن الأسرار عند الكشف عنها جهراً، تفقد رونقها، وتفقد قيمتها إذ تدنست. لذلك: لا تقدمون اللآلىء للخنازير ولا الورود للحمير.

Johann Valentin Andreae, Die Chymische Hochzeit des Christian Rosencreutz, Strassburg Zetzner, 1616, Frontispiece

ومن جهة أخرى أين كان يمكن العثور على شخص قادر على أن ينتظر على الصخرة لمدة ستة قرون، شخص انتظر فعلياً على الصخرة؟ بالتأكيد ألموت سقطت في النهاية تحت الحصار المغولي، ولكن بقيت شيعة الإسماعيليين على قيد الحياة في الشرق كله، فمن ناحية اختلطت مع النزعة الصوفية غير الشيعية، ومن ناحية أخرى أنشأت شيعة الدروز الرهيبة، بل عاشت أيضاً بين الخوجه من الهنود أتباع أغا خان، وبالقرب من مكان أجارتا.

ولكنني عثرت أيضاً على شيء آخر، شيء يتعلق بإعادة اكتشاف المعرفة الهيرمسية لقدماء الفراعنة، أثناء حكم الفاطميين، وذلك من خلال أكاديمية هيليوبوليس، حيث تم تأسيس بيت للعلوم. بيت العلوم! ثم من أين استوحى إذن بيكون فكرة بيت سليمان، وماذا كان نموذجه لبناء الكونسرفاتوار؟

قال بيلبو مخموراً: الأمر إذن هكذا، هكذا إذن! لا يوجد أدنى شك. وماذا إذن عن القباليين؟

ـ إنها مجرد قصة موازية. استنتج حاخامات أورشاليم أن شيئاً ما وقع بين فرسان المعبد والحشاشين، فأخذ حاخامات إسبانيا ينبشون حوله، متجولين في كل مكان بحجة إقراض المال بالربا في العواصم الأوروبية، ووصلوا إلى شيء. كانوا مستبعدين من السر، وفي حركة من حركات الكبرياء القومي، قرروا العمل بمفردهم. كيف يمكن أن نكون نحن، الشعب المختار، مستبعدين من سر الأسرار؟ فبدأ التقليد القبالي، والمحاولة البطولية من المشتتين والمهاجرين ليجعلوا السادة والحكام يصدقون أنهم يعرفون كل شيء.

ـ ولكنهم عندما فعلوا ذلك أعطوا للمسيحيين الانطباع بأنهم يعرفون كل شيء بالفعل.

ـ وفي لحظة ما ارتكب أحدهم الخطأ البشع بأن خلط بين الإسماعيليين والإسرائيليين.

ـ إذن فبارويل والبروتوكولات والهولوكست ليست إلا خطأ في بعض الحروف.

ـ تم اغتيال ستة ملايين من اليهود بسبب خطأ ارتكبه بيكو ديللا ميراندولا.

ـ ربما كان هناك سبب آخر. تولى الشعب المختار مهمة ترجمة الكتاب. وانتشر الهوس، وعندما لم يجد الآخرون أي شيء في الكتاب، قرروا الانتقام. الناس عادة تخاف ممن يجعلهم يواجهون القانون وجهًا لوجه. ولكن لماذا لم يظهر الحشاشون قبل ذلك؟

ـ يا بيلبو! تذكر كم كانت هذه المنطقة محبطة بعد حرب ليبانتو. لقد أدرك صديقك سيبوتندروف أن هناك شيئًا ما لابد من البحث عنه لدى الدراويش الأتراك، ولكن لم يعد هناك أثر لحصن ألموت، واختبأ من كان فيه في مكان لا يعرفه أحد. في حالة انتظار. والآن وقد حانت لحظتهم، فهم يرفعون رءوسهم من خلال جناح التحرير الإسلامي. بوضعنا هيتلر في الخطة استطعنا الحصول على تفسير منطقي للحرب العالمية الثانية. وبوضعنا حشاشين ألموت فيها أيضًا نفسر كل ما يحدث منذ أعوام في حوض البحر المتوسط والخليج الإيراني. وهنا نجد وضعًا للتريس Tres، تلك الجماعة التي تعيد أخيرًا تأسيس العلاقات بين الفروسية الروحية من الديانات المختلفة.

ـ أو التي تحث على الصراع وتستغل فرصة الاضطراب والفوضى. مرة أخرى قمنا بواجبنا في تصحيح التاريخ. هل يمكن أن يكشف البندول في اللحظة العظيمة أن مركز العالم يوجد في ألموت؟

ـ دعنا لا نبالغ. أفضل أن أترك تلك اللحظات الأخيرة معلقة.

ـ مثل البندول.

ـ إذا أردت. لا يمكننا أن نقول أي شيء يخطر لأذهاننا.

ـ لا لا، أهم شيء هو الدقة في البحث.

في ذلك المساء هنأت نفسي على اختراعي قصة رائعة. لقد كنت مثل الفنان الذي يستخدم أجساد العالم ودمائه ليخرج منه الجمال. ولكن أصبح بيلبو منذ تلك اللحظة أحد الأتباع. ومثلهم جميعًا، لم يحدث ذلك عن طريق اكتشاف حقيقي، بل لعدم وجود شيء أفضل.

(١٠٥)

تعرج العبقرية، بهذي اللسان، ويبتعد الذكاء

(Lucrezio, De rerum natura, III, 453)

لابد وأنه في تلك الأيام حاول بيلبو أن يدرك ما يحدث له. ولكن فعل ذلك دون أن تستطيع القسوة التي تمكن بها تحليل نفسه أن تنزع عنه الألم الذي اعتاد عليه.

اسم الملف: وإذا كان بالفعل؟

اختراع خطة: إن الخطة تبرر وجودك إلى حد أنك لست مسئولاً عن الخطة نفسها. يكفي لك إذن أن تلقي بالحجر وتختبئ. لن يكون هناك فشل إذا كانت توجد خطة بالفعل.

لم تستطع أن تفوز بشيشليا لأن الأرخونات التي صنعت أنيبالي كانتا لا ميسا وبيو بو واللذان لا موهبة لديهما لعزف أسهل الآلات النحاسية. وهربت من عصابة القناة لأن حاكمي الأرض الخفيين أرادوا الاحتفاظ بك حيًا لهولوكست آخر. والرجل ذو الندبة كان لديه تعويذة أقوى من تعويذتك.

الخطة تعني العثور على طرف مذنب. إنه حلم النوعيات. كبش الفداء. إذا كان له وجود فلابد أن الخطأ خطأه.

إن الشيء الذي فقدت عنوانه لم يكن النهاية، بل البداية. إنه ليس الشيء الذي لابد من امتلاكه بل الموضوع الذي استحوذ علي. إن البؤس يحب الصحبة. يحبها بالفعل.

من كتب تلك الفكرة، أكثر الأفكار تفاؤلا التي خطرت على بالي؟ لا يمكن لأي شيء أن ينزع من ذهني أن هذا العالم هو نتاج إله مظلم، والذي أنا امتداد لظلاله، والإيمان يقود إلى النزعة التفاؤلية المفرطة.

لقد ارتكبت الفحشاء بالفعل (وربما لا)، ولكن الإله هو من لم يستطع أن يحل مشكلة الشر. هيا بنا نربط الجنين في المطرقة وندهنه بالعسل والفلفل. الإله يرغب في ذلك.

إذا كان الإيمان شيئًا ضروريًا ليكن إذن من خلال ديانة لا تدفع المرء على الشعور بالذنب. ديانه بلا روابط، مشتعلة، أسفل الأرض وبلا نهاية. ديانة مثل الرواية، بعيدة عن اللاهوتية.

توجد خمس طرق للوصول للهدف. يالها من خسارة، من الأفضل أن تكون هناك متاهة تؤدي إلى كل مكان وإلي لا مكان. لكي يموت الإنسان بأناقة عليه أن يعيش بالأسلوب البا ,وك.

إن الديمورج الشرير فقط هو ما يجعلنا نشعر بصلاحنا.

ولكن، ماذا إذا لم تكن هناك خطة كونية؟

ياللخداع! أن يعيش المرء في المنفى دون أن يرسله أحد. بل وأن يتم نفيه من مكان لا وجود له في الأصل.

ولكن ماذا إذا كانت الخطة «موجودة وتخدعك إلى الأبد؟

عندما يتر قف الدين يسيطر الفن. تخترع عندئذ الخطة، مجاز عن ذلك الذي لا يمكن معرفته. مؤامرة إنسانية أيضًا يمكنها أن تملأ الفراغ. فهم لم ينشروا كتابي "قلوب عاشقة" لأنني لا أنتمي لعصبة فرسان المعبد.

الحياة وكأ ِ هناك خطة موجودة بالفعل: الحجر الفلسفي.

إذا لم يكن في إمكانك التغلب عليهم انضم إليهم. إذا كانت الخطة موجودة يكفي أن يتأقلم المرء مع وجودها...

إن لورينزا تجربني. التواضع. إذا كان لدي التواضع لاستدعى الملائكة، حتى وإن كنت لا أؤمن بذلك، وأن أرسم الدائرة الصحيحة، ربما كنت سأشعر بالسلام. ربما..

أن تصدق أنك تعرف سرًا ما، وبأنك خبير بالفعل. لا يكلف أي شيء.

أن يخلق المرء أملاً لا حد له، لا يمكن قط انتزاعه من جذوره، لأنه لا جذور له. لن يكون هناك وجود للأسلاف الذين يمكنهم أن يتهموك بالخيانة. ديانة يمكن للمرء أن يلتزم بها خائنًا لها إلى ما لا نهاية.

مثل أندريا: أن يخترع المرء، مازحًا، أعظم اكتشاف في التاريخ، وبينما الآخرون يضلون بسببه، تحلف إلى نهاية حياتك إنك لم تكن السبب في هذا.

أن تخلق حقيقة ذات أطر غير واضحة: وبمجرد أن يحاول أحدهم توضيحها تحرمه على الفور. وأن تبرر وتقبل فقط من هم أكثر منك غموضًا.

لماذا نكتب الروايات؟ نعيد كتابة التاريخ. ذلك التاريخ الذي يصبح بواسطتها حقيقة.

لماذا لا يكون السيد جوليلمو إس في الدانمارك؟ جيم جامع القنب، جوهان فالنتين أندريا لوكاماتيو يتجول في الأرخبيل لجزر السوندا بين باطموس وأفالون، من الجبل الأبيض إلى ميداناو، ومن أطلانطس إلى تسالونيكي...إلى مجلس نيقيا. يقطع أوريجانوس خصيتيه ويريهما نازفتين إلى آباء مدينة الشمس، وحيرام يسخر قائلاً: والابن والابن... بينما قسطنطين ينهش بأظافره الحادة حدقة عين روبرت فلود، الموت الموت ليهود أنطاكية، الرب وحقي، ويلوح بشعار فرسان المعبد. هاهو البوق سينطلق وهاهم الفرسان المباركون للمدينة المقدسة ورأس العربي معلقة على رأس رمحهم، الحجر الثمين! الأراجون المغناطيسي، يسقط البرج. وهاهو راكوفسكي ينتحب على الجسد المتفحم لجاك دي مولاي.

لم أحصل عليك، ولكن يمكنني أن أفجر التاريخ.

إذا كانت المشكلة هي غياب الوجود، وإذا كان ما هو كائن هو ما يُقال، إذن فكلما تكلمنا أكثر ازداد الوجود.

إن حلم العلم أن يكون الوجود أقل، مكثفًا ويمكن قوله: الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء. خطأ. لننح منذ البداية من الأبدية لابد وأن نرغب في وجود كائن لنعقده. مثلما يعقد البحار المخمور الثعبان: يكون من المستحيل فكه.

لابد إذن من الإبداع، من الإبداع على أكبر المستويات، دون الاهتمام بالروابط، حتى يصعب من المستحيل الاختصار. لعبة تتابع بسيطة بين الرموز، يقول كل واحد منها اسم ما يليه، بلا توقف. يتم تفكيك العالم بذلك في سربندة من الجناس المتسلسل. بعد ذلك يكون الإيمان بما لا يمكن التعبير عنه. أليست هذه القراءة الحقيقية للتوراة؟ إن الحقيقة هي جناس الجناس. والجناس يعني الفن الحقيقي.

لابد أن هذا هو ما حدث في تلك الأيام. قرر بيلبو أن يتعامل بجدية مع عالم عبدة الشيطان ليس بدافع المبالغة في الإيمان، ولكن بدافع عدم وجوده لديه على الإطلاق.

شعر بيلبو بالإحباط لعدم قدرته على الإبداع (حيث قضى حياته كلها وهو يحاول إنكار كل أمنياته التي تم تجاهلها على تلك الصفحات التي لم تُكتب قط، السابق منها مجاز للاحق والعكس صحيح، وكلها علامة على جبنه المزعوم، غير المحسوس) وأدرك أنه من خلال اختراعه للخطة التي أبدعها بالفعل سقط في حب الجوليم، وكان ينتزع منه سببًا لتعزيته. إن الحياة ـ حياته هو والإنسانية بصفة عامة ـ أصبحت كالفن، والفن كالتزييف. صُنع العالم ليؤدي إلى كتاب (زائف). لكنه الآن أراد أن يؤمن بهذا الكتاب الزائف، لأنه، كما كتب بنفسه، إذا كانت هناك خطة، لن يصبح هو جبانًا ومهزومًا وخجولاً.

ولكن هذا ما حدث في النهاية: لقد استخدم الخطة، والتي كان يعرف بأنها غير حقيقية، ليهزم خصم اعتقد في وجوده. بعد ذلك، عندما أدرك أن الخطة بدأت تتحكم فيه وكأنها موجودة، أو وكأنه هو، بيلبو، مصنوع من العجينة نفسها التي منها صُنعت الخطة، ذهب إلى باريس وكأنه متجه إلى كشف، إلى تحرير.

نظرًا لشعوره اليومي بالندم لأنه عاش لأعوام طويلة مع أشباح صنعها هو لنفسه، وجد الآن عزاءه بأن الأشباح أصبحت موضوعية، نظرًا لأنها معروفة أيضًا لآخرين، على الرغم من كونه هو العدو. هل ألقى بنفسه في عرين الأسد؟ أجل، لأن الأسد الذي بدأ في التشكل كان حقيقيًا أكثر من جيم جامع القنب، حقيقيًا أكثر من شيشيليا، وربما حقيقيًا أكثر من لورينزا بالليجريني نفسها.

شعر بيلبو الآن بأنه قادر على أن يمنح لنفسه ميعادًا حقيقيًا بعد كل المواعيد المماثلة التي أضاعها. ميعاد لن يستطيع الهروب منه لجبنه، لأنه ليس أمامه أي مهرب. أجبره الخوف على أن يتصرف بشجاعة. خلق مبدأ الحقيقة من خلال إبداعه.

(١٠٦)

القائمة رقم ٥

٦ قمصان داخلية، ٦ شورتات، ٦ مناديل، طالما حيرت الباحثين، والسبب الرئيسي لذلك هو الغياب التام للجوارب.

Woody Allen, The Metterling List, Getting Even, New York, Random House, 1966, p.8

أثناء تلك الفترة أيضًا، أقل من شهر مضى، قررت ليا أنني أحتاج إلى إجازة. قالت لي: تبدو متعبًا. ربما أنهكتني الخطة. ومن جهة أخرى، كان الطفل، كما قال جداه، يحتاج لبعض الهواء النقي. أعارنا بعض الأصدقاء منزلاً صغيرًا في الجبل.

لم نرحل على الفور. كانت هناك بعض الأعمال التي يجب الانتهاء منها في ميلانو، وقالت ليا: لا يوجد شيء يبعث على الاسترخاء أكثر من إجازة في المدينة، عندما يعلم المرء أنه على وشك الرحيل.

في تلك الأيام تحدثت للمرة الأولى مع ليا عن الخطة. لم يكن في الإمكان التحدث معها قبل ذلك نظرًا لانشغالها بالطفل. كانت تعرف، بإبهام، أن بيلبو وديوتالليفي وأنا نعمل على بعض الألغاز، وأنها تشغل أيامنا نهارًا وليلاً، ولكنني لم أقل لها أي شيء عنها منذ ذلك اليوم الذي ألقت علي عظة التشابهات. ربما كنت أشعر بالخجل.

في تلك الأيام قصصت عليها كل ما هو متعلق بالخطة، كل شيء بتفاصيله. كانت تعرف عن مرض ديوتالليفي وكنت أنا أشعر بالذنب، وكأنني فعلت شيئًا لم يكن يجب أن أفعله. كنت أحاول أن أقصه كما حدث تمامًا في نوع من ألعاب الشجاعة.

قالت لي ليا: بيم، لا تعجبني هذه القصة!

ـ أليست جميلة؟

ـ كانت النداهات أيضًا جميلات. استمع إلي: ماذا تعرف عن عقلنا الباطن؟

ـ لا شيء. أنا حتى غير متأكد أن لدي شيئًا كهذا.

ـ فلنتخيل إذن أن أحد صانعي الحيل في فيينا أراد أن يسعد أصدقاءه، فقرر أن يسليهم من خلال اختراع كل أحداث العقل اللاوعي وأوديب، واخترع أحلامًا لم تحدث له قط وشخصيات لم يقابلها قط. ماذا سيحدث بعد ذلك؟ ملايين من الأشخاص كانوا هناك منتظرين أن يصبحوا مرضى نفسيين، وآلاف الآخرون مستعدون للتربح من علاجهم.

ـ ليا، لديك عقدة الاضطهاد.

ـ أنا؟ بل أنت!

ـ ربما لدينا نحن الاثنين عقدة الاضطهاد، ولكن لابد أن تسمحي لي بها هذه المرة: لقد انطلقت من نص إينجولف. شيء طبيعي جدًا، إذا وجدت نفسك أمام رسالة لفرسان المعبد، ستشعرين، بالتأكيد، بالرغبة في أن تفكي شفرتها إلى النهاية. ربما تبالغين في ذلك أيضًا، لتسخري ممن يعملون في فك شفرات الرسائل. ولكن كانت هناك رسالة.

ـ على كل الأحوال أنت لا تعرف سوى ما أخبرك به أردنتي، والذي حسبما قصصته أنت علي كان محتالاً كبيرًا. ثم أنني أرغب في رؤية هذه الرسالة.

كان الأمر غاية في السهولة، فقد كانت الرسالة معي في ملفاتي.

أمسكت ليا بالورقة ونظرت إليها على الوجهين، جعدت أنفها، ورفعت قصتها من على عينيها لترى الجزء الأول بطريقة أفضل، ذلك الجزء المكتوب بالشفرة. ثم قالت: أهذا كل شيء؟

ـ ألا يكفي هذا؟

ـ يكفي ويزيد. أعطني يومين لأفكر.

عندما تطلب ليا يومين لتفكر في شيء يكون ذلك لإثبات غبائي. اتهمتها من قبل بذلك وكانت عادة ما تجيبني:

ـ إذا فهمت أنك غبي فهذا معناه أنني أحبك بالفعل. أحبك حتى وأنت غبي. ألا يشعرك هذا بالاطمئنان؟

لم نتحدث في الموضوع لمدة يومين، ومن جهة أخرى كانت هي تقريبًا خارج المنزل طوال الوقت، وفي المساء كنت أراها قابعة في أحد الأركان وهي تكتب ملحوظات، نازعة الأوراق ورقة وراء أخرى.

عندما وصلنا إلى الجبل، أخذ الطفل يلعب طوال اليوم على العشب، أعدت ليا العشاء وأمرتني بأن آكل لأنني أصبحت نحيفًا مثل الدرابزين. بعد العشاء، طلبت مني أن أعد لها كأس وسكي مضاعف به ثلج كثير وندعة صودا. أشعلت سيجارة، وهو الشيء الذي تفعله فقط في اللحظات المهمة، وطلبت مني أن أجلس ثم بدأت تشرح.

ـ اسمعني جيدًا يا بيم، لأنني سأثبت لك أن أبسط التفسيرات عادة هو الأفضل. قال لكم الكولونيل أردنتي إن إينجولف عثر على الرسالة في بروفان. أنا لا أشك في هذا على الإطلاق. أجل، نزل إينجولف داخل البئر وبالفعل وجد الصندوق والرسالة بداخله.

ثم ربتت على الأسطر الفرنسية بأصابعها:

ـ لم يقل لنا أحد أنه وجد صندوقًا مليئًا بالماس. كل ما قاله الكولونيل، إنه تبعًا لملحوظات إينجولف، تم بيع الصندوق. ولم لا؟ كان شيئًا أثريًا، وربما ربح من ورائه بعض المال، ولكن لم يقل لنا أحد أنه عاش على هذا الربح ما تبقى من حياته. لابد أنه كانت لديه بعض الأموال التي ورثها عن والده.

ـ ولماذا يكون ثمن الصندوق مبلغًا عاديًا؟

ـ لأن الرسالة ليست سوى قائمة المغسلة. هيا بنا نقرأها مرة أخرى

a la ... Saint Jean
36 p charrete de fein
6 ... entiers avec saiel
p ... les blancs mantiax
r ... s ... chevaliers de Pruins pour la ... j . nc
6 foiz 6 en 6 places
chascune foiz 20 a .... 120 a ....
iceste est l'ordonation
al donjon li premiers
it li secunz joste iceus qui ... pans
it al refuge
it a Nostre Dame de l'altre part de l'iau
it a l'ostel des popelicans
it a la pierre
3 foiz 6 avant la feste ... la Grant Pute.

ـ وماذا يعني هذا؟

ـ بحق السماء، ألم يخطر على بال أي منكم الاطلاع على كتيب سياحي، أو أي ملخص تاريخي عن بروفان؟ ستكشف على الفور أن Grange-aux- Dimes حيث كانت الرسالة، كان المكان الذي يجتمع فيه التجار، لأن بروفان كان مركز معارض الشمبانيا. وتقع الجرانج في شارع سان جون. وفي بروفان كانوا يتاجرون في كل شيء، ولكن كانت تجارة القماش رائجة جدًا، وقطع القماش بالفرنسية هي Draps أو Dras كما كانت تُكتب في ذلك الوقت، وكانت كل قطعة تُسلم بعلامة ضمان، نوع من الأختام. وكان المنتج الثاني في بروفان هو الورد، الورد الأحمر، الذي أحضره الصليبيون معهم من سوريا. وكان مشهورًا جدًا إلى درجة أن أدموند من لانكاستر تزوج بيانكا دارتوا، وحصل أيضًا على لقب كونت الشمبانيا، وضع وردة بروفان الحمراء في شعاره الحربي، وكان هذا هو السبب في حرب الورود، نظرًا لأن يورك كانت تستخدم في شعارها وردة بيضاء.

ـ ومن قال لك كل هذا؟

ـ كتيب من مائتي صفحة، حرره المكتب السياحي في بروفان، عثرت عليه في المركز الثقافي الفرنسي. ولكن الأمر لم ينته عند هذا. كانت في بروفان صخرة تُدعى الدونجون، والتي يفسرها اسمها، وكان هناك أيضًا ميناء Portes aux pains، وكنيسة اللجوء، وكانت توجد كما هو واضح عدة كنائس تحمل اسم سيدتنا، بألقاب مختلفة. كان يوجد أيضًا، أو مازالت توجد حتى الآن، شارع اسمه شارع الصخرة المستديرة، فيه توجد صخرة العشور، وكان يذهب إليها أتباع الكونت ليتركوا عشورهم. وشارع اسمه المعاطف البيضاء Blancs Manteaux، وشارع اسمه العاهرة العظيمة الموحية، لأسباب سأترك لك تخمينها، أو ببساطة لأنه كانت شارع للمواخير.

ـ وماذا عن البوبليكان؟

ـ كان يوجد بعض الكاثاريين في بروفان، أحرقوا فيما بعد، وكان المحقق الكبير أيضًا، روبرت لو بورج، من الكثاريين التائبين. إذن فمن الطبيعي أن يكون اسم أحد الشوارع أو المناطق، مكان الكثاريين، حتى وإن لم يعد هناك وجود لهم.

ـ ولكن في عام ١٣٤٤...

ـ من القائل إن الوثيقة يعود تاريخها إلى عام ١٣٤٤، قرأ صديقك الكولونيل عبارة "٣٦ عامًا بعد عربة القش"، ولكن في تلك الأيام كان حرف P مكتوبًا بطريقة معينة، وكأنه مزيل، يعني "بعد"، بينما حرف P غير المزيل يعني "قبل . إن كاتب هذا النص هو

مجرد تاجر عادي كتب بعض الملحوظات بشأن ما قام به من تجارة في الجرينج، أو بدقة أكثر في شارع القديس يوحنا ـ وليس في ليلة القديس يوحنا ـ وسجل فيها مبلغ ٣٦ سو، أو كراون أو أي اسم كانوا يطلقونة على العملة في ذلك الوقت، لكل عربة من عربات القش.

ـ وماذا عن المائة والعشرين عامًا؟

ـ من قال أي شيء عن الأعوام؟ عثر إينجولف على عبارة '120 a' .. ماذا يعني هنا حرف (a)؟ لقد بحثت في قائمة الاختصارات، ووجدت أنه لكتابة القطعة النقدية دنيير أو ديناريم كانوا يستخدمون علامات غريبة: علامة تشبه حرف دلتا، وأخرى تشبة "الثيتا"، دائرة مكسورة من ناحية الشمال. وإذا كتبتها بإهمال وباستعجال، مثل أي تاجر مشغول، يمكن لشخص متحمس مثل الكولونيل أردنتي أن يقرأها كحرف 'a'، نظرًا لأنه قرأ في مكان آخر قصة المائة والعشرون عامًا. وأنت تعرف أين يمكن أن يكون قد قرأ ذلك أفضل مني. يمكن أن يكون قرأ هذا في أي من كتب تاريخ الروزاكروتشي. الحقيقة هي أنه أراد أن يعثر على شيء يشبه عبارة post 120 annos patebo. ثم ماذا يفعل بعد ذلك؟ وجد حرفين it مكررة عدة مرات وقرأها هو على أنها iterum (بمعني مرة أخرى). ولكن كان اختصارIterum هوtim ، بينما كانت it تعني item، والتي تعني "مثل"، والتي في الواقع كانت تستخدم للتكرار في القوائم. إن تاجرنا هذا يحسب كم سيربح من الطلبات التي تلقاها، وهو يضع قائمة أيضًا للطلبات التي عليه تسليمها. فهو عليه تسليم باقة من ورود بروفان وهذا هو ما تعنيه عبارة ...chevaliers de Pruins' r... s. وحيثما قرأ الكولونيل كلمة vainjance (الانتقام) لأنه كان يفكر فقط في الفرسان، كانت الكلمة الصحيحة هي jonchée. كانت الورود مستخدمة ليتم منها تصنيع القبعات أو السجاجيد الوردية في أيام الاحتفالات. إليك إذن ما يجب أن تكون عليه رسالة بروفانس

في شارع (سان جون) القديس يوحنا

٣٦ سو لعربات القش

ستة أطوال جديدة من القماش المختوم

إلى شارع بلون مونتو (البلاطي البيضاء)

ورد الصليبيون لعمل باقة

ستة حزم من ستة وردات في الأماكن الست التالية

كل منها ثمنه ٢٠ دنيير، وبالتالي يكون المجموع ١٢٠ دنيير

وستكون بالترتيب التالي:

الأولى إلى الحصن

ثم الثانية إلى بورت أو بان

ثم الثالثة في كنيسة الملجأ

ثم إلى كنيسة نوتر دام، عبر النهر

ثم إلى المبنى القديم للكثاريين

ثم إلى الصخرة الدائرية

وثلاث حزم كل منها من ست وردات قبل العيد، في شارع العاهرات

ـ ربما أردن هن أيضًا، المسكينات، الاحتفال بيوم العيد بأن تصنعن لأنفسهن قبعات صغيرة من الورود.

قلت لها: يا إلهي! أعتقد أنك على حق.

ـ بالتأكيد أنا على حق. إنها قائمة المشتريات، أؤكد لك.

ـ انتظري قليلاً. ربما كانت هذه الرسالة بالفعل قائمة المشتريات، ولكن الرسالة الأولى كانت بالفعل رسالة مُشفرة، وتتحدث عن ستة وثلاثين خفيين.

ـ هذا حقيقي. لقد وصلت إلى حقيقة النص الفرنسي خلال ساعة، ولكن الرسالة الأخرى شغلت وقتي لمدة يومين. كان لابد لي من أن أدرس ترثيميوس، في المكتبتين الأمبروزيانا والتريفولزيانا، وأنت تعرف أمناء المكتبة هناك، قبل أن يسمحوا لك بأن تضع يديك على أي كتاب قديم، ينظرون لك وكأنك تخطط لأن تأكله. ولكن الرسالة الأولى أيضًا أمرها بسيط. كان لابد لك من اكتشاف هذا بنفسك. ولنبدأ من السؤال: هل أنت متأكد أن العبارة الفرنسية 'Les 36 inuisibles separez en six bandes'، مكتوبة بالفرنسية نفسها التي كانت تُستخدم في أيام تاجرنا؟ أجل؛ التعبير كان مستخدمًا في منشورات القرن السابع عشر، عندما ظهر الروزا كروتشي في باريس. ثم بدأتم تفكرون كما يفعل عبدة الشيطان أصدقائكم: إذا كانت الرسالة مشفرة تبعًا لطريقة ترثيميوس، هذا يعني أن تريثيميوس نقلها من فرسان المعبد، ونظرًا لأنها ذكرت عبارة كانت متداولة في دوائر الروزا كروتشي، معنى هذا إن الخطة المنسوبة إلى الروزا كروتشي ليست إلا

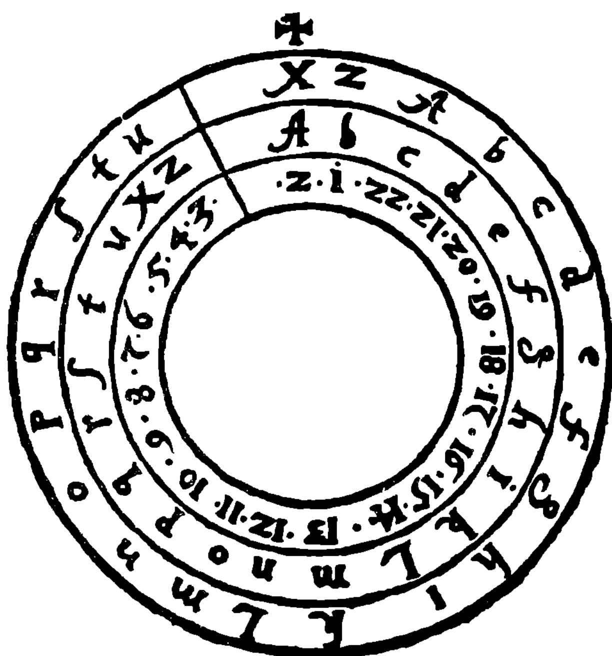
خطة فرسان المعبد. حاول أن تقلب الموضوع، كما سيفعل أي شخص متعقل: نظرًا لأن الرسالة مكتوبة بشفرة تريثميوس، فإنها كُتبت بالتأكيد بعد زمن تريثيميوس، ونظرًا لأنها تستخدم تعبيرًا كان متداولاً بين الروزا كرونشي في القرن السابع عشر، فلقد كُتبت بعد القرن السابع عشر. إذن، عند هذه النقطة، ما هو أبسط افتراض؟ إن إينجولف عثر على رسالة بروفان. ونظرًا لأن الكولونيل هو من المتحمسين للرسائل الهيرمسية. فهو يرى أرقام ستة وثلاثين ومائة وعشرين ويفكر على الفور في الروزا كروتشي. ونظرًا لأنه أيضًا من المتحمسين لعلم فك الشفرات، فهو يسلي نفسه ويضع رسالة بروفان أيضًا في شفرات، كنوع من التدريب. لذلك فهو يترجم عبارة الروزا كروتشي مستخدمًا نظام تريثيميوس لفك الشفرات.

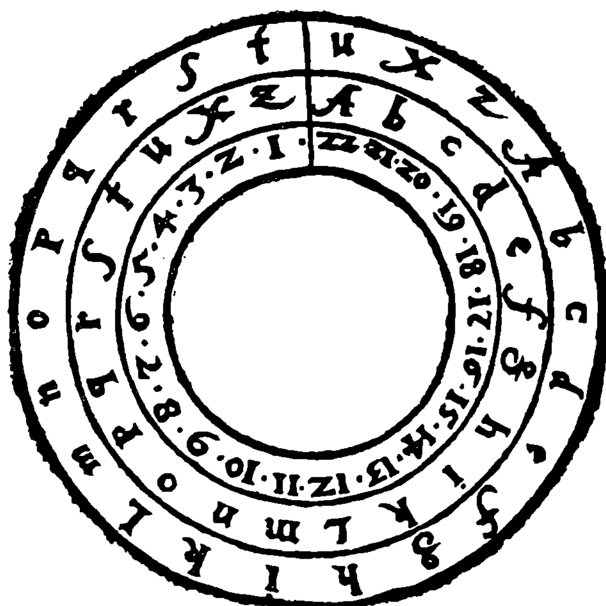
ـ تفسير عبقري. ولكنه يشبه في قيمته قيمة تفسير الكولونيل.

ـ ربما حتى الآن. ولكن افترض أنك تقوم بتخمين ما، ثم ثاني ثم ثالث، وكل منها تدعم الآخر. تكتسب عند هذا الحد الثقة بأنك في الطريق الصحيح، أليس كذلك؟ لقد بدأت بالشك في أن الكلمات التي استخدمها إينجولف ليست مأخوذة من تريثميوس. إنها بالفعل مكتوبة بالأسلوب القبالي الآشوري البابلي، ولكنها ليست نفسها. إلا أنه إذا أراد إينجولف أن يعثر على كلمات تبدأ بالحروف التي تهمه، كان سيعثر على كل ما يريده لدى تريثيميوس. لماذا لم يستخدم تلك الكلمات؟

ـ حسنًا لماذا إذن؟

ـ ربما كان يبحث عن حروف معينة في المكان الثاني والثالث والرابع أيضًا. ربما أراد إينجولف العبقري رسالة متعددة الشفرات: ربما أراد بأن يكون أكثر ذكاء من تريثيميوس. اقترح تريثيميوس أربعين من الأنظمة الكبرى لفك الشفرات: في أحد تلك الأنظمة، الحرف الأول فقط هو الذي يعني شيئًا، في نظام آخر الأول والثالث، في آخر أيضًا حرف بين كل حرفين، وهكذا، حتى، بقليل من الجهد، يمكنك أن تخترع مائة نظام آخر بمفردك. أما بالنسبة لأنظمة فك الشفرات الصغرى، أعطي الكولونيل اعتبارًا فقط للعجلة الأولى، والتي هي أسهل. إليك نسخة منها. تخيل أن الدائرة الداخلية متحركة، ويمكنك أن تلفها بحيث يلتقي الحرف 'A' مع أي حرف من الدائرة الخارجية. سيكون لديك نظام يُكتب فيه حرف 'A' مثل X، ونظام آخر يكتب فيه مثل U، وهكذا... وبوجود اثنين وعشرين حرفًا في كل دائرة، فيمكنك أن تنتج ليس مجرد عشر طرق لفك الشفرات بل واحد وعشرين. الثاني والعشرين ليس حلاً جيدًا لأن فيه سيصبح 'A' يقبل 'A' آخر.


X Z A b c d e f g h i k l m n o p q r s t u
A b c d e f g h i k l m n o p q r s t u X Z
·2·1·22·21·20·19·18·17·16·15·14·13·12·11·10·9·8·7·6·5·4·3·


u X Z A b c d e f g h i k l m n o p q r s t
A b c d e f g h i k l m n o p q r s t u X Z
22·21·20·19·18·17·16·15·14·13·12·11·10·9·8·7·6·5·4·3·2·1·

ـ لا تقولي لي إنك لأجل كل حرف من كل كلمة حاولتي الطرق الواحدة والعشرين كلها....

ـ إن لدي عقل، وكان الحظ أيضًا يحالفني. نظرًا لأن أقصر الكلمات تتكون كل منها من ستة أحرف، إذن من الواضح أن أول ستة حروف فقط هي المهمة، أما الباقي فموجود فقط لتجميل المنظر. لماذا ستة حروف؟ لقد تخيلت أن إينجولف قام فقط بفك شفرة الحرف الأول ثم ترك الثاني، ثم فك شفرة الثالث، ثم ترك اثنين وفك شفرة السادس. بالنسبة للحرف الأول استخدمت العجلة رقم واحد، وبالنسبة للحرف الثالث استخدمت العجلة الثانية، ووصلت إلى عبارة. ثم حاولت العجلة رقم ثلاثة للحرف السادس وحصلت على العبارة نفسها. لا أزعم أن إينجولف لم يجرب حروفًا أخرى أيضًا، ولكن بالنسبة لي ثلاث نتائج إيجابية كانت كافية. ولكنك إذا أردت يمكنك أن تجرب حروفًا أخرى.

ـ لا تتركيني هكذا! ماذا نتج عن تلك المحاولات؟

ـ انظر مرة أخرى إلى الرسالة، لقد وضعت خطوطًا على الحروف المهمة.

ـ نحن نعرف بالفعل الرسالة الأولى : إنها الرسالة الخاصة بالستة والثلاثين الخفيين. والآن انظر ماذا سينتج إذا بدلت الحرف الثالث، مستخدمًا العجلة الثانية: chamber des demoiselles، l'aiguille creuse (حجرة الآنسات، الإبرة المثقوبة)

ـ ولكنني أعلم هذا، إنها...

Aiguille Creuse. Sous le Fort du Fréfossé - La chamber des Demoiselles - En aval d'Etretat -

إنها الرسالة التي كتبها أرسين لوبين بالشفرة عندما اكتشف سر القمة المفرغة! أنت تتذكر بالتأكيد: في إيتريتات، على حافة الشاطئ تقف الإبرة المثقوبة، حصن طبيعي، يمكن السكنى بداخله، السلاح السري ليوليوس قيصر عندما غزا بلاد الغال، وبعد ذلك استخدمه ملوك فرنسا. إنه مصدر القوى الخارقة للوبين. وأنت تعرف كيف أن دارسي لوبين شغوفين بتلك القصة، إنهم يقومون برحلات للحج إلى أيتريتات، ويبحثون عن ممرات سرية، ويصنعون مجازات من كل كلمة من كلمات لوبلون... كان إينجولف أحد الدارسين للوبين، كما كان من عشاق الروزا كروتشي أيضًا، وبالتالي كان يلعب لعبة الشفرات الواحدة تلو الأخرى....

ـ إن أصدقائي من الشيطانيين سيعارضون أن فرسان المعبد لابد وقد عرفوا سر القمة، وبالتالي كتبت الرسالة في بروفان في القرن الرابع عشر...

ـ بالتأكيد! أنا أدرك هذا. ولكننا نجد أنفسنا الآن أمام الرسالة الثالثة. العجلة الثالثة مطبقة على الحرف السادس من كل كلمة. استمع إلى هذه العبارة: Merde j'en ai marre de cette steganographie، وهذه لغة فرنسية حديثة، ولا أعتقد أن فرسان المعبد كانوا يتحدثون بهذه الطريقة: اللعنة، لقد مللت من لعبة السحر هذه. ولكنها الطريقة التي كان يتحدث بها إينجولف نفسه، لقد تعب من محاولة فك شفرات كل هذا الهراء، فقام بركلة أخيرة لكل شيء لاعنًا، عن طريق رسالة مشفرة، كل ما كان يفعله. ولكنه كان أيضًا ذكي للغاية. انظر أن كل واحدة من الرسائل الثلاثة مكونة من ستة وثلاثين حرفًا. مسكين يا بيم! كان إينجولف يتسلى، مثلكم أنتم الثلاث، وأخذ الكولونيل الأحمق تسليته على محمل الجد.

ـ لماذا اختفى إينجولف إذن؟

ـ من قال إنه اغتيل؟ تعب إينجولف من الحياة في أوكسير حيث لا يرى أحد سوى الصيدلي وابنته الحائكة التي تنتحب طوال اليوم. ربما ذهب إلى باريس، وربح الكثير من النقود من خلال بيع أحد كتبه القديمة، وعثر لنفسه على أرملة جميلة ثرية تناسبه، وقرر أن يبدأ حياة جديدة. مثل أولئك الرجال الذين يخرجون ليبتاعوا علبة سجائر ولا يعودوا قط لزوجاتهم.

ـ وماذا عن الكولونيل؟

ـ ألم تقل لي إن حتى المفتش غير متأكد أنه تم اغتياله؟ ربما احتال على بعضهم وعندما عرف أن ضحاياه يبحثون عنه، أسرع بالهروب. ربما في هذه اللحظة التي نتحدث فيها الآن يحاول بيع برج إيفل لأحد السائحين الأمريكيين ويتنكر في اسم ديوبون.

لم أستطع الاستسلام على طول الخط: حسنًا! بدأنا إذن بقائمة المغسلة/المشتريات. إلا أننا كنا أذكياء بدرجة كافية لنحول تلك القائمة إلى عمل إبداعي.

إن الخطة ليست عملاً إبداعيًا، إنها ليست سوى عمل متنافر. لا يعود الناس إلى الوراء ليحرقوا طروادة لمجرد أنهم قرأوا هوميروس. مع هوميروس أصبح حريق طروادة كأنه شيء لم يكن ولن يكون، بينما استمرت الإلياذة، مليئة بالمعاني، لأنها كل ما فيها واضح وكل ما فيها رائق. إن إعلانات الروزا كروتشي التي تخصك ليست واضحة ولا

صافية بأي حال من الأحوال، لم تكن سوى تشهير ومحاولة نشر سر ما. إن خطتكم مليئة بالأسرار لأنها خطة مليئة بالمتناقضات. لهذا السبب يمكنك العثور على آلاف من الأشخاص مستعدين ليتماثلوا معها. ألقوا بكل شيء بعيداً. لم يكن هوميروس يتظاهر، أنتم كنتم تتظاهرون. احذروا من شر التظاهر: فالجميع سيصدقونكم. لم يصدق الناس سيمرليفايس، والذي قال للأطباء أن يغسلوا أيديهم قبل أن يلمسوا السيدات أثناء الوضع، كان يقول أشياء بسيطة جداً. يصدق الناس من يبيع زيت يساعد على إنبات الشعر من جديد. يشعرون بالغريزة أن هذا الشخص يضع حقائق ليست متناسقة معاً، وأنه لا يقول كلاماً منطقياً ولا يتحدث بأمانة. قيل لهم من قبل إن الإله غامض، فبالنسبة إليهم عدم الوضوح هو أقرب شيء إليه. الشيء البعيد المنال هو أقرب شيء للمعجزة. لقد اخترعت زيتاً ليعيد نمو الشعر، هذا لا يعجبني إنها لعبة شريرة.

لم يفسد هذا الاختلاف بيننا أسابيعنا في الجبل. قمت بتمشيات طويلة وقرأت كتباً أكثر جدية، واقتربت أكثر من الطفل. ولكن بقي شيء بيني وبينها معلقاً. من جهة وضعتني هي في ركن ضيق، وشعرت بالأسف لأنها تسببت في إحراجي، ولكن من جهة اخرى لم تكن مقتنعة بأنها أقنعتني.

في الواقع كنت أشعر بالحنين للخطة، لم أكن أرغب في أن أتخلى عن كل شيء، لقد تعايشت معها أكثر مما يجب.

منذ بضعة أيام استيقظت مبكراً جداً لآخذ القطار الوحيد المتجه إلى ميلانو. وفي ميلانو استقبلت مكالمة بيلبو من باريس، وبدأت الأحداث التي لم أنته من معاصرتها حتى الآن.

كانت ليا على حق. كان لابد أن أتحدث معها قبل هذا. لكنني لم أكن لأصدقها كما فعلت، لقد عشت ميلاد الخطة مثل لحظة التفرئيت، قلب جسد السفيروت، وتناغم القانون والحرية. قال لي ديوتاليفي إن موسى كوردوفيرو حذر قائلا: إن من يتعالى بسبب التوراة على من هو جاهل، أي على شعب يهوة كله، يقود تفرئيت أن يتعالى على ملكوت.

ولكن ما هو ملكوت، ملكوت الأرض، في بساطتها الساطعة، فهمت هذا الآن فقط، في اللحظة المناسبة لإدراك الحقيقة، ولكن ربما في وقت متأخر جداً للنجاة من الحقيقة.

ليا، لا أعرف إذا كنت سأراك مرة أخرى. إذا لم أرك، فإن آخر صورة لك في ذهني وأنت شبه نائمة، أسفل الأغطية، منذ بضعة أيام. لقد قبلتك في ذلك الصباح وترددت وأنا في طريقي للخروج.

(٧)

نيتسح

Nezah

(١٠٧)

ألا ترى هذا الكلب الأسود الذي يدور بين
البراعم وبين القصبات؟... يبدو لي أنه يبسط
حول أقدامنا روابط سحرية رقيقة.. بدأت
الدائرة تضيق... لقد اقترب منا.

(Faust, i, Without the City- Gate)

استطعت استنتاج ما حدث أثناء غيابي، وخاصة في الأيام الأخيرة قبل عودتي، فقط من ملفات بيلبو. لكن مجرد ملف واحد، الملف الأخير، كان واضحًا، ويحتوي على معلومات منظمة، ربما يكون قد كتبه قبل أن يسافر إلى باريس، بحيث أستطيع أنا، أو شخص ما، قراءته. الملفات الأخرى كانت مكتوبة له فقط، كالعادة، وكان من الصعب تفسيرها. ولكن نظرًا لأنني كنت دخلت عالمه الخاص لما يسر به لأبو العافية، استطعت ان أستنتج منها بعض الأشياء.

في بداية شهر يونيو، كان بيلبو متوترا. اقتنع الأطباء أخيرًا أنه هو وجودرون قريبا ديوتاليفي الوحيدان، وتحدثا معهما. عندما كان العاملون في الطباعة والمراجعة اللغوية يسألون عن ديوتاليفي، بدأت جودرون تُجيب بشفتين مضمومتين، وتنطق مقطعين بطريقة لا يهرب فيها حرف متحرك. وهكذا تنطق اسم المرض التابو.

كانت جودرون تذهب لتزور ديوتاليفي كل يوم. ولابد أنها كانت تتسبب في اضطرابه بعينيها المملوءة بالشفقة. كان يعلم، ولكنه كان محرج من معرفة الآخرين. كانت يتحدث بصعوبة. (كتب بيلبو: أصبح وجهه كله عظامًا) كان قد بدأ يفقد شعر رأسه، وكان ذلك بسبب العلاج. (كتب بيلبو: أصبحت يداه كلها أصابع).

في أثناء أحد حوارتهما المؤلمة، أشار ديوتاليفي لبيلبو لما كان يقوله له في اليوم الأخير: إن تماثل المرء مع الخطة شيئًا سيئًا، بل هو الشر نفسه. حتى قبل ذلك، بينما يعمل على جعل الخطة موضوعية ويعيدها مرة أخرى إلى بعدها الوظيفي الصرف، وكتب بيلبو هذا، كلمة تلو الأخرى، وكأنها ذكريات الكولونيل. قصها وكأنه تابع في العبادات السرية يخبر لمن سيقرأه السر الأخير. أعتقد أن ذلك كان بالنسبة إليه هو العلاج: كان يُعيد للأدب، على الرغم من شره، ما لا يمت لصلة بالحياة.

ولكن في العاشر من يونية لابد أن حدث شيء ما سبب له اضطرابه. كانت الملحوظات مضطربة؛ و كل ما أنقله هو الحدس.

سألته لورينزا أن يصحبها بالسيارة إلى الريفييرا، حيث أرادت أن تتقابل مع إحدى صديقتها وتأخذ منها شيء أو آخر، وثيقة ما، أو عقد ما، شيء لا معنى له كان يمكن إرساله بالبريد. وافق بيلبو تتلألأ أمامه فكرة قضاء يوم الأحد على الشاطئ معها.

وصلا إلى ذلك المكان، الذي لم أفهم بالتحديد أين كان، ربما بالقرب من بورتو فينو. كان وصف بيلبو مليئا بالانفعالات، والتوترات، والرفض ومزاجات مختلفة، ولا يحتوي على أي وصف للمكان. ذهبت لورينزا إلى ميعادها وانتظرها بيلبو في مقهى. ثم قالت إنهما يمكنهما! الذهاب لأكل السمك في مكان جذاب عال مرتفع عن البحر.

بعد ذلك أصبحت القصة مجزأة. استنتجتها من أجزاء صغيرة من حوار دونه بيلبو دون تنصيص، وكأنه يحاول أن يصفه في حرارته دون أن يدع سلسلة من الاكتشافات تخبو. ذهبا بالسيارة إلى حيث كان يمكنهما ذلك، ثم استكملا سيرا على الأقدام بين مدقات ليجورية بطوال الساحل، تحيط بها الزهور، ووصلا إلى المطعم. بمجرد أن جلسا، وعلى المائدة المجاورة لهما كانت هناك بطاقة تحجز المائدة المجاورة لهما للدكتور آلييه.

لابد أن بيلبو قال: يالها من مصادفة، وأجابته لورينزا مصادفة سيئة، لم تكن ترغب أن يعرف آلييه أنها موجودة، ومع بيلبو أيضًا. لم لا، ماذا يعيب هذا؟ وماذا أعطى آلييه الحق في أن يشعر بالغيرة؟ أي حق؟ لا، الأمر لا يتعدى الذوق، فلقد دعاها آلييه لتخرج معه اليوم ولكنها أخبرته بأنها مشغولة. ولا أريد أن أبدو كاذبة. لست كاذبة، لقد كنت بالفعل مشغولة معي، هل هذا شيء يبعث على الخجل؟ بالطبع لا، ولكن اسمح لي بأن تكون لي قواعد اللياقة الخاصة بي.

تركا المطعم، وبدءا في طريق العودة عن طريق المدق. ولكن فجأة توقفت لورينزا، فلقد رأت أشخاصًا لا يعرفهم بيلبو، ولكنهم حسبما قالت، أصدقاء آلييه، ولا تريدهم أن يرونها. كان الموقف المهين: استندت هي على قضبان جسر صغير على قمة واد مليء بأشجار الزيتون. تغطي وجهها بالجريدة، كأنها تتشوق لمعرفة ما يحدث في العالم، بينما هو على بعد عشر خطوات منها يُدخن سيجارة، كأنه مر من ذلك المكان بالصدفة.

ومر أصدقاء آلييه، فقالت لورينزا إنه بالسير في الممر سنتقابل مع آلييه، الذي بالتأكيد على وشك الوصول. قال بيلبو وماذا عن ذلك؟ ولماذا الاهتمام؟ فقالت له لورينزا بأنه ليس لديه أي مشاعر. وكان الحل هو الوصول إلى مكان السيارة متجنبين المدق، سائرين وسط المنحدرات. كانت عملية هروب تقطع الأنفاس بين العديد من الشرفات التي تضربها الشمس، وكُسر كعب حذاء بيلبو. وكانت لورينزا تقول: ألا ترى أن السير من هنا أجمل؟ بالتأكيد انقطعت أنفاسك، يجب أن تكف عن التدخين.

وصلا إلى السيارة وقال بيلبو إنه من الأفضل العودة إلى ميلانو. قالت لورينزا لا، ربما يكون آلييه متأخرًا عن ميعاده فنصطدم به على الطريق السريع وهو يعرف سيارتك، ثم انظر كم هو يوم جميل، فلنتخذ الطريق الداخلي، لابد من أنه ممتع، ونصل إلى الطريق السريع من سولي، ونتعشى في مكان ما بجوار البو، بجوار بافيا.

لماذا هناك؟ وماذا تقصدين بالسير في الطريق الداخلي، ولماذا نذهب إلى بافيا؟ الحل الوحيد هو أن ننظر إلى الخريطة، لابد لنا من تسلق الجبال بعد أوشو، ثم كل الطريق بجوار الأبنيني، ثم نتوقف في بوبيو، ومن هناك سنصل إلى بافيا. هل أنت مجنونة، إن هذا أسوأ مما فعله أنيبالي مع الأفيال. قالت هي: ليس لديك روح المغامرة، ثم تخيل كم من المطاعم الجميلة يمكننا العثور عليها فوق تلك الهضاب. قبل أوشو يوجد مطعم مانويلينا، مطعم ١٢ نجمة كما هو مكتوب في دليل ميشيللين، سنجد كل ما نرغب فيه من الأسماك.

كان مطعم مانويلينا مليئًا بالإضافة إلى صف من الزبائن يترقب الموائد التي بدأ روادها يحتسون القهوة. قالت لورينزا لا يهم، فلنصعد بضعة كيلومترات أخرى حيث يوجد مائة مطعم آخر أفضل من هذا. وفي الثانية والنصف عثرا على مطعم في قرية مهملة، والتي قال عنها بيلبو، حتى الخرائط العسكرية خجلت من تسجيلها، وهناك أكلوا المكرونة باللحمة المفرومة. أخذ بيلبو يسألها ما وراء كل هذا، لأنها بالتأكيد ليست مصادفة أن تجعله يصحبها إلى المكان المتواجد فيه آلييه، بالتأكيد كانت تريد استثارة أحدهما، ولم يستطع أن يفهم أي منهما، وسألته هي إذا كانت لديه عقدة اضطهاد.

بعد الغذاء في أوشو، حاولا تجريب طريق آخر، وأثناء عبورهما قرية صغيرة، والتي كانت تبدو وكأنها مكان في صقلية في وقت العصر، وفي زمن البوربونيين، توقف كلب أسود ضخم تمامًا في منتصف الطريق وكأنه لم ير سيارة قط من قبل. صدمه بيلبو

بالصدامات الأمامية، كانت تبدو صدمة بسيطة ولكنهما بمجرد نزولهما من السيارة، أدركا أن بطن الحيوان المسكين تغطيها الدماء، وبها شيء لونه وردي اللون بارز للخارج (أمعائه؟) وكان يعوي مخرجًا الزبد من فمه. أدرك بعض سكان القرية ما حدث، وتكون نوع من التجمع الشعبي. سأل بيلبو من هو صاحب الكلب ليدفع التعويض، ولكن لم يكن للكلب صاحب. وربما كان يمثل ١٢٪ من سكان ذلك المكان المهجور، ولكن لا أحد منهم يعرف من أين أتى أيضًا على الرغم من أنهم يعرفونه شكلاً. قال أحدهم إنه لابد من العثور على قائد العساكر الذي يمكنه أن يعدمه رميًا برصاصة لإراحته من عذابه.

وبينما هم يبحثون عن القائد وصلت سيدة، أعلنت أنها محبة للحيوانات. وقالت لدي ست قطط. قال بيلبو: وما دخل هذا، نحن أمام كلب يحتضر، وأنا على عجلة من أمري. قالت السيدة: كلب أم قطة لا فارق، لابد من أن يكون لدى البشر بعض الرحمة، لا حاجة للقائد، لابد من البحث عن أحد المسئولين عن حماية الحيوانات، أو من مستشفى القرية المجاورة، ربما يمكن إنقاذ الحيوان المسكين.

كانت الشمس تضرب بيلبو ولورينزا، السيارة والكلب والمتجمعين حولهم، ولم تغرب قط، وكان لدى بيلبو الانطباع بأنه في حلم لا يستطيع الاستيقاظ منه، كانت السيدة محبة الحيوانات لا تتزعزع، لا أثر للقائد، مازال الكلب ينزف ويئن بصوت ضعيف. قال بيلبو: إنه يئن. فقالت السيدة: بالتأكيد، بكل تأكيد، إنه متألم، المسكين، وأنت أيضًا ألم يكن في إمكانك الانتباه؟ بدأت القرية بالتدريج في الانفجار السكاني، وأصبح بيلبو ولورينزا والكلب العرض الشيق لذلك الأحد التعس. اقتربت فتاة ممسكة بالبوظة في يدها وسألت إذا كان المسئولون في التليفزيون القائمون على تنظيم مسابقة ملكة جمال الأبينيني، طلب منها بيلبو أن ترحل سريعًا وإلا سيفعل بها كما فعل بالكلب، وبدأت الفتاة في البكاء. وصل الطبيب المحلي قائلاً إن الطفلة ابنته، ولم يكن بيلبو يعرف من هو. بدأ تبادل الاعتذرات والتعارف، واتضح أن الطبيب كان قد نشر "يوميات طبيب قرية" لدى دار نشر مانوتزيو الشهيرة في ميلانو. وسقط بيلبو في الفخ وأفصح أنه أهم المحررين في مانوتزيو، والآن يريد الطبيب أن يمكثا معه هو ولورينزا للعشاء. جن جنون لورينزا التي لكزت بيلبو بكوعها في أضلاعه، وهكذا تنتهي أخبارنا على صفحات الجرائد: عاشقين من عبدة الشيطان. ألم تكن تستطيع التزام الصمت؟

كانت الشمس لا تزال ساطعة وجرس الكنيسة يدق معلنًا عن الصلاة الأخيرة في اليوم (علق بيلبو في حنق: يبدو أننا في ثول الأخيرة، الشمس ساطعة لمدة ستة أشهر، من منتصف الليل إلى منتصف الليل، وانتهت سجائري أيضًا)، اكتفى الكلب بالتألم ولم يعد يصدر أصواتًا، ولم يعد أحد يلتفت إليه. قالت لورينزا أنها تشعر بضيق في التنفس، وكان بيلبو في هذه اللحظة واثقا تمامًا أن هذا الكون ما هو إلا خطأ ارتكبه الديميورج (خالق الكون المادي). في النهاية واتته فكرة أنهما يمكنهما الذهاب بالسيارة إلى أقرب قرية للبحث عن نجدة. وافقت السيدة محبة الحيوان، ولكن ليسرعوا بالعودة، فهي تثق في شخص يعمل في دار نشر تنشر الشعر، فهي تحب الشعراء.

رحل بيلبو، واجتاز بلا مبالاة أقرب المراكز دون أن يتوقف، وأخذت لورينزا تلعن كل الحيوانات والتي ملأ بها الإله الأرض من اليوم الأول إلى اليوم الخامس، وكان بيلبو يوافقها ولكنه استكمل لينتقد أيضًا عمل اليوم السادس وربما أيضًا راحة اليوم السابع، لأنه كان يشعر بأنه عاش أكثر يوم أحد تعسًا في حياته.

بدءا في عبور الأبنيني. ولكن بينما بدا الأمر سهلاً على الخريطة، استغرقهم الأمر ساعات طويلة، صعدا بوبيو، وفي المساء وصلا إلى بياتشينزا. كان بيلبو يشعر بالتعب، كان يرغب في الجلوس مع لورينزا على الأقل على العشاء، وحجز حجرة مزدوجة في الفندق الوحيد الذي وجد به حجرات فارغة، بجوار المحطة. وبمجرد أن صعدا إلى الحجرة قالت لورينزا إنها من المستحيل أن تنام في غرفة كهذه. قال بيلبو إنه سيذهب للبحث عن شيء آخر، وأن تمنحه فقط بعض الوقت لينزل إلى البار ويشرب بعض المارتيني. لم يجد سوى كونياك صناعة محلية، وعندما عاد إلى الحجرة، لم يجد لورينزا. ذهب ليسأل في مكتب الاستقبال، ووجد أنها تركت له رسالة "حبيبي، اكتشفت قطارًا رائعًا متجها إلى ميلانو. سأرحل، أراك خلال الأسبوع.

هرع بيلبو إلى محطة القطار وكان الرصيف فارغًا الآن، مثل أحد أفلام رعاة البقر.

قضى بيلبو ليلته في بياتشينزا. بحث عن رواية بوليسية، ولكن حتى منفذ بيع الجرائد في المحطة كان مغلقًا. لم يجد في الفندق إلا إحدى المجلات السياحية.

لحظه التعس كانت بالمجلة متابعة للطريق الذي كان عبره لتوه في الأبينيني. وحسبما يتذكر ـ وكأن هذا الأمر حدث له منذ فترة طويلة ـ كان طريقًا قاحلاً، تحرقه

الشمس، ومتربًا، تنتشر فيه حطام معدنية. ولكن على الصفحات اللامعة للمجلة كان طريق الحلم، ولابد من العودة إليه حتى وإن كان سيرًا على الأقدام والاستمتاع به خطوة تلو الأخرى. بنات سموا لجيم ديللا كانابا.

كيف يمكن لإنسان أن يلقي بنفسه في الهلاك فقط لأنه صدم كلب بسيارته؟ إلا أن هذا ما حدث بالفعل. في تلك الليلة في بياتشنزا قرر بيلبو أنه إذا عاد مرة أخرى ليعيش في الخطة لن يتعرض لمزيد من الهزائم، لأنه في ذلك الإطار يمكنه هو أن يقرر من، وكيف ومتى؟

لابد أنه في تلك الليلة أيضًا قرر الانتقام من آلييه حتى وإن لم يكن يعرف جيدًا كيف، ولماذا. خطط أن يُدخل آلييه إلى الخطة، دون أن يعرف هذا. من جهة أخرى، وكما هي طبيعة بيلبو، كان يبحث عن خطط انتقامية يكون هو فقط الشاهد عليها. ليس بدافع الخجل، ولكن خوفًا من شهادة الآخرين. مجرد إدخال آلييه إلى الخطة سيختفي آلييه، سيتبخر مثل دخان الشمعة. سيصبح غير واقعي، مثل فرسان معبد بروفان، والروزا كروتشي وبيلبو نفسه.

فكر بيلبو: لن يكون الأمر صعبًا. لقد استطعنا أن نصنع بيكون ونابليون بالمقياس الذي أردناه، لماذا يصعب الأمر بالنسبة لآلييه؟ لنرسله هو أيضًا بحثًا عن الخريطة. لقد تحررت بالفعل من أردنتي ومن ذكراه واضعًا إياه في وظيفة أفضل من حقيقته. سيحدث الشيء أيضًا مع آلييه.

أعتقد أنه كان يصدق ما يقوله بالفعل، كانت، حتمًا، قوة الرغبة المكبوتة. وانتهى ملفه، لابد أن هذا هو ما حدث، وصحب ذلك العبارة الشهيرة الضرورية لكل من هزمتهم الحياة: ألست أنا الخالق؟

(١٠٨)

ما هو التأثير الخفي وراء الصحافة، ووراء كل تلك الحركات الهدامة التي تحيط بنا؟ هل توجد أكثر من قوة عاملة؟ أم مجرد قوة واحدة، مجموعة واحدة خفية تقود الجميع- تلك الدائرة من الخبراء الخفيين؟

(Nesta Webster, Secret Societies and Subversive movements, London, Boswell, 1924, p. 348)

ربما كان يمكنه أن ينسى قراره، ربما كان يكتفي بتدوينه. ربما كان سيكون كافيًا أن يرى لورينزا على الفور، فيستعيد مرة أخرى الرغبة، وكانت الرغبة ستجبره أن يخضع لشروط الحياة. ولكن العكس هو ما حدث تمامًا، ففي يوم الاثنين التالي، وفي الظهيرة، زاره آلييه في المكتب، تفوح منه رائحة عطر غريب، مبتسمًا وسلمه بعض المخطوطات التي لم تعجبه، قائلاً إنه قرأها أثناء إجازة نهاية أسبوع رائعة في الريفييرا. شعر بيلبو مرة أخرى بالحقد، وقرر أن يسخر من آلييه، وأن يمنحه لمحة من الحجر الساحر.

وهكذا، وعلى طريقة بوفالماكو (كما وصفه بوكاتشو)، تركه يفهم أنه منذ حوالي عشرة أعوام يثقل عليه أحد أسرار العبادات السرية. مخطوطة كان قد قدمها له شخص يُدعى الكولونيل أردنتي، والذي كان يقول إن لديه خطة فرسان المعبد... ثم خطف الكولونيل أو اغتيل من شخص استولى على أوراقه. ولم يترك الكولونيل في الجاراموند سوى نص مخادع، به أخطاء متعمدة، متخيلة، نصًا كانت وظيفته هي أن يُعلن أنه وضع يديه على رسالة بروفان، وعلى الملحوظات الأخيرة لإينجولف، ما كان يبحث عنه قاتلوه. لكن كان يوجد ملف آخر رفيع للغاية، مكون فقط من عشر صفحات، تلك الصفحات كانت النص الأصلي، تلك التي عثر عليها وسط أوراق إينجولف، وظلت بين يدي بيلبو.

كان رد فعل آلييه: يالها من قصة غريبة، قل لي، قل لي كل شيء.

وقال له بيلبو. قال له كل شيء عن الخطة، تمامًا كما تصورناها، وكأن كل شيء كان مكتوبًا في تلك الوثائق البعيدة، بل وقال له، بنبرة حذرة وتشوبها السرية، إن هناك مفتش مباحث، شخص يُدعى دي أنجيليس، وصل تقريبًا إلى حافة الحقيقة، ولكنه

اصطدم بصمته الهيرمسي ـ لا توجد طريقة أخرى لوصفه ـ صمت بيلبو نفسه، حارس أكبر سر للإنسانية. سر يصل في النهاية إلى سر الخريطة.

وعندئذ صمت لبرهة، مليئة بالأقوال المسكوت عنها، مثل كل الوقفات العظيمة. كأن تكتمه على الحقيقة النهائية يضمن حقيقة مقدمته عنها. لا شيء أسمى من الصمت ـ كان يفكر ـ لأولئك الذين يصدقون في التراث السري.

قال آلييه وهو يأخذ صندوق النشوق من صديريته، ولكن أفكاره في مكان آخر: يا له من شيء مثير، مثير جدًا، وماذا ....ماذا عن الخريطة؟

فكر بيلبو: أيها الفضولي الشيخ، ها قد بدأت في إثارتك بالفعل، تستحق كل ذلك. على الرغم من كل محاولاتك للتمثل بسان جيرمانو، لست سوى محتال مسكين تعيش على لعبة الثلاث ورقات، ثم تشتري الكولوسيو ممن هو أكثر احتيالاً منك. الآن سأرسلك لتبحث عن الخرائط، وهكذا تختفي في أحشاء الأرض، تعصف بك الرياح ثم تذهب لتضرب رأسك في القطب الجنوبي في بعض الصمامات الكلتية.

أجابه، بطريقة مليئة بالحذر: بالطبع كانت الخريطة موجودة مع المخطوطة، أو للدقة، وصفها التفصيلي، والإشارة إلى الخريطة الأصلية. الشيء المدهش، أنك لا يمكن أن تتخيل سهولة حل المشكلة. كانت الخريطة في متناول الجميع، أي شخص يمكنه أن يراها، آلاف من الأشخاص يمرون عليها كل يوم، لقرون عديدة. ومن جهة أخرى، نظام التوجيه بدائي للغاية يكفي لتنفيذه حفظ التصميم، ويمكن إعادة إنتاج الخريطة في أي مكان، في فترة وجيزة. الأمر بالفعل غاية في البساطة، وفي الوقت نفسه لا يمكن تخيله... فلتتخيل ـ أقول هذا فقط لأقرب الفكرة ـ شيء مثل أن نقول الخريطة مكتوبة في هرم خوفو، معروضة أمام أعين الجميع، وأن الجميع لقرون عديدة قرأوا، وأعادوا قرأة، بل وفكوا شفرات الهرم ليعثروا على إحالات أخرى، وحسابات أخرى، دون أن يصلوا لتخمين ما لا يمكن تصديقه، بساطة متناهية. عمل عظيم من البراءة. كان فرسان معبد بروفان، بالتأكيد، من السحرة.

ـ إنك تثير فضولي بالفعل. ألن تدعني أطلع عليها؟

ـ أعترف لك بأنني دمرت كل شيء. الصفحات العشر والخريطة. كنت أشعر بالفزع، أنت تفهم ذلك، أليس كذلك؟

ـ لا تقل لي بأنك دمرت وثيقة على هذا القدر من الأهمية؟

ـ لقد دمرتها بالفعل، ولكنني قلت لك بأن الكشف كان في غاية البساطة، فالخريطة موجودة هنا ـ ولمس جبهته ـ إنني أحمل ذلك السر هنا لمدة أكثر من عشر سنوات، منذ أكثر من عشر سنوات أحمل الخريطة هنا ـ ولمس مرة أخرى جبهته ـ إنه شيء يستحوذ عليك، وشعرت بالفزع من القوة التي يمكنني أن أحصل عليها إذا قررت فقط أن أتولى ميراث الستة والثلاثين الخفيين. الآن يمكنك أن تفهم لماذا أقنعت جاراموند بأن ينشر سلسلة الكشف عن إيزيس وتاريخ السحر. إنني في انتظار الاتصال المناسبة.

ثم استكمل وهو مندمج في الدور الذي بدأه، ليُدخل آلييه تمامًا في التجربة، تلي عليه، حرفيًا، الكلمات الرنانة التي نطقها آرسين لوبين أمام بوتريليه في نهاية ثقب الإبرة: في بعض الأحيان تتسبب لي قدرتي في دوران عقلي. فتسكرني القوة والسلطة.

قال آلييه: هيا يا صديقي العزيز. وإذا كان الأمر لا يتعدى كونك قد وضعت ثقة زائدة في خيالات أحد المتحمسين؟ هل أنت متأكد من أن الوثيقة أصلية بالفعل؟ لماذا لا تثق في خبرتي في هذا المجال؟ هل تعلم كم كشف مثل هذا قابلته في حياتي، واستطعت بأن يكون لي الفضل في إثبات عدم صلاحيتها. إنني أفتخر بأن لدي بعض القدرات، ربما المتواضعة، ولكنها دقيقة بالتأكيد، في مجال الخرائط التراثية.

قال بيلبو: دكتور آلييه، أنت أول من يذكرني أن السر الغامض، بمجرد كشفه، لا يصبح له أي استخدام. لقد التزمت الصمت لأعوام ويمكنني أن أستمر لفترة أخرى.

ثم صمت. وصمت آلييه أيضًا، سواء عن اقتناع أم لا، إلا أنه أدى دوره كما ينبغي. لقد قضى حياته يسلي نفسه بأسرار لا يمكن التغلغل إلى أعماقها، لذلك اقتنع تمامًا أن شفتي بيلبو ستُغلق إلى الأبد.

عندئذ دخلت جودرون وأعلنت أن الميعاد في بولونيا قد تحدد ليوم الأربعاء في منتصف النهار. وأضافت: ويمكنك أن تأخذ إكسبريس الانتقالات الأوروبية، TEE، في الصباح.

ـ قطار بديع ـ قال آلييه ـ ولكن لابد من الحجز المسبق، وخاصة في هذا الموسم.

قال بيلبو إنه حتى بالصعود في اللحظات الأخيرة يمكن للمرء العثور على مكان، ربما في مقصورة المطعم، حيث يتم تناول الإفطار أيضًا.

قال آلييه: أتمنى لك هذا. جميلة بولونيا، ولكنها شديدة الحرارة في شهر يونيو.

سأمكث فيها فقط من ساعتين إلى ثلاث ساعات. لابد أن أناقش نصًا عن الكتابة القديمة. هناك بعض المشكلات الخاصة بالرسوم التوضيحية.

ثم انطلق: ليست إجازتي بعد، سأخذها في فترة انقلاب الشمس في الصيف. ربما أقرر أن أقوم... تفهم ما أقصده بالطبع. وأثق في إمكاناتك في حفظ السر بالطبع. لقد تحدثت معك كصديق.

ـ أعرف كيف ألتزم الصمت أفضل من سيادتك. أشكرك بالفعل على ثقتك.

قال آلييه هذا وانصرف. خرج بيلبو سعيدًا بعد هذا اللقاء. يملأه الشعور بالانتصار في قص روايته التنجيمية حول البؤس والعار في الأرض.

في اليوم التالي تلقى مكالمة هاتفية من آلييه: اعذرني يا صديقي العزيز. فأنا في مشكلة صغيرة. أنت تعرف أنني أعمل في تجارتي المتواضعة للكتب القديمة. ستصل لي الليلة من باريس حوالي دستة من المجلدات الخاصة بالقرن الثامن عشر، ذات قيمة غالية الثمن، والتي يجب أن أرسلها إلى مراسلي في فلورنسا في الغد. كان لابد أن آخذها له بنفسي ولكن شغلني التزام آخر. فكرت في حل، لابد لك من الذهاب إلى بولونيا، سأنتظرك غدًا في القطار، عشر دقائق قبل ميعاد رحيله، سأسلم لك الحقيبة الصغيرة، تضعها أنت في مكان الحقائب، وأتركها كما هي في بولونيا، ربما يكون من الأفضل أن تنزل الأخير، حتى لا يأخذها أحد في طريقه للنزول. وفي فلورنسا سيأتي مندوبي ويصعد أثناء توقف القطار ويأخذها. أعرف أنه شيء مزعج، ولكن إذا استطعت أن تقدم لي هذه الخدمة سأكون مدينًا لك إلى الأبد.

أجابه بيلبو: بكل سرور. ولكن سيتمكن صديقك في فلورنسا أن يعرف أين تركت الحقيبة؟

ـ لقد سمحت لنفسي أن أحجز لك مكانًا، مكان ٤٥، عربة ٨. حجزت المكان إلى روما، هكذا لا يصعد أحد من بولونيا أو من فلورنسا ليشغله. هل رأيت، في مقابل الإزعاج الذي سأتسبب فيه لك، أقدم لك إمكانية أن تسافر جالسًا، دون أن تضطر

المكوث في عربة المطعم. لم أرغب في أن أدفع ثمن التذكرة أيضًا، حتى لا تعتقد أنني أرغب في أن أرد الجميل بطريقة لا ذوق فيها.

سيد محترم بالفعل ـ فكر بيلبو في نفسه ـ سيرسل لي صندوقًا من النبيذ الفاخر، لأشربه في صحته. بالأمس كنت أحاول أن أخفيه من الوجود واليوم سأقدم له صنيعًا. صبرًا، لم أكن أستطيع أن أرفض طلبه.

في صباح يوم الأربعاء كان بيلبو في المحطة تمامًا في الميعاد، ابتاع التذكرة إلى بولونيا، ووجد آلييه بجوار العربة الثامنة، ومعه الحقيبة. كانت ثقيلة ولكنها لم تكن منتفخة.

وضع بيلبو الحقيبة فوق المكان رقم ٤٥، وجلس ومعه رزمة من الصحف. كان خبر ذلك اليوم هو جنازة برلينجر. بعد قليل دخل رجل ملتحٍ ليشغل المقعد المجاور له. كان يبدو لبيلبو أنه رآه من قبل (وجاءه شعور داخلي أنه ربما يكون قد رآه في حفل بيومنتي، ولكنه لم يكن متأكدًا). وفي لحظة الرحيل كانت المقصورة ممتلئة.

كان بيلبو يقرأ الصحيفة، ولكن كان الراكب ذو اللحية يحاول أن يتحدث مع الجميع. بدأ بملحوظته عن حرارة الجو، وحول ضعف نظام التبريد في القطار، وحول واقع صعوبة أن يعرف المرء في شهر يونية إذا كان لابد أن يرتدي ملابس صيفية أم مناسبة لفترة بين الفصلين. وأبدى رأيه أن أفضل شيء هو أن يرتدي المرء السترة الخفيفة، تمامًا مثلما يرتدي بيلبو، وسأل إذا كان إنجليزيًا. فأجاب بيلبو إنه إنجليزي من أزياء بيربري، وعاد ليستأنف القراءة. قال المتحدث: إنه من أفضل الأنواع، ولكنه جميل خاصة لعدم وجود تلك الأزرار الذهبية الصاخبة، وإذا سمحت لي لونه يتناسب كثيرًا مع لون رباط العنق. شكره بيلبو وعاد ليفتح صحيفته. استمر ذلك الشخص في التحدث مع الآخرين عن صعوبة التوفيق بين ألوان السترة ورباط العنق، واستمر بيلبو في القراءة. وكان يفكر: أعلم جيدًا أن الجميع يفكرون فيّ الآن كشخص عديم الأخلاق، ولكنني أسافر في القطار لكي لا تكون لي علاقات. لي الكثير منها بالفعل على الأرض.

عندئذ قال له ذلك الشخص: كم من الجرائد تقرأها سيادتك، ومن كل التيارات. لابد وأنك قاض أو رجل سياسي. أجابه بيلبو بالنفي وبأنه يعمل في دار نشر تعمل على نشر كتب ميتافيزيقية عربية، وقال هذا على أمل أن يخيف خصمه. وبدا على الآخر الرعب بالفعل.

ثم أتى المفتش. وسأل لماذا تذكرة بيلبو إلى بولونيا بينما الحجز إلى روما. قال بيلبو إنه غير رأيه في آخر لحظة.

ـ يا له من شيء جميل ـ قال الشخص الملتحي ـ يمكن لسيادتك أن تتخذ قراراتك الخاصة، هكذا، كما يحلو لك، دون أن يكون عليك أن تحصي نقودك، أحسدك بالفعل.

ابتسم بيلبو ونظر إلى الاتجاه الآخر. وقال لنفسه: والآن سيفكر فيّ الجميع على أنني شخص مبذر، أو كمن سطا على بنك.

وفي بولونيا نهض بيلبو وهم بالنزول. فقال له جاره: انتظر فقد نسيت حقيبتك. فقال بيلبو: لا، سيمر شخص في بولونيا ليأخذها، بل أرجو منك أن تراقبها.

قال الراكب الملتحي: لا تقلق، دع هذا الأمر لي.

عاد بيلبو إلى ميلانو في المساء، ودخل إلى المنزل ومعه علبتان من اللحم وبعض الرقائق، وأدار التليفزيون. مرة أخرى برلينجر، شيء طبيعي. وتم تلاوة خبر القطار سريعًا في ختام النشرة.

في وقت متأخر من الصباح، وعلى القطار المتجه من بولونيا إلى فلورنسا، وفي العربة رقم ثمانية، أبدى راكب ملتحٍ شكوكه حول أحد الركاب الذي ترك القطار في بولونيا تاركًا خلفه حقيبته. وقال إن شخص سيستلمها في فلورنسا، ولكن هكذا يفعل الإرهابيون؟ ولماذا إذن قام بحجز التذكرة إلى روما إذا كان قد نزل بالفعل في بولونيا؟

خيم القلق على الركاب شركاء المقصورة. وفي لحظة معينة قال الراكب الملتحي إنه لا يستطيع تحمل هذا التوتر. من الأفضل ارتكاب خطأ وليس الموت، وأبلغ مدير القطار. أوقف مدير القطار الرحلة واستدعى شرطة السكة الحديدية. لا نعرف بالتحديد ما حدث، توقف القطار في الطريق الجبلي، واصطف الركاب قلقين بجواره، ووصلت فرقة المتفجرات... فتح الخبراء الحقيبة، ووجدوا جهاز ميقات، متفجرات، والجهاز مضبوط على ساعة الوصول إلى فلورنسا، والمتفجرات قادرة على قتل عشرات الركاب.

لم ينجح البوليس في العثور على الشخص الملتحي. ربما كان قد غير عربته، أو نزل في فلورنسا، لأنه لم يرغب في أن يظهر على صفحات الجرائد. والشرطة تدعوه ليتصل بها.

تذكر باقي الركاب، بدقة غير معتادة، الرجل الذي ترك الحقيقة. ربما كان يبدو مريبًا بالنسبة إليهم من البداية. كان يرتدي سترة إنجليزية زرقاء، دون أزرار ذهبية، ورباط عنق بني اللون. كان يميل للصمت، وبدا وكأنه يرغب في ألا يشد الانتباه له بكل الطرق. ولكن أفلتت منه بعض المعلومات بأنه يعمل في صحيفة، أو دار نشر، أو شيء ما مرتبط (وهنا اختلفت أقوال الشهود) بالفيزياء، أو الميثان، أو التقمص، ولكن الشيء المؤكد هو أن عمله مرتبط بالعرب.

أصبحت مراكز الشرطة جميعها في حالة طوارئ. بدأت بالفعل تصل إليهم مكالمات مجهولة يتم التحقيق في صحتها. تم القبض على اثنين ليبيين من بولونيا. حاول رسام الشرطة أن يرسم صورة للمشتبه فيه، والتي وضعت الآن على الشاشة. ولم يكن الرسم يشبة بيلبو، ولكن كان بيلبو يشبه الرسم.

لم يكن لدى بيلبو أدنى شك. كان هو رجل الحقيبة. ولكن كانت الحقيبة تحتوي على كتب آلييه. أتصل بالهاتف، ولكن لم يكن يجيب.

كان الوقت متأخرًا في المساء ولم يجرؤ على الخروج، وحاول النوم بعد تناول قرص منوم. في صباح اليوم التالي حاول مرة أخرى الاتصال بآلييه. صمت مرة أخرى. نزل لشراء الصحيفة. لحسن الحظ كانت الجنازة مازالت تشغل الصفحة الأولى ، وكان خبر حادث القطار وصورة المشتبه في الصفحات الداخلية. صعد من جديد إلى شقته بعد أن رفع ياقته، واكتشف أنه مازال يرتدي السترة نفسها، ولكن على الأقل لم يكن يرتدي رباط العنق نفسه.

بينما كان يحاول تركيب الأحداث مرة أخرى، تلقى مكالمة تليفونية. صوت مجهول، غريب، ذو لكنة بلقانية. كانت مكالمة تقطر شهدًا: وكأنها من شخص لا دخل له في أي شيء ويتحدث من منطلق قلبه الطيب. قال الصوت: مسكين السيد بيلبو، وجد نفسه متورطًا في قصة سيئة. لم يكن يجب أبدًا قبول حمل شيء يخص آخر، دون التأكد مما يحتويه هذا الشيء. كم كان سيكون الأمر محزنًا جدًا إذا اتصل أحدهم بالشرطة ليبلغهم أن السيد بيلبو كان هو من شغل المكان رقم ٤٥.

من المؤكد أنه يمكنه تجنب هذه الخطوة المبالغ فيها، إذا قرر السيد بيلبو فقط التعاون. على سبيل المثال، إذا قال أين هي خريطة فرسان المعبد. ونظرًا لأن ميلانو

أصبحت مدينة حارة، ولأن الجميع يعرفون أن إرهابي القطار انطلق من ميلانو، فالأفضل أن يتم نقل المسألة كلها إلى أرض محايدة، ولتكن باريس. لماذا لا نتقابل في مكتبة سلاون، ٣ شارع دو لا مونتيكور، خلال أسبوع؟ ولكن ربما يكون من الأفضل لبيلبو لأن يرحل على الفور قبل أن يتعرف عليه أحد. إذن الميعاد في مكتبة سلاون، ٣ شارع دولا مونتيكور، في منتصف يوم الأربعاء ٢٠ من يونية، سيجد وجهًا مألوفًا، ذلك الشخص الملتحي الذي تحدث معه ببراعة في القطار. سيخبره هو أين يمكنه العثور على باقي الأصدقاء، وتدريجيا، سيقضي الوقت مع صحبة جيدة، حتى انتصاف شمس الصيف، وسيحكي في النهاية كل ما يعرفه، وسينتهي كل شيء بلا أي كوارث. شارع دو لا مونتيكور، رقم ٣، شيء سهل التذكر.

(١٠٩)

سان جيرمانو... شخص أنيق ومرح... كان يقول إنه يمتلك كل أنواع الأسرار... وكان يستخدم كثيرًا، لظهوراته، تلك المرآة السحرية المشهورة والتي تشكل جزءًا لا يتجزأ من شهرته... نظرًا لأنه كان يستطيع من خلال التأثيرات الانعكاسية استدعاء الظلال المنتظرة، والمعروفة دائمًا، كان اتصاله مع العالم الآخر شيئًا مؤكدًا.

(Le Coulteux de Canteleu, Les sects et les societies secretes, Paris, Didier, 1863, pp.170-171)

شعر بيلبو بالضياع، كل شيء كان واضحًا. اعتبر آلييه الخطة حقيقية، وهو الآن يريد الخريطة، نصب له فخًا، والآن أمسك به في قبضة يده. إما أن يذهب بيلبو إلى باريس ليكشف عما لا يعرفه (ولكن كونه لا يعرفه هو شيء يعرفه هو فقط، حيث رحلت أنا دون أن أترك عنواني، وديوتاليفي يحتضر)، أو ستقبض عليه كل أقسام البوليس في ميلانو.

ولكن كيف يمكن لآلييه أن يشترك في لعبة قذرة كهذه؟ ماذا سيستفيد من ذلك؟ لابد أن يعثر على ذلك المجنون المسن ويجره إلى النيابة ليمكنه الخروج من تلك القصة.

استدعى سيارة أجرة وأسرع إلى المنزل القائم بالقرب من بياتزا بيولا. وجد النوافذ مغلقة، وعلى البوابة وجد لافتة لشركة عقارات مكتوب عليها "للإيجار". ولكن ما هذا الجنون، سكن آلييه هذا المكان حتى الأسبوع الماضي، لقد اتصل به. دق جرس المنزل المجاور. "هذا السيد المهذب؟ لقد رحل فقط بالأمس. لا أعرف أين ذهب، لقد كنت أعرفه معرفة عابرة، كان شخصًا متحفظًا للغاية، وأعتقد أنه كان دائمًا على سفر".

لم يبق أمامه سوى الاستعلام من شركة العقارات. لكن هناك لم يكن أحد يعلم شيئًا عن آلييه. كان المنزل تؤجره منذ فترة شركة فرنسية. وكان الإيجار يصل بانتظام من خلال تحويل مصرفي. تم إلغاء العقد منذ حوالي ٢٤ ساعة، وتنازلت الشركة عن المبلغ المودع. كانت كل علاقتهم تتم بالمراسلة، ومن شخص يُدعى السيد راجوتسكي، ولم يكونوا على علم بأي شيء آخر.

مستحيل! راكوسكي أو راجوتسكي، ذلك الزائر الغامض الذي زار الكولونيل، والذي يبحث عنه المخبر دي أنجيليس والإنتربول، هاهو حر طليق يؤجر المنازل. في قصتنا

الراكوسكي زائر الكولونيل أردنتي هو إعادة التجسد لراكوفسكي رئيس مخابرات أوكرانا، وهذا الأخير هو سان جيرمانو. ولكن ما دخل آلييه بكل هذا؟

ذهب بيلبو إلى المكتب، صعد إليه مثل اللص، وأغلق على نفسه حجرته. في محاولة التفكير في كل شيء.

كان كل شيء يدفعه إلى الجنون، وشعر بيلبو بأنه فقد عقله بالفعل. ولم يكن هناك أحد يمكنه أن يسر إليه بكل هذا. وبينما كان يمسح عرقه، أخذ يتصفح بطريقة آلية بعض المخطوطات التي وصلت اليوم السابق. وفجأة على قمة إحدى الصفحات وجد اسم آلييه.

نظر إلى عنوان المخطوطة، كان عمل مقدم من أحد عبدة الشيطان وعنوانه حقيقة الكونت سان جيرمانو. وعاد ليقرأ الصفحة من جديد. وكان مكتوب فيها، بالاستشهاد من السيرة الذاتية لشاركوناك، أن كلود لويس دو سان جيرمان كان ينتحل أسماء متنوعة مثل السيد سيورمون، كونت سولتيكوف، مستر ويلدون، ماركيز بيلمار، والأمير راكوستزي أو راجوتسكي، وهكذا. ولكن أسماء العائلة كانت كونت دي سان جيرمانو، وماركيز دي آلييه، والاسم الأخير اقتبسه من أحد أسلافه أصحاب الإقطاعيات في بيومونتي.

كان يمكن أن يشعر بيلبو بالراحة. ليس فقط كان مطاردًا بتهمة إرهابية، والخطة اتضحت صحتها، وآلييه اختفى في ظرف يومين، بل فاز أيضًا في هذه الصفقة بأن الكونت لم يكن مجرد شخص أسطوري، بل سان جيرمانو الحقيقي الذي لا يموت. ولم يحاول أن يفعل أي شيء لإخفاء ذلك. ليس هذا فقط، الشيء الوحيد الحقيقي، في عمليات تزييفه المتنوعة، كان اسمه. لا، بل حتى الاسم كان مزيفًا فآلييه لم يكن آلييه، ولكن لم يعد يهم من كان بالفعل، لأنه كان يمثل، كان يمثل لسنوات طويلة، مثل الشخصية التي في القصة التي ابتدعناها منذ فترة وجيزة.

لم يعد هناك شيء يمكن لبيلبو عمله. مع اختفاء آلييه، لن يستطيع أن يثبت للشرطة أن آلييه هو من سلمه الحقيبة. وحتى إن كان البوليس سيصدقه، سينتج من ذلك أنه استلم الحقيبة من شخص مطلوب لجريمة قتل، شخص كان قد عينه هو كمستشار في العامين الأخيرين. تواطؤ جميل.

ولكن ليصبح من الممكن إدراك هذه القصة ـ والتي تبدو ميلودرامية منذ البداية ـ وللتمكن من إقناع الشرطة بها، لابد من افتراض قصة أخرى، أبعد من الخيال، أي أن الخطة، التي اخترعناها نحن، تتفق تمامًا بكل تفاصيلها، بما في ذلك البحث المضني الأخير عن الخريطة، مع خطة حقيقية، وآلييه موجود فيها بالفعل، ومعه راكوسكي وراكوفسكي وراجوسكي والرجل الملتحي ومنظمة التريس، كل شيء، وصولاً إلى فرسان المعبد في بروفان. وأن افتراضات الكولونيل كانت صحيحة. كانت افتراضاته صحيحة ولكنه أخطأ فيها، في نهاية الأمر كانت خطتنا مختلفة عن خطته، وإذا كانت خطته هي الصحيحة لا يمكن أن تكون خطتنا صحيحة، وإذا كنا نحن على حق، لماذا اضطر راكوسكي أن يسرق الأوراق المزيفة من الكولونيل؟

من مجرد قراءتي لما أفضى به بيلبو لأبو العافية كنت أشعر بالرغبة في أن أضرب رأسي في الحائط. لأقنع نفسي بأن الحائط، الحائط على الأقل، كان حقيقيًا. وكنت أتخيل كيف كانت مشاعره هو في ذلك اليوم، وفي الأيام التالية. ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد.

في محاولاته للبحث عن شخص يسأله اتصل بلورينزا، التي لم تكن موجودة. وكان مستعدًا لأن يراهن أنه لن يراها مرة أخرى، فهي لم تكن إلا مخلوقًا اخترعه آلييه ولم يعد بيلبو يعرف من قام باختراعه هو. أمسك بالجريدة من جديد، الشيء الوحيد المؤكد هو أنه كان الرجل المشتبه به في الصورة. لإقناعه بذلك، وصلت له في تلك اللحظة، في مكتبه، مكالمة أخرى. اللكنة البلقانية نفسها، التوصيات ذاتها، والميعاد في باريس.

صرخ بيلبو: من أنتم؟

أجابه الصوت: إننا منظمة التريس، وأنت تعرف عنا أكثر منا.

عندئذ اتخذ بيلبو قراره، وأمسك بالهاتف وقرر أن يتصل بدي أنجيليس. لم يكن الأمر سهلاً إذ أن المفتش، كما قالوا له، لم يعد يعمل هناك. وفي النهاية خضعوا لإصراره حولوا المكالمة على مكتبه.

ـ آه، من الذي يتحدث، الدكتور بيلبو، قال دي أنجيليس في نبرة بدت لبيلبو ساخرة ـ لقد عثرت علي بالصدفة، فأنا أعد حقائبي.

ـ الحقائب؟ (وخاف بيلبو من أن يكون هذا وهم)

ـ لقد انتقلت إلى ساردينيا. يبدو لي العمل أكثر هدوءًا هناك.

ـ دكتور دي أنجيليس، لابد وأن أتحدث معك في أمر عاجل، أمر يتعلق بتلك القصة..

ـ قصة؟ أي قصة؟

ـ قصة الكولونيل. وبشأن القصة الأخرى... لقد سألت مرة كازاوبون إذا كان قد سمع عن منظمة التريس. لقد سمعت عنها، وهناك أشياء أرغب في أن أقولها لك، أشياء مهمة.

ـ لا تقلها لي، لم تعد أشياء تخصني. ثم ألا يبدو ذلك لك متأخرًا قليلاً؟

ـ أعترف لك أنني أخفيت عليك شيئًا، منذ بضعة أعوام. ولكنني الآن أرغب في التحدث معك.

ـ لا يا دكتور كازاوبون، لا تتحدث معي. وأحب أن أقول لك إن هناك من يتلصص على هذه المكالمة وأرغب أن يعرف هذا الشخص بأنني لا أريد أن أسمع أي شيء، وبأنني لا أعرف أي شيء. لدي طفلان، صغيران. وشخص ما أعلمني أنه يمكن أن يحدث لهما شيء ما. وليثبت لي أنه لم يكن يمزح، صباح أمس وبينما تدير زوجتي السيارة انفجر غطاء المحرك. كانت شحنة صغيرة جدًا، أكبر قليلاً من الألعاب النارية، ولكن كافية لتجعلني أفهم أنه يستطيع إذا أراد. ذهبت إلى المحقق وقلت له إنني كنت دائمًا أؤدي واجبي، أحيانًا أكثر مما ينبغي، ولكنني لست بطلاً. يمكنني أن أضحي بحياتي، ولكن ليس بحياة زوجتي وأطفالي. وطلبت نقلي. ثم ذهبت وقلت للجميع إنني شخص جبان، جبان إلى أقصى درجة. والآن أقولها لك ولمن يستمع إلينا. لقد دمرت مستقبلي، وفقدت احترامي لنفسي، وببساطة أشعر أنني رجل بلا شرف، ولكنني أنقذ أسرتي. يقولون إن ساردينيا جميلة، ولن يكون من الضروري أن أدخر النقود لنذهب إلى الشاطئ. إلى اللقاء.

ـ انتظر، الأمر جد خطير، إنني في أزمة...

ـ سيادتك في أزمة؟ أنا سعيد بالفعل لذلك. عندما طلبت منك المساعدة لم تساعدني. ولا حتى صديقك كازاوبون. والآن سيادتك في أزمة وتريد مساعدة مني. أنا أيضًا في أزمة. وسيادتك وصلت متأخر. إن الشرطة في خدمة المواطن كما يقولون في

الأفلام، أنت تفكر في هذا، أليس كذلك؟ حسنًا، اذهب إلى الشرطة، إلى من سيحل محلي.

وضع بيلبو سماعة الهاتف. شيء رائع، منعوه أيضًا من اللجوء إلى ضابط البوليس الوحيد الذي كان يمكنه تصديقه.

ثم فكر في جاراموند، من خلال كل معارفه، القضاة، وقادة الشرطة، والضباط، يمكنه أن يمد له يد المساعدة. وجرى إليه.

استمع جاراموند إلى قصته باهتمام، مقاطعًا إياه باستفهامات من نوع: لا يمكن!، ما هذا الذي أسمع! ولكن تبدو لي رواية، بل، اختراع! ثم عقد يديه، ونظر إلى بيلبو بتعاطف شديد، وقال له: يا بني، واسمح لي أن أقول لك هذا لأنني يمكنني أن أكون والدك ـ يا إلهي، ربما ليس والدك، لأنني مازلت شابًا، بل روحي شابة، ولكن ربما أخ أكبر لك، إذا سمحت لي. أتحدث إليك من كل قلبي، ونحن يعرف كل منا الآخر منذ أعوام. إن انطباعي هو أنك منفعل أكثر مما ينبغي، وقواك خائرة، وأعصابك محطمة، بل وسأضيف أيضًا: منهكًا. لا تفكر بأنني لا أقدر ما تفعله، وأعرف أنك تمنح كل ما لديك من قوى وطاقة إلى دار النشر، وفي يوم من الأيام سأكافئ ذلك بطرق مادية، لأن هذا لا يسبب أي ضرر. ولكن إذا كنت مكانك سأذهب في إجازة. تقول إنك في موقف محرج. بصراحة لا أريد أن أحول الموقف إلى دراما، على الرغم من أنه، إذا سمحت لي، سيؤسف الجاراموند إذا كان أحد موظفيها، بل أفضلهم، يتورط في قصة غير واضحة. أنت تقول إن هناك من يريدك في باريس. لا أريد الدخول في تفاصيل، فأنا بكل بساطة أصدقك. وماذا إذن؟ لتذهب. أليس من الأفضل أن يتضح لك كل شيء؟ أنت تقول إنك في موقف ـ تطلق عليه ـ موقف صراع مع شخص مهذب مثل آلييه. لا أريد أن أعرف ما حدث بالتفاصيل بينكما، ولن أدخل في تفاصيل كثيرة حول موضوع الأسماء الكثيرة التي حدثتني عنها. كم من الأشخاص يحملون الاسم نفسه، ألا توافقني؟ إذا كان آلييه أرسل من يقول لك، بإخلاص، تعال إلى باريس لنوضح كل شيء، حسنًا لتذهب إذن إلى باريس، ولن تكون هذه نهاية العالم. لابد من الحصافة لإنجاح العلاقات الإنسانية. اذهب إلى باريس وقل ما لديك، وأخرج ما في أعماقك. ما الداعي لكل هذا الأسرار! إن الدكتور آلييه ـ كما فهمت ـ متألم لأنك لا تريد أن تخبره مكان خريطة ما، أو ورقة، أو رسالة، أو شيء ما، وهو شيء لديك ولا تستخدمه في شيء،

بينما ربما أفاد هذا الشيء المسكين آلييه في أبحاثه. إننا هنا في خدمة الثقافة، أم إنني أخطئ؟ أعط له هذه الخريطة، أو هذا الأطلس، أو هذه الورقة التوبوغرافية، والتي لا أرغب حتى في معرفة ما تكون. إذا فكرت مليًا ستجد أن هناك سببًا ما، محترم بالتأكيد، فإن الشخص المهذب يظل للأبد مهذبًا. اذهب إلى باريس، وصافحه يدًا بيد وسينتهي كل شيء. حسنًا؟ ولا تتوتر أكثر مما ينبغي، أنت تعلم أنني هنا دائمًا. ثم دق جرس السكرتيرة: سيدة جراتزيا... آه، ليست موجودة. لا تتواجد أبدًا عندما أحتاجها. أنت لديك متاعبك يا عزيزي بيلبو، ولكن إذا عرفت ما لدي. إلى اللقاء الآن، وإذا رأيت السيدة جراتزيا في الممر، أرسلها إلي. ولا تنس: حاول أن تستريح.

خرج بيلبو، ولم تكن السيدة جراتزيا في مكتبها، ولكنه رأى أن الضوء الأحمر لخط السيد جاراموند الشخصي مضاء، وهذا يعني أنه يتحدث مع شخص ما. لم يستطع بيلبو أن يقاوم (أعتقد أنها المرة الأولى في حياته التي ارتكب فيها شيئًا كهذا)؛ أمسك بالسماعة واستمع إلى المحادثة. كان جاراموند يقول: لا تقلق، أعتقد أنني أقنعته. سيأتي إلى باريس.... إنه واجبي. إننا ننتمي، في نهاية الأمر، لجمعية فروسية واحدة.

إذن جاراموند أيضًا كان جزءًا من السر. أي سر؟ السر الذي ساعده هو، بيلبو، فقط، أن يكشفه. السر الذي لا وجود له.

كان الوقت ليلاً. ذهب إلى بيلادي، تبادل بعض الكلمات مع البعض هناك. أثقل في الشرب. في صباح اليوم التالي، ذهب ليبحث عن الصديق الوحيد المتبقي له. ذهب إلى ديوتالليفي، ذهب ليطلب المساعدة من شخص يحتضر.

سجل لقاؤهما الأخير بحرارة على أبو العافية، والذي لم أستطع أن أميز المتحدث، إذا كان بيلبو أم ديوتالليفي، في الحالتين كانت همسات من يقول الحقيقة، لمن يعلم أنه لم يعد لديه وقت ليلعب بالأوهام.

وهذا ما حدث للحاخام إسماهيل بن إليشا مع تلاميذه الذين كانوا يدرسون كتاب جازيراه، وأخطأوا في الحركات وساروا إلى الخلف حتى دفنوا أنفسهم في الأرض إلى بطونهم، بسبب قوة الحروف.

(Pseudo Saadya, Commento al Sefer Jesirah)

لم أره قط ناصع البياض هكذا، حتى إنه لم يعد لديه جلد ولا شعر ولا رموش ولا حواجب. كان يبدو وكأنه كورة بلياردو.

قلت له: اعذرني، هل تسمح أن أحدثك عن أشياء تخصني؟

ـ تكلم، لم يعد لدي شيء يخصني، لم يعد لدي سوى الاحتياجات الضرورية جداً.

ـ أعرف أنهم عثروا على علاج جديد، إن هذه الأشياء يمكن أن تلتهم من هم في سن العشرين، ولكن عادة ما تكون أكثر بطئًا لمن هم في الخمسين، وأحيانًا يستطيعون علاجهم أيضًا.

ـ تكلم عن نفسك، لم أبلغ الخمسين بعد، ومازال لدي جسد شاب، ولي امتياز من يموتون أسرع منك. ألا ترى أنني أتحدث بصعوبة.. قل لي أنت عن قصتك حتى أستطيع أن أستريح.

طاعة واحترامًا له، حكي بيلبو القصة كلها.

عندئذ بدأ ديوتالليفي، وهو يتنفس مثل "الشيء" في أفلام الخيال العلمي، يتحدث. وكان يشبه "الشيء" أيضًا في الشفافية، حيث غاب الحد بين كل ما هو خارجي وكل ما هو داخلي، بين الجلد واللحم، بين الزغب الفاتح في بطنه الذي يمكن رؤيته من فتحات بيجامته، وبين الخيوط الصمغية للأحشاء التي لا يمكن رؤيتها سوى من خلال أشعة إكس، أو في مرض في مرحلة متقدمة.

ـ يا جاكوبو، أنا هنا على فراشي لا يمكنني أن أرى ما يحدث في الخارج. لذلك أعلم، إما ما قلته لي يحدث فقط بداخلك أم أنه يحدث في الخارج. وسواء في هذه

الحالة أم الأخرى، الحقيقة أنك قد فقدت عقلك أنت ومعك العالم، وهو الشيء نفسه. وفي الحالتين قام أحدهم بتشغيل وتحريك كلمات "الكتاب" أكثر مما ينبغي.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ لقد أخطأنا في حق "الكلمة"، تلك التي خلقت وأقامت العالم. أنت الآن تنال عقابك، مثلمًا عوقبت أنا أيضًا، لا يوجد أي فارق بينك وبيني.

حضرت ممرضة، أعطته شيئًا ليبلل به شفتيه، وقالت لبيلبو يجب ألا يتعبه، ولكن ديوتالليفي تمرد عليها: اتركيني لحالي. لابد أن أقول له الحقيقة؛ هل تعرفين سيادتك الحقيقة؟

ـ آه، أنا، ما هذا الذي تطلبه مني يا دكتور؟

ـ اخرجي إذن. لابد أن أقول لصديقي شيئًا مهمًا. استمع إلي يا جاكوبو، كما أن في جسم الإنسان أعضاء ومفاصلاً وأطرافًا، هكذا أيضًا يوجد في التوراة، حسنًا؟ وكما توجد في التوراة أطراف ومفاصل وأعضاء، توجد أيضًا في جسم الإنسان، حسنًا؟

ـ حسنًا.

ـ عندما كان رابي ماير يتعلم من رابي أكيبا، كان يخلط الحامض الكبريتي في الحبر ولم يقل المعلم له شيئًا. ولكن عندما سأل الحاخام ماير الحاخام إسماهيل إذا كان ما يصنعه حسنًا، قال له: يا بني، احترس في عملك لأنه عمل مقدس، وإذا قمت بحذف حرف واحد أو كتبت حرفًا زائدًا فقط، ستدمر العالم بأكمله. لقد حاولنا نحن أن نعيد كتابة التوراة، ولكننا لم نهتم بالحرف الزائد أو الحرف الناقص...

ـ كنا نمزح.. .

ـ لا أحد يمزح مع التوراة.

ـ ولكننا كنا نمزح مع التاريخ ومؤلفات الآخرين .

ـ لا يوجد شيء مكتوب يؤسس العالم سوى "الكتاب"؟ أعطني بعض الماء، لا، ليس من الكوب، بلل هذه القماشة. أشكرك. اسمعني الآن، إن خلط حروف الكتاب يعني خلط العالم، لا مهرب من هذا. أي كتاب، حتى كتاب الهجاء. ألم يقل من هم مثل الدكتور واجنر إن من يلعب بالكلمات وترتيب الحروف، ويقلب العبارات بروحه شيء سيئ ويكره أباه؟

ـ ليس الأمر تمامًا بهذا المعنى. هؤلاء محللون نفسيون، يقولون هذا ليربحوا نقودًا، إنهم ليسوا مثل حاخاماتك.

ـ الكل حاخامات، والكل يتحدثون عن الشيء نفسه، وهل تعتقد أن الكهنة عندما يتحدثون عن التوراة يتحدثون فقط عن مجرد مخطوطة، لقد كانوا يتحدثون عنا، عن الذين يحاولون إعادة صياغة أجسادنا من خلال اللغة. والآن اسمع: لكي يقوم شخص ما بتغيير حروف "الكتاب" لابد وأن تكون لديه الكثير من الرحمة، ونحن لم نكن رحماء. في كل كتاب يوجد اسم الله منسوجًا، وقد قمنا نحن بتغيير أماكن كل كتب التاريخ، دون أن نصلي، اصمت واستمع إلي: إن من ينشغل بالتوراة يحافظ على حركة العالم، ويحتفظ بحركة جسمه أثناء القراءة، أو أثناء إعادة الكتابة، لأنه لا يوجد جزء في الجسد ليس له مقابل في العالم خارجه... بلل هذه القماشة. أشكرك. إذا بدلت "الكتاب" فأنت تبدل العالم، وإذا بدلت العالم، تبدل أيضًا جسدك. لم نكن نفهم ذلك. تترك التوراة كلمة واحدة تخرج من صندوقها، تخرج الكلمة للحظة ثم تختبئ على الفور، وتنكشف للحظة واحدة لحبيبها. إنها مثل سيدة رائعة الجمال تختبئ في قصرها، في حجرة صغيرة ضائعة. ليس لديها إلا حبيب واحد، لا يعرف بوجوده أحد. وإذا أراد أحد غيره أن يقتحمها، وأن يضع يده القذرة عليها، تلفظه على الفور. إنها تعرف حبيبها، تفتح ستارًا صغيرًا وتظهر نفسها للحظة، ثم تختبئ مرة أخرى على الفور. إن كلمة التوراة تنكشف فقط لمن يحبها. وحاولنا نحن أن نتحدث عن الكتب بلا حب، بل بسخرية...

كان بيلبو قد مسح له شفتيه مرة أخرى بالقطنة.. وقال: وماذا إذن؟

ـ إذن أردنا أن نفعل ما ليس مسموح لنا، ولم نكن على استعداد لعمله، من خلال تلاعبنا بكلمات "الكتاب" أردنا أن نبني الجوليم...

ـ لا أفهم.

ـ لا يمكن أن تفهم أي شيء بعد الآن. إنك الآن سجين مخلوقتك. ولكن مازلت قصتك تدور في العالم الخارجي. لا أعرف كيف، ولكن يمكنك الخروج منها. الوضع بالنسبة إلي مختلف، فأنا أجرب في جسدي ما فعلناه كلعبة في الخطة.

ـ لا تخرف... إن ما لديك هي مسألة خلايا...

ـ وما هي الخلايا؟ لمدة أشهر طويلة، ومثل الحاخامات المكرسين نطقنا بشفاتنا تركيبات مختلفة لحروف الكتاب. إن ما كانت شفاتنا تنطق به، كانت كل خلايانا تتعلمه. وماذا فعلت خلايانا؟ اخترعت بدورها خطة مختلفة، والآن أصبح لها طريقها الخاص. تقوم خلاياي حاليًا بصناعة قصة ليست القصة الخاصة بالجميع، تعلمت خلاياي الآن أنها يمكنها إطلاق اللعنات من خلال تغيير وترتيب "الكتاب" وكل كتب العالم. وهكذا تعلمت أيضًا أن تفعل بجسدي. فهي تقلب، وتحول وتنقل وتغير وتخلق خلايا لم يرها أحد، بلا اتجاه، أو ذات اتجاهات مختلفة عن الاتجاه الصحيح. لابد أن يكون هناك اتجاه صحيح واتجاهات خاطئة وإلا يموت المرء. ولكن خلاياي تلعب، لا إيمان لها، تلعب بلا رؤية. يا بيلبو، في تلك الأشهر، وإلى أن توقفت عن القراءة، لأنني لم أعد أستطيع ذلك، قرأت العديد من المعاجم، كنت أدرس حكايات الكلمات لأفهم ما يحدث في جسدي. هكذا نفعل نحن الحاخامات. هل سبق لك وتأملت في أن المصطلح اللغوي "metathesis" (الإبدال) يشبه لمصطلح علم الأورام "metastasis" (نمو ورم خبيث)، وما معنى المصطلح اللغوي الإبدال؟ إنه بدلاً من أن يقول المرء "عشق" يقول "قشع"، وبدلاً من أن يقول "ذهب" يقول "هذب". إنها التاموراه. إن المعجم يقول إن "الإبدال" معناه التبديل أو النقل، كم هي حمقاء تلك المعاجم، فأصل الكلمتين واحد؛ فإما أن يكون "metatithemi" أو الفعل "methistemi". والفعل الأول يعني: أنا أتدخل، أنا أبدل، أنا أتحول، أنا أحل محل، أبطل قانون، أغير معنى. والكلمة الثانية تعني الشيء نفسه: أنا أتحرك، أحول، أنقل، أحول كليشيه، أترك حواسي. وعندما بحثنا عن معاني خفية وراء الحرف، أخذنا جميعًا إجازة من حواسنا. وهكذا فعلت خلاياي، بكل طاعة وبكل إخلاص. لهذا السبب أنا أحتضر الآن يا بيلبو، وأنت تعرف ذلك.

ـ أنت تتحدث بهذه الطريقة لأنك مريض...

ـ أنا أتحدث بهذه الطريقة، لأنني أدركت أخيرًا كل ما يحدث لجسدي. أدرسه يومًا بيوم، وأعرف ما يحدث له، إلا أنني لا يمكنني التدخل، والخلايا لا تطيع أحد قط. أحتضر لأنني أقنعت خلاياي أنه لا وجود للقاعدة، وأنه يمكن للمرء أن يفعل ما يريد بأي نص. لقد قضيت حياتي أحاول إقناع نفسي بهذا، من خلال عقلي. ولابد أن عقلي قد نقل إليها الرسالة. لماذا يجب أن أتظاهر بأنها أكثر حذرًا من عقلي؟ أحتضر لأننا أبحرنا بخيالنا وراء كل حدود ممكنة.

ـ استمع إليّ! إن ما يحدث لك ليس له أي علاقة بالخطة.

ـ فعلاً؟ ولماذا إذن يحدث لك ما يحدث لك الآن. إن العالم حولك يتصرف مثل خلاياي.

ثم تخاذل منهكًا. دخل الطبيب وقال هامسًا لا يمكن أن يتعرض شخص يحتضر لكل هذه الضغوط.

خرج بيلبو، وكانت المرة الأخيرة التي يرى فيها ديوتالليفي.

كتب بيلبو: حسنًا، إذن الشرطة تبحث عني للأسباب نفسها التي لأجلها أصيب ديوتالليفي بالسرطان. صديقي المسكين، هو يحتضر، أما أنا، أنا الصحيح، ماذا أفعل؟ سأذهب إلى باريس لأبحث عن قاعدة الأورام الخبيثة.

لم يستسلم على الفور. حبس نفسه في المنزل لمدة أربعة أيام، حاول فيها تنظيم ملفاته، عبارة تلو الأخرى، مثل الوصية. حاول فيها أن يحكي لنفسه وإلى أبو العافية، إلي وإلى أي شخص آخر سيقرأ هذا. وفي النهاية رحل يوم الثلاثاء.

أعتقد أن بيلبو ذهب إلى باريس ليعترف لهم أنه لم تكن هناك أسرار، وأن السر الحقيقي هو أن ندع خلايانا تسير حسب حكمتها الغريزية، وأن العالم كله سيتحول إلى سرطان مجنون نتيجة للبحث عن الأسرار الغامضة أسفل السطح. وأن الأكثر جنونًا، والأكثر غباء وسط الجميع، كان بيلبو نفسه، والذي لم يكن يعرف أي شيء، واخترع كل شيء. كلفته خطوة مثل هذه الكثير بالتأكيد، ولكنه قبل بالفعل لفترة طويلة من حياته أن يكون جبانًا، وأظهر له دي أنجيليس حتمًا أن الأبطال قليلون.

في باريس، بعد الاجتماع الأول، أدرك بيلبو بالتأكيد أنهم لا يصدقونه. كانت كلماته خالية من الدراما وغاية في البساطة. كان كشفًا يتطلعون إليه، وكانت العقوبة هي الموت. لم يكن لدى بيلبو أي كشف ليمنحهم إياه، وفي ـ لحظات جبنه الأخيرة ـ خاف من الموت. حاول إذن أن يخفي أي أثر له واتصل بي. ولكنهم عثروا عليه.

(١١١)

إليك درس لما سيحدث فيما بعد. إذا أعاد
عدوك إنتاج نفسه، لأنه بدّل قناعه الأخير،
اصرفه فجأة، والأهم ألا تحاول أن تذهب
للبحث عنه في مغاراته.

(Jacques Cazotte, Le diable amoureux, 1772)
هذه الصفحة محزوفة من الطبعات

الآن، كنت أسأل نفسي في شقة بيلبو، بعد أن انتهيت من قراءة اعترافاته، ماذا يجب علي أنا أن أفعل؟ لا معنى للذهاب إلى جاراموند، رحل دي أنجيليس، وقال ديوتالليفي ما لديه. أما ليا فهي بعيدة في مكان بلا هاتف. الساعة الآن السادسة صباحًا من يوم السبت الثالث والعشرين من يونية، وإذا كان لابد من حدوث شيء ما، فسيحدث هذا المساء في الكونسرفاتوار.

كان لابد من أن أتخذ قرارًا سريعًا. وفي تلك الليلة في حجرة التليسكوب، كنت أسأل نفسي: لماذا لم أختر أن أتظاهر بأنني أمام لا شيء؟ كانت أمامك أوراق شخص مجنون، يحكي عن حواراته مع مجانين آخرين ، وحواره الأخير مع شخص يحتضر شديد الانفعال، أو شديد الاكتئاب. لم تكن حتى متأكدًا من أن بيلبو قد اتصل بك من باريس، ربما كان يتحدث على بعد بضعة كيلومترات من ميلانو، أو ربما من كابينة التليفون على الناصية. لماذا وضعت نفسك في قصة تخيلية، لا تمت لك بصلة؟

ولكنها كانت كلها أسئلة طرحتها على نفسي في حجرة التليسكوب، بينما كانت قدماي قد تخدرتا تمامًا، وتلاشى الضوء، وكنت أشعر بالخوف غير الطبيعي، والطبيعي جدًا الذي يمكن أن يشعر به أي شخص في قلب الليل وحده، في متحف خال. في ذلك الصباح لم أكن أشعر بالخوف، ربما كان السبب في هذا يرجع للفضول، أو الشعور بالمسئولية، أو الصداقة.

وقلت لنفسي إنني لابد وأن أذهب أنا أيضًا، إلى باريس، لم أكن أعرف جيدًا ماذا يمكنني أن أفعل، ولكنني لم أستطع أن أترك بيلبو بمفرده. ربما كان يتوقع هذا مني، هذا فقط، بأن أتسلل في الليل إلى كهف السفاحين، وبينما يكون رئيس الجماعة على

وشك أن يغرز سكينة الذبيحة في قلبه، أقتحم المكان من الدهاليز السفلية ومعي جنودي بمدافعهم الرشاشة لأنقذه.

من حسن الحظ كان معي بعض النقود. في باريس أخذت سيارة أجرة إلى شارع مونتيكور. أخذ السائق يلعن لأنه لم يستطع أن يجد الشارع ولا حتى على خريطته. في الواقع كان شارعًا ضيقًا مثل ممرات القطارات، على جانب شارع بيافر وخلف سان جوليان لو بوفر. لم يستطع السائق الدخول في الشارع فتركني على ناصيته.

دخلت إلى الشارع يساورني الشك، شارع لم يكن يُفتح عليه أي باب، ولكن بعد قليل اتسع قليلاً ووجدت المكتبة. لا أعرف لماذا كانت تحمل الرقم المدني ٣، نظرًا لأنه لم يكن هناك قبلها رقم واحد أو اثنين ولا أي رقم آخر. كانت مكانًا صغيرًا، مضاء بمصباح واحد فقط، ويعمل نصف الباب كنافذة عرض. على الجانبين توجد بضع عشرات من الكتب، وكانت تكفي لتدل على نوعيتها. في أسفل مجموعة من البندولات، وعدة صناديق متربة من أعمدة البخور، بعض التعويذات الشرقية أو من أمريكا الجنوبية. كان هناك العديد من كروت التاروت من نوعيات وبأغلفة مختلفة.

لم يكن المكان من الداخل يبعث على الارتياح، كتل من الكتب على الجدران وعلى الأرض، وكانت هناك مائدة صغيرة في الخلف، وبائع كتب يبدو وكأنه وُضع في هذا المكان عن عمد ليسمح للمؤلف بأن يكتب بأن بائع الكتب كان يبدو أقدم من كتبه. كان يتطلع في سجل ضخم، مكتوب باليد، غير مبال بعملائه. من جهة أخرى لم يكن هناك في تلك اللحظة سوى زائرين، واللذين كانا يتسببان في سحب من التراب عند إخراجهما للمجلدات القديمة، والتي تفتقر جميعها تقريبًا للأغلفة، من فوق الأرفف الخطرة، ويقومان بقرائتها، ودون أن تبدو لديهما أي رغبة في الشراء.

يشغل المكان الوحيد الخالي من الأرفف إعلان. ألوان صارخة وسلسلة من البورتريهات البيضاوية المحاطة بأطر مزدوجة، مثل إعلانات الساحر هوديني: السيرك الصغير للعجائب، مدام أولكوت وعلاقتها مع الخفي. كان وجهها زيتوني اللون ذكوري، وكانت هناك عصبتان من الشعر الأسود مربوطتين في عقدة على العنق، وكان يبدو لي أنني رأيت هذا الوجه من قبل. ثم إعلان: دراويش هيرلور ورقصتهم المقدسة. الماجنون المهوبين، أو الأبناء الصغار لفورتونيو ليتشيتي، بالإضافة إلى مجموعة من الوحوش القبيحة المثيرة للشفقة أليكس ودنيس، عمالقة أفالون، ثيو وليو وجيو فوكس، والمضيئين من الخارج...

كانت مكتبة سلاون تحتوي بالفعل على كل شيء، من الإبرة إلى الصاروخ، وحتى التسلية المسائية الصحية، والتي يمكن أن يتم اصطحاب الأطفال إليها قبل هرسهم في المطحنة. سمعت صوت دقات الهاتف، ورأيت البائع وهو يبعد كومة من الأوراق، حتى عثر على السماعة وكان يقول: نعم يا سيدي، حسنًا. ثم أخذ يستمع بضع دقائق في صمت، في البداية مؤيدًا، ثم بدأت تظهر عليه علامات الارتباك وكأنه يشعر بأن كل الموجودين في المتجر يمكنهم الاستماع لمحدثه، ولم يرغب في أن يتحمل مسئولية ذلك. ثم تحول لوجه التاجر الباريسي المصدوم عندما تسأله عن شيء غير متوفر في متجره، أو موظف الاستقبال في أحد الفنادق وهو يعلم لك بكل أسف عن عدم وجود حجرات شاغرة في الفندق.

ـ آه ياسيدي! آه... تقصد هذا... لا إننا هنا كما تعرف سيادتك نبيع الكتب، يمكننا فقط أن نقدم النصائح الخاصة بقوائم الكتب، ولكن هذا الشيء... أعتقد أن المسألة تتعلق بأمور شخصية... نحن فقط... آه، إذن يوجد ـ لا أتحدث عن نفسي ـ من يعمل في هذا المجال... أجل، بالطبع إذا أردت، إنهم طاردوا الأرواح الشريرة. اتفقنا، أعلم ذلك، لدي بعض الرفاق الذين يقدمون تلك الخدمات... ولكن ليس محلنا. لا، في الواقع هذا الوصف لا يكفي، ولكن على كل حال... آسف يا سيدي، ماذا تقصد؟؟ نعم... إذا أردت هذا... إنه مكان معروف، ولكن لا تسألني عن رأيي. إنه شيء حسن، كما تعرف سيادتك، فالثقة أهم شيء. أي خدمة!

خرج العميلان الآخران، وشعرت بالضيق. اتخذت قراري، قمت بلفت نظر الشيخ إلي بأن تظاهرت بالسعال، وقلت له إنني أبحث عن أحد معارفي الذي عادة ما يمر في تلك الأنحاء، اسمه السيد آلييه. نظر إلي وكأنني الرجل الذي كنت أتحدث معه في الهاتف. قلت له إنه ربما لا يعرفه باسم آلييه ولكن ماذا عن روكوسكي، أو سولتيكوف أو... فنظر إلي مرة أخرى وهو يضيق عينيه بلا أي تعبير واضح على وجهه، وقال لي إن لدي أصدقاء غرباء يحملون أكثر من اسم. قلت له، لا أهمية لذلك، وإنه كان مجرد سؤال عابر. قال لي: انتظر، شريكي على وشك الوصول ، ربما يعرف هو الشخص الذي تسأل عنه. بل استرح، هناك في الطرف الآخر يوجد مقعد. سأجري مكالمة تليفونية وأتأكد. رفع سماعة الهاتف، وأخذ يطلب رقم ما، وبدأ يتحدث بصوت منخفض.

قلت لنفسي: كازاوبون، إنك أكثر حماقة من بيلبو. الآن ماذا تنتظر؟ أن يصلوا ويقولوا لك: آه يالها من مصادفة جميلة، صديق جاكوبو بيلبو هنا، تفضل سيادتك أيضًا...

قمت على الفور، ألقيت بالسلام وخرجت. عبرت شارع مونتيكور في دقيقة واحدة، وأخذت أدور في حارات أخرى، ووجدت نفسي في النهاية بجوار نهر السين. قلت لنفسي، يالك من أحمق، ماذا كنت تتوقع؟ أن تصل إلى هناك، تعثر على آلييه، تمسكه من ياقة سترته، ويبدأ هو في الاعتذار بأن الأمر مجرد سوء تفاهم، وهاهو صديقك. لم نلمس شعرة واحدة من رأسه. الآن يعرفون بأنك أنت أيضًا هنا.

كان الوقت تجاوز منتصف النهار بقليل. ماذا يجب علي أن أفعل؟ دخلت إلى شارع سان جاك، وأخذت ألتفت حولي من حين لآخر. في لحظة ما، بدا لي بأن هناك شخصًا عربيًا يتبعني. ولكن لماذا كنت أفكر أنه عربي؟ إن خاصية العرب المميزة هي أنهم لا يبدون كالعرب، وخاصة في باريس، ربما اختلف الأمر في استكهولم.

وجدت نفسي أمام فندق فدخلته وطلبت غرفة. بينما أنا أصعد ومعي المفتاح، على سلم خشبي يقود إلى الطابق الأول، له فتحة يمكن منها رؤية مكتب الاستقبال، رأيت العربي المزعوم. ثم رأيت في الممر أشخاصًا آخرين يمكنهم أن يكونوا عربًا بدورهم. شيء طبيعي، في تلك المنطقة كانت توجد فنادق صغيرة للعرب فقط. ماذا كنت أتوقع؟

دخلت إلى الغرفة. كانت بحالة جيدة، بل وكان بها هاتف أيضًا. يا للأسف لم أكن أعرف مع من يمكنني التحدث.

نعست قليلاً ثم توجهت إلى الكونسرفاتوار. الآن ليس أمامي شيء آخر أفعله، ليس أمامي سوى الدخول إلى المتحف، وأن أبقى هناك حتى ساعة إغلاقه، وأن أنتظر ساعة منتصف الليل.

هكذا فعلت. وها أنا أقف في حجرة التليسكوب تفصلني ساعات قليلة عن منتصف الليل، في انتظار شيء ما.

إن نيتسه بالنسبة لبعض المفسرين هو سفيروت المقاومة، التحمل والصبر المستمر. كانت تنتظرنا تجربة ما في الواقع. ولكن بالنسبة لمفسرين آخرين هو الانتصار. انتصار من؟ ربما في قصة المهزومين هذه: الشيطانيين الذين خدعهم بيلبو، وبيلبو المخدوع من

أتباع الشيطان، وديوتالليفي الذي خدعته خلاياه، فأنا هو المنتصر الوحيد في هذه اللحظة. كنت في ألم في حجرة التليسكوب، أعرف عن الآخرين ولا يعرف الآخرون شيئًا عني. سار الجزء الأول من المشروع حسب الخطة.

والجزء الثاني؟ هل سيسير حسب خطتي، أم حسب "الخطة"، التي الآن لم تعد تنتمي إلي؟

(٨)

هود

HOD

(١١٢)

لنقيم شعائرنا وطقوسنا، لدينا ممران طويلان وجميلان، في معبد الروزا كروتشي. في أحد هذين الممرين وضعنا نماذج وأمثلة لكل الاختراعات الأكثر ندرة وامتيازًا، في الآخر وضعنا تماثيل للمخترعين الرئيسيين.

(John Heydon, The English Physitians Guide: Or A Holy Guide, London, Ferris, 1662, The Preface)

كنت في حجرة التليسكوب منذ فترة طويلة. ربما أصبحت الساعة العاشرة أو العاشرة والنصف. إذا كان شيء ما لابد أن يحدث، فسيحدث بالتأكيد في القاعة الكبيرة أمام البندول. ولهذا كان لابد لي أن أستعد للنزول والبحث لنفسي عن مخبأ، ونقطة لأراقب منها الموقف. ولكن ماذا إذا وصلت متأخرًا جدًا، بعد دخولهم (ترى من أين؟)، بالتأكيد سيشعرون بي.

ماذا أفعل: أنزل، أتحرك من هنا؟... لم أكن أتمنى شيئًا أكثر من هذا منذ بضع ساعات، ولكنني الآن لا أقوى على عمله، الآن وقد بدا ذلك من الحكمة أشعر بأنني قد أصبت بالشلل. كان لابد لي وأن أعبر الصالات كلها في الليل، مستخدمًا الكشاف بحرص. كانت هناك بعض الأضواء الليلية تتخلل النوافذ، كنت مخطئًا إذ كنت أتخيل متحفًا يبدو كبيت للأشباح معتمدًا فقط على ضوء القمر. كان زجاج النوافذ يستقبل من الخارج انعكاسات غير محددة. إذا لم أتحرك بحذر شديد، يمكن أن أتسبب في تدمير شيء مصنوع من الكريستال أو الحديد. كنت أضيء مصباحي اليدوي من حين لآخر. كنت أشعر كأنني في كباريه الحصان المجنون الفرنسي، حيث كانت الأضواء المفاجئة تكشف لي عن عرى ما، ولكن ليس من الشحم، بل من المسامير والكلابات وبراشيم الربط.

ماذا لو أضأت فجأة وجود آدمي، وجه أحد من مدعوي السادة الخبراء، والذي كان يتبع بدوره مساري؟ من منا سيصرخ أولاً؟ أخذت أسترق السمع. لا فائدة لذلك. فقد كنت أزحف بلا صوت، وهو أيضًا سيفعل ذلك.

في الظهيرة كنت قد درست جيدًا وبحرص ترتيب الصالات، كنت مقتنعًا أنه سيمكنني أن أعثر على السلالم حتى في الظلام. إلا أنني كنت أتقدم بحذر شديد وفقدت اتجاهي.

ربما كنت أعبر إحدى الصالات للمرة الثانية، ربما لن يمكنني الخروج من هنا قط، ربما كان ذلك، ذلك التجول بين الآلات بلا هدف، هو الطقس.

في الحقيقة لم أكن أرغب في النزول، في الحقيقة كنت أرغب في تأجيل الموعد.

خرجت من غرفة التليسكوب بعد فحص ضمير لا رحمة فيه لمدة ساعات طويلة، والذي خلاله أعدت رؤية خطأنا في الأعوام الأخيرة وكنت أحاول أن أدرك سبب هذا الخطأ، بلا أي سبب منطقي. وأنا هنا في هذا المكان في محاولة للبحث عن بيلبو، والذي سقط في هذا المكان بلا أي سبب منطقي أيضًا. لكن بمجرد أن وضعت قدمي في الخارج، تغير كل شيء. بينما كنت أتقدم كنت أفكر برأس شخص آخر، أصبحت بيلبو، وبينما كان بيلبو في نهاية رحلته الطويلة تجاه الاستنارة، كنت أعرف أن أي شيء أرضي، ربما أتفه الأشياء، ستتم قراءته مثل هيروغليفية شيء آخر، وإنه لا شيء "آخر" حقيقي أكثر من "الخطة". آه، كنت حاد الذكاء، كان يكفيني فقط مصباح، نظرة لأي خيط ضوئي، لأفهم كل شيء. لم أدع أي شيء يخدعني.

... محرك فريمون: هيكل عامودي فوق قاعدة شبه معينية. يحتوي، مثل شكل تشريحي مظهرًا أضلاعه وأحشائه، مجموعة من الصمامات والبطاريات والدوائر المغلقة، ماذا كان يطلقون عليهم في كتاب المدرسة؟ ... وكان الشيء يقوده حزام نقل الحركة يغذيه عجلة مسننة... في أي شيء كان يمكن استخدامه؟ الإجابة: لقياس التيارات الأرضية بالتأكيد.

المراكمات: ماذا كانت تراكم؟ تخيلت الستة والثلاثين الخفيين، كحافظي أسرار يضربون في الليل على مفاتيح آلاتهم ليخرجوا منها صوتًا، وميضًا، دعوة: من ماتشو بيتشو إلى أفالون (زيب زيب زيب)، آلو آلو آلو، بامرسيال بامرسيال، لقد التقطنا هزة أرضية، التيار مو ٣٦، تلك التي كان البراهمة يعبدونها كتنفس إلهي شاحب، والآن سأدخل الشريط، الصمام، الدوائر المايكرو ماكرو كونية العاملة، إن كل جذور نبات اللفاح تتمزق أسفل الطبقة الخارجية الأرضية، هل تسمع أغنية الرثاء الكونية، هل تسمعني، حول.

يا إلهي، كانت الجيوش تتناحر على سهول أوروبا، ويطلق الباباوات لعناتهم، وكان الأباطرة يتقابلون يسفكون الدماء ويتقاتلون فينا بينهم في مطاراداتهم في حدائق الفرسان. كان كل هذا مجرد غطاء، واجهة فاخرة لإخفاء يعملونه هؤلاء أمام جهاز اللاسلكي، الذين كانوا يجلسون في منزل سليمان يسترقون السمع لتلك النداءات الشاحبة القادمة من مركز العالم.

لقد كانوا هنا، أتوا لتشغيل تلك التوترات الكهربائية، شبه الحرارية ـ كان هذا ما سيطلقه عليها جاراموند، أليس كذلك؟ ـ ومن حين لآخر كان أحدهم سيخترع تطعيمًا أو مصباحًا صغيرًا ليبرر المغامرة الرائعة للمعادن. لكن الواجب كان شيئًا مختلفًا تمامًا، ها هم جميعًا، مجتمعين في منتصف الليل، ليديروا تلك الآلة الإستاطيقية لدوكريتيت، تلك العجلة الشفافة التي تبدو كالحزام العريض، وبداخلها عجلتان تعملان بالذبذبات، تدعمهما عصى مقوسة، وعندما يتلامسان، تتطاير الشرر ويتمنى دكتور فرانكشتاين أن يمنح الحياة للجوليم الذي يمتلكه، ولكن لا، الإشارة لها غرض آخر، إنها للخلد المسن ليبدأ الحفر...

ماكينة حياكة (ماذا يمكن أن تكون؟ أحد تلك الإعلانات البارزة، ومعها أقراص لتطوير الجذع، بالإضافة إلى النسر الضخم الذي يطير فوق الجبال حاملا بين مخالبه شراب إعادة الشباب روبير الكونكيرون R-C)، ولكن عندما تشغلها تجد أنها تحرك عجلة ما، والعجلة بدورها تحرك لولب، واللولب ... ماذا يفعل اللولب؟ من يهتم باللولب؟ تقول اللافتة: تيارات ناتجة عن الحقول الأرضية. بلا أي خجل! ربما قرأ هذا بعض الأطفال أثناء زيارتهم الصباحية! كان الجنس البشري يعتقد أنه يسير في اتجاه مختلف، ويعتقد أن كل شيء ممكن، صدق أيضًا في تفوق التجربة وتفوق الآليات. لقد خدعنا سادة العالم لقرون طويلة. لقد كتبنا قصائد المدح في عربات القطارات في أثناء تأثير وابتلاع الخطة لنا.

أخذت أسير بينها. كان يمكن أن أتخيل نفسي أصغر كثيرًا، ميكروسكوبي الحجم، وعندئذ كنت سأتمكن من أن أصبح مسافرًا مندهشًا في طرقات المدينة الآلية، والتي تحيط بها ناطحات السحاب الميكانيكية من كل الجوانب. كانت توجد أسطوانات وبطاريات وزجاجات "ليدن" الواحدة فوق الأخرى، أرجوحة صغيرة ارتفاعها عشرون سنتيمترًا، سدادي إلكترونية للجذب والطرد، طلسم يعمل على حث التيارات الملائمة.

كان يوجد أيضًا صف من الأعمدة لامعة مكونة من تسعة مكعبات، كهرومغناطيسية، ومقصلة، وفي الوسط ـ شيء مثل الضاغط ـ كانت تتدلى منها خطافات تدعمها سلاسل، مثلما يمكن رؤيته في الإسطبلات. ضاغط يمكن بداخله هرس رأس أو يد. جرس زجاجي بمضخة من المطاط، أسطوانتان، شيء مثل الأمبيق، أسفله كوب، وعلى يمينه جسم نحاسي كروي. لابد أن سان جيرمانو كان يمزج فيها أصباغه في إقطاعية هسه.

كان يوجد أيضًا حامل للغليونات به العديد من الساعات الزجاجية الصغيرة، عشرة في كل صف. كانت أعناقها تمتد مثل عنق امرأة من لوحات موديلياني، وتحتوي على مادة غير واضحة المعالم، والانتفاخ الأعلى لكل منها تمدد بمقياس مختلف، مثل بالونات على وشك الطيران. كان هذا جهاز لصناعة القرين، تحت أعين الجميع.

قسم المنتجات الزجاجية، عدت إلى الوراء مرة أخرى. زجاجات صغيرة خضراء، وكأن مضيف سادي يحاول أن يقدم لي سم من العنصر الخامس. آلات حديدية لصناعة الزجاجات، تُفتح وتُغلق بواسطة كلانكات. ماذا لو وضع أحدهم معصمه بدلاً من الزجاجة؟ وسيكون الشيء نفسه مع وجود تلك الكماشات الضخمة أو تلك المقصات الكبيرة، تلك المشارط التي يمكن إدخالها إلى العضلات العاصرة أو الأذن، أو إلى الرحم لانتزاع الجنين الحي، والذي يمكن أن يغطى بالفلفل والعسل ويُقدم ليُشبع نهم عشتروط.... كانت القاعة التي أعبر فيها الآن تحتوي على صناديق عرض زجاجية متسعة، كنت أرى فيها أزرارًا يمكن بواسطتها تحريك فتحات الزجاجات اللولبية، والتي يمكن أن تتقدم بلا رحمة لتخترق عين الضحية، كان بها أيضًا البئر والبندول، وها نحن تقريبًا في فترة الآلات الكاريكاتيرية، تلك الآلات التي لا فائدة لها لجولدبرج: مخلعة التعذيب التي كان دنجل الشرير يعلق عليها ميكي ماوس، ثم محرك خارجي من ثلاثة تروس، انتصار آليات عصر الإحياء: برانكا وراميللي وزونكا. كنت أعلم تلك المحركات، وضعتها جميعًا في كتاب المغامرة الرائعة للمعادن، ولكن تم إضافتها إلى هذا المتحف في وقت لاحق، في آخر القرن الماضي، وهي على استعداد لأن تكبح المتمردين في أعقاب السيطرة على العالم. تعلم فرسان المعبد من الحشاشين كيف يمكنهم إخراس نوفو داي عندما تحين ساعة القبض عليه؛ كان الصليب المعكوف لسيبوتندروف سينحرف، في اتجاه الشمس، ليقود الأعضاء المتقلصة لأعداء سادة العالم. كل شيء

معد بالفعل، في انتظار إشارة واحدة، كل شيء ظاهر للجميع، كانت الخطة معروضة للجميع، ولكن لم يكن أي إنسان أن يخمنها، سيمكن عندئذ للأفواه الميكانيكية ذات الصرير أن تغني نشيد انتصارها، متعة شديدة للأفواه، كل الأسنان التي تغلق وتدور في وقت واحد، أفواه تغني في تكات متقلصة.

في النهاية وصلت إلى أجهزة إرسال الومضات المُصممة لبرج إيفل، والتي تعمل على إرسال الإشارات الزمنية بين فرنسا وتونس وروسيا، بين فرسان المعبد في بروفان والباوليكان، وحشاشين فاس. (ليست فاس في تونس، وكان الحشاشين في إيران، ولكن لا يمكن التدقيق عندما يعيش المرء في برج الزمن الدقيق)، لقد رأيت بالفعل تلك الآلة العملاقة، أطول مني، بتلك الحوائط المثقوبة بسلسلة من المثاقيب، والأنابيب الهوائية. كانت اللافتة تقول إنه جهاز راديو، ولكنني أعرف أكثر، فلقد عبرت أمامه تلك الظهيرة نفسها: إنه البوبورج!

كل شيء معروض للجميع. بهذا الصدد: ماذا كان الغرض الحقيقي من ذلك الصندوق الضخم في مركز لوتيتسيا (لوتيتسيا هي الأنبوب الهوائي في بحر الطمي تحت الأرض)، حيث كان يوجد بطن باريس في يوم من الأيام، بتلك الأبواق الممسكة للرياح، جنون الأنابيب هذا، والقنوات، إن أذن ديونسيوس تلك تُفتح على السماء لتمسك بالأصوات، بالرسائل والإشارات ثم ترسلها إلى مركز الكرة الأرضية، ثم تعيدها مرة أخرى لتخرج من جوفها معلومات من الجحيم؟ في البداية الكونسرفاتوار: المعمل، ثم البرج: المجس، وأخيرًا البوبورج: المرسل والمستقبل الشامل. هل قاموا بإقامة تلك المضخة الماصة الضخمة لتسلية التلاميذ ذوي الشعور الهشة والرائحة الكريهة، والذين يذهبون إلى هناك ليستمعون إلى الأسطوانات الحديثة بواسطة سماعاتهم اليابانية؟ إنها لنا جميعًا لنراها. إن البوبورج هو الباب إلى المملكة السفلية لأجارثا، إنها أثر البعث الجديد لصوت الحكمة للفوضويين. ولكن الباقين ـ اثنين، ثلاثة أربعة بلايين منهم ـ لم يكونوا على دراية بهذا، أو ربما أجبروا أنفسهم على النظر إلى الجهة الأخرى. يالهم من أغبياء ماديين. بينما كان الروحانيون يتقدمون بثبات نحو هدفهم منذ ستة قرون.

فجأة عثرت على السلالم، نزلت بحذر أكثر. اقترب منتصف الليل. كان لابد أن أختبئ في مكان المراقبة قبل أن يصلوا.

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة، ربما أقل. عبرت صالة لافوازييه، دون أن أضيء المصباح، معتمداً على ما أتذكره من خيالات ما رأيته في الظهيرة، وعبرت ممر نماذج القطارات.

في القاعة الرئيسية كان هناك أحدهم بالفعل. كنت أرى بعض الأضواء، متحركة وشاحبة. وسمعت أصوات جر، وكأنها أشياء تُجر أو تُنقل.

أطفأت المصباح. هل يا ترى سأتمكن من أن أصل في الوقت المناسب إلى صندوق الحارس؟ أخذت أزحف بطول واجهات عرض القطارات، وسرعان ما وصلت بالقرب من تمثال جرام. في جناح الكنيسة. وتحت إحدى القواعد، على شكل مكعب (الحجر المكعب ليسود!)، كان مرتفعاً وكأنه هناك لينظر إلى مدخل الجوقة . تذكرت أن تمثال الحرية الذي أبحث عنه كان بجواره.

كان الجانب الأمامي للقاعدة قد انقلب للأمام، مكوناً مدخل ما، والذي كان يسمح بالخروج من أحد الممرات السفلية. ومن هناك خرج بالفعل شخص ممسكاً بمصباح ـ ربما يعمل بالغاز، زجاجه ملون، وكان يضيء وجه حامله باللون الأحمر. ضغطت نفسي في الزاوية فلم يرني. لحق به أحدهم من منطقة الجوقة وقال له: أسرع، سيصلون خلال ساعة.

إذن هم من فرقة الطليعة التي أتت لتعد المكان للطقس. إذا لم يكن عددهم كبير يمكنني أن أضللهم وأصل إلى تمثال الحرية، قبل أن يصلوا هم، من يدري من أين، وكم سيكون عددهم، من الطريق نفسه. مكثت قابعاً في هدوء لفترة طويلة وأنا أتابع انعكاسات المصابيح في الكنيسة، والتبدل الدوري للأضواء، اللحظات ذات الكثافة الكبيرة أو القليلة. كنت أحسب كم من الوقت كانوا يقتربون من تمثال الحرية، وكم يبقي التمثال في الظلال. وفي إحدى اللحظات قررت المجازفة، تزحلقت على الجانب الأيسر لجرام ـ وأنا ألصق نفسي بصعوبة في الحائط ضاغطاً على عضلات معدتي. لحسن الحظ... كنت نحيفاً كالمسمار، كما تقول ليا... ألقيت بنفسي، وتزحلقت في صندوق الحارس.

تركت نفسي، لأختبئ سريعاً، أسقط على الأرض، مُجبراً على أن أنكمش في وضع جنيني. تسارعت ضربات قلبي وأسناني.

كان لابد وأن أهدأ. أخذت أتنفس من أنفي بانتظام، وأخذت أعمق بالتدريج تنفسي. أعتقد أن هذه هي الطريقة التي يمكن للمرء، المعرض للتعذيب، أن يقرر بها فقدان حواسه لينزع نفسه عن الألم. في الواقع شعرت بأنني أغوص ببطء في أحضان العالم السفلي.

(١١٣)

إن قضيتنا هي سر بداخل سر، سر شيء
سيبقى محجوبًا، وسر يمكن لسر آخر فقط
كشفه، إنه سر عن سر يحجب سر.

(Ja'far-al Sadiq, sesto Imam)

عدت ببطء إلى الوعي. سمعت أصواتًا، أزعجني ضوء أكثر قوة. شعرت بأقدامي وقد تحجرت. حاولت أن أقف ببطء دون أن أتسبب في أي ضوضاء، وكان يبدو لي بأنني أقف على فراش من الأشواك البحرية. عروس البحر. قمت ببعض الحركات الصامتة، واستطعت أن أقف على أطراف أصابعي، وقل الألم. عندئذ فقط، وبعد أن رفعت رأسي بحذر وحركته يمينًا ويسارًا، استطعت أن أدرك أن قاعدة التمثال مازالت في الظلال وعندها استطعت أن أرى المشهد.

كانت القاعة الرئيسية مضاءة من كل الاتجاهات. كانت المصابيح نفسها، ولكن كان هناك العشرات منها، كان يحملها من يحضرون لتوهم، والذين كانوا يدخلون من الدهليز الموجود خلفي. كانوا بالتأكيد يخرجون من مجرى الأنفاق السفلية، ويصطفون على يساري متقدمين نحو صالة الجوقة ، وينتظمون في القاعة الرئيسية. قلت لنفسي: يا إلهي، هذا يشبه كثيرًا مشهد "قضاء الليلة على جبل عار" في فيلم فانتازيا لوالت ديزني.

لم يرفعوا أصواتهم، ولكن كانوا يتهامسون، ولكن أنتجت أصواتهم مجتمعة صوتًا يشبه أصوات الكومبارس في عمل مسرحي: راباربو راباربو.

على يساري وُضعت المصابيح على الأرض في شكل نصف دائري، مكملة بذلك، في قوس مسطح الانحناء الشرقي لصالة الجوقة ، متلامسة مع أقصى النقط للنصف دائرة المستعارة، تجاه الجنوب، تمثال باسكال. وهناك كانت توجد مجمرة مشتعلة، وكان أحدهم يلقي عليها بعض الأعشاب والبخور. وصل إلي الدخان في صندوق الحارس، متسببًا في جفاف في حلقي، وشعرت بنوع من الانفعال والدوران.

بين اهتزاز المصابيح أدركت أنه في منتصف الجوقة يوجد شيء يتحرك، ظلاً رفيعًا متحركاً.

كان البندول! لم يكن البندول يهتز في مكانه المعتاد في منتصف جناح الكنيسة. كانت هناك نسخة أكبر منه معلقة في وسط صالة الجوقة . كان الجسم الكروي أكبر، والسلك كان أكثر سمكًا بكثير، كان مثل الهوسر، أو حبل غليظ مكون من أسلاك معدنية متضافرة. كان البندول الآن ضخمًا جدًا، كما يظهر في البانتيون، وكان يشبه منظر القمر عند رؤيته من خلال التليسكوب.

لابد أنهم أرادوا إعادة صناعة البندول الذي جربه فرسان المعبد في المرة الأولى، منذ حوالي ألف عام قبل فوكو. وليتمكنوا من جعله يتأرجح بحرية، أزالوا بعض العروق والحديد المدعم، محولين قبة صالة الجوقة إلى شكل سيمتري خام تحدد المصابيح معالمه.

سألت نفسي كيف يمكن للبندول أن يحتفظ باهتزازه الثابت، نظرًا لأن المنظم المغناطيسي لا يمكن أن يكون بأسفله الآن، في الأرض. عندئذ فهمت. في حافة صالة الجوقة ، وبالقرب من محركات ديزيل، كان يقف شخص مستعد لأن يقفز مثل القط ليتبع خطة الاهتزاز. وكان يدفع الجسم الكروي دفعة بسيطة في كل مرة كان يقترب منه، خبطة خفيفة دقيقة من يده أو من أطراف أصابعه.

كان يرتدي الفراك مثل ماندراك. بعد قليل عندما رأيت رفاقه، أدركت أنه كان بالفعل ساحرا، أحد حواة السيرك الصغير لمدام أولكوت. لقد كان محترفًا قادرًا على أن يقيس الضغوط والمسافات، وكان له رسخًا قويًا قادرًا على أن يعمل في أقل الحدود الممكنة اللازمة في الشعوذة. ربما كان يستطيع من خلال النعلين الرفيعين لحذائه أن يشعر بذبذات التيارات، ويحرك يديه تبعًا لمنطق كل من الكرة البيضاوية والأرض التي تتحكم فيها.

كان رفاقه ـ الآن وقد أصبحت قادرًا على رؤيتهم أيضًا ـ يتحركون بين السيارات في صحن الهيكل، كانوا يتحركون بخفة بجوار عجلات الدريزيين والموتوسيكلات، كانوا يتدحرجون في الظلال، أحدهم يحمل مقعدًا ومائدة مغطاة بغطاء أحمر اللون في المساحة المتسعة في الخلف، وآخرون يضعون مصابيح أخرى. كانوا صغارًا في الحجم،

ليلين، يثرثرون، كانوا مثل الأطفال الكسيحين، وبينما يعبر أحدهم أمامي رأيت الوجه ذا الملامح المنغولية، والرأس الصلعاء. لقد كانوا "الوحوش الصغار" من سيرك مدام أولوكوت، لقد رأيت الإعلان في مكتبة سلاون.

كان السيرك هناك بكامل عدته: الموظفون، ومسئولو الأمن، ومصمم حركات الطقس. رأيت ألكس و دنيس، وعمالقة أفالون، يلفهم درع من الجلد مزين بالمسامير. كانوا عمالقة بالفعل، شعرهم أشقر، يستندون على الهيكل الضخم لعربة الأوبيسونت، عاقدي الأذرع في حالة انتظار.

لم أجد الوقت لأسأل نفسي مزيدًا من الأسئلة. دخل أحدهم بإجلال، وامتدت يد لتفرض الصمت على الجميع. تعرفت على برامانتي فقط لأنه، كان يرتدي الرداء الكهنوتي القرمزي، والقلنسوة البيضاء، والتاج الأسقفي، والتي رأيتها عليه في ذلك المساء في بيمونتي. اقترب من المجمرة، ألقي فيها بشيء ، فاندفع منها اللهب ، وارتفع دخان أبيض وبالتدريج انتشر في القاعة. وفكرت، تمامًا مثلما حدث في ريو، في الحفل السيميائي. ولكن لم تكن لدي آلة الأجوجو. غطيت أنفي وفمي بالمنديل، وكان البندول يتراوح أمامي في اتجاهات عديدة، مثل ألعاب الملاهي.

بدأ برامنتي في الترنيم: ألف بات جيمل دالت هي واو زين هت تت جود كاف لاميد ميم نون سامك أجين بي صاد كوف ريش شين تاو!

وأجابت الجموع مبتهلين: بارميسيل، باديل، كامويل، اسليل، بارميل، جيديل، إسيريل، ماسيريل، دورشيتيل، أوسيل، كاباريل، رايسيل، سيميل، أرماديل...

أعطى برامانتي إشارة، وظهر أحدهم من وسط الجموع، وركع على ركبتيه أمام برامانتي. رأيت وجهه فقط لثانية. كان ريكاردو، الرجل ذو الندبة، الرسام.

كان برامانتي يسأله وهو يجيب، وكان يتلو من الذاكرة صيغ الطقس.

ـ من أنت؟

ـ أنا تابع، لم أدخل بعد إلى الأسرار العليا للتريس. لقد أعددت نفسي من خلال الصمت والتأمل في غموض البافومت، وفي معرفة العمل العظيم الذي يدور حول الأختام الستة غير الملموسة، وفقط في النهاية سنعرف السر السابع...

ـ كيف تم استقبالك؟

ـ من خلال تعامد البندول.

ـ ومن استقبلك؟

ـ مراسل غامض.

ـ هل يمكنك التعرف عليه؟

ـ لا، لأنه كان مقنعًا. أنا أعرف فقط الفارس الذي في رتبة أعلى من رتبتي، الذي يعرف من هو في رتبة أعلى منه، وكل واحد يعرف واحدًا فقط. وهكذا أريد أنا أيضًا.

وتحدث معه باللاتينية قليلاً ثم سأله:

ـ هل أحضرت المرأة؟

ـ نعم، هي هنا. لقد سلمتها إلى الشخص، حسبما أمرت. وهي جاهزة.

ـ اذهب، ولكن كن مستعدًا.

استمر الحوار في فرنسية سيئة من الطرفين. ثم قال برامانتي: أيها الإخوة، ها نحن مجتمعون الآن باسم النظام الوحيد، النظام المجهول، لذلك النظام، الذي حتى الأمس لم تكونوا تعلمون أنكم تنتمون إليه، ولكنكم كنتم دائمًا أعضاء فيه! لنقسم. اللعنة على كل من يجدف على السر. اللعنة على كل متملقي العبادات السرية. اللعنة على كل من يقدم شعائر طقوس الأسرار في عروض!

ـ اللعنة!

ـ اللعنة على كلية الخفيين، وعلى أبناء حيرم غير الشرعيين، وعلى الأرملة، على الخبراء العاملين ومقدمين الكذبة الشرقية أو الغربية، القديمة، المقبولة أو المُعدلة. اللعنة على ميسرايم وممفيس، على الأخوات التسع، على المحافظين وعلى نظام الفرسان الشرقي، على الاستناريين في بافريا وأفينيوني، على فرسان كادوش، وعلى مختاري كوهين. اللعنة على جماعة الصداقة الكاملة، على فرسان النسر الأسود والمدينة المقدسة. اللعنة على جماعة الروزا كروتشي في أنجليا، وعلى قبالي الروزا مع الصليب الذهبي، على الفجر الذهبي، على الروزا كروتشي الكاثوليكية للمعبد والكأس المقدس. اللعنة على جماعة نجمة الصباح، وعلى التنجيم الأرجنتيني، وعلى ثيليما.

اللعنة على فريل وثول، وأي شخص استغل اسم الأخوية العظيمة البيضاء، وعلى حراس المعبد، وأي كلية ومعهد لصهيون والغال!

ـ عليهم اللعنة!

ـ إن أي شخص قام بسبب السذاجة، الخضوع، الاهتداء والحسابات أو إيمان مضلل بالانضمام إلى أي جماعة أو كلية، إلى جماعة دينية، أو مجلس، أو أي نظام يشير بطريقة غير شرعية إلى الرؤساء المجهولين أو سادة العالم، لابد أن يجحد هذه العضوية الآن وأن يتضرع لينال الإصلاح الكامل في النفس والجسد من النظام الوحيد والحقيقي، التريس، الفرسان الملكيين لإحياء المعبد. النظام الثلاثي السري وأكثر الأنظمة سرية.

ـ في ظل جناحيه يحتمون!

ـ فليدخل الآن رفيعي المقام للستة والثلاثين درجة النهائية وبالغة السرية.

وبينما كان برامانتي ينادي المختارين واحداً تلو الآخر، كانوا يدخلون في ملابس طقسية، وكان الجميع يحملون على صدورهم إشارة الفروة الذهبية.

ـ فارس البافومت، فارس الأختام الست غير الملموسة، فارس الختم السابع، فارس التتراماتون، فارس عدالة فلوريان والآلهة، فارس الأتانور... الخبير المحترم لبرج بابل، الخبير المحترم للهرم الأكبر، الخبير المحترم للكاتدرائيات، الخبير المحترم لمعبد سليمان، الخبير المحترم للحديقة البلاتينية، الخبير المحترم لمعبد هليوبوليس...

كان برامانتي يتلو الألقاب المكرمة وكان المدعوون يدخلون في مجموعات، بحيث لم أستطع أن أعطي لكل منهم اللقب الخاص به، ولكن بالتأكيد رأيت بين الاثني عشر الأوائل دي جوبرناتيس، ومسن مكتبة سلاون، والبروفسور كامسترس وآخرين قابلتهم في تلك الليلة في بيمونتي. وأعتقد أن فارس التتراجراماتون كان السيد جاراموند، كان هادئًا، يرتدي زيًا كهنوتيًا، وكان يضع يده المرتعشة على إشارة الفروة الذهبية الموضوعة على صدره. وفي ذلك الوقت استكمل برامانتي: الخبير السري للكرنك، الخبير السري لبافاريا، الخبير السري لباربيلو الغنوصية، الخبير السري كاميلوت، الخبير السري لمونتسيجور، الخبير السري للإمام المختبئ.... البطريرك الأعظم لتومار، البطريرك الأعظم لكيلوينج، البطريرك الأعظم لسان مارتان دي شوم، البطريرك الأعظم

لمارينبايد، البطريرك الأعظم للأوكرانا الخفية، البطريرك الأعظم في أرض غير المؤمنين في قلعة ألموت...

من المؤكد أن البطريرك الأعظم للأوكرانا الخفية كان سالون، كان وجهه رماديًا كالمعتاد ولكن لم يكن يرتدي الروب، بل كان لامعًا، يرتدي رداء أصفر مطرز باللون الأحمر. كان يتبعه بيير، قائد الأرواح بعد الممات للكنيسة اللوسيفيرية، والذي كان يحمل على صدره، في مكان الفروة الذهبية، خنجرًا في غمد ذهبي اللون. واستكمل بارامانتي: إيروجامو المتعالي من الزواج الكيميائي، القائد الأعلى للأرواح إلى الممات، المفوض الأعلى من أرخون الآراخنة، خبير الكتابة الهيروغليفية، الوسيط التنجيمي الأعلى للكون، الحارس الأعظم لمقبرة روزينكروز... الأرخون المتأرجح للتيارات، الأرخون المتأرجح لجوف الأرض، الأرخون المتأرجح للقطب الغامض، الأرخون المتأرجح للمتاهات، الأرخون المتأرجح لبندول البندولات... توقف بارامانتي وبدا لي أنه يعلن تلك الألقاب الأخيرة رغمًا عنه: مبجل المبجلين، وخادم الخدام، المتواضع جدًا، سكرتير الأوديب المصري، المراسل الوضيع لسادة العالم وحارس باب أجارثا، وحامل الجمرة الأخيرة للبندول كلود لويس، كونت دي سان جيرمان، الأمير راكوسزي، وكونت سان مارتان، وماركيز آلييه، سيد سيورمون، ماركيز ويلدون، ماركيز مونفيراتو، وأيمار وبيلمار، كونت سولتيكوف، فارس شونينج، وكونت تزاروجي!

وبينما كان الآخرون يصطفون في الممشى، يواجهون البندول، ووقف المؤمنون في صحن الهيكل، دخل آلييه في حلية مزدوجة لونها أزرق جيري، كان شاحبًا ومتقلص الوجه، وكان يقود في يده، وكأنه يصطحب روح على مدق آدي، شاحبة الوجه هي أيضًا، مذهولة ربما لتناولها عقار ما، لم تكن ترتدي سوى رداء أبيض وحيد ونصف شفاف، كانت لورينزا بلليجريني وكان شعرها ينسدل على كتفيها. رأيتها من جانبها بينما كانت تمر، كانت نقية وضعيفة مثل إحدى العاهرات في لوحات فترة ما قبل رافاييل الفنية. كانت شفافة جدًا، بحيث لم تثر رغبتي مرة أخرى.

قاد آلييه لورينزا بالقرب من المبخرة، وبالقرب من تمثال باسكال. ربت على وجهها المُغيب وأعطى إشارة لعمالقة أفالون، واللذان وقفا بجوارها من الجانبين ليسنداها. ثم ذهب آلييه ليجلس على المائدة أمام المؤمنين، واستطعت أن أراه جيدًا وهو يُخرج من صديريته علبة الدخان الخاصة به ويربت عليها في صمت قبل أن يتحدث.

ـ إخوتي الفرسان. أنتم هنا لأنه في هذه الأيام قال لنا الخبراء المسئولون وأعلمونا، ولذلك فأنتم جميعًا تعرفون لماذا نحن مجتمعون هنا. كان لابد أن نلتقي ليلة الثالث والعشرين من يونيو ١٩٤٥، وربما لم يكن البعض منكم قد وُلد بعد، على الأقل في هيئته الحالية. نحن هنا لأنه بعد مرور ستمائة عام من الخطأ المؤلم جدًا عثرنا على شخص يعرف. كيف عرف ـ وكيف عرف أكثر منا ـ هو سر مثير للقلق. ولكنني أثق أنه يوجد بيننا، ولا يمكن أن يغيب عن هذه المناسبة، صديق حقيقي لي، كان فضولي جدًا في فترة ما، أقول إنني أثق أنه لو كان موجودًا بيننا ربما اعترف لنا بهذا السر. أردنتي!

قام الكولونيل أردنتي ـ كان هو بالتأكيد، مقوسًا كما رأيته، ولكن أكثر نحافة ـ وتقدم بين الواقفين ليمثل في ما تحول لمحاكمته، ووقف على مسافة من البندول، والذي كان يمثل الفضاء الذي لا يجب تجاوزه.

ابتسم آلييه: منذ متى لم ير أحدنا الآخر يا أخي. كنت أعرف بأنه من خلال نشر الأخبار الأخيرة بأنه لن يمكنك المقاومة. إذن؟ أنت تعرف ما قاله السجين، وهو يقول إنه عرفه منك. إذن فقد كنت تعرف وتكتمت الخبر.

قال أردنتي: أيها الكونت، إن السجين يكذب. إنني أتضع بقولي هذا، ولكن الشرف أهم من أي شيء. إن القصة التي أعهدت بها إليه لم تكن تلك التي قصها على الخبراء الخفيين. إن تفسير الرسالة ـ والتي بالفعل كنت قد وضعت يدي عليها، ولم أخف عنك هذا الأمر منذ سنوات عندما تقابلنا في ميلانو، مختلف... لم أكن قادرًا على قراءتها كما قرأها السجين، ولهذا السبب كنت في ذلك الوقت أطلب المساعدة. ولابد لي أن أقول إنني لم ألق أي تشجيع، بل كان كل ما لقيته عدم الثقة والتحدي والتهديدات... ربما أراد أن يسترسل ولكنه بالتحديق في آلييه يحدق أيضًا في البندول، والذي كان يتحرك فوقه مثل العمل السحري... وكأنه منوم مغناطيسيًا سقط على ركبتيه وقال اغفر لي لأنني لا أعلم.

قال آلييه: سامحناك! لأنك تدرك عدم معرفتك. انصرف. إذن يا إخوتي السجين يعرف أشياء كثيرة جدًا، لم يكن يعرفها أي منا. بل إنه يعرف من نحن، وعرفنا نحن حقيقتنا منه. لابد لنا وأن نتصرف بسرعة، بعد قليل ستشرق الشمس. بينما أنتم تستأنفون تأملكم، سأنصرف الآن مرة أخرى معه لأنتزع منه الكشف الأخير.

قال بيير الذي تقدم للأمام في وسط نصف الدائرة وقد اتسعت حدقتيه: آه، لا يا سيدي الكونت! لمدة يومين تحدثت معه أنت فقط، ودون أن تخبرنا بما يحدث، فهو لم ير شيئًا ولم يقل شيئًا ولم يسمع شيئًاء، مثل القرود الثلاثة المشهورة. ماذا تريد أنت تسأله أكثر هذه الليلة؟ لا، فلتسأله هنا، فلتسأله أمام الجميع!

ـ لتهدأ يا عزيزي بيير. لقد أحضرت إلي هنا هذا المساء من اعتقد بأنها تجسد لصوفيا، الرباط السري بين عالم الخطأ وعالم الحكمة الثمانية الأعلى. لا تسألني كيف ولا لماذا، ولكن مع وجود هذه الوسيطة سيتحدث السجين. قولي لهم من أنت يا صوفيا؟

أما لورينزا، والتي كانت لا زالت في شبه غيبوبة، تساقطت منها الكلمات بصعوبة: أنا ... أنا العاهرة والقديسة.

ضحك بيير: آه، مزحة لطيفة. لدينا هنا صفوة الخبراء ونلجأ إلى عاهرات. لا، نريد الأسير هنا وفورًا، هنا أمام البندول.

قال آلييه: دعنا لا نتصرف كالأطفال، امنحوني ساعة من الوقت، لماذا تعتقد أنه سيتحدث أمام البندول؟

ـ سيتحدث في انصهاره... الذبيحة البشرية! ـ صرخ بيير للمجتمعين في القاعة.

ورد عليه الجمهور: الذبيحة البشرية!!

تقدم سالون: أيها الكونت، لندع التصرفات الطفولية جانبًا، إن أخينا على حق. نحن لسنا تابعين للشرطة.. .

قال آلييه في تهكم: أنت من وسط الجميع الذي تقول هذا.

قال سالون: نحن لسنا الشرطة، ولا يناسبنا أن نتعامل بطرق التحقيق المعتادة. ومن جهة أخرى، لا أعتقد أن تقديم ذبيحة لقوى الأرض السفلية سيكون ذا فائدة. إذا كانت تريد أن تمنحنا إشارة لفعلت ذلك منذ أمد طويل. هناك شخص آخر يعرف بالإضافة إلى السجين ولكنه اختفى. في هذا المساء يمكننا أن نواجه السجين بأولئك الذين كانوا يعرفون... ـ ابتسم وهو يحدق في آلييه، وكانت عيناه تضيقان أسفل حاجبيه الكثيفين ـ وأن نواجههم نحن أيضًا...

سأل آلييه، في صوت يحمل نوعًا من عدم الثقة: ماذا تقصد يا سالون.

قالت امرأة: إذا سمح لي السيد الكونت يمكنني أن أفسر هذا.

كانت المتحدثة هي مدام أولكوت، تعرفت عليها من الإعلان. كانت شاحبة ترتدي رداء زيتوني اللون، شعرها، أسود مزيتًا ومربوطًا في مؤخرة العنق. وكان صوتها أجش كصوت رجل. في مكتبة سلاون تعرفت على وجهها والآن تذكرت: كانت هي الكاهنة الدرويدية التي جرت نحونا في منتصف تلك الليلة في بيمونتي. وقالت: أليكس، دنيس، أحضرا السجين هنا.

تحدثت في لهجة مستبدة. عبرت الهمهمة التي انتشرت في القاعة عن التأييد. أطاع العملاقان، وتركا لورينزا في يد اثنين من المتوحشين الصغار. تشبثت يدي آلييه بعرشه، فلقد تمت تنحيته.

أعطت مدام أولكوت إشارة إلى وحوشها الصغار، وتم وضع ثلاثة مقاعد بين تمثال باسكال وعربة الأوبيسونت، والتي عليها أجلست ثلاثة أشخاص. وكان الثلاثة ذوو بشرة داكنة، وأحجام صغيرة، كانوا عصبيين، وعيونهم متسعة بيضاء اللون. "إنهم التوائم فوكس، أنت تعرفهم جيدًا أيها الكونت، ثيو وليو وجيو، اجلسوا واستعدوا.

في تلك اللحظة عاد عمالقة أفالون للظهور من جديد ممسكين بين ذراعيهم جاكوبو بيلبو شخصيًا، والذي كان يصل إلى كتفيهم بالكاد. كان صديقي المسكين شديد الشحوب، وذقنه النابتة منذ عدة أيام، كانت يداه مربوطتين خلف ظهره وقميصه مفتوح مظهرًا صدره. جعله الدخول إلى الحلبة المليئة بالدخان في الغمز بعينيه. يبدو أنه لم يكن مندهشًا من مجموعة الكهنة الإغريقيين التي رآها أمامي؛ ربما كان بالفعل مستعدًا لأي شيء بعد ما مر به في الأيام السابقة.

ولكنه لم يكن يتوقع أن يرى البندول، ليس في هذا الموقع. ولكن شده العملاقين ليواجه مقعد آلييه. وكان الصوت الوحيد هو حفيف البندول خلفه.

وللحظة وجيزة التفت بيلبو ورأى لورينزا. انفعل وأخذ ينادي عليها، وحاول أن يحرر نفسه، ولكن لورينزا، والتي كانت تحدق فيه مزهولة، كانت تبدو وكأنها لا تعرفه.

كان بيلبو بالتأكيد على وشك أن يسأل آلييه ماذا فعلوا بها، ولكن لم يكن لديه الوقت. فمن نهاية القاعة الرئيسية، وتجاه منطقة الخزانة وبيع الكتب، وصل إليهم

صوت دقات الطبول وبعض النغمات حادة لبعض النايات. وفجأة انفتحت أبواب السيارات وخرجت منها أربعة مخلوقات كنت قد رأيتها من قبل، هي أيضًا، في الإعلان الخاص للسيرك الصغير.

كانوا يرتدون قبعات كالطرابيش، وعباءات سوداء واسعة مغلقة حتى الرقبة، وخرج دراويش هورلور من السيارات، وكأنهم ميتون قاموا من قبورهم واصطفوا على حواف الدائرة السحرية. وفي العمق بدأت النايات تشكل الآن موسيقى عذبة، بينما كانوا هم، بالعذوبة نفسها، يضربون أياديهم على الأرض ورءوسهم منحنية.

من جسم الطائرة بريجيت، ومثل المؤذن الواقف على المئذنة، ظهر خامسهم، والذي بدأ في الترنيم بلغة مجهولة، ,أخذ يئن ويشكو بنبرات صارخة، وبينما عادت الطبول تدق وزادت في توترها.

انحنت مدام أولكوت خلف الإخوة فوكس وكانت تهمس بعض عبارات التشجيع. استرخى الثلاثة على المقاعد، وأيديهم موضوعة على مسنديها، وأعينهم مغلقة، وبدأ العرق يتساقط منهم، وأخذت كل أعصاب وجوههم تتقلص.

وجهت مدام أولوكت حديثها لتجمع أصحاب المقامات: الآن سيقوم إخوتي المهرة بأن يستحضروا بيننا ثلاثة أشخاص يعرفون ـ توقفت قليلاً ثم أعلنت ـ إدوارد كيلي، هنريتش كونراث، و... ـ وقفة أخرى ـ كونت سان جيرمانو.

للمرة الأولى أرى آلييه وقد فقد كل اتزانه. قام من عرشه، وارتكب خطأ. ثم قفز متجهًا نحو المرأة، متجنبًا بالصدفة تأرجحات البندول، صارخًا: أفعى، كاذبة، أنت تعرفين جيدًا جدًا أن هذا لا يمكن أن يحدث... ثم توجه إلى الجمع المحتشد: هذا خداع، تزييف، كاذبة! أوقفوها!

لكن لم يتحرك أحد، بل وذهب بيير ليجلس على العرش قائلاً لها: أكملي يا مدام.

هدأ آلييه واستعاد رباط جأشه، ووقف جانبًا، منضمًا إلى الجموع وقال بتحد: حسنًا، لنرا

حركت مدام أولكوت ذراعها وكأنها تشير إلى بداية سباق. أخذت الموسيقى تتزايد في نبرات أكثر حدة، وتتجزأ في نغمات متنافرة، وأخذت الطبول تعزف بلا إيقاع، والراقصون، الذين كانوا قد بدأوا في تحريك جذعهم إلى الأمام وإلى الوراء، إلى

اليمين وإلى اليسار، قاموا ونزعوا عباءاتهم وفردوا أذرعهم، بصرامة، وكأنهم على وشك الطيران. كانت هناك لحظة من السكون، ثم بدأوا يدورون في أماكنهم، مستخدمين أقدامهم اليسرى كمركز الارتكاز، ووجوههم مرتفعة إلى أعلى، مركزين وضائعين، بينما أخذت تنوراتهم ذات الثنيات في اتباع دورانهم وفي الاتساع كالجرس، وكانوا يبدون كالزهور التي تدور في إعصار.

في الوقت نفسه، بدا وكأن الوسطاء، والذين كانوا يتنفسون بصوت غليط، ارتبطوا بشيء ما، تقلصت وجوههم وكأنهم يجاهدون، بلا جدوى، أن يقضوا حاجاتهم. انخفض الضوء في المجمرة، وقام معاونو مدام أولكوت بإطفاء المصابيح الموضوعة على الأرض، وأصبحت الكنيسة كلها مضاءة فقط بالوميض المنبعث من صحن الكنيسة.

وبدأت المعجزة تحدث، ومن فم ثيو فوكس بدأت تخرج رغاوي، تبدو وكأنها تزداد في السمك، وحدث الشيء نفسه لأخويه.

أخذت مدام أولكوت تهمس وتدعو... هيا أيها الإخوة، تعالوا... تعالوا.. تماماً... أجل...

أخذ الراقصون يغنون بأصوات متهدجة، هيستيرية، يضربون رءوسهم ويصرخون ويصدرون ضوضاء متقلصة، وكأنهم زواحف تحتضر.

أخذت الأشياء الصادرة من الوسطاء تتضح، وأصبحت ملموسة أكثر، وكانت مثل حمم من الزلال أخذت تُفك تدريجيًا، تصعد وتهبط، ثم تتزحلق على أكتافهم وعلى صدورهم ووصولاً لأقدامهم، وكأنها حركات ملتوية لثعبان. لا أستطيع أن أجزم الآن إذا كانت قد أتت من ثنايا جلدهم أو من أفواههم، أذنهم وعيونهم. تقدم الجمع مقتربًا أكثر فأكثر من الوسطاء والراقصين. فقدت كل الخوف: واثقًا أنه لن يتمكنوا من ملاحظتي وسطهم، وخرجت من صندوق الحارس، ولكنني بهذا عرضت نفسي أكثر للدخان الذي انتشر وتجمع خلف الخزانات.

ظهر حول الوسطاء ضوء أبيض. وبدأت الرغوة تفصل نفسها عنهم، لتتخذ شكلاً أميبيًا. ومن كتلة خرجت من أحد الوسطاء، انطلق جزء حر، تحول، وتحرك إلى أعلى نحو جسده، مثل حيوان على وشك الهجوم بفكه. وفي النهاية قامت كتلتان معًا بتكوين قرنين حلزونيين عملاقين.

لم يتوقف الراقصون، بعيونهم المغلقة، وأفواههم مزبدة، عن الدوران، ثم بدأوا في دورات أكثر اتساعًا حسبما يسمح لهم الفضاء حول البندول، وكانوا يفعلون ذلك بطريقة إعجازية دون أن يتجاوزوا مساره. وبدورانهم أسرع وأسرع انخلعت طرابيشهم، وأطلقوا شعرهم الأسود الطويل، وبدت رءوسهم، وكأنها تطير من فوق أعناقهم. وأخذوا يصرخون مثلما فعل الراقصون في تلك الليلة في ريو: هوووو هوووو هووووو...

بدأت الأشكال البيضاء تتضح: تحولت إحداها إلى شبه هيئة بشرية، وأخرى من قضيب إلى أنبولة ثم إلى أمبيق، أما الشكل الثالث فقد أتخذ بوضوح شكل طائر، بومة مرتدية نظارات كبيرة الحجم، وأذنها منتصبة، المنقار المقوس لناظرة مدرسة مسنة، أو مدرس علوم طبيعية.

سألت مدام أولكوت الشكل الأول: كيللي، أهذا أنت؟

ومن الشكل أجاب صوت ما، بالتأكيد لم يكن ثيو فوكس هو المتحدث. قال الصوت، من بعيد، في إنجليزية متلعثمة: الآن... أكشف ... سرًا عظيمًا، إذا أصغيتم جيدًا...

قالت مدام أولكوت بإصرار: أجل، أجل..

استكمل الصوت: إن هذا المكان نفسه تطلق عليه أسماء كثيرة... الأرض... الأرض هي أقل عنصر فيها جميعًا... إذا دارت العجلة ثلاث مرات... هذا هو سري العظيم الذي أكشفه لكم...

ثيو فوكس أشار بيده وكأنه يطلب الرحمة. قالت له مدام أولكوت: لا، تمسك به. ثم وجهت حديثها إلى شكل البومة: أنا أعرفك يا كونراث، ماذا لديك لتقوله لنا.

تحدث شكل البومة قائلاً: هلليلو.... يا.... هلليلو.... يا.... هلليلو......يا.... ما؟

ـ ما؟

ـ ما فائدة... المصابيح... والضوء... والمرايا... إن لم يرغب الناس في الرؤية.

قالت مدام أولكوت: ولكننا نريد أن نرى، قل لنا ما تعرفه.

ـ الرمز الكوني... الثاني... الأرض يكمن فيها القوى الكونية... إلى اللاهوتيين...

كان ليو فوكس منهكًا بدوره. ضعف صوت البومة، وسقط رأس ليو على صدره، كان مجهود الاحتفاظ بالشكل عظيمًا. ولكن قالت له مدام أولكوت القوية بأن يحتفظ به،

ووجهت حديثها إلى الشكل الأخير. والذي كان قد اتخذ الآن ملامح مجسمة: سان جيرمانو ، سان جيرمانو، أهذا أنت؟ ماذا تعرف؟

بدأ الشكل يدندن بنغمة ما. طلبت مدام أولكوت من الجميع التزام الصمت. توقفت الموسيقى عن العزف، ولم يعد الراقصون يهمهمون، ولكنهم استمروا في الدوران، على الرغم من التعب البادي عليهم.

بدأ الشكل في الغناء: أيها الحب الرقيق، في هذه الساعة تصاحبني...

قالت مدام أولكوت بصوت مُرحب: إنه أنت، أنا أعرفك، تكلم، وقل لنا أين، وماذا...

قال الشكل: كان الوقت ليلاً... وكانت الرأس مغطاة بحجاب من الكتان... وصلت، وعثرت على هيكل حديدي، وضعت عليه الفرع الغامض... أوه، اعتقدت أنني هبطت إلى الهاوية... وجدت نفسي في أنفاق مكونة من أحياء من الحجر الأسود... رحلتي أسفل سطح الأرض...

صرخ آلييه: إنه خدعة، زيف. أيها الإخوة، إنكم جميعًا تعرفون هذه الكلمات. إنها من كتاب Très Sainte Trinsophie، لقد ألفته بنفسي، أي شخص يمكنه أن يقرأه إذا دفع ستين فرنكًا!

ثم هرع نحو جيو فوكس وبدأ يهزه من ذراعيه.

صرخت مدام أولكوت: توقف أيها الدخيل! ستقتله!

صرخ آلييه وهو يجر الوسيط من مقعده: وماذا إذا فعلت هذا؟

حاول جيو أن يدعم نفسه بأن يمسك بالشكل الذي أخرجه، ولكنه سقط معه وتحطم على الأرض. اصطدم جيو بالمادة اللزجة وبدأ في التقيؤ، حتى تجمدت أوصاله، بلا حياة.

ـ توقف أيها المجنون. ـ صرخت مدام أولكوت وهي تمسك بآلييه. ثم وجهت حديثها إلى الأخوين الآخرين : قاوما يا صغاري، لابد أن يتكلما مرة أخرى. كونراث، كونراث، قل لهم إنكم حقيقيون.

كان ليو فوكس، لكي يبقى على قيد الحياة، كان يحاول أن يمتص من جديد شكل البومة. وقفت مدام أولكوت خلف ظهره وأخذت تضغط على صدغيه لتخضعه لإرادتها.

أدركت البومة أنها على وشك أن تختفي وتوجهت إلى من أخرجها مهمهة: ابعد ابعد يا شيطان! محاولة لأن تعقره بمنقارها في عينيه. صدر عن ليو صوت قرقرة وكأن أحدهم قطع عنقه. وسقط على ركبتيه. واختفت البومة في روث يثير الغثيان، وهي مازلت تصدر أصواتًا، والذي فيه سقط الوسيط واختنق، وظل في الطين بلا حراك.

التفتت مدام أولكوت إلى ثيو، الذي كان يقاوم بشجاعة، وقالت: تحدث يا كيللي، هل تسمعني؟

لم يعد كيللي يتحدث. كان يحاول أن يفصل نفسه عن الوسيط، الذي صرخ صرخة قوية وكأن أحشاءه تمزقت. تعثر الوسيط في أن يسترجع ما أنتجه، ضاربًا يديه في الهواء.

أخذت مدام أولكوت تصرخ: كيللي، ذو الأذن المقطوعة، لا تغش مرة أخرى.

ولكن كيللي، والذي لم يستطع أن يفصل نفسه عن الوسيط، كان يحاول أن يخنقه، أصبح مثل قطعة العلكة، والتي حاول الأخ الأخير أن يتخلص منها بلا فائدة. ثم سقط كيللي أيضًا على ركبتيه، كان يسعل، وكان يختلط مع الشيء الطفيلي الذي يلتهمه، أخذ يدور على الأرض وكأن النيران تحيط به. ذلك الشيء الذي كان كيللي غطاه في البداية مثل الكفن، ثم ذاب بعد أن تركه فارغًا أرضًا، نصف حجمه، مثل مومياء الطفل المحنط لدى سالون. في تلك اللحظة نفسها توقف الراقصون الأربعة مرة واحدة، أخذوا يهزون أذرعتهم في الهواء، وكانوا مثل الغرقى الذين يسقطون مثل الحجارة، ثم انكمشوا على أنفسهم مثل الجراء وهم يغطون رءوسهم بأيديهم.

عاد آلييه إلى الممشى. أخذ يمسح العرق من على جبهته بالمنديل الصغير الذي يزين صديريته، تنفس بعمق مرتين، ثم وضع قرص أبيض في فمه. ثم دعا إلى الهدوء.

ـ أيها الإخوة الفرسان، لقد رأيتم بأنفسكم تلك الحيل الرخيصة التي حاولت هذه المرأة خداعنا بها. دعونا نستعيد اتزاننا ونعود مرة أخرى إلى اقتراحي. امنحوني ساعة واحدة مع السجين بمفردي.

أصبحت مدام أولكوت خارج اللعبة، انحنت على وسطائها، وكانت مصابة بحزن يكاد يكون إنسانيًا. ولكن بيير، الذي كان يتابع كل شيء وهو مازال جالسًا على العرش، عاد للسيطرة على الوضع قائلا: لا، لا توجد غير وسيلة واحدة، الذبيحة البشرية! أعطني السجين.

منجذبين بطاقته، أمسك عملاقي أفالون بيلبو، والذي كان يتابع المشهد بذهول، وألقوا به أمام بيير، والذي ببراعة لاعب الأكروبات، قفز ووضع المقعد على المائدة، ودفع بالعملاقين إلى مركز الجوقة . جذب سلم البندول أثناء مروره وأوقف الجسم الكروي الذي كان يترنح أسفل قوة الارتداد. استغرق الأمر ثانية واحدة. وكأن كل شيء كان قد تم إعداده مسبقًا، وربما كانت هناك بعد الإشارات المتبادلة أثناء الفوضى، قفز العملاقان على المائدة ووضعوا بيلبو على المقعد. ربط أحد العملاقين سلك البندول مرتين حول عنق بيلبو، وأمسك الآخر بالجسم الكروي ووضعه على حافة المائدة.

هرع برامانتي ووقف أمام المشنقة، متألقًا بالعظمة في عباءته القرمزية، وأخذ ينشد: إكزورشيتسيو إيجيتور تي بي بنتاجراماتون، إيت إن نوميني تتراجراماتون، بير ألفا إيت أوميجا كوي سونت إن سبيريتو: أزوث، ساداي، أدوناي، جوتجافاه، إيازيريا! ميكايل، جابريال، رافايل، آنايل. فلاوت أودور، سبيريتم إلويم! مانيت تيرا لآدم إيوت ـ كافاه! بير سامال زيبواث إيت إين نوميني إيليوم جيبور، فيني إدراميلاخ! فادي رترو ليليث!

وقف بيلبو فوق المقعد، والسلك ملتف حول عنقه. لم يعد على العمالقة أن يمسكوا به بعد. إذا تحرك خطوة واحدة في أي اتجاه، سيسقط من فوق ذلك المقعد المهتز، وسيخنقه السلك الملتف حول عنقه.

صاح آلييه: أيها المجانين! كيف سيمكنكم وضعه مرة أخرى على محاوره؟ ـ كان قلقًا على سلامة البندول.

ابتسم برامانتي وقال: لا تقلق أيها الكونت. نحن هنا لا نقوم بخلط صبغاتك. إن هذا هو البندول، وقد صنعه الخبراء. وسيعرف أين يذهب. ولنمنحه قوة للأداء، لا يوجد شيء أفضل من الذبيحة البشرية.

حتى هذه اللحظة كان بيلبو يرتعش. رأيته عندئذ يهدأ، لا أقول إنه كان سعيدًا، ولكنه كان ينظر إلى الجموع بفضول. أعتقد أنه في تلك اللحظة وأمام هذا التراشق اللفظي بين الخصمين، وبرؤيته للأجساد التي لا حركة فيها للوسطاء، وعلى جانبيها الراقصون مازالوا يئنون، ومعايير الخبراء تتفكك، عادت إليه مرة أخرى موهبته الأصلية جدًا، قدرته على السخرية.

في تلك اللحظة، أنا متأكد، قرر بيلبو ألا يترك نفسه فريسة للفزع. ربما كان السبب في ذلك وضعه في موقع مرتفع منحه شعور بالعظمة، وكأنه يشاهد، من فوق خشبة المسرح، تجمع مجموعة من المجانين، محبوسة في إقطاعية جينيول الكبير، وعلى الجوانب، تقريبًا بالقرب من المدخل، كانت الوحوش الصغيرة، والتي فقدت اهتمامها بالحدث، بدأت في المزاح فيما بينها والضحك، مثل أنيبالي كانتا لا ميسا وبيو بو.

نظر فقط نظرة قلقة إلى لورينزا بينما يمسك العملاقان بذراعيها. تسبب هذا الاهتزاز بأن عادت إلى وعيها. وبدأت في البكاء.

ربما أراد بيلبو ألا يطلعها على حقيقة مشاعره، أو ربما قرر أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يظهر بها احتقاره لهذا الحشد، وسلطته على هذا التجمع: وقف مستقيمًا، رأسه مرتفعة، قميصه مفتوح على صدره، ويداه مقيدتان خلف ظهره، بفخر، وكأنه لم يعرف الخوف في حياته.

ربما هدأ آلييه بسبب هدوء بيلبو، واستسلم لإيقاف حركة البندول، ولكنه كان مازال متشوقًا لمعرفة السر بعد بحث دام عمره كله (أو حيواته المتعددة)، وأيضًا في محاولة لاستعادة السيطرة على أتباعه، ووجه حديثه لبيلبو مرة أخرى: هيا يا بيلبو، تعقل قليلاً. كما ترى، فأنت الآن في موقف جد غريب ـ هذا أبسط ما يمكن وصفه به. كف عن هذا الأداء المسرحي.

لم يجب بيلبو، نظر بعيدًا كأنه يحاول بأدب أن يتجنب حوار فاجأه بالمصادفة.

أصر آلييه، وقال بنبرة نصح، أبوية: أنا أفهم سبب غضبك وتحفظك. لابد أن فكرة أن تسلم السر الحميم والغالي لرعاع قدموا لتوهم مثل هذا العرض المخجل! حسنًا، يمكنك أن تفضي إلي أنا بمفردي بسرك، بأن تهمسه لي في أذني. الآن سأعمل على إنزالك، وأنا أعلم أنك ستقول لي كلمة، كلمة واحدة.

قال بيلبو: هل تعتقد ذلك؟

عندئذ غير آلييه من نبرته. رأيته متغطرسًا بطريقة لم أرها من قبل، وكانت نبرته كهنوتية وفرعونية. تحدث وكأنه يرتدي إحدى الحلل الفرعونية التي يرتديها زملاؤه. ولكن كانت النبرة مزيفة، كان يبدو وكأنه يحاكي أحد هؤلاء الذي تعامل معهم باحتقار متعال. وفي الوقت ذاته كان يتحدث بكل سلطته المزعومة. ولسبب ما في نفسه ـ لأنه

كان من المستحيل أن يكون هذا بلا غرض ما ـ أدخل أيضًا عنصرًا ميلودراميًا. كان يتصرف وكأنه يمثل، وكان يمثل ببراعة: لم يكن يبدو على بيلبو أي إحباط، كان يستمع إلى آلييه وكأنه لم يكن يتوقع شيئًا آخر منه.

قال آلييه: إنك الآن سوف تتحدث، سوف تتحدث وتنضم إلى هذه اللعبة العظيمة. إذا التزمت الصمت ستخسر. إذا تحدثت، ستشارك في الانتصار. لأنني الحق أقول لك: هذه الليلة، أنت وأنا ونحن جميعًا في هود، هود السفيروت الذي يحكم كل طقس وسحر احتفالي، هود، في اللحظة التي يُفتح فيها ستار الأبدية. لقد حلمت بهذه اللحظة منذ مئات الأعوام. أنت سوف تتحدث، وستنضم إلى الوحيدين الذين سيتم اختيارهم، بعد الكشف الذي ستقوله لنا، لأن يعلنوا أنفسهم سادة العالم. تواضع وسوف يتم تمجيدك. سوف تتحدث، لأني آمرك بأن تتحدث، وكلماتي تعكس ما تعنيه!

أما بيلبو، وقد أصبح الآن لا يقهر ـ قال له بلهجته: بل لتنزع السدادة...

على الرغم من أن آلييه كان يتوقع الرفض، أصاب وجهه الشحوب من جراء الإهانة.

ـ ماذا قال؟ سأل بيير بطريقة هيستيرية.

ـ لن يتحدث. رد آلييه باختصار ثم رفع يديه في علامة استسلام وخضوع وقال لبرامانتي: إنه لك.

وقال بيير منفعلاً: أخيرًا، أخيرًا، الذبيحة البشرية، الذبيحة البشرية!

وصرخت مدام أولكوت: أجل، فليمت. سنعرف الإجابة بطريقة ما ـ وكانت شديدة الانفعال هي أيضًا، بينما عادت إلى المشهد، وأسرعت نحو بيلبو.

في الوقت نفسه، تحركت لورينزا. استطاعت أن تحرر نفسها من قبضة العملاقين، ووقفت أمام بيلبو، أمام قاعدة المشنقة، رافعة ذراعيها، وكأنها تحاول إيقاف جيش الغزاة. وأخذت تصرخ باكية: هل أنتم جميعًا مجانين؟ لا يمكنكم هذا!؟

أما آلييه الذي كان ينسحب من المشهد، وقف ثابتًا في مكانه للحظة، ثم أسرع نحوها ليسندها.

ثم حدث كل شيء في ثوان. انحل شعر مدام أولكوت، واندلع منه اللهيب كالميدوزا، وكشفت عن مخالبها، ونهشت وجه آلييه بأظافرها، دفعته جانبًا بقوة لحظة قفزها.

سقط آلييه إلى الخلف، تعثر في إحدى أرجل المجمرة، دار حول نفسه كالدرويش، ثم اصطدمت رأسه بقوة في إحدى الآلات وسقط على الأرض ووجه مغطى بالدماء. في ذلك الوقت ألقى بيير بنفسه على لورينزا، نزع الخنجر من غمده أثناء تحركه، ولكنه غطى على مجال رؤيتي فلم أستطع أن أرى ما حدث. ثم رأيت لورينزا وهي تقع عند قدمي بيلبو ووجهها كالشمع، وبيير ممسكًا بالخنجر المغطى بالدماء ويصيح: أخيرًا، الذبيحة البشرية!

وواجه الجمهور في القاعة وهو يصرخ بصوت مرتفع صرخة شيطانية.

وتحرك الحشد الموجود في القاعة حركة جسد واحد للأمام: البعض منهم سقط وجروه بعيدًا، والبعض الآخر، أثناء الدفع، كان يهدد بأن يُسقط عربة كونيو. وسمعت ـ لابد أنني سمعت هذا، لا يمكن أن أكون قد تخيلت تفصيلة من النوع الجروتسك كهذه، صوت جاراموند وهو يقول: أيها السادة، أرجوكم ... تهذبوا! وكان برامانتي، في حالة من النشوة، منحنيًا بجوار جسد لورينزا وهو يتكلم بشكل خطابي: أوزيريس، أوزيريس! من القابض على عنقي؟ من الذي دفعني أرضًا؟ من ذا الذي يطعنني في قلبي؟ أنا لا أستحق أن أعبر عتبة منزل ماعت!

ربما لم يقصد أحد ما حدث بعد ذلك، وربما كانت التضحية بلورينزا كافية، ولكن أخذ مساعدي الكهنة الآن يتدافعون داخل الدائرة المسحورة، حيث أصبح من السهل الدخول إليها بسبب توقف حركة البندول، ودفع الآخرون شخصًا، أردنتي على ما أعتقد، ليصطدم بالمائدة، والتي اختفت بعدها تمامًا من تحت أقدام بيلبو، اندفعت المائدة بعيدًا وبسبب الدفعة نفسها بدأ البندول تأرجحًا عنيفًا سريعًا، مصطحبًا ضحيته معه. ألتف السلك، الذي شده وزن الجسم الكروي، حول عنق صديقي المسكين، وطوح به في الهواء وأخذ يتأرجح إلى أعلى ومع البندول، أخذ يتحرك تجاه الجوانب الشرقية من الجوقة ، ثم عاد في اتجاهي، تمنيت عندئذ أن يكون قد فارق الحياة.

تراجع الحشد، متعثرًا، عائدين مرة أخرى إلى حواف شبه الدائرة، ليسمحوا بمساحة للدوران. وأخذ الرجل المسئول عن تأرجح البندول، منتشيًا بعودة البندول إلى الحياة، بتغيير مكان الدفع ليصبح على الجسد المعلق مباشرة.

صنعت محاور الحركة خطًا أفقيًا من عيني إلى إحدى النوافذ، وكانت بلا شك النافذة ذات البقعة الخالية من الألوان، والتي في خلال بضع ساعات سيسقط عليها

أول أشعاع للشمس. ولذلك، لم أر بيلبو وهو يتأرجح أمامي، ولكن هذا، على ما أعتقد، كان الشكل الذي رسمه في الفضاء...

كانت رأسه تبدو كجسم كروي آخر، مقيد في أربطة السلم الذي امتد من مركز حجر العقد: وعندما كان الجسم المعدني الكروي يميل تجاه اليمين كان رأس بيلبو يميل لليسار، والعكس صحيح. وكان الجسمان الكرويان يميلان كل منهما في عكس الآخر، في معظم فترات التأرجح الطويلة، كل منهما على أحد جانبي السلك، وبالتالي فما ظهر في الهواء لم يكن مجرد خطًا مفردًا، ولكن نوع من البناء المثلث. وبينما كانت رأس بيلبو تتبع جذب السلك، كان جسده ـ في البداية في أثناء تشنجاته الأخيرة، ثم في فترة المرونة التي لا تحكم فيها لعروس خشبية، الذراع في ناحية والأقدام متدلاة بحرية ـ يرسم أقواسًا أخرى في الفراغ، أقواسًا مستقلة عن الرأس، وعن السلم والجسم الكروي في أسفل. جاءني خاطر عن إذا كان يمكن لأحد أن يصور المشهد على طريقة مايبريدج في التصوير، مركزًا على صحن الكنيسة في كل لحظة تتتابع فيها المواقع، مسجلاً أقصى نقطتي التراخي التي تصل إليها الرأس في كل دورة، ونقطتي الاسترخاء للجسم الكروي، ونقاط تقاطع السلك مع الزمن، معتمدًا على كل من الرأس والجسم الكروي، وعلى النقاط الوسيطة المسجلة على مستوى تأرجح الجذع والقدمين: في ذلك المشهد، كان بيلبو بتعلقه ذلك في البندول سيرسم في الفضاء، شجرة السفيروت، جامعًا في حركته الأخيرة تقلب الأكوان كلها، مثبتًا في حركته إلى الأبد المراحل العشر للزفير والتصفية الفانية للألوهية في العالم.

نظرًا لأن الرجال مرتدي الفراك استمروا في تشجيع التأرجح الجنائزي، أصبح جسد بيلبو، من خلال الإضافات والحذف المريع للقوى الموجهة، ومن خلال هجرة الطاقات، ثابتا فجأة، وأصبح السلك والجسم الكروي متحركين، ولكن من مكان جسده إلى أسفل، أما الباقي فقد أصبح عاموديًا، مع وجود بيلبو متصلاً بالقبة. هل هرب بيلبو بذلك من خطأ العالم وتحركاته، هل أصبح هو نفسه الآن، نقطة التعلق، النقطة الثابتة، المكان الذي منه تتعلق قبة العالم. بينما أسفل قدميه استمر السلك والجسم الكروي في التأرجح من قطب إلى آخر بلا سلام، والأرض تنحسر مبتعدة عنهما، مُظهرة في كل مرة قارة جديدة. لم يكن بإمكان الجسم الكروي أن يشير إليّ، ولن يمكنه على الإطلاق أن يعرف، موقع مركز العالم.

وبينما عادت حشود عبدة الشيطان، والتي كانت لثوان مذهولة أمام تلك الأعجوبة، للتحدث من جديد، قلت لنفسي إن القصة قد انتهت بالفعل. وإذا كان هود هو سفيروت المجد، فلقد نال بيلبو المجد. لقد صالحه تصرف واحد، خال من الخوف، مع المطلق.

إن البندول المثالي يتكون من سلك رفيع جداً، والذي لن يتسبب في أي مقاومة في الثني أو الالتفاف، طوله ط، ويتم فيه ربط كتلة في مركز الكتلة. بالنسبة للجسم الكروي، يكون مركز الكتلة هو المركز، بالنسبة للجسم الإنساني، فهو النقطة ٠,٦٥ من الارتفاع، بالقياس من القدم. وإذا كان الرجل المشتوق طوله ١,٧٠ م، فإن مركز كتلته سيقع على بعد ١,١٠ م من القدم، والطول ط سيكون متضمنًا في هذا المسافة. بكلمات أخرى، إذا كانت المسافة من رأس الرجل إلى عنقه ٠,٦٠ م، فإن مركز الكتلة هو ١,٧٠-١,١٠ = ٠,٦٠م من الرأس، و٠,٦٠ ذ ٠,٣٠ = ٠,٣٠ م من العنق.

إن مدة البندول التي اكتشفها هيوجنز تقاس ب:

الزمن (بالثواني) = QUOTE

حيث ط هو الطول بالأمتار، ٩ = ٣,١٤١٥٩٢٧.... ?و ج=٩,٨م/ث٢. وبالتالي فإن المعادلة (١) ينتج عنها:

أو بطريقة أو بأخرى

QUOTE

ملحوظة: الزمن مستقل عن وزن الرجل المشنوق. (كل الرجال متساوون لدى الله...)

أما بالنسبة للبندول المزدوج، واحد بثقلين متعلقين في السلك نفسه... فإذا نقلت(أ)، يتأرجح (أ)، ثم يتوقف بعد لحظة ويتأرجح (ب). إذا كانت الأوزان المزدوجة مختلفة أو إذا كانت أطوالها مختلفة، فإن الطاقة تمر من واحد إلى الآخر، ولكن لن تكون فترات تلك التأرجحات متساوية... إن هذا الاختلال في الحركة ينتج أيضًا. إذا، بدلاً من تجعل الثقل (أ) يتحرك بحرية وينظم حركته، تطبق عليه قوة، على النظام المتحرك بالفعل. أي إذا هبت الرياح العاصفة على الرجل المعلق بطريقة غير متناسقة، بعد قليل، سنجد أن الرجل المشنوق سيصبح بلا حراك، وستتحرك المشنقة وكأن نقطة ارتكازها هي الرجل المشنوق.

من رسالة خاصة لماريو سالفادوري، جامعة كولومبيا، ١٩٨٤

لم أحتج لمعرفة المزيد، انتهزت فرصة الفوضى ووصلت إلى تمثال جرام.

كان الممر السري مازال مفتوحًا. دخلت وذهبت إلى أسفل، وفي نهاية الدرجات وجدت نفسي فوق رصيف مضاء بمصباح كهربائي، حيث يبدأ سلمًا حلزونيًا. في نهايته، وجدت نفسي في ممر معتم بسقف محدب أعلى. في البداية لم أتحقق أين أنا، ولم أستطع أن أتحقق من مصدر صوت المياه الذي كنت أسمعه. لكن في النهاية اعتادت عيناي الظلام: أدركت أنني في قناة للمجاري بها درابزين ساعدني على عدم السقوط في المياه، ولكن لم يساعدني على تجنب تنفس تلك الرائحة الرهيبة؛ نصف كيميائية ونصف عضوية. على الأقل شيء ما من قصتنا كان حقيقيًا: قنوات المجاري في باريس لكولبرت، فانتوماس وكاوس.

تبعت المجرى الأكبر، وتجنبت الأكثر ظلامًا المتفرعة منه، وكنت أتمنى أن أجد أي علامة لتخبرني أين أنهي هذه الرحلة أسفل سطح الأرض. على كل حال، كنت أحاول الهروب بعيدًا عن الكونسرفاتوار، وبالمقارنة مع مملكة الظلام تلك، فإن قنوات المجاري في باريس كانت الراحة، والتحرر والهواء النقي والضوء.

حملت معي صورة واحدة فقط، الحروف الهيروغليفية التي رسمها جسد بيلبو في كورس الكونسرفاتوار. ماذا كان هذا الرمز؟ إلى أي رمز آخر يشير؟ لم أستطع أن أعرف. أعرف الآن أنه كان قانونًا فيزيقيًا، ولكن تلك المعرفة تمنح الظاهرة معنى رمزيًا أكبر. الآن، وأنا هنا في منزل بيلبو الريفي، وبين مذكراته، عثرت على خطاب من أحدهم، كان يجيب على أحد أسئلته، كان يقول له كيف يعمل البندول، وكيف سيتصرف إذا عُلق به وزن آخر على طول السلك. إذن فإن بيلبو ـ والله وحده يعلم منذ متى ـ كان يفكر في البندول كمكان للجوء وكمقبرة معًا. لقد مات ليس بفعل خطة تم صياغتها منذ فترة قريبة، لقد أعد موته قبل ذلك بكثير، في خياله، دون أن يدرك أن خياله، الأكثر إبداعًا منه، كان يعد واقع موته.

انتصر بيلبو من خلال هزيمته بطريقة ما. أو ربما من يكرس لنفسه طريقة واحدة فقط للفوز يخسر كل شيء؟ ربما يفقد كل شيء إذا لم يدرك أن الانتصار هو انتصار آخر. ولكنني في مساء السبت لم أكن قد اكتشفت هذا بعد.

أخذت أسير بمحاذاة النفق، لا شيء في ذهني، مثل بوستل، ربما تائهًا في الظلام نفسه، وفجأة رأيت علامة. مصباح أكثر إضاءة، معلقًا في الحائط، أظهر لي سلمًا آخر، مؤقتًا، يقود إلى باب خشبي خفي. دخلت منه ووجدت نفسي في قبو مليء بالزجاجات الفارغة، ثم ممر به دورتي مياه، مرسوم على باب واحد منها رجل صغير وعلى الآخر سيدة صغيرة. لقد عدت مرة أخرى إلى عالم الأحياء.

توقفت، بلا أنفاس. عندئذ فقط تذكرت لورينزا. وعندئذ أخذت أبكي. ولكنها كانت تنزلق بعيدًا، تاركة دورتي الدوية، وكأنه لم يكن لها أي وجود سابق. لم أستطع حتى أن أرى وجهها. في ذلك العالم من الأموات، كانت هي الأكثر موتًا.

في نهاية الممر وصلت إلى سلم آخر، وباب. دخلت إلى مكان معبئًا بالدخان، ذى رائحة شريرة، حانة أو بار شرقي، سقاة لونهم أسود، عملاء تنبعث منهم رائحة العرق، أسياخ تغطيها الشحم، وأكواب من الجعة. ظهرت، مثل أي عميل عادي، ذهب إلى الحمام ثم عاد. لم يلحظني أحد. ربما فقط الرجل الذي يجلس أمام الخزانة، عندما رآني أصل من الخلف، أعطاني علامة لا يمكن إدراكها، وهو يضيق عينيه وكأنه يقول: نعم، أنا أفهم، هيا ادخل، فأنا لم أر أي شيء.

(١١٥)

إذا كانت العين المجردة في استطاعتها أن ترى الشياطين التي تسكن العالم، لكان الوجود مستحيلا.

(التلمود، باركوت، ٦)

عندما تركت البار وجدت نفسي بين أضواء ميناء سان مارتان. كان البار عربيًا، وكانت المحلات حوله مازلت مفتوحة، عربية أيضًا. كانت هناك رائحة مختلطة للفلافل والكسكس، والازدحام. كانت هناك مجموعات من الشباب، الرفيع، في حقائب النوم. سألت أحد الصبية ماذا يحدث. قال لي: إنها المسيرة. غدًا ستكون المسيرة الكبيرة ضد قانون سافاري، وكان المتظاهرون يصلون في الحافلات.

قام أحد الأتراك ـ أو الدروز، أو الإسماعيليين المتنكرين، بدعوتي، متحدثًا فرنسية ركيكة، للذهاب معه إلى إحدى النوادي. مستحيل. لابد أن أهرب من قلعة ألموت. أنت لا تعرف من يقوم بخدمة من. لا تثق بأحد.

عبرت التقاطع. الآن لم أعد أسمع سوى وقع أقدامي. تلك هي ميزة المدن الكبيرة: لا يحتاج المرء إلا أن يسير بضعة أمتار ليعثر على الوحدة مرة أخرى.

فجأة، بعد بضعة مبان، كان الكونسرفاتوار على يساري، شاحب شحوب الليل. كان يبدو من الخارج في سلام تام، أثر نائم، نوم العدل. تحركت إلى الجناح الشمالي، تجاه نهر السين. كان لدي اتجاه ما، ولكنني لم أكن أعرف أين هو. أردت أن أسأل أحدهم ماذا حدث.

هل مات بيلبو؟ كانت السماء صافية. تقابلت في طريقي ما مجموعة من الطلبة، كانوا صامتين، ربما متأثرين بروح المكان. على اليسار، كان يقف التمثال الضخم لسان نيكولا دي شوم.

استأنفت السير على طريق سان مارتان. عبرت شارع أو أورس، كان كبيرًا مثل البوليفار، أخشى فقدان الطريق، الذي لا أعرفه. نظرت حولي وعلى اليمين، في

الزاوية، رأيت الواجهتين الزجاجيتين لمطبوعات الروزا كروتشي. كانت أنوارها مطفأة، ولكن بمساعدة إضاءة مصابيح الطريق ومصباحي اليدوي، استطعت أن أميز محتواها. الكتب والأشياء: تاريخ اليهود، كونت سان جيرمانو، السيمياء، العالم الخفي، المنازل الخفية للروزا كروتشي، رسالة بنائى الكاتدرائيات، الكثاريين، أطلنطس الجديدة، الطب المصري، معبد الكرنك، رحلة الباكاوات، التناسخ، صلبان وشمع الروزاكروتشي، تماثيل لإيزيس وأوزوريس، شموع في صناديق وأقراص، وورق التاروت. كان هناك أيضًا خنجر، فتاحة خطابات وعليها مقبضها الدائري يحمل ختم الروزا كروتشي. ماذا يفعلون، هل يسخرون مني؟

عبرت واجهة مبنى البوبور. أثناء النهار يتحول المكان إلى معرض لمنتجات القرى، الآن القصر مهجور تقريبًا. بعض المجموعات الصامتة، تتام، وشيء من الضوء الصادر من المطاعم الصغيرة المقابلة. كل شيء حقيقي. أنابيب عملاقة تمتص الطاقة من الأرض. ربما الجموع التي تأتي هنا خلال النهار تعمل على إمدادها بالذبذبات؛ ربما تتغذى تلك الآلات الهيرمسية على اللحم الطازج.

كنيسة سان ميري. في مواجهتها مكتبة لا فويفر، ثلاثة أرباع منتجاتها عن العبادات السرية. لابد ألا أستسلم للهيستيريا. أسير في شارع دي لومبار، لأتجنب جيش من الفتيات الإسكاندنافيات الخارجات يتضاحكن من المطعم. اصمتن جميعًا: ماتت لورينزا.

هل حدث هذا بالفعل؟ ماذا إذا كنت أنا من مات؟ شارع لومبار، يتعامد عليه شارع فلاميل، وفي نهاية شارع فلاميل يبرز برج سان جاك، أبيض. في التقاطع توجد مكتبة أركان ٢٢، كروت التاروت، وبندولات. نيكولاس فلامبل السيميائي، ثم مكتبة سيميائية، وبرج سان جاك: مع الأسدين الأبيضين في القاعدة، ذلك البرج عديم الفائدة، والتي تعود للغوطية القديمة على طوال السين، والتي تم إطلاق اسمه على مجلة. كان باسكال يجري تجاربه هناك على وزن الهواء، وحتى اليوم، على ارتفاع اثنين وخمسين مترًا يوجد في البرج محطة لأبحاث الأرصاد. ربما بدأوا ببرج سان جاك قبل أن يبنوا برج إيفيل. توجد مناطق مميزة، ولا أحد يدرك ذلك.

أعود تجاه سان ميري. مزيد من ضحكات الفتيات. لا أريد أن أرى أحد. أدور حول الكنيسة، من شارع دي كلواتر سان ميري، يوجد باب جانبي قديم من الخشب الخشن.

على اليسار يبدأ ميدان، على الحد الأقصى من شارع بوبورج، مضيء تمامًا. في مساحة مفتوحة توجد آلات ماركة تنجيلي، وأعمال فنية ملونة تسبح على سطح بحيرة صغيرة اصطناعية، عجلاتها المسننة تصدر صريرًا، وفي الخلفية أرى مرة أخرى سقالات أنابيب دالماين، ذات الفوهات الكبيرة، مثل التايتانيك المهجورة بجوار الحائط وقد غطاها اللبلاب، حطام سفينة في حفرة قمرية. حيث تفشل الكاتدرائيات، تهمس فتحات عابرات المحيطات هامسة في أذن العذارى السوداوات. لا يكتشف هذا سوى من يعرف كيف يبحر تبعًا لشروط سان ميري. لذلك لابد من الاستمرار، لدي أثر ما، أنا أعرف أحد الأسرار، لابد وأن أكشف عن مؤامرتهم في المركز نفسه لمدينة النور، مؤامرة أتباع الظلام.

أعرج إلى شارع جوج كونسيول، أجد نفسي أمام واجهة سان ميري. شيء ما يدفعني لأضيء مصباحي أمام البوابة. زخرفة غوطية، وأقواس متعانقة.

فجأة، بالبحث عما لم أتوقع العثور عليه، في واجهة القوس رأيته.

إنه البافومت. حيث تتعانق أنصاف الأقواس، بينما في قمة الأول توجد الحمامة رمز الروح القدس بمجد الإشعاعات الحجرية، نجده هو في الثاني، البافومت، محاطًا بملائكة تسبح، بأجنحته البشعة. على واجهة الكنيسة، بلا حياء.

لماذا يوجد هنا؟ لأننا بالقرب من المعبد. أين يقع المعبد أو ما تبقى منه؟

أعود إلى الوراء، أصعد من جديد تجاه الشمال الشرقي، وأجد نفسي في زاوية شارع مونتيمورنسي. في رقم ٥١، منزل نيكول فلامل. بين البافومت والمعبد. السيميائي الداهية كان يعرف مع من يتعامل. سلال مليئة بالقمامة في مواجهة منزل يعود إلى فترة غير محددة، حانة نيكولاس فلامل. المنزل قديم، تم ترميمه للسياح، للشيطانيين المنتمين للدرجات الدنيا، الماديين. بجواره محل أمريكي عليه لوحة شركة آبل: لتهزوا الألوان الحمراء! ميكروسوفت هيرمس، ديركتوري: تاموراه.

ها أنا الآن في شارع لو تمبل (المعبد)، أجتازه وأصل إلى زاويته مع شارع بريطاني حيث يوجد ميدان التمبل (المعبد)، توجد حديقة مصممة على شكل مقابر، إنها مدينة الموتى للفرسان الشهداء.

شارع دو بريطاني وصولاً إلى التقاطع مع شارع فييل دي تمبل. شارع فييل دي تمبل حتى التقاطع مع شارع باربيت به مجموعة من المحلات الغريبة التي تبيع مصابيح إلكترونية ذات أشكال غريبة، بعضها على شكل البط أو على شكل أوراق اللبلاب. حديث بطريقة فجة جدًا. لا تخدعني.

شارع دي فرنك بورجوا: أنا الآن في الماريه، أعلم ذلك، وبعد قليل سأرى محلات الكوشر للجزارة. ما دخل اليهود بفرسان المعبد، وخاصة بعد أن أعطينا مكانهم للحشاشين في قلعة ألموت؟ لماذا أنا هنا؟ هل هي إجابة ما أبحث عنها؟ ربما أنا أحاول فقط أن أهرب من الكونسرفاتوار. أبحث في عقلي لأحاول أن أتذكر أين هو، مثلما كان بيلبو يطارد عنوان مفقود في أحد أحلامه.

تقترب مجموعة فجة. يضحكون بطريقة سيئة، يسيرون متفرقين ويجبرونني على أن أترك الرصيف. أعتقد للحظة أنهم من عملاء شيخ الجبل، وأنهم أتوا ليقبضوا علي. لم يكن هذا حقيقيًا، لقد اختفوا في غياهب الليل، ولكنهم يتحدثون لغة غريبة، شيعية، تالمودية، قبطية. صوت فحيح كثعبان الصحراء.

تقابلني أشكال خنثوية ترتدي عباءات طويلة. عباءات روزا كروتشي. يتجاوزونني ويتجهون إلى شارع سيفينيه. الوقت متأخر، متأخر جدًا. لقد هربت من الكونسرفاتوار لأجد نفسي في مدينة الجميع، وأدرك أن مدينة الجميع ليست إلا أنفاقًا أرضية ذات ممرات خاصة لأعضاء الجمعيات السرية.

شخص ثمل. ربما يتظاهر. لا تثق في أحد، لا تثق دائمًا. أعبر أمام بار مازال مفتوحًا، يجمع الندلاء بمرايلهم الطويلة المقاعد والموائد. أدخل قبل ميعاد الإغلاق وأتناول الجعة. أجترعها وأطلب كوبًا آخر، يقول أحدهم: تشعر بعطش شديد، أليس كذلك؟ ولكن ليس بنبرة مجاملة، بل تحمل كثيرًا من الشك. بالتأكيد أشعر بالعطش، لم أشرب شيئًا منذ الساعة الخامسة ظهرًا، ولكن ألا يمكن أن يشعر المرء بالعطش أيضًا إذا لم يقض ليلته أسفل البندول! أغبياء. أدفع وأذهب، قبل أن يتمكنوا من أن يحتفظوا بملامح وجهي في ذاكرتهم.

والآن أصل إلى ناصية بلاس دي فوسج. أسير بجوار البوابات. أحاول أن أتذكر اسم الفيلم القديم الذي كانت وقع خطوات ماتياس، القاتل المجنون، تُسمع في الليل في

بلاس دي فوسج. أقف. هل أسمع لخطوات أقدام خلفي؟ لن أسمعها بالتاكيد، لابد أن القاتل قد توقف أيضاً. إن تلك الأقواس لا تحتاج إلى بضعة صناديق من الزجاج لتتحول بدورها إلى حجرات في الكونسرفاتوار.

أسقف منخفضة تعود للقرن السادس عشر، أقواس ذات رءوس دائرية، ممرات تبيع نسخ اللوحات، وأنتيكات وأثاث. بلاس دي فوسج ببواباته القديمة والمهشمة، المستهلكة والمبقعة. الناس لم تنتقل من هذا المكان لمئات السنين، الرجال يرتدون الأرواب الصفراء، ميدان لا يسكنه سوى العاملين في التحنيط. يظهرون فقط في الليل. يعرفون موائد التشريح المتحركة، والفتحات الرئيسية التي يمكن من خلالها الدخول إلى العوالم السفلية، ورؤيتها بالكامل.

اتحاد استعادة المساهمة في الأمن الاجتماعي والإسكان العائلي لمنطقة باتيللوري، رقم ٧٥، شقة ١، يليه باب جديد. لعل من يسكن هنا أشخاص أغنياء، ولكن بجواره مباشرة يوجد باب قديم تتساقط طبقته الخارجية، مثل باب في شارع شينزيز ريناتو، ثم في رقم ٣ باب تم ترميمه مؤخراً. نوع من التبادل بين المادة والأشياء المنفوخة، بين السادة وعبيدهم. هنا حيث يوجد شيء مربوط بالمسامير على شيء لابد وأنه كان قوساً في وقت ما. شيء واضح، كان يوجد هنا محل لبيع كتب العبادات السرية، والآن لم يعد له وجود. تم تفريغ كتلة كاملة. لابد وأنهم تركوا المكان أثناء الليل مثل آلييه. يعلمون إن شخص ما يعلم، وهم يحاولون الآن إخفاء آثارهم.

على ناصية شارع بيراج أرى نظرية البوابات اللانهائية بلا روح حية، كنت أفضل لو كان كل شيء مظلماً، ولكن كانت هناك إضاءة مصابيح الشارع الصفراء. يمكنني أن أصرخ ولن يسمعني أحد. جميعهم يلتزمون الصمت خلف تلك النوافذ المغلقة التي لا يتخللها أي خط من الضوء، يهمهم المحنطون وهم يرتدون أروابهم الصفراء.

ولكن لا، من بين الأقواس أرى سيارات وتوجد حديقة في المركز، يمر ظل من حين لآخر. يقطع طريقي كلب راعي ألماني كبير. كلب أسود وحيد في الظلام. أين فراوست؟ هل أرسل واجنر المخلص ليعتني بكلبه؟

واجنر! تلك هي الفكرة التي كانت تحاول الخروج إلى السطح. د. واجنر، إنه الشخص الذي أحتاج إليه الآن. يمكنه هو أن يخبرني إذا كنت أهذي، وأي من الأشباح

حولتها إلى حقيقة، يمكنه أن يخبرني أنه لا شيء حقيقي من كل ما حدث، وإن بيلبو مازال على قيد الحياة ولا وجود للتريس. ياللراحة التي سأشعر بها إذا تأكدت أنني مريض.

أهجر الميدان وأنا أكاد أجري. تتبعني سيارة ما. لا، ربما تحاول فقط البحث عن مكان للركن. أتعثر في كومة من أكياس القمامة. تقف السيارة، لم تكن تطاردني. أنا الآن في شارع سان أنطوان. أبحث عن سيارة أجرة، وتمر واحدة وكأنها استجابة لدعوتي.

أقول للسائق: سبعة شارع إيليزي ريكليو.

(١١٦)

أتمنى أن أكون البرج، معلقا في برج إيفل.

(Blaise Cendras)

لم أكن أعرف أين ذلك الشارع، ولكنني لم أجرؤ أن أسأل السائق، لأن من يركب سيارة أجرة في تلك الساعة لابد وأن يكون في طريقه إلى منزله، فيما عدا ذلك سيكون على الأقل سفاحًا. كان السائق يتذمر أن وسط المدينة مازال مليئًا بهؤلاء الطلبة الملاعين، وأن الحافلات موجودة في كل مكان، كان يراها فضيحة، وإذا كان هو مكان المسئولين، لجعلهم جميعًا يصطفون ووجوههم للحائط. أفضل شيء هو الدوران حول المكان. وقام بالفعل بالدوران حول باريس، وفي النهاية تركني أمام رقم ٧ في شارع منعزل.

لم يكن هناك أي أثر للدكتور واجنر في ذلك العنوان. هل يمكن أن يكون رقم ١٧ في هذه الحالة؟ أخذت أسير، نظرت إلى منزل أو اثنين، هل كنت أفكر في أن أنتزع الدكتور واجنر من فراشه في هذه الساعة المتأخرة من الليل لأخبره عن قصتي؟ لقد وصلت إلى هنا للسبب نفسه الذي من أجله كنت أتجول من بورت سان مارتان إلى بلاس دي فوسج: كنت أهرب. لم أكن أحتاج إلى محلل نفسي، كنت أحتاج إلى قميص المجانين، أو ربما إلى علاج للنوم، أو ربما إلى ليا. أحتاج إليها لتأخذ رأسي بين يديها وتحتضني وتهمس إلي بهمساتها الشافية.

هل كنت أريد دكتور واجنر أم شارع إليزيه ريكليو؟ الآن تذكرت أنني رأيت اسم هذا الشارع أثناء قراءاتي عن الخطة. كان إليزيه ريكليو شخص من القرن الماضي ألف كتابًا عن الأرض وما تحت الأرض والبراكين، وقام بدس أنفه في العوالم السفلية تحت ذريعة الخرائط الأكاديمية، أي أنه كان منهم. لقد هربت منهم ولكن ها أنا مازلت أعثر عليهم حولي، بالتدريج في فضاء بضع مئات من الأعوام. لقد احتلوا باريس كلها وباقي بقاع العالم.

لابد وأن أعود إلى الفندق. هل سيمكنني العثور على سيارة أجرة مرة أخرى؟ من المحتمل أن يكون هذا الحي بعيداً عن الطرق الرئيسية. اتجهت إلى حيث سماء الليل أكثر إضاءة واتساعًا، إلى السين؟ عندما وصلت إلى الناصية رأيته على يساري، كان لابد أن أعلم أنه سيكون هناك، في مكمن ما قريب، في تلك المدينة كانت أسماء الشوارع تكتب رسائل لا غش فيها، تطلق صيحات تحذيرية. كان خطأي هو أنني لم أعرها اهتمامي.

كان يقف هناك، العنكبوت المعدني، الرمز، وسيلة قوتهم: كان لابد أن أهرب إلا أنني شعرت بالانجذاب نحو الشبكة، محركًا رأسي من أسفل إلى أعلى وبالعكس، الآن لم يعد في إمكاني النظر إليه بالكامل بنظرة واحدة، كنت عمليًا بالداخل، جرحني بوحشية بحوافه الحادة. تهاجمني ستائر معدنية تتدلى من كل الجوانب، كان يمكنها أن تسحقني بواحد من تلك المخالب المُركبة بأدنى حركة مني.

البرج. لقد كنت في المكان الوحيد في المدينة الذي فيه يمكنك رؤيته بالكامل، من الجانب، وهو يتطلع بترحاب من محيط الأسقف، بخفة مثل إحدى لوحات دافي. كان فوقًا مني، يبحر نحوي. كان يمكنني أن ألمس القمة، ولكنني تحركت للأمام بين أقدامه، رأيت مؤخرته، جانبيه ومعدته، وشعرت بالأمعاء المركبة التي تسلقت لتنضم للمريء لعنق الزرافة البوليتكنيكي هذا. على الرغم من خاصية الثقوب، فإن لديه القدرة بأن يظلم الأضواء التي تحيط به، وكلما تقدمت، قدم لي، من مختلف المشاهد، مختلف الشرفات الكهفية التي تؤطر لقطات قريبة فجائية وتحولها للظلام.

على اليمين، في الشمال الشرقي، مازال يوجد منخفض في الأفق، قمر المنجل. أحيانًا كان البرج يؤطر القمر. كان يبدو لي هذا كخدعة بصرية، تفلور إحدى تلك الشاشات المائلة التي كونها هيكل البرج، ولكنني تقدمت في السير قليلاً فاتخذت الشاشات أشكالاً جديدة، اختفى القمر، توارى خلف الأضلاع الحديدية، سحقه العنكبوت، هضمه، وانتقل إلى بُعد آخر.

مكعب البعد الرباعي Tesseract، رأيت من خلال أحد الأقواس ضوءًا يتلألأ ـ لا بل ضوئين أحدهما أحمر والآخر أبيض ـ بالتأكيد طيارة تبحث عن مطار رواسي أو أورلي. في اللحظة التالية ـ تحركت أنا، أو الطائرة أو ربما البرج ـ اختبأت الأضواء خلف الأضلاع، انتظرت أن تعاود الظهور في الإطار التالي، ولكنها اختفت إلى الأبد.

كان للبرج مئات النوافذ جميعها متحركة، وكان كل منها يطل على جزء مختلف من الامكان. لم تكون أضلاعه انحناءات تقليدية، لكنها مزقت كل أنسجة الكون، قلبت الكوارث، وتصفحت أوراق عوالم متوازية.

من كان القائل بأن السلالم اللولبية لكنيسة نوتردام دو لابروكونت كانت تعمل على "تعليق باريس فوق سقف الكون؟"، لقد كانت، على العكس، تعلق العالم من قمته. ألم تكن بديلاً للبندول؟

ماذا كانوا يطلقون على البرج من أسماء؟ اللبوس الوحيد، المسلة المجوفة، مجد الأسلاك الحديدية، تمجيد البطارية، الهيكل المعظم لإحدى العبادات الوثنية، نحلة في قلب وردة الرياح، الحطام الحزينة، التمثال الضخم القبيح بلون الليل، الرمز المشوه لقوة لا فائدة له، العجب التجريدي، هرم بلا معنى، جيتار، محبرة، تليسكوب، الإسهاب مثل كلمة احد الوزراء، أحد الآلهة القديمة والوحوش الحديثة... تلك وأشياء أخرى كثيرة. إذا كانت لدي الحاسة السادسة التي لسادة العالم، كنت سأتمكن، بينما أنا أقف بداخل تلك المجموعة من أحباله الصوتية المغلفة بمساميره المخاطية، من الاستماع إلى البرج وهو يهمس بصوت أجش موسيقى الأفلاك حيث يمتص الأمواج من قلب الكواكب المجوفة وينقلها إلى كل مناهير العالم. تركيبات من الجذور، الفصال العنقي، أطراف تعويضية لأطراف تعويضية. ياللرعب! ليخرجوا عقلي من رأسي، حيث أقف، كان على سادة العالم أن يقذفوا بي إلى القمة. كنت بالتأكيد في طريقي للخروج من رحلة في مركز الأرض، كنت أشعر بالدوار، دوار مقاومة الجاذبية في النقائض.

لا، لم نكن نحلم أحلام اليقظة: هنا يقف الدليل القاطع على صحة الخطة. ولكن سرعان ما سيدرك البرج أنني جاسوس، عدو، حبة التربة التي تفيده في نظام الدوران، وعلى الفور سيمد نافذة ماسية من تلك الأسلاك وسيبتلعني، وسأختفى في أحد ثناياته المتلاشية، وسأنتقل إلى مكان آخر.

إذا كنت قد مكثت فترة أطول أسفل فروعه، كانت مخالبه الضخمة ستطبق، ستنحني مثل البراثن، وكانت ستبتلعني، ثم يعود الحيوان ليتخذ وضعه السابق. مجرم، لا يمكن لأحد كشفه.

طائرة أخرى، هذه المرة أتت من لا مكان. لابد وأن البرج نفسه قد أنتجها بين واحدة أو أخرى من أضلاعه القوية. أخذت أنظر إليه، لا نهائي مثل المشروع الذي نشأ من

أجله. إذا كان بإمكاني المكوث دون أن يبتلعني كنت سأتمكن من متابعة تحركاته، ثوراته البطيئة، اختفائه وظهوره الذي يحدث على فترات متناهية الصغر، أسفل النسيم البارد للتيارات. ربما كان سادة العالم يعرفون كيف يفسرونها مثل أثر رملي، وكان يمكنهم من خلال تحولاته غير المفهومة قراءة العلامات الحاسمة المرسلة خفية. كان البرج يدور فوق رأسي، مفك القطب السري. أو ربما كان ثابتًا، مثل دبوس ممغنط يعمل على دوران الوجه السماوي. ولكن كان الدوران واحدًا في الحالتين.

كم يدافع البرج جيدًا عن نفسه! قلت لنفسي. كان يغمز بترحاب من بعيد، وبمجرد أن تقترب منه، وتحاول التغلغل في أسراره، يقتلك، يجمد عظامك، يكشف ببساطة عن فزع بلا معنى، والذي منه صُنع. الآن أعلم أن بيلبو قد مات وأن الخطة كانت حقيقية، لأن البرج حقيقي. إذا لم أهرب الآن، إذا لم أهرب مرة أخرى، لن يمكنني أخبار أحد. لابد من أن أطلق صفارة الإنذار.

ضوضاء. توقف، عد إلى الواقع. سيارة أجرة تتقدم بأقصى سرعة، نجحت بقفزة سريعة أن أنتزع نفسي من الدائرة المسحورة، وأخذت أشير بوضوح، خاطرت بأن تصدمني السيارة الأجرة التي توقفت في اللحظة الأخيرة. بدا على سائقها أنه يوقفها على مضض، أثناء رحلة العودة قال لي إن البرج يخيفه عندما يمر أسفله ليلاً، ولذلك كان يقود بسرعة. سألته: لماذا؟ أجابني: لأن... لأنه مخيف... هذا كل ما في الأمر...

بعد قليل وصلت إلى الفندق. كان لابد لي وأن أضرب الجرس طويلاً لأوقظ الحارس النائم. قلت لنفسي: لابد وأن تنام الآن، ليبق كل شيء للغد. تناولت بعض الحبوب، بل الكثير منها، لأسمم نفسي. ثم لا أتذكر.

(١١٧)

للجنون جناح متسع الأركان

يستقبل فيه أشخاص من كل البقاع

وخاصة من لديهم ذهب كثير

Sebastian Brant, Das Narrenschiff, 1494, 46

استيقظت في الثانية بعد الظهر، مذهول، ومتصلب الجسد. تذكرت كل شيء بدقة، ولكن لم يكن لدي أي شيء يضمن أن ما أتذكره حدث بالفعل. في البداية فكرت في أنني لابد وأن أهرع للخارج لأبتاع الصحف، ثم قلت لنفسي إنه على كل الأحوال إذا كانت فرقة من المحاربين قد تسللت إلى الكونسرفاتوار بعد الحدث مباشرة لن يمكن أن يظهر الخبر على صفحات الجرائد صباحًا.

يزيد على ذلك أن باريس كان لديها شيء آخر يشغلها، حكى لي عنه الحارس على الفور بمجرد أن نزلت لأبحث عن قهوة. كانت المدينة في حالة من الغليان، العديد من محطات المترو مغلقة، والشرطة قابعة في بعض المناطق، وكان الطلبة أكثر بكثير من المعتاد، كانوا قد تمادوا جدًا.

عثرت في دليل التليفون على رقم الدكتور واجنر. حاولت أيضًا الاتصال به، ولكن من الواضح أنه ليس في عيادته في يوم الأحد. كان علي الذهاب لأتفقد الكونسرفاتوار. تذكرت أنه يفتح أبوابه أيضًا يوم الأحد بعد الظهر.

كان الحي اللاتيني مليئًا بالصخب. تمر فيه مجموعات تصرخ وهي تحرك أعلامها. وعلى شارع إيل دو لا سيتي رأيت حاجزًا للشرطة. وكان يمكن سماع أصوات طلقات النيران عن بعد. لابد أن الأمر كان كذلك أيضًا عام ١٩٦٨. لابد أن هناك مصادمات في شارع سان شابيل، اشتممت غاز مسيل للدموع. سمعت أشخاصًا يتسلحون، لم أتبين إذا كانت الشرطة أم الطلبة. الجميع حولي يجرون. بعض منا اختبأ خلف بوابة خلف كوردون الشرطة، بينما كان هناك الشجار يدور في الشارع. يا للخجل، هأنذا الآن أقف في صف البرجوازيين المسنين، في انتظار أن يتم احتواء المظاهرة.

وجدت طريقًا خاليًا، وأخذت أسير في الشوارع الخلفية، حتى وجدت نفسي مرة أخرى في سان مارتان. كان متحف الكونسرفاتوار مفتوحًا بممره الأبيض واللوحة على الواجهة: "كونسرفاتوار الفنون والمواد، أسس بقرار من المجمع في السنة الثالثة من عام الثورة... في الدير القديم لسان مارتان دي شوم، والذي يعود تأسيسه إلى القرن الحادي عشر". كل شيء عادي، مع وجود قليل من زوار يوم الأحد، والذين لا يهتمون بثورة الطلبة.

دخلت ـ مجاناً يوم الأحد ـ وكان كل شيء في مكانه مثلما كان في اليوم السابق قبل الساعة الخامسة. الحراس، والزوار، وكان البندول في مكانه المعتاد... أخذت أبحث عن أي أثر لما حدث، إذا كان قد حدث، لابد أن أحدهم قد قام بعملية تنظيف دقيقة جدًا. إذا كان ما حدث قد حدث بالفعل.

لا أتذكر كيف قضيت ما تبقى من اليوم. لا أتذكر حتى ما رأيته وأنا أتجول في الطرقات، مجبرًا أكثر من مرة أن أغير من مساري لأتجنب أي مصادمات. اتصلت بميلانو، من باب التجربة، اتصلت برقم بيلبو، ثم هاتف لورينزا، ثم دار نشر جاراموند والتي كانت بالتأكيد مغلقة. ولكن بينما أنا هنا الليلة، حدث كل شيء بالأمس. ولكن منذ الليلة السابقة للأمس إلى هذه الليلة مر دهرًا.

وفي المساء أدركت أنني لم أتناول أي طعام. كنت أبحث عن الهدوء، وبعض الراحة. وبالقرب من فوروم هول دخلت إلى مطعم يبدو كمطعم أسماك. كان به الكثير جدًا من السمك، بل كانت مائدتي تقع أمام حوض سمك. كان جوًا سيرياليًا إلى درجة كبيرة ألقى بي في شعور بالشك والريبة. لا شيء يوجد بمحض الصدفة. تبدو هذه السمكة مثل أتباع جماعة الصامتين، تعاني من أزمة صدرية وعلى وشك أن تفقد إيمانها متهمة الإله بأنه قلل من شأن الكون. يا إله الصباؤوت! كيف تمكنت من خداعي حتى صدقت في عدم وجودك؟ اللحم يغطي العالم كالغرغرينة... تبدو السمكة الأخرى مثل ميمي ماوس، إنها تطرف رموشها وتحرك شفتيها في حركة تشبه شكل القلب. ميمي ماوس هي خطيبة ميكي ماوس. تناولت سلطة مع سمك الحدوق، رقيق مثل لحم الطفل. مع عسل وفلفل. إذن البوليكان هنا. تتزحلق هذه السمكة بين المرجان مثل طائرة بريجيه، ذات أجنحة رباعية بطيئة، من المؤكد أنها رأت الهومونكولوس الخاص بها مهملاً في قاع الفرن، وقد أصبح مثقوبًا، ملقيًا به في القمامة أمام منزل فليمل. والآن أتت سمكة من

فرسان المعبد، مرتدية درعًا أسود اللون، تبحث عن النوفو داي. تحدق السمكة في سمكة أتباع الصامتين المصابة بأزمة، والتي تسبح غارقة في التفكير، بغضب تجاه مالا يمكن التحدث عنه. نظرت بعيداً. وعلى الجانب الآخر من الطريق لمحت لافتة مطعم آخر: لدى آر... آر: روزي كروس؟ روشيلين؟ روزيسبيرجوس؟ راشكوفسكي، راجوتسكيزاروجي؟ إمضاءات، وألقاب...

لنر. الطريقة الوحيدة التي يمكن بها أن تحبط الشيطان هو أن تجعله يصدق أنك لا تؤمن به. لا يوجد أي غموض في طائرتك التي كانت تطير ليلاً فوق باريس، ولا في رؤيتك للبرج. إن الخروج من الكونسرفاتوار بعد ما رأيته ـ أو ما تعتقد بأنك رأيته، وأن تشعر بالمدينة مثل الكابوس، شيء عادي. ولكن ماذا رأيت في الكونسرفاتوار؟

لابد وأن أذهب للتحدث مع الدكتور واجنر. لا أعرف لماذا، ولكن لابد لي من ذلك. كان التحدث هو الترياق، العلاج بالكلام.

كيف قضيت وقتي حتى ذلك الصباح؟ ذهبت إلى إحدى دور العرض ولمشاهدة فيلم "سيدة شانغهاي" لأورسون ويلليز. عندما ظهر مشهد المرايا، لم أستطع التحمل وغادرت القاعة. ولكن ربما هذا لم يكن حقيقيًا، ربما تخيلت الأمر برمته.

هذا الصباح اتصلت بالدكتور واجنر في الساعة التاسعة. ساعدني اسم جاراموند على أن أتجاوز السكرتيرة. بدا أن الدكتور يتذكرني، وربما متأثرًا بإلحاح صوتي، طلب مني الحضور على الفور، في التاسعة والنصف، قبل مواعيده العادية. كان يبدو مهذبًا ومتفهمًا.

هل كنت أحلم بزيارتي لدكتور واجنر أيضًا؟ سألتني السكرتيرة على بياناتي الرئيسية، أعدت كارتًا، وطلبت مني الدفع مقدمًا. لحسن الحظ كانت لدي تذكرة العودة إلى إيطاليا.

كان مكتبًا متوسط الحجم، بلا أريكة. كانت النوافذ جميعها تطل علي نهر السين. وعلي اليسار ظل البرج. استقبلني الدكتور واجنر بدماثة مهنية. لم أعد ناشره الآن، بل مريضه. دعاني بإشارة واضحة هادئة لأن أجلس أمامه على الجانب الآخر من المكتب، مثل أحد الموظفين في الوزارة. ثم قال: ماذا إذن؟، ثم ضغط على زر في مقعده الدائري، وجلس تواجهني كتفيه. كان يجلس برأس منحنية، وبدا لي أنه كان يعقد يديه. لم يكن أمامي سوى التحدث.

تحدثت وكأنني شلال، أخرجت كل ما بداخلي، من البداية إلى النهاية، ما كنت أفكر فيه منذ عامين، وكل ما كنت أعتقد أن بيلبو فكر فيه، وديوتالليفي أيضًا. وتحدثت بشكل خاص عما حدث في ليلة القديس يوحنا.

لم يقاطعني واجنر قط، لم يومئ قط ولم يظهر أي نوع من الاعتراض. بل يمكن أن يكون، في حدود ما رأيته، قد راح في سبات عظيم. ولكن لابد أن هذه كانت تقنيته. وكنت أنا أتكلم، علاج الكلام.

ثم انتظرت كلمة منه لتنقذني.

نهض واجنر، ببطء شديد. ودون أن يلتفت إلي دار حول المكتب، ثم وقف أمام النافذة. والآن أخذ ينظر من خلف النافذة الزجاجية، ويداه معقودتان خلف ظهره، غارقًا في التفكير.

صمت لمدة حوالي عشر أو خمس عشرة دقيقة.

ثم قال لي، وهو مازال ينظر في الاتجاه الآخر، بصوت محايد، هادئ، مطمئن: سيدي، أنت مجنون.

ومكث بلا حركة، وأنا أيضًا. وبعد حوالي خمس دقائق أخرى، أدركت أنه لن يزيد، وأنها نهاية الجلسة.

خرجت دون أن ألقي بالتحية. ابتسمت لي السكرتيرة ابتسامة عريضة، ثم وجدت نفسي مرة أخرى في شارع إليزيه ركليو.

كانت الساعة الحادية عشرة. جمعت أغراضي من الفندق وأسرعت إلى المطار، معتمدًا على الحظ الجيد. اضطررت للانتظار لمدة ساعتين، وفي الوقت نفسه اتصلت بالجاراموند في ميلانو، مكالمة مدفوعة، حيث لم يتبق معي نقود. أجابتني جودرون، كانت تبدو أكثر بلادة من المعتاد، كان لابد أن أصرخ ثلاث مرات لكي تقول نعم، أجل، وأنها تقبل المكالمة.

كانت تبكي: مات ديوتالليفي ليلة السبت في منتصف الليل.

ـ ولم يحضر أحد، ولا واحد من أصدقائه جنازته هذا الصباح، ياللخجل! ولا حتى السيد جاراموند، والذين يقولون إنه في رحلة في الخارج. أنا وجراتسيا، وشخص

يرتدي الأسود، له ذقن وسوالف وقبعة عالية: كان يبدو كحانوتي. الله وحده يعلم من أين أتى. ولكن أين كنت يا كازاوبون؟ وأين كان بيلبو؟ ماذا يحدث؟

تمتمت شيئًا في محاولة للشرح المرتبك، وأنهيت المكالمة. استدعوني وصعدت على متن الطائرة.

(٩)

يسود

Yesod

(١١٨)

نظرية المؤامرة بالنسبة للمجتمع... هي نتيجة لأن يهجر الناس الله ثم يسألون: ومن يوجد الآن في مكانه؟

(Karl Popper, Conjectures and refutations, London, Routledge, 1969, I, 4)

أفادتني الرحلة بالطائرة كثيراً. لم أترك باريس فقط ولكنني تركت العالم السفلي، بل والأرض نفسها، القشرة الأرضية. كانت السماء والجبال ما زالت بيضاء بالثلج. إنه الشعور بالوحدة على ارتفاع عشرة آلاف من الأمتار، وذلك الشعور بالثمالة الذي يتسبب فيه الطيران، تغير الضغط، عبور اضطراب خفيف. وفكرت أنه فقط هناك في أعلى بدأت أضع قدمي بالفعل على الأرض. وقررت أنها اللحظة المناسبة لاستخلاص بعض النتائج، في البداية لابد من أن أدون بعض النقاط في مفكرتي، ثم أغلق عيني لأفكر.

قررت بأن أدون أولاً الوقائع التي لا خلاف عليها:

من المؤكد أن ديوتالليفي مات. قالت لي جودرون هذا. كانت جودرون دائماً بعيدة عن قصتنا، لم تكن لتفهمها، وبالتالي فقد ظلت هي الوحيدة التي تقول الحقيقة. والشيء الحقيقي أيضاً أن جاراموند لم يكن في ميلانو. كان يمكن، بالتأكيد، أن يكون في أي مكان، لكن واقع أنه ليس هناك ولم يكن هناك في الأيام الماضية يترك مجالاً للشك بأنه كان في باريس، حيث رأيته.

والأمر سيان بالنسبة لبيلبو، فهو لم يكن هناك.

والآن لنحاول أن نفترض أن ذلك الذي رأيته في السبت مساء في سان مارتان دي شوم قد حدث بالفعل. ربما ليس كما رأيته أنا، تحت تأثير الموسيقى والبخور، ولكن لابد أن شيئاً ما قد حدث. الأمر يشبه ما حدث لأمبارو. عندما عدنا إلى المنزل، لم تكن بالتأكيد واثقة بحلول روح بومبا جيرا فيها، ولكن كانت تعلم بالتأكيد بأنها كانت في خيمة الأومباندا، وإنها اعتقدت، أو تصرفت على أساس، أن روح بومبا جيرا سيطرت عليها.

في نهاية الأمر، ما قالته لي ليا في البيت الجبلي كان حقيقة، كانت قراءتها مقنعة بالتأكيد، لم تكن رسالة بروفان سوى قائمة المغسلة. لم تكن هناك قط اجتماعات لفرسان المعبد في جرانج أو ديم. لم تكن هناك خطة، ولم تكن هناك رسالة.

كانت ورقة المغسلة بالنسبة لنا مثل الكلمات المتقاطعة حيث بعض الخانات فارغة، ولكن دون معطيات. إذن لابد من ملء الخانات بحيث يتقاطع كل شيء كما ينبغي. ولكن ربما يكون هذا مثال غير دقيق. في الكلمات المتقاطعة تتقاطع الكلمات، ولابد أن تتقاطع الكلمات على حرف مشترك. في لعبتنا لا تتقاطع الكلمات بل المفاهيم والوقائع، وبالتالي فقواعد اللعبة مختلفة، وكانت ثلاث قواعد أساسية.

القاعدة الأولى: يتم جمع المفاهيم على أساس التجانس. لا توجد قاعدة على أساسها يمكن اتخاذ القرار بأن هذا التشابه جيد أم سيئ، لأن كل شيء يتشابه مع آخر على أساس علاقة ما. على سبيل المثال: يمكن للبطاطس أن تتقاطع مع التفاح، لأن كليهما من الخضراوات، وكلاهما دائري الشكل. ثم من التفاح إلى الحية، لما بينهما من علاقة في قصة الإنجيل. ومن الحية إلى الكحك المحلى، لما بينهما من تشابه شكلي. ومن الكحك المحلي إلى طوق النجاة، ومن طوق النجاة إلى زي البحر، ومن الاستحمام إلى الحمام، ومن الحمام إلى ورق الحمام، ومنه إلى الورق الصحي، ومنه إلى الخمر، ومن الخمر إلى المخدرات ومن المخدرات إلى الثقب، ومن الثقب إلى الأرض، ومن الأرض إلى البطاطس.

القاعدة الثانية: تنص في الواقع على أنه إذا كان كل شيء يلتقي في النهاية إذن العلاقات المتشابكة تعمل بنجاح. إذن انطلاقًا من البطاطس وصلنا إلى البطاطس. الصلة إذن صحيحة.

القاعدة الثالثة: الروابط لا يجب أن تكون جديدة، بمعنى أنه لابد وأن تكون قد تم العمل بها من قبل، على الأقل مرة واحدة، بل وكلما كان الاستخدام السابق، من قبل آخرين ، أكثر كان ذلك أفضل. عندئذ فقط تبدو التقاطعات حقيقية، لأنها واضحة.

كانت هذه هي فكرة السيد جاراموند: لا يجب أن تكون كتابات عبدة الشياطين مجددة، لابد وأن تكرر ما سبق قوله، وإلا أين ستذهب قوة التراث؟

هذا ما فعلناه نحن أيضًا. لم نخترع شيئًا، فقط وضعنا القطع. هكذا أيضًا فعل أردنتي، لم يخترع شيئًا، قام فقط بوضع القطع بطريقة غريبة، بالإضافة إنه كان أقل ثقافة منا، ولم تكن لديه جميع القطع.

كانوا هم يمتلكون القطع، ولكن لم يكن لديهم تصميم الكلمات المتقاطعة، كنا نحن ـ للمرة الثانية ـ أكثر ذكاء.

تذكرت عبارة قالتها لي ليا في البيت الجبلي، عندما كانت تلومني على أنني لعبت هذه اللعبة الشريرة: إن الناس تعاني جوعًا للخطط، إذا قدمت لها واحدة تلقي بنفسها عليها مثل مجموعة من الذئاب. أنت تخترع وهم يصدقون. إنه بالفعل خطأ فادح أن نضيف المزيد للخيال الموجود بالفعل.

في الواقع هذا ما يحدث دائمًا. شاب يتوق للشهرة يتعذب لأنه لم يعلم كيف يصبح مشهورًا. ثم يرى فيلمًا فيه شاب هزيل يضرب بطلة المدينة بالرصاص؛ ويصبح محط أنظار الجميع. يعثر بالتالي على الوصفة السحرية ويذهب ليطلق النار على جون لينون.

الأمر هو نفسه بالنسبة للكتّاب على نفقتهم الخاصة. كيف يمكنني أن أصبح شاعرًا مشهورًا ينتهي اسمه على صفحات الموسوعات؟ ويشرح لهم جاراموند: أمر بسيط للغاية، لتدفع الثمن. لم يفكر هذا الكاتب في ذلك من قبل قط، ولكن نظرًا لوجود خطة دار نشر مانوتزيو، يتماثل معها. يقتنع الكاتب الذي ينشر على نفقته الخاصة أنه كان ينتظر نظام دار النشر مانوتزيو منذ الطفولة، وأنه لم يكن يعلم بوجودها.

ونتيجة ذلك: اخترعنا نحن خطة لا وجود لها، ولم يروا هم فقط بأنها خطة جيدة، بل اقتنعوا بأنهم كانوا جزءًا منها منذ زمن، بل بالأحرى اعتبروا أن الأجزاء المتفرقة لمشاريعهم المبعثرة والمضطربة كانت أجزاءً من خطتنا نحن، أجزاءً تم ضمها بطريقة منطقية، من خلال شبكة لا يمكن إنكارها من التجانسات والتشابهات والشكوك.

ولكن إذا اخترع المرء خطة وقام آخرون بتنفيذها يبدو وكأن الخطة لها وجود فعلي. عندئذ تكون الخطة موجودة بالفعل.

من الآن فصاعدًا ستبدأ حشود من عبدة الشيطان الانتشار في أنحاء العالم بحثًا عن الخريطة.

لقد منحنا خريطة إلى أشخاص كانوا يحاولون التغلب على إحباطاتهم الخفية. أي إحباطات؟ اقترحها لي الملف الأخير لبيلبو حيث كتب: لن يكون هناك أي فشل طالما هناك خطة. ربما تكون منهزمًا، ولكن هذا لن يكون خطأك. إن الانحناء أمام الإرادة الكونية شيء لا يمكن الخجل منه. لست جبانًا، بل أنت شهيد.

لا تشتكي لكونك فانيًا، فريسة لآلاف من البكتيريا التي لا يمكنك السيطرة عليها، لست مسئولاً عن أقدامي لا تقدر الإمساك بشيء، من اختفاء الذيل، وعن الشعر والأسنان التي لا تنمو مرة أخرى بعد فقدهما، وعن تيبس الأطراف بمرور الزمن. إن كل هذا بسبب الملائكة الحاقدين.

الأمر نفسه ينطبق على الحياة اليومية. مثل تدهور حال البورصة. هذا يحدث لأن كل شخص يقوم بحركة خاطئة وكل الحركات الخاطئة إذا اجتمعت معًا أثارت الفزع. ثم يسأل أي شخص يفتقد رباط الجأش نفسه قائلاً: من وراء هذه المؤامرة؟ من سيستفيد؟ لابد له أن يعثر على عدو ما، على متآمر، والويل كل الويل لمن لا يمكنه العثور على عدو ما يتآمر عليه، سينتهي به الأمر أن يشعر هو نفسه بالذنب. وإذا شعرت بالذنب، ستخترع مؤامرة، بل أكثر من واحدة. لمواجهتها، لابد أن تنظم أنت أيضًا مؤامرتك، خطتك. وكلما اخترعت مؤامرات للأعداء، لتعفي نفسك من عدم الفهم، أحببت هذه المؤامرات جدًا، وبالتالي تحيك مؤامراتك على النمط نفسه. وهذا هو ما حدث عندما قام كل من اليسوعيين وأتباع بيكون، البوليكان وفرسان المعبد الجدد بالشكوى كل منهم من خطة الآخر. كانت ملحوظة ديوتالليفي على ذلك: بالتأكيد، فأنت تنسب للآخرين ما تفعله أنت، ونظرًا لأنك أنت نفسك ترتكب مكروه، يصبح الآخرون مكروهين. ونظرًا لأن الآخرين ، كقاعدة، يعجبهم أن يفعلوا الشيء المكروه الذي تفعله، فهم يتعاونون معك، ويدفعونك على الاعتقاد ـ أجل ـ إن ما تنسبه إليهم هو بالفعل ما تمنوه منذ الأزل. إن الرب يغشي بصر من يرغب في تدميرهم؛ ليس عليك سوى أن تمنحه يد المساعدة.

إن المؤامرة، إذا كان لابد من وجود واحدة، عادة ما تكون سرًا. لابد من وجود سر ما، والذي عندما نعرفه نتخلص من إحباطنا، لأنه سيكون إما السر الذي سيقودنا إلى النجاة، أو ستكون معرفة السر نفسها محاكية للنجاة. هل يوجد سر بهذه الاستنارة؟

بالتأكيد، بشرط ألا تعرفه قط. إن مجرد الكشف عنه سيصيبنا بالإحباط. ألم يحدثني آلييه عن التوتر تجاه الغموض، والذي كان يتسبب في كثير من الإثارة في فترة الأنطونيين؟ ألم يأت أحدهم ليعلن بأنه ابن الله المتجسد، وحامل كل خطايا العالم. هل كان هذا سرًا هينًا؟ وكان يعد الجميع بالخلاص، وكان يكفي فقط أن يحب المرء قريبه كنفسه. هل كان هذا سرًا سهلاً؟ ثم ترك وصية بأن من يقول الكلمات الصحيحة في اللحظة الصحيحة يمكنه أن يحول قطعة من الخبز ونصف كأس من النبيذ إلى جسد ودم ابن الله، ويتناوله. أكان ذلك مجرد لغز؟ ولذلك قاد آباء الكنيسة إلى أن يتقدموا وأن يعلنوا بأن الله واحد وثالوث، وأن الروح منبثق من الأب والابن، ولكن الابن ليس منبثقًا من الروح والأب. أكانت هذه صيغة سهلة بالنسبة للهيلينيين؟ إلا أنهم، والذين كانوا قريبين جدًا من الخلاص، رفضوا هذا. أهذا كل ما يجب علينا عمله؟ ياللحزن. وأخذوا يطوفون البحر المتوسط بحثًا عن معرفة أخرى مفقودة، والتي بدت تعاليم الثلاثين فلسًا مجرد غطائها الاصطناعي، ومثل المساكين بالروح هو الهيروغليفية الخادعة. سر الثالوث؟ بسيط جدًا: لابد أن وراءه أشياء أخرى.

قال أحدهم ـ ربما كان روبنستاين، والذي حين سألوه إذا كان يؤمن بالله: "لا لا، أنا أؤمن بشيء أكبر كثيرًا من هذا... " ولكن كان هناك شخص آخر (ربما شيسترتون؟) قال: منذ أن توقف الناس عن الإيمان بالله، لم يتوقفوا عن الإيمان بأي شيء، بل أصبحوا يؤمنون بكل شيء.

ولكن كل شيء ليس سرًا أكبر. لا يوجد سر أكبر، لأنه بمجرد أن يتم الكشف عنه يبدو بسيطًا. يوجد فقط سرًا مفرغًا. وسرًا ينفلت من بين أصابعك. إن سر نبات الأوركيد يمنح معنى ويؤثر على الخصيتين، ولكن الخصيتين تمنحان معنى لأحد أبراج التنجيم، والذي بدوره يعني رتبة ملائكية، والذي بعد ذلك يمنح المعنى للسلم الموسيقي، والسلم الموسيقي يعني العلاقة بين الأمزجة. وهكذا. إن الانضمام للجماعة السرية معناه ألا تتوقف قط. فالكون يمكن تقشيره مثل البصلة، والبصلة كلها طبقات يمكن أن تُنزع. لنتخيل إذن بصلة لا نهائية، مركزها في كل مكان، ومحيطها في اللامكان. إن التلمذة هو أن تسافر بلا نهاية على شريط موبيوس.

والتابع الحقيقي هو ذلك الذي يعرف أن أقوى الأسرار هو سر بلا محتوى، لأنه لا يوجد عدو سينجح في أن يدفعه على الاعتراف بهذا، ولا يوجد مؤمن يستطيع أن ينتزعه منه.

والآن يبدو لي أكثر منطقية، نتيجة هذا، ديناميكية الطقس الليلي أمام البندول. أعلن بيلبو أنه يمتلك سراً، ولذلك أصبحت لديه سلطة عليهم. وكان دافعهم، وحتى دافع شخص بذكاء آلييه، والذي أطلق على الفور الدعوة لاستدعاء الآخرين ، كان انتزاع السر منه. وكلما ازداد بيلبو في رفضه في أن يكشف السر، تأكدوا هم بأن السر عظيم بالفعل، وكلما أقسم هو بأنه لا سر لديه، تأكدوا هم بأنه يمتلكه وبأنه سر حقيقي، لأنه إذا كان مفتعلاً كان سيكشفه على الفور.

كان البحث، لعدة قرون، عن هذا السر هو الأساس الذي ربط بينهم، على الرغم من الحرمانيات، والصراعات الداخلية، والضربات. الآن كانوا على وشك معرفته. ولكن هاجمهم نوعان من الفزع: الأول أن يكون السر مسببا للإحباط، والثاني في حالة أن يصبح السر معروفًا لدى الجميع لن يظل لديهم أي سر. وستكون بالتالي نهايتهم.

كان عندئذ أن أستنتج آلييه أنه إذا تحدث بيلبو سيعرف الجميع، وسيفقد هو، آلييه، تلك الهالة غير المحددة التي كانت تمنحه الشعبية والسلطة. إذا كان بيلبو قد صرح له هو وحده بالسر، كان آلييه سيتمكن من الاستمرار في كونه سان جيرمانو، الخالد، وكان تأجيل موته يرتبط بتأجيل الكشف عن السر. حاول أن يقنع بيلبو بالتحدث معه سراً، وعندما أدرك استحالة ذلك، استفزه متوقعًا استسلامه بل معداً لذلك موقفًا ميلودراميًا. كان الكونت المسن يعرف جيداً أن بالنسبة لأهل بيومنتي يمكن للعند وإمكانية السخرية لديهم التغلب على الخوف من الموت. لذلك أجبر بيلبو على أن يعلي نبرته وأن يرفض التحدث بطريقة حاسمة.

وفضل الآخرون أيضًا ـ يدفعهم الخوف نفسه ـ قتله. كانوا سيفقدون الخريطة، وكانت ستكون لديهم قرون أخرى للعثور عليها، ولكن كانوا ينقذون بذلك حيوية رغبتهم الأساسية.

تذكرت قصة تلتها علي أمبارو. قبل أن تأتي إلى إيطاليا كانت قد ذهبت لتعيش بضعة أشهر في نيويورك، وسكنت هناك في حي يمكنك في أكثر أيامه هدوءًا أن تصور حلقات تلفزيونية حول فرق الإعدام. كانت تعود متأخرة في الثانية بعد منتصف الليل. وعندما سألتها إذا لم تكن تشعر بالخوف من أن يهاجمها أحد، شرحت لي منهجها. بمجرد أن يقترب منها أحد المهووسين بالجنس وكان يهددها، كانت تأخذه تحت ذراعها وتقول له: إذن، لنذهب إلى الفراش. وكان هو يهرب على الفور. مرتبكًا.

إذا كان أحدهم مهووسًا جنسيًا، فهو لا يريد ممارسة الجنس، كل ما يريده هو أن يرغب فيه، وأقصى شيء هو أن يسرقه، وأن يكون ذلك رغمًا عن الضحية. إذا وضعوه أمام ممارسة الجنس بسهولة وقالوا له تفضل واستمتع، يقفز، ومن الطبيعي أن يهرب، وإلا أي نوع من المجانين هو.

ذهبنا نحن وأيقظنا رغباتهم، مقدمين إليهم سرًا لا يمكن كشفه، ليس لأننا لم نكن نعرف نحن أنفسنا ما هو، بل، والأدهى من ذلك، أننا كنا نعرف بأنه مزيف.

كانت الطائرة تحلق فوق الجبل الأبيض، وأسرع الركاب جميعًا إلى الجهة التي يمكنهم من خلالها رؤية ذلك الدبل الفظ الذي ظهر هناك بفضل شوكة في التيارات الأرضية. وإذا كان ما أفكر فيه صحيحًا فهذا يعني أنه لم يكن للتيارات وجود تمامًا مثل رسالة بروفان. ولكن قصة فك شفرة الخطة، كما قمنا نحن بإعادة بنائها، كانت التاريخ.

عادت ذاكرتي مرة أخرى إلى ملف بيلبو الأخير. إذا كان الوجود فارغًا إلى هذا الحد وهشًا إلى هذا الحد، ويمكن دعمه فقط من خلال وهم البحث عن سر ما، إذن ـ كما قالت أمبارو في تلك الليلة في الخيمة بعد هزيمتها ـ لا يوجد خلاص، إننا جميعًا عبيد، امنحونا من يسود علينا، هذا هو ما نستحقه...

لا. علمتني ليا أنه يوجد المزيد، ولدي الدليل على ذلك: اسمه جوليو، وهو الآن يلعب في الوادي، يشد ذيل أحد الماعز. لا، لأن بيلبو قال لا مرتين.

المرة الأولى قالها لأبو العافية، ولمن حاول أن يقتحم سره. كان سؤاله: هل لديك كلمة السر؟. وكانت الإجابة، مفتاح المعرفة هي: لا. هناك شيء حقيقي بالفعل في هذا، ليس فقط إنه لا وجود للكلمة السحرية، ونحن لا نعرف هذا، ولكن أيضًا إن من يمكنه أن يعترف بهذا يمكن أن يصل لمعرفة شيء ما، على الأقل ما استطعت أنا معرفته.

والمرة الثانية التي قال فيها لا، كانت ليلة السبت، عندما رفض الخلاص الذي عرضوه عليه. كان بإمكانه اختراع أي خريطة، أن يشير إلى أي من الخرائط التي كنت قد أطلعته عليها، حيث إن تلك العصابة من المجانين، بتعليقهم للبندول بالطريقة التي كان عليها، لم يكن ليعرفوا قط مركز العالم. وحتى إذا أمكنهم ذلك كان الأمر سيستغرقهم عشرات السنوات ليدركوا أنه لم يكن الحقيقة. إلا أنه لم يرغب في الاستسلام، وفضل الموت.

ليس الأمر في أنه لم يرغب في أن يستسلم أمام إغراء السلطة، بل رفض أن ينحني أمام اللامعنى. كان بطريقة ما يعرف أنه على الرغم من هشاشة وجودنا، وعلى الرغم من تساؤلاتنا اللانهائية، غير الهادفة، عن العالم، فإنه توجد أشياء تحمل في طياتها معنى أكثر من أشياء أخرى.

ما الذي استنتجه بيلبو، ربما فقط في تلك اللحظة، ليسمح له بأن يناقض ملفه الأخير اليائس، وألا يعهد بمصيره إلى من يمكنه أن يضمن له خطة من أي نوع؟ ما الذي فهمه ـ أخيرًا ـ وسمح له بأن يقامر بحياته، وكأن كل ما كان عليه أن يعرفه كان قد اكتشفه منذ فترة طويلة، دون أن يدرك حتى تلك اللحظة، وكأنه أمام ذلك السر الوحيد، الحقيقي، المطلق، كان كل ما يحدث في الكونسرفاتوار في منتهى الغباء ـ وبالتالي فمن الغباء أيضًا التمسك بالحياة؟

كان ينقصني شيء واحد، الحلقة التي توصل السلسلة. كان يبدو لي أنني أعرف كل شيء عن بيلبو، من الحياة إلى الموت، ماعدا شيئًا واحدًا.

عندما وصلت، وبينما أنا أبحث في جيبي على جواز السفر، عثرت على هذا المفتاح. كنت قد أخذته معي يوم الخميس الماضي مع مفتاح شقة بيلبو. وتذكرت ذلك اليوم عندما أشار إلينا إلى الصوان القديم الذي يحتوي ـ كما كان يقول ـ على عمله الكامل، أو بالأحرى ذكريات شبابه. ربما كان بيلبو قد كتب شيئًا لم يمكن العثور عليه في أبو العافية، وهذا الشيء مدفون هناك في***.

لم يكن هناك أي شيء منطقي في حدسي هذا. قلت لنفسي: هذا في حد ذاته سببًا وجيهًا لأعتبره حدسًا جيدًا. في هذه اللحظة.

ذهبت لسيارتي وقدتها وأتيت إلى هنا.

لم أعثر حتى على العجوز قريبة عائلة كانيبي، أو الحارسة التي كنا قد رأيناها في المرة السابقة، ربما كانت قد ماتت هي الأخرى في ذلك الوقت. لم يكن أحد هنا. عبرت مختلف الغرف، توجد رائحة رطوبة، حتى أنني فكرت في إشعال مدفئة الفراش في إحدى غرف النوم. ولكن لم يكن هناك أي معنى لتدفئة الفراش في شهر يونية، بمجرد أن تُفتح النوافذ يدخل الهواء الفاتر للمساء.

لم يكن هناك أثر للقمر بعد الغروب، مثلما كانت باريس ليلة السبت. ثم ظهر بعد ذلك في وقت متأخر، رأيت ذلك الأثر القليل له، أقل مما رأيته في باريس، فقط الآن، حيث أخذ يرتفع ببطء فوق الهضاب المنخفضة جدًا، في العمق بين هضبة البريكو وهضبة أخرى يميل لونها للأصفر، ربما تم حصادها بالفعل.

أعتقد أنني وصلت إلى هنا حوالي الساعة السادسة مساء، كانت السماء مضيئة. لم أحضر معي أي شيء لآكله، وأثناء تجولي في المنزل وجدت قطعة من السلامي المعلقة على أحد العوارض. كان عشائي لحم السلامي المجفف والماء البارد، في حوالي الساعة العاشرة. الآن أشعر بالعطش، أحضرت معي إلى هنا إلى مكتب العم كارلو إبريقًا كبيرًا من الماء، أشرب منه كل عشر دقائق، ثم أنزل لملئه من جديد، وأبدأ في تجرع المياه مرة أخرى. لابد أن الساعة الآن الثالثة صباحًا. ولكنني أطفأت الأنوار ومن الصعب رؤية الساعة. أتأمل وأنا أنظر من النافذة. توجد أضواء صغيرة، مثل نجوم ساقطة على جوانب الهضاب. سيارات قليلة جدًا تمر، تهبط إلى الوادي، وتصعد تجاه القرى الصغيرة. عندما كان بيلبو طفلاً لابد وأن كان المنظر الذي يراه من هذه النافذة مختلفًا تمامًا. لم تكن هناك سيارات، ولم توجد تلك الطرق، وفي الليل كان يوجد حظر التجول.

فتحت صوان ذكريات الشباب بمجرد وصولي. كانت توجد فيه أكوام كثيرة من الأوراق، بدءًا من واجبات المدرسة في المرحلة الابتدائية، إلى العديد من الملفات المليئة بالشعر والنثر لفترة المراهقة. الجميع كتبوا الشعر في مرحلة المراهقة، ثم قام الشعراء الحقيقيون بالتخلص منها، أما الشعراء الفاشلون فقط قاموا بنشرها. كان بيلبو متشائمًا جدًا من احتفاظه بها، ولكن أضعف من أن يتخلص منها فقرر في النهاية تكديسها في صوان العم كارلو.

قرأت لبضع ساعات. كانت أوراقًا كثيرة تتشابك في خطوطها الداخلية الخطوط المختلفة، أو بالأحرى، الخط نفسه في فترات زمنية مختلفة. وكأنه كتبها مبكرًا جدًا ربما في السادسة أو في السابعة عشرة، ثم تركها لفترة وعاد إليها مرة أخرى في سن العشرين، ثم مرة أخرى في الثلاثين، وربما بعد ذلك أيضًا. ربما إلى أن قرر التخلي عن فكرة الكتابة ـ إلا أنه عاد مرة أخرى مع أبو العافية، ولكن دون أن يجرؤ على استعادة تلك السطور ووضعها لتتعرض إلى السخرية الإلكترونية.

من خلال القراءة بدا لي أنني أتبع قصة معروفة عن الأحداث التي شهدتها*** في العامين بين ١٩٤٣ و١٩٤٥، العم كارلو، الفدائيين، صالة الأبرشية، شيشليا والبوق. كانت تلك المواضيع المستحوذة على بيلبو الرومانسي، على بيلبو المحبط، والحزين والسكران. أدب الذكرى: كان هو نفسه يعلم أن هذا هو الملجأ الأخير للجبناء.

ولكنني هنا لا أقوم بدور الناقد الأدبي، مازلت سام سبيد الباحث على مفتاح أخير للغز.

عندئذ عثرت على النص الرئيسي، والذي لابد أن يمثل الفصل الأخير من قصة بيلبو في***. لأنه بعد ذلك لا يمكن أن يكون شيئًا آخر قد حدث.

(١١٩)

واشتعلت النيران في تاج البوق، عندئذ رأيت قبة الكنيسة تُفتح وسهم هائل من النيران يندفع متجهًا إلى ماسورة البوق ويدخل إلى الأجساد الميتة. أغلقت الفتحة مرة أخرى، والبوق أيضًا، تم وضعه بعيدًا.

(Johann Valentin Andreae, Die Chymische Hochzeit des Christian Rosencreutz, Strassburg, Zetzner, 1616, 6, pp. 125-126)

كان نص بيلبو يحتوي على بعض الفجوات، بعض القفزات، وبعض الأسطر المحاة. لا أحاول إعادة قراءته، بل أحاول إعادة تركيبه، إعادته للحياة.

لابد وأن ما حدث كان في نهاية شهر إبريل عام ١٩٤٥. كانت القوات الألمانية قد هزمت بالفعل، وتفرق الفاشيون أشتاتا، وأصبحت*** بالتأكيد تحت سيطرة الفدائيين.

بعد المعركة الأخيرة، والتي قصها علينا جاكوبو في هذا المنزل نفسه (منذ حوالي عامين)، اجتمعت فرق كثيرة للفدائيين في***، بغرض أن تتجه إلى المدينة. كانوا ينتظرون إشارة من راديو لندن؛ كانوا سيرحلون إذا كانت ميلانو مستعدة بالفعل للعصيان المسلح.

وصلت فرق جاريبالدي أيضًا، يقودها راس، عملاق بلحية سوداء وله شعبية كبيرة في المدينة. كانوا يرتدون أزياء مبتدعة، وكل منهم يرتدي شيئا مختلفا، إلا المناديل والنجمة على الصدر، فكلاهما أحمر اللون، وكانوا مسلحين بطريقة عشوائية، بعضهم ببنادق قديمة، والبعض الآخر بمدافع رشاشة انتزعوها من الأعداء. كان هناك تناقض واضح بينهم وبين فرق بادوليو، والتي كانت ترتدي اللون الكاكي مثل الفرق الإنجليزية وتضع منديلاً أزرق ومدافع ستين جديدة جدا. كان الحلفاء يساعدون فرق بادوليو بكثير من المظلات التي يلقون بها ليلاً، كل مساء في الساعة الحادية عشرة، بعد أن تمر طائرة التعرف الغامضة التي يسميها الناس ببيبتو، والتي لم يستطع أحد أن يعرف علام تتعرف خاصة ولم يكن بالإمكان رؤية أي ضوء على الأرض على بعد كيلومترات.

كان هناك نوع من التوتر بين فرق جاريبالدي وبادوليو. كان يُقال إنه في أمسية المعركة اندفعت قوات باديليو تجاه العدو وهي تصيح: إلى الأمام سافويا، وقال بعض

منهم إن هذا يحدث بحكم العادة، ماذا يمكن للمرء أن يهتف وهو يهاجم، هذا لم يعن أنهم كانوا يشجعون الملكية، فهم أيضًا يعرفون الأخطاء الفادحة التي ارتكبها الملك. كان أتباع جاريبالدي يبتسمون بسخرية، يمكن للمرء أن يطلق هذا الصيحة وهو يهاجم بالحربة في حقله الخاص، ولكن ليس وهو يقفز بمدفعه الرشاش من إحدى النواصي. كانت حقيقة الأمر أن فرقة بادوليو قد باعت نفسها للإنجليز.

ولكن حدث، على الرغم من ذلك، وصلت الفرقتان إلى لحظة حاسمة: كان لابد من وجود قيادة واحدة للهجوم على المدينة. وتم اختيار تيرزي: كان يقود أفضل فرقة مجهزة بالسلاح، كان هو الأكبر سنًا، حارب في الحرب العالمية الأولى ، كان بطلاً، وكان يتمتع بثقة قيادة الحلفاء.

في الأيام التالية، وأعتقد قبل الوقت المحدد بقليل للتوجه إلى ميلانو، رحلوا للسيطرة على المدينة. ثم وصلت الأخبار السارة: نجحت العملية، والفرق في طريقها للعودة منتصرة إلى***، ولكن كانت هناك بعض الخسائر في الأرواح، وسرت الشائعات بأن راس سقط في المعركة، وأن تيرزي أصيب.

ثم في عصر أحد الأيام استمع الناس إلى ضوضاء السيارات، أغاني النصر، وهرعوا إلى الميدان الكبير، ومن الشارع الرئيسي بدأ وصول القوافل الأولى ، قبضات اليد مرفوعة، والأعلام، والتلويح بالأسلحة من نوافذ السيارات، أو من فوق حواف الناقلات. وكانت الزهور تلقي عليهم طوال الطريق.

فجأة صاح البعض: راس! راس!. وكان راس هناك بالفعل جالسًا على الرفرف الأمامي لسيارة دودج، بذقنه المتشابكة، وصدرة الأسود المشعر يتصبب عرقًا من قميصه المفتوح. كان يلوح إلى الجماهير ضاحكًا.

وعلى السيارة الدودج بجوار راس، كان يجلس فتى قصير النظر، كان يعزف هو أيضًا في الفرقة، كان أكبر بقليل من الآخرين؛ اختفى قبلها بثلاثة أشهر وقيل إنه انضم إلى الفدائيين. وهاهو، يرتدي المنديل الأحمر حول عنقه، يرتدي الصديرية الكاكي والسروال الأزرق، زي فرقة دون تيكو، ولكنه الآن يرتدي فوقها حزام عريض يحمل جراب بداخله مسدس. كان الآن ينظر، بنظاراته السميكة، والتي طالما سخر منها أقرانه في الفرقة، للفتيات اللاتي التفتن حوله وكأنه فلاش جوردون. وكان بيلبو يتساءل إذا كانت شيشليا تقف هي أيضًا معهم.

وفي غضون نصف الساعة كان الميدان قد تلون بالفدائيين وأخذ الحشد ينادي بصوت قوي على تيرزي ليلقي بكلمة.

ومن إحدى شرفات مبنى البلدية ظهر تيرزي، كان مستندًا على عكازه شاحب الوجه، وحاول أن يهدئ الجموع ملوحًا بيده. كان جاكوبو ينتظر الحديث، لأن طفولته كلها، مثل طفولة أقرانه، كانت متأثرة بالأحاديث المهمة والتاريخية لموسوليني، والتي كانوا يحفظون أهم أجزائها في المدرسة، وبالتالي كانوا يحفظون كل عبارة فيها لأهميتها جميعًا.

ساد الصمت. وبدأ تيرزي يتحدث بصوت أجش، يُسمع بصعوبة. قال: أيها المواطنون، الأصدقاء. بعد العديد من التضحيات المؤلمة... ها نحن أمامكم. المجد لمن ماتوا ثمنًا للحرية.

يكفي هذا. لقد دخل وانتهى الأمر.

أخذت الجماهير تصرخ من جديد، والفدائيون يرفعون مدافعهم الرشاشة، والبنادق وأسلحتهم ويطلقون رصاصاتهم تعبيرًا عن الفرح، وأظرف الرصاص تسقط حولهم، والأولاد يتدافعون بين أقدام المسلحين والمدنيين ليجمعوها، حيث يمكن أن تكون الفرصة الأخيرة لأن يجمعوا غنيمة مثل هذه، ربما انتهت الحرب خلال شهر.

كان هناك من سقطوا قتلى في هذه المعركة. ومن المصادفات القاسية سقوط اثنين، كلاهما من سان دافيدي، قرية على جبل***، وطالبت العائلتان بدفنهما في المقبرة المحلية الصغيرة.

قرر قائد الفدائيين أن تقام لهما جنازة مهيبة، تقف فيها الفرق بتشكيلاتها العسكرية، وتُزين العربات الجنائزية، وتعزف فيها فرقة موسيقى البلدية، وفرقة الأبرشية الموسيقية.

وافق دون تيكو على الفور. قبل كل شيء، قال، إنه طالما حمل مشاعر مناهضة للفاشية. ثم همس في أذن العازفين بالسبب الثاني، وهو أنه منذ حوالي عام بدأ بحفظ مارشين عسكريين وحانت الفرصة لعزفهما. والسبب الأخير، على حسب ما يقوله خبثاء القرية، لينسى الجميع ما حدث في "جوفينتزا".

وفيما يلي ما حدث في قصة "جوفينتزا".

قبل شهور من وصول الفدائيين، خرجت فرقة دون تيكو للاحتفال بعيد أحد القديسين، وأوقفتهم بعض الفرق السوداء. وأمره قائدها قائلاً: اعزف لنا "جوفينتزا أيها الكاهن"، وهو يعزف بأصابعه على ماسورة بندقيته. ماذا كان يمكن لدون تيكو أن يفعل؟ قال: أيها الأولاد هيا نجرب عزفها، العمر واحد. أعطاهم السرعة المطلوبة كمفتاح واحد للعزف، وبعدها انطلقت نغمات بشعة من الفرقة وعلت أصواتها سماء***. كان من يرغب في أن ينقذ نفسه من الموت يوافق على أن الأصوات التي استمع إليها كانت معزوفة "جوفينتزا". كان الأمر مخجلاً للجميع. قال دون تيكو بعدها: كان من المخجل الرضوخ والموافقة على العزف، ولكن الأكثر إحراجًا هو بشاعة العزف. كان كاهنًا، ومناهضًا للفاشية، ولكنه كان فنانًا قبل كل شيء.

كان جاكوبو غائبًا في ذلك اليوم، إذ كان يعاني التهابًا في اللوز. لم يكن هناك من يعزف على البومباردون سوى أنيبالي كانتا لا ميسا، وبيبو بو، وكان وجودهما في غياب جاكوبو لابد وأن أسهم إسهامًا كبيرًا في سقوط الفاشية النازية. ولكن لم يكن هذا ما سبب لبيلبو اضطرابًا، على الأقل هذا ما دونه بنفسه في ذلك الوقت، ولكن لأنه فقد الفرصة لأن يقول لا مرة أخرى. ربما لهذا السبب مات مشنوقًا على البندول.

حددوا تاريخ الجنازة صباح يوم الأحد. كان الجميع محتشدين في ميدان الكاتدرائية. كان تيرزي يقف مع فرقه، وكان العم كارلو هناك مع بعض الموظفين في البلدية، جميعهم يرتدون نياشين الحرب الكبيرة، ولم يكن هناك فارق بين من كان فاشيًا وغيره إذ كان الأمر يتعلق بتكريم الأبطال. وقف هناك الأكليروس، وفرقة البلدية ترتدي الملابس السوداء، وكانت عربة نقل الموتى تجرها أحصنة مزينة برحل بألوان الأصفر الشاحب والأسود والذهبي. كان السائق يرتدي زيًا يشبه أزياء المارشلات في جيش نابليون، القبعة ذات القرن، كاب قصيرة ومعطف هائل الحجم، بالألوان نفسها التي لرحل الأحصنة. وحضرت أيضًا الفرقة الموسيقية للأبرشية، يرتدون القبعات ذات حاجب الشمس، الصديريات الكاكي والسراويل الزرقاء، يحملون آلاتهم النحاسية البراقة، والآلات الخشبية باللون الأسود القاتم، والصنوج والطبول تتلألأ.

كانت المسافة بين*** وسان دافيدي بين خمسة إلى ستة كيلومترات من الهضاب المنحنية. كان طريقًا يسير فيه، في ظهيرة الأحاد، من أحيل على المعاش من الرجال، يسيرون عادة وهم يلعبون بالكرة الخشبية أثناء سيرهم، ثم يستريحون، يتجرعون بعض النبيذ، ويستأنفون اللعب مرة أخرى، حتى يصلوا إلى المزار على القمة.

لم تكن بضع كيلومترات على طريق عسير تمثل أي شيء بالنسبة لرجال يلعبون الكرة الخشبية، وربما من السهل أيضًا السير فيها في تشكيلات عسكرية والأسلحة فوق الأكتاف، والنظرات مشدودة، أثناء استنشاق النسيم العليل للربيع. ولكن لابد أن يحاول المرء أن يفعل ذلك بينما يقوم بالعزف، بينما الوجنتان منتفختان، والعرق يتصبب بغزارة، والأنفاس تتقطع. بالنسبة لفرقة البلدية فهي لا تفعل شيئا آخر طوال حياتها، ولكن بالنسبة لأولاد الأبرشية كان ذلك تعذيبًا. إلا أنهم تماسكوا كالأبطال. كان دون تيكو يبدأ بعزف النغمات على مزماره، فتتبعه الكلارينات في إعياء، وتطلق الساكسافونات نغماتها بصعوبة، وتعلو البومباردون والأبواق بصراخ متألم. إلا أنهم عزفوا طوال الطريق إلى القرية، وصولاً إلى بداية المدق المؤدي إلى المقابر. تظاهر كل من أنيبالي كانتالاميسا وبيو بو بالعزف فقط، ولكن بيلبو استمر في دور كلب الخراف، تحت النظرات المباركة لدون تيكو. قدموا عرضًا جيدًا مقارنة بفرقة البلدية ، تيرزي نفسه وقادة الفرق الأخرى قالوا لهم عبارات مثل: أحسنتم أيها الفتية، وكان هذا أداءً رائعًا.

قال أحد القادة، والذي كان يرتدي منديلاً أزرق وألوان الطيف من شرائط نالها من الحربين الأولى والثانية: أيها القس المحترم، ليرتح الصبية في البلدة، فهم متعبون للغاية. ولتصعدوا فيما بعد، في النهاية. ستكون هناك سيارة نقل تصحبكم إلى***.

أسرع الجميع إلى المطعم. لم يتحفظ أي من رجال فرقة البلدية، إذ كانوا من المحاربين القدامى وقد قست مشاعرهم من كثرة الجنازات التي عزفوا فيها، فجلسوا وطلبوا كرشة ونبيذا حسب الرغبة. كان بوسعهم أن يظلوا هناك حتى المساء. وأما فتيان دون تيكو فقد اندفعوا إلى طاولة البيع حيث كان صاحب الحانة يقدم جرانيت بالنعناع، أخضر اللون وكأنه نتاج تجربة كيميائية. كان الثلج يندفع إلى الحنجرة ويتسبب في ألم شديد في الجبهة مثل ألم التهاب الجيوب الأنفية.

تسلقوا طريقهم بعد ذلك بصعوبة إلى المقابر، حيث كانت تنتظرهم هناك سيارة نقل. صعدوا إليها وهم يصيحون، وتم شحنهم جميعًا واقفين، يدفع كل منهم الآخر بآلته الموسيقية، عندئذ خرج القائد الذي تحدث معهم من قبل، وقال: أيها القس المحترم، يلزمنا عازفان فقط للمراسم الأخيرة، كما تعرف، نحتاجها للنفير الأخير الطقسي. شيء لن يستغرق أكثر من خمس دقائق.

قال دون تيكو، بطريقة محترف: عازف البوق! إلا أن البائس حامل ذلك اللقب، والذي كان يتصبب عرقًا أخضر اللون بسبب الجرانيت الأخضر، ويتطلع إلى الوجبة المسائية مع أسرته، ذلك الفلاح الخائن الذي ليست أي مشاعر تجاه الدوافع الأخلاقية والمثل العليا، بدأ يشتكي بأن الوقت متأخر، وأنه يرغب في العودة إلى المنزل، وأن حلقه قد جف، إلى آخر ذلك، متسببًا في الإحراج الشديد لدون تيكو في حضور القائد.

عندئذ قال بيلبو، وهو يلمح في عز وهج الظهيرة صورة شيشليا الجميلة: إذا أعطاني بوقه يمكنني أنا الذهاب.

نظر إليه دون تيكو نظرات عرفان، وظهر الارتياح على وجه عازف البوق. وقاما بتغيير الآلات فيما بينهما مثل حارسين.

سار جاكوبو إلى المقابر، يقوده ملك الموت، بشرائط لها ألوان إفريقية. كان كل شيء حوله أبيض اللون، السور الذي تضربه الشمس، المقابر، الأشجار المزدهرة على طول السياج، رداء الكاهن المتأهب ليمنح البركات. اللون المختلف الوحيد كان اللون البني للصور الشاحبة الموضوعة على شواهد القبور. ثم كان هناك بقعة كبيرة من الألوان بفضل الأعلام المصطفة أمام الحفرتين. قال الرئيس: أيها الفتى، قف هنا بجانبي واعزف عندما أعطى الأمر "انتباه"، ثم عندما أعطيك أمرًا آخر "صفا". هذا أمر يسير أليس كذلك؟

شيء يسير جدًا. إلا أن بيلبو لم يكن يعلم كيف يعزف "انتباه" و "صفا".

كان يمسك بالبوق في ذراعه الأيمن المطوي تجاه أضلاعه، قرن البوق موضوع بزاوية، وكأنه بندقية قربينة قصيرة، وانتظر برأسه إلى أعلى، بطنه مشفوطة إلى الداخل، منتفخ الصدر.

كان تيرزي يلقي بكلمة جافة، بعبارات قصيرة للغاية. كان جاكوبو يفكر في أنه للتمكن من العزف لابد من أن يرفع عينيه إلى السماء، وبأن ضوء الشمس سيغشى بصره. ولكن هكذا يموت عازف البوق، ونظرًا لأن المرء يموت مرة واحدة فقط، فلابد أن يموت بطريقة مشرفة.

ثم همس القائد في أذنه: الآن. وبدأ يصرخ: انتبااااه! ولم يكن جاكوبو يعرف ماذا يُعزف عند الانتباه.

لابد وأن تركيب اللحن مركب جداً، إلا أنه في تلك اللحظة لم يستطع إلا أن يعزف: دو ـ مي ـ صول ـ دو، وكان يبدو أن هذا كان يكفي أولئك الرجال الذين قستهم الحرب. عزف نغمة الدو الأخيرة بعد وقفة لالتقاط الأنفاس، ليتمكن من أن يطيل النغمة، وليمنحها الفرصة ـ كما كتب بيلبو ـ لتصل إلى الشمس.

كان الفدائيون متيبسين في وقفة الانتباه. الأحياء منهم بلا حراك كالموتى.

لم يكن يتحرك سوى حفارى القبور، وكان يمكن سماع أصوات النعشين أثناء إنزالهما إلى الحفرة، وصرير الحبال أثناء رفعها لأعلى، أثناء احتكاكها بالخشب. ولكن كانت هناك حركة ضئيلة، ليست أكثر من اهتزاز وميض على جسم كروي، عندما يعمل تنوع الضوء الطفيف على إبراز عدم التغير في الجسم الكروي.

تلا ذلك النداء الجاف "كتفا سلاح"، ثم تمتم الكاهن ببعض صلوات التقديس، واقترب القادة من الحفرة والتقط كل منهما حفنة من التراب. وأطلق أمر مفاجئ وابلاً من الرصاص نحو السماء، أيقظت الطيور وهي تصرخ خارجة من الأشجار المزدهرة. ولكن، لم يكن كل هذا أيضًا حركة، بل وكأن اللحظة نفسها أخذت تتمثل من خلال منظورات مختلفة، والنظر إلى لحظة ما إلى الأبد لا يعني النظر إليها أثناء مرور الوقت.

ولهذا ظل جاكوبو ثابتًا، لم يكن يشعر بسقوط أظرف الرصاص التي كانت تتدحرج عند قدميه، ولم ينح البوق جانبًا، ولكنه كان لايزال واضعًا إياه فوق شفتيه، وأصابعه على أزراره، متجمداً في وقفة انتباه، وآلته الموسيقية مصوبة نحو السماء. كان لايزال يعزف.

لم يقطع أي شيء نغمته الطويلة الأخيرة: التي لم تكن مسموعة للحاضرين، إلا أنها كانت مازلت تنبعث من بوقه، مثل التنفس الهين، لفحات هواء كان مازال يرسلها من فتحة الفم للبوق، مثبتًا لسانه جزئيًا بين شفتيه، دون أن يضغط بهما على المعدن. أما الآلة، والتي ظلت معلقة، دون أن ترتاح على وجهه، بواسطة التوتر النابع من مرفقيه وكتفيه فقط.

استمر جاكوبو في الإمساك بتلك النغمة الافتراضية، لأنه كان يشعر أنه في تلك اللحظة يصدر خيطًا يعمل على إيقاف الشمس في مكانها. وأن الكوكب قد توقف في

مساره، وأصبح ثابتًا على وقت منتصف الظهيرة إلى الأبد. وإن كل هذا يعتمد عليه هو، لأنه إذا قطع هذه الصلة، وأسقط هذا الخيط، ستطير الشمس كالبالون ومعها هذا اليوم وأحداثه، هذا الحدث غير المتغير، وهذا التتالي الذي لا بداية له ولا نهاية، والذي كان يتكشف، بلا حراك، حيث كان يتوقف على قدرته هو في أن يرغب هذا وفي أن يفعله. إذا توقف، توقف فقط ليبدأ نغمة جديدة، كانت ستُسمع طلقة، أعلى بكثير من طلقات الرصاص التي أصمت أذنيه، وكانت كل الساعات ستستأنف نبضها المتسارع.

تمنى جاكوبو من كل قلبه ألا يأمر الرجل الواقف بجواره "صفا". يمكنني أن أرفض ـ قال لنفسه ـ وأن أظل هكذا إلى الأبد.

لقد دخل في تلك الحالة من النشوة التي تسيطر على الغطاس عندما لا يحاول الصعود مرة أخرى إلى سطح المياه، عندما تمتلكه الرغبة في مد حركة القصور الذاتي التي تسمح له بأن يتزحلق في قاع المحيط. عندما حاول بيلبو، في دفتره الذي كنت أقرأه، أن يعبر عما شعر به آنذاك، نتج ذلك في عبارات غير واضحة، ملتوية، والتي تحولت إلى صف من النقاط. ولكن كان من الواضح في تلك اللحظة، حتى إن لم يصرح بذلك: في تلك اللحظة فقط شعر بأنه امتلك شيشيليا.

ولكن ما لم يفهمه بيلبو في تلك الحظة، ولا حتى في اللحظات التي كان يكتب فيها عن نفسه دون أن يعرف ـ أنه في تلك اللحظة كان يحتفل، مرة واحدة بكل الزيجات الكيمائية: مع شيشيليا، ومع لورينزا، مع صوفيا، مع الأرض ومع السماء. كان الوحيد، ربما بين البشر، الذي استطاع أن يستكمل العمل العظيم.

لم يقل له أحد أيضًا إن الجرال مع كونه كأسا هو أيضًا رمح، وبوقه المرفوع كأنه نخب الكأس كان في الوقت نفسه سلاح، آلة ذات سيطرة شديدة العذوبة، تطلق رمحها نحو السماء وتربط الأرض بالقطب الغامض. بالنقطة الثابتة الوحيدة في الكون، بذلك الذي خلقه هو، بهذه اللحظة وحدها، بنفخه البوق.

لم يكن ديوتالليفي قد أخبره بعد كيف يمكن للمرء أن يكون في "يسود"، التجلي النوراني للأساس، علامة التحالف للقوس الأعلى الذي يميل إلى إرسال سهامه إلى ملكوت، وهو هدفه. "يسود" هو القطرة التي تقطر من السهم لتنتج الشجرة والثمرة، إنها روح العالم، لأنها تلك اللحظة التي تربط فيها قوى الرجولة، من خلال الإنجاب، بين كل حالات الوجود.

إن معرفة كيفية غزل حزام فينوس تعني إصلاح خطأ الدميورج.

كيف يمكن للمرء أن يقضي حياته باحثًا عن الفرصة المناسبة، دون أن يُدرك أن اللحظة الحاسمة، تلك التي تبرر الميلاد والموت، قد حدثت بالفعل؟ لن تعود مرة أخرى، ولكنها حدثت بالفعل، بتمامها وكمالها، بغناها وسخائها مثل أي لحظة كشف وإعلان.

في ذلك اليوم حدق جاكوبو بيلبو في أعين الحقيقة. الحقيقة الوحيدة المقدر لها أن تُقدم له. لأنه ـ سيتعلم ـ أن الحقيقة وجيزة (ما يحدث بعد ذلك ليست سوى تعقيبات). لذلك حاول أن يوقف تقدم الزمن.

لم يفهم، كطفل، ولا كمراهق عندما كان يكتب عن هذا الحدث. ولم يفهم حتى كشخص راشد عندما قرر أن يتخلى عن الكتابة عنه.

فهمت في ذلك المساء حقيقة: لابد للمؤلف أن يموت حتى يستطيع القارئ أن يدرك حقيقته.

إن هاجس البندول، الذي كان يرافق بيلبو طيلة حياته الراشدة، كان، مثل مؤشرات الحلم الضائعة، إنما كان صورة لتلك اللحظة الأخرى، التي تم تسجيلها ثم انتزعها، وفيها لابد وأن يكون قد لمس بالفعل وجه العالم. كانت اللحظة التي استطاع فيها تجميد المكان والزمان، وصوب سهم زينون، لم تكن علامة ولا عرض، لم تكن وهمًا ولا مجازًا ولا لغزًا: كانت ما كانت عليه ولم تكن شيئًا آخر، اللحظة التي لا يمكن تأجيلها، والتي حسمت كل الأوراق.

لم يفهم جاكوبو بيلبو أنه قد تمتع بالفعل بلحظته تلك، وأن هذه اللحظة كان يمكن أن تكفيه حياته كلها. لم يتعرف عليها، بل قضى حياته كلها يبحث عن لحظة أخرى حتى دمر نفسه. ربما كان يشك في حقيقتها، وإلا لماذا كان يردد كثيرًا ويتذكر حكاية البوق. ولكنه كان يذكرها كشيء مفقود، بينما كانت في الحقيقة ملكه.

أعتقد وأتمنى وأتضرع أن يكون جاكوبو بيلبو، في اللحظة التي كان فيها يحتضر وهو يتأرجح على البندول، قد أدرك هذا وعثر على السلام.

ثم أمر القائد "بالصفا". كان لابد له أن يستسلم في كل الأحوال، لأنه كان قد فقد أنفاسه. قطع الاتصال، ثم عزف نغمة واحدة، عالية وذات كثافة تصاعدية، بعذوبة، ليعتاد العالم على الحزن الذي كان بانتظاره.

قال القائد: أحسنت أيها الشاب. يمكنك أن تذهب الآن. بوق جميل.

انسحب الكاهن، وخرج الفدائيون من الباب الخلفي حيث تنتظرهم سيارتهم، رحل حفارو القبور بعد أن ملأوا المقبرتين. كان جاكوبو الأخير في الذهاب. لم يستطع أن يحمل نفسه على ترك ذلك المكان من فرط السعادة.

وعندما نزل إلى الفناء أسفل الهضبة، كانت سيارة النقل التابعة لصالة الأبرشية قد رحلت.

سأل بيلبو نفسه لماذا هجره دون تيكو بهذه الطريقة. بعد فترة من الزمن، كانت الإجابة المحتملة هي أنه قد حدث سوء فهم ما؛ أحدهم قد أخبر دون تيكو بأن الفدائيين سيصطحبون الصبي معهم إلى القرية. ولكن جاكوبو في تلك اللحظة فكر ـ وكان لهذا سبب منطقي ـ أن الفترة بين "الانتباه" و"الصفا" كانت ممتدة لعدة دهور، انتظره فيها الأولاد حتى شابوا، حتى وافتهم المنية، بل حتى تحللت أجسادهم وتحولت إلى أتربة تتناثر لتكون الضباب الذي يحول أمام عينيه الآن المساحات الشاسعة للهضاب إلى اللون الأزرق.

كان يقف وحده. وخلفه تقبع المقابر خالية. كان البوق بين يديه. وأمامه كانت الهضاب تختفي ويتحول لونها من أزرق إلى أزرق، الواحد تلو الآخر، في لانهائية من المرتفعات. وفوق رأسه كانت الشمس المتحررة تقف منتقمة.

قرر عندئذ أن ينخرط في البكاء.

لكن فجأة ظهرت عربة نقل الموتى، وسائقها الذي كان يرتدي، مثل أحد قادة الإمبراطور، اللون الأصفر الشاحب والفضي والأسود، والخيول التي تعلو وجوهها الأقنعة البربرية التي تركت فقط عيونها مرئية، تغطيهم الرحل كالأكفان، بالألوان البيضاء والذهبية. توقف الرجل ذو القبعة ذات القرون لحظة أمام عازف البوق المتوحد، وسأله جاكوبو: هل ستأخذني إلى منزلي؟

كان الرجل طيبا. صعد بيلبو بجواره وجلس على الصندوق، وهكذا بدأ رحلة العودة إلى أرض الأحياء في عربة نقل الموتى. أخذ الخارون[١٦] الإغريقي الصامت يقود خيوله

(١٦) الخارون من شخصيات الميثالوجيا اليونانية ويعتقد أنه مصري الأصل، وقد أصبح رمزًا لعالم الموت.

للهبوط بين المنحدرات، بينما كان جاكوبو جالسًا مستقيمًا وجادًا، قابضًا على البوق تحت ذراعه، مقدمته لامعة، مستغرقًا في دوره الجديد، الذي لم يكن لديه أي أمل في الحصول عليه.

استمرا في رحلة النزول، وأمام كل منحنى كان هناك منظر جديد يُفتح من الكروم التي كستها الزرقة من الزنجار في ضوء النهار، وبعد فترة طويلة وصلا إلى***. عبرا الميدان الكبير، المهجور تمامًا، مثلما يمكن أن تكون عليه ميادين القرى في مونفيراتو الساعة الثانية بعد الظهر، في يوم الأحد. رأى أحد زملاء الدراسة بيلبو جالسًا على عربة نقل الموتى ممسكًا بالبوق أسفل ذراعه، وعيناه مثبتتان إلى ما لانهاية، ومنحه تحية إعجاب.

عاد جاكوبو إلى المنزل، ولكنه لم يتمكن من تناول أي طعام، وأن يحكي أي شيء. جلس في التراس وبدأ يعزف البوق وكأنه بوق أخرس، وهو ينفخ برقة كي لا يزعج أحدًا في فترة القيلولة الهادئة.

لحق به أبوه، وبلا أي نوايا سيئة، وبتفاؤل من يعلم قوانين الحياة، قال له: خلال شهر من الآن، وإذا سار كل شيء على ما يرام، سنعود إلى المنزل. لا يمكن أن تفكر في عزف البوق في المدينة، إذ قد يتسبب هذا في طردنا من منزلنا. حاول إذن أن تنساه. وإذا كنت ترغب بالفعل في تعلم الموسيقى، سنعمل على أن تبدأ دروسًا في تعلم العزف على البيانو.

ثم عندما رأى عينيه وقد امتلئتا بالدموع قال له: لا تبك، ألم تدرك بعد أن الفترة العصيبة قد انتهت؟

في اليوم التالي، أعاد جاكوبو البوق إلى دون تيكو. بعد ذلك بأسبوعين تركت الأسرة*** لتبدأ الحياة المستقبلية.

(١٠)

ملكـوت

Malkut

(١٢٠)

الشيء الذي يحزنني بشدة هو أنني في الواقع أرى بعض اللا معنى والجنون لدى ممارسي العبادات الوثنية، والذين ... من خلال تقليدهم لروعة الديانات الفرعونية: يبحثون عن القداسة ـ بلا سبب على الإطلاق ـ في غائط الأشياء الميتة، والتي لا روح لها، وهم بكل ممارساتهم هذه يسخرون، ليس فقط من تلك المقدسات وعبادتها ولكنهم يسخرون منا نحن أيضًا... والأسوأ أنهم ينتصرون عندما يرون ممارساتهم المجنونة تلك وقد نالت شهرة كبيرة....

قالت إيزيس: لا تزعج نفسك بكل هذا يا مومُوس، لأن القدر قد أمر بتقلب الظلام والنور.

أجاب مومُوس: ولكن الشر يكمن في أنهم واثقون من كونهم في النور.

(Giordano Bruno, Spaccio della Bestia Trionfante, 3)

لابد وأن أكون في سلام الآن، فقد فهمت. ألم يقل أحدهم إن الخلاص يأتي عندما يصل المرء إلى كمال المعرفة؟

لقد فهمت. لابد وأن أكون في حالة سلام. من قال إن السلام ينبع من التأمل في النظام، من النظام المفهوم، الممتع، المتحقق بلا رواسب، في الفرح والانتصار، في انتهاء السعي؟ كل شيء واضح، جلي، والعين ترى الجزء والكل، وترى كيف أن الأجزاء يمكن أن تتآمر على الكل، تستولي على المركز الذي تجري الدماء، والأنفاس وجذور التساؤلات...

لابد وأن أكون في سلام تام. من نافذة مكتب العم كارلو أنظر إلى الهضبة، وذلك الجزء الصغير من القمر الذي يوشك على الظهور. المنحنى المتسع للبريكو، والنتوءات الأكثر بروزًا للتلال خلفه، والتي تحكي قصة الحركات البطيئة والنعسة للأرض الأم، والتي من خلال تمطعها وتثاؤبها تخلق وتمحو أسطحًا زرقاء في الوميض المفزع لمئات البراكين. تحركت الأرض أثناء نومها وبدلت سطحا بآخر. وحل الماس حيث كانت ترعى الأصداف. والكروم حيث كان ينمو الماس. إنه منطق الركام، انهيار الصخور، وانهيار الكتل الثلجية. إذا نزعت حصى من مكانه، بالصدفة، يبدأ في الحركة، يتدحرج إلى أسفل، ويترك مكانًا أثناء الهبوط (آه رعب الفراغ)، ويقع آخر فوقه، ثم يليه آخر. أسطح من أسطح فوق أسطح. إنها حكمة الأرض. وحكمة ليا. إن الهاوية هي التيار السفلي للأرض المنبسطة. لماذا يعبد أي شخص التيار السفلي؟

لماذا لا يمنح لي الفهم السلام؟ لماذا يحب المرء القدر، الذي سيقتله تمامًا كما تفعل العناية، ومؤامرة الآراخنة؟ ربما لم أفهم بعد كل شيء، ربما مازال ينقصني فراغ ما، وقفة.

أين قرأت أنه في اللحظة النهائية، عندما تصبح الحياة، سطحا وراء الآخر، محشوة بالخبرات، وتعرف كل شيء: السر، القدرة والمجد، لماذا ولدت، ولماذا تموت، وكيف كان يمكن لكل شيء أن يسير بطريقة مختلفة؟ تصبح حكيمًا. ولكن الحكمة الكبرى، في تلك اللحظة، هي معرفة أنك عرفت كل هذا متأخرا جدًا. يفهم المرء كل شيء عندما لا يعد هناك شيء آخر يحتاج للفهم.

الآن أعرف ما هو قانون المملكة، قانون الملكوت الفقير والبائس والممزق، والذي إليه نُفيت الحكمة، تتحسس طريقها في محاولة العثور على بريقها المفقود. إن حقيقة ملكوت، الحقيقة الوحيدة التي تلمع في ليل التجليات النورانية، أن الحكمة اكتشفت عريها في ملكوت، واكتشفت أن غموضها يكمن في عدم الوجود، إلا في لحظة واحدة، اللحظة الأخيرة. ثم يبدأ الآخرون.

ومع الآخرين ، عبدة الشيطان، بحثا عن أغوار يختبئ فيها السر الذي هو جنونهم.

بمحازاة منحنيات البريكو تصطف خطوط الكروم. أعرفها، رأيتها من قبل في طفولتي. لا يوجد أي نظام عددي يمكنه أن يخبر إذا كانت في نظام تصاعدي أم تنازلي. في وسط الصفوف، ولكن لابد وأن تسير عاري القدمين بكعبي الطفولة التي ظهرت عليها بعض التشققات، توجد أشجار الخوخ. ثمار خوخ صفراء تنمو فقط بين صفوف الكروم، تُفتح بمجرد ضغطة من الإبهام، وتخرج نواها بسهولة، نظيف وكأنه تم معالجته كيميائيًا، إلا إن كان هناك دودة بيضاء دهنية تظل ملتصقة بها وقتا وجيزا. يمكنك أن تأكلها دون أن تشعر بالملمس المخملي الذي عادة ما يتسبب في شعور بالقشعريرة يبدأ من اللسان ويصل إلى الأضلاع. في زمن ما كانت الديناصورات ترعى في هذا المكان، ثم غطى سطح آخر سطحهم. إلا أن ما كان يحدث عندما أقضم الثمرة، مثلما حدث مع بيلبو وهو يعزف البوق، كنت أشعر بأنني أفهم المملكة، وأشعر بأنني في اتحاد معها. ما يحدث بعد ذلك ليس إلا حبكة. فلتخترع، فلتختلق الخطة يا كازاوبون، هذا ما فعله الجميع، ليفسروا الديناصورات والخوخ.

لقد فهمت. الثقة بأنه لم يكن هناك شيء آخر لأفهمه، لابد أن هذا سر سلامي وانتصاري. ولكنني أجلس هنا وقد فهمت كل شيء، وهم يبحثون عني، معتقدين بأنني أمتلك الكشف الذي لا يرضون عنه بديلا. لا يكفي أن يفهم المرء إذا رفض الآخرون ذلك واستمروا في السؤال. إنهم يبحثون عني، لابد وأنهم قد عثروا على أثري في

باريس، ويعلمون أنني هنا، مازالوا يريدون الخريطة. عندما سأقول لهم إنه لا وجود لأي خريطة، سيرغبون فيها أكثر. كان بيلبو على حق: لتذهب إلى الجحيم أيها المجنون، ماذا تريد أن تفعل؟ أن تقتلني؟ فلتقتلني إذن، ولكنني لن أخبرك أنه لا وجود للخريطة، إذا لم تستطع أن تفهم هذه الحقيقة بمفردك، لا فائدة...

أشعر بألم عند التفكير بأنني لن أرى ليا وطفلي مرة أخرى، الشيء، جوليو، حجري الفلسفي. ولكن الأحجار تعيش وحدها. ربما يعيش في فرصته، ربما عثر الآن على كرة، أو نملة أو خيط من الأعشاب، وأخذ يتطلع إلى الفردوس من قلب الهاوية. هو أيضًا سيعرف هذا متأخرًا جدًا. سيكون ولدًا طيبًا، ومن الأفضل، أن يقضي يومه هكذا، وحده.

يا للشقاء! مازلت أشعر بالألم. صبرًا، بمجرد أن أموت سأنسى كل شيء عنه.

إنها الآن ساعة متأخرة من الليل، فقد تركت باريس هذا الصباح، وتركت خلفي أثارًا كثيرة. لابد وأنهم قد أدركوا الآن أين أنا. بعد قليل سيصلون إلى هنا. أريد أن أنتهي من تدوين كل ما فكرت فيه من تلك الظهيرة إلى الآن. ولكن إذا قرأوها هم سيستنتجون منها نظرية أخرى وسيقضون حياة أبدية أخرى في محاولة فك شفرات الرسالة السرية التي تخفيها قصتي. سيقولون لأنفسهم إنه من المستحيل أن يحكي لنا كيف أنه من البداية كان يسخر منا، بل ربما لم يكن هو يعرف أي شيء، ولكن لابد من أن "الوجود" يرسل لنا رسالة من خلال نسيانه.

أن أكتب أو لا أكتب، لن تصنع كتاباتي أي فارق. لأنهم سوف يبحثون عن معاني أخرى، حتى في صمتي. هذه جبلتهم. إنهم أمام التجلي لا يبصرون. الملكوت هو الملكوت، وهذا يكفي.

ولكن اذهب وقل لهم هذا. سوف تجدهم قوما لا يؤمنون.

ومن ثم فمن الأفضل أن أمكث هنا، أنتظر وأنظر إلى التل.

كم هو جميل.

المؤلف فى سطور

أومبرتو إيكو، مواليد مدينة آليساندريا الإيطالية، عام ١٩٣٢

أستاذ السيميوطيقا ورئيس المدرسة العليا للدراسات الإنسانية في جامعة بولونيا، وأحد أهم نقاد السيميوطيقا في العالم.

حاول أبوه أن يدفعه على دراسة المحاماة، ولكنه رفض والتحق بجامعة تورينو التي درس بها فلسفة العصور الوسطى وآدابها، وأعد أطروحته عن توماس الأكويني.

التحق بالعديد من الوظائف ومنها مدير تحرير في دار نشر بومبياني في الفترة من ١٩٥٩ إلى ١٩٧٥. وفي عام ١٩٦١ بدأ العمل في المجال الأكاديمي. أسس عام ١٩٧١ مجلة سلسلة الدراسات السيميوطيقية، ويشغل حتى اليوم منصب مديرها التنفيذي وأحد أعضاء اللجنة العلمية فيها.

حازت روايته الأولى "اسم الوردة" ١٩٨٠، على نجاح شديد وتُرجمت إلى عدة لغات. صدر له بعدها رواية بندول فوكو عام ١٩٨٨، وتلتها ثلاث روايات: جزيرة اليوم السابق، باودولينو، والشعلة الغامضة للملكة ليونا، والتي صدرت عام ٢٠٠٤.

المترجمة فى سطور

أماني فوزي حبشي، دكتوراه في الأدب الإيطالي من كلية الألسن، جامعة عين شمس. حصلت على الجائزة الوطنية للترجمة من وزارة الثقافة الإيطالية عام ٢٠٠٣ على مجمل ترجماتها من الإيطالية إلى العربية.

من ترجماتها: إيزابيللا وثلاثة مراكب ومحتال لداريو فو ١٩٩٧، اذهب حيث يقودك قلبك لسوزانا تامارو ١٩٩٨، بيرانيدللو على خشبة المسرح - لويجي سكوارتزينا ٢٠٠٣، القلب السمين (للأطفال) تأليف سوزانا تامارو، شجاعة طائر الحناء لماوريتزيو ماجاني عام ٢٠٠٦، ثلاثية أسلافنا لإيتالو كالفينو (تحت الطبع).

المراجع فى سطور

حسين محمود، أستاذ مساعد اللغة الإيطالية ورئيس قسمها بكلية الآداب، جامعة حلوان. ناقد أدبي لمجلات عربية ومصرية (مقالات نقدية حول الأدبين العربي والعالمي)، صحفي حر، وعضو هيئة تحرير بيبليوجرافيا الأدب الإيطالي العالمية ـ دار نشر ساليرنو ـ روما، له أعمال عديدة بالعربية والإيطالية منها: "صورة محمد في الإعلام الإيطالي" ، "موقف النقد الأدبي العربي من إبداع الكاتبات اليمنيات"، "التأثير الثقافي للأدب الإيطالي على الأدب العربي"، "الكتاب المهاجرون العرب في إيطاليا". ومن ترجماته إلى اللغة العربية: "السيدة لا تصلح إلا للرمي ـ داريو فو" و"الإسلام، ذلك المجهول في الغرب ـ ريتا دي ميليو"، "يسوع الناصري ـ جوزيف راتزنجر" و "محادثة في صقلية ـ إليو فيتوريني" و"الدمعة الأخيرة ـ ستفانو بيني".

المحتويات

فهرس الصور

التصحيح اللغوى: أيمن صابر.
الإشراف الفنى: حسن كامل.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

"بندول فوكو" هي الرواية التي ربما وضعت أومبرتو إيكو في أزمة الدفاع عن أعماله، أمام جمهرة من النقاد والقراء ينتظرون منه دائما "اسم الوردة" وأن تكون كل أعماله مثلها، رغم استحالة هذا، لكن التجديد الذي قدمته "اسم الوردة" لا يزال موجودا في "بندول فوكو" وسوف تظل بصمته ولوقت طويل على الأعمال الروائية في العالم قاطبة. ربما ينعون على إيكو شيئا من الغموض، ولكنه غموض مقصود، على الأقل في هذه الرواية، لأنه كان هو الموضوع الجوهري لعمله. كما ينعون عليه بعض الصعوبة، وغياب "الخفة"، وهذا أيضا صحيح، إذا استطعت كقارئ أن تنجح في تجاوز المائة صفحة الأولى، فقد نجوت، بل وفزت أيضا، فزت بمتعة فنية وعقلية ذكية ليس لها مثيل، وإلا فابحث عن أعمال أقل صعوبة وأقل في معايير أخرى كثيرة.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح